الجمهوريه الجزائريه الديمقراطيه الشعبيه

جامعة باتنة1 -الحاج لخضر –
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التـــاريخ وعلم الآثــار

الـواقـع الاجتماعي والثقـافي للمســتوطنيــن الأوروبييـن في الجزائــر (1871-1945) وأثره على الأهالي المسلــمين

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التــاريخ

تخصص: التــاريخ الحديــث والمعــاصر

إعداد الطـالب:
زيـــاني فاتــح

إشراف الأستـاذ الدكتور:
غيـــلاني الســبتي

لجنة المناقشة			
الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
علي آجقو	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة باتنة 1
السبتي غيلاني	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة باتنة 1
سليمان قريري	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة باتنة 1
بلقاسم ميسوم	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة بسكرة
لخميسي فرّيح	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة بسكرة
محمد قن	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة الجلفة

السنة الجامعية: 2021/2020

شكر وعرفان

أحمد الله رب العالمين الذي وفقني لإنجاز هذا العمل

شكرا لكل من قدّم لي يد المساعدة و العون من قريب أومن بعيد أساتذة ،عمال الجامعة وأعوان المكتبات الولائية والوطنية ،زملاء ،وأصدقاء.

الشكر الخاص والموصول للأستاذ المشرف على صبره ومرافقته وعلى نصائحه القيّمة

مختصرات البحث

الأرشيف الوطني لماوراء البحار	ANOM:
دون تاريخ للنشر	SD :
الحكومة العامة للجزائر	GGA :

مقـــدمة

أولا:التعـريف بالموضـــوع وأهداف الدراسة

اعتمدت سياسة الاحتلال الفرنسي في الميدان الاجتماعي على مبدأ أساسي ، وهو تشجيع هجرة الأوروبيين من مختلف أنحاء أوروبا ،وتوطينهم في الجزائرمعتمدة في ذلك على استراتجية أساسها اجتثاث الأمة الجزائرية بكل مقوماتها الحضارية ورموزها الوطنية وإحلال محلها مجموعات بشرية من مختلف القوميات والإثنيات الأوروبية ،المتباينة والمتنافرة في عاداتها وتقاليدها ولغاتها وحتى في دياناتها ،ومن ثمة صهرها ودمجها في أمة واحدة ،يكون ولإؤها لفرنسا ، وينحصر دورها في تعمير الأرض،وخدمة المصالح الكبرى للاحتلال الفرنسي .

ولما كانت الأرض المسألة الأولى التي قام عليها الاحتلال الفرنسي وجوهر العملية الاستيطانية شكّل الحصول على الأراضي وسيلة لكسب الشرعية في البقاء وفضاء جغرافيا لإسكان غزاة جدد محل الأرض المنزوعة ،ولذلك قامت السياسة الاستيطانية الفرنسية على مبدأين أساسيين ، وهما، استعمال كل الوسائل ووضع كل التسهيلات لهجرة الأوروبيين من مختلف المناطق (إيطاليا،مالطا اسبانيا ...) ومن ثم توطينهم ،وقد اكتست تلك الهجرات طابعا دائما ومؤقتا فرديا وجماعيا، هذا من جهة،ومن جهة ثانية مصادرة أراضي السكان الأصليين بشتى الطرق القانونية وغير القانونية ،وبالعنف، والإكراه، والإغراء، الشراء،الطرد...

لقد قام المشروع الاجتماعي والثقافي للمحتل الفرنسي على فرضية دمج المجموعات البشرية المتعددة الأعراق وصهرها في منظومته الاجتماعية والثقافية ،وإذابة كل تلك الخصوصيات والسلوكيات والثقافات المتعددة في ثقافته الوطنية .ومن جهتها تأسست العلاقة الاجتماعية لهؤلاء المستوطنين الجدد بالسكان المحليين على منطقاالإبادة والنفي،وتشكلت ثقافتهم على الخطاب الإقصائي والعنصري التهميشي وممارسة السيادة الأبوية على الأهلي المغلوب .

ومع استحالة بناء منظومة علائقية أساسها تعايش الأنا مع الآخر،وفي ظل اعتماد العنصر الاستيطاني في بقائه على مبدأ زوال الأهلي واندثاره،وعلى جدلية الصراع الفكري والأخلاقي بين الثقافتين والذهنيتين المختلفتين ،نشأ مجتمع المستوطنين وتشكلت ثقافتهم ، والتي استمرت

طيلة وجودهم في الجزائر،بكل تنوعها وتناقضاتها واختلاف إديولوجياتها ومشاربها الفكرية ، والتي بقدر ما كانت ثقافة دخيلة . ،كانت كذلك ثقافة جديدة شكلت موروثا اجتماعيا وثقافيا جديدا

ومن هذا المنطلق تكمن أهمية هذا الموضوع وأبعاد البحث فيه ، ولعل دراسة هذا الجانب من تاريخ الجزائر الاجتماعي والثقافي في العصر الحديث يعد عملا سيوضح ولو بشكل متواضع طبيعة وأهمية الوجود الأوروبي في الجزائر،ويعرفنا بمدى تأثر وتأثير واقعهم الاجتماعي على المجتمع الأهلي المسلم والعكس ، ويبرز حقيقة التأثير والتأثر بين ثقافتهم الجديدة وثقافة الأهالي ،سواء أكانت ثقافة مبنية على التصادم أوالتفاعل والتلاقي.

-كما تكمن أهميته في إبراز أشكال العلاقة بين المستوطنين والأهالي المسلمين ،وطبيعة مواقفهم من الأهالي ،والتعرّف على ممارستهم المختلفة على الأهالي ،وبالمقابل ردود الفعل الاجتماعية والثقافية للأهالي لتلك الممارسات الاجتماعية والثقافية .

ثانيا:دوافـع الموضــوع وأسباب اختياره

تعود أسباب اختياري لهذا الموضوع ،دون غيره بالتحديد إلى جملة من الدوافع الذاتية والموضوعية ،والتي يمكن تقسيمها إلى :

أ-الأسباب الذاتية ،والمتمثلة في:

- ميولي للدراسات الاجتماعية والثقافية ،وتفضيلي للتاريخ الاجتماعي والثقافي.

-رغبة مني في تجربة علمية جديدة ،تتطرق إلى معرفة الجوانب الاجتماعية والثقافية، وأسرار الحياة العامة للمستوطنين وعلاقتهم بالمجتمع الجزائري إبان الحكم الفرنسي للجزائر وهي تجربة تختلف عن موضوع الماجيستير الذي كان سياسيا وحول الثورة.

ب- الأسباب الموضوعية :

-إن موضوع الاستيطان والمستوطنين في الجزائر ،هو موضوع لم يلق الاهتمام الكافي و لا الدراسة الكافية ،وبقدر ما هو موضوع اجتماعي وثقافي ،فهو موضوع يتصل مباشرة بالجوانب الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي .ومن ثم ارتأيت دراسة هذا

الجانب المهم من التاريخ الجزائري الحديث،لتزويد طلابنا ببعض المعارف والحقائق حول بنية هذا المجتمع الأوروبي الذي عاش مع آبائنا وأجدادنا طيلة 132سنة ، التعريف بثقافته وعاداته وسلوكياته والأهم من ذلك علاقته وتعامله مع المجتمع الجزائري.

ثالثا:إشـكالية الـدراسـة

عطفا على ما سبق،وفي محاولة لتحليل عنوان الموضوع والتعمق فيه ،وضعت الإشكالية الرئيسية،والمتمثلة في: ما واقع المجتمع والحياة الثقافية للمستوطنين الأووبيين في الجزائر، ومدى تأثيرذلك على المسلمين الجزائريين خلال الفترة الممتدة 1871-1945. وللإحاطة بهذه الإشكالية وتحليلها ،قمت بتوسيعها عبر طرح مجموعة من الأسئلة الفرعية، وهي:

-كيف كانت بدايات الاستيطان الأوروبي في الجزائر ،ومراحله ودور الاحتلال الفرنسي في تثبيته؟

-ماخصائص واقع الحياة الاجتماعية والثقافية للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر ،وما انعكاسات ذلك على الأهالي المسلمين .

وما مدى التأثير و التأثر بين ثقافتهم و ثقافة المسلمين الأهالي الأصلية؟

-ما مدى تأثير المؤسسات الاجتماعية والثقافية كالمدرسة والمؤسسة الطبية والصحافة والقضاء على الحياة الاجتماعية والثقافية للمجموعتين (الأوروبية –الأهلية)في الجزائر .

رابعا:الهيكل العام للموضوع

للإجابة عن الإشكالية الرئيسية وتفرعاتها ،وللإحاطة الموسعة بالموضوع ،فقد عملت وفق خطة تتألف من مقدمة ،وأربعة فصول رئيسية :

- الفصل الأول

حمل عنوان السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر ما بين (1830-1870)،كسياسة فرنسية لتثبيت الاستيطان ،وتوطين الأوروبيين في الجزائر،وقد قسمت الفصل إلى أربعة مباحث ،حيث تطرقت في الفصل الأول إلى هجرة الأوروبيين نحو الجزائر ما بين 1830-1870 ،متناولا

المسارات والتحديات التي واجهت رحلة الأوروبيين نحو الجزائر ،والمناطق الكبرى التي هاجر الأوروبيون منها نحو الجزائر ، مبرزا توزيع الجنسيات ونوعها والمناطق التي استوطنت فيها .أما المبحث الثاني ،فقد حمل عنوان تطور السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر وأهدافها مابين 1830- 1945،متناولا مراحل الاستيطان ودور الاحتلال الفرنسي في تثبيت أركانه ومظاهر الدعم الفرنسي لاستقرار الأوروبيين ،بدءا من الجهود الأولى لإدارة الاحتلال في تعمير الجزائر خلال السنوات الأولى ،مرورا بالدور الهام للجنرال بيجو ومن بعده نابليون الثالث في دعم الاستيطان الرسمي (الممول من الاحتلال)،انتهاء بالدور الكبير للجمهورية الثالثة في تثبيت الاستيطان بشكل نهائي. أما المبحث الثالث فقد جاء بعنوان المراكز الاستيطانية الكبرى في الجزائر ،أما المبحث الرابع فقد حمل عنوان،آليات نقل الملكية للمستوطنين الأوروبيين ، متطرقا للقوانين والمراسيم والقرارات المختلفة التي أصدرتها سلطات الاحتلال لانتزاع الأراضي من الأهالي ومنحها للأوروبيين ،والنتائج المترتبة عنها .

-الفصل الثاني

جاء بعنوان ،الواقع الاجتماعي للمستوطنين الأوروبيين مابين 1870-1945) ،ومؤلفا من ستة مباحث ،فالأول خصص للدراسة الديموغرافية للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر من حيث مظاهر النمو ،والتوزيع ،والتركيب السكاني.أما الثاني فقد تناول العلاقات بين مكونات المجتمع الأوروبي وفشل نظرية الانصهار العرقي التي اعتمدتها إدارة الاحتلال الفرنسي لدمج الأجناس الأوروبية فيما بينها،والتي آخرها التجنيس الأوتوماتيكي ،والتي آلت معظمها للفشل ،بسبب طبيعة هذا المجتمع غير المتجانس والمتميز بالعنصرية والانفصام وصعوبة التعايش.أما الثالث فقد تناول وضع يهود الجزائر المفرنسين المدمجين عن طريق التجنيس ،وواقعهم داخل المنظومة الأوروبية ومشكلة معاداة السامية. أما الرابع فقد خصص لدارسة الظواهر الاجتماعية والروابط الأسرية داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر من حيث الزواج وتعقيداته ،والطلاق والترمل كظاهرتين اجتماعيتين خطيرتين على المجتمع الاستيطاني ،أما الفصل الخامس فقد تناول واقع الدين ودور الكنيسة في الوسط الأوروبي،أما الأخيرفقد تناول العمارة الأوروبية وتغير نمط العمارة الجزائرية ومظاهر التغيير والتحوير الذي مارسه المهندسون الكولونياليون في العمارة المحلية.

-الفصل الثالث

حمل عنوان ،الواقع الثقافي للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر وأثره على الأهالي المسلمين ما بين (1870-1945)،فقد قُسم إلى خمسِة مباحث ، تناولت في المبحث الأول الأدب الكولونيالي في الجزائر من حيث مدارسه واتجاهاته واهتماماته ،وواقع الأهالي في الخطاب الأدبي الأوروبي ،وتأثيرات ذلك الأدب في نشأة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ،أما المبحث الثاني فقد خصص لدراسة الفنون الجميلة الكولونيالية وأعلامه وصورة الأهالي من خلال لوحات الفنانين الأوروبيين ،وتأثيرات ذلك في بروز المدرسة الجزائرية في الفنون الجميلة ،أما المبحث الثالث فقد تناول المستوطنين والأهالي وفن المسرح ،من حيث النشاة والمحتوى و ولادة المسرح الأهلي كظاهرة فنية مقاومة للوجود الاستعماري .أما المبحث الرابع فقد تناول مشهد الأهالي والأوروبيين في السينما الكولونيالية وتناول الكاميرا بزاوية ذاتية للوقائع الاجتماعية والثقافية للمجموعتين، وكيف استفاد الأهالي من توظيف تلك الأداة السينموغرافية لصناعة سينما جزائرية ثائرة.أما المبحث الأخير فقد تناول احتفالات مستوطني الجزائر بمئوية احتلال الجزائر سنة 1930 وأثرها على الواقع الثقافي للأهالي المسلمين والمواقف الأهلية منها وردود الفعل اتجاهها.

-الفصل الرابع

جاء بعنوان واقع المؤسسات السوسيوثقافية الكولونيالية وأثرها على الحياة العامة للمستوطنين والاهالي،وقد قسمته إلى أربعة مباحث ، المبحث الأول ،تناول واقع المؤسسة الصحية في الجزائر ونتائج العمل الطبي على المستوطنين والأهالي، من حيث ،ظروف العمل الطبي ومجالاته كعلاقة الطبيب الأوروبي بالأهلي،أما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان المستوطنـون والأهالـي في المنظومة التعليمية الفرنسية ،حيث تناولت فيه واقع التعليم الفرنسي في الجزائر تشريعاته المختفلة ،وموقع المتعلم الأهلي والأوروبي في المنظومة التعليمية الاستعمارية ،ومجالات البحث العلمي التي تمركزت حول الإنسان الأهلي برؤيا استعمارية وبخلفية ادماجية .أما المبحث الثالث فقد تناول واقع الأهالي والمستوطنين في ظل جهاز العدالة الفرنسي وتحول هذا الجهاز لأداة للهيمنة ،أما المبحث الرابع فقد خصص لممارسة المستوطنين لوسيلة الإعلام

المكتوب والمسموع،وموقف الصحفي الكولونيالي وطريقة معالجته لواقع المجتمع وحالة الأهالي آنذاك .

خامسا:حـدود الدراسـة

أما فيما يتعلق بحدود الدراسة ،ومجالها الزمني والمكاني فقد استغرقت الفترة الممتدة ما بين 1871-1945وهي تمثل أوّج التوسع الاستيطاني الأوروبي في الجزائر والذي تزامن وحكم المدنيين لفرنسا في عهد الجمهورية الثالثة ،أما الإطار المكاني فقد شمل الجزائر ،على اعتبار أن مسار الدراسة وأحداثها كانت تجري في الجزائر .

سادسا:الدراســات الســابقة

قليلة هي الدراسات المتناولة للشأن الأوروبي في الجزائر ،وخلال عملية البحث في مختلف مراكز ومواقع البحوث الأكاديمية المتخصصة في الشأن الجزائري ،فلم تسبق دراسة لهذا الموضوع بنفس العنوان ولا المنهجية وعلى حد إطلاعي فإنه لا توجد بالعنوان الذي تناولته ،عدا بعض الدراسات الأجنبية والمحلية التي تناولته في مجالات محددة أو بشكل عام والتي أدرجتها كمراجع في دراستي وأهمها:

Catherine Gomez Bellomia**, Construction/reconstruction identitaire dans le discours des pieds noirs : Etude de cas** ,Thèse de doctorat.

فمن جهتها تناولت الباحثة السياق التاريخي والاجتماعي لتشكّل الهوية الجماعية للمجتمع الأوروبي في الجزائر بدءا بالتعريف بالأصول العرقية لهذه الأقليات المشكلة ،ومختلف الشهادات التي أدلى بها عدد من الأقدام السوداء عن الجزائر وعن أشكال حياتهم الاجتماعية وعلاقاتهم مع الأهالي الجزائريين .

-Marie Muyl **,Les français D'Algérie :socio-histoire d'une identité**, Tome1,Thèse doctorat.

أما دراسة الباحثة ماري مويال،فهي دراسة تركزت أكثر على السياق التاريخي للمجتمع الأوروبي في الجزائر من حيث هجراته واستيطانه ونشأته ومميزاته ،وهي دراسة قيّمة أفادتني ،لاسيّما في التعرف على الجانب السيوسولوجي والسيكولوجي للمجتمع الأوروبي

وعموما كلا الدراستين تناولتا الجانب الاجتماعي،ولم تتطرقا للجانب الثقافي .

سابعا:مناهج البـــحث

للإجابة عن التساؤل الرئيسي وتفريعاته كان العمل البحثي من الناحية المنهجية مرتكزا على المنهج التاريخي ،والذي يقوم على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى تمثلت في جمع ورصد وعرض المادة التاريخية المتعلقة بالموضوع ،تتبعها سيرورة التقصّي والسرد والنقد، لتليها المرحلة الثانية المعتمدة على تحليل المادة العلمية المجمعة في كل محطات البحث ،لاسيّما حول التركيبات والسلوكيات الاجتماعية والمظاهر الثقافية ،والعلاقات المتداخلة بين المجموعتين العرقيتين ،وأخيرا المقارنة بين النتائج المحققة ،لمقاربة البحث بالترتيب المنطقي والتسلسل الكرونولوجي للأحداث ،والربط بينها. ومع ذلك فقد كانت الدراسة بحاجة إلى بعض المناهج العلمية الأخرى التي تتقاطع مع علم التاريخ،وتخدمه ،فقد وُظف المنهج الإحصائي والرياضي في عملية تحليل الأرقام الإحصائية حول السكان ،ومن ثم تحويلها إلى أشكال بيانية تسّهل على القارئ تتبع الظواهر الاجتماعية وفهمها .

ثامنا:مصـادر الدراســة وأهم المراجع المعتمدة

مصادر الدراسة ومراجعها الأساسية ،ونظرا لطبيعة الموضوع ،فقد حاولت التنويع بين الوثائق من ناحية وبين الدراسات العربية والفرنسية معا من جهة اخرى ،ولعل أهم تلك المصادر الأساسية :

-مصطفى الأشرف ،بمؤلفه الموسوم:الجزائر الأمة والمجتمع،والذي هو في العادة كتابة تاريخية شكلت للعديد من الباحثين مصدرا للمعلومة التاريخية لا سيما في الفترة المتأخرة من الحقبة الاستعمارية ،ولا أدعي أنه يتصف بالموضوعية التامة ،إلا أنه يعد شاهد عصر ساعدني في فهم نفسية المستوطنين وعقليتهم ونظرتهم للأهالي.

-فرحات عباس ، بمؤلفه الموسوم ،الشاب الجزائري،والذي عُد ذو قيمة تاريخية ،ومصدر مهم لي ،فقد أفادني ولو قليلا ،لا سيما فيما يتعلق بالحياة الطلابية وعلاقة الطلبة المسلمين بأقرنائهم الأوروبيين ووضعهم في المدراس و الجامعات.

أما بالفرنسية فقد ساعدتني بعض الوثائق الأرشيفية ،ولا سيما التي تخص الاستيطان ، ومصادرة الأراضي ،والقوانين العقارية والأحكام القضائية . وأهمها:

1-Commission de L'Algérie , Séance du 13 Décembre 1869, SHAT, N° de cote GR1H, 238.

2-Lettre du l'empereur napoléon aux membres du gouvernement, Signé à St-Cloud, le 08Aout 1869, SHAT, N°92303,17/18,GR1H 238.

3-Sénatus-Consulte réglant la constitution de l'Algérie Rendu en exécution de l'article 27 de la constitution de l'empire ,projet de la commission instituée par décision impériale du 05Mai 1869,SHAT ,N°de cote GR1H238.

إلى جانب التقارير الخاصة بالحكومة العامة للجزائر،والتي نذكر منها :

1-Rapport de recteur de L'Académie d'AlgerSituation de L'enseignement pendant l'année scolaire 1907-1908.

2 Bulletin Officiel de L'Association amicale et de prévoyance des magistrats des tribunaux civils de ressort de la cour d'appel d'Alger ,1ere Année , N°3,4eme trimestre .

3-Bulletin des lois N°208, 1854,2^{er} trimestre, partie principal.

4-Rapport du commissariat général du centenaire **« Le Centenaire d'Algérie »,**exposé d'ensemble par Gustave Mercier,Tome 1.

و بشكل عام قدمت لي هذه التقارير وغيرها معلومات مفيدة ،وزودتني ببعض الإحصائيات والأرقام فيما يتعلق بالوضع العام في الجزائر المحتلة ،وبالحياة الإدارية والاجتماعية والثقافية للمجموعتين الأوروبية والمسلمة .

إلى جانب جملة من المصادر الأخرى ،وفي مقدمتها نجد:

-Emile Bertherand ,**Hygiène de Colon En Algérie**.

ساعدني هذا المصدر في التعرف على الظروف المحيطة بحياة المستوطنين الأوائل ،وعلى الخدمات والنصائح التي قدمها الأطباء بعد تأقلمهم مع الحياة الجديدة في الجزائر،وعلى الرغم من قلة صفحاته إلا أنه يعد ذو قيمة علمية تساعد الباحث في التعرف على الواقع الصحي آنذاك

- René Ricoux , **Démographie Figurée de l'Algérie** ,Etude statistique des populations européennes qui habitent l'Algérie

يعد هذا المؤلف مصدرا مهما لما يحتويه من جداول إحصائية وشروحات وتحليلات عن الأوضاع الاجتماعية من حيث المواليد والوفيات والتعداد السكاني ...،فهو مصدر مهم أفادني كثيرا في فهم الواقع الاجتماعي للمستوطنين والأهالي ،وفي إنجاز البحث

-François Ducung, **les villages départementaux en Algérie**.

-Octave Teissier,**Algérie, Géographie,Histoire,Statistique, description des villes ,villages et hameaux ,organisation des tribus ,nomenclature des khalifaliks ,aghaliks,et kaidats** .

يعد كلا المصدرين ، دليلين معرفيين ساعداني على التعرف على نشأة المستوطنات في الجزائر ،وعلى مراحل التوطين ،وظهور هذه المستوطنات في كل العمالات الجزائرية.

- Henri Dagan, **Enquête sur l'antisémitisme**.

- Bernard Lazare , **L'Antisémitisme, son histoire et ses causes** .

استعملت هذه المصادر ،وأخرى مشابهة لها في التعرف على حياة اليهود المتجنسين في الجزائر و علاقتهم بالمستوطنين التي كانت تتأرجح بين التعايش والعداء.

إلى جانب مصادر أخرى أما المر اجع،فقد اعتمدت على عدة مراجع ودراسات ،أهمها:

- ايفون تيران ،**المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة ،المدارس والممارسات الطبية والدين1830-1880**.

يعد هذا المؤلف ،عملا مهما للدراسة ،بحيث استقيت منه معلومات قيّمة ،خاصة فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي من حيث التعليم والصحة والعمل الديني.

-يحياوي مرابط مسعودة،**المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين حقائق وإيديولوجيات وأساطير ونمطيات**.

أفادتني الأستاذة يحياوي مرابط كثيرا من خلال مؤلفها الموسوم بالمجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين ،وقدّم لي معلومات قيمة وغزيرة فيما يتعلق بالأدب الكولونيالي والحياة الاجتماعية العامة للمستوطنين وتأثيرات ذلك على الأهالي المسلمين .

-أجيرون شارل روبير ،**الجزائريون المسلمون وفرنسا1871-1919**(ج1+ج2)

كلا الجزاين هما عملان قيّمان كأغلب الأعمال التاريخية المتعلقة بتاريخ الجزائر ،غير ان هذا المؤلف ساهم في إفادتي بمعلومات عديدة اكثر من غيره،حول مختلف السياسات الفرنسية وتأثيراتها على المجتمعين الأوروبي والمسلم .

- Claudine Robert-Guiard**, Des Européennes en situation coloniale enAlgérie 1830-1939**.

يعد هذا المؤلف لصاحبه ،المؤلفة كلودين روبير-غيدار عملا استثنائيا وقيّما يحتوي على معلومات جيّدة ومهمة تتعلق بحياة الأوروبيات في الجزائر ،انطلاقا من واقعهن الأسري ، وحياتهن العملية ،ونشاطهن الاقتصادي في مختلف القطاعات ،وقد أفادني بمعلومات هامة وجداول إحصائية،وساعدني بأسلوبه ومنهجيته العلمية في قراءة الواقع الاستعماري وتحليله

- Jeannine Verdès –Leroux , **L’Algérie et la France.**

يعد هذا المؤلف ،والذي جاء على شكل معجم لأهم الشخصيات والأحداث التاريخية والمصطلحات المتموضعة في التاريخ الجزائري ،عملا ساعدني في التعرف على العديد من الشخصيات الكولونيالية خاصة في مجال الثقافة كالمسرح والفن .

Catherine Gomez Bellomia, **Construction/reconstruction identitaire dans le discours des pieds noirs : Etude de cas** ,Thèse de doctorat.

تعد أطروحة الدكتوراه ،والموسومة ب"تشكيل وإعادة تشكيل الهوية في خطاب الأقدام السوداء:دراسة حالة"،للباحثة كرتين غوميز بيلوميا ،عملا اختص بالدراسة الاجتماعية ، وعلى الرغم من كون بحثها لم يتعمق كثيرا في دراسة الجوانب الاجتماعية للمستوطنين مركزا على التجنيس وآثاره على الهوية الأوروبية ،فقد أفادني في هذا الجانب.

-Marie Muyl ,**Les français D'Algérie :socio-histoire d'une identité**, Tome1,Thèse doctorat.

قدمت لي ماري مويال من خلال عملها الأكاديمي الموسوم العديد من المعلومات التي خصت الجوانب الاجتماعية ،وإن كان عملها يشبه لحد ما عمل سابقتها ،بحيث تناولت الجانب الاجتماعي ومشكلة الهوية .

إلى جانب هذه المصادر والمراجع فقد أفادتني الكثير من الأعمال سواء كتب أو دراسات أكاديمية.

تاسعا:الصعــوبـات

بما أن لكل عمل نقائصه ،تعيقه عدة صعوبات وعراقيل ،والتي بالرغم من كثرتها ،فإنها لم تثن عزيمتي ،ولم تحد من إرادتي ،ولعل أبرزها:

1-اتساع الموضوع وطابعه العام :

يعد الموضوع الذي اخترته للدراسة موضوعا متشعبا ومتسعا من حيث الفترة الزمنية ،أو من حيث تنوع المواضيع المدروسة ،والتي بقدر ما حاولت الإلمام بها يساورني الشك بأنني لم أحط

بالموضوع بكل تفاصيله الدقيقة ،ومع ذلك فقد سعيت مجتهدا أن أبحث في كل جوانبه والإحاطة بما رأيته مناسبا للدراسة ويقدم قيمة معرفية إضافية للقارئ الكريم

2-قلة الوثائق الأرشيفية

عدم قدرتي على إنجاز عمل يستند بالأساس من مصادره الأولى من الوثائق الأرشيفية نظرا لكوني لم أتحصل على منحة للتكوين من قبل الجامعة نظرا لكوني طالب خارجي ،ومع ذلك زودني عدد من الأساتذة ببعض الوثائق من أرشيف ماوراء البحار "أكس أونبروفنس"،ومن الأرشيف الحربي "فانسان"،وهم مشكورون على ذلك .

3- صعوبات الترجمة

نظرا لطبيعة اللغة الأصلية للمصادر والمراجع الكثيرة المعتمد عليها في إنجاز البحث وتحريره،وهي اللغة الفرنسية ، فإن عملية الترجمة لم تكن بالأمر السهل ،حيث لا تتوقف على آلية إتقان اللغة وفهمها فحسب ،بل تتعدى إلى ضرورة فهم المقصود من وراء تلك الكتابة الأجنبية وترجمتها ترجمة تتناسب مع الشكل اللغوي والمعنى الحقيقي دون الإخلال ببنية الجملة الأصلية والتي تختلف عن بنيتها في اللغة العربية ،ولذا كان معظم الجهد ينصب حول ترجمة تلك النصوص الكثيرة مع تحري كل جوانب الدقة والأمانة العلمية .

لكن كل تلك الصعوبات تذللت بفضل الله وبعون أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور السبتي غيلاني ،والذي كان وبكل فخر أستاذا وأخا منحني كل التوجيهات والنصائح والإرشادات اللازمة ،وأكثر من ذلك أعطاني الحرية في العمل ورافقني بالتصحيحات والإرشادت ،فله مني كل الشكر والامتنان.

الفصـــل الأول :السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائرمابين 1830-1945

المبحث الأول: الهجرة الأوروبية نحو الجزائر مابين 1830 -1945

المبحث الثاني:تطور السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر وأهدافها مابين 1830- 1945

المبحث الثالث: المراكز الاستيطانية في الجزائر ما بين 1830-1945

الفصل الأول: السياسة الإستيطانية الفرنسية في الجزائرمابين 1830-1945

ارتكزت سياسة الاحتلال الفرنسي في الجزائر على عدة أبعاد وأهداف سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية ،ولكي تحقق فرنسا استمرارية وجودها العسكري وتضمن مصالحها الجيو استراتجية في الجزائر،وضعت في مقدمة أولوياتها سياسة تعمل على تشجيع الاستيطان الأوروبي وتفتح باب الهجرة الأوروبية على مصراعيه لكل الشرائح المتباينة للمجتمعات الأوروبية ، بغية إحداث تغيير ديمغرافي وتغليب العنصر الأوروبي على حساب الأهلي، ولنجاح المشروع الاستيطاني سعت بدعمه بكل الإمكانات والوسائل الممكنة ،ولعل أبرز ركائز الاستيطان هي الأرض التي مثلت دعامة الاستيطان الرئيسية وجوهر المشكلة الأساسية في الصراع بين المستوطنين والأهالي فيما بعد. **فما هي اذن تلك الاستراتيجة التي اعتمدتها الإدارة الكولونيالية لتكريس الاستيطان على أرض الواقع ؟ وماهي الإجراءات الإدارية والقانونية التي طبقتها سلطات الاحتلال لمصادرة الأرض لإنشاء المستوطنات ،وخلق نواة المجتمع الجديد في الجزائر؟.**

أولا:الهجرة الأوروبية نحو الجزائر مابين 1830-1945

1- مسار الهجرة الأوروبية نحو الجزائر وتحدياتها

لقد صرح شارل فوريي[1] حول الاستيطان ،وهو في بداياته في الجزائر،بمايلي:"مع الوقت سوف نحصد ما زرعناه في هذه الأرض الإفريقية الخصبة، إن إرادة الله تجعل منا فاتحين جدد لهذا البلد سنساعد الأوروبيين لتعميره، وسوف يستمتعون بصيد العقبان، والنمور، والحيات ....، جهزوا أنفسهم–يقصد المهاجرين- للهيمنة على هذا البلد وسكانه، ليس من أجل فرنسا فحسب، وإنما من أجل العالم بأكمله"[2] .

كان لكلام فوريي وتصريحات وخطابات العديد من الساسة والمنظرين الكولونياليين تصيب شرائح متعددة من المجتمع الفرنسي، فالسياسة الدعائية التي روجت لها إدارة الاحتلال بإتقان

[1]-شارل فوريي(1772-1837)،رجل اقتصاد وفيلسوف اجتماعي فرنسي صاحب نظرية تحولت إلى مذهب اقتصادي واجتماعي "الفوريرية" « Fouriérisme » اشتراكي واقعي ،ولم يكن طوباويا،سبقت أفكاره أفكار كارل ماركس ولويس بلان ، أحد منظري الحركة الاستعمارية في الجزائر والعالم .للمزيد عن شارل فورييه ،ومذهب الفوريرية،يرجى العودة إلى:-النجفي (حسن)،**القاموس الاقتصادي** ،الطبعة الأولى ،مطبعة الإدارة المحلية ،بغداد،العراق،1977،ص133.

[2]- jeanson (Francis) ,**L'Algérie hors la loi**, Enag édition Alger -1993,p42.

لا سيما خلال السنوات الأولى للغزو، قد بدأت تجني ثمارها، فكلما تحسنت الأوضاع الأمنية وخبت نار الانتفاضات والمقاومة الوطنية، تشجع الأوروبيون للهجرة أكثر، وكانت الوجهة المفضلة لهم هي الجزائر،وبالمقابل فكلما تدهورت الظروف الأمينة تعكّر صفو الراغبين في الهجرة، لأن المهاجر الأوروبي أصبح خوفه مزدوجا، الخوف الطبيعي والمبرر من مقاومة الأهلي المدافع عن أرضه المسلوبة، والخوف غير المبرر واللامعقول من تراخي الجيش في الدفاع عن أمنه و مستقبله، وهو ما أدى إلى تنامي مشاعر الغضب لدى المستوطنين الأوائل من الجيش لاتهامهم إياه بالتقاعس في ضمان الأمن لهم، وكل ذلك كان له الأثّر السلبي في تذبذب وتيرة الهجرة خلال العقود الأولى التي تلت الاحتلال [1].

ورغم ذلك فقد كان تدفق المهاجرين خلال الشهور الأولى للاحتلال كبيرا، وتميّز بحالة من الفوضى العارمة، مما أثبت جليا عن غياب خطة للتوطين المنتظم من قبل الحكومة الفرنسية، مما جعلها تعيد التفكير في خططها للاستقدام المهاجرين في المستقبل بما يتناسب والإمكانيات المتاحة، حيث أقدمت السلطات الفرنسية على إصدار قوانين ومراسيم تنظيمية لاحتواء مشاكل المستوطنين الجدد وتحسين حالتهم، ووضع برنامج شامل يراعى فيها تحديد شروط الهجرة، ويضبط مواصفات محددة لنوعية المهاجرين المطلوبين، وكذا وضع مسح اجتماعي ونفسي كامل لاستظهار مدى قدرة المهاجر في التأقلم مع الحياة في شمال إفريقيا، ومن أجل ذلك أصدرت الجهات الوصيةقرارين منظمين للهجرة، أولاهما قرار15نوفمبر1830، ثم أردفته بقرار مماثل يوم 25أبريل 1831، و نص القراران على وجوب امتلاك المهاجر لجواز سفر،ووجود تصريح للإقامة في الجزائرو امتلاك مبلغ مالي كاف للمهاجر ينفقه ريثما يتحصل على عمل قار بالجزائر. إلا أن تلك الإجراءات للحد من ظاهرة الهجرة الفوضوية، وجعلها أكثر انتظاما وانتقائية باءت بالفشل، فقد استمر تدفق المهاجرين غير المرغوب فيهم والمحسوبين على التيار المعارض للملكية أومن المتسولين ..وغيرهم، بحيث أصبحت مراكز

[1]-Ibid,p,p42,43.

العبور سهلة الاختراق، وذلك بسبب تواطؤ ربان السفن في إخفاء المهاجرين، وتزوير شهادات حسن السيرة التي تخوّل الراغب في الهجرة الحصول على جواز سفر[1].

ورغم ذلك فلم يكن طريق الهجرة دوما مفروشا بالورود، فقد انكسرت أحلام المهاجرين الجدد بمجرد وصولهم إلى الجزائر، واصطدموا بواقع صعب، زادته ظروف الاستقبال المتدهورة سوءا، وعن ذلك وثّق لنا أحد المهاجرين من منطقة الفراكومنتوا بفرنسا في مذكرة له التجربة المريرة التي كابدها المهاجرون في رحلتهم الاستيطانية نحو الجزائر، حيث كتب:"انطلقنا في باخرة من مارسيليا نحو مدينة الجزائر في 25سبتمبر، وكانت الرحلة بداية للعذاب الذي عانيناه، ولما وصلنا إلى مدينة الجزائر تم تجميعنا في أحد المنازل الجاهزة التي خصصتها لنا الحكومة لمدة 5أيام، ثم تم نقلنا إلى المستوطنة التي تقرر العيش فيها عبر عربات خشبية تجرها البغال، وكانت مدة السفر قد استغرقت 3أيام، وتمثل مبيتنا في المناطق التي توقفنا فيها إسطبلات الخيول وكانت أّسرّتنا أكوام التبن، ولما وصلنا إلى المنزل المخصص لنا لم نجد أدنى ضروريات الحياة البسيطة..ولم تتحسن الظروف إلا بعد مضي عدة أيام ليتم تزويدنا بأدوات الزراعة والمتمثلة في محراث وثور وقليل من بذور القمح، لنبدأ في نشاطنا الجديد الذي فرض علينا، ولم نريده يوما..."[2].

وجد الوافدون الجدد ظروفا لم يألفوها في أوروبا فرفضوا العيش في بيوت الجزائريين والعمل في الأعمال الزراعية الصعبة تحت لسع أشعة الشمس، ولم تغرهم النداءات الرنانة لأنصار الفكرة الاستعمارية من القادة السياسيين والعسكريين في القبول بالوضع الراهن، كل تلك الظروف المناوئة لنشاط الاستيطان أدت إلى ازدياد الاحتقان والسخط العام في أوساطهم، رغم أن تريميلي-وهو أحد مشجعي الاستيطان في الحكومة الملكية- ظل يردد كلاماته الشهيرة

[1] - Sessions (Jennifer) ,Les colons avant la IIIe République : peupler et mettre en valeur l'Algérie, In :**Histoire de L'Algérie à la période colonial 1830-1962**,sous la direction de Abderrahmane Bouchène ,Jean-Pierre Peyroulou, Edition de la découverte ,Paris-2014,p117.

[2]- Lamboley (Claude) , **Les Colons en Algérie Histoire d'une famille ordinaire,**Bulletin del'Académie des Sciences et Lettres de Montpellier- 2011,p46.

لطمأنة المستوطنين "سيصبح لدى المستوطنين الفلاحين أذرع من فولاذ وحديد ووجوه ذهبية "للدلالة على قدرتهم على التأقلم مع الطبيعة الجديدة[1].

غير أن الوسائل والتسهيلات التي استخدمتها الحكومات المتعاقبة في استقطاب أعدادا كبيرة من المهاجرين لم تفلح بسبب القلق من المجهول، الذي انتاب فئات كثيرة كانت ترغب في الهجرة، وظلت الأرقام بعيدة عن سقف الطموحات المحددة، وقد أجمع العديد من الساسة العارفين بالشأن في المستعمرة على أن الأوضاع لا تلبي طموحات الكثير من راغبي الكسب المادي والرفاهية، فقد أرجع كليمو دي فارنوا (Clément Duvernois)-وهو أحد رجال الدولة في حكومة نابليون الثالث-ذلك الفشل إلى سياسات الإدارة الاستعمارية بالجزائر،والتي وصفها بالبيروقراطية العسكرية والإقطاعية العاجزة في وضع إستراتجية تسهل تأقلم المستوطن وتساهم في هجرة الأوروبيين المترددين، تقف حاجزا في عودة الكثير إلى بلدانهم[2].

ومن حسن حظ المستوطنين، فإن ذلك لم يستمر ذلك طويلا، إذ عملت الدولة الاستعمارية بعد استخلاصها للدروس من التجارب الفاشلة خلال الشهور الأولى للاحتلال على توطين هؤلاء الوافدين الجدد في مراكز استيطانية جديدة، أقل ما يقال عنها أنها كانت أقرب إلى المخيمات منها إلى التجمعات السكنية المنظمة، وقد بنيت بالقرب من المخيمات والقواعد العسكرية للجيش الفرنسي لتوفر الأمن فيها وطلبا للحماية من الغارات القبلية ، وبالرغم من ذلك التحسن الطفيف، كان الواقع مؤلما وصورة الجنة الضائعة أو الإلدورادو الموعود أصبحت مع مضي الوقت تتلاشى في خيال المستوطنين، فأمام وطأة الظروف المناخية قرر الكثير المغادرة أما الذين آثروا البقاء، فكان المال والمساعدات الحكومية الكبيرة السبب الرئيسي في تمسكهم بالأرض.وبالمقابل كان إصرار المعمر على تحقيق الحلم الذي خاطر من أجله يتحول إلى حقيقة بفضل الإمكانات الكبيرة التي وفرتها له السلطة المحتلة[3].

[1]-Gautier (M .E.F),**L'évolution de l'Algérie de 1830-1930**, publications du comite métropolitaine du centenaire de l'Algérie- Paris, p18.

[2] - de Girardin(Emile),**la civilisation de L'Algérie, Imprimerie** Serrières- Paris, 1860,p-p65-86.

[3]- Muyl(Marie),**Les français D'Algérie :socio-histoire d'une identité**, Tome1,Thèse pour obtenir le grade de docteur ,soutenu le12 décembre 2007,UFR de science politique Université de paris-panthéon –Sorbonne, France, p26.

ولكن بالرغم من إخفاق سياسة الهجرة في بداياتها بسبب قلة التجربة والتحضير السيء لنقل الآلاف من المهاجرين دفعة واحدة دون احتساب قدرة الإدارة المحتلة على إيوائهم ، وبسبب عدم تأقلم الأوروبيين بالأرض الإفريقية الصعبة، إلا أن الحكومات المتعاقبة استدركت الأمر لاحقا، وصححت الأخطاء الفادحة المرتكبة خلال السنوات الأولى للاحتلال، وتجاوزت العقبات المثبِّطة لحركة الهجرة، كتحسين ظروف الإقامة، وتوفير الأمن للمستوطنات الناشئة، والتكفل المالي التام بالمستوطنين الجدد، وتوفير لهم معدات العمل واستصلاح الأراضي إلى غيرها من الأمور الأخرى التي تعمل على ضمان العيش الكريم للمستوطن.

وعموما فقد تميزت الهجرة الأوروبية نحو الجزائر بعدة خصائص تميزها عن باقي الهجرات الأخرى لمناطق أخرى من العالم ، و أهمها: تنوع أصول المهاجرين وتعدد أعراقهم وتباين فترات هجرتهم،و تأرجحها بين الارتفاع والانخفاض من جهة، وبكونها تأخذ أحيانا شكل الهجرات الفردية وأحيانا الطابع الجماعي إلى حد النزوح الكبير من جهة ثانية، وكل ذلك كان مرتبطا بعدة عوامل أهمها:

1/السياسات العامة للحكومات المتعاقبة، وأنظمة الحكم ونظرتها الإستراتيجية لظاهرة الاستيطان وسنرى لاحقا كيف كانت سياسات الجمهورية الثانية تشجع الهجرة بكل أشكالها، وتعمل على تشجيعها، في حين كانت الإمبراطورية تتخذ موقفا محافظا اتجاه الهجرة الجماعية وتشجع الهجرة الانتقائية ذات الطابع الرأسمالي الاستغلالي، و كانت الجمهورية الثالثة تميل في أغلب الأحيان إلى الهجرة الانتقائية والعنصرية، أي العمل على تشجيع فقط هجرة الفرنسيين لتحقيق تفوق عددي لصالح وكبح النمو الكبير للمستوطنين الاسبان آنذاك .

2/ الظروف الاقتصادية والسياسية، التي تمر بها البلدان الأوروبية المصدرة للمهاجرين، ومدى الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي الذي تعيش فيه البلدان التي هاجر منها الأوروبيون، فمثلا ارتبطت هجرة الاسبان والماهونيين بالظروف المناخية وتردي إنتاج المحاصيل الزراعية خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، كما ارتبطت هجرات سكان الألزاس و اللورين خلال النزوحين الكبيرين (1845-1860)، و(1871-

1872) بالأزمات الاقتصادية خلال النزوح الأول، والثاني بالتهجير القسري بعد سيطرة بروسيا على الإقليم إثر الحرب البروسية والفرنسية لعام 1870.

3/الظروف السياسية والأمنية التي مرت بها الجزائر المستعمرة، ففي فترات السلم والهدوء النسبي ازدادت هجرات الأوروبيين عكس الفترات التي اندلعت فيها الثورات، خصوصا في المناطق الساحلية والشمالية .

ثالثا:ازدياد النشاط الاستيطاني في الجزائر بازدياد وتيرة الهجرة الأوروبية نحو الجزائر .وهذا ما نلاحظه من خلال الرسم الآتي، الذي يقدم لنا مقارنة بين تطور الهجرة الأوروبية نحو الجزائر تطور المستوطنين مابين 1836-1866، والتي تمثل أوج حركة الهجرة.

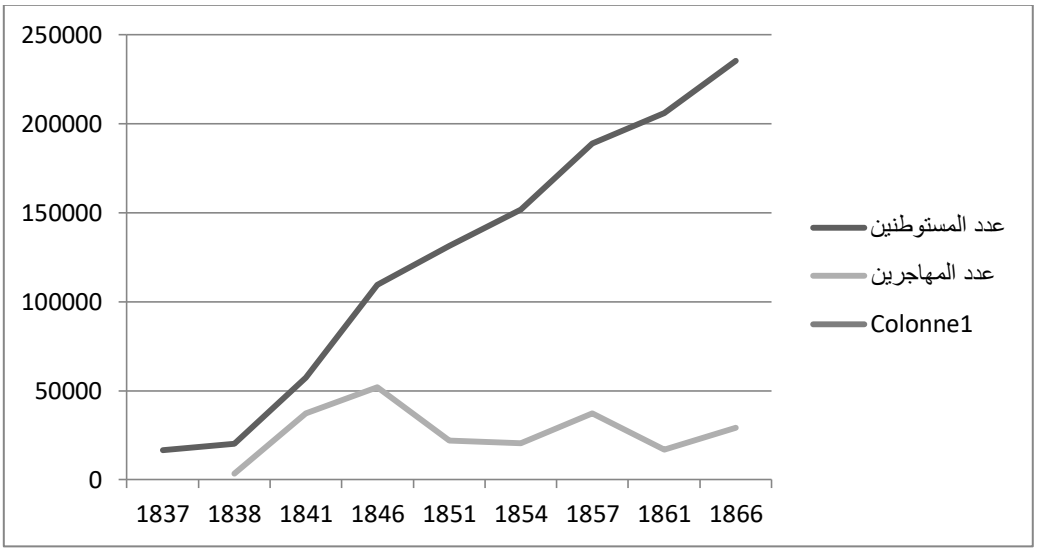

1سم=سنة

1سم=5000ألف مهاجر

من خلال متابعتنا لصيرورة الاستيطان ومسار الهجرة الأوروبية نحو الجزائر خلال الخمسينية الأولى التي تلت الاحتلال حسب معطيات الرسم، فإن ذلك يقودنا إلى استنتاج وفهم ثلاث مؤثرات هامة تحكمت في ذلك التطور، وهي:

أولا:الارتفاع المتواصل لوتيرة الاستيطان، التي يقابلها تذبذب في زيادات هجرات الأوروبيين نحو الجزائر ما بين السنوات، وهو ما يفسر أولا الارتفاع المتواصل المستوطنين الجزائر

المرتبط بعاملين أساسيين، وهما:عامل الهجرة، وعامل الزيادة الديمغرافية، أي ارتفاع نسبة الولادات مع الانخفاض في نسبة الوفيات، (يمكن العودة إلى الفصل الثاني).أما التذبذب في أعداد المهاجرين من سنة إلى أخرى فتفسره، عوامل عدة أهمها:مدى استتباب الأمن في الجزائر من عدمه، واختلاف السياسات الاستيطانية من فترة إلى أخرى، فالحماس الذي أبداه بيجو ليس بنفس الحماس ولا تلك السياسة الاستيطانية التي كانت خلال الحكم الإمبراطوري

ثانيا : كان أكبر تدفق للمهاجرين الأوروبيين خلال الأربعينات وبداية الخمسينات، وهي بذلك سنوات تمثل ذروة الهجرة والاستيطان الأوروبي في الجزائر،حيث كان أكبر نزوح على الجزائر هو الذي سجّل عامي 1838 -1848، وذلك يرجع أساسا إلى استتباب الأمن خصوصا في المناطق الوسطى والشرقية بإخماد الثورات الشعبية (أحمد باي بالشرق، وثورات متيجة في الوسط) وإلى سياسات بيجو والجمهورية الثانية المتحمسة للهجرة والاستيطان.

ثالثا:عودة التباطؤ في وتيرة الهجرة بداية الخمسينات إلى غاية نهاية الستينات كما هو مبين في الرسم البياني، فمن أكثر من 50.000مهاجر جديد سنتي 1845و1846د نا العدد إلى مايقارب النصف خلال الخمسينات عما كانت خلال سنوات الأربعينات، وذلك بسبب توجس الكولون من سياسات نابليون الثالث اتجاه الاستيطان الرسمي، وتفشي الأوبئة والأمراض، غير أن ما حل بالجزائر من انتشار لوباء الكوليرا عامي 1851-1852، فإن ذلك لم يكن حاجزا لتوافد المهاجرين الجدد، الذين ساهموا في ارتفاع التعداد العام للسكان الأوروبيين، حيث بلغ عددهم 132.982مستوطن،منهم85.678مستوطن استقروا في المدن والمراكز الحضرية، و33.810 مستوطن كانوا يعيشون في المناطق الريفية، وفي عام1857ارتفع عدد المهاجرين الأوروبيين بنسبة 44%خلال ست سنوات فقط، أي مابين (1851-1857)حيث بلغ عددهم 38ألف مهاجر جديد،مما أدى إلى ارتفاع المجموع السكاني العام لمستوطنين إلى 189.000 مستوطن خلال سنة 1857،يعيش حوالي 170.000منهم في المناطق الواقعة تحت الحكم المدني و19.000في المناطق الخاضعة للحكم العسكري[1] .

[1] -Anonyme, **L'Algérie ,Immigrants et indigènes ,**Challamal Editeur -Paris,1836,p -p59 -61

تواصلت الهجرة الأوروبية ومعها قفز التعداد الكلي للمستوطنين، سواء من ذوي الأصول الفرنسية، الذين وصل عددهم عام 1897 إلى 306.000بعد أن كان 271.000عام1891، أو من المستوطنين الأجانب، فقد ارتفع عدد الاسبان إلى 158.071 بعدما أن كان عددهم إلى 151859 عام 1891، غير أن هذه الظاهرة كانت عكسية مع الإيطاليين، حيث تراجع عددهم من 39161عام 1891إلى 35539سنة 1897، ونفس الحالة بالنسبة للأنجلو مالطيين الذين تراجعت أعدادهم من 14677عام 1891إلى 12815سنة 1897[1].

وفي عام1911 بلغ التعداد العام للمستوطنين الأوروبيين 752.043مستوطن، يعيش منهم 5533في الجنوب الجزائري، وهم كالتالي:304.592من أصول فرنسية، و188068من باقي الأوروبيين الذين تم إدماجهم بموجب قانون التجنيس الأوتوماتيكي[2] لعام 1889، و70271من اليهود المجنسين، 135150من الاسبان، 36795من الإيطاليين 6907من الإنجليز –المالطيين إلى جانب 10260من أجناس أخرى كالألمان،والسويسريين إلخ،لم يشملهم التجنيس الأوتوماتيكي[3].

ظلت الهجرة العامل الأساسي لنمو السكان المستوطنين في الجزائر منذ الاحتلال وإلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، غير أنه في الفترة الممتدة من عام 1872إلى غاية 1906، عرف النمو السكاني متغيرين أساسيين:الأول تراجع في نسب الوفيات مقابل ارتفاع في نسب المواليد، والثاني تقارب نسب الزيادات في أعداد الأوروبيين في الجزائر بين عامل الهجرة وعامل الزيادة الطبيعية .فقد مثلت الهجرة 57 % من النمو العام للمستوطنين بين سنوات 1896-1901، و40%سنوات 1901-1906، و48.2%سنوات 1906-1911، إلا أنه بعد مطلع القرن العشرين أصبح النمو الطبيعي العامل الأساسي المتحكم في النمو السكاني للمستوطنين بمعدل 1%، مع نقص في أعداد المهاجرين، بل كانت حصيلة الهجرة سلبية

[1]- Zimmermann(Maurice) :**Colonies françaises ,Le recensement de l'Algérie et Tunisie** , Annales de géographie ,Tome 6,N°27- Paris-1897,p282.

[2]- أذعر التزايد الكبير للمستوطنين الأوروبيين ،وخاصة الاسبان منهم السلطات الفرنسية ،وخشيت من أن تتحول المستعمرة إلى وطن كبير تسيطر عليه الأقليات الأوروبية الأخرى ،ويضعف فيها نفوذ العنصر الفرنسي،وبهدف إعادة التوازن الديمغرافي لصالح الفرنسيين ،أصدرت إدارة الاحتلال قانون التجنيس الأوتوماتيكي سنة1889 ،أهم ما جاء فيه تجنيس كل من يولد من أبناء المستوطنين بالجنسية الفرنسية ،وبهذا تمكنت السلطات ضمان التماسك العرقي للمستعمرة وتكريس الإدماج .للمزيد حول الموضوع يرجى مطالعة الفصل الثاني.

[3]- Zimmermann(Maurice),**Le recensement de 1911 en Algérie** ,Annales de géographie ,Tome 21, N°116-Paris,1912, p185.

(10804مهاجر جديد بين 1911-1916)وذلك بسبب الحرب،واستمر ذلك الوضع بنفس الوتيرة إلى غاية الاستقلال[1].

الرسم البياني التالي يبين لنا تطور عدد للمستوطنين ما بين 1856-1945بفعل ظاهرة الهجرة.

1سم= 20000مستوطن

إن أول ما نلاحظه في الرسم البياني، هو التزايد المطرد والكبير للمستوطنين الأوروبيين سواء أكانوا من ذوي الأصول الفرنسية أو من باقي الدول الأوروبية، حيث قدرت زيادتهم الإجمالية بحوالي 80000مستوطن (الفرنسيون من حوالي 95ألف مهاجر سنة 1856إلى حوالي 130000مهاجر سنة 1872، وباقي المهاجرين الأوروبيين من حوالي65ألف سنة 1865إلى 118000سنة 1872) بما يعادل إجمالا 5000مهاجر جديد كل سنة، بحيث كان عددهم الإجمالي يقارب 160.000 مستوطن عام 1856، وبلغ سنة 1872حوالي 250.000 مستوطن، مما يفسر الدور الكبير للهجرة في تزايد أعداد المستوطنين. كما يلاحظ كذلك ارتفاع أعداد المهاجرين الفرنسيين مقارنة ببقية الأوروبيين، غير أن ذلك سرعان ما فتئ يتقلص بفعل تزايد أعداد المهاجرين الأوروبيين أوائل السبعينات، وتراجع وتيرة الهجرة والاستيطان الفرنسية في الجزائر، رغم كل الإجراءات المقيدة لهجرة الاسبان نحو الجزائر.

[1]- كاتب (كمال)،**أوروبيون"أهالي"ويهود بالجزائر1830-1962تمثيل وحقائق السكان**،تقديم بنحامين ستورا،ترجمة رمضان زبدي،دار المعرفة للطبع-الجزائر ،ص246.

وفي الأخير نخلص إلى أن مسار الهجرة نحو الجزائر بقدر ما كان اختيارا، فقد ارتبط بالظروف والتحديات الكبيرة ، وتحكمت فيها السياسات الحكومية المختلفة .

2- المناطق الكبرى للهجرة الأوروبية نحو الجزائر:

اختلفت أصول المستوطنين الأوروبيين وتعددت المناطق هجرتهم، فلم تكن محصورة على الفرنسيين دون غيرهم، بل شملت معظم البلدان الأوروبية، ولاسيما المتوسطية منها، وخصوصا من الأسبان والمالطيين والإيطاليين، وبدرجة أقل دول أوروبا الوسطى مثل سويسرا وألمانيا وبولندا، وبشكل قليل جدا الدول الأنجلوساكسونية .

أ-هجرة الفرنسيين (هجرات الفراكومتوا والألزاسيين): ينحدر معظم المستوطنين الفرنسيين من عمالات الجنوب الفرنسي من خط بوردو إلى جنيف وأغلبيتهم من منطقة الميدي الفرنسي وكورسيكا، وأسسوا بذلك الجزء الأكبر من البرجوازية الحضرية وأعطوا الموظفين الضروريين للإدارة الفرنسية بالجزائر، وفي الأرياف شكلوا النواة الأساسية للمجتمع الاستيطاني في الجزائر[1].

وتمثل مقاطعات لابروفانس ولانغيدوك وكورسيكا و دوفيني أكبر المناطق التي هاجر منها المستوطنون من السواحل الجنوبية لفرنسا في بداية الاحتلال، وتليها مقاطعة الألزاس واللورين قبل الحرب البروسية، ثم بشكل أكبر بعد احتلالها من قبل البروسيين عام 1871، إلا أنه الكثير من الألزاسيين لم يستقر نهائيا بالجزائر وعاد إلى فرنسا، وخلال الأربعينات والخمسينات سيشكل مهاجرو منطقة فرانكومتوا[2](Les franc-comtois)القسم الأكبر من المستوطنين الفرنسيين إلى جانب مهاجري الألزاس واللورين،حيث استقروا في مراكز استيطانية خاصة بهم، وشكلوا فيها أغلبية المستوطنين وأهمها مستوطنة فيزول

[1]- كاتب(كمال)،المرجع السابق ،ص244.

[2]-فرانكونتوا،منطقة تضم فرنسيين وسويسريين يعرفون بهذا الاسم ،تقع على الحدود الفرنسية السويسرية الألمانية ،يمتد جزء منها نحو سويسرا والجزء الآخر في التراب الفرنسي وتضم بذلك مناطق فرنسية وسويسرية ،أهمها فرانش كومتيFranche - comté،الألزاس،كانتون canton، ديجورا du jura،جورا بارنوا jura bernoisيتكلم سكانها لهجات خليط من الألمانية والفرنسية (الأربيتان Arpitan،جوراسيان jurassien، بيرغوندان burgondan،لانغ دويل langued'oil.)،ومع بداية القرن العشرين أصبحت اللغة الفرنسية في المنطقة الفرنسية اللغة الرسمية لسكانها. للمزيد حول الموضوع يرجى العودة إلى :

-https://fr.mwikipedia.org/wiki/Franc-comtois.

Dalby (David) ,**The linguasphere register of the world's languages and speech**, vol 2,1999-2000 ,Hebron, Wales-2000.

بنيـان(Vesoul-Benian)[1]فـي مقاطعـة الجزائـر العاصـمة، وسـانت هيبوليـت-(Saint Hippolite) في مقاطعة وهران[2].

تعود البدايات الأولى لهجرة سكان الفرانكومنتوا بعد عام 1848، لما طرحت حكومة الجمهورية الثانية مشروعا ضخما لتأسيس 42بؤرة استيطانية في المناطق الساحلية، والذي صادق عليه البرلمان الفرنسي يوم 19سبتمبر 1849، وخصص لنجاح العملية قرضا ماليا قدره50مليون فرنك، وكان المشروع آنذاك يهدف في منظوره القريب إلى بناء مستوطنتين في نفس السنة، و12مستوطنة في العام التالي، وكان الهدف هو توطين العمال المسرحين والبطالين بعد الكساد الكبير الذي ضرب فرنسا في تلك الفترة، أملا في تفادي أي ثورة محتملة من العمال المسرحين والعاطلين عن العمل، إلا أن المشروع فشل آنذاك فشلا ذريعا، ولم يتنقل إلا عدد قليل، واضطر العديد منهم إلى العودة، ولم تنطلق عمليات الهجرة بشكل فعلي إلا في بداية الخمسينات، حينما أصر والي لاهوت صاون على ترحيل سكان المنطقة، بسبب الظروف القاسية التي مرت بها المنطقة، فقد شهدت المنطقة انتشارا لوباء الكوليرا، وتراجع إنتاج البطاطس بسبب الأمراض الطفيلية التي فتكت بها، مما مثّلت الدوافع الأساسية التي نشّطت حركة الهجرة لسكان المنطقة نحو الجزائر، وكان وزير الحربية الفرنسية آنذاك قد ساهم بشكل كبير في نقل عدد كبير من كان منطقة لاهوت صاون وتوطينهم في فيزول بنيان جنوب غرب الجزائر العاصمة، حيث تم نقل أكثر من48عائلة في شهر واحد، وخصص لكل منها بعد وصولها إلى الجزائر منزل وحديقة ضيعة زراعية تصل مساحتها 3هكتارات ومبلغ مالي قدر ب1500فرنك تنفقه العائلة إلى حين تحسن ظروفها[3].

كان المهاجرون من الفرانكومنتوا من مختلف الطبقات الاجتماعية، إلا أن أغلبيتهم فلاحون قدموا من المناطق الفقيرة الواقعة بجنوب شرق فرنسا وكورسيكا،يعانون من البطالة بعد

[1]-فيزول بنيانVisoul Benian):هي عين البنيان الواقعة حاليا في ولاية عين الدفلى ،وليست عين البنيان التابعة إقليميا لولاية الجزائر العاصمة ،سميت باسم فيزول نسبة إلى مدينة فيزول الواقعة في لاهوت صاون ،وذلك استذكارا من سكانها الجدد من ذوي الأصول الألزاسية بلدهم الأصلي،اكتسى الموقع أهمية كبيرة خلال العقود الأولى للاحتلال ،وذلك لأنها أسست كمركز استيطاني لربط السواحل بالمناطق الداخلية ،كمدن مليانة والبليدة .

[2]- Ricoux (René) ,**Démographie Figurée de l'Algérie ,Etude Statistique des populations européennes qui habitent l'Algérie** ,G Masson éditeur , Libraire de l'académie de médecine, paris -1880,p11.

[3]- Lamboley (Claude) ,op-cit,p,p44,45.

الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالصناعة الفرنسية عام 1848.ومعارضون سياسيون لنابليون، وأطفال يتامى ومزارعون خسروا إنتاج الكروم خلال أزمة الفيلوكسيرا[1]1871.

استمر تدفق المهاجرين الفرنسيين من منطقة الفركومنتوا بالخصوص نحو الجزائر طيلة الخمسينات والستينات على الرغم من كونها كانت على شكل زمر قليلة، وكانت أهم الدفعات هي تلك التي انطلقت في 7و 14 و23من شهر سبتمبر، ودفعات 6و17أكتوبر و5 و17 ديسمبر من عام 1853، حيث هاجرت من منطقة لاهوت صاون لوحدها 48عائلة و274مهاجر استقر أغلبهم في فيزول بنيان[2].

أما المهاجرين من سكان الألزاس واللورين فينحدر أغلبيتهم من المناطق الشمالية للإقليم، ولا ترتبط بدايات هجرتهم إلى الجزائر بعد الحرب البروسية، بل إلى بدايات الاحتلال، وبشكل كبير بعد سنة 1845شأنهم في ذلك شأن الكثير من المهاجرين الفرنسيين، بسبب نفس الظروف الاقتصادية والزيادة الديمغرافية الكبيرة التي عانى منها أقرانهم من ذوي الأصول الفرنسية، فقد لعبت جغرافية المنطقة القاسية دورا بارزا في هجرة سكان الألزاس واللورين إلى الجزائر، وأثرت بشكل خاص على صغار الفلاحين الذين يمتلكون قطعا أرضية متناهية في الصغر، ولا تزيد مساحتها الإجمالية عدة آرات(أقل من هكتار)، وذلك بسبب وجود تلك الأراضي في سهول ضيقة تقع بين الجبال، كما أدى اقتسام الورثة للأرض إلى تضاؤل مساحتها، مما نتج عنه قلة الأراضي الزراعية، وفي الوقت نفسه قابلها ارتفاع شديد في اليد العاملة العاطلة عن العمل والمحتاجة للأرض، مما أدى إلى انتشار البطالة والفقر الشديد، لاسيما لدى الفئات الأكثر حرمانا، والتي لم تحظ بفرصة العمل في حقول الإقطاعيين أو في المصانع الناشئة في تلك المنطقة [3]، كما كان الموسم الزراعي 1845-1846 كارثيا، فقد شهدت المناطق الشمالية الشرقية لفرنسا شتاء قاسيا أثّر على تراجع منتوج القمح، كما أعاقت

[1]- Muyl(Marie) ,op-cit,p,p26,27.
[2]- Lamboley (Claude),op-cit,p46.
[3]-Fisher (Fabienne) , **« Les Alsaciens et les lorraines en Algérie avant 1871** »,Revue française d'histoire d'outre mer ,N° 317 ,4e trimestre ,France ,1997,p59.

الفياضانات الكبرى التي ضربت الوسط الفرنسي خلال نفس الموسم الزراعي وصول شحنات القمح القادمة من الموانئ لتموين سكان الإقليم المتضرر من نقص الغذاء [1].

وإلى جانب ذلك، فقد كان هناك عامل آخر مهم يفسر لنا بوضوح أسباب التدفق الكبير للألزاسيين نحو الجزائر خلال فترة الأربعينات والخمسينات، وهو العامل الديمغرافي، ففي الدراسة التي أعدها الباحث المختص في تاريخ الديمغرافيا للمجتمع الفرنسي السيد ك .بوتاس ما يعلل ذلك، فارتفاع السكان المتزايد في المناطق الجبلية والفقيرة، وما صاحبها من تراجع للانتاج الزراعي للأسباب الي ذكرناها آنفا، زاد في تفاقم الأزمة التي عانى منها الإقليمان، بحيث بلغت الكثافة السكانية في منطقة لاهوت راينHaute –Rhin 120.2ن/ كم2الواحد سنة 1851، بينما كانت لا تتعدى 74.8ن/كم2 عام 1801، نفس الزيادة السكانية شهدتها منطقة لوبا راين Bas-Rhin، حيث قدرت الكثافة سنة 1851 ب 129.1ن/كم2 في الوقت الذي لم تتجاوز فيه عتبة 96.8ن/كم2سنة 1801، ولا نكتشف حجم هذه الزيادة إلا إذا ما قارناها بالكثافة العامة لفرنسا آنذاك، والتي كانت مابين 50.9إلى 66.5ن/كم 2[2] .

كانت المرحلة الأولى لهجرة سكان الألزاس واللورين قد امتدت من عام 1846إلى غاية 1860،فقد بلغ عدد المهاجرين الألزاسيين خلال العشرية الممتدة من 1846إلى1856بحوالي 7600مهاجر مما مثّل حوالي الربع إلى خمس المهاجرين الفرنسيين المتجهين نحو الجزائر، ولم تتراجع حدتها إلا بعد أن غيّر نابليون نمط الاستيطان وحوّل بوصلة الهجرة نحو الاعتماد على الشركات الرأسمالية، وليس على التعداد البشري، وكانت أهم القرى التي هاجر منها سكان الألزاس واللورين خلال المرحلة الأولى للهجرة، تتمثل في قرية **"بازنكورسير صولكس" « Bazincourt-sur-Saulx »**، وقرية **"أولنواأون بارتوا"-« Aulnois en-Perthois »**وقرية **"تريوكور"Triaucourt »** **« وقرية"فوبكور" « Vaubecourt »**، وكان لسكان هذه القرى الدور الكبير في التأسيس للمستوطنات الزراعية التسع عشرة الجديدة التي تقرر بناؤها مطلع عقد الخمسينيات في منطقة متيجة، وأهمها "روفيغو"، التي ضمت حين تأسيسها 267مهاجرا من الألزاسيين،غير أن القرية التي

[1] - Lamboley (Claude) ,op-cit,p48.
[2]- Fisher (Fabienne) , op-cit,p59.

أريد لها أن تكون نموذجا للاستيطان تحولت إلى قرية أشباح بسبب نزوح سكانها نحو العاصمة سنة 1868،ولم يبق سوى26من المستوطنين الذين هاجروا إليها بداية الخمسينيات [1].

والجدول يوضح لنا أهم المناطق الأكثرتصديرا للمهاجرين الفرنسيين سنتي 1857-1858[2].

سنـــة 1857	العدد	سنـــــة1858	العدد
باس بيريني Basses-Pyrénées	1937	هوت ران Haute –Rhin	1.203
سان Seine	1.863	بوش ديرونBouches –du-Rhône	1.164
بوش ديرونBouches –du-Rhône	1.458	سان Seine	1.121
هوت بيريني Haute- Pyrénées	1.287	باس بيريني Basses-Pyrénées	1.103
هوت ران Haute –Rhin	1.107	جيروندGironde	576
بيريني أوريونتال-Pyrénées Orientales	915	هوت بيريني Haute- Pyrénées	567
هوت غارونHaute-Garonne	879	باران Bas-Rhin	466
باران Bas-Rhin	694	هوت غارونHaute-Garonne	450
جيروندGironde	488	أود Aude	443
أود Aude		بيريني أوريونتال-Pyrénées Orientales	422

أما الجدول الثاني، فهو يبين عدد المهاجرين من المناطق العشر الأكثر تصديرا للمهاجرين من فرنسا نحو الجزائر وبقية العالم في سنة 1858[3]

[1]- Lamboley (Claude) ,op-cit,p49.
[2]- Duval(jules),**Histoire de l'émigration européennes, asiatiques, africaines ,au 19eme siècle, ses causes ,ses caractères ,ses effets**, Librairie de Guillaumin et Cie- Paris 1862,p106.
[3] -Ibid,p107.

نحـــو الجـزائـر	العدد	نحـــو بقية العالم	العدد
بوش ديرونBouches –du-Rhône	587	هوت ران Haute –Rhin	1139
سان Seine	520	باز بيريني Basses-Pyrénées	1050
أود Aude	443	بوش ديرونBouches –du-Rhône	627
بيريني أوريونتالPyrénées-Orientales	235	سان Seine	601
هوت غارونHaute-Garonne	207	جيروندGironde	576
فوكليز Vauclise	188	باسرانBas-Rhin	466
هوت بيريني Haute- Pyrénées	180	دوبز Dobs	400
هوت صاون Haute-Saon	1	هوت بيريني Haute- Pyrénées	387
باز بيريني Basses-Pyrénées	153	هوت غارونHaute-Garonne	243
أرياج Ariège	148	كوت دي نور Cotes –des nord	218
تارنTarn	126	كانتال Cantal	191

من خلال الجدولين نستنتج أن مناطق لاهوت صاون، لاهوت ران، ولاباس ران هي المناطق الأكثر تصديرا للمهاجرين من منطقة الألزاس واللورين، وهي مناطق ودوائر تقع أكثرها في الألزاس،وبالتالي كانت الألزاس من بين أكثر المناطق الفرنسية تصديرا للمهاجرين نحو الجزائر، كما يبين الجدول الثاني أن ما يقارب نصف أعداد المهاجرين من الألزاس واللورين ومن كل الربوع الفرنسية قد فضلت التوجه للاستيطان بالجزائر، وتؤكد تلك الدراسات الديمغرافية و الأنثروبولوجية التي أعدها فريق من الجغرافيين والأنثروبولوجيين الاستعماريين، ومن بينهم **"جول ديفال"« jules Duvales »** الرئيس السابق للجمعية الجغرافية الفرنسية"، والأنثروبولوجيين، السيد **"م بارتيليون " « M Bartillon »**، والسيد**" دوكاترفاج"De quatrefages »** ، حيث بينت أن أكثر المهاجرين من منطقة الألزاس واللورين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانوا يفضلون الهجرة نحو الجزائر بدلا من كندا، والولايات المتحدة الأمريكية[1].

[1]- Assézat (A) ,**Sur la colonisation en Algérie** ,Bulletin de la société d'anthropologie de paris , 2eme série ,tome 2 ,Paris-1873, p, p,298,299.

وبعد الحرب البروسية الفرنسية عام1870 تجددت حركة الهجرة الفرنسية، وبنسبة كبيرة من المبعدين من الألزاس واللورين بعد إلحاقها لألمانيا، وقد ساهم حماس الجمهوريين للاستيطان، والدور البارز للكاردينال **"لافيجري"** الذي ناضل من أجل توطين المبعدين من الألزاس واللورين في الجزائر دورا كبيرا في ذلك،حيث وجه نداءا عبر الصحافة الكاثوليكية بدءا من مارس 1871لحث المخلصين لخدمة رسالة الرب، وفي الوقت نفسه قدم عدد من النواب في البرلمان الفرنسي، وهم **"بيل كاستيل « Belcastel »، "بوكارنيليرو"« Beaucarneleroux » - و"بويسون"Buisson »«** حيث نص علىمنح 100ألف من أجود الأراضي لمهجري الألزاس واللورين، وأن يستوطنوا في المناطق التي يختارونها وليس التي تختارها لهم السلطات الفرنسية،وتقديم مساعدات مجانية للمهاجرين من بينها النقل المجاني،ومنحا مالية للعائلات المهاجرة.

وقد لاقى نص المشروع الرفض من باريس، والتي أمرت بتأسيس لجنة لدراسة الاقتراحات ترأسها نائب مدينة الجزائر لوسي « Lucet »، و قامت بتعديل المادتين المذكورتين، بحيث تم منح المهاجرين الأراضي الملحقة التي تقع فقط تحت الملكية الفرنسية والمصادرة من القبائل الثائرة، واشترطت امتلاك المهاجر مبلغا من المال ينفق منه بعد وصوله إلى الجزائر، كما تقدم له مساعدات مالية إذا لم يتحصل المستوطن الجديد على منصب عمل، وقد ظهر القانون[1] إلى العلن بعد سلسلة من النقاشات الحادة والتعديلات المستمرة يوم 16أكتوبر 1871، بعد أن خوّل للحاكم العام التمتع بكل الصلاحيات في التصرف في تلك الأراضي لصالح المستقدمين[2]، شريطة أن يتم دفع إيجار قيمته 1فرنك مقابل كل هكتار لمدة عشر سنوات، ومن ثم يتم التنازل عنها نهائيا[3].

[1]-رغم أن السلطات كانت بباريس تؤيد الهجرة الواسعة للأوروبيين ،والفرنسيين بشكل خاص ،إلا أن الجدل الواسع حول قيمة ونوع المساعدات الزعم تقديمها للمرشحين للهجرة نحو الجزائر من سكان الألزاس واللورين تعود أسبابه للوضع المالي الصعب الذي مرت به فرنسا بعد الهزيمة النكراء أمام بروسيا عام 1870 ،والتعويضات والغرامات المالية الضخمة التي فرضته حكومة بروسيا على فرنسا .للمزيد حول القانون اطلع على :

-Villefort (Alfred),**Recueil des traités ,conventions, lois ,décrets ,et autres actes relatifs à la paix avec l'Allemagne**, tome 2, Paris-1870,p-p360-370.

[2]- Wahel (Alfred), L'insertion des émigrants Alsaciens-lorrains , la genèse de la colonisation , **Revue l'Algérianiste** ,N°100 ,Grenoble-décembre 2002,p,p19,20.

[3]- vignon (Louis),**La France En Afrique du nord, Algérie et Tunisie** ,Libraire Guillaumin et Cie-Paris,1887,p40.

وبعد الموافقة النهائية على إجراءات ترحيل الراغبين في الهجرة من سكان الألزاس واللورين، نظمت عدة رحلات انطلقت معظمها من ميناء مارسيليا، منها الرحلة التي تمت في شهر فيفري 1872والتي نقلها النقيب زيقلر » « Zeiglerمن ميناء مارسيليا إلى سكيكدة، والتي هاجر خلالها 167مهاجرا من الألزاس واللورين، وقد أثارت معاناتهم والإهمال الذي تعرضوا من قبل إدارة الاحتلال خلال الأيام الأولى في الجزائر استياءشديدا وانتقادات لاذعة، ليس في فرنسا فحسب بل في دول أوروبية أخرى كألمانيا وبريطانيا، وتبقى أهم الرحلات، هما الرحلة التي انطلقت في نهاية جوان من نفس السنة، والتي نقلت1360مهاجر منهم 977من الألزاس و383من اللورين، ضمت 36 أسرة، ثلاثون منها من الألزاس، استقروا معظمهم في مقاطعتي الجزائر، وقسنطينة كما هو مبين في الجدول[1] :

المقاطعة	الألزاسيين	اللورين	المجموع
مقاطعةالجزائر			
ريبيفال Rebeval	30	22	52
بال فونتان Belle fontaine	81	83	164
ذراع الميزان	46	64	110
باليسترو Palestro سان	9	4	13
بييار Saint-pierre	68	5	73
بلاد قيطون	31	98	129
كول دي بني عايشة	3	9	12
مقاطعة قسنطينة			
رينيون Réunion	100	85	185
بني زياد	600	0	600
مقاطعة وهران			
منداز Mendez	5	2	7
تيرني Terney	3	11	14
إينكرمان Inkermann	1	0	1
التعداد الكلي	977	383	1360

[1]- Wahel(Alfred) ,op-cit,p24.

أما الرحلة الثانية والتي تعد أكبر الرحلات هي تلك التي أشرفت عليها الجمعية المكلفة بحماية مهاجري الألزاس واللورين، والتي كتب عنها **"غي نيمار"** أحد أهم ناشطيها تقريرا مؤرخا في 05 ديسمبر 1872، ذكر فيه عن مدى تكاثف الجهود المبذولة من قبل أنصار توطين الأوروبيين في الجزائر، والظروف التي رافقت هجرة 2494مهاجرا في 31أكتوبر 1872، وقد جاء في التقرير ما يلي:"خلال إقامتي بمدينة مارسيليا يوم 30 نوفمبر وقبل سفريتي إلى مدينة الجزائر التقيت بالسيد والي عمالة بوش دي روون-**(bouches du(Rhône**و بالمشرفين على مؤسسة مساعدة مهجري الألزاس واللورين كل من م باوور، أوبرمان، فيلتان، ومن خلال المعلومات المستقاة من هؤلاء، فانه تمت هجرة 2494 في يوم 31أكتوبر 1872، وهم 365رب أسرة و363زوجةيرافقهم 1100طفل من أبنائهم، إلى جانب44 امرأة أرملة و622 رجل وامرأة، وزعوا في أرجاء مختلفة من الجزائر[1].

ومما سبق نلخص إلى أن أهم المناطق المصدرة للمهاجرين الفرنسيين هما منطقة الألزاس واللورين، وبالأخص السان ولابوش ديرون، والسان ..، ومنطقة الفرامنكونتوا لاعتبارات تتعلق بالظروف الاقتصادية و ديمغرافية خلال العقود التي سبقت عام 1871، غير أن الدوافع تغيرت بعد عام الحرب البروسية وإلحاق مقاطعتي الألزاس واللورين لألمانيا الموحدة وتصبح الهجرة تحت تأثير العوامل السياسية أكثر من الطبيعية والاقتصادية.

ب- **الهجرة اللاتينية المتوسطية نحو الجزائر**

تعد البلدان المتوسطية والمجاورة للجزائر أهم المناطق المصدرة للمهاجرين، إذ يأتي الاسبان والإيطاليون في مقدمة الشعوب المتوسطية المهاجرة و المستوطنة في الجزائر يليها الأنلجومالطيين ثم بنسب قليلة البرتغاليون واليونانيون، وذلك لأسباب مرتبطة بالتاريخ والجغرافيا للمنطقة أي القرب الجغرافي، وبالظروف الاقتصادية التي عاشتها شعوبها

-الهجرة الاسبانية والماهونية: كان الاسبان من أوائل المهاجرين نحو الجزائر، وينحدر أكثرهم من جزر البليار بالأخص من جزيرة مينوركا(Menorque) ، وقد شكل الماهونيون

[1]- Guynemer(M) ,**situation des alsaciens-lorrains en Algérie**,Imprimerie centrale des chemins de fer- paris-1873,p,p05,06.

السواد الأعظم منهم، وفي السنوات اللاحقة كان معظم المستوطنين الاسبان ينحدر من قرطاجنة، أليكانت وفالنسيا، وقد استقروا في مدن القطاع الوهراني، أما الماهونيون فقد استقروا في الجزائر العاصمة وقسنطينة، واشتغلوا فيهما كسائقي العربات،تهيئة الطرقات،عمال مزارعين، وفي المواصلات (طرق، موانئ،إلخ..)[1].

وبذلك تعتبر هجرة الماهون المنحدرين من جزيرة مايوركا أو مينوركا أول جماعية ومنظمة للأوروبيين أعقبت الاحتلال مباشرة، وتعود أسباب تلك الهجرة الكبيرة إلى الفقر الشديد الذي عانى منه سكان الجزيرة وشح الموارد والقحط والجفاف، ونظرا لصعوبة الوضع قام عامل القنصلية الفرنسية في سيوداديلا السيد خوان أوليفار Juan Olivar يوم 2فيفري 1832بمراسلة قنصل فرنسا بجزرالباليار موضحا له الحالة المزرية التي وصل إليها سكان الجزيرة، طالبا منه التوسط للمملكة الفرنسية بفتح باب الهجرة إلى الجزائر. والتي جاء فيها :"يتوجب علي أن ألفت انتباهك لموضوع المهاجرين الذين ترغبون في توطينهم في مدينة الجزائر، فمنذ احتلال الجيش الفرنسي لمدينة الجزائر، لم يتوقف سكان جزيرة مايوركا بمطالبتي للتوسط لديكم لمساعدتهم على الهجرة والاستقرار في الجزائر، ....إنهم يتضورون جوعا، وقطعة الخبز من الشعير لم تعد تسد رمقم، إنهم على حافة المجاعة، وهذا ما يتطلب منا إنقاذهم من الموت المحقق.."[2].

لم يتأخر الرد كثيرا إذ وافق الجنرال كلوزيل على العرض على اعتبار بأن المستعمرة بحاجة ماسة لليد العاملة وأمر بفتح باب الهجرة على مصراعيه، لتشهد هجرة الماهونيين دفعتين: الأولى: ما بين 1830-1835، حيث كانت غير منظمة وفوضوية، انطلقت من ميناء سيوداديلا ومن ماهون عبر سفن تكدست فيها الزمر البشرية بجانب السلع المتراكمة الحاملة للأجبان،والخمور والملابس..وقد حملت السفن الناقلة لهم أسماء حربية مثل فيكتوريا(النصر)، أل غيريرو (المحارب)، أل كابالو (الحصان)وكأنها جاءت لتقوم بغزو جديد لمدينة الجزائر، وقد استغلت إدارة الاحتلال تلك الجموع البشرية النازحة في الأعمال الشاقة والمرهقة كاستصلاح سهل متيجة وفي أعمال الزراعة والبناء مستفيدة من خبرتها ومن بنيتها القوية.

[1] - Ricoux(René),op-cit,p12.
[2]- Tudury (Guy),**La prodigieuse histoire des mahonnais en Algérie ,de Minorque en Algérie à partir de 1830**,Edition Lacour, Nîmes-2003,p86.

الثانية : كانت مابين 1835-1836، وأشرف عليها بارون فيلار[1](vialar)، الذي عمل على نقل الفلاحين المعوزين من ماهون إلى الجزائر للعمل في مزارع المستوطنين الفرنسيين. ورغم العمل الشاق استطاع هؤلاء الفلاحون الفقراء ادخار المال وشراء الأراضي، والتي ستتحول فيما بعد إلى مستوطنات صغيرة حول مدينة الجزائر، في كل من برج الكيفان (Fort- de- l'eau) عين طاية، عين البيضاء.

استقر الماهونيون بالجزائر العاصمة، ونشط أغلبهم في القطاع الزراعي ومزارع الطبقة البرجوازية الفرنسية الناشئة في المدينة، وبالضبط في السهل الساحلي الواقع في منطقة الحامة من شامونوفر« **champ de manœuvre** » إلى حديقة التجارب « **jardin d'Essai** »، وهذا ما سيمثل بداية لتشكل النواة الأولى للطبقية الاجتماعية داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر فيما بعد، ورغم أن جزيرة مايوركا كانت تضيق بهم، وطلباتهم للهجرة إلى الجزائر لم تتوقف بسبب النزوح الجماعي من الفقر والبؤس الذي مس معظم سكان الجزيرة، إلا أن التطور العددي للمهاجرين لم يرتفع كثيرا، ولعل هذا مرده إلى تفضيل إدارة الاحتلال إلى هجرة الفرنسيين على حساب باقي الشعوب المتوسطية، وما كان تدفقهم الكبير على الجزائر خلال السنوات الأولى للاحتلال، إلا لكون الفرنسيين كانوا ينتظرون استقرار الأوضاع بالجزائر، وتحسن الظروف فيها كي يهاجروا، وعلى العموم فقد قدر عدد الماهونيين سنة1833 ب981 شخصا، ثم ارتفع العدد إلى 8164 شخص سنة1843، وفي سنة 1880إي بعد مرور 50سنة على الاحتلال قدرت الإحصائيات الفرنسية عددهم بحوالي 10000شخص، أي ما يمثل 43%من سكان مدينة العاصمة، والباقي توزعوا على باقي المدن الساحلية ولا سيما الغربية منها[2].

إلى جانب هجرة الماهونيين، هيمنت هجرات الأليكانتيين (Les Alicantins) والمورسيين (Les murciens)على المشهد الاسباني في الجزائر، وتأتي هجرة الأندلسيين القادمين من

[1]-البارون أوغيسان دو فيالارAugustin de vialar:من مواليد 30سبتمبر 1799ب غايلاك Gaillac ،بعد إكمال دراسته في الحقوق والقانون اشتغل نائبا عاما عن الملك شارل العاشر في ابرناي Epernay،وبعد تولي لويس فيليب الحكم اختلف معه ليعلن استقالته عن منصبه ويرحل إلى الجزائر ،ليعمل مع ماكس دوتوناك في توسيع الاستيطان في متيجة وامتلاك العقارات الواسعة فيها ،وبالضبط في تقصيرين والقبة ،إلا أن أبرز ممتلكاته ضيعة الحوش الخضراء المقدرة ب300 هكتار ،كما عمل في مجال التبشسر الديني مع شقيقته الأخت إميلي Sœur Émilie،فقد أسس مستشفى في بوفاريك لمعالجة المرضى من الأهالي ، ،بينما ترأست أخته جمعية تبشيرية عرفت باسم سانت جوزيف لإسعاف الجرحى من الجيش الفرنسي.تولى منصب نائب رئيس بلدية الجزائر العاصمة سنة 1848،ثم مستشار عاما للوالي العام حتى وفاته عام. 1868
Yrssou(Henry),**Augustin de vialar en Algérie de 1832à1868**,in Millénaire de Gaillac, Tome1 , Paris ,p-p80-103.

[2] - Lamboley (Claude),op-cit, p42.

منطقة ألميريا (Almèria) بشكل كبير في المرتبة الأخيرة في ترتيب المهاجرين الاسبان . وكحال كل الاسبان، الذين اضطروا إلى الهجرة، كانت الأزمات الزراعية الحادة والمتتالية التي ضربت شبه الجزيرة الإيبيرية بشكل حاد خلال الأربعينيات والخمسينيات، وضعف القاعدة الصناعية في إقليم الأندلس عاملا رئيسيا في النزوح الكبير لسكان الجنوب الاسباني الى الجزائر طيلة القرن 19، مما أدى بالسلطات الاستعمارية إلى إعادة التفكير في مسألة الهجرة[1].

عمل الجمهوريون على تبني سياسة جديدة ذات أبعاد عنصرية، وبشكل مغاير تماما للسياسة التي كانت قد انتهجت من قبل خلال الحكومات السابقة، فالمعطيات الاجتماعية والاقتصادية خلال نهاية القرن التاسع عشر دفعت بالإدارة الاستعمارية إلى ضرورة تنويع المجتمع عرقيا، والتقليل من الهجرات الاسبانية بسبب المشاكل التي كانت تطرحها هذه الجالية على الدولة، والرغبة في تعويضهم بمهاجرين من أصول أخرى كالسويسريين والألمان، مما نتج عنه تغير في المرجعيات الأساسية لسياسة الهجرة وتحول السياسة العامة للهجرة لتعتمد أكثر على انتقاء العناصر القابلة للاندماج والمستعدة لتقديم الأفضل للمستعمرة[2].

وعلى الرغم من ذلك فقد عادت الهجرة الاسبانية نحو الجزائر أكثر من ذي قبل، فعلى سبيل المثال سجل عام 1879 هجرة 2878اسباني من ألميريا نحو وهران، كما سجل في ذات السنة هجرة 1533 اسباني من مدينة أليكانت نحو وهران .غير أن أغلب هؤلاء كانوا مهاجرين موسمين ومزارعين، فبعد أن يتموا مهام حراثة الأرض في اسبانيا في بداية الخريف يرحل هؤلاء لتمضية موسم الشتاء في الجزائر لأداء أعمال أخرى ويعودوا مرة أخرى إلى البلد الأم في موسم الصيف، وهو ما اصطلح عليه آنذاك "بهجرة السنونو"[3].

ولذا فإننا إذا ما حللنا المعطيات الرقمية لأعداد المهاجرين الاسبان نهاية القرن التاسع وحتى الثلاثينات من القرن العشرين، سنقف حتما إلى أبعاد تلك السياسة العنصرية اتجاه الاسبان، بعدما رفض طيف واسع منهم التجنيس الاوتوماتيكي، والاندماج في الشعب الجديد الذي كان في

[1]- Vilar (juan bautista), **« quelques conséquences en Espagne du soulèvement algérien de1881 (dans le courant migratoires hispano-algériens et dans relations hispano-françaises)** »,Revue de la casa de Velázquez ,Tome 19,Espagne ,1983,p276.
[2] - Temime (Emil), « **la migration européenne en Algérie au 19eme siècle :migration organisé ou migration tolérée** »,Revue de l'occident musulman et de la méditerranée,N°43 ,Paris -1987, 38.
[3]- Vilar (juan bautista) ,op-cit,p,p276,277.

طور التكوين كما خطط له منظرو الفكر الاستعماري في الجزائر، وهذا ما مثّل تهديدا للمشروع الاستيطاني برمته.

وفي الأخير يمكن الإشارة هنا إلى أن أهم المناطق التي استوطن فيها الاسبان هي القطاع الوهراني، فحسب إحصاء 1936، كان التركيب الإثني للاسبان في الغرب الجزائري، كما يلي:-دائرة وهران ب45.420-دائرة سيدي بلعباس :9.331 -دائرة معسكر :3.770-دائرة تلمسان:3.712[1]، وهو ما يمثل أكثر من نصف الجالية الاسبانية المستقرة في كامل الجزائر .

-الهجرة الأنجلومالطية:انطلاقا من سنة 1830، بدأ المالطيون بالتوجه للاستيطان المبكر في شمال إفريقيا .وقد لعبت الظروف الاقتصادية المتدهورة، وصغر الجزيرة، وافتقارها للموارد الطبيعية، وضيق المساحة الزراعية وتأخرها عن الركب الصناعي الذي عرفته الدول الأوروبية خلال تلك الفترة، وقربها من بلدان الشمال الإفريقي، إلى تحّولها إلى مركز رئيسي لتصدير المهاجرين المالطيين نحو المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا، وكندا، ونحو المستعمرات البريطانية، وبالتحديد مصر، وفي وقت لاحق المستعمرات الإيطالية بالتوجه للاستيطان في ليبيا[2]، أما اتجاه الهجرة المالطية نحو إفريقيا فقد انقسمت إلى اتجاهين رئيسيين، الوجهة الأساسية الأولى وهي الجزائر، والثانية باقي المستعمرات الأخرى، وقد لعب القرب الجغرافي وتشابك العلاقات بين المالطيين والشمال الإفريقي، وإتقان المالطيين للغة العربية دورا في تفضيل أغلب المالطين للهجرة والاستيطان في شمال إفريقيا، بدءا بالجزائر، ثم تونس بعد الحماية الفرنسية لها عام 1881[3].

والملاحظ فإن هجرة المالطيين نحو الجزائر كانت تندرج في خانة الهجرات الأوروبية غير المحببة من قبل الفرنسيين، إذ لم يسمح لتوافدهم إلا بعدما تيقنت إدارة الاحتلال من فشل الاستقطاب القوي للفرنسيين، وفي ظل غياب أي سبب عن الدوافع الحقيقية التي تقف وراء هذا النفور الفرنسي من قدوم المالطيين، يبقى الاحتمال الرئيسي هو رغبة الاحتلال الفرنسي

[1]- مهيديد (إبراهيم)،**القطاع الوهراني ما بين 1850-1919دراسة حول المجتمع الجزائري ،الثقافة والهوية الوطنية** ، منشورات دار الأديب، وهران-2009،ص13.

[2]-Carmel (Sammut) , **« les communautés migrantes maltaises de Tunisie installées en France : un cas d'acculturation coloniale (problématique et hypothèse de recherche) »**, Revue d' histoire maghrébine, N°21-22,8eme Année , Avril 1981 -tunis,p41.

[3]- Spitéri (Richard), « **Le Maltais de L'Afrique du nord** »,Revue de l'Algerianiste, Trimestre N°97, mars 2002,p86.

في الحفاظ على نقاوة العرق الفرنسي من الاختلاط بالأجناس الأخرى، والخشية من انحلال العنصر الفرنسي، وتؤكد العديد من الشهادات المستقاة من تلك الفترة هذا التوجه الانتقائي العام حول موضوع الهجرة، ومن بينها شهادة القنصل الإنجليزي في الجزائر عام1832، حينما وجه رسالة إلى الحكومة البريطانية، ذكر فيها :" لا يحبذ الفرنسيون المهاجرين المالطيين إطلاقا، ولا يضيعون إي فرصة لإذلالهم وإهانتهم، إذا بدا منهم أي تصرف غير لائق، إنهم يضايقونهم في معظم الأحيان لإجبارهم على الرحيل"[1]، بينما يرجع الباحث الفرنسي إيميل تيميم سبب توجس الفرنسيين من المالطين، هو الخوف من منافسة المالطيين للمستوطنين الفرنسيين في مناصب العمل الدائمة، والتي كانت تشح لفترات معينة، ولذلك كان يسمح فقط باستقدام المالطيين للعمل في الأعمال الشاقة أو في الأعمال الموسمية، وبالتالي كانت ترتبط هجرتهم بحاجات الجيش الفرنسي في الجزائر، لا أكثر [2].

-الهجرة الإيطالية : يأتي المهاجرون الإيطاليون في المرتبة الثالثة من حيث تعداد المهاجرين الذين هاجروا إلى الجزائر خلال القرن التاسع عشر، بعد كل من الفرنسيين والاسبان .

تؤكد المعطيات المستخرجة من سجلات الشرطة الإيطالية الموسومة ب**"لابيبليكا سيتشيوريزا" « la pubblica sicurezza »** بأن السواد الأعظم من المهاجرين الإيطاليين اختاروا الهجرة غير الشرعية والمقننة وسلكوا دروبا بحرية وبرية غير آمنة وأقل مراقبة، واختار العديد منهم عبور الأراضي التونسية، لاختراق الحدود التونسية الجزائرية للاستقرار في الجزائر، إذا ما توفر العمل الدائم والظروف الملائمة لذلك، أما إذا لم يحظ المهاجر الإيطالي بالحياة الكريمة فإن الكثير منهم كان يفضل مواصلة مغامرة الهجرة إلى المغرب الأقصى لركوب الأطلسي نحو بنما ودول أمريكا الجنوبية، وفي مقدمتها الأرجنتين، بدل العودة إلى الوطن الأم، واستمر ذلك إلى غاية الاحتلال الإيطالي لليبيا سنة 1911[3] .

والملاحظ فإن الهجرة الإيطالية نحو الجزائر لم تكن كثيفة في بدايات الاحتلال، لتصبح في نهاية الأربعينات أحد أهم الروافد الرئيسية للهجرة الأوروبية نحو الجزائر، فقد أحصت

[1]- Temime (Emil),op-cit, p38.
[2]-Ibid,p,p38,39.
[3]- Rainero (Romain), « **Les italiens en Afrique du nord »,** Revue des publications de l'école française de Rome ,N° 94 ,Rome ,Italie-1986,p748.

جريدة لومونيتور ألجيريان « **Le Moniteur Algérien** » عدد المهاجرين الإيطاليين عام 1852 ب7607 مهاجر من بين 132980مهاجر أوروبي حل بالجزائر خلال تلك السنة، ومن جهته أكّد جول ديفال، وهو أحد المتتبعين لتاريخ الهجرات الأوروبية نحو العالم بأن عقد الخمسينات والستينات يمثلان أوج التدفقات الإيطالية نحو الجزائر، فقد وصل عدد المهاجرين الإيطاليين نهاية الخمسينات 12765مهاجر، أي حوالي 5000مهاجر جديد كل سنة في الفترة الممتدة مابين 1852-1860، ليستمر ذلك طيلة الستينات[1] .

أما نهاية الستينات، فقد شهدت حركية الهجرة تراجعا نسبيا، بعد إصدار السلطات الإيطالية لمنشور **"لانزا" « Circulaire Lanza »**، الصادر ب23جانفي 1868، والذي قيّد مؤقتا هجرة الإيطاليين نحو الجزائر والولايات المتحدة، ومع ذلك فقد أخذت الهجرة نحو الجزائرمنحنى تصاعديا في مطلع السبعينات، بل أصبحت الجزائر الوجهة الأكثر تفضيلا للمهاجرين الإيطاليين من فرنسا، فإذا ما قارنا بين عدد المهاجرين الإيطاليين نحو الجزائر ونحو فرنسا في سنة 1876، لوجدنا أن عدد المهاجرين نحو الجزائر أصبح أكثر من فرنسا، فقد فاقت النسبة 16%من التي في فرنسا، وذلك في سنة 1876 لوحدها، لتزيد عن 17%في سنة 1886.وتعود أسباب هذا الاجتياح الكبير إلى إطلاق سلطات الاحتلال للمشاريع الكبرى في مجال البنية التحتية والعمران و في مجال الطرقات و الصيد البحري[2]، ولذلك نشط الايطاليون المنحدرون من بيدمونت، وبالأخص من المملكة القديمة المشكلة من الصقليتين وسيردينيا في مجال الصيد البحري والزراعة، فقد سكن الصقليون والنابوليتان السواحل الشرقيةوامتهنوا حرفة الصيد والتجارة، وظلت تعاملاتهم التجارية تتم لوقت طويل مع مدن الجنوب الايطالي مثل نابولي والجزر القريبة منها، وأهممها جزيرة **Ischia Procida** »« ، أما السردينيون الذين استقروا بسكيكدة واشتغلوا بالزراعة كحال النابوليين الذين عملوا في زراعة الكروم[3].

والجدول التالي يبين تطور الهجرة الإيطالية نحو الجزائر وتونس مابين (1881-1899)[4]

[1] - Ibid,p751.
[2]- Ibid,p752.
[3] - Ricoux (René) ,op-cit,p12.
[4]- Rainero (Romain) ,op-cit,p748.

السنة	1881	1882	1883	1885	1886	1888	1890	1894	1899
الجزائر	1552	3325	2882	3423	2243	751	744	810	1150
تونس	265	2235	1867	818	1557	902	522	828	1246

إن المقارنة المقتضبة لهجرة الإيطاليين نحو الجزائر وتونس تكشف لنا ملاحظتين أساسيتين:

1-ارتفاع عدد المهاجرين الإيطاليين نحو الجزائر أكثر من تونس بالرغم من القرب الجغرافي لتونس من إيطاليا، وهو ما يؤكد حتما بتوفر الظروف الملائمة للاستثمار والعمل والمستوى المعيشي الجيد في الجزائر، بسبب اتساع الجزائر وغناها وتنوع إمكاناتها، وأهم من ذلك سياسة الاحتلال الاستيطانية المشجعة للهجرة.

2-تقارب أعداد المهاجرين للمستعمرتين نهاية القرن التاسع عشر، وهذا مرده السياسة الإنتقائية الفرنسية، ومحاولات فتح الهجرة لشعوب تراها أكثر ذكاء، وتخوف الإيطاليين من سياسة التجنيس الأوتوماتيكي مثلما سنوضح ذلك لاحقا، مما أدى إلى تحول مسار هجرة الإيطاليين نحو تونس .

ج-هجرة الإنجليز: يعود الارتباط البريطاني بالمستعمرة الجزائرية إلى الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي، فمباشرة بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر، حيث قام القنصل الإنجليزي روبارت وليام سانت جون william saint-jhonبمهمة الوساطة بين الداي حسين والجيش الفرنسي، كما عينه الطرفان لإدارة أملاك الداي حسين، وبذلك لقي الاحترام من الطرفين .استمر القنصل سانت جون بالإقامة في الجزائر في فيلا قبالة كاتدرائية "نوتردام دافريك" « Notre dame d’Afrique »يمارس مهامه الدبلوماسية، ونشاطاته التجارية، وإلى جانبه كان عدد قليل من الارستقراطيين الإنجليز عدوا على أطراف الأصابع، أهمهم الطبيب باون « Bawn »الذي استقر في المنطقة التي عرفت باسم "شاتو دو حيدرة" .

أما خارج هذا المجتمع الصغير فلم تكن هناك جالية ذات شأن كبير، ما عدا بعض التجار المستقرين في موانئ وهران والجزائر وعنابة، ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الحضور الإنجليزي في الجزائر، هو عقلية الإنجليز التجارية التي لا تفضل في أغلب الأحيان الاستقرار في موضع واحد، وتفضيلها التنقل بين الموانئ التجارية سواء أكان خارج المتوسط

أم في داخله ضمن المستعمرات الإنجليزية المتواجدة في جبل طارق و مالطا و قبرص ومصر فيما بعد، وكان استقرار معظمهم ظرفيا ومؤقتا، ينشط أغلبهم في استيراد الخمور والموارد الطبيعيةمن الجزائر ويصدرون لها الفحم والتبغ والنسيج وغيرها من المواد الأخرى [1]. فهل كان ذلك بداية فعلية للوجود الإنجليزي، أم أن وجودهم كان محدودا انتهى بمجرد فرض الاحتلال الفرنسي على الجزائر، وطغيان العنصر الفرنسي؟.

كان يجب الانتظار حتى عام 1843، ليبدأ توافد الإنجليز على الجزائر، بعد تدفق الاستثمارات ودخول الشركات الفرنسية والأوروبية، وتزايد نشاط المضاربة والنهب العقاري في الجزائر، واستمر ذلك إلى غاية الأزمة الاقتصادية لعام 1846، ورغم ذلك فقد كانت الفترة قصيرة جدا لجذب الكثير من الاستثمارات الإنجليزية، وبالمقابل عمل الكولونيل سكوت« scotte » -وهو أحد المتعاونين مع الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري، وأحد المعجبين بالمقاومة الوطنية، –على توجيه نداء إلى الحكومة البريطانية بالتعاون الاقتصادي مع عبد القادر، وكان من بين القلائل الذين كانوا ضد التيار الاستعماري الاستيطاني، وقد طالب بتأسيس شركة إنجليزية في الجزائر، وفي تلك الفترة، كانت عائلة إنجليزية أخرى هي "عائلة براين" في أقصى الشرق تعمل على الاستحواذ على امتياز استغلال الحديد بالقرب من عنابة، وستسعى فيما بعد على جذب عدد من العمال الإنجليز والأيرلنديين بالشرق الجزائري والجزائر العاصمة، لكن الأمر لم يجر حسب التوقعات، إذ عاد الكثير من العمال الإنجليز أدراجهم نحو بريطانيا فيما تمسك القليل منهم بالبقاء[2].

إن أهم ما يلفت نظرنا في هجرة الإنجليز بأنها تميزت عما سواها من الهجرات الأوروبية في عدة خصائص، هو أنها كانت ظرفية ومؤقتة ومرتبطة أساسا بالنشاط التجاري، وعلى شكل هجرات إقامية خلال موسم الشتاء، وبعد مرحلة الفتور الذي أصابت الجزائر ما بين 1846-1858 تجددت هجرة الإنجليز الموسمية نحو الجزائر، بحلول عام 1859، حيث استقبلت الجزائر عدد اهاما من الإنجليز، وكان لهذا القدوم مسببات عدة، أهمها: استتباب الأمن بعد حرب القرم، و توفر النقل نحو الجزائر، وموقع الجزائر كمحطة لرسوّ السفن،

[1]- Redouane(Joëlle), « **La présence anglaise en Algérie de 1830 A 1930** »,Revue de l'occident musulman et de la méditerranée ,N°38 ,centre national des rechreches scientifiques ,Aix –en provence-1984,p,p15,16.
[2]- Ibid,p16.

لكونها في موقع وسط بين المستعمرات الإنجليزية (طارق غربا، وقبرص ومالطا شرقا)، كما كان للتلوث الذي حل ببريطانيا بعد انتشار الصناعة المعتمدة على الفحم في بريطانيا خلال الانقلاب الصناعي، وما انجر عنه من تفشي الإصابات بداء السل للعديد من العمال دورا في تفضيل الكثير منهم في تحويل إقامته المؤقتة إلى دائمة، يضاف إلى ذلك ملائمة المناخ المعتدل للجزائر، ومع ذلك لم يستقر مؤقتا منهم سوى 353من الإنجليز غير المالطيين،عام 1864 [1].

د-هجرة السويسريين والألمان : كان للعقيد لاموريسييردورا في هجرة الأوروبيين من غير الفرنسيين نحو الغرب الجزائري، ففي عام1846تدخل لنقل869ألماني عالق في ميناء دانكارك بشمال فرنسا وتسهيل هجرتهم نحو الإقليم الوهراني وتوطينهم في المنطقة الممتدة مابين عين ستيديا وسانت ليوني [2].

لم الجزائر المفضلة المهاجرين الألمان، لا سيما في أواخر القرن التاسع عشر، فقد شكلوا في البداية جالية كبيرة، واستقطبتهم الدعايات الفرنسية الهادفة لتنويع الأصول الجنسية للمستوطنين، وقدموا في شكل جماعات كبيرة، حتى شكلوا مجموعة بشرية هامة، بلغ تعدادها سنة 1855 10.000ألماني، لكن تغير بوصلة الهجرة، نحو مناطق بعيدة عن إفريقيا كالأمريكيتين، قلل من أعدادهم، فلم يبق منهم سوى 5722 في الإحصاء العام لسنة 1876، وأقل من 3949في إحصاء 1881، وقد مثلت النسبة المرتفعة للوفيات خلال العقود الأولى للاحتلال والتجنيس الاوتوماتيكي لعام 1889عوامل ساهمت في اختفاء هذه الشريحة من المستوطنين وتندمج نهائيا مع سكان الألزاس واللورين بعد عام 1871[3]، وكان أغلب المستوطنين الألمان ينحدرون من بافاريا وبادونيا، اشتغل معظمهم في التجارة والزراعة، واستقر أغلبهم في المدن الساحلية كعنابة الجزائر وهران[4].

والجدول التالي يبين لنا التطور في أعداد المهاجرين الألمان من سنة 1833إلى غاية 1876[5]

---

[1]-ibid,p18.

[2] - Verdès –Leroux (Jeannine), **L'Algérie et la France** ,Editions Robert Laffont ,Paris- 2009, p,p513,514.

[3]- كاتب (كمال)،المرجع السابق،ص56

[4]- René Ricoux ,op-cit,p13.

[5]- Fillias(Achille) ,**Dictionnaire des communes , villes et villages de L'Algérie** ,Imprimerie de typographique et lithographique j. Lavagne ,Alger-1878,p131.

السنة	1833	1836	1841	1851	1856	1861	1866	1872	1876
العدد	692	783	1.547	2.854	5.440	5.816	5.436	4.933	5.722

كما كان الغرب الجزائري أحد القبلات المفضلة للعديد من المهاجرين من بلدان أوروبا الوسطى أهمها سويسرا، ففي أوائل سنة 1850قدمت إلى الجزائر أول دفعة من المهاجرين السويسريين من منطقة فالي Valaisإلى الجزائر،واستقرت في مستوطنة حمر العين الريفية[1]

كما كان للمستوطن بريشي « Bruchet »، وهو أحد المعلمين السويسريين في الجزائر دورا كبيرا في ذلك، إذ لعب دور الوسيط بين الحكومتين السويسرية والفرنسية حول إجراءات هجرة السويسريين، وتولى الإشراف على عملية الهجرة من بدايتها وإلى غاية نهايتها، و في تقريره أرسله لحكومته آنذاك عبر عن سعادته لهجرة السويسريين إلى الجزائر، آملا بأن يكون مثلا للكثير من أبناء جلدته من السويسريين، ولم يمض وقت طويل حتى كانت دعايته الرنانة في سويسرا قد وقعت في نفوس الكثيرين، إذ قرر 200من السويسريين تنظيم هجرة أخرى بعد شهور قليلة عن الرحلة التي تم تنظيمها في بداية عام 1850، و كانت هذه المرة نحو الشرق الجزائري، واستقرت بسكيكدة في عمالة قسنطينة[2].

ولما تكللت الهجرات الأولى بالنجاح الكبير، تشجعت عدة عائلات سويسرية أخرى لركوب البحر والتوجه نحو الجزائر في دفعة ثالثة، حيث وصل 54سويسريا إلى مدينة الجزائر العاصمة ما بين 05و10أفريل 1850، إلا أن هذه الدفعة لم تحظ مثلما حظيت به الدفعتان السابقتان من حفاوةالاستقبال، فقد كان الخلاف الذي نشب بين القنصل السويسري في الجزائر ووالي عمالة الجزائر العاصمة حول ظروف إيواء هؤلاء المهاجرين الجدد سببا في معاناتهم، وترحيلهم إلى مستوطنة حمر العين نهائيا بعيدا عن ما اختاروه في البداية .بيد أن كل تلك المشاكل لم تكن حائلا أمام استمرار حركة الهجرة السويسرية نحو الجزائر، ففي 4مايو أي بعد شهر فقط نظمت رحلة بحرية جديدة نحو الجزائر، حملت215مهاجرا سويسريا، وزع

[1] -Le marquis de Cosentino ,**L'Algérie en 1865 un coup d'œil d'un colonisateur** , Les édition des Paul Dupont et Challamel –Ainé ,Paris-1865,p33.
[2]-Ibid,p,p33,34.

58منهم على مستوطنة حمر العين،والباقي استقر في مناطق مختلفة من الجزائر، أوعاد أدراجه نحو سويسرا، بعد أن اصطدم بالظروف غير المتوقعة [1].

بعد هذه الرحلات المكثفة، تراجعت هجرة السويسريين بشكل دراماتيكي في السنوات والعقود اللاحقة، وكحال العديد من المهاجرين غير الفرنسيين يلقي العديد من المنظرين لسياسة الهجرة والاستيطان، وفي مقدمتهم »كوسنتيو « Le marquis de Cosentino » باللائمة على حكومة الإمبراطور، متهمين سياستها بالعمل الذي يضيّق الخناق على الأوروبيين، ويسبب التراجع في وتيرة المهاجرين الألمان والإيرلنديين والسويسريين نحو الجزائر، وتزايد معدلات الهجرة الأوروبية نحو الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، ويحمله تبعات قراراته المتعلقة بالتضييق على عملية الاستيطان في الجزائر، والأغرب من ذلك فقد اعتبر العامل الرئيسي في توقف هجرة السويسريين والألمان هو عدم وفرة الأرض، مستندا في ذلك إلى الرسالة الشهيرة التي أرسلها الإمبراطور إلى الحاكم العام للجزائر مالاكوف[2]، والتي تحدث فيها نابوليون عن قلة الأراضي في إقليم التل، وامتعاضه عن جشع الكولون المتزايد في الأرض، في الوقت الذي يقومون بعمليات المضاربة والتلاعب في بيع الأراضي، محملا المستوطنين عدم الوفاء والالتزام، بالشروط المتعلقة بالاستيطان . والحق فإن هذا الحكم من أحد المتعصبين للاستيطان يفتقد للكثير من المصداقية، ويحمل في ثناياه العديد من المغالطات التاريخية، والأحكام غير الموضوعية، فلم يكن نابوليون يوما ضد الاستيطان الأوروبي، أو كانت سياسته تتعمد التضييق على المهاجرين، وإنما كانت رؤيته تعطي الأولوية للاستيطان الرأسمالي، الذي حتما سيوسع للاستيطان ويفتح الباب لهجرة الأوروبيين

والجدول التالي يوضح جنسيات المهاجرين الأوروبيين غير الفرنسيين إلى غاية 1838[3].

جنسية	برتغاليين	أنجلو-مالطين	إنجليز أيرلنديين	بلجيكيين وهولنديين	ألمان	سويسريين	بولنديين	جنسيات أخرى
العدد	158	7511	353	562	5759	1942	225	1207

[2]- **Lettre de L'empereur Napoléon à Le Maréchal Duc de Malakoff gouverneur général de l'Algérie**, 6 Février 1863 ,In statistique et documents relatif sur la propriété arabe, Imprimerie impériale,Paris -1863.
[3]- de Girardin (Emile),op-cit, p14.

ثانيا:السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر وتطورها مابين 1830- 1945

1-الجهود الأولى لتعمير الجزائر " الاستيطان الضيق والعشوائي " (1830-1840)

سقطت الجزائر وابتهجت المملكة الفرنسية بالنصر، وبين نشوة النصر وانتشار الفوضى ، كان التساؤل العام الذي دار في أروقة البرلمان الفرنسي،وفي أذهان الساسة:ما مصير الجزائر،وما مستقبل الوجود الفرنسي فيها؟.وهل سيتم الاحتفاظ بالمناطق المحتلة دون التوغل نحو المناطق الداخلية أم أن الأمر يستحق التضحية والمجازفة باستكمال احتلال كل الجزائر ؟.

في الواقع فقد كانت نية حكومة الملك هي فكرة مواصلة الاحتلال نحو الداخل،غير أن الرأي السياسي الفرنسي ظل مرتبكا ،ولم تكن هناك سياسة واضحة المعالم اتجاه الجزائر ،وبلغ الانقسام أوجه بين مؤيدي الاحتفاظ بالمناطق المحتلة وبين الرافضين لبقاء فرنسا في الجزائر من جهة،و أنصار الاحتلال الكامل وأنصار الاحتلال الضيّق من جهة ثانية ،ولم يقتصر الانقسام السياسي في أعلى هرم السلطة بل امتدت تأثيراته إلى قادة الجيش أنفسهم [1] .

لم يكن النقاش الساخن حول مسألة الاحتلال الضيق في المناطق الساحلية أو توسيعه في الداخل فحسب ،بل توسعت جلسات النقاش والاختلاف حول مسألة نوع الاستيطان الواجب تطبيقه في الجزائر ،بين أنصار الاستيطان القديم ،الذي يقوم على إنشاء مستوطنات على الطريقة الإغريقية القديمة ،أو حسب النموذج الروماني، وبين أنصار الاستيطان الحديث ،كالاستيطان الإنجليزي في أمريكا ، أو الذي طبقته روسيا في المناطق التي استعمرتها،غير أن الأمر الذي وجد إجماع رجال السياسة والجيش ،هو الاتفاق وجوب تسريع الاستيطان ،بأقل التكاليف أو خسارة في الوقت والمال والدم ،وعن نوع الاستيطان الذي يلائم فرنسا ،وليس الاستيطان الذي يلائم الجزائر[2].

ولما كان الأهم لفرنسا هو تفعيل الاستيطان في المناطق المحتلة ،ريثما يتم البت في توسيع الاحتلال نحو الداخل من عدمه،أوفدت فرنسا لحكم الجزائر أشد المتحمسين للاستيطان،وهو الماريشال كلوزيل ، الذي عمل بعد وصوله إلى الجزائر على تنظيم الجيش،وبث فيه روح

[1]- Shefer (Christian), « **La conquête totale de l'Algérie 1839-1843, Valée, Bugeaud, Soult** » , Revue de l'histoire des colonies française,Paris- 1916, p23.
[2]- Picot (Jean- Bonaventure Charles) ,**Colonisation de l'Algérie ,** Moquet Librairie –Editeur ,Paris-1848,p02.

الصمود والمقاومة لمواجهة القبائل الأهلية الثائرة،ومنحه الضوء الأخضر للتصرف بكل حرية في الممتلكات الأهلية وأطلق يده للتوسع في ضواحي مدينة الجزائر،كما عمل على وضع اللبنات الأولى للاستيطان العسكري ،ولم يكتف بذلك فحسب، بل راسل وزارة الحربية بتاريخ 29سبتمبر 1830 للأخذ برأيها حول مسألة التوسع والاستيطان في الداخل ، طالبا منها تحويل مدينة الجزائر إلى مستوطنة صغيرة للفرنسيين وللأوروبيين الذين رافقوا الحملة، أو الذين التحقوا بعدها[1]، ولم يطل الرد كثيرا ،فقد استجاب وزير الحربية الفرنسية ،آنذاك **"جيرار"« Gérard »** لطلب كلوزيل ،حيث أرسل له في يوم 30أكتوبر 1830رسالة يطلعه فيها بأن حكومة الملك قد استجابت لطلبه ،وبأنها مستعدة على إقامة مستوطنة كبيرة في مدينة الجزائر،وتمنحه الضوء للإسراع في عملية توطين الأوروبيين[2].

يمكن أن نحدد سياسة الاستيطان عند كلوزيل في مبدأ واحد ،وهو تجميع المستوطنين الأوروبيين في مراكز استيطانية محدودة في المناطق المحتلة ،يكون فيها المستوطن فلاحا وحرفيا يستغل خبرته التي كسبها في حقول أوروبا لترويض الأرض الإفريقية القاسية ،واستثمار خيراتها ،ويكون فيها الجندي الفرنسي حاميا للمستوطنة ،ورادعا للقبائل المتمردة ،وضامنا لأمن الأوروبي وعائلته الصغيرة ، وتكون فيها سلطة الاحتلال جهازا يشرع القوانين ،ويضبط الحياة العامة في المستعمرة ويديرها.

وفي سبيل ذلك كله ،طلب الماريشال كلوزيل خلال فترة حكمه الأولى للجزائر (1830-1831) من الحكومة الفرنسية إرسال لجنة تتكون من مشرعين وقانونيين فرنسيين لوضع منظومة قانونية تسير المستعمرة وتديرها شؤونها[3]،وللسيطرة على القبائل الثائرة،أسس فرقة "الزواف" ،وهي ميليشيات أهلية متعاونة مع جيش الاحتلال لضبط الأمن والقضاء على الثورات الأهلية المتواصلة،كما عمل على إعادة الثقة المهتزة للجيش الفرنسي.وفي مجال إدارة الشؤون العامة للمستوطنين الأوروبيين وتسهيل أمورهم الخاصة ،أعطى كلوزيل التعليمات الأولية للجنة الحكومة بمباشرة مهامها ،والتي تكونت من وزير الداخلية ،ووزير

[1]- Dubois(Marcel) Terrier (Auguste),**Les colonies françaises ,Un siècle d'expansion coloniale**, Augustin Challamel Editeur, Paris-1902,p203.
[2] -Anonyme,**pétition des colons d'Alger à la chambre des députés**, Imprimerie selligue,Paris-1833, p08.
[3]-Bertrand (Clauzel), **Nouvelles observations sur la colonisation d'Alger** ,Imprimerie selligue- Paris-1833, p29.

العدل ، ووزيرالشؤون المالية .إلى جانب ذلك عمل على تأسيس المحاكم ودور القضاء ،ومصالح للضرائب والمقار الإدارية ،ومؤسسة للجمارك ،وفيما يخص مجال التعمير ،فقد أعاد كلوزيل هيكلة البنية التحتية لمدينة الجزائر ولبقية المدن الكبرى الأخرى التي استوطن فيها المهاجرون الأوروبيون،أما الضيعات والقرى الاستيطانية الجديدة فقد أمر كلوزيل قادة الجيش وفرق الهندسة التابعة له بتنظيمها وتوفير البنية التحتية لها،من قنوات الصرف الصحي ، مخازن للمياه،وطرق..وغيرها [1].

ولما كان الاستيطان مرتبطا بالمال والاقتصاد ،فقد أسس كلوزيل المؤسسات الزراعية الكبرى و المؤسسات الصناعية الصغيرة لتحسين ظروف العمال الأوروبيين وتعمل على تغيير نمط الإنتاج ، وتسهم في استصلاح الأراضي البور وزراعتها بالمحاصيل النقدية الجديدة والمربحة[2]،ولما كان إدماج هذه الأقلية الجديدة في الوسط الأهلي عاملا مهما في تكيّف المستوطنين وتعودهم على الحياة الجديدة في الأرض الإفريقية،أنشأ المدارس العمومية لكل من أبناء المعمرين والأهالي،وأنشأ مؤسسة للطباعة باللغتين العربية والفرنسية ،وفي عهده ظهرت أول صحيفة كولونيالية ،وهي المرشد الجزائري إلى غيرها من المنشآت الأخرى[3] .

كل تلك الأعمال التي أمر الماريشال كلوزيل بإنشائها في مدينة الجزائر، وفي المدن التي خضعت في السنتين الأولى للاحتلال(1830-1831) كانت قبل أن تعلن اللجنة الإفريقية تقريرها ،ولم تبث الحكومة الملكية في قراراها بعد .فلماذا كل هذه الإجراءات لتثبيت الاستيطان ،وما فائدة كل هذه الإنجازات مادام الأمر قد ينتهي بوقف الاحتلال أو حصره في نطاق ضيق ،فهل غامر كلوزيل ،أم أن النية في الاستيطان الدائم كانت فكرة تساور الجميع؟.

نجد الإجابة في المراسلات التي تمت بين الماريشال كلوزيل ووزير الحربية الفرنسية ،فقد طرح الماريشال كلوزيل ثلاثة أسئلة تمس مستقبل الاستيطان في الجزائر ،وهي: هل سيتم حصر الاحتلال في عدة مراكز في ساحل مدينة الجزائر فقط؟هل في نية حكومة الملك توسيع

[1]- Dubois(Marcel),op-cit,P205.
[2] - Desnos(Odolant) ,**possibilité de coloniser Alger** ,G A ,Dentu Imprimeur- Libraire- Paris -1831, p47.
[3]-**pétition des colons d'Alger à la chambre des députés**,op-cit, p09.

الاستيطان ليشمل كل الجزائر؟أم هناك خطط للتخلي عن الجزائر والانسحاب منها ؟[1].رد جيرار بكل ثقة :"إن حكومة المملكة الفرنسية حرة في توسيع غزوها لكامل البلاد ،حين تعتقد بأن الاحتلال مفيد ويجلب الفائدة للدولة الفرنسية،وهي بصدد تثبيت وجود فرنسا في إفريقيا"[2].

من خلال هذه الإجابة المقتضبة ندرك بأن فرنسا كانت مقتنعة بإبقاء الاحتلال في مدينة الجزائر،غير أنها بدت أقل تحمسا في توسيعه نحو الداخل ،ولذا كانت تؤيد جلب المهاجرين وتوطينهم في مدينة الجزائر وحوزها ،وجعلت الاستيطان مقرونا بمدى تقدم الاحتلال نحو الداخل ، بما يضمن الأمن للمستوطنين،وكل ذلك يتم بالتوازي مع تحقيقات اللجنة التي أمر بها الملك بتقصي الحقائق ، ومن خلال نتائجها تضع الحكومة الإستراتيجية الكاملة في تنفيذ الاحتلال في باقي المناطق.

لم يمهل خصوم الاحتلال الشامل كلوزيل لإتمام مشروعه ،بل ضغطوا لوقف توغل الجيش في عمق الأراضي الجزائرية ،على اعتبار أنها أراضي مجهولة ،والتوغل فيها مغامرة غير محمودة العواقب وستورط الجيش في حرب تبقى معالمها قاتمة ونتائجها قد تكون غير مبشرة ، ولذلك فقد أخذت قضية الجزائر منذ نوفمبر 1830حيزا كبيرا من النقاشات الساخنة داخل البرلمان الفرنسي، وانقسمت آراء الساسة إلى ثلاثة تيارات متباينة :تيار الاستعماريين الذي يصر على الاحتفاظ بالمستعمرة واستمرار التواجد الفرنسي فيها،والتيار المعادي للاستعمار ،الذي يرى فيه مغامرة مكلفة جدا ،وتيار ثالث يعتبر احتلال الجزائر خطأ يمكن أن يصحح بعدم التخلي عنها،وتقوم فلسفة هذا الاتجاه الثالث ،على ضرورة انتشار الثورة الفرنسية والمبادئ الاشتراكية العمالية في المستعمرة ،مما سيساعد على ازدهار الصناعة الفرنسية فيها ،مثلما عبر عنه **"لوي بلان"[3]« louis blanc »** [1]،أما التيار المؤيد للاحتلال الاستيطاني

[1]- Flandin (Jean –batiste) ,**Régence d'Alger ,peut on la coloniser ?comment ?**,Féret libraire Au palais royal-paris-1833,p01.

[2]-Ibid,p,p01,02.

[3]- لوي بلان « Louis Blanc » (29أكتوبر 1811مدريد-6ديسمبر1882كان):سياسي منظر ومفكر اقتصادي واجتماعي اشتراكي ،برز دوره خلال الثورة الاجتماعية التي عصفت بالملكية للويس فيليب (المساواة) ،انتخب عضوا في الحكومة المؤقتة بعد إعادة النظام الجمهوري عام1848،ثم عضوا في البرلمان الفرنسي خلال الجمهورية الثالثة،تتلخص أفكاره الاقتصادية في المنهج الاشتراكي بإنشاء مصانع وطنية لتشغيل العمال الذين ينتخبون رؤسائهم بتدخل الدولة وتقديم المعونات لهم ،مما سيسهم حسب رأيه في القضاء على الرأسمالية.للتعرف أكثر على الأفكار الاقتصادية للمفكر لويس بلان، يرجى الإطلاع على مؤلفاته :

-**Catéchisme des socialistes** , aux bureaux du nouveau monde ,Paris,1849.

-**Ce qu'étaient autrefois les confréries ouvrières**, Imp.de Clère,Paris-1873.

فهو الآخر رغم وحدة هدفه ، فهو الآخر انقسم إلى اتجاهات: المعمرون أصحاب "القفازات الصفراء"[2] والأرستقراطيين المدعيو الشرعية المعارضون لملكية شهر جويلية ، ورأي "الجندي الفلاح ل:بيجو (Bugeaud)أو رأي كلوزيل(Clauzel) الذي يريد أن يجعل من الجزائر مركزا لتجميع "البؤساء والمضايقين"،فاقترح جعل سهل متيجة "مستودع تسول أوروبا"محميا من السكان الأهالي الجزائريين بجدار[3].

من بين الليبراليين المناهضين لفكرة الاحتلال ،نجد رجل الاقتصاد،السيد النائب **"أيبوليت دوباسي"** « **Hyppolite de passy** »،الذي عبر في تدخله خلال المناقشات البرلمانية العاصفة حول مصير الجزائر بمناسبة مناقشة الاعتمادات المالية التكميلية لميزانية 1833واستجواب الماريشال" **كلوزيل** " في الجلسات البرلمانية المنعقدة خلال فترة (مارس – جوان1833) عن الحجج التقليدية لليبراليين في معارضتهم للحركة الاستعمارية ، في حين أكّد النائب**" كسافي دو صاد"Xavier de sade** »« في تدخله الذي جرى يوم03أبريل 1833م بما يلي:" إن النفقات على المستعمرات تكلف الخزينة 40مليون فرنك في حين أنها لا تقدم من خدمة سوى إصابة التجارة بالشلل "،ورغم ذلك فقد تغلب أنصار الاستعمارإذ كانوا أكثر إصرارا،بقيادة النائب**" روشفوكو" « Rochefoucauld »**[4].

وخلال استجوابه عن رأيه حول مستقبل المستعمرة ،رد كلوزيل على خصوم الاحتلال الشامل،وفي مقدمتهم أشد معارضيه، النائبين **"برتيزان"** و **"كسافيي دو صاد"**،وكانت كلماته مليئة بالحماسة لفكرة الاستيطان،وحملت قسطا كبيرا من الإقناع،وعملت حججه البراغماتية على تهدئة النقاشات وطمأنة للتيار الاستعماري الاستيطاني ،حيث جاء فيها :" إن فرنسا اليوم مدعوة بقوة في إعطاء المثل الأعلى لأهمية الاستيطان وفائدته للشعوب المستعمرة

-**Histoire de la révolution de 1848**, Edition Lacoix,verboeckhoven ,et Cie, Paris,1870,2vol(cette histoire est combinaison de l'appel aux honnêtes gens ,de pages d'histoire de la révolution de février 1848et de quelque études parues dans le nouveau monde.)

[1]- Muyl(Marie) ,op-cit,p,p,23,24.

[2]-القفازات الصفراء،اسم أطلق على مجموعة المستوطنين الأوائل ذوي الثروات الكبيرة،الذين وظفوا أموالهم الطائلة في خدمة الاستيطان ودعم حركة المهاجرين نحو الجزائر ،كان لهم دورا كبيرا في نشاط الحركة الاستيطانية بشراء الأراضي الواسعة في إقليم متيجة وجلب المستوطنين إليها وتقديم القروض لهم،إلى غير ذلك من المساعدات ،أبرزهم الارستوقراطي البارون دوفيالار ،الذي تكفل بنقل المهاجرين ولاسيما الاسبان منهم إلى الجزائر ،ما عرضه إلى مشاحنات مع الحكومة الملكية.للمزيد أنظر:

-Jean –pierre Bonnafont,**Douze ans en Algérie,1830-1842**,Edition Dentu ,Paris-1880.

[3]- كاتب (كمال)،المرجع السابق،ص25.

[4]- فركوس (صالح)وآخرون،**التشريعات المنظمة للاستيطان الاستعماري في الجزائر وآثارها على المجتمع الجزائري**، مشروع بحث وزاري في إطار :البرنامج الوطني للبحث (pnr)، مخبر التاريخ للأبحاث للدراسات المغاربية قسم التاريخ ،جامعة 08ماي2010،1945،ص،ص27،28 .

والمستعمِرة، بالرغم من تكلفته الكبيرة على الميتروبول"[1]،واختتم مداخلته بقوله:"دائما تكون مؤسسات ما وراء البحار مكلفة لفرنسا.. ، غير أن الفائدة من الاستيطان سوف تعود على فرنسا في وقت قصير ، فجلب الآلاف من المستوطنين لزراعة القطن والقنب وأشجار النيلة ، في أرض خصبة وشاسعة ، سيكون مصدر ثراء ورخاء للميتروبول ،..فقد أثبتت التجارب بأنه يمكن إنتاج قطن مماثل للقطن الذي ينتج في كارولاينا الجنوبية،وجورجيا بالولايات المتحدة ،وهو ما يشكل دافعا لازدهار الاستيطان "[2].

وفي تقريره حول الاستيطان،الذي رفعه للحكومة الملكية دافع كلوزيل بقوة عن الاستيطان ، ومنتقدا في الوقت نفسه معارضيه ،حيث قال:"أنا الذي اقترحت في أكتوبر 1830على الحكومة الفرنسية استيطان مدينة الجزائر ،وقد رافعت بكل الحجج والأدلة التي تدحض شكوك النواب في الغرفتين،وبكل عزم فإننا قادرون على تجاوز العراقيل التي تقف أمام تطبيقه[3].

لم تكن فلسفة كلوزيل الاستيطانية ترتكز على الأبعاد الاقتصادية والسياسية فحسب ،بل امتدت لتمس الجانب الاجتماعي،فقد كان كلوزيل سبّاقا في طرح فكرة الاندماج الاجتماعي والانصهار العرقي بين الأجناس في الجزائر،وفي اعتقاده فإنه لا تقوم للاستيطان قائمة في الجزائر،إلا بالتواصل الاجتماعي بين الأهالي والمستوطنين عبر وسائل الربط الاجتماعي ،كالزواج المختلط والعيش المشترك ،وفي هذا نجده يكتب:"إن تزاوج الأوروبيين بالعرب سينسج علاقات قوية بين العرقين على المنظور البعيد، وستعقد تحالفات متينة بين العائلات من الجانبين ،فإذا تزوجت ابنة البدوي المستوطن أو الجندي سيكون ذلك عاملا قويا في تقارب العرقين المختلفين،وذلك لأن هذا الشعب "غير المتحضر"يملك عاطفة قوية نحو أبنائه ،وهو ما سيخلق عواطف قوية نحو أمتنا "[4]

كان على فرنسا إنهاء الجدل القائم ،والفصل في مصير المستعمرة ،بإرسال لجنة تحقيق تكونت من شخصيات بارزة، أهمها الكونت **"دي بوني"** **« Le général comte de**

[1]- Dubois(Marcel) ,op-cit,P205.

[2]- فركوس (صالح)،المرجع السابق،ص30.

[3]- Clauzel(Bertrand),op-cit,p02.

[4]-Ibid,p24.

« **bonet**، الذي برز خلال الحملة الفرنسية على اسبانيا ،ومعه أربعة من النواب وماريشال ،وقائد السفينة ، تتلخص أهداف مهمة لجنة التحقيق في:

1- تحضير الحلول لمختلف المشكلات المرتبطة باحتلال الجزائر، ومتابعة الأوضاع السائدة في البلاد، وتقييم المرحلة ،واقتراح النظام الذي يجب إتّباعه في حالة تقرر الاحتفاظ بالجزائر

2- تحديد طبيعة العلاقة التي ستربط إدارة الاحتلال بالعناصر المحلية ،العرب ،الموريسكيين ، القبائل من جهة ،وبالمستوطنين الجدد من ناحية ثانية،وكذلك اقتراحات الإجراءات التي يجب القيام بها من أجل ضمان تطورالمجموعتين ، الأوروبية والأهلية .

3-تقديم توصيات حول الأشكال المختلفة المسهلة للاستيطان ،وتنظيم المصالح العامة لإدارة البلاد كالنظام الضريبي والتجاري في المناطق المدنية والعسكرية ،وتحديد صلاحيات السلطات لكل منها[1].

أنجزت اللجنة مهمتها خلال الفترة الممتدة مابين02سبتمبر و19نوفمبر 1833بعد زيارة مناطق في مدينة الجزائر ومتيجة و البليدة ،كما قام بعض أفرادها بزيارات لوهران و آرزيو و بجاية ، أتمت عملها في شكل مذكرة عسكرية ،احتوت على عشرة تقارير حول البحرية والاحتلال والقطاع العام والاستيطان والأوقاف ...،كما رسمت اللجنة لوحة قاتمة عن الأوضاع السائدة في الجزائر، فالأهالي يائسون ومحطمون نتيجة الاضطهاد والتقتيل والنهب ،أما المستوطنون الأوروبيون فقد انتا بههم الشعور بالضياع وتم خداعهم بوهم الموارد الضخمة التي تزخر بها أرض الميعاد –وإذا كانت النتائج في مجال الاستيطان هزيلة ،رغم النفقات المبذولة في هذا المجال ،فذلك لا يرجع فقط في الاختيار السيئ للمستوطنين،ولكن يعود أيضا للاختيار السيئ لمراكز الاستيطان[2].

رغم التقييم السلبي للاحتلال الفرنسي ،فقد توصلت اللجنة إلى توصيات حاسمة،أبرزها:

1-الاحتفاظ بالجزائر كمستعمرة فرنسية.

[1]- فركوس (صالح)،المرجع السابق،ص30.

[2] - Muyl(Marie) ,op-cit,p,p23,24.

2-جعل الجزائر مستوطنة للعمال الأحرار سواء أكانوا فرنسيين أم أجانب،وليس مستعمرة عسكرية أو **"مستعمرة إصلاحية" « Colonie Pénitentiaire »**،وجعل الاستيطان كوسيلة وحيدة لنجاح الاحتلال ،وفتح أبواب الهجرة للأجانب الأوروبيين ،والعنصر الألماني بصفة خاصة ،وعدم اقتصارها على الفرنسيين ،مع التحفظ على هجرة الماهونيين والمالطيين والتقليل من استقطابهم[1].

على ضوء هذه التوصيات ،أصدر الملك لوي فيليب مرسوما ملكيا يوم22جويلية1834 [2]يقضي بضم الجزائر إلى الممتلكات الفرنسية ،وذلك بعد أن استمع لإفادات مقربيه وشخصيات ذات صلة بالاحتلال كالماريشال" **دامريمون"[3]**، والناطق الرسمي باسم المستوطنين السيد**" موريس"** ،و **"حمدان بن عثمان خوجة"**..وغيرهم[4].

بذلك توحدت كل الأصوات المتباينة من الديمقراطيين والتقدميين ومناصرو القيم الإنسانية لتبرير فكرة الاستعمار،وإعادة قولبتها بقالب قانوني وشرعي حتى تتأصل فكرة الاستعمار وتتحول إلى مشروع وطني وحضاري،واتحدت كل الآراء السياسية والدينية ودعوات أنصار الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري على ضرورة الاستمرار في إلحاق الجزائر بفرنسا وتعميرها وخلق عرق جديد وذكي يستوطن إفريقيا ،وينشر فيها أنوار الحضارة الغربية،ومع مضي الوقت أصبح تعمير الجزائر أمرا لا مفر منه وضرورة فرضتها الظروف والمصلحة العليا للدولة ،وتحوّل الاستيطان إلى مشروع وطني التف حوله الجميع.

بعد رحيل كلوزيل ،لم يكن خلفاؤه الذين حكموا الجزائر من **"بيار برتيزان"**(1831-1832)،**إلى "الدوق دوروفيقو"**(1832-1833) **و"تيوفيل فوارول"**(1833-1834)،انتهاءابالكونت **"دورليان"** (1834-1835) ، يملكون حماسة كبيرة للاستيطان مثل

---

[1]- فركوس (صالح)،المرجع السابق،ص،ص32،31.

[2]-بمقتضى هذا المرسوم أصبحت الجزائر جزءا من الممتلكات الفرنسية أصدره الملك لويس فيليب ،والقانون يكتسي أهمية بالغة في تاريخ الجزائر الفرنسية ، بحيث مهد لإلحاق الجزائر بفرنسا بعد إصدار دستور نوفمبر 1848الذي نصت مادته التاسعة بعد المائة بأن "الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا"،كما استجاب للكولون فيما يتعلق بالتمثيل النيابي ،وتسيير الجزائر بواسطة المراسيم الرئاسية ،والتأكيد على نفس التقسيم الإداري الذي أفرته أمرية 15أفريل 1845.أنظر:

Rambaud(Alfred) ,**histoire générale du 15eme siècle à nous jours révolutions et guerres nationales** ,Armand colin et Cieª Paris-1899.

[3]- شارل ماري دينيس دامريمون(Charles marie Denys de Damrémont)،جنرال فرنسي ،من مواليد 8فبراير 1783بشومان (المارن العليا)عسكري ،قائد سلاح المدفعية خلال الحملة الفرنسية على الجزائر عين في 12فبراير 1837حاكما عاما للمكتسبات الفرنسية بشمال إفريقيا ،شارك في معركة الثنية بتاريخ 17ماي 1837،لقي حتفه بتاريخ 13أكتوبر 1837خلال حصاره لمدينة قسنطينة .

[4]- فركوس(صالح)،المرجع السابق،ص،ص31، 32.

التي كانت لدى كلوزيل ،فقد كانت شهيتهم للقتل أكبر،وانشغالهم بوأد الانتفاضات التي شهدتها متيجة والغرب، باعتبارها مصدر قلق للجيش ،وعائق للاستيطان ،ففي تصريح للحاكم العام للجنرال "**بارتيزان**"**Berthezéne** ما يعبر عن حالة الهلع من المغامرة في توسيع الاستيطان نحو الداخل ،حيث جاء فيه"..إن متيجة هي مستنقع واسع،و مقبرة لكل من يفكر في استغلالها،ولا يمكن وضع حجر الزاوية لأي مؤسسة خارج إقليم الساحل.."[1].

وبالفعل فقد كانت المتيجة عبارة عن بالوعة كبيرة،و قبر لكل من يتجرأ على استغلالها ، فمنذ الأيام الأولى التي قدم فيها المهاجرون الفرنسيون والأوروبيون للإقامة بالمدن التي احتلها الجنود الفرنسيون وخاصة بنواحي الجزائر بالساحل، وحتى مشارف متيجة وجدوا ظروفا قاسية جدا، ولولا مساعدة الجيش من خلال إقامة مراكز الحراسة الفرنسية لحمايتهم، لما تمكنوا من تهيئة الأراضي بالريف الجزائري،وإقامة المزارع بها واستصلاح الأرض التي اجتاحتها الأشواك و أشجار النخيل الصغيرة ،كما أن عمليات تزودهم بالمؤونة و التواصل فيما بين مراكزهم لم تكن سهلة ،فقد كانت تتم بواسطة البغال عبر دروب ضيقة خطيرة ،شكلت موقعا استراتيجيا سهّل على الثوارالهجوم على الجيش والمدنيين،وحتى المعمرين الجسورين في معسكرات " آرلون " في ' بوفاريك 'وغيرها لم يترددوا في الابتعاد عن معسكرات الجيش وكان المعمرون يحرثون الأرض ومعهم بنادقهم،وبالليل يحرسون أكواخهم بالتناوب [2] .

كانت السنوات الأولى للاحتلال تمر ثقيلة جدا ،وكان مستقبل فرنسا بالجزائر في مفترق الطرق ، ومرهون بمدى قوة الجيش الفرنسي وصبر المستوطنين على تحمّل الظروف الصعبة ، وبقيمة كرم الحكومة الملكية في دعم الاستيطان بالأرض والمال ،مثلما كانت تدعم الجيش بالأسلحة والعتاد ،غير أن ذلك الدعم المالي كاد أن يتوقف في مرات عديدة ،مما تسبب في توتر مستمر بين المستوطنين والحكومة الفرنسية ،والتي اتهمها المستوطنون أكثر من مرة بالتخاذل وبرميهم في المجهول ،وهذه إحدى رسائل الاحتجاج التي بعث بها رئيس المجموعة الكولونيالية بالجزائر يوم 14ماي 1836 إلى الماريشال كلوزيل،وأهم ما جاء فيها:" يؤسفني

[1]- Gautier(M),op-cit, p14.

[2]- لوكا (فيليب) ،جون(كلود فاتان)،**جزائر الأنثروبولوجيين نقد السوسيولوجيا الكولونيالية** ،ترجمة محمد يحياتن ،منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال ،منشورات وزارة المجاهدين،الجزائر-2002،ص،ص255،256.

أن أطلع سيادتكم بالأنباء التي وصلت لأسماع المجموعة الكولونيالية حول نية البرلمان تخفيض الميزانية الخاصة الموجهة لنا ،كيف يمكن للاستيطان أن يستمر بهذا الشكل؟.لقد أراد عدد من أرباب المال وأصحاب شركات التوجه والعمل في الجزائر،وتقدموا بطلبات للحصول على أراضي للاستثمار،أهمهم فيليب أوفور Philippe ouffour ،وهو أحد المالكين في أستافور Astaffort،ديبري بالاند Dupré Ballandeتاجر من بوردو ،مونصير Moncerمن أفينيون Avignonوالذي أراد شراء 1500هكتار من الأراضي في متيجة ،لقد عبّر هؤلاء وغيرهم عن قلقهم حول ما سيصوت عليه البرلمان "[1].

غير أن هذا القلق الذي اعترى الكثير من المستوطنين ،ولا سيّما في بدايات الاستيطان ،سرعان ما تبدد ،بقدوم أصحاب القفازات الصفراء إلى الجزائر ،وعلى رأسهم البارون" **أوغيستين دو فيالار"** وصديقه **"دوتوناك"** ،اللذان قدمّ خدمة كبيرة الاستيطان ،حيث لعب دوفيالار دور السيد الصغير ، فمنذ أن وطأت قدماه أرض الجزائر ،واستقراره ببوفاريك عام 1830، قام بشراء مزرعة ذات مساحة تقدر 180هكتار في القبة ، واشترى مع توناك ضيعتين ،الأولى مساحتها 80هكتار والثانية تتسع ل300هكتار في الحوش الاخضر،كما ساهم في تأسيس قرية **"سانت جول "**عام 1843بعد أن قدمت الدولة الاستعمارية دعما ماليا قيمته 1000فرنك لعشرين عائلة قدمت طلب الهجرة والاستقرار فيها [2].

عاد كلوزيل خلال فترة حكمه الثانية (1835-1837) ليعطي دفعا جديدا الاستيطان الريفي في الجزائر، حيث عمل سنة 1836على تأسيس لأول قرية بالقرب من معسكر بوفاريك تضم173قطعة فلاحية، مساحة كل منها 4هكتارات منحت بالمجان للأوروبيين،وفي أقل من سنة بلغ عدد المستفيدين بالمجان للأراضي**concessionnaires » « Gratuites** في مستوطنة بوفاريك لوحدها 76 أوروبيا ،يسطو كل واحد منهم على 110هكتارمن الأراضي الخصبة [3]،وقد سماها **"المزرعة التجريبية في إفريقيا"**، وسمح للجنود بالاكتتاب فيها، كما تم خلال هذه الفترة بالاستيلاء على المناطق القريبة من بابا علي ،وضم إليها مزرعة حوش حسن

[1]-Anonyme ,**Colonisation d'Alger ,causes qui arrêtent les progrès** ,Imprimerie de J-A Boudon , Paris-SD, p11.
[2] --Henni (Ahmed) ,**La colonisation agraire et le sous-développement en Algérie,** Enag Edition, Alger-2009
[3]- Bronde (Pasquier) ,**Historique de la colonisation paysanne en Algérie** ,Paris -SD ,p15.

باشا ،القريبة من واد حراش ،التي بلغت مساحتها 1000هكتار.وبذلك جردت من الأهالي أجود أراضيهم وأرغمت عدد امن قبائل متيجة على الرحيل عنها،وأهمها قبيلة حجوط الساكنة بمتيجة الغربية[1].

رغم المساعدات التي قدمها كلوزيل للمستوطنين من أراضي وآلات وحيوانات ،تشجيعا لهم على الاستقرار بأراضيهم واستغلالها ،إلا أن هذه السياسة لم تحقق نجاحا كبيرا،بسبب شراسة المقاومة من جهة،ولعدم تأقلم المستوطنين مع الظروف المناخية للمنطقة من جهة أخرى.

نتيجة لهذه التجربة الفاشلة للاستيطان الرسمي تحوّلت أنظار الإدارة الاستعمارية إلى أصحاب الإمكانات المادية ،وتشجيع الاستيطان الحر بعد تنصيب الماريشال فالي كحاكم عام مكان كلوزيل، وذلك يوم 01ديسمبر 1837،والذي صدم بعد مباشرة أعماله بالنتائج الهزيلة للاستيطان نتيجة الفوضى السائدة وغياب استراتجية محكمة في هذا المجال ، ولهذا فبعد توليه السلطة انتفض ضد هذه السياسة ووصل إلى حد منع بيع الأراضي في عمالة قسنطينة بشكل مطلق،وفعل الأمر نفسه في عمالة الجزائر ،وحينما استأنفت الحرب مع الأمير عبد القادر ،حذر المستوطنين في السهل من المغامرة في الداخل ، وفي مقابل ذلك انشغل بتنظيم حركة الاستيطان ، وحدد النقاط التي يجب إنشاء المستوطنات فيها ،وفرض بعض شروط التمليك الفردي،والمصالح المشتركة معلنا بذلك عن نهاية الاستيطان العشوائي[2].

كان للنتائج الهزيلة للاستيطان الرسمي،أن أجبرت فرنسا على تغيير الإستراتيجية العامة للاستيطان ،والاتجاه نحو الاعتماد على أرباب المال لتحقيق الاستيطان،واختيار منهجية جديدة تقوم على الانتقائية في التعامل مع المهاجرين ،وفضلت فتح باب الهجرة للشركات والمؤسسات الفرنسية وإعطائها الحرية في شراء الأراضي، كما وفرت لها كل الإمكانات المتاحة ،والتخلي عن الهجرات الاستيطانية الكبرى ،والتي تميزت بكونها عشوائية ،وبلا منفعة لمصلحة الدولة الفرنسية،والتكفل الكلي بنقل المهاجرين وتوطينهم في الجزائر نتج عنه متاعب مالية واقتصادية أثقلت الوضع المادي المنهك أصلا بفعل العمليات الحربية ضد

[1]-سلوان (رشيد رمضان) و المشهداني (مؤيد محمود حمد)،"**الاستيطان الأوروبي في الجزائر 1830-1871**"،مجلة جامعة تكريت للعلوم ،المجلد 20، العدد الرابع،جامعة تكريت ،العراق،نيسان 2013،ص288.

[2]- فركوس(صالح)،المرجع السابق،ص37.

الثورات المنتشرة هنا وهناك ،ووضعت حدا لعصر الاستيطان الرسمي،ليفسح الطريق أمام نوع آخر وهو الاستيطان الحر،كما تم التخلي عن خدمات كلوزيل،وتعيين فالي مكانه.

اعتمد الماريشال فالي خلال حكمه للجزائر على توسيع الاحتلال الفرنسي نحو المدن الداخلية ،فقد تمكن من احتلال البليدة والقليعة وشرشال في 15مارس 1840، وملیانة08جوان من نفس السنة،كما قام في نفس الفترة بتوسيع المدن المحتلة (قسنطينة ،سكيكدة ،ملیانة ،ستورا)لتستوعب العدد الهائل من المستوطنين المتزايدين فيها[1]،ولتحقيق ذلك فقد رأى فالي بوجوب اضطلاع الجيش بدوري الحرب وزراعة الأرض على أساس قلة اليد العاملة الأوروبية ،وعدم صلاحية أغلبهم للأعمال الزراعية ،وعدم قدرتهم على إمداد المستعمرة باليد العاملة ،فلا مناص إذن إلا بالاعتماد على الجيش لتوطيد للاستيطان .

من هذا المنطلق فقد ارتكز النظام العسكري الاستيطاني عند فالي على تنظيمين متوازيين:تأسيس مستعمرات عسكرية ،واستعمال المستوطنين من كل الأمم الأوروبية ،غير أنّه لا يمكن أن تعّم المستعمرات العسكرية بشكل واسع ،لأن الجنود لا يمكن أن يمدوا أكثر من سواعدهم وعضلاتهم ، و ثقل تكاليف الاستعمار الذي لا تتحمله ميزانية الدولة ،ولذلك فإن الأمر كان حسب نظره يتطلب جلب المستوطنين لأموال كبيرة لتخفيف العبء عن الدولة ،ولا يرخص أي استيطان خارج الحقوق الاستعمارية الاستثنائية للدولة [2]،وفي سبيل ذلك قام بعرض أراضي الدومين –التي نتجت عن مصادرة أراضي البايلك والأوقاف –للبيع بسعر وسطي قدر ب48فرنك للهكتار الواحد، ثمّ تم تخفيضه إلى 38 فرنك بالمناطق الداخلية والريفية ومع ذلك لم يحقق الاستيطان الريفي أهدافه ،حيث ظل بطيئا طيلة هذه الفترة .

وما يمكن استخلاصه من سياسة فالي الاستيطانية أنه أخلط بين الاستيطانيين الرسمي الذي ترعاه و تموّله الدولة ،والحر الذي يقوم على تشجيع المالكين الأوروبيين الكبار،وخاصة الفرنسيين منهم ، للاستيطان والاستثمار في الجزائر،و رغم الجهود التي بذلت طيلة هذه العشرية، إلا أن الاستيطان لم يحقق طموحات الإدارة الاستعمارية،حيث لم يتجاوز عدد

[1]- Discours prononcé par le maire de constantine à l'inauguration de la statue du maréchal valée , Typographie de louis marle ,Constantine -1866,p11.

[2]- سيساوي(أحمد)،**البعد البايلكي في المشاريع السياسية الفرنسية من فالي إلى نابوليون الثالث 1838-1871**،أطروحة دكتوراه ،قسم التاريخ ،جامعة قسنطينة 2،السنة الجامعية 2013-2014،ص56.

المستوطنين خلال كل هذه الفترة 25ألف شخص ، يشكل الفرنسيون منهم نسبة 41.5 % و الاسبان 32%والباقي من الإنجليز والإيطاليين،وغيرهم [1].

2-الاستيطان في عهد الجنرال بيجو والتعمير بالسيف والمحراث،"أو عصر الجندي المزارع"(1841-1848)

كان بيجو أكبر مخطط لنظرية إبادة الجزائريين،وكان مصمما على إنجاح الاستيطان وجلب الأوروبيين بأعداد كبيرة ،فقد جاء في خطابه الذي ألقاه أمام البرلمان الفرنسي يوم 16 تشرين الثاني "نوفمبر"1840،مايلي:"يجب أن يتحقق غزو فرنسي وأوروبي كبير،وأن نستوطنهم في أفضل الأماكن وأخصب الأراضي ،وأينما توجد المياه العذبة .."،وقد اعتمدت سياسة بيجو الاستيطانية على السيف والمحراث ،" السيف على رقاب الأهالي ،والمحراث بيد المستوطن المحتل"،وذلك بإشراك القوات العسكرية في حركة الاستيطان ،وإنشاء القرى الاستيطانية الجديدة ، كما عمل على تشجيع الجيش على زراعة الأراضي المجاورة لمعسكراتها ،وتمليك المستوطنين العسكريين لأغلبية الأراضي التي تستولي عليها الحكومة ،وعلى الزواج بالفرنسيات اليتيمات وتهيئة وسائل الراحة كالمال والمسكن والدواب [2]،وكل ما يشجع الجندي على أداء وظيفيتين في آن واحد ، السيف والبندقية للغزو والمحراث والفأس لخدمة الأرض.

وبذلك اعتمدت فلسفة بيجو الاستيطانية على فكرة أساسية، وهي الاستيطان بالجيش ،بحيث شجّع على امتلاك قدماء الجيش للأراضي، شريطة استغلالها الفعلي لمدة لا تقل عن 5سنوات،وعلى فتح باب الجندية للمستوطنين المدنيين ،وطور الفكرة سنة 1838 في نشرية بعنوان : **" تأسيس لفيف من الكولونياليين العسكريين"**،لهذا انتظمت الجالية الأوروبية في شكل ميليشيات تحت القيادة العسكرية ، واستقرت في مراكز استيطانية مكونة من قطع أراض حضرية وريفية قريبة من مراكز الجيش مع نقل المعمرين الجدد للعيش فيها[3].

ولهذا سمي الكولون الأوائل باسم **"كولون الحكومة" Les colons du gouvernement»** ،لأن الحكومة الفرنسية هي التي من تكلفت بهم ،ونقلتهم إلى الجزائر

[1]- حيمر (صالح)،**السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر 1830-1930**،أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر،قسم التاريخ وعلم الآثار ،جامعة الحاج لخضر ،باتنة،2014،ص63.
[2]- سلوان رشيد رمضان ومؤيد المشهداني،المرجع السابق،ص289.
[3]- كاتب (كمال)،المرجع السابق،ص131.

ووفرت لهم كل الاحتياجات الضرورية التي تسمح لهم بالإقامة و الاستقرار و ممارسة أنشطتهم الزراعية ، كما عملت حكومة بيجو على وضع كل مجموعة من الكولون الأوائل تحت إمرة رئيس مجموعة يمتلك خبرة في تسيير شؤون الزراعة ،يتم تعيينه من قبل المتصرف الإداري لمدة خمس سنوات على اعتبار أن الأفواج الأولى من المعمرين كانت غير متكيفة على الزراعة في الجزائر ،و كان هؤلاء الرؤساء يختارون من العسكريين الذين سبق لهم أن تولوا مهام زراعية في المستعمرات الفرنسية على الحدود النمساوية ،و يتولى أحد أعوان المصالح الإدارية زيارة المزارع و الضيعات مرة كل خمسة عشر يوما ، يرفع عقبها تقريرا مفصلا لإدارة الاحتلال ، و بعد انقضاء السنوات الخمس المحددة، تسلم لكل واحد من الكولون قطعة أرضية زراعية بصفة ملكية فردية شرعية –مسجلة- يستغلها بشكل مستقل،و تعفى تلك الأراضي الممنوحة من الضريبة طيلة تلك السنوات الخمس، و في العام السادس يدفع الكولون لإدارة الاحتلال القسمة الواحدة من العشرين (20/01) من دخله الخام تعويضا للخدمات المقدمة له خلال السنوات العشر الفارطة[1].

وبهذه السياسة انتعش الاستيطان العسكري ،وما كان بيجو يرعى الاستيطان الرسمي والمنظم ،إلا لفشل الاستيطان العشوائي الذي أدى إلى كارثة في سهل متيجة، وكذا رغبته تعزيز النظام العسكري في المناطق التي استوطن فيها الأوروبيون،وذلك لأن أساليب النظام العادية ستؤدي حسبه ،إلى نمو تعداد المستوطنين المدنيين الذين يتميزون بقلة الانضباط ونقص الفاعلية،ولذا كان الحل في العسكريين القدامي المتكتلين والمنظمين الذين من المحتمل أن يتحولوا إلى مستوطنين مثاليين ،وفي رأي بيجو فإن الاحتفاظ بالمستعمرة يجب أن يرافق بجهد عسكري مهم،ولمدة طويلة إلى غاية تعويض الجنود بالمستوطنين في مختلف أنحاء الجزائر،ومنحهم أكبر قدر ممكن من الموارد المتاحة ،وهو ما سيمثل حلا للمشكلة الجزائرية[2].

استمر بيجو في توزيع الأراضي بالمجان،وفي خلق "المراكز الاستيطانية الزراعية "،وفي بناء القرى الاستيطانية المدنية الخاصة بالأوروبيين ،والتي كانت تشيّد جنبا إلى جنب بالقرب

[1] - بن داهة (عدة)،**الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر1830-1962**،الجزء الأول،طبعة خاصة لوزارة المجاهدين،الجزائر-2008،ص،ص41،42.

[2] - فركوس (صالح)،المرجع السابق،ص39.

من المستوطنات العسكرية،وتزويدها بكل الإمكانات المتاحة لضمان الراحة والأمن [1]،ومن أجل ذلك أصدر قرار أفريل 1841،والذي يمنح الأوروبيين والجيش أراض بالمجان ،مع وعد بالتمليك ، مما سيفرض على المستوطن المالك إجبارية الإقامة في الجزائر،وفي مارس 1842قام بيجو بتطبيق البرنامج الاستيطاني الذي أصدره وزير الداخلية الفرنسي ،والقاضي بتوسيع الاستيطان نحو باقي المناطق الساحلية ،ونحو الداخل ،حيث بلغ عدد المستوطنات المشيدة في عهده قرابة استيطانية [2].

رغم كل النتائج المحققة ،ظلت هذه المشكلة تؤرق بيجو في الجزائر،وهي انعدام الخبرة والمعرفة لدى الجنود والمعمرين الذين يرافقونهم في زراعة الأرض وخدمتها،ولاسيّما أن الطبيعة والجغرافيا القاسية ،وفي مثل هذه الظروف ،كان الحل هو التوجه لاختيار مهاجرين يرافقون الجيش،ويشكلون فرقا من الميليشيات العسكرية،وهو ما اصطلح عليه آنذاك **"بالعساكر المستوطنين"**مهمتهم كانت خدمة الأرض وحراسة القرى الاستيطانية في آن واحد

اشترط بيجو أن تتوفر في المتطوعين من المستوطنين في الجيش الاتصاف بما يلي:

أ- أن يكون المنخرط في الميليشيات فرنسيا وشابا طموحا ذا خبرة في القتال،وبلا سوابق

ب -التمتع بالخبرة المهنية في المجال الزراعي، خصوصا في مجال زراعة الكروم

ج-أن يكون المتطوع متزوجا ويمتلك أسرة [3]،كي يضطر تحمل العمل في الظروف الصعبة .

ولكي يكتمل مشروع الاستيطان عبر فكرة **"الجندي –المستوطن"** استوجب دعم ذلك الجهد الكبير ماديا ،فسريعا ظهرت الحاجة إلى دعم المؤسسات والشركات الاقتصادية والمالية للمستوطنين لتساهم في مساعدة الدولة في تمويل الاستيطان،مقابل أن تقوم الدولة الفرنسية بمنحها ممتلكات عقارية وأراض زراعية صغيرة أخرى في كل قرية استيطانية جديدة تصل

[1]- Fallot (Emil), **Le peuplement français de L'Afrique du nord,** Bibliothèque de revue des questions diplomatiques et coloniales -Paris 1906,p20.

[2]- Bronde(Pasquier) ,op-cit, p 15.

[3]-رغم أن هناك اختلافات بين أفكار و أفكار ألكسي دي طوكفيل حول الاستيطان،إلا أنالواضح فإن بيجو قد تأثر بالملاحظات الدقيقة والأفكار الفلسفية التي طرحها طوكفيل ،ومن بينها ضرورة تزويج الجنود الفرنسيين لسببين رآهما طوكفيل مهمان:الأول الحنين والشوق الذي يربط الجندي لوطنه وأهله ،ولذا فإنه حالما ينتهي من آداه خدمته العسكرية سيغادر الجزائر،وهذا يعني خسارة للاستيطان،أما الثاني هو تزويج الجنود سيشجعهم على البقاء ،فالأرض والأسرة عاملان مهمان يساعدان على بقاء الجندي وتأقلمه.للمزيد راجع :
دو طوكفيل (أليكسي)،**نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان** ،تر إبراهيم صحراوي،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر - 2008،ص73.

مساحتها 40هكتارا يخصص الجزء الأكبر منها لزراعة الكروم ،وحق الامتياز في قطع الأخشاب من الغابات لمدة عشر سنوات بشكل مجاني[1].وهذا ما عبّر عنه بيجو في مذكراته التي كتبها" **ب.كرستيان"**،وهو السكريتير الخاص لبيجو ،حيث قال:" إذا قارنا بيننا وبين الإنجليز،فإننا نجد بأن الاستيطان الإنجليزي يقوم على دعم الشركات المالية والتجارية،أما نحن فإننا نفتقد للدعم المالي ونفتقر لمساعدة الارستقراطية الفرنسية لنا في مواجهة طبيعة قاسية وبلاد متمردة ،يجب علينا جمع كل القوى لجلب النصر ،والوقت حاليا ليس مناسبا لفتح إفريقيا لتوافد المهاجرين الضعفاء،والجيش في إفريقيا استطاع أن يجلب نصف الانتصار ، والباقي يجب أن تتكفل به الدولة" [2].

ومع ذلك فإن ركيزة الاستيطان لدى بيجو ،وهي الجندي أصابها الكلل،واعترت الجندي مشاعر اليأس والملل ،فالأرض ليست أرضه ،والميدان الزراعي ليس من صلب اهتمامه ولا من ضمن مؤهلاته واختصاصه،والأوضاع الساخنة في جبهات القتال تزيد من توجساته وهمومه ،وهذا ما نستشفه في أحدى رسائل لجندي متقاعد وجهها للماريشال بيجو،تحمل تصويرا مأساويا للحياة التي عاشها الجنود ، وهم يطبقون تعليمات بيجو وتوصياته المتعلقة بالاستيطان العسكري،جاء فيها:"سيدي الجنرال،لتعلم أن الجنود مرهقون ويشعرون بالضيم ،فهم مسخرون للقتال ،وبعد أن يفرغوا من مهام الحرب ينتقلون لورشات البناء،وأشغال الطرق وتجفيف المستنقعات ، وقطع الأشجار وشق القنوات ، وخدمة الأرض،وغيرها من الأعمال التي لا تنتهي ، كل ذلك من أجل المستوطنين ،فيما يقبع أبناؤنا في المستشفيات،يعانون الأوبئة والأمراض الخطيرة ،لقد أخبرك أحد جنرالاتك بأن الجندي هو "غزال المستوطن" لكنه لم يقل بأنه هو الحيوان الذي يستغله المستوطن،سيدي الجنرال إن وظيفة الجندي هي الحياة العسكرية ،وليست أي وظيفة أخرى ..."[3].

[1]-Anonyme ,**La colonisation de l'Algérie par l'armée** ,Imprimerie et lithographie de j . jacquin- Besançon, France-1881 ,p,p03,04.
[2]-Pitois (Christian) ,**Souvenirs de Maréchal Bugeaud ,de Algérie et du Maroc** ,Tome 1,Alexandre Cadot éditeur,Paris-1845,p-p121-126.
[3]-Desjobert (A), **Lettre d'un vieux soldat à M. le maréchal Bugeaud**7mars1845,Edition typographie de Firmin Didot - Paris ,1845, p,p03,04.

كان استعمال الجندي الفرنسي في مهمتين صعبتين ،التوسع وصد غارات القبائل وحماية المستوطنين المدنيين من جهة،واستعماله لأعمال الزراعة واستصلاح الأرض وبناء القرى والمراكز الاستيطانية من جهة ثانية ، هي استراتيجة غير مدروسة ،ستكون نتيجتها الحتمية الفشل التام"،وفي هذا المجال طالب أحد الكتاب الفرنسيين خلال فترة التوسع الفرنسي بضرورة توفير الأمن والقضاء بسرعة على القبائل المقاومة إذا ماأرادت فرنسا أن يستمر الاستيطان ،حيث كتب يقول:**"إن ما ندّعيه عن قوة جيشنا وتنظيمه وصرامته العسكرية،وعن ضعف القبائل العربية وتشتتها ليس حقيقيا، إن القبائل العربية تستميت من أجل البقاء ،والحل هو طردها نحو الجنوب وليس لنا إلا أن نقول بأن مراكز مستوطنينا في خطر ،والحاجة تدعونا باستمرار إلى توفير المزيد من الحماية لهم ،لكن كيف للجيش أن يوفر تلك الحماية ،في الوقت الذي نطالبه فيه بممارسة أعمالا زراعية ؟"**[1].

ونتيجة لما سبق ،ولمعالجة مشكلة إرهاق الجيش وتحمليه مسؤولية التوطين انقسمت الآراء في تلك الفترة بين أنصار الاستيطان بالجيش ،ومعارضيه، فقد كانت الأطروحات العسكرية ،تلقى تأييدا من المشاريع التي أعدها **"الكونت غييو"« Compte guyot »** سنة 1841،وكذا الأفكار السانسيمونية التي جاءت لترجمة مشاريع **"القديس سيمونيي"**، وأعوانه**"أوربان جوردان "« Urbain jourdan »** ،**"فارنيي باربريغر" Warnier »** **« Berbrugger" لاموريسيار" " « Lamoricière »** غيرهم الذين أثروا في العديد من المسؤولين حتى في تصورات بيجو[2]، وكانت كل هذه المشاريع تتفق في الهدف والوسيلة : فالأمر يتعلق بمصادرة الأراضي الخاصة بالأهالي ووضعها تحت تصرف المعمرين بمساعدة الدولة ،لكنها كانت تختلف في شكل استعمارها : قطع فردية أو مساحات كبيرة رأسمالية ،هذه

[1]-Rambaud(Piérre),**Mesures radicales de sécurité en Algérie** ,Imp L'association ouvrière ,Fontana,Alger-1881,p-p06-08.

[2]-لم تكن كل الآراء والأفكار المطروحة خلال فترة بيجو تساير تماما استراتيجية بيجو في الاستيطان فقد كانت أفكار أخرى كثيرة ،منها الأفكار التي طرحها **"الاتجاه الفوريري"« Fouriérisme »** ،والذي هو مذهب فلسفي اجتماعي نسبة إلى الفيلسوف شارل فورييه،وأفكار**"السانسيمونيين « Saint-simoniens »**بزعامة أنفنتان **« Prosper Enfantin»**،والقس لاندمان **« Landmen »**،الذي أنشأ مزرعة في مجاز عمار في مقاطعة بونة ،مخصصة لاستقبال الأطفال الذين يعثر عليهم ، بينما كانت أفكار السانسيمونية تتلخص في إنشاء قرى اشتراكية نموذجية تسودها الإخوة بين الجميع ،وقد أنشئوا مستوطنة حسب هذا التصور الفلسفي في سان دونيي "سيق"عام 1847. للمزيد حول الموضوع راجع : دوطوكفيل (ألكسي)،المصدر السابق ،ص72.

الإجراءات وجدت للتنافس وقبلت كل منها في أجل قصير ومحدود وطبقت في فترات مختلفة برضا من باريس وتأييد لها[1].

ولعل أكثر المؤثرين في قرارات بيجو ،كان الجنرال بيليسي ،الذي طرح فكرة الاستيطان العسكري بالطريقة الرومانية أي "الرومنة" ،فقد كانت آراؤه تقوم على مبدأين أثنين : الأول الغزو ومصادرة الأرض عنوة وإبادة سكانها ،والثاني توطين المهاجرين الأوروبيين محل سكانها الأصليين ، ففي تقريره المرفوع للحكومة الملكية عام 1847كتب ما يلي:"يجب الاختيار بين أمرين ، إما تشجيع الاستيطان العسكري ، أو فتح المجال واسعا أمام حركة الهجرة والتعمير "الاستيطان المدني "،ومن ثم عدم ضمان نتائج تلك السياسة ،لأنهم "يعني المستوطنون"سيواجهون سكانا محاربين وشرسين، وهو ما يستوجب أن يكونوا محاربين أشداء،لذا فإن ضمان استمرارية الاستيطان هو الاعتماد على الجيش ،وعلى تشكيل ميليشيات من المستوطنين وضمان أمنهم.."[2].

أما المعارضون من الجيش لآراء بيجو في تنفيذ الاستيطان عبر سواعد الجنود فكان يقودهم الجنرال لاموريسيار- والذي كان أحد رجال الجيش بالجزائر وقائد فرقة الزواف[3]-وبالرغم من أنه كان أحد أنصار الاستيطان الرسمي ،إلا أنه كان يختلف مع بيجو في العديد من الأمور، وعلى رأسها طريقة تنفيذ الاستيطان ،فالاستيطان في نظره كان يجب أن يقوم على المال والدعم المادي للأفراد والشركات ،والسيطرة على إفريقيا تتم بالمال فقط أكثر من حاجتها للرجال، و لا يؤيد طريقة الاستيطان العسكري التي مضى بيجو في تطبيقها [4].

رغم كل الانتقادات مضى بيجو في تطبيق أفكاره، ولا سيّما بعد أن استقر الوضع الأمني في الجزائر العاصمة وضواحيها بالمتيجة ابتداء من سنة 1844،ليزداد اهتمام الماريشال بيجو

---

[1]-كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص132.

[2]-E. de reynaud (Pellissier),**quelque mots sur la colonisation militaire en Algérie**,Garnier Frères ,Librairie,Paris-1847,p09.

[3]- بعد سقوط العاصمة كان النقص الفادح لتعداد الجيش الفرنسي يستلزم آنذاك الاستعانة بقوات إضافية من الأهالي المتعاونين لضبط الأمن ومواجهة الثورات المتعددة ، ولأجل ذلك سعى كلوزيل إلى تشكيل فرق عسكرية من المجندين من الأهالي ومن عناصر سابقة من الجيش التركي لدعم الجيش الفرنسي تكون من الكولوغليين والزنوج ومتطوعين من القبائل وتم وضعهم تحت تصرف الجيش الفرنسي ،وقد قنن العمل العسكري للزواف بامرية 01اكتوبر 1830،وأخضع تدريبهم لأكفء الضباط الفرنسيين ،أمثل :لاموريسيار ،دوفيفي ، كافينياك ،وخاضوا مع الجيش الفرنسي عدة معارك ضد المقاومة الجزائرية ، وخاصة قوات الأمير عبد القادر .للمزيد حول الموضوع ،يرجى مطالعة:
Les Zouaves ,**Documents Algériens Service d'Information du Cabinet DuGouvernement Général de l'Algérie** ,Série militaire Armée D'Afrique Zouaves,8-12 Octobre 1950,p-p03-09.

[4]- Favrod (Charles –Henri),**la révolution algérienne**, Edition Dahleb ,Alger-2007,p25.

بشكل كبير على تشجيع الاستيطان والزراعة الذكية،وهي مشروع يعمل على تشجيع التعمير عبر تسليم الأراضي الزراعية للفلاحين المعمرين ،وقد طلب من الحكومة الملكية بباريس تخصيص 100مليون فرنك فرنسي لتسهيل استيطان 100ألف معمر فرنسي وأوروبي جديد،كما اقترح على توطين رجال الجيش في المناطق المستعمرة خصوصا في منطقة الهضاب العليا ومساعدتهم بكل الوسائل الممكنة لتطوير تلك المناطق وتنميتها،وبالطبع كان جيش إفريقيا هو من يتولى القيام بتلك الأعمال الاستيطانية الكبرى،كتجفيف المستنقعات والترع أوفي شق الطرق واستصلاح الأراضي،أو بناء الجسور والسدود وحفر الآبار وبناء الثكنات العسكرية وحتى القرى الاستيطانية الجديدة ،وبذلك حل عهد الاحتلال عن طريق الفأس والرفش مكان السيف والبندقية ،وإيصاله بالطرق الفرعية المتصلة بالمدن والقرى المجاورة.لقد كان عملا جبارا استفاد منه المعمرون لاحقا [1].

في ظل استمرارية حماية بندقية الجندي الفرنسي لمشروع الاستيطان،وفي أرض شاسعة وخصبة في سهول متيجة ووهران و عنابة وسكيكدة ،ومع كل أنواع الرعاية والدعم المعنوي والمادي من قبل إدارة الاحتلال والحكومة الملكية استطاع الكولون الأوائل التأقلم مع الظروف ،فالإمكانيات المادية المتوفرة لديهم ،وكل أشكال الرفاهية التي أصبحوا يتمتعون بها ،أنستهم ظروفهم القاسية التي عاشوها في بلدانهم الأوروبية،بل تعلقوا بالأرض الجديدة وبهذا الوطن اليافع ،الذي كان في نظر الكثير منهم وطنا جديدا في طور النشوء ،وقاسيا في الوقت نفسه ،لقد حل الأمن ،واستشعر المستوطنون بالأمان في ظل حماية الجنود لهم ،ففي شهادة لأحد المستوطنين الأوائل،اسمه بول بلان « Paul Blanc »، نجد تعبيرا عن الشعور بالأمن وبتقبّل الحياة الجديدة :" بالنسبة لي ومنذ إقامتي في الجزائر لم أتوقف أبدا في التفكير والاعتقاد بأنني سأكمل بقية حياتي في باريس ،فأنا سأستقر هنا ،وفي هذه الأرض الإفريقية أصبحت أحس بالطمأنينة وسط السكان الفرنسيين.."[2].

[1]- Hugonnet (Fred),**Français et Arabes En Algérie ,Lamoricière ,Bugeaud , Dumas ,Abed-elkader ,** Edition Challamel ainé, Paris-1860,p102.

[2]- Blanc(Paul) ,**La vie de colon en Algérie**, imprimerie de la vigne Algérienne,Algérie-1874, p08.

3-الاستيطان في عهد الجمهورية الثانية ، طموحات كبيرة ونتائج هزيلة(1848-1851)

بعد سقوط الملكية بفرنسا ورحيل بيجو،استمرت سياسة الاستيطان الرسمي في عهد الجمهورية الثانية ، بحيث وضعت له حكومة الجمهورية الثانية خطة محكمة لنقل 200ألف من الفرنسيين إلى الجزائر،وخصّص ما مقداره 50 مليون فرنك فرنسي لتنفيذ تلك الخطط ومن المهم في الأمرالبحث عن الأسباب التي دفعت بالحكومة الفرنسية إلى هذه السياسة في هذا الوقت ،وبشكل مخطط ورسمي مادامت فرنسا تعيش ظروفا اقتصادية وسياسية صعبة[1].

لعل الدافع الرئيسي الذي زاد من حماس الجمهوريين المدنيين للاستيطان الذي استهدف هذه المرة الريف الجزائري في المناطق الداخلية وحواف الصحراء ،هو انتقال العمليات العسكرية إلى الصحراء ومنطقة القبائل ،وما صاحبها انتزاع الآلاف من الهكتارات من الأراضي من الأهالي، وبالتالي عاد الحديث عن الاستيطان الرسمي بسبب الحاجة لتكثيف وتيرة التعمير،وكان تحول مناطق محتلة جديدة إلى فارغة يشجع ذلك ،وكلما ازداد تهجير أصحابها يلاحظ ازدياد رغبة الحكومة الفرنسية على المضي قدما في عملية توطين الريف ،وتعميرها بالآلاف من المستوطنين الجدد على أمل لتطوير الريف والنهوض بالزراعة فيه[2].

ومقابل ذلك،فقدفكر الفرنسيون في هذا الوقت في إخضاع السكان الجزائريين المنتزعة أراضيهم وتجميعهم في مناطق ضيقة بعيدة عن المناطق التي يسكنها المستوطنون ،قريبة من ذلك النظام الذي أقره الأنجلوساكسون ضد الهنود في شمال القارة الأمريكية،تحت تسمية "تجميع القبائل " "الكانتونات" ، وبالرغم من أنه لم يصدر قانونا بهذا الشأن قبل سنة 1863،ومع ذلك فقد شهد بدايات لتطبيقه على يد الوالي العام "راندون"،الذي كان أشد المتحمسين لإقراره في الجزائر ، خاصة في شرق البلاد[3]

أما الدافع الثاني الذي أرغم الجمهورية الثانية على العودة إلى تطبيق الاستيطان الرسمي ،فهو الوضع الاقتصادي والسياسي المتعفن في فرنسا بعد ثورة الكمون عام 1848 ،فبعد سيطرة الاشتراكيون على الحكم بفرنسا ،كانت الحكومة قد وعدت العمال بتطبيق اشتراكي في

[1]- خلف التميمي (عبد الملك)،**الاستيطان في الوطن العربي ،المغرب العربي فلسطين الخليج العربي** ،دراسة تاريخية مقارنة ، دار المعرفة للطبع-الكويت -1978،ص20.

[2]- Jennifer Sessions ,op-cit,p118.

[3]- قنان (جمال)،**قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،الجزائر -1994 ، ص113 .

مجال الصناعة وغيرها ،إلا أن هذه السياسة الاشتراكية التي واجهتها عقبات كثيرة بخرت تلك الوعود، فالوضع لم يكن مهيأ لتطبيق الأفكار الاشتراكية التي لم تكن واضحة ومتكاملة ،ولما بدأ تمرد العمال وجدت الحكومة الاشتراكية نفسها مجبرة على إسكاتهم والعمل على تشجيعهم على الهجرة إلى الجزائر، وبما أن عدد العمال كان كبيرا ونقلهم بهذه الظروف وبهذه السرعة من الصعوبة بمكان فإن خطة التهجير واجهت مشكلات كبيرة كانت تهدد بفشلها، فمسألة تأقلم هؤلاء مع الواقع الاجتماعي الجديد ليس سهلا، إضافة إلى أن الحكومة الفرنسية ، التي تبنت خطة كبيرة لدعم الاستيطان، لم تعد قادرة على توفير وسائل المعيشة والتوطين والإنتاج لهذا العدد الكبير،مما أدى بها الى عدم الوفاء بالتزامها نحوهم ،وبالتالي تعرضها لردود فعل عنيفة من قبل العمال نتج عنها عودة أغلبهم ثانية إلى فرنسا،وهذا واضح من الأرقام التالية:فمن مجموع 80ألف من الفرنسيين الذين هاجروا إلى الجزائر لم يستقر منهم سوى 15 ألف[1].

أما الدافع الثالث ، فهو تدهور الظروف الاقتصادية للمستوطنين في تلك السنة ،كانعكاس طبيعي للأوضاع المتدهورة في فرنسا ذاتها ،ولكي تطمئن المستوطنين ، افتتحت الجمهورية الثانية أعمالها الاستيطانية بتوجيه نداء إلى المعمرين في شهر مارس 1848جاء فيه:"أيها المعمرون في الجزائر . إن الحكومة المؤقتة منشغلة جدا بوضعكم الخطير الذي وقعتم فيه منذ زمان طويل ،وهي تعرف أن جل حيرتكم متأتية من فقدان اليقين من مستقبل الجزائر...إن الجمهورية ستدافع عن الجزائر كدفاعها عن الأرض الفرنسية ، وسيقع النظر في مصالحكم المادية والمعنوية وتحقيقها"[2].

إن هذا النداء يحمل دلالة قوية بالنسبة لسياسة الجمهورية الثانية اتجاه الجزائر ،حيث صارت "الجزائر، فرنسا جديدة"،كما أعربت حكومة الجمهورية الثانية أن دعمها الكامل للاستيطان الذي صارت ترى فيه وسيلة هامة للتخلص من العمال العاطلين عن العمل والثائرين في فرنسا نفسها.

تنفيذا للوعود التي قطعتها الجمهورية الثانية اتجاه المستوطنين تم إصدار قرار19نوفمبر 1848، القاضي بتخصيص مبلغ 50مليون فرنك فرنسي لتشجيع الاستيطان بالجزائر،وقد

[1]- خلف التميمي (عبد الملك)،المرجع السابق،ص20.
[2]- حيمر (صالح)،المرجع السابق،ص 92

كلفت السلطات العسكرية بإدارتها وتخصيصها للقطاع الزراعي ،ويشهد للجيش نشاطه الكبير في خلق مستوطنات جديدة تتوفر على كل المرافق الضرورية في المناطق الريفية الخصبة قصد ربط المعمرين الجدد بالأرض،غير أن المهمة التي كان أريد لها أن تتم في وقت سريع تأخرت بسبب الحرب،كما أن خلق مستوطنات زراعية بعيدة عن المراكز العسكرية كان يتطلب الحماية الدائمة لها ،وهو أمر كان غاية في الصعوبة[1]،ومع ذلك فقد أصّرت الجمهورية الجديدة على مواصلة دعم الاستيطان وتشجيع الهجرة إلى الجزائر،وخصصت مبلغ 50مليون التي أقرها البرلمان كمساعدات للراغبين في الهجرة والاستيطان بالجزائر ،حيث وعدت كل من يهاجر إلى الجزائر بمنحه قطعة أرض تتراوح مساحتها مابين 6إلى 10هكتار،ومنزلا، ومساعدات مادية وتقنية للعمل ،وفي نفس الوقت وجه رئيس الحكومة نداء جديدا ،ولكن هذه المرة كان موجها للمواطنين الفرنسيين مهما كانت مهنتهم ،والمستعدين للذهاب إلى الجزائر ،وجاء في النداء:"إن المستقبل لكم ستجدون أمامكم مناخا صحيا ،وسهولا شاسعة ستستغلونها وترتقون إلى حياة مزدهرة .." [2].

بلغ عدد المترشحين للهجرة إلى الجزائر في عهد الجمهورية الثانية 100.000مترشح أغلبهم من العمال الباريسيين العاطلين عن العمل [3]،غير أن أعداد الذين هاجروا بالفعل إلى الجزائر،كان ضئيلا ودون سقف طموحات الجمهورية الثانية ،إذ قدر ب20.502فرنسي،بقي منهم 10.397فقط ،أما الباقي فقد فضّل المغادرة والعودة لأرض الوطن ،كما لم يتجاوز عدد القرى الاستيطانية المشيّدة 42قرية جديدة .وهذا ما مثّل فشلا ذريعا للاستيطان دفع بالدولة الفرنسية إلى تغيير نظام الاستيطان ، والاستغناء عن الدعم الحكومي الرسمي نحو الاستيطان الليبرالي[4]، والتخلي عن نظام التنازل المجاني للأرض والاتجاه نحو سياسة البيع والاعتماد على الشركات الكبرى مستقبلا[5].

[1]- Le général de division le pays de bourjolly ,**colonies agricoles d'Algérie**, librairie militaire j. Dumaine – Paris-1849,p09.

[2] - سلوان (رشيد رمضان) و المشهداني(مؤيد)،المرجع السابق،ص301.

[3]- حيمر (صالح):المرجع السابق،ص،ص 92، 93.

[4]-Bronde(Pasquier) ,op-cit, p 17.

[5] - Ducuing (François), **les villages départementaux en Algérie,** Shiller-Ainé Imprimeur libraire, Paris-1853,p ,p19,20.

ومما سبق ،فإن القراءة للسياسة الاستيطانية خلال الجمهورية الثانية ،تقودنا إلى استنتاج أسباب هذا الفشل ،رغم كل الإمكانيات المتاحة، والتي ترجع إلى سببين، هما :

1-اختيار مهاجرين من العمال والحرفيين ،وهم غير مؤهلين أصلا للأعمال الزراعية ، ويفتقدون للخبرة والقدرة على التأقلم مع النشاط الزراعي،وعلى حياة الريف في إفريقيا

2-عجز الحكومة على الوفاء بكل التعهدات المقطوعة لهؤلاء،وهذا ما يفسر لنا عودة أكثر من 65ألف مهاجر إلى الوطن الأم ،واستيطان سوى 15000فرنسي.

وخلاصة ،فبالرغم من استتباب الأمن خصوصا بعد القضاء على الثورات الكبرى ، ولاسيما ثورة الأمير عبد القادر في الغرب،وتوسع الاحتلال نحو الداخل ،ورغم محاولات الجمهورية الثانية دعم الاستيطان الرسمي سياسيا وماليا ،إلا أن تلك السياسة الاستيطانية لم تؤت بثمارها المرجوة ،والسبب الرئيسي ،هو عدم قدرة الدولة الاستعمارية على خلق تلك الظروف الاقتصادية والمعيشية الجيّدة للمستوطن،والتي كان يعرفها بفرنسا قبل مغادرته لها،مما أدى إلى تغيير نظام الاستيطان إلى الاستيطان الحر،بعد تغيرالنظام إلى الإمبراطوري.

4-نابليون الثالث وازدهار الاستيطان الحر(1851-1870)

كان نابليون قد وعد الفرنسيين أثناء زيارته إلى الجزائر 1860، بتشجيع حركة الهجرة و الاستيطان في هذه الأراضي التي ستظل حسبه فرنسية، كما صرح خلال زيارته الثانية سنة 1865 بأنه خصص مائة مليون فرنك لتشجيع هذه الحركة، ذلك بالرغم من أن نابوليون ومستشاريه كانوا غالبا ما يرددون عبارات **"المستعمرة النقية "**،و**"المملكة العربية تحت الراية الفرنسية "**، وعارضوا إرسال حثالة المجتمع الفرنسي إلى الجزائر ،والتقليل من حركة الهجرة إلى الجزائر ، وحصرها في أرباب المال الفرنسيين،ليحظى بذلك الاستيطان الحر في العهد الإمبراطوري بدعم منقطع النظير ،لأنه سينقذ كاهل فرنسا من أعباء الاستيطان الرسمي ،ويساهم في بناء المستعمرة ، خاصة وأن الظروف الأمنية قد بدأت في التحسن

التدريجي ،وأعمال التهيئة أضحت تحتاج إلى أموال ضخمة وشركات قادرة على التمويل،وكان ذلك إيذانا لانتهاء عصر أبوية الدولة الفرنسية والاستيطان الرسمي العقيم[1].

دفعت سياسات الهجرة الشاملة والتوطين المكثف للأوروبيين ،التي اعتمدتها الحكومات السابقة ، وما انجر عنها من تكاليف باهضة أثقلت كاهل الدولة ،إلى اقتناع الامبراطور نابليون بالعمل على الحد من الاستيطان الرسمي، ففي تصريح"**بارو**" » « **Barault**-وهو أحد مستشاري نابوليون- ما يؤكد على إصرار عاهل فرنسا تغيير بوصلة الاستيطان بشكل نهائي :" أتركوهم يسكنون الشوارع بدل إرسالهم إلى الجزائر "[2]،وفي تصريح آخر وجهه للمستوطنين والأهالي معا،جاء فيه:"أنتم سكان الجزائر،أتيت إلى الجزائر لأكون بينكم ومنكم ، والتعرف بنفسي عن مصالحكم وانشغالاتكم ،ودعم جهودكم ، وأتعهد لكم بأن الميتروبول لن يدخر جهدا في توفير الحماية اللازمة لكم "[3]،وهو ما فهمه المستوطنون،بأن حكومة الإمبراطور تخلت عنهم [4]،وانتفضوا ضد إلغاء نابليون لوزارة المستعمرات وإلحاق الجزائر لوزارة الحربية ،وبذلك أثبت المستوطنون دوما أن الولاء دوما لمصلحتهم ،فالجيش الذي كان في عهد قريب يضمن لهم أمنهم أصبحت اليوم سلطته حدا لحريتهم[5]،وبالرغم أيضا من أن ما قدمته الإمبراطور يضاهي أو يفوق ما قدم للاستيطان خلال العقود الثلاثةالسابقة ،فقد بلغت مجموع الأراضي المقدمة للاستيطان بنوعيه الرسمي ثم الحر خلال الفترة الممتدة من(1850-1860)،وهي في عمومها العشرية الأولى من فترة الحكم الإمبراطوري، 250.000 هكتار ،أي ضعف الأراضي الموهوبة للمستوطنين في الفترة الممتدة ما بين 1840-1850،والمقدرة ب115.000هكتار ،ونفس الزيادة كانت في أعداد المهاجرين الأوروبيين نحو الجزائر ،بحيث بلغ تعداد المستوطنين في الفترة ذاتها(1850-1860)ب103ألف مستوطن جديد ،بما يقارب

[1]- Fallot(Emile) ,op-cit,p,p24,25.

[2]-أجيرون (شارل روبير)،**المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية**، ترجمة محمد العربي ولد خليفة، ط2، وزارة الثقافة ،الجزائر-2013،ص141.

[3]- Teissier (Octave) ,**Napoléon 3 en Algérie** ,Challamel-Ainé Libraire,Paris-1865,p18.

[4]- GGA ,**La Colonisation En Algérie 1830-1921** ,Direction de l'Agriculture ,du Commerce et de la Colonisation - Imprimerie Administrative Emile Pfistre , Alger-1922 ,p47.

[5] -Jourdeuil,**Un mot sur la politique française en Algérie**, Edition Typographie et lithographie .F .Robert-Toulon,France-1870,p03.

نفس عدد المهاجرين والمستوطنين الذين استقروا خلال 20سنة الفائتة، أي من عام 1830إلى 1850، و الذين قدر عددهم سنة 1850بحوالي ألف65مستوطن[1].

ولما كان الاستيطان الحر في نظر نابليون مرتبطا بالأرض الشاسعة فقد أصدرت حكومته قرارا صدر بتاريخ 26أفريل 1853 يسمح بتمليك الشركات الكبرى لأراض واسعة في السهول العليا ، حيث هيمنت **"شركة جينيفواز"« Compagnie Genevoise »**،والتي يديرها كل **"الكونت بوريجارد" « le compte beauregard »** ،والدكتور**" لولان " « Lullin »** ،والسيدة **"ميرابو"Mirabeaud »«** ،والسيد **"بوتر" « Pautter »** ،على أراضي تتربع على مساحة قدرها 200.000 هكتار في ضواحي سطيف ،حيث تمثلت مهمة شركة جينيفواز ببناء قرى جديدة للمستوطنين الجدد ،وكانت كل مستوطنة تتربع على مساحة 1000هكتار،وتضم حوالي 50عائلة،وزعت على كل عائلة 20هكتار قصد مساعدتها على الاستقرار والعمل الزراعي[2]،في حين الشركة الجزائرية العامة [3]فقد استفادت هي الأخرى من امتياز سنة 1863تحصلت فيه على ما يقارب 100.000هكتار في القطاع القسنطيني، أما شركة الهبرة والمقطع ،فقد استفادت عن طريق التمليك عبر الامتياز على 25.000هكتار في القطاع الوهراني[4].

ومقابل ذلك فقد تراجعت المساحات المقتطعة من أراضي الفلاحين الأهالي لإنشاء مستعمرات المستوطنين ،بالرغم من راندون لم يكن مقربا جدا من المستوطنين ، إلا أن أجود الأراضي التي اقتطعت كانت في عهده ،ففي البليدة تحصل المستوطنون على 2652هكتارمن الأراضي من أصل 4066هكتار انتزعت في تلك الفترة،و في إقليم قسنطينة فقد أوصى عامل العمالة "زويبفل "بالإبقاء على ربع الأراضي فقط لصالح الأهالي ،والباقي ضم لأملاك الدولة أو منح للكولون،وفي ناحية قالمة كمثال فقدت ثلاث قبائل 40%حتى 50%من مجموع

---

[1]- GGA ,**La Colonisation En Algérie 1830-1921** ,op-cit,p47.

[2]- Dubois (Marcel) , Terrier(Auguste),op-cit,p312.

[3]-تعتبر الشركة الجزائرية العامة ،أحد أهم الشركات المشجعة للاستيطان والمدعمة للكولون ، فهي بنك المستوطنين وخزينتهم المالية ،كما يمكن اعتبارها شركة عابرة للحدود الفرنسية ،وامتد نشاطها للمستعمرات ،وخاصة الجزائر ،حيث احتكرت تجارة وتخزين الحبوب والمواشي ،والزيوت ،الكروم ،وغيرها من المواد الزراعية الأخرى ،كما كانت تورد للمستوطنين الآلات الزراعية ،الأسمدة ،واتسع نشاطها ليشمل أيضا مجال التعمير والبناء ..إلخ .للإطلاع أكثر على نشاط الشركة الجزائرية العامة ،يمكن العودة إلى :

Lefeuvre (Daniel), **La guerre d'Algérie au miroir des décolonisations françaises** ,2eme Edition , Société françaises d'outre mer, France- 2005, p-p 170-176.

[4]- بن داهة (عدة)،المرجع السابق،ص459.

أراضيها ،ولم تبق لقبيلة لعزابة سوى5/2من أراضيها ليكون الشرق الأكثر خسارة لأراضيه لصالح الكولون،وتحملاّ لعبء الاستيطان ولعمليات الحشد والتجميع ،بالرغم من أنه يمثل الأكثر سكانا (نصف سكان الجزائر)من بين الأقاليم[1] .

كما تراجعت أيضا حركة الهجرة بالرغم من تزايد في أعداد المستوطنات ،ويعزى ذلك إلى سياسة الإمبراطورية الثانية الهادفة إلى تقليص دائرة الهجرة لتشمل فقط أرباب المال والصناعة **"الهجرة الانتقائية البراغماتية "**

وأمام احتجاج الأهالي الجزائريين،وبتأثير من مقربيه ومستشاريه،**فريدريك لاكروا « Frédiréc lacroix »** (إداري سابق بالجزائر)،والذي كان أحد الغاضبين على النظام الكولونيالي السائد في الجزائر ،والكولونيل **"لاباسي"« Lapasset »** ،وهو ضابط بالمكاتب العربية،وأحد المدافعين عن الأهالي،**وإسماعيل إيربان**[2] **« Ismail Urbain »** ووزير الدفاع**"الماريشال راندون"**« Le Maréchal Randon » ، والذي كان شديد السخط من المستوطنين ،قام نابليون الثالث بزيارة الأولى إلى الجزائر ،والتي لم تكن تحظى بتأييد كبير من قبل المستوطنين،فقد كان عدد من كبار الموظفين يصطفون مع المستوطنين في مقتهم ورفضهم لمجيء نابليون إلى الجزائر نذكر منهم مدير المصالح المدنية للجزائر السيد **"مارسي لاكومب"« Mercier Lacombe »** ، والدكتور**"وارنيي" « Warnier »** ، ورجل الاقتصاد **"جيل ديفال"« Jules Duval »** ، ففي رأيهم فإن أفكار نابليون حول **"المملكة العربية"**[3]،تمهد لانفصال الجزائر،وتنهي دولة الاستيطان[4].

---

[1]- نفسه،ص،ص115،116.

[2]- توماس اسماعيل ايربان:من مواليد كايان عاصمة غويانا 31ديسمبر1812،سانسيموني ، كرس حياته لفكرة التعايش بين الشرق والغرب والحوار بين الحضارتين الغربية والإسلامية ،ولأجل الفكرة عاش في الشرق "مصر" لفترة وجيزة،وفيها اعتنق الإسلام ،انتقل إلى الجزائرسنة 1836 ليعمل مع السانسيمونيين لترجمة أفكارهم على أرض الواقع ،تنقل بين العديد من الوظائف الإدارية في حكومة الاحتلال ،كترجمان،ثم في الشؤون الأهلية ،ثم كمستشار مابين 1860-1870،عمل مع نابليون للتأسيس لفكرة المملكة العربية .للمزيد ،يرجى الإطلاع على المصادرو المراجع التالية:
Edouard- Henri cordier ,**Napoléon et Algérie** ,Alger-1937.
- Philippe (Régnier), **Ismayl Urbain le voyage d'Orient**,Edition L'harmattan, Paris-1993.

[3]- فكرة طرحها نابليون الثالث خلال الستينات ،ذكرت بعد الزيارة التي قام بها نابوليون إلى الجزائر عام 1860 في رسالة بعثها إلى الحاكم العام للجزائر الماريشال بيليسيه ،مثلت جملة خواطر نابوليونية حول مستقبل الجزائر ،الذي يكون جميع سكانها متساوون في الحقوق والواجبات يتعايشون جنبا إلى جنب ،يكون فيها نابليون إمبراطورا على المسلمين كما هو على الفرنسيين ،ويكون فيها الأمير عبد القادر ملكا على الجزائر ،اعتبرها العديد من المؤرخين شطحة من شطحات خيال نابليون غير الواقعية ،وإحدى تناقضاته الصارخة ،لأنه من جهة يشجع على الاستيطان الواسع ومن جهة ثانية ينادي بحقوق الأهالي في الأرض والمساواة الاجتماعية ،ماتت الفكرة ولم تتجسد على الواقع . للمزيد اطلع على كتابات :
Annie Rey –Goldzeiguer,**Le Royaume Arabe .La politique algérienne de napoléon III,1861-1870**,Paris-1977.

[4] - vigoureux(Claude), **« Napoléon 3 et Abd-el-Kader »**, Revue la napoleonica , Revue internationale d'histoire des deux Empires napoléoniens ,n°04,Janvier,2009, Paris,p,p21,22.

لإنهاء الجدل ،وطمأنة المستوطنين حول ما روّج لفكرة "المملكة العربية "،قام نابليون بزيارة ثانية للجزائر مابين (03ماي إلى 04جوان1865) [1]، حيث كانت أول مستوطنة يزورها الإمبراطور ،هي الشراقة بالعاصمة ، وقد صدم نابوليون من التناقضات الموجودة بين شكاوى المستوطنين المتواصلة من قسوة الظروف ،وقلة الدعم الحكومي لهم ،وبين التحسن الكبير في حياة المستوطنين ،والتطور الكبير الذي شهده القطاعين الزراعي والصناعي في الجزائر،فقد كان يتوقع أن يجد الأرض جدباء ومهملة وقليلة الاستغلال،غير أنه وجد السهول تكتظ بالزراعات المتنوعة ،والحبوب ،والأشجار المثمرة ،والكروم، والحوامض،وحتى زراعات القطن ،والتبغ ،وغيرها من المحاصيل المدارية ،التي أثبتت نجاحها وتأقلمها مع مناخ الجزائر.ومن الشراقة انعطف على سطاوالي ليدشن مزارع الإخوة لاتراب ،كما قام بزيارة لمناطق استيطانية أخرى في إقليم الجزائر [2].

ورغم أن الإمبراطور نابليون الثالث أوقف نظام الامتيازات المجانية والفردية لصالح المستوطنين وحلت محلها عملية بيع الأراضي ،وأوقف سياسة حشد الأهالي ،إلا أنه تم في عهده الإقراربالملكية الفردية للأهالي والكولون على حد سواء،عبر مرسوم 1864،الذي يجعل من الشراء الحر وسيلة لانتقال الملكية في الجزائر ،وبهذا وضح نابليون حدا لسياسة الاستيطان الرسمي وأطلق العنان للاستيطان الحر الذي مكن الرأسمالية والإقطاعيين والشركات الفرنسية بالسيطرة على الأرض واستثمارها وتسويق منتجاتها ،وهذا ما فسر عدم توافق المستوطنين مع الإدارة الاستعمارية في عهد نابليون ،لأنهم يرون في سياسته حرمان لهم من امتيازاتهم المحققة خلال الحكومات السابقة [3].

---

[1]-تندرج زيارة نابليون الثانية لعام 1865 في إطار سياسة محاباة الجميع ،طمأنة المستوطنين عما روّج عن فكرة المملكة العربية من جهة،وتهدئة الأهالي الغاضبين من استمرار الاستيطان من جهة ثانية ،الذي أدى إلى تآكل أراضيهم وتدهور أوضاعهم المعيشية ،فقد أراد نابليون أن يضطلع عن الحالة العامة للجزائر ،والحكم عن الأوضاع العامة للمستعمرة بنفسه ،وأن يسمع للجميع بأذنين صاغيتين الأولى للمستوطنين ،والثانية للأهالي ،ففي صبيحة 29أفريل 1860،على الساعة 8صباحا انطلق من باريس نحو ميناء مارسيليا ليبحر نحو الجزائر بعد يومين على متن اليخت "النسر « L'Aigle » وفي كل مستوطنة كاننابليون يتلقى استقبالا منقطع النظير من قبل سكان مدينة الجزائر من المستوطنين والأهالي وحتى اليهود والزنوج ،وكانت أول كلماته قد وجهت للمستوطنين لطمأنتهم، بدل أن تتوجه إلى الأهالي الذين كانوا شغوفين بأن يوضح لهم معنى "المملكة العربية "ومستقبلهم في هذه المملكة ،التي لم يكن لهم نصيب سوى المزيد من الاستيطان والنهب المستمر والممنهج لأملاك الأهالي.للمزيد عن زيارة نابليون يرجى الإطلاع على :

- Teissier (Octave) ,**Napoléon 3 en Algérie** ,op-cit,p-p07-15.

[2]- Ibid,p22.

[3]- خلف التميمي (عبد الملك)،المرجع السابق،ص23.

ولهذا فإنه لما انهزم نابليون أمام بروسيا وما نتج عنه من سقوط للنظام الإمبراطوري ،استقبل المعمرون نهاية الحكم الامبراطوري بالتفاؤل المشبوب بالحذر ،فمن جهة انتهى كابوس المملكة العربية ،ومن جهة ثانية ازدادت المخاوف والشكوك حول نوايا النظام الجديد إزاء مستقبل الاستيطان في الجزائر،والغريب في الأمر أنهم لم ينتظروا ما تفسر عنه الأحداث القادمة ليحددوا موقفهم ،بل سارعوا إلى القيام بثورة مماثلة لثورة الكومون بباريس ،وانتظم تجار البحرية والمزارعون والجمهوريون المنفيون بزعامة المحامي **"فيرموز"« Jurasien RomualdVuillermoz »** في حركة لإعلان التمرد البلدي بالجزائر العاصمة والدعوة للانفصال،ولم تنفع معهم لا نداءات التهدئة التي وجهها الحاكم العام **"بارون دوريو"« Baron Durrieux »** ،ولا بديله الجنرال **"استيرهازي "** المعيّن يوم 23أكتوبر 1870الذي تم إجباره على الرحيل ،ليستمر تمردهم إلى غاية تعيين الأميرال **"دوغيدون "« Henri de Gueydon Louis »**في 29مارس 1871،ألذي أخضع مدينة الجزائر،وانتهى تمرد المستوطنين ،بعد التأكد التام من دعم الجمهورية الجديدة للاستيطان [1].

5-الجمهورية الثالثة وعودة الاستيطان الرسمي الكبير (1871-1940)

كان لقيام الجمهورية وعودة تطبيق النظام المدني مصدر ارتياح للمستوطنين،ومن جهتهم لم يتوان الحكام العامون بدء من دوغيدون في تطبيق الإجراءات القانونية والإدارية التي تناسب الحياة العامة للمستوطنين ،حيث قامت باريس بإمطار الجزائر بوابل من القرارات التي بلغت ثماني وخمسين قرارا في ظرف خمسة أشهر،وبإحياء مشروع "راندون" بتطبيق النظام المدني وإلغاء الحكم العسكري والمكاتب العربية ،وهو ما مثّل نصرا عظيما للكولون بعد حرب طويلة مع الجيش والمكاتب العربية،والذي أقره البرلمان الفرنسي يوم 09مارس 1870،الذي صدر على شكل مرسوم يوم 29مارس1871 [2]،ومن بينها إنشاء منصب الحاكم

[1]- زروق (نادية)،**سياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة في الجزائر 1870-1900**،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر- 2014،ص-ص46-48.

[2]- يسمى أيضا بلائحة كريميو أو الأنديجانا (L'indigénat) قانون عنصري صدر ضد الأهالي ،أعلن عنه سنة 1847،وتم تطبيقه في26جوان 1881 ، بمقتضى هذا القانون اكتسبت السلطة الإدارية الاستعمارية اختصاصات وصلاحيات السلطة القضائية ،وبذلك سقطت الضمانات المألوفة لحرية الأهلي الجزائريين بحجة المحافظة على الأمن العام وإقرار النظام ،ويمكن إجمال تلك الاختصاصات في :سلطة الحاكم العام في توجيه العقوبات دون محاكمة بحجة الحفاظ على الأمن العام ،والأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية،وإعطاء للمتصرفين الإداريين ورؤساء البلديات الحرية والحق في إصدار الأحكام ، وحبس أو مصادرة ممتلكات الأهلي دون أية محاكمة،مما يلزم على الأهلي تقديم الطاعة العمياء للمستوطن دون أي اعتراض، حدد عند صدوره 41مخالفة ،وخفضت إلى 21 مخالفة في 1891ثم استقرت عند 27 مخالفة في قانون 21ديسمبر 1898،ألغي تطبيقه سنة 1944.

العام المدني في مكان الحاكم العسكري (كما طلب الكولون)،وآخر يلحق الجزائر بفرنسا بواسطة دمج شؤونها في مختلف الوزارات بالحكومة الفرنسية بباريس ،وتقسيم الجزائر إلى ثلاث ولايات مدنية في الشمال،ومنطقة عسكرية في الجنوب ، وتعويض عمل المكاتب العربية بالبلديات ذات السلطات الكاملة كالتي بفرنسا خصصت في المناطق ذات الأكثرية الأوروبية ،وبلديات مختلطة في المناطق التي يحتك بها المستوطنون بالأهالي المسلمين.وبذلك انتعشت سياسة الإدماج والإلحاق، وعادت معها سياسة الاستيطان لتصبح أكثر حدة ،وقد أعطت ثورة الجزائر عام 1871(المقراني،والحداد)عذرا للسلطات الفرنسية لمصادرة المزيد من الأراضي ،وحشد الجزائريين في أماكن معينة.

ومع كل قرار كان ينزل على المستعمرة من باريس بغية تحقيق الاندماج الإداري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للجزائر ،كان المستوطنون يرون في تلك القرارات بعين من الأنانية الزائدة ، باعتبارها وسيلة للانفصال والاستقلالية ،وأصبحوا مع مرور الوقت ينادون بالحكم الذاتي،وبحرية أكبر في مشاريعهم ،مما أدى إلى تعكر مزاج العديد من الساسة الفرنسيين ،الذين بدأوا يحذرون من سطوة المستوطنين وتطاولاتهم المستمرة على الدولة الفرنسية،وخصوصا جول فيري، وميشلان، وغوتي،خصوصا بعد صدور قانون النيابات المالية الذي مهّد للاستقلال المالي عام 1899،فقد تأسف جول فيري[1] على أن "الكولون لم يتخلصوا من روح المنتصر"[2].

استمرت عمليات الاستيطان في عهد الجمهورية الثالثة،في الفترة الممتدة ما بين 1871-1940وازدادت معها حركة الهجرة ووصول مجموعات جديدة من الأوروبيين بنفس ميزة المرحلة السابقة ،فقد أدى تغير النظام السياسي بفرنسا ووصول الجمهوريين لسدة الحكم بباريس وتأييدهم المطلق لسياسة الاستيطان ،وهزيمة فرنسا في معركة سيدان أمام بروسيا، وما تلاها من هجرة عشرات الآلاف من مهجري الألزاس واللورين إلى مناطق القبائل الثائرة

[1] -جول فرانسوا كاميل فيري Jules François Camille Ferry »« (5أفريل1832-17مارس 1893):سياسي فرنسي ، تولى منصبي وزير التربية والفنون التشكيلية خلال سنوات 1882،1880،1879 عمل خلالها على إصلاح المنظومة التعليمية الفرنسية ،وشدّد على ضرورة إدماج سكان المستعمرات بفتح المدارس الفرنسية لهم،و بالرغم من انجازاته في مجال التعليم لصالح الأهالي ،إلا أنه كان من أشد أنصار الاستيطان و الحركة التوسعية الاستعمارية في الجزائر والمستعمرات،تبنى فكرة رسالة التمدين الأوروبية للشعوب غير المتحضرة،و أن الأجناس السامية والراقية تتمتع بواجب الوصاية والرعاية على الشعوب المستعمرة .للمزيد أنظر:
-الفصل الثالث.

Fiaux(Louis),**Un malfaiteur publique , jules ferry**,Ed Achille le roy,Paris-1886.
Ozouf(Mona) ,**Jules Ferry, la liberté et la tradition** ,Edition Gallimard,Paris-2014.

[2] - سعد الله (أبو القاسم)،**الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930**،الجزء الثاني،الطبعة الرابعة،دار الغرب الاسلامي،بيروت،لبنان-1992،ص27.

في الأراضي المصادرة بموجب قانون الحجز العام (21جويلية 1871) و(04سبمتمبر1871) ، وأزمات الكروم (الفيلوكسيرا)،إلى عودة حركة التوطين الرسمي بقوة ،بعد أن أصابها الفتور النسبي في العهد الإمبراطوري، فقد كان حماس الجمهورية الثالثة للاستيطان كبير جدا،إلى درجة أنها تنازلت عن100.000هكتار من خيرة الأراضي ومنحت لمهجري الألزاس واللورين دفعة واحدة ل 1138 عائلة فرنسية ،كما سمح مرسوم 06أكتوبر 1871القاضي بتوزيع الأراضي مجانا ل1853 فرنسيا آخرين قد استقروا بالجزائر في تلك السنة و2070قادما جديدا قبل صدور المرسوم[1].

ومع ذلك ،فلم تكن النتائج في نظر المستوطنين على قدر الجهود المبذولة ،إذ من مجموع 1138 عائلة من الألزاس واللورين قدمت إلى الجزائر مقابل غلاف مالي قدره 6500 فرنك عن كل عائلة لم يبق منها إلا القليل ، وقررت الرحيل إلى فرنسا ،لتفتح الأبواب مرة أخرى للهجرة الشاملة ،وتشّجع الفلاحين من جنوب شرقي فرنسا للقدوم إلى الجزائر ،لترتفع معها أعداد المستوطنين الفلاحين، ففي خلال عشرية (1871 -1882)،وصلت إلى الجزائر4000 عائلة[2] من الألزاسيين ،منها 2494شخص تتلخص وضعيتهم الاجتماعية كالتالي: (365رجل متزوج،و363إمرأة متزوجة، 1100طفل، و44إمرأة أرملة، 622 رجل و امرأة عزباء)[3]، وزعت عليها 347.268 هكتار من الأراضي مجانا،قدرت قيمتها 43 مليون فرنك[4]، كما أنجزت في تلك الفترة ما يقارب مئة وسبع وتسعين (197) قرية استيطانية، كانت تأوي ما يقارب ثلاثين ألف (30.000) ساكن، منها 144مركزا خلال السنوات الأربع الأولى فقط أي مابين 1871-1875،تركزت 70منها في شرق الجزائر –وهي طبعا في الأراضي المصادرة عن طريق الحجز العام للقبائل الثائرة عام 1871-والباقي في المناطق الوسطى والغربية [5].

يبدو أن الجمهورية الثالثة لم تفلح فقط في خطتها في توطين طبقة من الفلاحين الأوروبيين ، بل مكنتّهم من الهيمنة على اقتصاد المستعمرة ،ولم يعد باستطاعة أحد أن يشير إليهم

---

[1]- كاتب (كمال)،المرجع السابق، ص-ص 238-240.

[2]- أجيرون (شارل روبير)، تنمية الاستطان في الجزائر 1870-1930، ت محمد الطاهر العمودي ،**مجلة المصادر**، مجلة فصلية يصدرها المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954،العدد الثاني،الجزائر ، 1999،ص187.

[3]- Guynemer(m) ,op-cit,p,p04,05.

[4]- أجيرون (شارل روبير)،**"تنمية الاستيطان في الجزائر 1870-1930"**،المرجع السابق،ص187.

[5]- فكار (عثمان)،**"الاستيطان العمراني الفرنسي في الريف الجزائري مقاربة سوسيوتاريخية"**،مجلة جامعة دمشق ،المجلد 29، العدد،الثالث والرابع،2013،ص،ص591، 592.

كمجموعة من الحفاة الذين تتحدث عنهم الأساطير،بل أن أكثرهم تحولوا إلى ملاكين و استغلاليين يعيشون حياة الرخاء المفرط ،فبالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص،فان الجزائر لم تكن لتصنع منهم جبهة المميزين فقط،ولكن في الوقت نفسه صارت الأرض وسيلة ادخار و مضاربة (Spéculation). فالكولون لم يتوصلوا إلى بناء اقتصاد كلي وناجح،لأن الأرض ما كانت تمثل لهم إلا مجالا للمضاربة ومصدرا للثروة أكثر من كونها نمط حياة اقتصادية[1].

وقد بدأت سياسة فرنسا الاستيطانية نهاية السبعينات من القرن التاسع،وخلال العقود التي تلتها تأخذ أبعادها الواضحة ،وشكلا أكثرحدة وتصعيدا في هجرة الفرنسيين بالتحديد، ،حيث أصبحت خطة الاستيطان مدروسة وجماعية ومرفقة بتشريعات فرنسية لحماية المستوطنين ودعمهم ،ونتج عن ذلك ارتفاع أعداد المستوطنين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر 376ألف،في مقابل ارتفاع مساحة الأراضي المصادرة من الأهالي.[2] .

وانطلاقا من بداية 1880بدأ الاستيطان يتجه بالتدريج نحو الجنوب،لكن بوتيرة بطيئة جدا ،بسبب المناخ الحار ،وقلة الأراضي الخصبة التي يفضلها الكولون ،ولذلك تقلصت أعدادهم خلال هذه العشرية بشكل ملفت ،فمن 1.174أوروبي جديد استوطن الجزائر سنة 1881،نزل العدد إلى 191 مستوطن جديد سنة 1882،ثم إلى 241مستوطن عام 1883،و290سنة 1884 ،ثم إلى 110مستوطن سنة 1885 أغلبهم فرنسيون ،حيث بينت الإحصائيات المنجزة خلال نهاية القرن ، وبالتحديد سنة 1895هبوط نسبة المستوطنين الأوروبي ،مقابل تزايدا لنسبة المستوطنين الفرنسيين[3].

وفي مطلع القرن 20، وبالتحديد ما بين(1905-1913)واصلت إدارة الاحتلال تبنيها للسياسة الاستيطانية الرسمية،رغم تناقص ظاهرة الهجرة الأوروبية نحو الجزائر ،حيث استمرت في توزيع الممتلكات والمزارع للمستوطنين الأوروبيين ،بحيث كان معدل ما يوزع سنويا خلال الفترة المذكورة آنفا 212قطعةأرض ذات مساحة متوسطة بلغت 77ه.وبلغ مجموع ما منح من

---

[1]- أجيرون (شارل روبير)،**"تنمية الاستيطان في الجزائر 1870-1930"**،المرجع السابق،ص190.

[2]- بن الشيخ (حكيم)،**"سياسة الاستيطان الأوروبي في الجزائر ما بين 1830-1962"**،مجلة عصور الجديدة،مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي،جامعة وهران ،العدد 14-15،أكتوبر 2014،ص263.

[3]- السيد (محمود) و الصاوي(كامل)،**تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر الاستعمار الأوروبى فى إفريقيا** ،الجزء الثالث،موسوعة إفريقيا التاريخية- الإسكندرية ،2018،ص197

الأراضي للمستوطنين 104.400ه،ومن بين 1912قطعة أرض الممنوحة خلال الفترة ذاتها،لم تمنح للاهالي الا قطعتان فقط ،الأولى عام 1910مساحتها20ه،والأخرى سنة 1913 مساحتها 58ه،ولم يتحصل عليها أصحابها مجانا إلا بعد أن قدّموا خدمات استثنائيةلإدارة الاحتلال[1].وعموما فلم تدخر الجمهورية الثالثة أي جهد لدعم الاستيطان ورعاية المستوطنين ،واستمر ذلك إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية ،بل استمرت في إصدار عدة مؤسسات مالية

ثالثا: المراكز الاستيطانية في الجزائر ما بين 1830-1945

كان إنشاء المستوطنات الأوروبية يساير سياسة نزع الأراضي والممتلكات العقارية ،وكانت العلاقة بينهما ترابطية ،فكلما انتزعت الأراضي وأضيفت الأراضي الزراعية لممتلكات الاستعمارية ،كلما ظهرت الحاجة الملحة إلى استقطاب المهاجرين وتوطينهم في الأراضي المنتزعة من الأهالي ، وبالتالي تطور أعداد المستوطنات ،التي اتسعت وانتشرت أكثر كلما اتجهنا نحو المناطق الداخلية ، ليستمر ذلك بوتيرة مرتفعة إلى مطلع القرن العشرين ،لتشهد المستوطنات الريفية بشكل خاص تراجعا بسبب السيطرة الشبه التامة على أجود الأراضي وأخصبها في المناطق الشمالية .لذا فإننا نجد أن معظم المستوطنات انتشرت في المناطق الشمالية عكس المناطق الجنوبية التي يقل فيها المستوطنون.

ومن هنا، فإن المدن الجزائرية العريقة، والواقعة في الساحل ،وفي المدن الداخلية المتمركزة في التل المناطق الأولى ستوطن المهاجرين الأوائل ،الذين كانوا يشكلون أقلية مقارنة بالسكان الأهالي من العرب والبربر واليهود والزنوج ،ثم بدأ الكثير منهم يستوطن الأرياف والقرى ، وفي مناطق جديدة لم تعمر بعد ، وذلك بالرغم من أن الكثير من المدن لم تشهد كثافة سكانية عالية .وكان سبب استقرارهم بالمناطق الريفية مرتبطا أساسا بالنمط الاقتصادي السائد في المستعمرة ،الذي يقوم على السيطرة على الأرض،ومن ثم تمليكها للمستوطن بغرض تقوية العلاقة بين المستوطن والأرض. وبذلك كان ظهور المستوطنات الأولى في الجزائر في الأراضي الزراعية المحيطة بمدينة الجزائر العريقة،وبالأخص في سهل متيجة بداية لتشكل الأنوية الأولى للمراكز الاستيطانية الأوروبية ،ولتي أقلبت نمط الحياة

[1]-Ahmed(Henni) ,op-cit,p36.

العامة في المستعمرة ،ومع مرور الوقت زادت المستوطنات الزراعية انتشارا كالطفيليات خصوصا بعد القضاء على ثورات متيجة لتمتد على طول السواحل الشرقية والغربية خلال الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر ،ثم اتجهت نحو المناطق الداخلية بدءا من النصف الثاني إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ،كما تميّزت بكونها تنقسم إلى نوعين من المراكز الاستيطانية :الريفية في المناطق السهلية والزراعية، والحضرية في المدن القديمة ،أو القرى التي توسعت بتطور الاستيطان وانتعاش النشاط الاستعماري الزراعي من ضيعات صغيرة ثم إلى قرى استيطانية ،ثم في النهاية إلى مدن خلال القرن العشرين.

والجدول التالي يمثل توزيع المستوطنين الأوروبيين في المدن الكبرى (01فيفري 1838[1]).

المدن	فرنسيين	إنجليز	الاسبان	إيطاليين	ألمان	يونانيين والروس	برتغاليين	مجموع
الجزائر	5392	971	4311	750	584	.....	.....	12008
وهران	1394	189	2073	777	123	...	24	5410
عنابة	1134	1162	124	527	118	.....	.....	3070
بجاية	112	50	120	11	08	.....		301
مستغانم	72	02	66	47	02	05		189
مجموع	8034	2374	6694	2112	835	05	24	20078

يبين لنا الجدول أن معظم المستوطنين الأوروبيين في بداية الاحتلال ،والمقدر عددهم 20078 من مجموع يقارب 25ألف مستوطن أي 76% ،كانوا يسكنون خمس مدن ساحلية رئيسية ،وهي : الجزائر العاصمة ، وهران،عنابة،بجاية ،مستغانم،فيما استقر أقل من ربع المستوطنين في كامل ربوع البلاد بما فيها المدن الأخرى والعريقة والتاريخية،كمدن مليانة البليدة،تلمسان،وهذا الذي سيجبر إدارة الاحتلال فيما بعد على العمل الدؤوب و المتواصل لتحسين الأوضاع في المناطق الداخلية لجذب أكبر عدد من المستوطنين،وهو الشيء الذي

[1]-فركوس (الصالح)،المرجع السابق،ص38.

تفطن له بكلوزيل في بداية الاحتلال،وعمل على توزيع المستوطنين في المناطق الداخلية، وعلى تأسيس العديد من القرى النموذجية في الريف المتيجي لتعمير المناطق الشاغرة ،أما في الشرق والغرب فقد تأخر ظهور هذه القرى إلى مطلع الأربعينات خلال فترة حكم الماريشال بيجو، فقد كان واثقا إلى حد اليقين من نجاح الاستيطاني الرسمي الزراعي وأبدى اهتمامه ببناء القرى الاستيطانية،حيث بادر بإنشاء 07مراكز جديدة في 1842لتضاف إلى المستوطنات السابقة المؤسسة خلال عهد كلوزيل،ثم أمر بتشييد 14مركزا في سنة 1843، و17 مركزا في العام الموالي ،أي في سنة 1844،وذلك على طول الساحل ، وفي متيجة ، والسهل الوهراني،وفي سكيكدة،مما أسهم في ارتفاع عدد المستوطنين الجدد في هذه المستوطنات الزراعية من 5666 مستوطن سنة 1843إلى 45000 سنة 1845.وخلال السنوات التي قضاها بيجو حاكما في الجزائر أي مابين 1841-1847،بلغ عدد المراكز الاستيطانية 61مركزا استيطانيا،منها11 في ضواحي الجزائر،16في إقليم قسنطينة ،و13 في ضواحي وهران، والباقي في المناطق الداخلية والوسطى[1] .

استمر بناء المستوطنات خلال الخمسينات،إذ قدرت المصادر التاريخية عدد المستوطنات المشيّدة في الفترة الممتدة مابين 1852و65،1858مستوطنة في الشمال معظمها شيّد في السهول العليا،وضمت جميعها15000 مستوطنا جديدا على مساحة إجمالية قدرت ب251.000هكتار،تم إلحاق معظمها عن طريق قرار 26أفريل1851.أما المجموع الكلي للمراكز الاستيطانية المنشأة خلال الفترة الممتدة من1851 إلى 1870-وهي فترة الحكم الإمبراطوري،فقد بلغت 104مركزا استيطانيا جديدا :منها 35في عمالة وهران ، و39في عمالة الجزائر ،و30في عمالة قسنطينة [2]. والجدول التالي يبين لنا تطور أعداد المستوطنات الريفية المنشأة ،والتعداد العام للمستوطنين في الجزائر مابين 1841-1920[3]

[1]- Bronde (Pasquier),op-cit, p 15.

[2]-بن داهة (عدة)،المرجع السابق،ص53.

[3]-GGA ,**La colonisation en Algérie1830-1921,** Direction de l'agriculture ,du commerce ,et de colonisation Imprimerie administrative Emile pfister, Alger-1922,p47.

الفترة	المستوطنات الريفية	مساحة الأراضي الخاصة بالمستوطنين	أعداد المستـوطنـين
1850-1841	126	115.000	65.497
1860-1851	85	250.000	103.322
1870-1861	21	116.000	129.898
1880-1871	264	401.099	195.418
1890-1881	107	176.000	267.672
1900-1891	103	120.097	364.257
1920-1901	199	200.000	633.149
المجموع	905	1.378.196	

توزعت معظم المستوطنات في الشمال الجزائري ،وخاصة المناطق الساحلية منها،ومع توسعها وازدياد عدد المستوطنين فيها ظهرت الحاجة إلى تنظيم المناطق الاستيطانية و ضمان التسيير الجيّد لشؤون المعمرين الإدارية في المدن ،والمراكز الاستيطانية في الأرياف،ولذلك أصدرالاستعمار الفرنسي عدة قرارات لتنظيم المدن والقرى حسب التقسيم الإداري المعمول به في فرنسا،وذلك ابتداء من قرار المجلس الوطني الفرنسي يوم 09نوفمبر 1848 ، الذي يقسم الجزائر إداريا إلى ثلاث عمالات، الجزائر ،ووهران، وقسنطينة[1] ،والعمالات بدورها تم تقسيمها إلى دوائر، الدوائر قسمت إلى بلديات ،والتي بدورها قسمت إلى نوعين : كاملة الصلاحيات في المناطق ذات الأغلبية الأوروبية ،في المناطق الساحلية والتلية ،وبلديات مختلطة في المراكز السكانية ذات الأكثرية الأهلية في المناطق الداخلية وحواف الصحراء ،وذلك وفق قانون 15أفريل1884 [2].

1-المراكز والقرى الاستيطانية في إقليم الجزائر

أ-المستوطنات الأوروبية في المناطق المدنية : قسمت إدارة الاحتلال إقليم الجزائر إلى أربعة دوائر «département » ،هي :الجزائر العاصمة ،البليدة ، مليانة،المدية ،وكل دائرة

[1] -Fleury(Georges) ,**Comment l'Algérie devint française 1830-1848**, Edition talantikit, Bejaïa- 2012,p489.

[2]-قانون 15أفريل 1884:صدر في بداية الاحتلال للجزائر قانون أفريل 1845،والذي قسم الجزائر إلى ثلاث مناطق إدارية ،منطقة مدنية تشمل القرى والمدن الساحلية ،التي يكثر فيها العنصر الأوروبي ،ومنطقة مزدوجة يقل فيها العنصر الأوروبي يخضعون فيها للحكم المدني ،ويكثر فيها العنصر الأهلي الذين تطبق عليهم الأحكام العسكرية ،ومنطقة عسكرية يكاد ينعدم فيها العنصر الأوروبي ويخضع فيها الأهالي للحكم العسكري ،في كل من الهضاب والأوراس وهوامش الصحراء،وبعد قيام النظام المدني حدثت عدة تغيرات وتحويرا مست نظام البلديات وإدارتها انطلاقا من قانون كريميو وانتهاءا بقانون 15أفريل 1884،الذي وضح عمل البلديات ومهامها وكرّس هيمنة المستوطنين عليها بعد توسيع نفوذهم فيها.

تم تقسيمها إلى مناطق » « Districts،وبلديات «Commun » ،وحواضر « Annexes » تابعة للبلديات

***-دائرة العاصمة**

ضمت دائرة العاصمة أربعة مناطق ،وسبع بلديات،أما المناطق فهي :

- منطقة دلس"تادلس"« Dellys » :تقع على الساحل تابعة حاليا لبومرداس بين الجزائر العاصمة وخضعت لاحتلال الفرنسي عبر حملة عسكرية قادها بيجو عام 1844، بلغ عدد سكانها سنة 1864ب3552ساكن ،استوطن الأوروبيون في كل من بن نشود (98مستوطن)، توارقة (2747)، بني تور(4087).

-منطقة تنس« Ténès » :مدينة ساحلية وعريقة بنيت على مدينة أثرية رومانية عرفت باسم « Cartenna » تابعة للشلف،احتلها الفرنسيون سنة1843 ،ضمت لوحدها 5759 ساكن من المستوطنين الأهالي والأوروبيين ،من قراها الاستيطانية الهامة نجد دلس القديمة بتعداد سكاني قليل (886)، ،و مونتينوت »« Mentenotte 319ساكن أغلبهم أوروبيون .

- منطقة أومال"سور الغزلان"« Aumale » :تقع في البويرة على بعد 128كم عن العاصمة أسست كمستوطنة على أنقاض مدينة رومانية تحولت إلى مستوطنة أوروبية سنة 1846بلغ عدد سكانها سنة 1864ب2875ساكن، توزعوا على حواضرها ، وهي بير غابالو « Bir Rabalo »،عيون سباس، ليترومبل « Les Trembles »،عين تاستا ،قلتا زرقة.

- قرية الأربعاء « Arbaa » تقع في متيجة"البليدة"، وتبعد عن الجزائر العاصمة ب22كم ،تم تأسيسها من قبل المستوطنين يوم 05جانفي 1849،وضمت الأربعاء 1960ساكن،بينما استوطن باقي الأوروبيين في كل من ريفي(168أوروبي) روفيغو (1337ساكن) ،لسيدي موسى (1246 ساكن) [1]

[1]- Teissier (Octave) , **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,descreption des villes ,villages et hameaux ,organisation des tribus ,nomenclature des khalifaliks ,aghaliks,et kaidats**, Librairie de l. hachette et Ce, Paris-1865 p-p50-52.

أما البلديات الرئيسية «Chefs-lieux Commun »،والتي تمركز فيها المستوطنون بكثرة ،في مدينة العاصمة ،فكانت كالآتي:

-بلدية بير خادم :تأسست بير خادم عشية الاحتلال قرب نافورة للمياه ،قدرسكانها عام 1864ب1212ساكن، بينما ضمت ملحقاتها ،السحاولة 693 ساكن معظمهم أوروبيون ،وبير مندرايس ب 1019ساكن ،وهم أيضا ذو أكثرية أوروبية .

-بلدية الشراقة :أسسها الأوروبيون في سنة 1842كانت في البداية على شكل ضيعة ،لم تلبث أن اتسعت باتساع حركة الهجرة إليها ،بلغ تعدادها نهاية سنة 1864ب1048ساكن،استوطن الأوروبيون بكثرة في ملحقاتها:بيانام(153)،غيوت فيل « Guyot ville »أو عين البنيان (165)،سيدي فرج(86)، سطاوالي(299)[1]،وقد أشرف الكونت "غيو"بدأ من أفريل 1842 على أشغال بناء وتوسيع هذه المستوطنات ،بمساعدة فريق من المهندسين من مصلحة الأشغال الاستعمارية لمقاطعة الجزائر العاصمة .

-دالي ابراهيم :مستوطنة أوروبية ساهم في توسعها الوافدون الأوائل من الألزاسيين عام 1832،وبذلك تعد من أوائل المستوطنات ،وباكورة للنشاط الاستيطاني ،بلغ عدد سكانها من الأوروبيين سنة 1838 ما يقارب 400أوروبي،وقد قّدر عدد المساكن التي شيدت لهم حينها ب 100 مسكن[2]، تطور عدد سكانها ليصل عام1864ب661ساكن،أما بالنسبة لملحقاتها من الحواضر، فقد ضمت العاشور 197ساكن،و الدرارية 263 ساكن، وقادوس 611ساكن ، وألاد فايت 268ساكن [3].

-الدويرة:بلغ سكانها حسب الإحصائيات التي استقاها الباحث أوكتاف تيسي عام 1864ب1541، وضمت عشرة ملحقات،هي بير توتة (90ساكن)،أولاد منديل(398) تسالة المرجة" « quatre chemins » "(8)،سانت جيل « Saint-Jules » (33) ، بابا حسن (302) ،معالمة (711) ، سانت-أميلي « Sainte-Amélie » (488)، كريستشيا « Crescia »(509) ،بن شابان(220)، سانت فرديناند(310) « Saint-Ferdinand » .

[1] -Ibid,p52.
[2]- Klein (Henri), « **les premiers colons** » ,Revue les feuillets d'eldjazair ,Volume 06,Alger, 1913, p135.
[3] - Teissier (Octave) , **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p53.

-فندق(خميس الخشنة):تأسست هذه القرية عام 1842،ثم اتسعت بالتدريج ،حيث ضمت 3760 ساكن، استوطن معظم الأوروبيين في سان بيار « Saint-pierre » ،والتي ضمت 40ساكن ،وضمت سان بول« Saint Paul » 43ساكن ،وحميدي67ساكن ،

-القبة :تأسست كمستوطنة صغيرة من قبل دوروفيغو سنة 1833بلغ سكانها 1191،أما ملحقتها حسين داي ،فقد بلغ سكانها في مطلع عام 1870ب 1530.

- راسوتا "باب الزوار":تقع على بعد 18كم شرق العاصمة ،كانت إحدى الحارات التركية ، وبعد الاحتلال تم منح هذه المنطقة لأحد الأمراء البولونيين سنة 1836من قبل سلطات الاحتلال لاستغلالها ، كان الأهالي أول من سكن بهذه المنطقة بعد عام 1846 ،ثم استوطنها الأوروبيون بدءا من عام 1851،بلغ تعداد راسبوتا 997ساكن ،منهم 849من الأهالي ،و149 أوروبيون. أهم ملحقاتها الإدارية برج الكيفان «Fort- de- l'Eau » ، الدار البيضاء،الروبية ،عين طاية ، « Maison-Carré » ، ماتيفو[1]« Matifoux ».

تطور التعداد الكلي للمستوطنين في الجزائر العاصمة بشكل مضاعف لا سيّما نهاية القرن 19وبداية القرن20 ،بحيث قّدر عددهم سنة 1910ب110.000 أوروبي ،مقابل 33.000من الأهالي المسلمين ،و12.000من اليهود [2]،لينقلب الوضع الديمغرافي لصالح الأوروبيين ، ويشكلوا أغلبية السكان 73.33% بعدما كانوا خلال بداية الاحتلال لا يتجاوزون المئات.وبذلك غيّر الاستيطان ليس فقط معالم الحضرية والعمرانية للمدينة فحسب،وإنما غير الواقع الديمغرافي والاجتماعي للمدينة كذلك.

***-دائرة البليدة:**ضمت دائرة البليدة منطقتين ،وهما شرشال ،ومارينغو ،وثلاث بلديات ،هي بوفاريك ،القليعة ،موزاية المدينة ،و34ملحقة تابعة للبلديات ،وشبه بلديات ،وحسب إحصاء عام 1864بلغ سكان البليدة 6912،وعدد ضواحيها ب2682،أما ملحقاتها،جوانفيل،فقد ضمت (619ساكن) ، مونتبونسي « Montpensier » (217)،دالماسي« Dalmatie » (624).

[1]- Ibid, p,p,53,54.
[2]- Busson(Henri) ,**Notre empire colonial** ,Félix Alcan Editeur, Paris-1910,p75.

ومن أهم المناطق الاستيطانية خارج مدينة البليدة ،والتي تأسست خلال الحركة الاستيطانية الكبرى ، التي عاشتها الجزائر حتى نهاية القرن التاسع عشر ،نجد :

- **مستوطنة مارينغو« Marengo » :**تقع في سهل متيجة على بعد 38 كم من البليدة ،و23كم على شرشال،من أوائل المستوطنات ،التي أسسها المستوطنون الفرنسيون المنحدرون من ضواحي باريس عام 1848 بعد ثورة الكمون ،بلغ عدد سكانها سنة 1864 ب1409أغلبهم مستوطنون ، وحولها أنشئت عدة مستوطنات صغيرة ،أهمها :حمر العين (ساكن922)، شالرباخ « Charlbach » (166)،تيبازة (436).

- **مستوطنة بوفاريك:**تقع بوفاريك في قلب متيجة ،تبعد عن شمال البليدة ب14كم ،حيث تعد من أوائل المستوطنات التي تأسست على الإطلاق في متيجة بعد إخماد الثورة هناك ،ورأينا كيف حولها جيش كلوزيل من مستنقع إلى مستوطنة كي تكون نموذجا للمستعمرات المستقبلية ،سماها "المزرعة الإفريقية التجريبية "،أصبحت نهاية القرن من أهم المستوطنات الزراعية تجاوز عدد سكانها 5000نسمة في مطلع السبعينات .وأهم ملحقاتها ،بير توتة ،بوينان ،شبلي ،الطرق الأربعة« Quatre chemins » ،الصومعة .

-**مستوطنات القليعة :**تأسست القليعة عام 1550،استولى عليها الجيش الفرنسي عام 1838،وحولها إلى مركز استيطاني ،أهم قراها الاستيطانية فوكة،زرالدة ، كوستيليوني « Custiglioni » ، باربيسا « Berbessa »...إلخ

-**مستوطنات شرشال:**ظهرت المستوطنات في ضواحي شرشال ،بعد احتلال الجيش الفرنسي للمدينة عام 1840،وأهمها زيوريخ ،نوفي ،الشنوة ،وقد بلغ عدد المستوطنين في مدينة شرشال عام 1864حوالي 1132،بينما بلغ عدد الأهالي ب2134،وبلغ عدد المستوطنين في زيورخZurich»« 186،وفي نوفي « Novi »حوالي 300.

-مستوطنات موزاية الجديدة:تأسست كمستوطنة أوروبية على أنقاض موقع روماني قديم يسمى "تانارا موزا كاسترا "« Tanara- musa-castra » ،وأهم المناطق الاستيطانية التي أسسها المستوطنون نجد:العفرون ، بورومي ،الشفة ،بيرارد[1]« Bérard » .

-مستوطنة أورليان فيل "الشلف" :تأسست أورليان فيل سنة 1843 ،استوطن الأوروبيون في أورليان فيل ، وشكلوا الأكثرية من مجموع السكان فيها ،والذين قدر عددهم سنة 1864ب1375نسمة، كما شكلوا معظم سكان كل من المزرعة (338)،بونتيبا(138)[2]، وفي الدراسة التي قام بها اكسافي ياكونو حول الأصول العرقية للمستوطنين ،كشف لنا أن معظم السكان من الأصول الاسبانية ،والباقي فرنسيون ،حيث استوطنت خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر ما يقارب 880عائلة فرنسية،9%منهم من ضواحي باريس 17.5%من الألزاس واللورين،و43%من جنوب شرق فرنسا ،من كل من جارد Gard ، وأرداش Ardèche،وقد قدر ياكونو عددهم في مطلع القرن العشرين ب3000مستوطن ،وبلغ عددهم سنة1948بحوالي 4000مستوطن مقابل 12000من الأهالي ،الذين كانوا في بداية الاحتلال أقلية مقارنة بالمستوطنين [3]،بعدما كان عددهم 3500مستوطن في سنة1910[4].

- **مستوطنة مليانة:**كانت تضم نقطتين استيطانيتين هامتتين ،أهمها لافاروند « Lavarande »، والتي بلغ عدد مستوطنيها 749،ومستوطنة أفرفيل « Aferville » والتي بلغ عدد سكانها من الأوروبيين 696مستوطن[5]،وارتفع عدد سكان أفرفيل سنة 1848إلى 2000نسمة مقابل 8000من الأهالي،ورغم مرور أزيد من قرن من الاستيطان ،فإن ما نلاحظه هو الزيادة البطيئة ،سواء أكان ذلك في أفرفيل ،أو غيرها من المستوطنات في منطقة مليانة أو الشلف ،وترجع أسباب ذلك ،كما حددها ياكونو،إلى:الهجرات الداخلية المتقابلة للعنصرين الأهلي والأوروبي ،ففي الوقت ،الذي فضّل فيه مزارعو المنطقة من الأوربيين

[1]-Ibid,p-p56-58.
[2]- Teissier(Octave),**Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p,60.
[3] - Huetz de lemps(Alain) , « **La Colonisation des plaines des chélif** »,Les cahiers d'outre-mer , revue de géographie, Bordeaux ,N°38,10eme Année ,Avril-Juin 1957,p-p176-178.
[4]- Busson (Henri):op-cit,p72.
[5]- Teissier(Octave) , **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p60.

ترك الزراعة بسبب الظروف القاسية التي عانوا منها وانتقلوا نحو المدن الكبرى ،كان يقابلها هجرة داخلية للأهالي للعمل في المؤسسات الزراعية الأوروبية[1].

ب-المستوطنات الأوروبية في المناطق العسكرية.

المنطقة العسكرية لدلس:ضمت دلس عددا من المراكز العسكرية ،التي تحولت إلى بلديات فيما بعد وأهمها:تيزي وزو، المركز الاستيطاني الأبرز في وسط القبائل الكبرى،والذي بلغ عدد الأوروبيين فيه عام 1864ب 286أوروبي ،إلى جانب كل من ذراع الميزان الذي ضم 256مستوطن مقابل 75من الأهالي ،وفور دو نابليون « Fort de napoléon »الذي شكل فيه الأوروبيون الأغلبية من مجموع سكاني وصل إلى 150نسمة عام 1864.

المنطقة العسكرية لمليانة :ضمت عددا من المراكز العسكرية الاستيطانية ،نذكر منها مركز ثنية الحد،التي تبعد ب92كم جنوب مليانة ،حيث مثّل فيها المستوطنون الأغلبية ب293مستوطن مقابل 112من الأهالي.

المنطقة العسكرية للمدية:رغم أن معظم المستوطنين استوطنوا في المناطق المدنية الخصبة في المدية ،إلا أننا نجد أن عددا هاما استوطن في المناطق ذات النظام العسكري جنوب المدية ،وذلك بعد استتباب الأمن ،ومن أهم المراكز نجد الأغواط ، التي شكل الأوروبيون فيها الأقلية ،حيث بلغ تعدادهم 198مستوطن مقابل 2282من الأهالي سنة1864[2].

2-المراكز الاستيطانية في الإقليم الوهراني

عمل بيجو بمساعدة الجنرالين لامورسيير،وكافينياك ،والعقيد بيليسي على توسيع الاستيطان في الغرب الجزائري ،فبعد أن أحكم الفرنسيون قبضتهم على الإقليم بفعل سياسة الاستيطان المنظمة ذات الطابع العسكري ،والتي تم تبنيها منذ1841،تم إنشاء مزارع عسكرية في منطقة تسرغين من قبل السبايس في معسكر التين التابع للفيلق الأول الخفيف للمشاة ، وحول هذه المزارع ،وحول المراكز العسكرية الأبعد داخل العمالة استقر المستوطنون، وتشكلت

[1] -Huetz de lemps(Alain),op-cit, p 178.
[2]- Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p,p62,63.

المجمعات السكنية ،وانتهى الأمر بتشكيل القرى الاستيطانية[1]،فكر دي لاموريسيار في أن يطبق مشروعه في إقليم وهران داخل المثلث المحصور بين وهران و مستغانم و معسكر،وذلك بتوطين خمسة آلاف عائلة فلاحية توزعت على 22 بلدية فوق أراضي قدرت مساحتها بـــ 80.000 هكتار،أسندت فيها مهمة الاستيطان إلى رأسماليين تحملوا كل نفقات الاستيطان كإنشاء الطرقات و الحصون ،خاصة و أن الكثافة السكانية كانت تقل بهذا المثلث ، وتحقيقا لهذا الغرض طلب لاموريسيار من الحكومة قروضا مالية فاقت 200.000ف لتوطين 2332 عائلة،داعيا الحكومة إلى تهيئة المواقع وتحديد الطرق والمساحات العمومية،وشق الآبار وبناء الأحواض المائية والسدود لسقي الأراضي الزراعية [2]

وبذلك أصبحت عمالة وهران المعقل الرئيسي للاستيطان في الجزائر ،واعتبرت مدينة وهران من أهم المدن الجزائرية استقطابا للمهاجرين ،وذلك منذ الأيام الأولى للاحتلال،وخلال الفترة الممتدة ما بين 1837-1846،بدأ الأوروبيون يزحفون إلى جنوب وهران ونحو المناطق الداخلية ،وهذا بعدما أخضعت الإدارة الفرنسية قبيلتي الدواوير والزمالة اللتان استسلمتا عام 1835، فقبيلة الدواوير لوحدها كانت تتربع على مساحة قدرها 140.000هكتار امتدت من وهران إلى عين الترك ،وحتى غرب عين المالح ، المعروفة خلال الحقبة الاستعمارية بريو صالادو ،ويحدها من الجنوب تسالا ومن الغرب الخميس على محور حمام بوحجر ،وكل هذه الأماكن السالفة الذكر أصبحت بعد مرور وقت وجيز مراكز استقبال للكولون ،حيث تم تأسيس عددا من المراكز الاستيطانية التي أصبحت فيما بعد في كل من مسرغين وفالمي وغيرها ،كما استقر الكولون في كل من مستغانم وأرزيو وتلمسان ،ومع مرور الوقت أصبحت تلك المراكز والقرى الاستيطانية مدنا مثل سيدي بعلباس عين تيموشنت ، ومغنية ،وبذلك تحوّل إقليم ترارة إلى مركز استقطاب للأوروبيين ، والذين كانوا سببا في نزوح عددا من القبائل الأهلية نحو المناطق الصحراوية بعد أن فقدت أراضيها[3] .

[1]- فركوس (الصالح)،المرجع السابق،ص60.
[2]- بن داهة (عدة)،المرجع السابق،ص،ص44،45.
[3]- الواعر (صبرينة)،"**الإدارة الفرنسية للقبائل الجزائرية 1830-1870:الغرب الجزائري أنموذجا**"،مجلة عصور الجديدة، مجلة فصلية محكمة،العدد 24-25،جامعة وهران ،أكتوبر 2014،ص244،245.

وإلى غاية 31ديسمبر 1845كان يوجد في العمالة 07مراكز استيطانية ،هي تيارت ،سيدي بلعباس(1843)،السانية ،مزغران(1844)سيدي شامي ،سانت دونيس بسيق (Saint denis de sig)، وآرزيو(1845)، وخلال الفترة الممتدة من 1846إلى 1851،تم تأسيس وتوسيع 35مستوطنة جديدة،هي:مزغران،المرسى الكبير،نيمور(Nemours)،سان لوي (Saint-Louis)،سان كلود (Saint- Claude) ،سان لو (Saint –lou)،سان بربار تليلات(Saint-barber de tlilat)، لاستيديا (Lastidia)،سانت ليوني(Saint –Léonie)، فالمي (Valmy)،أركول(Arcole) ، مانجان(Mangin) ،حاسي بونيف،حاسي بن عقبة،حاسي بن فريح ، حاسي عمور،فلوريس،(Flourus) ميفسور(Méfessour)، كليبر(Kléber)، دامسمDamesme) سوق الميتو، كروبة ، تونين(Tounin)،عين نويسي،غيفولي(Rivoli)، أبوقير (Aboukir)، بليسي(Péllisier) ،نغريي (Négrier)،بريا(Bréa)، سفساف (Sef-sef)، المنصورة ،عين الترك ،تافراوي (Tafaraoui) ، سان أندري (Saint-André) بمعسكر،سان ايبوليت (Saint-Hypolites)[1].

رغم قلة الأراضي التي منحت للمستوطنين في هذا الإقليم ،والتي كانت تتراوح بين 08و15هكتار، ورغم الأمراض والأوبئة ،مثل الكوليرا التي أصابت المنطقة خلال عام 1848، والتي تسببت في خسائر بشرية كبيرة ،وعدم أهلية المستوطنين الأوائل الذين تم جلبهم للاستيطان في المنطقة ،إلا أن الجهود التي بذلتها الإدارة الاستعمارية لم تذهب سدى ، وبالرغم كذلك من أن الكثير من المستوطنين قد عاد إلى أوروبا،إلا أنه تم تعويضهم بمستوطنين جدد كانوا أكثر استعدادا للعمل في الحقول ،وتمكنوا من الحصول على قطع أرضية مختلفة ،وبعد 20سنة من إنشائها تجاوزت القرى الاستيطانية حالة البؤس،التي كانت عليها وما لبثت أن ازدهرت الحياة فيها من جديد

وخلال الفترتين الخماسيتين ،من 1850-1860تم إنشاء 30مركزا استيطانيا جديدا،هي:بلاد التوارية ،عين تدليس ،عين سيدي الشريف ، عين بودينار ،جسر الشلف ،هيناية ،عين تيموشنت (1851)، ،أورياح (1853)، بوسفر (1854) بوتليليس،الأندلسيات ،بوصالح

[1]- فركوس (الصالح)،المرجع السابق،ص60.

(1855)،عين كيال ولورمال(1856)،غيليزان(1857) ،لاتينيراح، جسر دوليسر (Pont de l'Isser –، لامليطا،بيريغو،عينالعربة تامزوراح(1858)،لامورسيير (Lamoricière) الهليل ،ريو صالادو(Rio de salado)، الراحل ، سيدي لحسن،سيدي إبراهيم ،بوخنيفيس،سيدي علي بن أيوب(1895). إلا أن الحركة الاستيطانية توقفت في الستينات بسبب ثورة أولاد سيدي الشيخ1864،ولمجاعة 1867والاوبئة التي فتكت بها،ونتيجة الأفكار المطروحة على مستوى حكومة نابليون نابليون الثالث حول المملكة العربية ،حيث لم تنشأ إلا مستوطنات قليلة،وهي كالآتي: بوغيرات (Bouguirat)،موكتادوز-(Mocta douz)،ليطرمبل(Les trembles) سيدي خالد،وادأمبار، باليكاو(Palikao)، أنكرمان (Ankermann)[1].

وبعد عام 1871،وإثر حكم الجمهوريين لفرنسا ، انبعثت حركة الاستيطان من جديد،حيث استأنف الاستيطان الرسمي نشاطه في الإقليم الوهراني ،بحيث أنشأت سلطات الاحتلال ووسعت 120قرية استيطانية فيما بين 1871-1899،من بينها 17قرية في دائرة معسكر لوحدها[2]،ففي ثلاث سنوات فقط أي خلال الفترة مابين1871-1874 تم تشييد 12 مستوطنة جديدة ، وهي:سان ايمي (Saint-Aimé)،عين فكّان ، أولاد تارية ،تارني (Terny)،زويلة (1872)،هامو دوالهبرا (Hameau de l'Habra)،كاصانيي، (Cassaigne) بوسكي(Bosquet)، ويليس (Ouillis) ،فرانشيتي (Franchetti)،تكبالي(Takbalet) عين فضة(1873) ، وقد بلغت وتيرة الاستيطان أوجها خلال الفترة (1874-1879)، حيث تم إنشاء 27مركزا استيطانيا جديدا ،وهي:حمام بوحجر،شعبة اللحم، سيرات (Sirat)،رونو (Renault)،فروحة، مارسي لاكومب (Mercier lacombe)(1874)،بوهاني ، لمطر ،عين الحجر،تفيلاس (Tiffilès) (1875)، أرلال، لوغاز (L'Ouggaz)،سان لوسيان (Saint-lucien)،بلاد توارية،حمدنة ،الرمحي،ماوسة (1876)،سحورية،أولادالجماعة ،القاصر،تابيا(1877)،لي سيلو(Les Silos)،تيارفيل(Tiersville)،مطمور ،ثيزي، الرمشي (1879)، وخلال نفس الفترة (1874-1879)،تم توسيع العديد من المراكز التي تم إنشاؤها

[1]- نفسه،ص،ص60، 61.
[2]- بن داهة (عدة)،المرجع السابق،ص120.

من قبل وهي :باليكاو،سيدي لحسن، اينكرمان، ويليس،أولاد أمبار،مكتا دوز،ريوصالادو،سوق الميطو،وهو ما يرفع عدد المراكز المنشأة والموسعة في هذه الفترة إلى 35 مركزا استيطانيا[1].توزعت هذه المراكز الاستيطانية على أربع دوائر مدنية ،هي:وهران ،مستغانم ،تلمسان ،معسكر ،وفي خمس مناطق عسكرية ،وهي تقع في معسكر ،وهران ،سيدي بلعباس،مستغانم ،تلمسان[2]، تحول العديد منها إلى الحكم المدني نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

أ-مستوطنات دائرة وهران: انتشرت المستوطنات في دائرة وهران ،في ثلاث مناطق كبرى ، وهي: عين تيموشنت،وسانت دونيس دو سيق،سيدي بلعباس ،وثمانية بلديات هي: أرزيو ،فلوريس Fleurus ،مسرغين،سان بارب دوتليلات Sainte- barbe- de tlélat،سان لوي saint-louis ،سانت كلودSaint- cloud ، فالميValmey ،وقد ضمت هذه البلديات 28ملحقة،وقدر عدد سكان مدينة وهران سنة 1864ب 17370ساكن، شكّل الاسبان منهم 7610اسباني،والأهالي 3898ساكن أما الباقي والمقدر عددهم 5862من أصول أخرى أغلبهم فرنسيون . أما مستوطنة عين تيموشنت ، والتي تأسست عام 1851،فقد ضمت عدة مستوطنات أنشأها الأوروبيون ، أهمها : لامليتا،ريو صالادو،فضلا عن القرى التي كانت موجودة من قبل ،والتي استوطن فيها الأوروبيون مثل عين خيال ،راحل...وضمت فلوريس التي كانت تعتبر مستعمرة نموذجية أسسها العمال الباريسيون الذين هاجروا إليها بعد قيام الجمهورية الثانية عام 1848حوالي257ساكن أغلبهم أوروبيون [3].

من بين أهم المستوطنات خارج مدينة وهران ،نجد مستوطنة ميسرغين ،وهي عبارة عن بلدية كبيرة « Chef-lieu de commune »،تقع على الطريق المؤدي إلى تلمسان وتبتعد ب15كم عن وهران ،وتعد أهم المناطق الاستيطانية باحتوائها على أكبر جالية اسبانية وفرنسية وصل تعدادها سنة 1846ب 1440ساكن أغلبهم مستوطنون، وتجاورها قرى استيطانية هامة ،تحولت فيما بعد إلى بلديات ، وهي:سانت بارب تليلات،التي تأسست

[1]- فركوس (الصالح)،المرجع السابق،ص63.

[2]- Busson(Henri),op-cit,p52.

[3] - Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p-p69-72

يوم04ديسمبر 1846[1]،والتي بلغ عدد سكانها من الأوروبيون 432مستوطن،نشط أغلبهم في زراعة التبغ ،الحوامض الكروم، الزيتون، وبلدية سانت كلو ،التي تأسست هي الأخرى في 04ديسمبر 1846،والتي بلغ عدد سكانها 1420سنة 1864،أما بلدياتها ، كليبر فقد احتوت على 196مستوطنا،إلى جانب بلديات أخرى تابعة لها ،أهمها: سانت ليوني، ميفسور،أما مستوطنة سانت لويس المشيدة عام 1848،والتي تم ترقيتها يوم 31ديسمبر 1856إلى بلدية فقد ضمت عدد قليلا من السكان لم يتجاوز عددهم المئات في بداية السبعينات.أما فالمي المشيدة عام 1848على أنقاض مخيم عسكري أسسه تريزيل عام 1835لتدريب القوم ،فقد ضمت 634مستوطنا عام 1864،في حين ضمت ملحقتها مانجان« Mangin » 136 مستوطنا [2].

ب-مستوطنات دائرة معسكر:إلى غاية 1864 لم تكن في دائرة معسكر سوى قريتين استيطانيتين، هما سانت أندري Saint-André،وسانت ايبوليتSaint-Hyppolite ،وضمت آنذاك 8033 ساكن ،شكل المستوطنون أكثر من نصف السكان ،بحوالي 4118مستوطن،في حين ضمت سانت ايبوليت 178، ومستوطنة سان أندري 418 ،معظمهم أوروبيون،وبعد عام 1871أنشأت في مدينة معسكر 17قرية استيطانية جديدة ،نذكر منها،قرية عين فكان التي كان أوّل من استوطنتها هي 27عائلة من فالسبورغ Phalsbourg، وصافارن Saverne الواقعتان في الألزاس واللورين[3].

ج-مستوطنة مستغانم :احتوت دائرة مستغانم خمس بلديات ،هي: مستغانم،أبوقير، عين تدلس، بيليسي pélissier، ريكولي Ricoli،وقد ضمت مستغانم 10820ساكن ،بينما ضمت أكبر مستوطناتها مازاغران 1063أغلبهم مستوطنون ،أما بيليسي التي تأسست عام 1846تحت اسم ليبيري Libérés،نسبة للجنود المسرحين من الجندية ،والذين كانوا أوّل ساكنيها ،وبطلب من سكانها تغيّر اسمها إلى بيليسي تكريما للخدمات الجليلة التي قدمها الأخير للاستيطان ،وبعد مضي عشرين سنة من تشييدها وصل التعداد العام لسكانها 1380أغلبهم مستوطنون،أما ريفوليو التي تقع على بعد 8كم من مستغانم ،وتأسست على يد العمال الباريسيين المهاجرين

[1] - Busson(Henri) ,op-cit,p68.
[2]- Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p-p69-72.
[3]-Guynemer ,op-cit,p12.

عام 1848،فقد بلغ عدد سكانها عام 1864ب567ساكنا معظمهم أوروبيون ،وإلى جانبها استقرت عدة عائلات أوروبية في القرى المجاورة (لاستيديا ،عين نويسي،واد الناظور) [1].

د-دائرة تلمسان :بلغ تعداد سكان تلمسان أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر بملحقاتها الإدارية أكثر من 30 ألف ساكن أقل من نصفهم أوروبيون ،وأكثرهم أهالي ،ومن أهم المستوطنات الموسعة أو المشيدة خلال الحكم الفرنسي في دائرة تلمسان،نجد هينايا ، المنصورة،صفصاف، بريا، نيقريNégrier،وتبقى أهم المستوطنات من حيث الأهمية الاقتصادية مستوطنة الغزوات « Nemours »بحيويتها التجارية استقطبت المهاجرين والصيادين الاسبان لممارسة الصيد والتجارة ،نظرا لقربها من اسبانيا والمغرب،ولذلك فقد كانت مركزا لجالية كبيرة من المستوطنين الذين بلغ تعدادهم 1127عام 1864،وقفز تعدادهم سنة 1910 إلى 5000مستوطن مقابل 15000من الأهالي[2] . أما في الإقليم العسكري لعمالة وهران فقد ضمت المناطق العسكرية للدوائر الخمس للإقليم (وهران ،سيدي بلعباس،تلمسان مستغانم،ومعسكر)عدد من المراكز الاستيطانية الريفية ،ونكتفي بذكر أهمها من حيث التواجد البشري ،والأهمية الإستراتيجية لها ،وأبرزها مستوطنة غليزان، والتي كانت عبارة عن مستوطنة أوروبية صغيرة في سهل مينة ،ضمن المنطقة العسكرية لمستغانم ،وكانت تعد مملكة لزراعة القطن والتبغ في الجزائر الاستعمارية ،وجل سكانها كانوا أوروبيين ،الذي بلغ تعدادهم سنة 1864ب926أوروبي [3].

والجدول التالي يمثل تعداد سكان المدن والمستوطنات خلال سنتي 1948-1954[4].

عـــــام1948			عـــــام 1954		
الدوائر	الأوروبيين	الأهالي	مجموع السكان	الأوروبيون	الأهالي	مجموع السكان
وهران	242371	388088	630459	232083	324622	556705

[1] - Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit, p,p76,77.
[2] - Busson (Henri) , op-cit,p70.
[3]- Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit,p,p 77,78.
[4]-قراوي (نادية)،**دور الريف في الغرب الجزائري في مسار الثورة التحريرية 1954-1962**،مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،قسم التاريخ وعلم الآثار ،كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ،جامعة وهران،2010-2011،ص174.

معسكر	21590	226085	247675	22114	245097	267211
مستغانم	34912	369189	402301	36406	417418	453824
تلمسان	29725	320792	350517	27636	347904	375540
تيارت	12956	208926	221882	12556	206209	218765
سيدي بلعباس	41026	146138	187164	44066	162561	206627
عين الصفراء	885	22429	23314	916	19249	20165
بشار	4905	46373	51280	4715	37095	41810
البيض	636	52217	52853	528	61832	62360
مشرية	435	37218	37653	364	38899	39263
تندوف	13	20899	20912	50	22175	22225
الساورة	-	-	-	88	21261	12349

إن أهم ما يلاحظ في هذا الجدول هو تقارب أعداد السكان من المستوطنين والأهالي في كل من المستوطنات الشمالية عكس المدن والواحات الجنوبية والصحراوية ،التي يكون فيها العنصر الأوروبي قليلا جدا ،وذلك يرجع أساسا إلى قلة تواجد المستوطنين الأوروبيين في المناطق الصحراوية لقسوة الطبيعة،وقلة الأراضي الخصبة ووقوعها في الحكم العسكري

3-المراكز الاستيطانية في الإقليم القسنطيني

أ-**المنطقة المدنية** إلى غاية أوائل القرن العشرين ،قسمت عمالة قسنطينة إلى خمسة دوائر ،هي قسنطينة ، سطيف ، سكيكدة ،عنابة ،قالمة ،أما المنطقة العسكرية التابعة للعمالة ،فقد قسمت إلى أربعة مناطق عسكرية ،هي سطيف،عنابة ، قسنطينة ،باتنة"،وحسب إحصاء المصالح الفرنسيية آنذاك فان مجموع المستوطنين ،ولا سيما الفرنسيين بالشرق الجزائري قد بلغ في 30 سبتمر 1843 ما قارب 10216نسمة، موزعين كالتالي: بجاية 495 وجيجل 198

وسكيكدة 3265 وعنابة 4959 والقالة 179 وقسنطينة 800وسطيف 133 وقالمة195،لم يكن هؤلاء المعمرون الجدد بالشرق الجزائري عمالا زراعيين فحسب، بل من كل الفئات.

***دائرة قسنطينة :**بلغ عدد سكان دائرة قسنطينة من الأوروبيين ،حسب إحصاء عام 1852 ب4462،شكّل سكان المدينة :3874نسمة،وسكان ضواحي المدينة ب588ليصبح التعداد الإجمالي للأوروبيين في كل دائرة قسنطينة ب،4.462.أما تعداد السكان الأهالي فقد قدر سكان المدينة (بما فيهم اليهود)ب23.219،وسكان الضواحي ب8.174بما يجعل المجموع العام للأهالي يصل إلى 31.393 ساكن أهلي[1].وبعد مرور أكثر من عشريتين ،أي في سنة 1871بلغ التعداد الإجمالي للأوروبيين في المدينة ب17492مستوطنا،مما يمثل زيادة بلغت ثلاثة أضعاف،عكس المنحى العام للسكان للأهالي الذي شهد تراجعا مفجعا ،إذ انخفض العدد إلى 17759،وهو ما .مثّل انخفاضا قارب النصف.والمنحى البياني التالي يوضح لنا تطور الزيادة السكانية ،وحجم التغيرات الديمغرافية الحاصلة جراء الاستيطان في مدينة قسنطينة.

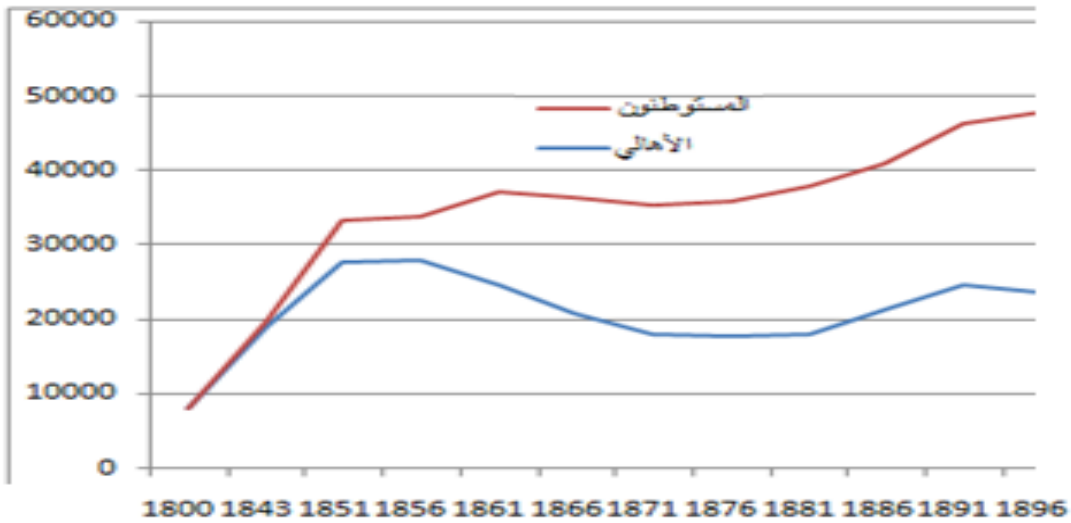

من الرسم البياني نستنتج بأن تعداد السكان الأوروبيين في مدينة قسنطينة ،قد تزايد بشكل طردي مع ازدياد الهجرة والاستقرار داخل المدينة ،فقد قدرت الإحصاءات الديمغرافية لسنة 1866أن تعداد الأوروبيين في المدينة قد بلغ 15561نسمة ،وقد تطور ليصل سنة 1876إلى

[1]- Mercier (Ernest) ,**Histoire de Constantine** , J. Marie et F .Biron Imprimerie –Editeurs- Constantine ,1903,p,p 547,448.

17248نسمة ،وفي عام 1886ارتفع عدد الأوروبيين ليصل إلى 19864،وفي سنة 1896 بلغ عددهم24261،مقابل 23510نسمة من السكان الجزائريين ،وبذلك يتفوق السكان الأوروبيون على عدد السكان المحليين للمرة الثانية ،بعد أن سجل أول تفوق لهم في سنة 1881،بتعداد 19892من الأوروبيين مقابل 17900من الأهالي ،واستمر الأمر في التأرجح بين الزيادة اللأوروبيين تارة ،وللأهالي تارة أخرى ،حتى عام 1936ليبدأ عدد الأوروبيين في التراجع

أما خلال النصف الأول للقرن العشرين،فقد شهدت قسنطينة تطورا متباينا ،من حيث تطور السكان وفي معدل نموهم ،إذ يمكن التمييز بين فترتين بارزتين في ديناميكية تطور السكان الأوروبيين والمحليين ،الأولى من1926إلى 1948وتتميّز بتطور ضعيف في وتيرة النمو الديموغرافي العام ،حيث ارتفع عدد السكان الإجمالي من88582نسمة سنة 1926 إلى 114338نسمة سنة 1948أي بنسبة 1.9%مقابل 2.1%في كل المستعمرة ، والفترة الثانية من 1848وإلى ما بعد الاستقلال،حيث تميزت بزيادة عالية بحوالي 3.7في (1947-1954)[1].

وقد شهدت مدينة قسنطينة في العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر انجازات لصالح الكولون ، وأهمها:-تعميم الإضاءة المعتمدة على الغاز السائل في معظم مدينة قسطينة ،بناء مدارس جديدة ومنشآت اجتماعية لصالح المستوطنين ، واستمرار الأشغال الكبرى بالمدينة وفي كامل الإقليم ، وافتتاح الطريق الوطني ،وتشييد محطة قطارات بالمدينة،والانتهاء من أشغال طريق سكة الحديد ،كما شهدت مدينة قسنطينة باعتبارها عاصمة العمالة في نموها المجالي توسعا عمرانيا ليتناسب مع الزيادة الاستيطانية المطردة في العمالة .

***- دائرة بونة(عنابة):**وحتى عام 1848،بدأت تتشكل الأحياء الأوروبية في مدينة عنابة ،وفي البلديات الملحقة بها ،وإذا كان عدد المستوطنين لم يتجاوز الألآف في منتصف القرن 19 فإنه تجاوز عتبة 10000مستوطن في القرى الزراعية فقط بداية القرن20،مثلما هو الحال في Mondovi »،فقد قدر سكان مدينة عنابة لوحدها ،وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر30000 مستوطن أغلبهم إيطاليون ويليهم الفرنسيون ،في حين قّدر تعداد الأهالي

[1]- قماس(زينب)،**المجمعات السكنية الحضرية بمدينة قسنطينة ،واقعها ،متطلبات تخطيطها**،مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الحضري ،قسم علم الاجتماع والديموغرافيا،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ،جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة ،2005-2006،ص58.

المسلمين ب 8000 ،واليهود ب15.000[1] .وإلى جانب "ماندوفي" أسس المستوطنون ذوي الأغلبية الفرنسية و الإيطالية في سهل عنابة عدة قرى استيطانية ،أهمها : بيجو Bugeaud ،ديزرفيلDuzerville، بارال Barral نشمية Nechmeya،بانتيافر Penthièvre ،القالة

***دائرة قالمة :**تأسست هذه المدينة الصغيرة في 20فيفري 1845،غير بعيد عن الموقع الأثري "كالاما"،من أهم قراها قلاع بوصبع ،هيليو بوليس Héliopolis،ميليزيمو Millésimo،واد توتة،بوتيPetit ،ديفيفيDuvivier،أنشير سعيد[2]،وقد بلغ عدد سكان قالمة سنة 1910ب7000ساكن أقل من نصفهم أوروبيون ب3000 مستوطن .أما جارتها سوق اهراس فقد قدّر عدد الأوربيون فيها4000سكان أي نصف التعداد الكلي ب8000 نسمة [3].

***دائرة سطيف :** كانت مسألة تكوين مركز عسكري واستيطاني بسطيف قد ظهرت عقب بداية التوسع الفرنسي بالمنطقة ،وقد أختار الماريشال فاليvalley الموقع بعناية نظرا لخصوصيته الطبيعية وأهميته الاستراتيجية ،فقد أبرق إلى الضابط قالبوا galbois بتاريخ 14سبتمبر 1839 يأمره فيها بتشييد بؤرة استيطانية وضرورة الإسراع في تجهيز حامية عسكرية قوامها 300 جندي، وقد ضم المركز العسكري في بدايته ما يقارب 600 عسكري كان الغرض من تواجدهم تحقيق الأمن للوحدات العسكرية و توسيع حركة المعمرين الجدد خاصة بأراضي مجانة وبازر سكرة والعلمة[4] .

كان لموقعها الهام ،وطابعها السهلي عامل جذب للمستوطنين،لا سيما بعد أن استقرت الشركات الكبرى فيها ، وابتداء من عام 1853بدأ المستوطنون بالتوافد للمنطقة،وقد قدر خلال تلك السنة التعداد العام للمستوطنين في دائرة سطيف وملحقاتها ب4000مستوطن،و8000من الأهالي، وفي برج بوعريريج بلغ عدد المستوطنين 900من 2000ساكن بالقرية الصغيرة آنذاك [5]،وقد لعبت الشركات الرأسمالية دورا كبيرا في التأسيس لعدد من القرى الاستيطانية في سهول سطيف،حيث قامت شركة جينيفواز بتشييد عدة مستوطنات زراعية ،منها قرية

[1] - Henri Busson , op-cit,p80.
[2]- Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique,** op-cit,p90.
[3] - Henri Busson, op-cit,p81.
[4]- كمال (بيرم)،"**احتلال منطقة سطيف وتطور حركة الاستيطان الأوروبي بها بين 1838-1900**"،المجلة التاريخية الجزائرية ، مجلة عملية فصلية محكمة ، العدد الأول ، أفريل،2017،جامعة محمد بوضياف ،المسيلة ،ص،ص57،58.

[5]- Busson(Henri), op-cit,p81.

مسعود،قرية مهوان ، العروسية ،بينما أسست الشركة السويسرية مستوطنة عين أرنات ،والتي رقيت إلى بلدية في 23أوت 1861[1].

***-دائرة سكيكدة**:إلىجانب مركز سكيكدة كانت هناك عدة مراكز استيطانية،أهمها:

-الحروش:تأسست القرية الاستيطانية الحروش بتاريخ 22مارس 1844بمجال جغرافي قدره 1621هكتار ،استقر بها الوافدون الأوروبيون من بلجيكا وألمانيا عام 1840تحولت إلى بلدية كاملة الصلاحيات ،حسب مرسوم 22أوت 1861،ووصل عدد سكانها الأوروبيون سنة 1849إلى 252ساكن ،وفي عام 1939لم يرتفع عدد الأوروبيين كثيرا ،إذ بلغ عددهم 317 أوروبيا ،مقابل 6580من الأهالي [2] .

-قاسطون فيل Gaston Ville:تقع على الطريق الرابط بين سانت شارل و عزابة ،تأسست في 16نوفمبر 1847كمركز عسكري سرعان ما تحول إلى مستعمرة زراعية كان معظم سكانها من العسكريين القدامى قدر عدد مستوطنيها سنة 1854ب423مستوطن ،تطورت أعدادهم لتصل إلى 4224 سنة1920.

- قرية سانت شارل Saint-Charles(جمال رمضان):تبعد 18كم عن سكيكدة على طريق قسنطينة ،تأسست هذه القرية في 06أفريل 1849،وخصصت لهذه القرية مساحة قدرها 1400هكتار،انتزعت من قبيلة بني مهنة ،استقرت بها آنذاك 15عائلة سويسرية ،وبعدها فتح المجال لقدوم معمرين جدد إليها ،أنجزت قرية سان شارل من العمال الأوائل الذين تكفلوا بإنجاز الطريق الرابط بين سكيكدة وقسنطينة،تحولت إلى بلدية وفق مرسوم 22أوت 1861،وبلغ تعداد المستوطنين خلال نفس السنة ب294أوروبي لينخفض عدد قليلا إلى 233 سنة 1926،بينما قدر عدد الأهالي 616سنة 1861وارتفع سنة 1926إلى 3467ن **قرية جيماب (عزابة حاليا):**أخذ الموقع التسمية الرسمية بموجب أمرية ملكية مؤرخة بتاريخ 10مارس 1848،وبالقرب من جيماب أقيمت عدة قرى استيطانية صغيرة ،هي سيدي ناصر(Foy) وأحمد بن علي ،(Bayar) وفي 1871أنشأت قرى استيطانية جديدة خصصت

[1] - Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique** ,op-cit, p,p95,96.

[2] - صالحي (توفيق)،**المجتمع والعمران في مدينة سكيكدة خلال الحقبة الكولونيالية (1838-1962)**،مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر ،جامعة منتوري ،قسنطينة ،2008-2009،ص29.

للعائلات القادمة من إقليم لاروبرتسو La robertsau، وأوريبو D'Aurebeauعين شرشار حاليا ، ولانوي Lannoy(الجندل حاليا)[1].

ب-المنطقة العسكرية :قبل أربعة دوائر عسكرية ،هي:دائرة قسنطينة ،دائرة عنابة،دائرة سكيكدة دائرة سطيف.

***الدائرة العسكرية قسنطينة**:قد ضمت دائرة قسنطينة ثلاث دوائر عسكرية ،هي:الدائرة العسكرية لقسنطينة والتي تضمنت ملحقتين عسكريتين هما:عين البيضاء وتبسة ،قد ضمت تبسة عددا قليلا من الأوروبيين ناهز 170مستوطنا عام 1864تمركز معظمهم في قلب المدينة وتبقى معظم أريافها يسكنها الأهالي ، والدائرة العسكرية لجيجل والتي ضمت إحدى عشر ،و14مشيخة ،والملاحظ فإن هذه المناطق كما في معظم المناطقالريفية في عمالة قسنطينة يندر فيها وجود للمستوطنين،وأسندت فرنسا إدارتها إلى المكاتب العربية وبعض شيوخ القبائل والزعامات التي نصبتها فرنسا.

***الدائرة العسكرية لعنابة** :ضمت أربعة مناطق عسكرية ،هي المنطقة العسكرية لعنابة ،والتي ضمت قلاثة قيادات ،و21قبيلة ،والقالة ،التي ضمت قيادتين هي:أولاد حجور،واد الكبير، و16قبيلة،وسوق أهراس والتي ضمت ثلاثة قيادات و21قبيلة ،ودائرة قالمة التي ضمت 5 قيادات (قرفة ،الناظور،بني فوغال،قالمة ،زرديزة)،وتحتوي كلها على 41قبيلة .

***الدائرة العسكرية لسطيف**:ضمت أربعة مناطق عسكرية ،وأهمها منطقة سطيف،التي ضمت عدة قبائل أهمها :العلمة الغرابة ،العامر القبالة ،والعامر الظهارة ،أولاد نابت ،أولاد قاسم ، ومنطقة برج بوعريريج،والتي بنيت على بقايا آثار رومانية حوّلها الاستعمار الفرنسي إلى برج مراقبة ،قدر عدد المستوطنين فيها 217مستوطن ،وكانت برج بوعريريج تضم على 20قيادات ، أهمها:مجانة ،زمورة ،أولاد سيدي الأحمر،المسيلة...إلى جانب دائرة بوسعادة ،ودائرة بجاية ،التي ضمت 41قبيلة وعدة مشيخات،أهمها:توجة ،آيت اعمر ،..[2]

[1]- المرجع نفسه،ص،ص33، 34.

[2] -Teissier (Octave), **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique** ,op-cit, p,p99,100.

***الدائرة العسكرية لباتنة** : تأسست باتنة كمستوطنةيوم 12فيفري 1844، وقد بلغ عدد سكانها سنة 1878بحوالي 3757ساكن أغلبهم أهالي ،من بين ملحقاتها عين التوتة ،والتي عدت أحد البلديات المختلطة بتعداد سكاني قارب 112ساكن مثّل الأوروبيون آنذاك فئة قليلة[1]،إلى جانب عدة مراكز استيطانية أخرى نشّأت لأغراض عسكرية في الغالب ،ثم أصبحت مقصدا للمهاجرين الأوروبيين ،ونخص بالذكر منها ،مستوطنة لامبيز "تازولت"

وإلى الجنوب نشأت عدد من المستوطنات القليلة في شمال الصحراء ،والتي انطلقت عمليات الإنشاء والبناء فيها في عهد "راندون"،والذي كلف الجيش المرابط فيها بالإسراع بالتأسيس للبنى التحتية[2] تمهيدا لإسكان المستوطنين فيها مستقبلا، إذ توزعت تلك المستوطنات لاحقا على عمالتين كبيرتين ،وهما:عمالة الساورة بالجنوب الغربي ،وقد قسمت عمالة الساورة إلى دائريتين، وهما: كولومب بشار،وأدرارضمت عددا من البلديات المختلطة منها : عين الصفراء والمشرية المختلطتين ،وعمالة الواحات في الجنوب الشرقي ،والتي ضمت ثلاث دوائر عسكرية ،وهي :تقرت ،ورقلة،الأغواط، وكلاهما ضمتا عددا قليلا من المستوطنين[3] والخريطة التالية توضح أهم المستوطنات والمقاطعات في الجزائر.

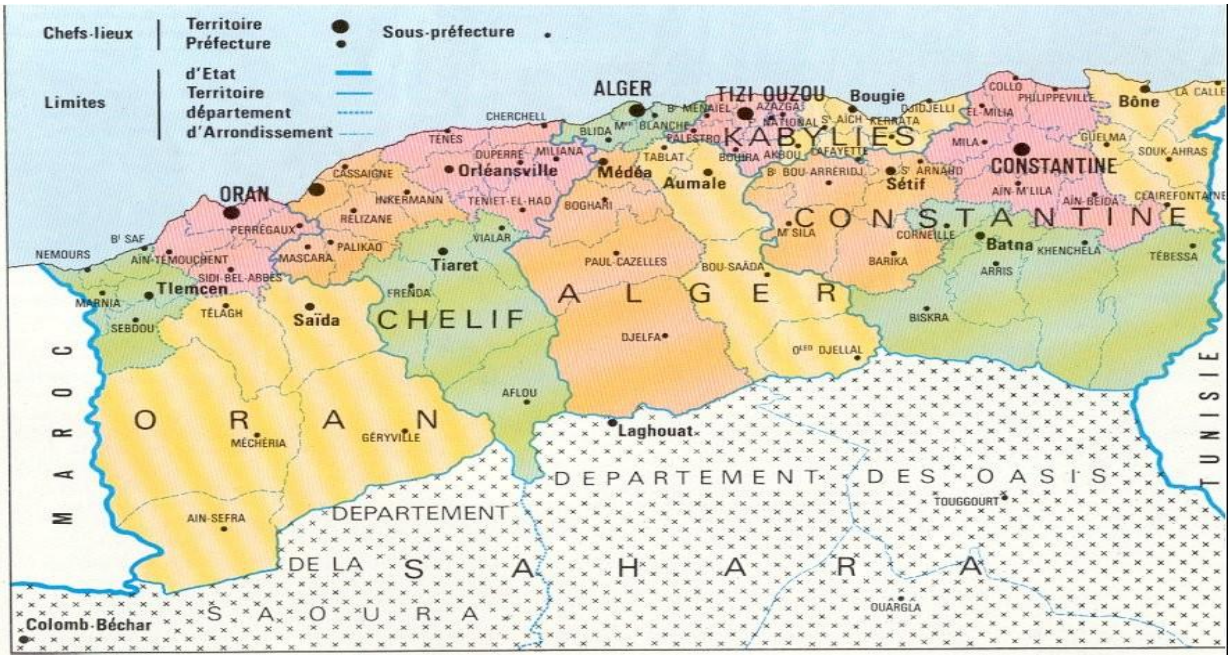

[1]- Fillias (Achille) ,op-cit ,p11.
[2] - Commission de L'Algérie ,Séance du 13 Décembre 1869, SHAT, N° de cote GR1H, 238.
[3]-Bisson(J) ,**Organisation administrative et modifications territoriales du Sahara**, travaux de l'institut des recherches sahariennes ,1959-Paris, p-p221-224.

رابعا: آليات نقل الملكية للمستوطنين الأوروبيين

1-التشريعات والنصوص القانونية قبل عام1870: بغرض تمكين المستوطنين من الأرض،وربطهم بالوطن الجديد الجزائر،أمطر الاحتلال الفرنسي الجزائر بسلسلة من القوانين والمراسيم التشريعية مست الجانب العقاري ،واستهدفت تجريد الأهالي من أخصب الأراضي وأجودها لصالح المعمرين،ومبكرا أنشأت الإدارة الاستعمارية بتاريخ01 مارس 1833لجنة خاصة كلفتها بفحص سندات الملكية التي يتوفر عليها الأهالي لفترة ما قبل الاحتلال، أمهلت اللجنة الأهالي ثلاثة أيام فقط لتقديمها و إلا ستصادر أراضيهم بعد تصنيفها ضمن دائرة الأملاك الشاغرة،وبالموازاة مع هذه الإجراءات، قامت في 27سبتمبر 1836 بتوزيع أولى الحصص العقارية على المستوطنين الجدد القادمين من فرنسا و مختلف مناطق أوربا، و التي بلغت في المرحلة الأولى 173 قطعة لترتفع في السنة الموالية لها إلى 249 تجزئة عقارية ذات طابع فلاحي،انتزعت أغلبها من ملاكها الأصليين[1]،واستمرت في إشهار سيف القانون في وجه الممتلكات العقارية طيلة قرن ،ولعل أخطر تلك التشريعات على الأهالي ،هي:

- **قرار 18أفريل 1841** يعد القرار الإداري الصادر بتاريخ 18أفريل 1841،أحد أهم القرارات والمراسيم الفرنسية،التي كرست للاستيطان الأوروبي بالجزائر،فقد تضمن 15مادة قننت العلاقة بين الهجرة والاستيطان بما لا يترك مجالا لأي خطأ في تفسير أو تبرير هذه العلاقة[2]،وتشرح بالتفصيل، شروط الاستفادة من الأراضي الزراعية،وكذلك الكيفية التي يتم بها إنشاء مراكز استيطانية جديدة ، عبر نظام الامتلاك عن طريق الامتياز ، والتي تم من بموجبه إنشاء سبع قرى نموذجية جديدة للاستيطان على أراضي الثائرين ،سعى بيجو لتعميرها بتوزيع منشورات في كامل القطر الفرنسي تعد الوافدين بتحفيزات تضمنت توزيع أراضي زراعية تتراوح مساحتها ما بين 4إلى 12هكتار ، وقروض مالية لاقتناء العتاد الفلاحي[3].فقد نصت المادة 01و02منه على أن تخضع عملية إنشاء المستوطنات وتوطين الأوروبيين فيها بشروط وترتيبات إدارية ،حيث جاء في المادتين،الموافقة الإلزامية للحاكم العام على المساحة الأرضية المحتمل إنشاء مركز استيطاني بها ،بحيث يتدخل الحاكم العام في

[1] - عجة (الجيلالي)،المرجع السابق ،ص19.
[2] - بن داهة (عدة)،المرجع السابق،ص110.
[3] - فركوس (صالح)،المرجع السابق،ص69.

عملية ضبط الشروط المطلوبة لخلق المستوطنات بتحديد أماكنها وتقديرعدد المهاجرين إليها،وتحديد مساحات الأراضي المحتمل توزيعها على المستوطنين الأوائل.أما المادة الثانية،فقد أكدت على وجوب مناقشة مقترحات إنشاء المستوطنات في مجلس إداري،بعد استلامه تصميما دقيقا للمستوطنة المراد خلقها مصحوبا بتقرير يشرح المسائل التالية:

أ-المساحة الإجمالية للقرية أو المستوطنة، وكذلك المساحة الزراعية التابعة لها .

ب-الطرق والمسالك والمواصلات الأخرى .

ج-المباني السكنية الخاصة والعامة التي تأوي مختلف المصالح العسكرية والمدنية والمالية[1].

إجمالا ،فقد أعطى تطبيق نظام التنازلات المجانية للأملاك والتي صودرت طبعا من الجزائريين ، والذي صدر عام 1836،وأعيد المصادقة عليه بالأمر الصادر يوم 12أفريل 1841 نتائج مرضية للاستيطان ،فبعد خلال عشر سنوات، أي في سنة 1848 كانت حصيلة سياسة هذا القانون على الاستيطان مشجعة لاستصدار قوانين أخرى إذ تم توسيع 126مدينة وقرية جديدة بعد صادرة 101.675ه ،و65آر للمستوطنين ،وارتفاع المستوطنين الريفيين من1.580شخص سنة1841إلى 42.493مستوطن،أي بزيادة قدرت 40.913شخص[2]

-قرار 01أكتوبر 1844: أن ما أكّد عليه هذا القانون هو وجوب امتلاك المالكين لسندات صحيحة ودقيقة حتى يتسنى للأوروبيين القادمين من أوروبا الشراء بأمان[3] ،وبالتالي فقد عمل على تصحيح البيوع التي أبرمها الجزائريون لفائدة المعمرين بمجرد مصادقة القاضي الشرعي عليها[4]،وقد سبق وأن طبقت فرنسا هذا النوع من القانون على أراضيها ،وإن كان مغايرا في المحتوى والأهداف[5].

---

[1] بن داهة(عدة)،المرجع السابق،ص،ص110، 111.

[2]- Journal de la Société de la statistique de paris ,Tome 2,Paris-1880,p68.

[3]- بن سليمان (عبد النور)،**أملاك الأراضي الفلاحية والرعوية في العرف الجزائري منطقة ترارا أنموذجا** ،دراسة أنثروبولوجية ريفية،أطروحة دكتوراه ،قسم الثقافة الشعبية ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،السنة الجامعية 2011-2012،جامعة أبو بكر بلقايد،تلمسان،ص،ص34،33.

[4]- بوزيتون (عبد الغني)،**المسح العقاري في تثبيت الملكية العقارية في التشريع الجزائري**،مذكرة ماجستير في القانون ،كلية الحقوق ،جامعة الإخوة منتوري،2009-2010،ص21.

[5]- dareste (Radolphe),**La propriété en Algérie , Loi du 16 juin 1851 sénatus-consulte du 22 Avril 1863**,Deuxième Edition ,Challamel Ainé et A Durand, Librairie Editeur,Paris -1864 , p136.

وعلى العموم فقد وضّح المرسوم بشكل لا لبس فيه طبيعة البيوع وقنّن التعاملات العقارية ،فيما يخدم مصلحة المشتري الأوروبي ،،والتي تمثلت في: شروط امتلاك العقارات،وكيفية إعادة شراء المبيعات العقارية،وتحديد المعاملات والمشتريات غير المسموح بها قانونيا،وسهّل مصادرة الأملاك والأراضي للمنفعة العامة،وأعطى الضوء الأخضر لاستغلال الأراضي البور[1]،فقد وضحت المادة 17 من هذا القانون مجالات استخدام الأراضي المصادرة في إطار المنفعة العامة ،وبيّن وجهات استخدام الأرض،كتخصيصها لبناء المدن أو القرى و الضيعات وتوسيعها ،وتشييد المراكز والثكنات العسكرية ، فضلا عن فتح القنوات المائية والآبار والأحواض،شق الطرق ومد شبكة السكك الحديدية [2].

-مرسومي01 نوفمبر 1844 و21 جويلية 1846: أكّد الأول على شرعية ممتلكات المعمرين ،والمصادقة على العقود العقارية السابقة ، وعلى تحكيم القانون الفرنسي في عمليات انتقال الأراضي بين الأهالي والمستوطنين[3]كما ألغى صفة المناعة في الوقف،وأصبح يخضع لأحكام المعاملات المتعلقة بالأملاك العقارية، وهو ما سمح للمعمرين الأوروبيين بالاستيلاء على كثير من أراضي الوقف[4].أما الثاني فجاء ليؤكد على ضمان بالملكية الخاصة للمستوطنين [5] عبر هيئة إدارية نصبت على مستوى كل عمالة ،وهي مجلس المنازعات le conseil de contentieux[6]، وبعد تحويل الملكية من الأهالي الذين لا يملكون سندات ملكية للأراضي التي بحوزتهم ، تمنح للمستوطنين لاستغلالها[7]،وذلك في حالة عدم تقديم صاحب الملكية عقدا للأرض التي يحوزها في ظرف لا يتجاوز الثلاثة أشهر[8]،والأراضي غير المستغلة تفرض ضريبة 10فرنكات سنويا على كل هكتار ،وإذا لم تسدد الضريبة تنتزع

[1]-Henni (Ahmed) ,op-cit ,p22.
[2]- (dareste) Radolphe,op-cit,p,p139,140.
[3]- فركوس (صالح)،المرجع السابق،ص72.
[4]- براهيمي (نادية)،**الوقف وعلاقته بنظام الأموال في القانون الجزائري** ، رسالة الماجستير في العقود والمسؤولية، معهد الحقوق والعلوم الإدارية، بن عكنون، جامعة الجزائر،1996،ص32.
[5]-kalb (Paul Jacques) ,Rapport fait au nom de LA Commission spéciale sur le projet de la loi instituant dans les départements algériens, **Revue Sénat**, N°48 ,1ere session ordinaire de 1959-1960,p01.
[6] -بوزيتون (عبد الغني)،المرجع السابق،ص21.
[7]- بن سليمان (عبد النور)،المرجع السابق،ص34.
[8]-laynaud(M), **Notice sur la propriété foncière en Algérie**, Girault imprimeur- Alger,1900 p34.

الأرض وتمنح للمستوطن والأراضي غير الصالحة للزراعة والسبخات والمستنقعات ،تتم حجزها لصالح أملاك الدولة[1] .

غير أن العائق الأساسي الذي واجه الإدارة العسكرية في تطبيق المرسوم في بدايته ،هو طول المدة التي يستغرقها الأهالي لتقديم سندات تثبت ملكيتهم وما لحق ذلك من بطء في استكمال إجراءات مصادرة الأراضي،يضاف إلى ذلك مشكلة الترجمة الركيكة والسيئة للقضاة المتعاونين مع إدارة الاحتلال لعقود الملكية من العربية إلى الفرنسية ،والتي تعود للفترة العثمانية[2]، وبالرغم من ذلك ،فقد كانت نتائج هذا المرسوم وخيمة على الأهالي ،أذ فقدت القبائل 45%من أراضيها بعد تطبيق هذا المرسوم مباشرة ،فلكّي يثبت أحد أبناء الريف ملكيته أمام الإدارة الفرنسية ، عليه أن يجرّ وراءه أبناء عشيرته كلهم ،كما عليه أن يتحمل النفقات المنجرّة عن ذلك ، الأمر الذي يدفعه في الأخير إلى التنازل عن أرضه للمستوطنين ،كما أن هذه العملية المنظمة والطويلة الأمد أدت في النهاية إلى تفتيت النمط الزراعي الجماعي ،وتقلص مساحة الأهالي بعد أن تم طردهم إلى المناطق الجبلية أو الجافة وهوامش الصحراء ، وبالمقابل تعاظمت ممتلكات المستوطنين ،و زادت قبضتهم على أجود الأراضي وأخصبها[3].

والأعمدة البيانية التالية تمثل الأراضي التي مسها التحقيق حول الملكية ،في كل من الجزائر ووهران ، و عنابة ،حتى 31ديسمبر 1849(المقياس :1سم=200ألف هكتار)

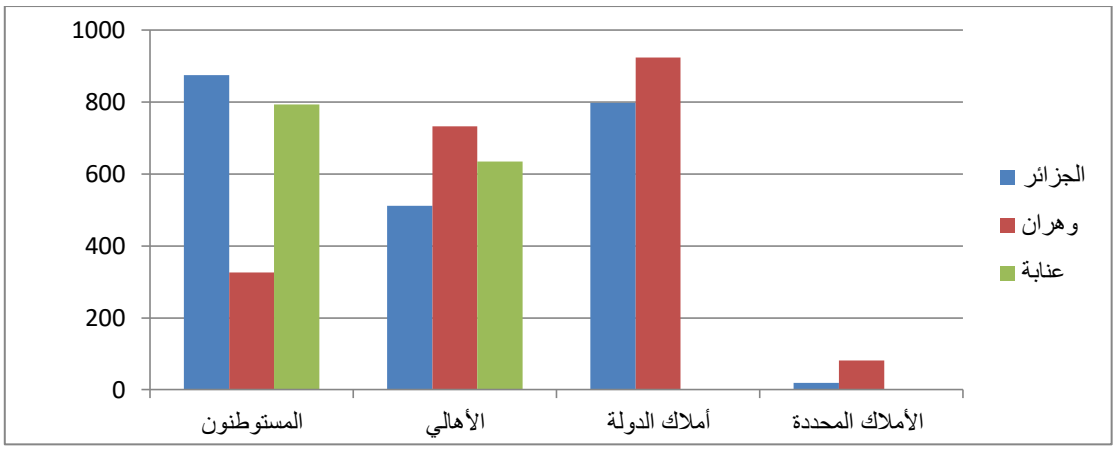

[1]-Boudicour de louis ,**la colonisation de Algérie**, Imprimerie .j-lecoffre , paris-1856,p418.

[2]- Baudin(Jacques),La « reconnaissance » de lapropriété rurale dansl'arrondissement de Bône (Annaba) en application des ordonnances des1er octobre 1844 et 21 juillet 1846,In:**Propriété et société en Algérie contemporaine. Quelles approches** (sous la direction de Didier Guignard), Nouvelle Édition, Institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman,Aix-en-Provence,2017, p100.

[3]- بن سليمان (عبد النور)،المرجع السابق، ص35.

ولإعطاء صورة أوضح لنتائج مرسوم 21جويلية 1846على ممتلكات الأهالي وآثاره الايجابية على توسع ملكية المستوطنين الأوروبيين، نأخذ حصيلة الأراضي المصادرة حسب ما توصلت إليه دراسة الباحث جاك بيدان حول آليات تطبيق القانون وانعكاساته على السكان في مدينة عنابة، كمثال يمكن أن يكون نموذجا لبقية الأراضي في الجزائر.فقد أورد بيدان بأن المساحة الإجمالية للأراضي في دائرة بونة الخاضعة لعملية الاعتراف بالملكية،قد بلغت حوالي 70000هكتار،والمساحة التي أثبتت ملكيتها هي 42000هكتار،بما يقابل نسبة 60%،منها 39000 أملاك غير تابعة للدولة ،أي بما يوازي 56%من المساحة الإجمالية،منها هكتار26000تعود ملكيتها للأهالي و13000للملاك المستوطنين،أما الباقي من الأراضي فتعود ملكيتها للدومين كما هو موضح الرسم البياني التالي[1]:

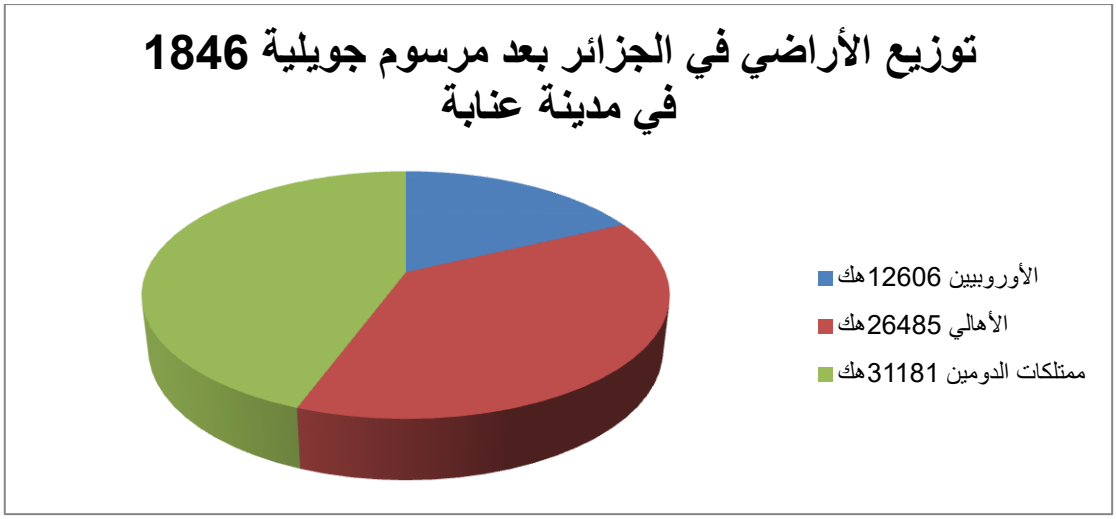

من خلال الرسم البياني يتضح لنا جليا الأثر المزدوج لمرسوم 21جويلية 1846على الوضعية العقارية في عنابة بشكل خاص وكامل المناطق التي مسها المرسوم بشكل عام ،فقد تراجعت مساحة الأراضي المملوكة للأهالي إلى ما يقارب النصف 39000هكتار من مجموع 70000هكتار،والتي كانت أصلا ملكا للأهالي قبل أن يستولي عليها الاحتلال بالسيف أو بالقانون،يقابلها ارتفاع ملكية الأوروبيين في نفس الدائرة (10914هكتار)،بعد أن تمكنهم من الحصول على 39ملكية أهلية ،فشل ملاّكها في تقديم سند ملكية لها ،خاصة إذا ما علمنا أن

[1]- Baudin (Jacques) ,op-cit,p103.

الكثير من العائلات الجزائرية قبل وبعد الاحتلال ، ولاسيّما في المناطق النائية كانت لا تحتكم إلى هذا النوع من التوثيق المادي في تعاملاتها التجارية [1].

وإجمالا، فقد أدت مراسيم عامي 1844،و1846 إلى تقنين عمليات مصادرة الأراضي في المناطق المدنية والعسكرية ،وسهلت على الكولون عملية الاستيلاءعلى أملاك الأهالي ، كما حددت طبيعة الأملاك ،وأقرت الاعتراف بممتلكات المستوطنين بعد تهاطل عقود التمليك على هؤلاء، في كل من متيجة وفي السهول الساحلية الجزائر العاصمة ،عنابة مستغانم ووهران بالإقليم الوهراني ، في الوقت الذي عرفت فيه أراضي الأهالي تراجعا كبيرا،وعانى ملاكها الأصليون من التهجير القسري في محتشدات ضيقة ، خلال الثورات في فترة الأربعينات ،وبعد عام 1870بعد الانتفاضة الكبيرة للمقراني في منطقة القبائل[2]

-مرسوم 19سبتمبر 1848: يقضي هذا المرسوم ،لاسيّما في مادته الأولى بمنح اعتماد مالي قدره 50مليون فرنك فرنسي لوزارة الحربية لتمكينها من تغطية نفقات السنوات الأربع (1848-1851)الخاصة بإنشاء المستعمرات الفلاحية في الجزائر ،وكذلك للخدمات ذات المنفعة والمكّرسة لضمان الرفاهية والازدهار للكولون،أما المادية الثانية منه فقد نصت على توزيع قطع أرضية تتراوح مساحتها ما بين 02إلى 10هكتارات ،على أن يتوافق ذلك مع أفراد العائلة ، ووظائفهم، وطبيعة الأراضي الممنوحة لهم ،والمساعدات المالية الضرورية لإقامتهم واستقرارهم،وتنص المادتان الرابعة و الخامسة منه على شروط امتلاك الأراضي المستصلحة بحيث حددت المدة بأكثر من 3سنوات،وإذا لم تستغل الأرض فإنها تنتزع من الكولون ،كما حددت المادة العاشرة منه ضرورة الالتحاق الفوري بالجزائر للمستفيد من قطعة الأرض[3].

بموجب هذا قانون تم تأسيس عددا من المستوطنات منها 12 مركزا استيطانيا في إقليم الجزائر و21في إقليم وهران ،و9مراكز في قسنطينة ،مع قيام الإدارة بتقديم بعض الإعانات،كتوزيع

---

[1]-للإطلاع أكثر حول مرسومي 01نوفمبر 1844،ومرسوم 21جويلية 1846،أنظر:

-Bulletin officiel des actes du gouvernement de l'Algérie, 1846, p.p 249.250.

-ordonnance du 1er octobre 1844, art. 3.

-Ordonnance du 21 juillet 1846, art. 18, 19 et 20.

[2]- Didier(Guignard)**, « Les archives vivantes des conservations foncières en Algérie** », Revue L'Année du Maghreb, N°13 ,CNRS Edition,2015,p105.

[3]- فركوس(صالح)،المرجع السابق،ص،ص76،77.

البذور،والآلات الفلاحية ،وبعض أعمال الري،وبهذه المراكز الاستيطانية بلغ العدد الإجمالي للمستوطنات الأوروبية حتى عام136،1851مركزا ،موزعة على الشكل الآتي: 58في متيجة والساحل ،و30 في قسنطينة ،و48في مقاطعة وهران ،غيرأن هذه المراكز لم تستقبل العدد المتوقع من المعمرين ،وهذا ما فسّر إخفاق الاستيطان الريفي في بداياته،حيث بلغ المستوطنون الأوروبيون خلال نفس السنة 131.283مستوطن ،بينما قدر عدد المشتغلين بالزراعة 33.000فقط ،كما تجدر الإشارة بأنّ هذه الفترة قد شهدت تفشي الأمراض والأوبئة ،وظهور أزمة اقتصادية ما بين عامي 1847-1848،وكلها ساهمت في فشل الاستيطاني الريفي ،وهي كلها تبرر ذلك الفشل[1].

-قانون 16جوان 1851:نص على ثلاثة قواعد تنظم الملكية العقارية في الجزائر،وهي:

1-إمكانية السلطات الفرنسية مصادرة الأملاك الموجودة تحت تصرف الأهالي والمستوطنين، كما حدد طبيعة الملكية الأهلية (أراضي الملك ،أراضي العرش).

2-منع بأي حال من الأحوال تحويل الأملاك العقارية التابعة للقبيلة إلى أشخاص غرباء أو أجانب عنها،ومع ذلك فإن ذلك يجوز لتحويلها للدولة ،لهذا فإن المشرع كان يهدف من وراء هذا القانون منع المستوطنين من الحصول على عقارات خارج النطاق الذي حدده القانون.

3-إلزامية خضوع إجراءات بيع العقار لأحكام القانون المدني الفرنسي،كما سمح للأهالي الاحتكام لقوانين الشريعة الإسلامية[2]،وهذا ما أقرته المادة الثانية من القانون،حيث جاء فيها " الاعتراف بالوضعية العقارية للأهالي،التي كانت موجودة عند الاحتلال،أو التي تم تسويتها ، أو توثيقها بعد الاحتلال ،بصفتها أراضي ملك أو أراضي لها حق الشفعة التابعة للخواص أو القبائل ،أو ملحقة بالقبائل ..،بينما أقّرت المادة 14 منه ،حق القبائل في التمتع بملكيتها ،ومنع

[1]- قنون (حياة)،**"الاستيطان الفرنسي ومصادرة ممتلكات الجزائريين خلال القرن التاسع عشر"**،مجلة الحوار المتوسطي ،مجلة دولية محكمة ، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي ،جامعة الجيلالي ليابس ،سيدي بلعباس ، المجلد الثالث ،العدد الأول ، ص151.

[2]-فركوس(صالح)،المرجع السابق،ص171.

الاستيطان في أراضيها،حيث جاء فيها ما يلي:"كل أرض ،تقع في حدود أي قبيلة تعد ملكية أو تم منحها في إطار الانتفاع ،لا يسمح بمنحها لأي شخص أجنبي كائنا من كان " [1]

إن الغاية من هذا القانون ،هو إلغاء بعض أحكام الأمرين السالفي الذكر، وأهم ما جاء فيه هو تقسيم الممتلكات العقارية إلى عامة وخاصة. وإخضاع المعاملات التي يكون أحد أطرافها أوروبيا للقانون المدني الفرنسي وإخضاع باقي المعاملات بين الأهالي للشريعة الإسلامية [2] ، وقد استند هذا القانون إلى الفكرة القائلة بأن ليس للقبائل حق ملكية الأرض ،بل لهم حق الانتفاع بها فقط مع دفع الضريبة الجبرية،والتي تعتبر بمثابة مقابل الإيجار،وكل ما يمكننا قوله عن هذا القانون ، أن هدفه كان مزدوجا :تشكيل احتياطات وأوعية عقارية واسعة لتسهيل تطبيق التصاميم المعدة من قبل المنظرين الاستعماريين ،ووضع تكاليف ضريبية جديدة على غرار ما كانت عليه في العهد التركي[3]. ومع ذلك،فإذا أمعنّا النظر في أحكام النصوص التشريعية الفرنسية المتعلقة بالوضعية العقارية بالجزائر، ولا سيّما المادة 48 من المرسوم1 أكتوبر 1844 والمادة 18 من قانون 16 يونيو 1851 فإننا نجد بالفعل ما يشير إلى مبدأ عدم المساس بالملكية الفردية لأي من كان أهالي أو مستوطنون أواوروبيون،إن لم يكن ذلك من أجل الفائدة العامة مع إمكانية التعويض العادل في حال مصادرة الأملاك الخاصة،وفقا للمبدأ الأساسي المنصوص عليه في المادة 545 من القانون المدني الفرنسي ، إلا أن ذلك الحق الذي أجازه القانون الفرنسي لم يحترم في الكثير من الحالات، ونفس هذا المضمون نجده في مرسوم آخر متعلق بالمستوطنين،وهو المرسوم الصادر في 11 يونيو 1858،الذي يجيز استثنائيا وفي حالات نادرة مصادرة ممتلكاتهم،مثل النزاعات على الممتلكات من قبل أطراف عدة [4]

لم ينتظر المحتل طويلا حتى يقرر السكان المحليون بيع أراضيهم ،وبناء عليه صدر قانون 16جوان 1851،مستندا لنظرية خاطئة ،لإشباع شهية الاستعمار بالسيطرة على الأرض ، فقد علق العمل بالمرسومين السابقين ،اللذين كانا يؤكدان على الاعتراف "بحق القبائل في امتلاك

[1]- Mercier (Ernest),**La Propriété foncière chez les musulmans d'Algérie**, Ernest Leroux, Editeur ,Paris-1891,p16.

[2]- علوي (عمار)،**الملكية والنظام العقاري في الجزائر**، دار هومة للنشر،الجزائر-2004،ص45.

[3]- بن سليمان (عبد النور)،المرجع السابق،ص،ص35،36.

[4]- Mathis (Léon) ,**Les cinquante millions pour la colonisation officielle en Algérie**, Impri -merie typographique, jules breucq ,bel-Abbès, Algérie-1883,p11

واستعمال الأرض"،واستند القانون الجديد إلى الفكرة القائلة بعدم أحقية القبائل بملكية الأرض التي تستغلها ، بل الانتفاع بها ،معتبرة الضريبة التي يدفعها الأهالي بمثابة بدل إيجار الأرض.وقد أتاحت هذه النظرية إقامة القبائل في كانتونات[1] بعد أن منحتها الدولة "مجانا"للقبائل للتخلي عن أراضي العرش مقابل تخلي الاستعمار عن أراضي أخرى،إذ يجب الاعتراف بأن هذه المبادلة كانت مناورة بارعة من السلطة العامة لأنها سهلت تبادل الأرض بين إدارة الاحتلال والقبائل دون إزعاج أحد ، ومهدت الطريق لعمليات أخرى من عمليات مصادرة أملاك الأهالي ،فقد زعزع قانون 16جوان 1851توازن المجتمع بشكل خطير،إذ بدأت الأراضي المخصصة لنظام استراحة الأرض وللرعي ، والتي كانت واسعة قبل تطبيق هذا القانون تشهد تناقصا تدريجيا ،واختناقا بالنسبة للقبائل ،ولا بد من الإشارة هنا بأن سلطات الاحتلال كانت تعي ذلك تماما،فقد كتب مستشار الدولة ليتيبودوا (Lestiboudois) في أحد تقاريره يقول:"لا يمكن حصر هؤلاء الناس فجأة ضمن خطوط هندسية متراصة ،في حين إنهم يحتاجون الصحراء شتاء والتل في الربيع والصيف ،والجبال والغابات في فترات الجفاف"[2]

ورغم هذا الاعتراف بقسوة هذا القانون،استمر الاحتلال في مواصلة مصادرة الأرض من الأهالي وتمليكها للمستوطنين بإصدار قرار أشد وطأة منه وهو قرار سيناتوس كونسيلت

-القرار المشيخي(Sénatus-Consulte)22أفريل 1863: يعد الوثيقة الأكثر أهمية في تاريخ الريف الجزائري منذ بداية الاحتلال الفرنسي إلى الاستقلال، وترجع أهميته إلى عدة عوامل ،فهو من جهة يمس بعمق البنية الاقتصادية للريف الجزائري ،ومن جهة ثانية أدخل تحويرا جذريا على الأطر الاجتماعية التقليدية للمجتمع الجزائري.فقد كانت نظرة نابليون الثالث لمستقبل الاستيطان وضرورة ديمومته وتوسعه بالبلاد ،هي ضرورة ارتكازه على

[1]-إن عمليات الحشد للأهالي أو نظام الكانتونات في مناطق اعتبرت أقل خصوبة وأكثر ضيقا مقابل التخلي عن الأرض الواسعة والخصبة لصالح المستوطن ،كان هذا موضوعا لتيارات فكرية متباينة وتصورات استعمارية مختلفة ،ومتناقضة من بعض الوجوه ، بحيث لم تتفق مختلف شرائح البرجوازية الكولونيالية حول طريقة الاستيطان ،وإن كانت تتفق في وحدة الهدف ،وهو توطين المستعمرة ،فلا عجب إذن إن تناقضت البرجوازية الزراعية مع البرجوازية الصناعية ،وكان ذلك التيار أو ذاك يفرض نفسه على الحاكم العام للجزائر ،تبعا للتطورات السياسية التي ترتسم في باريس ،وإن ظهر في كل مرحلة تحت مسميات عدة :الأحرار ،المحافظون، مؤيدو العرب،مشجعي الاستيطان ،وفي ظل هذا الصراع الجدلي، وقف مؤيدو العرب منذ عام 1850ضد سياسة الكانتونات ،ولاسيّما عندما أعلن نابليون سياسته حول "المملكة العربية " ،فقد كان لكل من لاباسي (Lapasset)،وإسماعيل أوربان (I.Urbain)،وف.لاكروا(F.Lacroix)،والذين يتم غالبا تجنيدهم من قبل السان -سيمونيين دورا في إلغاء قانون 1851.للمزيد أكثر اطلع على:

الهواري (عدي)،**الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960**،ترجمة جوزيف عبد الله ،الطبعة الأولى ،دار الحداثة للنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان- 1983،ص64.

[2]- نفسه،ص63.

المبادلات الحرة للأراضي بين الأهالي والمستوطنين وعلى التواصل فيما بينهم ،موضحا أن هدفه من إصدار هذا القرار،هو وضع حد للاضطرابات العقارية في الجزائر[1]،وهذا بالفعل ما نصت عليه رسالة الإمبراطور نابليون الثالث للماريشال الدوق دي مالاكوف،حيث جاء فيها: "إذا كان قانون 1851قد بيّن حقوق ملكية الأرض والانتفاع،وأنهى الجدل حول طبيعة الأرض منذ الاحتلال ،إلا أن حق الانتفاع لم تتضح معالمه بعد،وحان الوقت للخروج من هذه الوضعية الخطيرة ، فإذا تم تحديد وجرد أراضي القبائل ،سيسمح ذلك بتقسيمها إلى دواوير،وسيسهل بعد ذلك للإدارة المحتلة بخلق وتحديد الملكية الفردية في مناطق القبائل،كما سيضاعف عمليات توثيق انتقال الأراضي بين الأهالي والمستوطنين"[2].وبذلك اعتبر القرار المشيخي المؤرخ في 12أفريل 1863تنفيذا لأفكار الإمبراطور الموجودة في الرسالة السالفة الذكر ،والذي جاء بفكرتين أساسيتين[3] :

أ-اعتبار عشائر الجزائر مالكة للأقاليم التي تنتفع بها بصفة دائمة وتقليدية ،ومهما كانت صفتها،أي أن حقوق الانتفاع الممارسة على أراضي العرش أوالسابقةأوالمخزن ،تحوّل إلى حقوق الملكية الجماعية لصالح العشائر والدواوير،وهوماحملته رسالة الإمبراطور الموضحة والآمرة لتحديد أراضي وأملاك الأهالي الواقعة في دوار غسيرة (الدائرة العسكرية باتنة) بتاريخ 20نوفمبر1869[4].

ب-تحويل الملكية الجماعية إلى ملكية فردية لصالح الدوار و تعيين الحدود للعشائر،أي تقسيم العشائر إلى دواوير ،ثم إعادة توزيع الأراضي الجماعية بين مختلف الدواوير[5].

يمكن تلخيص أهداف المرسوم في ثلاثة أهداف،وهي: تفتيت القبائل إلى دواوير صغيرة وتقسيم الأراضي حسب طبيعة ملكيتها والقضاء على الملكية الجماعية وتكريس الملكية الفردية [1]

[1]- طرشون(نادية)،**"سياسة نابليون الثالث العربية"** ،مجلة أبحاث ودراسات ،المجلة العربية للأبحاث في العلوم الانسانية والاجتماعية ، مجلة دولية محكمة ،العدد26،الجزء الثاني،جامعة عاشور بوزيان،الجلفة ،مارس2017،ص،ص331، 332 .

[2]-Lettre de L'empereur Napoléon à Le Maréchal Duc de Malakoff gouverneur général de l'Algérie,op-cit.

[3]-أنظر أمرية بتنفيذ مرسوم سيناتوس كونسيلت 22أفريل 1863بمقاطعة قسنطينة سنة 1866 في الملحق رقم 01،ص.488

[4] -Lettre du l'empreur napoléon aux membres du gouvernement ,Signé à St-Cloud ,fais le 08Aout 1869, SHAT , N°92303,17/18,GR1H 238.

[5]- بن سليمان (عبد النور)،المرجع السابق،ص38.

من خلال مضمون هذه الرسالة جاء العمل لتشريع قانون"سيناتوس كونسيلت" والذي قضي بتوزيع الأراضي الجماعية بين الدواوير بعد تحديد الحدود. فقد تم تقسيم 372 قبيلة إلى 656 دوار[2]،وبذلك تم تحديد أراضي العرش ،وترسيم حدودها ،وتقسيم كل حد إلى دواوير ، ومن ثم تم توزيع الأراضي إلى ملكيات فردية بين سكان كل دوار[3]، وقد كان نابليون حريصا في الإسراع في تنفيذ ذلك المرسوم ،حيث سارع إلى نشر تطبيقاته على الصحافة الرسمية،مثل جريدة المبشر ،التي لم يكد عدد من أعدادها يخلو من أسماء القبائل التي طبق عليها القانون في الفترة الممتدة مابين 1864-1870،بحيث تم توزيع القبيلة على ثلاثة أو أربعة دواوير ، وأصبحت كل وحدة جديدة تعرف انطلاقا من موقعها الجغرافي،وتتكفل لجان من داخل كل قرية بخلق الملكيات الفردية وتنظيمها بين أهالي القرية[4]. فقد جاء هذا القانون ليثبت أكثر قانون الملكية المصادق عليه يوم16 يونيو 1851،والذي أكّد على "الحق المصون للجميع بدون تمييز بين الملاك الأهالي والملاك الفرنسيين وغيرهم"،فقد كشف هذا القرار المشيخي 1863عن النوايا الحقيقية المستترة وراء ثوب الليبرالية،وعن زيف إدعاء المستوطنين بعربية نابليون وأبويته للأهالي ،إذ مكّن الحكومة من استعمال من لديها من سلطة مع بعض العشائر ،بالرغم من خضوعها للحكم قد تمنع الأوروبيين من دخول أراضيها..وبذلك يمكن تقسيم أراضي الشمل بأنجع الوسائل بإقرار الملكية الفردية ...وتوطين الأوروبيين في العشيرة"، ومما جاء في القرار أيضا:"إن المادة السابعة تلغي الفقرتين الثانية والثالثة للمادة 14من قانون 16 يونيو 1851،والتي كان بموجهما ممنوعا على أي شخص باستثناء الدولة،أن يسلب حق الملكية ،أو حق التمتع بالأراضي التابعة للعشيرة..وعلى هذا الأساس أصبح من الممكن امتلاك الأراضي التابعة للعشيرة ، وهذا الأمر سيفتح المجال واسعا للأوروبيين والشركات في امتلاك الأراضي"[5]

---

[1]- Hamani (Ménouba), « L'impact de la colonisation sur le foncier ,le cas de l'est algérien » ,Revue Options méditerranée ,série B études et recherches ,N°72 ,Montpelier, 2015,p37.

[2]- علوي (عمار)،المرجع السابق،ص57.

[3]- مياسي(ابراهيم) ،**مقاربات في تاريخ الجزائر 830-1962**،دارهومة للتوزيع والنشر -الجزائر،2007،ص124.

[4]- طرشون(نادية)،المرجع السابق،ص332.

[5]-مصطفى الأشرف،**الجزائر الأمة والمجتمع** ،ترجمة حنفي بن عيسى ،دار القصبة للنشر ،الجزائر -2007،ص14

قدرت السلطات المحتلة المساحة الإجمالية للأراضي القابلة للزراعة والاستغلال ،والمؤهلة للفحص والقابلة للتحديد ب14مليون هكتار، ،إذ ضم التل 2مليون ه من الأراضي تابعة ومستغلة فعليا من قبل الأهالي ،و2مليون و690ألف ه من الأراضي الدومين المستغلة ، الصالح للزراعة منها قدر ب890ألف ه،أما الباقي والمقدرة ب1مليون و800ألف ه فكانت عبارة عن مساحات غابية ،و420ألف هكتار أراضي تحصل عليها المستوطنون،أما الباقي فكانت عبارة عن أراضي سبخية ،وبحيرات ،وأودية ..،ومن ضمن تلك الأراضي التي استفاد منها المستوطنون ،جزء كبير تم بيعه ،وجزء آخر تم استئجاره للأهالي عن طريق السماسرةوالتجار[1]،إلا أن المساحة الإجمالية الأراضي التي أخضعت للفحص الإمبراطوري قدرت ب6.888.381ه،تم إدراج 1.003.072 ه منها ضمن أملاك الدولة ،وبلغت نسبة تنفيذ المهمة،وقتها،إلى حوالي النصف،ومع ذلك كله،فإن قراءة لكتابات المستوطنين تعطي انطباعا مغايرا تماما للأرقام التي قدمت آنذاك من قبل السلطة ،فتضارب الأرقام حول مساحة المفحوصة والمتبقية أثارت نقاشات حادة استمرت إلى غاية صدور قانون وارنيي[2]

واجه تطبيق المرسوم مشاكل جمة ،وإن كان يبدو في الظاهر آلية فعالة لحماية الممتلكات ، إلا أنه بدا في الواقع تشريعا عقيما وبلا جدوى ،فالظروف المعقدة جغرافيا على الأرض بسبب تداخل الأراضي ،وعدم ضبط للملكيات وتحديد طبيعتها ،أدت إلى استعصاء على المحققين العقاريين وأعوان المحافظات في العمالات والبلديات القيام بمهامهم على أتم وجه،ولذا عرف تعديلات وتصويبات مرارا وتكرارا حتى أخذ شكله القانوني الواضح والقابل للتطبيق ،بعد إصدار قانون 1887[3].

كانت الحصيلة النهائية لمرسوم سيناتوس كونسيلت من 1863-1870،على الشكل الآتي - ترسيم حدود 372قبيلة تضم 667دوار يقطنها 1.037.000جزائري أهلي

[1]-Lettre de L'empereur Napoléon à Le Maréchal Duc de Malakoff gouverneur général de l'Algérie, op-cit,p09.

[2]- أجيرون (شارل روبير) ،**الجزائريون المسلمون وفرنسا1871-1919**،الجزء الأول،ترجمة م.حاج مسعود، أ.بكلي، دار الرائد للكتاب-الجزائر ،2007،ص-ص143-146.

[3]- Guignard(Didier),Le sénatus-consulte de 1863 : la dislocation programmée de la société rurale algérienne, In :**Histoire de L'Algérie à la période colonial 1830-1962**,sous la direction de Abderrahmane Bouchène ,Jean-Pierre Peyroulou et Autre , Edition de la découverte ,Paris-2014,p135.

ومن بين 6.887.000هكتار من الأراضي تم جردها وفحصها كانت1.186.000ه تم ضمها لأراضي الدومين ،و1.336.000ه مصنفة كأملاك بلدية،و1.523.000هكتار من الأراضي أعلن تبعيتها لأراضي العرش،و2.840.000هكتار كأراضي ملك[1] .

ولئن كان من نتائج المرسوم على الاستيطان الحر إيجابية ،وفتحت الباب على مصراعيه بدخول الشركات الكبرى ،وتمكين المستوطن الأوروبي مستقبلا من الولوج إلى عمق الأراضي الأهلية ،فقد كانت له تأثيرات عكسية على الحالة الاجتماعية والاقتصادية للأهالي ،وفي هذا السياق كتب الجنرال ألار :"لم يغب عن الحكومة أن أبعاد سياستها هذه يجب أن تهدف إلى تقليص وإضعاف تأثيرات رؤساء القبائل ،وتفكيك القبيلة بإحداث الملكية الفردية"[2].

إذا كان هذا حال الأرض الأهلية التي قضم جزء كبير منها لصالح الاستيطان خلال حكم أقل ما قيل عنه أنه متعاطف مع الأهالي ومعاد للتيار العام السائد في المستعمرة والمؤيد للمستوطنين ، فكيف يمكن أن يكون الأمر في ظل الحكم المدني الجمهوري الشديد الحماس للاستيطان ، والمعروف بتأييده المطلق لحركة الاستعمار والتوطين.؟

2-التشريعات المتعلقة بالاستيطان ومصادرة الأراضي مابين عام 1871-1945

بقيام النظام المدني الذي أعلنت عنه الجمهورية في 9 مارس 1871 فتح من جديد ملف الاستيطان بقوة وعادت سياسة انتزاع الأراضي لصالح المستوطنين لتكون العنوان الأبرز للاستيطان الرسمي ،حيث تدعمت بقوانين 21 جويلية و4 سبتمبر 1871 التي سمحت بتأجير الأراضي للمعمرين دون دفع الضرائب، ومرسوم 6 أكتوبر 1871 الذي أعطى الأولوية للمستوطنين الفرنسيين في الاستفادة من القوانين السابقة، بالإضافة إلى مراسيم 30 سبتمبر 1870 التي كانت تهدف إلى إقامة أكبر عدد ممكن من الملكيات الصغيرة مع ضرورة إنشاء قرى على مساحة كبيرة ،غير أن أهم هذه القوانين الخاصة بانتزاع الأراضي لتعميم الاستيطان

[1]-Zahia(Soudani) ,op-cit,p43.

[2]- طرشون (نادية)،المرجع السابق،ص333.

في الجزائر،وأكثرها فائدة على المستوطنين ووطأة على الأهالي نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20، قانوني الحجز العام و وارني أوغست 26 جويلية 1873[1]

-قانون الحجز العام لأملاك القبائل الثائرة 30مارس 1871: أدى قانون الحجز العام إلى إجبار الجزائريين إلى دفع غرامات مالية باهظة قدرت ب65 مليون من الفرنكات الذهبية ،وانتقال 446.000هكتار من الأراضي لصالح الدومين لتمنح فيما بعد للكولون ،وتعرض الكثير من القبائل للطرد نحو المناطق الجبلية والصحراوية كعقاب لها ،مما أسهم في توسع الاستيطان نحو مناطق جديدة في منطقة الشرق والقبائل الكبرى،والجدول التالي يوضح مساحة الأراضي المصادرة من الأهالي بموجب قانون الحجز العام والموجهة للاستيطان في العمالات الثلاث ما بين السنوات(1872-1875) [2].

السنـــوات	مقاطعة الجزائر	مقاطعة وهران	مقاطعة قسنطينة	المجموع
1872	32.539هكتار	5.221	52.813	82.573
1873	21.060	10.763	28.153	59.976
1874	6.038	16.695	39.531	62.264
1875	15.867	12.031	22.655	50.553
المجموع	66.504	44.710	143.152	254.366

من خلال الجدول نستنتج بان مقاطعة قسنطينة كانت المقاطعة الأكثر تضررا من عمليات الحجز،بفقدان أكثر من 43ألف ه من أراضي قبائلها الثائرة وتليها عمالة الجزائر بأكثر من 66ألف ه واكثر من 44ألف ه،بما يجعل مجموع ما منح للمستوطنين 254.366ه،وتزيد ثروتهم على حساب بؤس وعوز القبائل التي جردت من ممتلكاتها ومن مصدر رزقها الوحيد ، ويتحول ملاكها إلى أجراء وفلاحون في مزارع الكولون[3].

[1]- بوضرساية (بوعزة)،**سياسة فرنسا البربرية في الجزائر (1830-1930) وانعكاساتها على المغرب العربي**، ج 2، د ط، دار الحكمة،الجزائر-2010،ص،ص97، 98.

[2]- قنون(حياة)،المرجع السابق،ص152

[3]- Emrit (Marcel) , « **Pour une histoire d'Algérie :le système des rattachements** » ,Revue des Annales Economies, sociétés, civilisations,15eme Année ,N°3,France,1960,p580.

- قانون وارني (Warnier)26جويلية 1873: تمت المصادقة على هذا القانون العقاري الجديد في الجمعية الفرنسية بعد إدماج ثلاث دراسات أو مشاريع قوانين ،الأول بتاريخ 14 /1871/10،ساهم في تحضيره مجموعة من المدنيين والعسكريين ،و مشروع ثان عرضه الأميرال دوغيدون بتاريخ 28نوفمبر 1872،وأخيرا مشروع قانون باسم لجنة فارنيي في 04افريل 1873،وصوتت عليه الجمعية العامة بتاريخ 26جويلية 1873،تضمن القانون 32مادة ،الفصل الثاني منه خاصة المواد 08إلى 24 تشير إلى ضرورة إرساء الملكية الفردية ،وإنهاء الملكية الجماعية بغرض تسهيل عمليات شراء الأراضي من قبل الكولون ، وبالتالي إخضاع الملكية الزراعية للقانون الفرنسي بتطبيق المادة 815من القانون المدني الفرنسي[1] .

نشر القانون في الجريدة الرسمية في 15أوت 1873،بعد أن سبق صدوره في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية بتاريخ 09أوت من نفس السنة 1873[2]،حيث بدّل بعض المواد في النصوص التشريعية الواردة في قرار سيناتوس كونسيلت لصالح الاستيطان ،ففي السابق لم يحدد قرار سيتاتوس كونسيلت طبيعة الملكية الفردية في الأرض العرش ولا حدودها،أما في قانون فارني فقد تم تحديد الأرض الملك داخل أرض العرش،بعد أن تم تقسيم أرض العرش على أفراد القبيلة الواحدة[3].

ومن أجل فرنسة الأملاك الجزائرية واعتبار جميع التشريعات الأخرى ملغاة في حضور التشريع الفرنسي،جاء قانون 26جويلية 1873الذي نص في عمومه بأن انتقال الملكية يجب أن يكون بمقتضى عقد، كما أن الاعتراف بالملكية العقارية يكون في أعقاب إجراء تحقيقات ومعاينة يقوم بها محافظ التحقيقات**Le commissaire enquêteur »**« تكون هذه التحقيقات جماعية تنتهي بتقديم تقرير إلى مدير إدارة التسجيل والطابع وأملاك الدولة لإصدار قرار الاعتراف بالملكية،وتمنح مدة ثلاثة أشهر للطعن في عمليات محافظ التحقيق تبدأ من تاريخ الإعلان عن نتائج التحقيق[4].

---

[1]-عبود (علي)،المرجع السابق ص120.

[2]- علوي (عمار)،المرجع السابق،ص،ص58، 59.

[3]- Larcher (Emile) et rectenwald(George) ,**Traité élémentaire de la législation algérienne**, tome 3, 0141les biens les actes ,Edition rousseau ,Paris-1923,p,p83,84.

[4]- بوزيتون (عبد الغني)،المرجع السابق،ص22.

يهدف هذا القانون عموما إلى تحقيق الغايات التالية :

1- -تمكين الجزائر من استعادة قوتها الإنتاجية القديمة بفضل قاعدة أفضل للملكية .

2- إنهاء حالة اللاعدالة في توزيع الأراضي بين الأهالي وبين المستوطنين المتضررين حسب تقرير واضعي القانون[1].

3- التثبيت الفوري للملكية الأوروبية في الأرض الجماعية للأهالي.

4- الدمج الشامل والفوري للممتلكات العقارية الأهلية ضمن الملكية الفرنسية [2].

ولما كان البيع يسري وفق القانون الفرنسي ،فقد شهدت السنوات التي تلت صدور القانون تضاعفا في عمليات البيع بالتراضي[3] ،من الأهالي لصالح الكولون داخل أراضي العرش ، حيث سجّلت المبيعات عبر القضاء الفرنسي 326حالة بيع سنويا،و118بيع بالمزاد، 166حالة رهن للعقار،وذلك قبل عام 1873،أما بعد إصداره فقد كانت الوضعية كالآتي:

ما بين 1874-1880،تم إحصاء 371حالة بيع عن طريق القضاء،150حالة بيع بالمزاد، 188حالة رهن،وخلال الفترة الممتدة ما بين 1880-1884،فقد كان الوضعية كمايلي: 604حالة بيع عن طريق القضاء،241 حالة بيع بالمزاد،320 حالة رهن[4]،وبالإجمال بلغت المساحة الّإجمالية للأراضي التي طبّق عليها القانون 2239095ه،أما مساحة الأراضي التي تم تطبيق القانون فيها في 173قبيلة ويقطنها 669.589نسمة فكانت مساحة الملكية الخاصة بعقود فرنسية 904.444هكتارو مساحة الملكية الجماعية بعقود فرنسية :436.826هكتار،وبالتالي تصل مساحة الأراضي المفرنسة :1.341.270هكتار،و المساحة الخاصة الموثقة عند الموثقين أو العقود الإدارية،فهي:238.571هكتار[5]

---

[1]- أجيرون (شارل روبير)،المرجع السابق،ص157.

[2]- Bouvier(Emile) , « **la propriété foncière en Algérie, d'après la loi du 16 février 1897** », Revue d'économie politique, Vol. 12, No. 8/9 , Paris, 1898,p716.

[3]-يمكن القول بأن معظم الصفقات التي تمت بين الأهالي والكولون عن طريق البيع بالتراضي كانت عن طريق الإكراه أو الاستغلال لحالة الجوع والبؤس ،ولا سيما خلال فترة المجاعة الكبرى 1867-1868،أو عن طريق إغراق الأهلي في القروض الربوية المرتفعة .كما يلاحظ بأن معظم عمليات انتقال الأراضي من الأهالي إلى المستوطنين ،تمت عن طريق الصفقات التجارية الحرة أكثر مما تمت عن طريق الامتياز.

[4] -Bencheikh-El-Fegoun Abbassi (Fatiha), **L'impact des lois foncières coloniales sur la situation socio-économique des paysans Algériens, de 1873 à 1911**, Thèse de doctorat, Département de sociologie et de démographie , Faculté des sciences humaines et sociales , l'Université Mentouri de Constantine,2007,p84.

[5]- (يزيز)عيسى،**السياسة الفرنسية اتجاه الملكية العقارية في الجزائر1830-1914**،مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث،قسم التاريخ ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،جامعة الجزائر،2008-2009،ص،ص78،79.

والواقع لم يكن القانون يستهدف ما سمي آنذاك بالملكية الجماعية فحسب،ولكنه كان يستهدف آنذاك أراضي الشياع ،إذ ذهبت الحكومة العامة إلى حد الاعتقاد بضرورة إصدار تعليمات تأمر الناس بالشروع فورا في تقسيم العيني أو البيع بحضرة الموثقين ،بواسطة قرارات الحاكم العام ،وعكس ما كان الأمر مصدرا للبهجة بالنسبة للمستوطنين الذين وجدوا فيه طريقا لتفتيت أرض العرش ،فإنه أحدث القانون حالة من الرفض والهلع لدى المسلمين الأهالي لأنه سيأتي على ما تبقى من أراضيهم الخصبة ،ونفس الحالة من الهلع أصابت المصالح المالية نظرا للتكاليف المالية المرتقبة ،بحيث أن مصاريف تكوين الملكية سوف تفوق القيمة التبادلية للأرض في جميع المساحات التي تقل عن 3000هكتار ،كما نبّه رجال القانون إلى أن تعارض أحكام قانون الأحوال الإسلامية سوف يدخل الدولة في صعوبات قانونية جمة [1].

ومن الناحية العملية فإن مهمة تطبيق القانون كانت جد صعبة على المحافظين المحققين، وعبر السيد م.بريدو في تقرير له خلال مناقشة ميزانية الجزائر لعام1892 ،بأن تطبيق إجراءات وبنود القانون تتطلب وقتا طويلا ،وستستمر العملية إلى منتصف القرن العشرين ، كما عبر الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف لمدينة الجزائر ،السيد م.زيس أمام لجنة مجلس الشيوخ الفرنسية عام 1891بقوله:"حسب الرأي السائد فإنه يجب انتظار أكثر من خمسين سنة كي يطبق قانون 1873عبر كامل القطر الجزائري"[2].وفي هذا السياق أدلى أحد المكلفين بتطبيق إجراءات الفحص بشهادته عن الصعوبات التي تواجههم في الواقع:"إن التل واسع جدا،فمساحته تتراوح ما بين 12إلى 14مليون ه،وفي ثلاث سنوات لم نؤسس سوى لملكية 70ألف ه،ونترك للذين يقرؤون هذه الأسطر تحديد المدة اللازمة لإنجاز المهمة بأكملها"[3]

وبالرغم من التحديات العملية لتطبيق قانون وارني على كل الأملاك الأهلية الواقعة في الأقاليم المحتلة،وما رافقها من صعوبات جمة في إحصاء الأراضي وإجراء مهام التحقيق والمعاينة والتوثيق ،وغيرها، إلا أن هذا القانون له انعكاسات خطيرة على الحالة الاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية على القبائل و الأعراش التي مسها إما بصفة مباشرة أو غير مباشرة،كما تظهر نتائج هذا القانون بوضوح أكبر في الإحصائيات التي تبين انتقال ملكية

[1] - أجيرون(شارل روبير)،المرجع السابق،ص -ص 157-159.

[2]- Bouvier(Emile) ,op-cit,p,p721,722.

[3]- Cahn (G) ,**De la constitution de la propriété en Algérie**,Challamel-Ainé Editeur ,Paris-1880, p10.

الأرض من الجزائريين إلى الأوروبيين والعكس: ففي فترة تسع سنوات (1863_1871م)، لم يبيع الجزائريين سوى (52005هكتار)مقابل شرائهم لما مساحته11320هكتار، وتوضح هذه الأرقام كيف أن الملكية الجماعية بقيت صامدة لمدة أكثر من 40 سنة أمام كل المحاولات التي كانت تستهدفها من طرف الاستعمار، ومن هنا تبدو خطورة قانون 1873العقاري بالنسبة للجزائريين في مدة تسع سنوات فقط بعد صدوره، حيث باع الجزائريون ما مساحته 294115هكتار، مقابل شرائهم ما مساحته 25313 هكتار فقط[1].

وإذا كان قانون 26جويلية 1873 قد مكّن الاستيطان من دق آخر المسامير في نعش الأرض الجزائرية والملكية الجماعية الأهلية،فهو بالمقابل كان أسوأ قرار أدى إلى تفتيت ما تبقى من الملكية الجماعية ،وزاد من تعقيد المشكلة العقارية في الجزائر،وألغى ما تبقى من الحقوق التي تمتع بها المسلمون الأهالي من خلال بعض المراسيم والقرارات السابقة،فقبل قانون وارني كان الخطر أقل وقعا على الملكية الأهلية ،بسبب وجود حق الشفعة ،الذي يمنح للقبائل هامشا قانونيا لاستغلال الأراضي التي كانت بحوزتهم ،وبعد صدور هذا القانون جرّدت معظم الأراضي التي استفاد منها الاستيطان الرسمي بكل خاص [2].

--**مرسوم 15جويلية 1874:**استمرت الجمهورية الثالثة في إصدار القوانين والمراسيم لتشريع الاستيطان الأوروبي وتنظيمه ، ففي 16أكتوبر أعلنت الحكومة الفرنسية بأن كل فرنسي من أصل أوروبي يقيم في منطقة ما ويستغل تلك الأرض التي يحوزها لمدة تزيد عن09سنوات سيستلم شهادة الملكية النهائية للأرض بعد انقضاء تلك المدة ،إلا أن تزايد شكاوى واعتراضات المستوطنين بسبب طول المدة ،اضطرت الحكومة إلى إصدار مرسوما تعديليا بتاريخ 15 جويلية 1874، خفف من إجراءات حقوق ملكية الأرض،وقلّص المدة إلى 05 سنوات بدل 9سنوات ،كما وسّع المرسوم نوعا ما الشريحة المستفيدة من هذا الامتياز ليشمل حتى الفرنسيين المتجنسين ،والذين يتوفر فيهم شرط أساسي،وهو وفرة الموارد المالية التي تكفي للعيش لمدة سنة ،كما منح نفس الامتياز للأهالي غير المتجنسين الذين يقدمون

[1]- غربي (الغالي)،**العدوان الفرنسي على الجزائر،الخلفيات والأبعاد**، منشورات المركز الوطني لدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م،دار هومة للنشر،الجزائر،ص207.

[2] - Bouvier(Emile),op-cit,p716.

خدمات لفرنسا،وحددت المساحة التي يتحصل عليها كل فرد ب03هكتارات،كما أعطى الكولون الذين استفادوا من مرسوم 1871الحق في الاستفادة من هذه الإجراءات الجديدة [1].

-قرار 30سبتمبر 1878: يعد هذا القانون استيطانيا بامتياز ،فقد فتح المجال لتوطين الآلاف من المستوطنين في القرى والمدن الجزائرية،فقد نص على إلحاق الأراضي الدومين المتواجدة في ضواحي المدن بمصلحة الاستيطان ،التي تتولى تقسيمها إلى قطع للبناء وأخرى تخصص كمزارع للفلاحين ، وتوزع مجانا الثلثين لصالح المستوطنين والثالث الباقي يخصص للأهالي[2] ، كما منح قانون 1878امتيازات وتسهيلات بنكية للمستوطنين ،وتوجه تلك القروض إلى بناء وإعادة بناء وترميم المباني القديمة وتهيئة وتوسيع المباني السكنية و الاقتصادية ،وأعمال الزراعة المخصصة للاستصلاح المنفعي والدائم،وشراء المواشي[3].غير أنه أعاد تنظيم منح الامتيازات ، حيث حرم المستفيدين من المرسومين السابقين من التنظيم الذي جاء به ،واشترط توزيع الأراضي للمستثمرين الأوروبيين مقابل 150فرنكا لكل هكتار،مع إلغاء شرط الإقامة في الأرض في حالة من أقدموا وحلوا فيها لمدة خمس سنوات ، بغض النظر عن طبيعة المستوطن، أكان فرنسيا أو أجنبيا متجنسا أو في انتظار التجنيس ،غير أن الأهم في هذه الإجراءات الليبرالية التي جاءت لتسهيل الاستيطان الرسمي ،هو أنه أعفى المستفيدين من الضرائب العقارية لمدة 10سنوات[4].

-قانون 18أفريل 1887 أو سيناتوس كونسيلت الصغير Sénatus-consulte

لقد تقرر تجميد كل العمليات المرتبطة بالقانون الامبراطوري منذ 19مارس1870،وفي عام 1887تقرر بموجب التدابير المنصوص بها في المادة الثانية من القانون الصادر عام 1887، العودة إلى تطبيق عمليات القانون الإمبراطوري بغرض تعميم نفس النتائج على جميع القبائل التي لم تشملها العملية في 1870،وهذا السبب اصطلح على تسميته ب"سيناتوس كونسيلت

[1]-عباد(صالح)،**المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870-1900**،الطبعة الأولى ،ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر،1984،ص،ص69، 70.

[2]-GGA, **La Colonisation En Algérie 1830-1921** ,Imprimerie administrative Emile Pfister,Alger-1922,p27.

[3]-Réveillaurd (Eugène),**L'établissement d'une Colonie de vaudois français en Algérie**,Edition la société Coligny « société protestante de colonisation»,Paris-1893,p90.

[4]-عباد(صالح)،المرجع السابق ،ص70.

الصغير" [1]،وأهم ما نص عليه هذا القانون السماح ببيع الأراضي المشاعة(الجماعية)بمبالغ زهيدة جدا للمستوطنين الأوروبيين ،دون شرط الإقامة فيها[2]،كما جاء هذا القانون ليصحح بعض الإجراءات المبهمة التي كانت قبل 1873، وأهملها قانون وراني ،وذلك بالرغم من أن محتوى قانون 1887يؤكد ما نصت عليه مواد قانون ورانيي،إلا أن العقود المبرمة بين المستوطنين والأهالي قبل قانون فارني مثلت معضلة بالنسبة للإدارة الفرنسية ،بحيث كان من الصعب تحديد ماهيتها وطبيعتها ، باعتبار أن التنظيم المطبق على العقارات كان مختلفا ، فالأرض التي يشتريها المستوطن من الأهلي في التشريعات السابقة تكون فرنسية،أما في حالة ما إذا باعها المستوطن الأوروبي للأهلي تصبح مسلمة ،ولذا انصبت مواد هذا القانون لفرنسة باقي الأملاك الأهلية[3].

إن الغرض من هذا القانون ليس فقط إعادة الروح لسيناتوس كونسيلت Sénatus-consulte ولكن لاستكمال تغيير بنية العائلة الريفية الجزائرية،وتفكيك القطع الأرضية الكبيرة إلى أصغر فأصغر ،وتفكك معها وحدة القبيلة إلى مجموعة أسر صغيرة ومعزولة[4]، كما أعطى بطابعه التجاري وحرية انتقال العقارات حالة من البؤس والفقر لدى القبائل الجزائرية كلها، الأمر الذي جعلها تدخل في دوامة من السلوكات لحماية وجودها مثل الاقتراض من البنك ومن الأغنياء أكانوا من الأهالي أو اليهود أو المستوطنين ،أو اللجوء إلى رهن وكراء أراضيهم ،العجز فيما بعد على تسديدها ،ومن ثم عدم القدرة على اقتناء وسائل الإنتاج الزراعي لممارسة نشاطهم الرئيسي ، الأمر الذي يؤجل دائما إعادة تشكيل عملية الإنتاج ،وبالتالي حصول الإفلاس التام ، ويجبر الفلاح المفلس على التنازل عن أرضه [5].

وكان من نتائج هذا القانون أن وضعت إدارة الاحتلال الفرنسي يدها على مايزيد 957ألف هكتار بصفة مجانية من أراضي القبائل "العرش"وسلمت للمستوطنين الأوروبيين الجدد 120ألف هكتار في الفترة مابين 1891-1900،مما يجعل من فترة حكم المدنيين (1870-

---

[1]- أجيرون(شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا 1871-1919**،الجزء الثاني ،ترجمة م.حاج مسعود وع.بلعربيي،طبعة خاصة وزارة المجاهدين،دار الرائد للكتاب ،الجزائر -2007،ص206.

[2]- عميراوي(احميدة)،**آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري(1830-1954)**،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،الجزائر-2007،ص54.

[3]- بن سليمان(عبد النور)،المرجع السابق،ص40.

[4] - Bencheikh(Fatiha) ,op-cit,p85.

[5]-إبراهيم مهديد ،المرجع السابق،ص26.

1930)مرحلة تمليك المستوطنين بالملكية الكبيرة التي تتراوح ما بين 4و5الآلاف هكتار بدل الملكية الصغيرة التي كانت تمنح خلال العقود الأولى للاحتلال [1].

بموجب هذه التشريعات التي صدرت في العشرية 1881 -1890 ,تم تجريد 176.000 هكتار من الأراضي وتم منحها و تقسيمها على 3206 مستثمرة أغلبها منحت بالمجان ما عدا أن البعض منها تم بيعه بالمزاد لصالح الملاك المستوطنين القدماء[2].

--قانون 16أفريل 1897: أدت الانعكاسات الخطيرة لقانون وارني 1873،وقانون 1887 على الأهالي إلى إصدار الحكومة الفرنسية قرارا سنة 1890 يجمّد العمل بهما مؤقتا،فقد أجمعت الآراء المنبثقة من تقرير "بيدو ،ومن التحقيق الذي أمر به مجلس الشيوخ سنة 1894و خاصة تقارير جول فيري[3] و جونار،ومداولات مجلس الشيوخ،وخاصة خطاب المقرر فرانك شوفو ،كلها أجمعت على الانتقاد العنيف لقانون 1873،ومناهضة "الاستيطان الأناني"،وتم الاتفاق في الدوائر الحكومية أن بقاء الاستيطان مرهون بإصلاحه ،وعلى مراجعة التشريع العقاري بصفة جذرية،بما يتلاءم مع مصلحة الشعبين وعلى ضوء ذلك تم تشريع قانون 16أفريل 1897[4].

إن أبرز ما ورد هذا القانون،هو إعادة حق "الشفعة" لأراضي العرش ،والذي يبدو في ظاهره ، يخدم مسألة الحفاظ على الملكية الجماعية للأعراش ،ويقلل من الاستيطان التعسفّي فيما تبقى من الأراضي الجماعية،وإنما كان الهدف كبح الحركة الديمغرافية نحو المدن. وتتلخص مضامين المواد في هذا القانون عموما في فتح التحقيق الجزئي قبل أي عملية تجزئة للأرض أو بيعها ،و تحديد ما إذا كان العقار قابلا للمشاركة ، بحيث نصت المادة 4 القانون على ما يلي:"يجب على المالك والمشتري معا دائمًا الالتزام بالإجراءات التي ينظمها ويحدها

---

[1]- عمراوي (حميدة)،المرجع السابق،ص54.

[2] -أجيرون(شارل روبير)،**"تنمية الاستطان في الجزائر 1870_1930"**، ت محمد الطاهري العمودي "،مجلة المصادر، مجلة فصلية يصدرها المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954،العدد الثاني،الجزائر ،1999،ص188

[3]- جاء في التقرير الذي أعده جول فيري سنة 1892بعد زيارة ميدانية قادته إلى الجزائر ،لاستبيان نتائج الاستيطان في الجزائر ،وتقصي أحوال البلاد ما يلخص حالة البؤس الذي مسّ الأهالي ،مايلي:"لقد رأينا القبائل العربية في منظر بائس ، حطمها الاستيطان ،وسلب منها مواردها العقارية والغابية ، تلقينا سيلا من الشكاوى والاحتجاجات من الأهالي ،لقد وضعنا الإبهام على موضع الألم وشخّصنا سبب البؤس الذي حل بهم ،فالحالة المزرية لا تحرك فقط عواطفنا بل تدفعنا إلى ضرورة تغيير الوضع الحالي لصالحهم .."أنظر :
Journal officiel de la république française,N°107 ,Samedi 30Aout 1947.

[4]- أجيرون (شارل روبير)، **المسلمون الجزائريون وفرنسا** ،ج2،المرجع السابق ،ص213.

القانون من أجل الحصول على وثائق الملكية"[1]. وبذلك اشترط هذا القانون توفر إجراء التحقيق، في أجل أقصاه ثلاثة أشهر[2].

حمل القانون متناقضات عديدة ،وإجمالا فقد تمحور القانون حول صنفين من المواد ،بحيث يمكن تصنيف بعضها في المواد المِؤيدة للاستيطان :والتي كانت تهدف إلى تأسيس إجراء "التصفية الجزئية" ،لممتلكات الأهالي والأوروبيين كإجراء اختياري حدد له ثمن معلوم ، وبهذا يكون تسليم عقد الملكية الجديد بين الأوروبي والأهلي بمثابة تصفية مطلقة ونهائية ، وهو ما يصب في مجمله لصالح المستوطن[3].

لقد أدى قانون 1897 إلى إخضاع الأراضي الأهلية لسلطة القانون الفرنسي ،إذ ارتفعت مساحة الأراضي المفرنسة من4.008.831هكتار سنة 1899لتبلغ 4.764.614هكتار في أواخر 1922،من إجمالي مساحة التل البالغة 14مليون هكتار .أما حصيلة العقود المبرمة بين الأهالي والأوروبيين ،حسب إحصاء عام 1920فإن مجموع المبيعات الأهلية لصالح المستوطنين الأوروبيين بلغت 734.440هكتار في الفترة الممتدة مابين 1900-1919، ومبيعات الأوروبيين للأهالي بمساحة قدرت265.441هكتار،وهو ما يحقق للأوروبيين أرباحا صافية قدرت ب468.999 فرنك فرنسي.

ورغم ذلك فقد ندد المستوطنون وأبدوا سخطهم الشديد على القانون، ففي اعتقادهم فإنه سيسهم في إثراء الملكية الأهلية و يعطي نوعا من الحماية للملكية الجماعية ،كما يمكّن الأهلي من استعادة أرضه بشرائها مجددا، لكن كيف؟وبأي ثمن؟.فالمبيعات الأهلية ،المصرح بها ، للأوروبيين ما بين 1901-1917بلغت 93.196.096فرنك بمعدل 151فرنك للهكتار ،بينما بلغت قيمة مبيعات الأوروبيين للأهالي 63.314.970فرنك بمعدل 267 فرنك للهكتار[4].

هذه المبيعات بين الأوروبيين والأهالي تبرز بوضوح حجم الظلم والاحتكار والمضاربة التي فرضها المستوطن الذي يحميه القانون وتسانده الإدارة الاستعمارية الفاسدة على المسلم الأهلي الذي يسعى جاهدا لاستعادة مصدر رزقه الوحيد،كما تدحض الأرقام حول حركة المبادلات

[1]- Bencheikh(Fatiha) ,op-cit,p86.

[2]- bendjaballah (souad) ,**Droit foncier étatique et stratégies locales les réponses plurielles à la violences des politiques domaniales en Algérie entre 1962 et1995**,Thèse de doctorat, Option Anthropologie juridique, Institut de droit et sciences juridique ,Université de constantine, Juin 2009,P89.

[3]- أجيرون (شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا**،ج2،المرجع السابق،ص،ص219،220.

[4]- نفسه ،ص252.

العقارية من دون أي شك تلك الرسائل والشكاوى التي قدمها المستوطنون عن ميل المشرع الفرنسي للأهالي المسلمين،وذلك بهدف قطع الطريق أمام أي محاولة تشريعية لتعديلات قانونية في المستقبل قد تعيد بعض الحق في استعادة الأرض من ملاّكها الأصليين.

ولما تأسس مجلس النيابات المالية سنة1898،ازدادت تنديدات ممثلو الكولون،في هذا المجلس، لما اعتبروه تنازلات مؤلمة من إدارة الاحتلال لصالح الأهالي من خلال بنود قانون 1897،فقد ندد دائرة سطيف **"غوتي"**« **Gautier »** في مجلس النيبات المالية سنة 1901 بمبدأ حرية انتقال الأراضي بين المستوطنين والأهالي ،داعيا إلى سن قانون جديد يجرم بيع المستوطنين لأراضيهم للأهالي ،وفي ذات السياق نورد تصريحا آخر لممثل دائرة جيجل **"فريديريك باردوبيت"Frédéric Bardebette »**« سنة 1908،جاء فيه:"إن الإبقاء على الملكية الجماعية في الجزائر يعد عائقا لتقدم مشروع الاستيطان ،ستؤدي إلى ظهور استقراطية جديدة في القبائل بفضل انتفاعها بالأراضي الشاسعة". أما **"باريس دي بينهير"** « **Barris du penher »**،فقد عبر هو الآخر عن سخط المعمرين عما اعتبروه عن سوء للمعاملة للدولة لهم ،وتحيزا فاضحا للأهالي ،حينما تبقي عن أراض بور لصالح الأهالي الكسولين ،" فالأرض وجدت للإنتاج ،وإبقاؤها رهينة للقبائل سوف يعرضها للإهمال ، ويجب وضعها في يد من يستحقها"[1].

-قانون 13سبتمبر 1903: يشبه قانون 1878في نصوصه إلا أن الجديد في هذا التشريع ، هو تنظيم أراضي الدومين الممنوحة للمستوطنين ،وحدد أربعة طرق لحيازة الأرض :البيع بالسعر الثابت،البيع بالتراضي، البيع عن طريق المزاد ،الامتياز المجاني[2] .

إلى جانب سياسة انتزاع الأرض وتمليكها للمستوطنين بالتشريعات العقارية، كانت هناك الكثير من الأراضي الأهلية قد تم نهبها بالطرق غير الشرعية ،إما بتزوير شهادات الملكية أو بالاحتيال القانوني ،أو عن طريق المحاباة ...،ففي حالة من بين الآلاف من الحالات التي تبرز النهب الذي قام به المستوطنون لأملاك الأهالي،نذكر ما قام به رئيس الديوان لعمالة وهران ،والرئيس السابق لدائرة معسكر ،حيث استغلا نفوذهما وقاما بشراء 3000هكتار من

[1]- Bouveresse(Jacques),**Un Parlement coloniale les délégations financières 1898-1945,le déséquilibre des réalisations** ,publications de Rouen et du havre ,France-2010,p20.

[2]- بن داهة (عدة)،المرجع السابق،ص396.

الأراضي الأهلية ،الواقعة على طول الطريق الرابط بين معسكر وسعيدة بمبلغ زهيد جدا ،أي ما يماثل 3فرنك للهكتار ، في حين حددت حكومة الجزائر قيمة إعادة شراءها من الأهالي مابين 50إلى 75 فرنك للهكتار[1]. وهو ما يؤكده هنري بييرمنهوف في شكل اعتراف أتى متأخرا جدا ،جاء فيه:"لقد أدى توسيع مراكز الكولون إلى تجاوزات خطيرة على الممتلكات ،خاصة حينما يصدر الحاكم العام للجزائر قرارا يؤدي إلى تسهيل انتقال الملكيات لصالح الأوروبيين،فإن ذلك القرار تتبعه عمليات المصادرة غير القانونية والنهب الممنهج للأرض"[2].

استمرت إدارة الاحتلال في كل مناسبة في إصدار التشريعات بما يخدم مصالح المستوطنين ، ومعها تواصلت حملة الاستيطان وتوسعت خصوصا خلال الفترة الذهبية لسنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى 1914،فبفضل الاقتناء " المكثف "الذي حققه المستوطنون، والذي ساهم فيه سلاح القانون مساهمة كبيرة،ففي الفترة الممتدة ما بين 1909-1917تم انتزاع 427.000 هكتار عن طريق قوانين مصادرة الأراضي والتمليك ، وأكثر من 200.000هكتار تم توزيعها فيما بين 1901 – 1914 من خلال سياسة الاستيطان الرسمي ،منحت منها 53.000هكتار بالمجان،وبذلك بلغت المساحة الإجمالية للمستوطنين في سنة 1917 ب 2123288 هكتار من الأراضي الزراعية،و194.159 هكتار من الغابات،وبعد مضي قرن (سنة 1930)من سياسة مصادرة الأراضي بالسيف والقانون ،أصبح المستوطنون الأوروبيون يملكون مجموع 2.350.000 هكتار، منها 1468677 هكتارا منحت بفعل تطبيق سياسة تعميم الاستيطان الرسمي،أما الباقي 1712000هكتار فتحصل عليها المستوطنون بواسطة الشراء مقابل 532 مليون فرنك ،وبالمقابل ، وفي نفس الفترة قدرت مبيعات المستوطنين للمسلمين ب 700000 هكتار مقابل 530 مليون فرنك[3]

لخّص لنا كالفيلي حصيلة القوانين العقارية ونوعية الملكية ،ومساحة الأراضي الممنوحة للمستوطنين إلى غاية 1934/12/31في الجدول الآتي[4]:

---

[1] -Guignard(Didier) ,**L'Abus de pouvoir dans l'Algérie coloniale** ,presses universitaires de paris ouest , paris -2010,p,p,176,177.

[2]-Peyerimhoff (Henri),**de la colonisation Officielle de 1871-1895**,1er Edition ,Edition Société anonyme de l'imprimerie rapide -1906,p108.

[3]- أجيرون(شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا**،ج2،المرجع السابق،ص190.

4- Bencheikh(Fatiha) ,op-cit,p87.

القوانين والمراسيم	مساحة الممتلكات الخاصة بالأوروبيين	مساحة أراضي العامة	مساحة أراضي الدولة	مساحة الممتلكات البلدية	إجمالي الأراضي بالهكتار
مراسيم1844 ، 1846،قانون 1851،مرسوم سيناتوسكونسيلت1863	1.769.736	.....	..... .	.....	1.769.736
قانون 1873/07/26 قانون1887/08/28	1.579.841	59.734	309.791	271.983	2.221.349
قانون 1897/02/16	814.020	22.689	56.565	10.739	904.013
قانون1926/08/04	1.055.541	28.825	71.642	18.484	1.174.492
المجموع(هكتار)	5.219.138	111.248	437.998	301.206	6.069.590

من خلال معطيات الجدول يمكننا الوقوف على النتائج الوخيمة للنشاط الاستيطاني الأوروبي والحصيلة العامة لمختلف التشريعات العقارية الصادرة طيلة قرن من الاستعمار،حيث نلاحظ:

-أولا:بلغت الحصيلة العامة لمصادرة الأراضي من صدور مرسوم 1844 وإلى غاية قانون 1926عبر القوانين العقارية التعسفية فقط،ما يفوق 6ملاين هكتار كان نصيب المستوطنين الأوروبيين منها أكثر من 5.2مليون هكتار فيما بلغت أراضي الدومين والأملاك العامة والبلديات أقل من 9ألف هكتار،مما يمثل هيمنة مطلقة للمستوطنين ليس فقط على الأراضي المصادرة من الأهالي ،وإنما على الجهاز العقاري الاستعماري برمته.

ثانيا: إن ما انتزع خلال من الأراضي خلال 14سنة فقط (1873-1887)عبر المراسيم والقوانين الصادرة (وارني-قانون 1878،سيناتوس الصغير1887)تجاوز ما انتزع اكثر من أربعين سنة (1830-1873)،حيث قدر ما انتزع مابين 1873-1887مايفوق 2.2م/ه،بينما لم

يتجاوز خلال (1830-1873)1.8م/ه، مما يعني أن أكبر فترة شهدت فيها عمليات النهب العقاري كانت في العقدين الأوليين الذين تليا قيام الحكم المدني المؤيد بشدة للاستيطان .

ثالثا :الأثر المزدوج للقوانين العقارية ففي الوقت الذي ساهمت في إثراء المستوطين ومكنتهم من السيطرة الشاملة على الحياة الاقتصادية في الجزائر،عملت على إفقار الأهالي ،وحولتهم من ملاك للأرض إلى خماسين في مزارع وأراضي الكولون .والرسم البياني التالي يوضح مساحة الملكية الأوروبية سنة 1954.(الوحدة مليون هكتار)

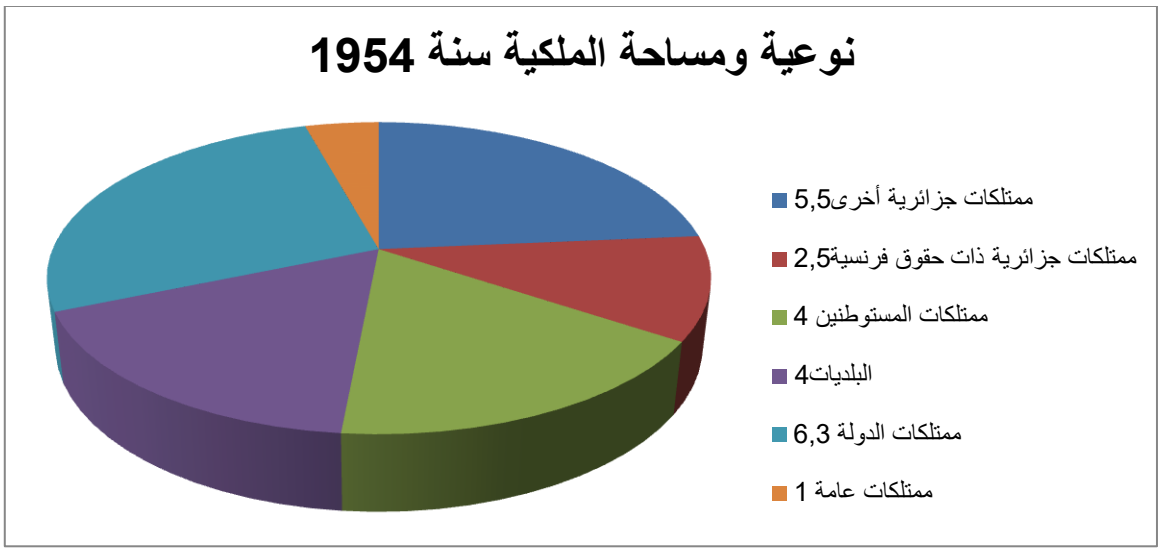

إن أهم ما نستخلصه من الرسم البياني ،بعد أكثر من قرن من سياسة نزع الأراضي مايلي:
أولا:ارتفاع مساحة الأراضي المصادرة من قبل إدارة الاحتلال إلى أكثر من18م/هكتار من مختلف الأراضي سواء التي سيطرت عليها من ممتلكات الأهالي أو غيرها ،بينما لم تتجاوز أراضي الجزائريين الأهالي 6مليون هكتار.وهو ما يمثل حصيلة ثقيلة ومؤلمة لعقود طويلة من النهب المقنن والجائر لأراضي الجزائريين.

ثانيا :تراجع مساحة المستوطنين من 5.2م/ه سنة1917كما رأينا في الجدول السابق إلى حوالي 04مليون هكتار سنة 1954،وفي اعتقادنا فإن ذلك التراجع مرتبط أساسا بعمليات إعادة الشراء التي قام بها الأهالي في النصف الأول للقرن العشرين ،بعد أن فضّل الكثير من الكولون الصغار بيع أراضيهم للأهالي واختيارهم لنشاطات اقتصادية أخرى غير الزراعة،أو هجرة الكثير منهم للمدينة ،أو العودة إلى أوطانهم الأصلية .

وعموما فإن ذلك لم يحدث التوازن في توزيع الأراضي الذي كان دوما في صالح الكولون الذين يمثلون أقلية عددية لم تتجاوز1مليونن لكنها تحتكر حوالي 4مليون هكتار ،مقابل 6 مليون هكتار لعشرة ملايين من الأهالي بمعدل1.6ه لكل جزائري،مقابل 6ه لكل مستوطن .

يمكن تلخيص انعكاسات مصادرة الأرض بالجزائر وآثار الاحتكار الرأسمالي للمستوطنين الأوروبيين على مفاتيح السياسة الاقتصادية إلى غاية 1954،بالتقرير الصادر عن الوفد الفرنسي الذي زار الجزائر والمتكون من صحفيين وبرلمانيين ورجال الفكر والدين،في أفريل 1954 للإطلاع على حقيقة الحالة العامة بالجزائر تلاه بباريس الوزير فرانسوا ميتران خلال ندوة صحفية جمعته بممثلي الأحزاب التقدمية والصحف الديمقراطية الحرة ،جاء فيه:"..رأينا ما يسمى بالاستعمار الكبير ،وكيف أن عشرة فقط من كبار المستوطنين الاستعماريين يملكون أغلب الأراضي الزراعية ،بينما عشرة ملايين من الجزائريين الأهالي يتألمون تحت وطأة هؤلاء،ورأينا أن واحد من فقط من المستوطنين يملك 16ألف من الهكتارات ، وشركة لوحدها تملك 85ألف هكتار ،بينما إذا ما قسمنا الأراضي الفلاحية الموجودة بالقبائل الكبرى على سكانها لنال كل فرد منهم سبعة أمتار فقط..."[1].

إن مختلف القوانين العقارية الكولونيالة أضعفت بل هدمت الروابط الجماعية ،وخلقت وحدة غير معروفة حتى ذلك الوقت،وهي التقسيم الجزئي للأرض ،الذي ساهم في نمو الروح الفردية وانهى بالتدريج على الوحدة الجماعية للقبيلة الجزائرية ،وبالتالي أحدث تحولا في النمط الاقتصادي الأهلي القائم على الأرض الجماعية التي ضمنت لقرون طويلة الأمن الغذائي للأهالي إلى الأرض المجزأة ،التي أنتجت اقتصادا لا يضمن حتى الكفاف ويكرس الجوع .لقد حافظت الأرض الجماعية على التراث العقاري وجعلت المشتل الجماعي عاملا لمجابهة عشوائية المناخ[2].

[1]- ميسوم (بلقاسم) ،"**سياسة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال الفترة1830-1954**"،مجلة علوم الإنسان و المجتمع، مجلة علمية محكمة ،جامعة محمد خيضر بسكرة ،العدد 06،جوان 2016.،ص،ص 60،59.

[2]-سعادة (ياسين)،"**التحليل السوسيولوجي لتاريخ الجزائر ،إلى أين وصلت النقاشات حول التشكيلة الاجتماعية لجزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي**" ،مجلة الخلدونية للعلوم الانسانية والاجتماعية،العدد السادس ،تيارت، 2013، ص313.

خلاصـــــة الفصـــل

لقد كان الاستيطان أحد المحاور الكبرى للسياسة الفرنسية في الجزائر ، ،ومبكرا ربطت الأنظمة المتعاقبة على سدة الحكم بفرنسا نجاح العملية الاستيطانية على ثلاث مقاربات أساسية،وهي:مصادرة الأراضي الخصبة والواسعة من الأهالي وطردهم نحو الأراضي الأقل خصوبةوفي المناطق الجبلية والمعزولة أو حشرهم في مناطق الاحتشاد "الكونتونات "

مقابل ذلك تم استقدام مجموعات بشرية من مختلف الجنسيات و الطبقات الاجتماعية، ومساعدتها بمختلف الوسائل والإمكانيات للسيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية والسياسية للمستعمرة،وأخيرا تنظيم حركة الاستيطان ومصادرة الأراضي والممتلكات العقارية بمنظومة تشريعية وقانونية ساهمت في الانتقال السلس لأجود الأراضي وأوسعها لصالح الاستيطان ،فقد ساهمت القوانين العقارية في تغّول المستوطنين الأوروبيين ،وتحوّلهم من بروليتاريا مهاجرة إلى طبقة مالكة ورأسمالية، وهذا ما جعلهم يتحولون إلى قوة ضاغطة على إدارة الاحتلال عن طريق ممثليهم في البرلمان الفرنسي ،وفي كل المراكز الإدارية وعملوا على إضعاف سلطة الحاكم العام في الجزائر ،الذي أضحى بقاؤه في السلطة مرتبطا برضى المستوطنين.

وبالمقابل فقد أدى تفتيت الأرض الجماعية إلى انعكاسات خطيرة امتدت لنواحي حياتية عدة،فقد حررت الملكية الفردية للأهالي من العلاقات التي تنسجها القبيلة وانحصرت العلاقات الاجتماعية في حدود العلاقات القرابية،ولم يعد المجتمع ذلك الكل المنبني والهرمي ،بل مجموع من الأفراد في أنوية أسرية صغيرة الفوارق الاجتماعية والتفاوتات الطبقية "بروليتاريا فلاحية " تقابلها فئة منتفعة قليلة تقاسم المستوطن منافع الاغتصاب الممنهج لملكية الفلاح البائس. ،ومن ناحية فقد أدى انتزاع الأراضي الخصبة وطرد الأهالي إلى المناطق الجبلية والصحراوية إلى تناقص الإنتاج وكانت أحد المسببات لانتشار المجاعات التي فتكت بالآلاف من الأهالي الجزائريين،ولعل أبرزها المجاعة الكبرى بين سنتي 1868-1867 .

الفصل الثاني:الواقع الاجتماعي للمستوطنين الأوروبيين مابين (1871-1945)وأثره على الأهالي

المبحث الأول :الدراسة الديموغرافية للمستوطنين الأوروبيين (النمو ،التوزيع ،التركيب السكاني)

المبحث الثاني : العلاقات بين مكونات المجتمع الأوروبي وفشل نظرية الانصهار العرقي

المبحث الثالث : يهود الجزائر المفرنسين بين الإدماج عن طريق التجنيس ومشكلة معاداة السامية

المبحث الرابع: الظواهر الاجتماعية و الروابط الأسرية داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر

المبحث الخامس: الدين و النشاط الكنسي داخل المجتمع الأوروبي

المبحث السادس : العمارة الأوروبية وتغير نمط العمارة الجزائرية

الفصل الثاني:الواقع الاجتماعي للمستوطنين الأوروبيين مابين1870-1945)

مقدمة الفصل

يعالج هذا الفصل حالة المجتمع الأوروبي وتطوره و مراحل تشكله ،والخصائص السوسيولوجية والإثنية له .وعلى اعتبار هذا المجتمع الغريب حديث النشأة نشأة الظاهرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بحد ذاتها ،ومصاحبا لها ،فإن هذا المجتمع الجديد مرّ في تطوره بمراحل عديدة ومؤلمة في نفس اللحظة .كما أن العوامل المؤثرة والمحددة في نشأته كانت متداخلة وصعبة .

ومثلما لاحظنا في الفصل الأول ،أن المجتمع الأوروبي في الجزائر شكلته مجموعات عرقية متعددة ،قدمت لتعمير البلاد لإنجاح استراتيجية الاحتلال وإعطائها أبعادا اجتماعية وثقافية ودينية، فإن هذا المجتمع كان كذلك متنوع العادات ومختلف الديانات والذهنيات والطباع .**فماهي عوامل تطور المجتمع الأوروبي في الجزائر في الفترة الممتدة ما بين 1870و1945،وماهي خصائص التركيبة الديمغرافية والاجتماعية ،ووما تأثيرات ذلك على المجتمع الأهلي ؟.**

أولا :الدراسة الديموغرافية للمستوطنين الأوروبيين (النمو ،التوزيع ،التركيب السكاني)

مثل أي مجتمع آخر حديث النشأة والتكوين والتطور،مرّالمجتمع الأوروبي في سيرورته الديمغرافية بمراحل، ساهمت في توسعه ونموه الديمغرافي عدة عوامل داخلية وخارجية وأهمها عامل الهجرة ،والتي وجدت تأييدا ودافعا قويا من قبل سلطات الاحتلال ،وشكلت تركيباته واختلاف الفئات المكونة له .

1-عوامل النمو الديموغرافي للمستوطنين الأوروبيين ما بين (1870-1945)

أ-الهجرة والنمو السكاني

كانت أعداد الأوروبيين في عام 1830 سنة الاحتلال الفرنسي الأولى ،لا تتجاوز الآلاف ما بين سفراء الدول وعائلاتهم ،وأسرى الحرب ،وبعض الجاليات الأوروبية من تجار

وأصحاب شركات وموظفين دائمين وشبه دائمين[1]. لكن ما بدأت الأوضاع الأمنية تشهد استقرارا ،لا سيما في مدينة الجزائر وحوزها ،حتى بدأ عدد الأوربيين في تزايد مطّرد نتيجة للتوافد الكبير للمهاجريين الأوربيين من مختلف الدول الأوروبية ،ولا سيما المتوسطية منها .

وإذا ما تتبعنا النمو السكاني لأوروبي الجزائر وحركيتهم الديموغرافية خلال فترة تواجدهم بالجزائر ،سنجد أنه تميز بثلاث مراحل أساسية،وهي:

أ-النمو البطيء ،وذلك طيلة نصف القرن الأول الذي تلى الاحتلال ،أي ما بين (1830-1880)بأقل من 1%،وذلك لعوامل عدة سنفصلها آجلا ،وهي عموما (قلة فرص الزواج ،انخفاض نسبة الخصوبة ،وارتفاع نسبة الوفيات العامة ولاسيما وفيات الأطفال ...)،وما كان يرفع عدد السكان آنذاك لم يكن سوى عامل الهجرة ،والقدوم الكبير للأوروبيين خلال هذه الفترة.

ب-النمو المعتدل و المتوسط (حوالي 2%)للسكان خلال الفترة الممتدة ما بين (1880-1920)،مع حالات استثنائية ميزها الانخفاض خلال الحرب الكونية الأولى ،وهو أمر طبيعي نظرا لظروف الحرب .

ج-عودة التباطئ في الوتيرة السكانية ما بين (1920-1954)إلى دون 1%بسبب الظروف الاقتصادية (الأزمة الاقتصادية لعام 1929وتداعياتها على الساكنة الأوروبية في الجزائر)،وبسبب ظروف الحرب العالمية الثانية ،والانخفاض الشديد في عامل الهجرة.

وعموما فقد تحكم في نمو السكان خلال المرحلة الأولى عامل الهجرة الكبير، أما المرحلة الثانية فقد ارتبطبت كجميع حالات أي مجتمع بعامل ارتفاع الخصوبة العامة (أي نسبةالمواليد)

كشفت الاحصائيات العسكرية للسكان نهاية سنة 1833 بأن عدد المستوطنيين قد قدّر ب 7812 منهم 3483 من الفرنسيين ،و4329من باقي الأوروبيين ،وقد تطور هذا العدد ببطئ شديد ،لأنه كان مرتبطا بأهم عامل آنذاك كان رفع نسبة النمو الديمغرافي ،وهو الهجرة ،وليس عامل الزيادة الطبيعية الذي يستند في العادة إلى عاملين أساسيين ،وهما : ارتفاع نسبة المواليد وانخفاض نسبة الوفيات،وهو ما لم يتحقق خلال السنوات الأولى للاحتلال نظرا

[1]- Rey-Goldzeiguer (Annie) ,**Le Royaume arabe : la politique algérienne de Napoléon III (1861-1870)** SNED , Alger - 1977. et http://lire.ish-lyon.cnrs.fr/ESS/biographie.html

لانتشار الأمراض والأوبئة وقلة الرعاية الصحية ،وقساوة المناخ ،والحرب الطويلة ضد الأهالي . ...وغيرها من العوامل الأخرى.

وإذا اعتبرنا أن ارتفاع معدل الوفيات هو الشق الثاني في معادلة تراجع وتيرة السكان لأي مجتمع فإن المجتمع الأوروبي عانى كثيرا من ارتفاع معدلات الوفيات ،والتي تجاوزت 4%من مجموع السكان خلال العشريتين الأوليتين للاحتلال،لأسباب ذكرناها آنفا،غير أنه ،ومنذ عام 1859بدأت نسبة الوفيات بالانخفاض إلى دون 4%،حيث بلغت 3.1%ما بين(1863-1866)،إلا أن هذا الانخفاض لم يمس جميع الشرائح العرقية للمجتع الأوروبي ،إذ مس بشكل خاص الفرنسيين ،الذين كانوا الأوائل في الاستفادة المبكرة من العناية الطبية ،وخصوصا من حملات التلقيح المنظمة والمتواصلة ، في وقت الذي ظل فيه المستوطنون الأوروبيون يعانون من الأوبئة الفتاكة ،إذ اعتبر البروفيسور **" م.فالان" « M. Vallin »**أن الاحصائيات المتعلقة بنسب الوفيات وإلى غاية إحصاء عام 1876والتي تم جمعها من قبل الضباط الفرنسيين كانت تشوبها الشكوك وتنقصها النزاهة،ويُحسب ضمنها المتوفون المدنيون الذين توفوا في المستشفيات الأوروبية مع الموتى العسكريين،وهذا ماعد خطأ فادحا صعّب بدقة تحديد أعداد المتوفين من المستوطنين ،وجعل تحليلها عملا تنقصه الدقة[1]،ومع ذلك فإن التدفق المهاجرين الكبير على الجزائر كان يعوض ذلك النقص في الوفيات ،ويرفع من زياد السكان .

والجدول التالي يعطينا لنا لمحةعن نمو السكان الأوروبيين مابين 1833-1851.[2]

السنة	1833	1835	1837	1840	1845	1850	1851
الفرنسيين	3483	4888	6592	12032	46339	62044	66050
بقية المستوطنين	4329	6333	10178	14955	48982	63704	65233
المجموع العام	7812	11221	16770	26987	95321	125748	131283

[1]- Ricoux(René),**Démographie Figurée de l'Algérie ,Etude Statistique des populations européennes qui habitent l'algérie** ,G Masson éditeur , Libraire de l'académie de médecine ,paris- 1880,p-p146-148.

[2] - Boudin (Jean-Christian-Marc), **Histoire statistique de la colonisation et la population en Algérie, librairie de l'académie impériale de médecine** ,Paris- 1853,p03.

وإذا تتبعنا معدلات الولادات بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين ،فإننا نجدها متذبذبة وضعيفة على العموم خصوصا في العقود الأولى للاحتلال ،ولم تبلغ ذروتها إلا في عام 1862،وتستمر في الارتفاع إلى غاية 1867،أين تتعرض للانخفاض مرة أخرى سنوات 1867-1872وتعاود بعد ذلك للارتفاع مجددا ،لكن دون الوصول إلى الذروة التي بلغتها عام 1862[1] وعلى عكس ما شهدناه من تزايد مطرد للسكان الأوروبيين بمختلف أعراقهم -كمحصلة لعامل الهجرة وليس لارتفاع الخصوبة العامة- ، فقد شهد نمو السكاني للأهالي الجزائريين تراجعا حادا خلال العقود الأولى للاحتلال (1830-1870)،وقد كان لسياسة الأرض المحروقة ،وعمليات الإبادة الممنهجة التي تبناها بيجو وأسلافه من جنرالات الجيش الفرنسي2،وما تلاه من انتشار الكوارث الطبيعية التي حدثت خلال عقد الستينات أن تسببت في تراجع الانتاج الزراعي بشكل كبير ،بدء ا بظهور وباء الكوليرا في عام 1867و انتشارالمجاعة في عام 1868، ووباء التيفوس و الجذري ما بين 1869-1872. في الوقت الذي توسعت فيه أرزاق المستوطنين من أراض وأملاك وثروات ، دون نسيان انهزام القبائل الثائرة وتجريدها من أراضيها الزراعية ،كل ذلك وغيره تسبب في تراجع عدد السكان المحليين ،الذين سجل تعدادهم سنة 1872 ب 2,1 مليون شخص، و هو أقل بكثير من الرقم المقدر في بداية الاستعمار و البالغ 3ملايين نسمة ،الأمر الذي أدى بالمستعمِرين إلى التنبؤ بزوال السكان الأصليين واختفاؤهم القريب[3].

أما خلال فترة دراستنا ،والممتدة من 1871-1945 فقد عرف النمو السكاني للمستوطنين الأوروبيين تذبذبا كبيرا ،فبعد الانخفاض قبل عام 1871خلال العهد الإمبراطوري،شهدت المرحلة الممتدة بين 1872-1881نموا كبيرا للسكان ،وكان مرده الأساسي التدفق الكبير للمهاجرين الأوروبيين نحو الجزائر ،الذين بلغ عددهم 116.000طيلة الفترة المذكورة ، بمعدل 11000قادم كل سنة ، والذي كانت له علاقة مباشرة بالإجراءات المتخذة بعد هزيمة

[1]- Ricoux(René),op-cit,p115.

[2] - Maison (Dominique), « **La Population de l'Algérie** », Revue population,28 eme Année ,N°6, Edition de l'ined, Paris-1973,p,p1079,1080.

[3]-صونيا (العيساوي)،"**الواقع السكاني خلال فترة الاحتلال :مشروع الاستيطان في مواجهة الحيوية الديمغرافية للمجتمع الجزائري**" ،مجلة آفاق للعلوم،مجلة فصلية محكمة،المجلد الخامس ،العدد الثاني عشر ،جامعة زيان عاشور ،جوان 2018،ص165.

سيدان، ليتراجع النمو قليلا في بداية الثمانيات ،إلا أنه يعود للارتفاع مابين 1886إلى 1891بسبب أزمة الفيلوكسيرا.

في الحقيقة ظلت الهجرة العامل الأساسي لنمو السكان المستوطنين في الجزائر منذ الاحتلال و إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر ،غير أنه في الفترة الممتدة من عام 1872إلى غاية 1906،عرف النمو السكاني متغيرين أساسيين ،الأول: تراجع في نسب الوفيات مقابل ارتفاع في نسب المواليد،والثاني: تقارب نسب الزيادات في أعداد الأوروبيين في الجزائر بين عامل الهجرة وعامل الزيادة الطبيعية .فقد مثلت الهجرة 57 % من النمو العام للمستوطنين بين سنوات 1896-1901،و40%سنوات 1901-1906،و48.2 %سنوات 1906-1911[1].

وإذا ما أردنا أن نضع مقارنة بسيطة فيما يتعلق بالتطور السكاني العام مابين المستوطنين والاهالي ،فإننا نجد الأرقام صادمة ،إذ يقابل الاستقرار الملموس في نمو السكان الأوروبيين في الفترة الممتدة من 1871- 1920نموا بطيئا للسكان الأهالي بسبب تراجع أزمات تزايد الوفيات والاستقرار النسبي للولادات، فقد قدرت الولادات لدى الأهالي 01% خلال الفترة الممتدة ما بين (1881-1920)ماعدا الفترة الممتدة من 1911-1921،والتي انخفضت فيها النسبة إلى 0.38% .أما بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين وفي نفس الفترة فقد بلغت 3% ،وفي بداية القرن 20ثم عرفت نقصا طفيفا حيث قدرها ديمونتاس ب 2.93% لعشرية 1905-1914،وهو رقم مرتفع عما كان في فرنسا -التي كانت أقل من 02%- وأقل ارتفاعا من اسبانيا وإيطاليا [2].ومع ذلك فإن الفوارق تبدو شاسعة جدا في نسب زيادة المواليد بين الفئتين المدروستين ،(حدود 1%للأهالي-حوالي 3%بالنسبة للأوروبيين)، ويصبح بذلك كل ما تشدّق به أصحاب النظرية الاستعمارية ،وما رُوّج له في أن الزيادة التي مست السكان الأهالي مابين (1871-1920)كحدث ناتج عن نجاح السياسة السكانية الخاصة بالأهالي مجرد دعاية فاشلة وأكاذيب باطلة .

إن الباحث في وفيات الأوروبيين نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20،باعتباره أحد طرفي المعادلة الديمغرافية ،سيجد بأن المنحى العام للوفيات كان في انخفاض مطّرد، بسبب تراجع

[1]-كاتب (مصطفى)،المرجع السابق،ص243
[2]-المرجع نفسه،ص-ص174-179.

الأمراض الفتاكة والأوبئة، التي كانت العامل الأول في الفتك بحياة المعمرين،وفي مقدمتها الملاريا والحمى الصفراء والجدري ووفيات الأطفال الجدد،ذلك أن التقدم الذي أحدثه التلقيح والتطور الطبي المتواصل قد عمل على تخفيض نسبة العامة لوفيات المستوطنين وزاد من أمد الحياة ، وبفعل نتائجه انتقلت نسبة الوفيات من 3.2% قبل 1890إلى 2.3%في نهاية القرن وإلى أقل من 2% بين 1906-1910.والمفارقة الغريبة أن الحرب الكونية الأولى لم تكن عاملا لارتفاع الوفيات ،كما الحال بالنسبة للأهالي ،بل كان الانخفاض في الوفيات السمة الرئيسية التي ميّزت الحالة السكانية للمستوطنين خلال الحرب،بحيث وصلت نسبة الوفيات إلى 1.74%بين 1916-1920[1]بعد أن كانت تتجاوز 2%نهاية ق19،وساهم في نقل تعداد السكان من الأوروبيين من حوالي271000 نسمة سنة 1891إلى 306000سنة 1898 [2].

ومع كل الخسائر الديمغرافية الفادحة التي تكبدها المستوطنون ،كان الأمر أكثر وطأة على الأهالي المسلمين ،فالأوبئة والأمراض المستعصية ،والجفاف ،وسوء التغذية ،والقتل الجماعي للأهالي...وغيرها من عوامل تثبيط القفزة السكانية كانت أكثر حضورا وفتكا بالأهالي ، وتمّكنت من الحد من الانتقالية الديمغرافية ،فقد تقلّص عدد السكان المسلمين في عشرية واحدة –وهي طبعا أسوء عشرية مرّت على الجزائر "الستينات "-بأكثر من 600ألف نسمة ، إذ قدرت نسبة الزيادة السكانية للأهالي سنة 1861ب2،7%لتنخفض إلى 2.1%سنة 1871،بينما كانت الخسارة الأكبر للسكان ما بين 1866-1871،حيث فقد الأهالي بسبب المجاعة أكثر من نصف مليون من البشر[3].

بعد مطلع القرن العشرين أصبح النمو الطبيعي العامل الأساسي المتحكم في النمو السكاني للمستوطنين بمعدل 1%، مع نقص في أعداد المهاجرين .بل كانت حصيلة الهجرة سلبية، وذلك بسبب تاثيرات الحرب .أما في الفترة الممتدة من 1921-1954 ،فقد عرف نمو السكان الأوروبيين تراجعا نسبيا (إلى ما يقارب 0.7%)،ورغم أنه لازال ضعيفا ،إلا أن ميزته هذه المرة أنه كان مرتبطا بالزيادة الطبيعية بشكل كبير ، (254000أوروبي هم من المواليد

[1]- المرجع نفسه ،ص،ص191، 192.

[2] - Zimmermann(Maurice), « **Colonies françaises. Le recensement de l'Algérie. Tunisie** ». In : Annales de Géographie, tome 6, N°27, Armand Colin , France-1897,p 282.

[3]- Kamel(Kateb), « **Le Bilan démographique de la conquête de l'Algérie (1830-1880)** » ,In histoire de l'Algérie A la période coloniale,(sous la direction de Abderrahmane Bouchène et Autre) ,op-cit ,p137.

الجدد)،وليس بظاهرة الهجرة الاستيطانية ،التي تباطأت بفعل عوامل عدة ،ولعل أبرزها صعوبة الحصول المجاني على الأرض،مما يفسر سلبية في رصيد الهجرة ،والتي بلغت في بعض السنوات 14000مهاجر جديد،أي بخسارة 61000 لمجموع المرحلة (1921-1954).

وبالمقابل، فقد ارتفعت نسبة الخصوبة العامة ،إذ بلغت نسبة 3.73%مابين (1901-1905)، وتبقى مرتفعة إلى غاية نهاية العشرينات ،بسبب التحسن النسبي في الخدمات الصحية وتعميمها ، وقد كانت العناية الطبية داخل المشتشفيات وإدخال التجهيزات الطبية الحديثة وارتفاع القدرة الاستيعابية للمستشفيات دورا في ذلك، إلى جانب نجاح حملات التطعيم ضد الأمراض المعدية ، غير أن هذه الحالة لم تستمر طويلا،بحيث عادت نسبة الخصوبة للانخفاض مرة أخرى ، بسبب الأمراض الخطيرة والأوبئة التي انتشرت في المجتمع الجزائري الأهلي بصفة خاصة ، وأودت بحياة الآلاف من السكان الجزائريين سنوات الحرب الكونية الثانية،وقبلها الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالاقتصاد الكولونيالي .

وعلى أية حال، فإن نسبة النمو الطبيعي في الفترة الممتدة من 1936 إلى 1948 قد بلغت 1.8%بالنسبة للأهالي[1]،أما بالنسبة للمستوطنين فقد كانت ما بين 2%إلى 2.5%،إذ بلغ مجموع السكان العام سنة 1948ب922272نسمة بعدما كان العدد الكلي سنة 1936قد قدّر ب964013[2]. ففي تقريرٍ خاص باللجنة العليا الاستشارية للسكان والأسرة أعّد سنة 1957، أعطى" **ج.براي**"« « **J Breil**تحليلا مقارنا للولادات والخصوبة بين السكان المستوطنين وسكان فرنسا،وأشار إلى تراجع الولادات لهذه الفئة من السكان المستوطنين والتي انتقلت من 2.2%بين 1946-1949إلى 1.9%سنة 1954[3] .

والجدول الأتي يوضح عوامل تطور السكان الأوروبيين (الهجرة والزيادةالطبيعية) [4]:

[1]-بوقصاص(عبد الحميد)،**تطور السكان في المجتمع الجزائري وثنائية (الريفي –الحضري)**،مجلة البحوث والدراسات الانسانية المجلد الثاني ،العدد الرابع ،جامعة 20أوت،سكيكدة،2009ماي ،ص291.

[2] - Augustin(Bernard) **Le recensement de 1936 dans l'Afrique du nord** ,Annales de Géographie, tome. 46, N°259, Armand Colin ,France-1937. p85

[3]- كاتب (مصطفى)،المرجع السابق،ص390.

[4]-نفسه ،ص،ص328، 329.

تاريخ الإحصاءات	عدد المستوطنين	المجموع	زيادة طبيعية	الهجرات
1921	971370	+41989	+38041	3948+
1926	833359	+48225	+34865	13360+
1931	881584	+64429	+40423	24106+
1936	946013	-23741	+80359	104100-
1948	922272	+62000	+60000	2000+

إن الإحصائيات المتتالية خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - رغم ضعف مصداقيتها قد بينت لنا واقعا سكانيا جديدا ،وهو التزايد المحسوس للسكان الأهالي ،حيث انتقل من 4711276من الأهالي [1]إلى مايقارب5 مليون في إحصاء 1921ثم إلى 6.2 مليون ن سنة 1936،ليصل إلى 8.4سنة 1954،وانتقل معدل الخصوبة من 01 %سنة 1920 إلى 2%سنة 1930،ثم انخفض إلى 1.7% في المرحلة مابين 1936-1948متأثرا بظروف الحرب (المجاعات والأوبئة)،وبعد سنوات 1950ارتفع ليصل إلى 3%سنة 1954[2]ولعل مرد كل تلك الزيادة هوالتحسن العام في جميع النواحي الاجتماعية والصحية الذي مس جميع سكان المستعمرة ،خصوصا نهاية ق19 وبدايات القرن 20 . والرسم البياني التالي يوضح لنا مقارنة لنسب الوفيات بين الأهالي والمستوطنين في الفترة المحددة ما بين 1885-1955

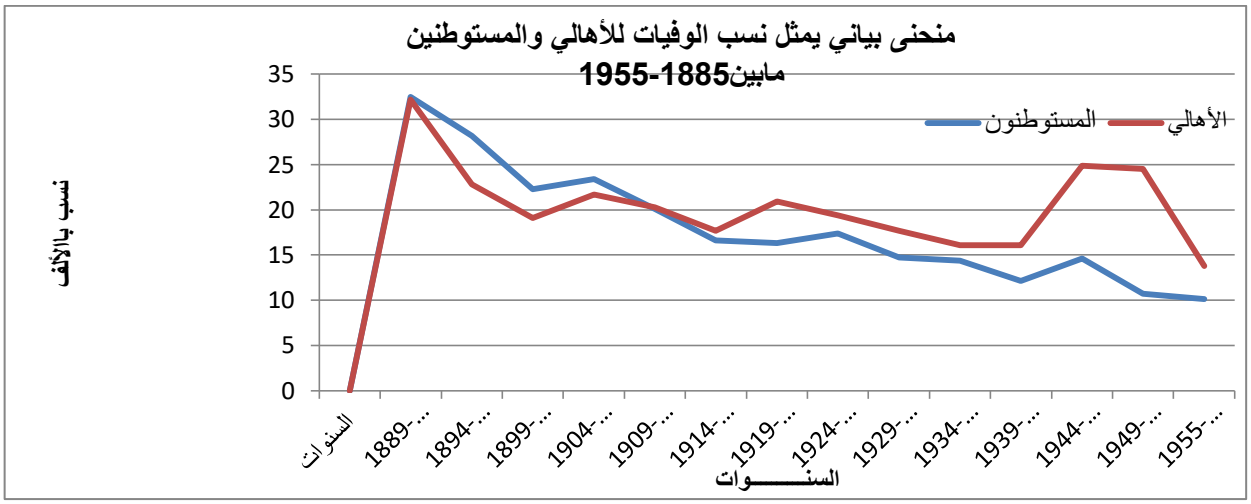

[1]- Zimmermann(Maurice), **Le recensement de 1911 en Algérie**. Annales de Géographie, tome 21, N°116, Armand Colin , France- 1912, p,p, 184,185.

[2]- كاتب (مصطفى)،المرجع السابق،ص،330.

ب-وفيات الأطفال كعامل مؤثر في تناقص النمو السكاني خلال القرن التاسع عشر

اشتهر المجتمع الأوروبي بقلة الزواج –مثلما سنرى لاحقا-و من البديهي أن تنتج عن مشكلة العزوف عن الزواج في المجتمع الكولونيالي مشكلة أخرى ، وهي تراجع نسب إنجاب الأطفال والمواليد الجدد من الزواج الشرعي ،وارتفاع نسب الأطفال غير الشرعيين ،ومع ذلك فإن تراجع نسب المواليد الجدد هدد بنسف كل الجهود المبذولة لتشكيل مجتمع أوروبي ينافس المجتمع المسلم على البقاء .وقد مثلت هذه المشاكل الاجتماعية مصدرا للقلق في المستعمرة [1]،وبلغ معدل المواليد مابين 1856 و 1872 نسبا ضعيفة جدا، وكانت حصة الأوروبيين مولود في الجزائر لكل عائلة خلال العقود الأولى للاحتلال ،وهو رقم ضعيف لا يفسره سوى ازدياد وفيات الأطفال الرّضع،ولم يتضاعف إلا خلال العقود الأولى للقرن 20 ليصل إلى معدل اثنين إلى خمسة أطفال لكل أسرة أوروبية[2].

والواقع فقد أشارت التقارير الطبية بأن أعلى معدل لارتفاع نسبة وفيات الأطفال الأوروبيين من الولادة إلى سن الخامسة كان ما بين (1868-1872)حيث ارتفعت من 7.5%سنة 1868إلى 8.9%سنة 1872،بسبب الانتشار الرهيب لداء الحصبة بين الاطفال الرضع.[3].وفي تقرير للأخوات المنتميات لجمعية "الرحمة La miséricorde" التبشيرية تتواجد بعض الأرقام الرهيبة عن حالات وفيات الأطفال في الجزائر للأهالي والأوروبيين معا،وهذا ماحمله الجدول التالي:[4].

[1] - Sessions(Jennifer) ,op-cit,p116.
[2] -Ibid,p118.
[3] - Lucet(Marcel)**, Colonisation européenne De L'Algérie, Légitime Défense** ,Challamel Ainé, libraire – Editeur,Paris,1863,p15.
[4] - Ibid,p07.

السنة	عدد الأطفال المستقبلين	عدد الأطفال المتوفين في المركز	النسبة المئوية
1866	63	48	%76
1868	46	31	%67
1870	41	33	%80
1871	43	28	%65
1872	58	37	%63
1873	46	26	%56
1874	39	35	%89

والجدول التالي يوضح لنا تطور نسب المواليد والوفيات ما بين(1922-1935)[1]

السنـــوات	المواليـــد في الألف		الوفيـــات في الألف		نسبة الزيادة	
	أهالي	مستوطنون	أهالي	مستوطنون	أهالي	مستوطنون
1922	129	21	104	14	%15	%7
1926	147	21	82	13	%65	%8
1930	168	22	79	13	89	9
1935	214	20	106	13	108	7

إن أهم ما يمكن استخلاصه من ملاحظات من الجدولين ،مايلي:

أولا:الارتفاع العام للمواليد والوفيات للأهالي معا،وفالبرغم من الزيادة الكبيرة للسكان إلا أن نسبة الوفيات كانت مرتفعة رغم التطور الطبي والتحسن العام لأوضاع الأهالي

ثانيا: استقرار نسب المواليد والوفيات ،وهو ماشكّل توازنا في وتيرة السكان بشكل عام

غير أن هناك فروق كانت تظهر أيضا في نسب الوفيات بين الجنسين (الإناث-الذكور)،حيث يلاحظ من خلال الاحصائيات المقدمة أن فيات الذكور أكثر عددا من وفيات الإناث.ولهذا التفاوت مبررات وأسباب متعددة. فقد حاول علماء الديمغرافيا والاجتماع الكولونياليين تقديم

[1]- Mesnard (G), « **La régression relative des Européens en Algérie, In Congrès international de la » population** , In Congrès international de la population, Démographie de la France D'outre-mer ,Actualités scientifiques et industrielles ,N°715,Volume 6,Hermann et Cie Editeurs, Paris ,1937,p12.

تفسيرات لظاهرة ارتفاع الوفيات لدى الذكور مقارنة بالإناث ،ففي البحث الذي قدمه الدكتور" **فولي**" و الدكتور" **مارتان**" **D^rs L. E. Foley et V. Martin,** والموسوم ب"**التاريخ الإحصائي لاستعمار الجزائر** " **Histoire statistique de la colonisation algérienne**" نجد بأن الأوروبيات كن أكثر تأقلما مع الظروف المناخية والطبيعية من الرجال، وأن قدرتهن على تحمل الأمراض وظروف العمل الشاقة كانت أقوى من الرجال الذين افتقدوا لميزة الصبر،كما تزيد أكثر عند فئة المزارعين ،وأن السبب الرئيسي لوفياتهم يعود إلى الإجهاد والتعب الناتج عن الأعمال الزراعية الصعبة والبيئة الحارة والقاسية في حين ترجع الباحثة "**كلودين غودار**" أسباب ارتفاع وفيات الذكور يعود إلى الإفراط في شرب الكحول خصوصا أثناء العمل في الخارج خلال الأيام الحارة بدل شرب المياه،بينما كانت النساء أقل عرضة للوفيات المرتبطة بالإفراط في شرب الكحول[1] .

والجدول التالي يظهر الفوارق في اختلاف نسب الوفيات لدى الجنسين (سنتي1876-1891)[2]

السنـــــــة	سنـــــة 1876	سنـــــة 1891
الإجمالي العام للذكور	170132	283732
الإجمالي العام للإناث	157146	250968
العدد الإجمالي لوفيات الذكور	5704	7523
العدد الإجمالي لوفيات الإناث	3869	6351
النسبة العامة لوفيات الذكور	%33.52	%32.57
النسبة العامة لوفيات الإناث	%24.62	%25.30

مما سبق نخلص إلى أن الزيادة العامة لوتيرةالسكان كانت متوسطة ،فالارتفاع الكبير للمهاجرين كان يحده من جهة أخرى كثرة الوفيات العامة ،وخاصة لدى الأطفال الجدد ،وهو ما شكل توازنا في التطور العام للسكان الأوروبيين ،وبالرغم من ذلك فقد تضاعف عدد الأوروبيين حوالي مائة مرة خلال قرن وثلاثين سنة من الزمن (حوالي الألف سنة

[1] - Robert - Guidard (Claudine), **Des Européennes en situation coloniale . Algérie 1830-1939**, Publications de l'Université de Provence, coll. « Le temps de l'histoire », Aix-en-Provence, Marseille- 2009,p74.
[2]-Ibid,p73.

1830إلى حوالي1مليون ن سنة 1962)،بينما كان عدد الأهالي الجزائريين قد تضاعف مرتين فقط خلال نفس الفترة المذكورة (حدود3ملايين نسنة 1830إلى حوالي 9ملايين نسنة 1962)

2- الكثافة العامة والتوزيع السكاني للمستوطنين الأوروبيين ما (1870-1945)

نظرا لتمركز المستوطنين في المناطق المدنية ،وبالضبط في مراكز المدن الكبرى،وفي النقاط الاستيطانية المشيّدة خصيصا للأوروبيين،فإنه تختلف الكثافة من منطقة لمنطقة،حسب توزيع الأوروبيين ،كما اختلفت من سنة لأخرى ،ولذا فإنه لا يمكن تحديد نسبة ثابتة . وعموما فقد قدرت الكثافة السكانية العامة بالجزائر ب 31.6ن في كم 2 الواحد سنة 1936بعدما أن كانت 23.8سنة1931،لكنها تختلف من منطقة لأخرى ،ففي مقاطعة الجزائر بلغت سنة 1936ب41.6ن بعدما أن كانت28.2نسمة عام 1931 ،وفي قسنطينة 31.1نسمة في كم المربع الواحد بعدما أن كانت 28.3،أما في وهران فقد انتقلت من 21.3نسمة في كم 2إلى 24.1نسمة في الكم المربع الواحد[1] .

و إذا عدنا إلى بدايات التواجد الاستيطاني، وذلك نهاية 1851وبداية عام 1852كان توزيع المستوطنين في العمالات الثلاث غير متساويا وقليلا لا تتجاوز كثافتهم الإجمالية5% بحيث كان معظم المستوطنين يتوزعون في عمالتين أساسيتين :الجزائر ب57081نسمة ، ووهران ب46820نسمة،أما قسنطينة فقد كان عدد السكان يكاد يكون نصف عمالة الجزائر ب27382[2]. وهو عدد ضئيل آنذاك نظرا لاستمرار المقاومة في الإقليم ، أما إذا أخذنا توزيع السكان داخل عمالة قسنطينة كمثال فإننا نجد بأن عدد الأوروبيين كان يتوزع كالتالي: سكان المدينة ب3.874 ن، وسكان ضواحي المدينة:588ن،مما يجعل من إجمالي السكان يصل إلى4.462ن.أما تعداد السكان الأهالي فقد قدر كالآتي:سكان المدينة (بما فيهم اليهود):23.219ن،وسكان الضواحي ب8.174،ليصل المجموع إلى31.393نسمة[3].

[1] - Hoffherr (René) et Paye(Lucien), « **Évolution du peuplement en Afrique du Nord » ,**In Congrès international de la population, Démographie de la France D'outre-mer ,Actualités scientifiques et industrielles ,N°715,Volume 6,Hermann et Cie Editeurs, Paris-1937,p06.

[2] - Boudin (Jean-Christian-Marc),op-cit,p08.

[3] - Mercier (Ernest), **Histoire de Constantine** ,J. Marie et F .Biron, Imprimerie –Editeurs, Constantine -1903,p92.

أما إذا أردنا توزيع السكان حسب العرق فإننا نجد بأن الفرنسيين استقروا في أغلب المناطق غيرأن أغلبهم ظل يتمركزفي مقاطعة الجزائر ،في حين كان معظم الاسبان يتمركزون بشكل أكبر في مقاطعة الجزائرو إقليم وهران،في حين كان المالطيون والطليان يتمركزون في الشرق.ويمكن أن نأخذ مثالا لتوزيع السكان حسب العرق لسنة 1858في الجدول التالي:[1]

	مقاطعة الجزائر	قسنطينة	وهران	المجموع الكلي
الفرنسيون	51،231ن	26،422ن	29،277ن	106،930ن
الاسبان	23،365ن	1،538ن	21،342ن	46،245ن
الإيطاليين	3،901ن	4،522 ن	1،998ن	10،421ن

أما بعد عام 1871، فبالرغم أن عقد السبعينيات كان عقد الاستيطان الريفي بامتياز، إلا أن سكان الجزائر من المستوطنين كان أغلبهم حضريون ،ففي عام 1872 كانت نسبة سكان المدن تقارب إلى 60% ثم ارتفعت إلى 65.4 % سنة 1910 لتصل نسبتهم إلى 71.4 % نسبة 1926 فيما كانت نسب الريفيين من المستوطنين لم تتجاوز 28.6%،و إذا ما عقدنا مقارنة مع توزيع السكان في فرنسا خلال نفس الفترة سنجد بأن سكان المدينة كان يشكل 31 % سنة 1871 و ب 44 % سنة 1911 و 47 % سنة 1926 ،و لم تشهد نسبة الحضر ارتفاعا في فرنسا إلا بعد عام سنة 1931 لتقارب 52%[2] ،مما يعني بأن أوروبي الجزائر هم من فئة الحضريين ،عكس سكان فرنسا الذين كانوا أغلبهم من ساكنة الريف.

أما خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية لثانية (1945-1954)فقد كانت المدن تضم حوالي 80 % السكان من الأوروبيين، بنسبة79.4%من سكان المدن ويبقى خمس السكان من الريفين ،في حين شكّل الأهالي سوى 18%من سكان المدن ،وبقي منهم حوالي 82 %من السكان يستقرون في المناطق الريفية ،وهي طبعا مناطق جبلية أو صحراوية جرداء تفتقر لأدنى شروط الحياة الكريمة[3] .

[1] - de Girardin (Emile),**la civilisation de L'Algérie** ,Imprimerie Serrières- paris ,1860,p14.

[2] - Robert - Guidard (Claudine), op-cit,p94.

[3] -Despois(Jean), « **La répartition de la population en Algérie »** , Annales .économies sociétés ,civilisations , revue trimestrielle,N°5,15eme Année, Éd. de l'École des hautes études en sciences sociales ,Paris-1960,p922.

وفي الواقع فإن السكان الحضريين من أصل أوروبي انتقل من 620000سنة 1926إلى 792000سنة 1954،بينما لم يشكل السكان الأهالي سوى 17.3 %من مجموع الأوروبيين سنة 1954،وقد شهد نمو المدن تطورا كبيرا لإعداد المستوطنين خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،ولم يعرف الانخفاض إلا في الفترة الممتدة مابين 1936-1948بأقل من 2 %أي بنسبة سلبية (-0.6%)،بينما عرف النمو الحضري للأهالي في ذات الفترة زيادة بلغت 1.7% ليصل عددهم سنة 1954 ب1642000ن[1]. ولما كانت الصناعة كانت قطاعا شبه منعدم ،فإن معظم النشاط الاقتصادي للسكان ينحصر في القطاع الزراعي،ولذا من المهم دراسة توزيع السكان في الريف لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالنشاط اليومي للانسان .ففي سنة 1877تم احصاء 46مدينة منها 15مدينة تقع على ساحل البحرالمتوسط و31مدينة في الداخل،و504مركز استيطاني في قرية و مدينة صغيرة مثل المستوطنون فيها ثلث السكان الاجمالي ،حيث قدرت الكثافة العامة للسكان الريفيين سنة 1877 ب14ن/كم .

والجدول التالي يوضح تطور الكثافة العامة للمستوطنين في الريف ما بين 1863-1877[2].

سنوات	رجال	نساء	أطفال	المجموع	مساحة المزراع الأوروبية	الكثافة السكانية الزراعية
1863	42.313	28.629	30.867	101.809	5194كم2	19.60ن/كم2
1875	44.703	33.717	40.432	118.852	8.777كم2	13.54ن/كم2
1876	46.368	34.541	42.395	123.304	9.846كم2	12.52ن/كم2
1877	57.607	38.481	47.261	143.349	10.311كم2	13.90ن/كم2

جدول يبين تطور السكان الريفيين ومساحة الأراضي للمستوطنين والأهالي المسلمين [3].

[1]-كاتب (كمال)،المرجع السابق،ص367.

[2] -Ricoux(René),op-cit,p08

[3]-Ibid,08.

	عدد سكان الريف		مساحة الممتلكات الزراعية		كثافة سكان الريف	
السنة	المستوطنون الأوروبيون	الأهالي المسلمين	المستوطنون الأوروبيون	الأهالي المسلمين	المستوطنون الأوروبيون	الأهالي المسلمون
1876	123.304	2.136.424	9.846كم2	175.927كم2	12.5ن	12ن
1877	143.349	2.277.016	11.311	158.235كم2	14ن	14ن

من خلال أرقام الجدول يتبين لنا بأن عدد سكان الأرياف من الأهالي المسلمين ارتفع من 2.136.424إلى 2.277.016نسمة ،أي بزيادة قدرها 140.592نسمة ،مقابل انخفاض معتبر في مساحة الأراضي الزراعية ،والتي كانت 175.927كم2 سنة 1876إلى 158.235 كم2في سنة 1877،أي بنقصان قدر 17692كم 2،وهي قطعا انتقلت لصالح المستوطنين ،الذين انتقل عددهم من 123.304نسمة سنة 1876إلى 143.349نسمة سنة1877بزيادة قدرت ب 20.045نسمة ،مما يدل على أن السياسة الاستيطانية كانت هدفها استئصال أمة بكل مقوماتها الاقتصادية،وزرع عرق جديد على الأرض المصادرة.

السنة	سكان المدينة	سكان المستوطنات الريفية
1886	297.305	517.167
1906	441.499	233.431
1926	591.908	236672
1931	641.291	234.345
1936	709.220	320.311
1948	708.670	201.009
1954	760.402	223.629

جدول يمثل تطور عدد المستوطنين في المستوطنات الريفية والمدينة (1886-1954[1])

[1] - Gouvernement général de l'Algérie, **Annuaire statistique de L'Algérie**, volume 8, Edition S.S.G, Alger-1955,p19.

والحق فلم يغيّر الاستقرار المكثف للمستوطنين في المدن الجزائرية من خريطة توزيع السكان في الجزائر فحسب،بل امتدت تأثيراته إلى أنماط العيش والنشاط الاقتصادي للسكان المحليين،فقد تحوّل نمط الاستقرار السكاني للأهالي من مجتمع حضري يعيش في المدن الجزائرية ،وأغلبية من البدو ،وشبه بدو مستقريين في الأرياف الموجودة في المناطق السهلية ،إلى سكان يعيش عشرهم في المدن ،وبقية السكان في الأرياف الجبلية[1].

3- التركيبة السكانية العامة للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر

- **حسب الجنس** مثلما كان توزيع السكان حسب المناطق متفاوتا ،كان الأمر كذلك بالنسبة لتوزيع تعداد الذكور والإناث داخل المجموعات الأوروبية الساكنة في الجزائر ، إذ نجد بأن الإناث الفرنسيات أقل عددا من المجموعات الأخرى ،إذ قدرت نسبتهن عام 1841 ب 585 أنثى مقابل 1000ذكر ، أما تعداد الإناث في المجموعات الإثنية الأخرى "إيطاليين ، مالطيين اسبان..." فقد قدرت ب626مقابل 1000رجل،غير أن تعداد الإناث في المجموعة الفرنسية سيشهد تزايدا انطلاقا من عام 1889بسبب **"قانون التجنيس الأوتوماتيكي "**.في حين كن الإيطاليات أقلهن عددا مقارنة بباقي الأوروبيات ، حيث قدرت نسبتهن ب 592مقابل 1000رجل[2].

وفي سنة 1851 بلغ التعداد العام للنساء الأوروبيات في الجزائر 38047،بينما بلغ عدد الذكور 53351،مما يعطي انطباعا على دوام الأفضلية التامة لصالح الذكور،بينما بلغ عدد الأطفال 39885.وإذا ما وضعنا مقارنة للتعداد العام للإناث والذكور للأوروبيين في الجزائر مقارنة ببلدانهم الأصلية فإننا نجد بأن الأمر معكوسا بفرنسا ،فبحسب إحصاء 1851 دائما بلغ عدد الذكور 17792869،بينما كان عدد النساء 17988759،والأمر مشابها لخمسة عشر دولة مستها عمليات الأحصاء حسب الباحث" **بودان**"[3].

وعلى العموم ،فمن عام 1830إلى عام1876كان تعداد الذكور في أغلب السنوات يتجاوز تعداد الإناث،ففي كل عمليات الاحصاء(1865-1866-1876) التي سبقت هذا التاريخ كان

[1] -kamel (Kateb), « **La population et l'organisation de l'espace en Algérie »** ,Revue l'espace géographique , Tome 32,Berlin, 2003,p312.
[2] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p83.
[3] - Boudin (Jean-Christian-Marc),p,p06,07.

يحتسب عدد الجنود الفرنسيون مع الذكور،مما يرجح غالبا نسبة الذكور،لكن بعد ذلك تغيرت طرق الاحصاء،باستبعاد إحصاء الجنود ضمن السكان الأوروبيين ،وذلك في الفترة الممتدة ما بين (1891-1948)،وأضحى تعداد الإناث يقارب ،بل يتجاوز أحيانا تعداد الذكور في مطلع القرن العشرين وإلى غاية 1948[1] .ومن الطبيعي أن نجد في بلد جديد في طريق التكوين والاستيطان ،أن التقسيم السكاني حسب الجنس غير متوازن على الإطلاق ،ومعكوس عما هو موجود في الدول الأوروبية ،حيث نلاحظ أفضلية الذكورعلى الإناث،ففي سنة 1872 قُدر عدد الذكور بالنسبة للفرنسيين 67302مقابل 58939إناث ، أما باقي الأوروبيين فقد قدر عدد الذكور ب 95952مقابل 53163من الإناث، وكل ذلك يفسر بكون المستوطن كان يهاجر لوحده في معظم الأحيان،وقد بدأ هذا المجال الواسع في التقلص مع مرور الزمن إلى حد إحداث شبه توازن في الجنسين نهاية القرن 19، بسبب تغيير نمط الهجرة من الفردية إلى نمط الهجرة بالعائلية "الجماعية"[2] . وتبين إحصائيات عام 1931أرقاما عن توزيع الجنسين حسب العمالات مثلما هي في الجدول [3]

	عدد الذكور	عدد الإناث	نسبة الإناث في 1000
مقاطعة الجزائر العاصمة	109504	112803	1033
مقاطعة وهران	63810	69698	1092
مقاطعة قسنطينة	25008	24426	978
المجموع	198022	206927	1044

انطلاقا من أرقام الجدول نقف على حقيقة عامة،وهي تفوق العنصر النسوي على الرجالي في المجتمع الأوروبي ،وهو ما عُد سابقة لم تكن معروفة في مجتمع ميزته الرجولية،وأصبحت واقعا شهده هذا المجتمع منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى غاية استقلال الجزائر ،ويزيد تفوق العنصر النسوي كلما اتجهنا نحو الشمال وفي المدن الكبرى.

وإذا احتسبنا النسبة المئوية سنجد أن نسبة الذكور بعد مرور مائة سنة من الاحتلال شكلت فقط 48.90% بينما تصل نسب الإناث 51.09%من المجموع العام للسكان .وإذا ما تعمقنا أكثر في

[1] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p,p82,83.
[2] -Ricoux(René),op-cit,p,p19,20.
[3] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p83.

المنحى العام لتوزيع السكان خلال الوجود الأوروبي في الجزائر ، سنجد أن الإناث منذ مطلع القرن وإلى غاية 1948كن أقل عددا من الذكور بشكل عام في القطاع القسنطيني وفي الصحراء ، بينما كن أكبر عددا من الذكور في مقاطعة وهران والجزائر العاصمة ،ولعل زيادة الذكور في المناطق الصحراوية لها ما يبررها كون أن الصحراء وإلى غاية مطلع القرن العشرين ظلت ميدانا للمقاومة الوطنية توزع فيها الذكور ،وطبعا من أفراد الجيش الفرنسي وبيئة طاردة لاستقرار العنصر النسوي . وهنا نجد ديمانتيس لا يوافق تماما الإحصاءات المقدمة من قبل إدارة الاحتلال،والتي تظهر دوما تفوقا للعنصر الذكوري على النسوي،لأن الإحصاء غير عادل حسب نظرته ، على اعتبار أن الإدارة كانت دوما تدخل ضمن دائرة عدها للسكان عناصر الجيش الفرنسي ،وهم في أغلبهم من الذكور،والذين قدروا عام1896 ب69843جندي،. وبالرغم من ذلك فإن تعداد النساء مع مطلع القرن 20أصبح يضاهي ويماثل تعداد الذكور بالرغم من احتساب الجنود مع الرجال في التعداد العام.(انظر الرسم)

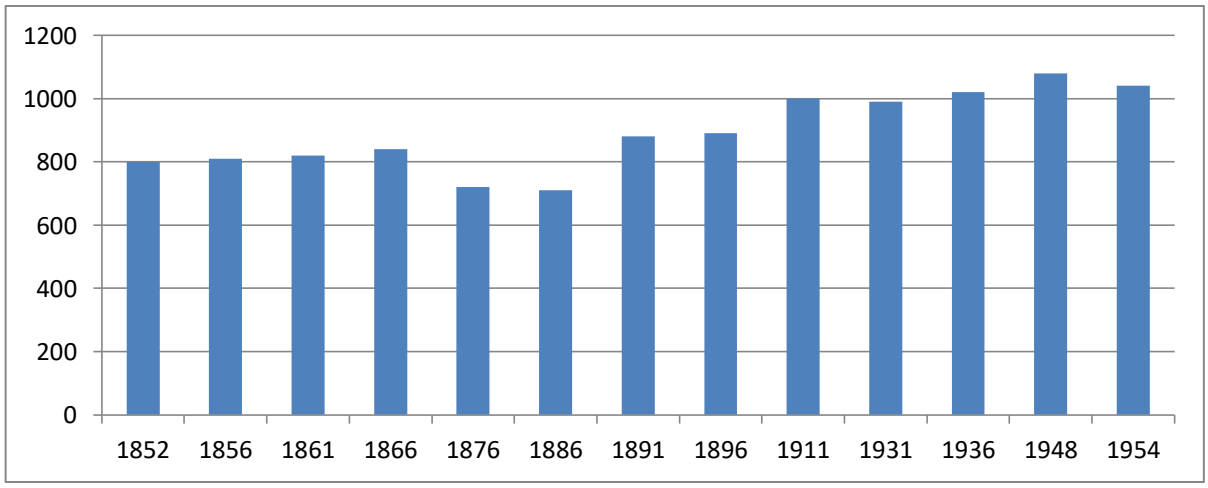

ومن الصعب بمكان تحديد في أي تاريخ بالضبط كانت النساء الأوروبيات أكثر من الرجال الأوروبيين ، غير أن المؤكد أن الإحصائيات المقدمة خلال فترة ما بين الحربين تظهر أن هناك توازنا وتقاربا بين النساء والذكور،مع أفضلية للنساء ،ففي إحصاء عام 1936تفوقت النساء في المجتمع الأوروبي على العنصر الذكوري ب1031أنثى مقابل 1000ذكر ،وهو ما عد سابقة في تاريخ إحصاء الجنسين ،كما اعتبر انقلابا في تركيبة المجتمع من الأفضلية للذكور خلال القرن

التاسع عشر ثم التوزان قبل الحرب العالمية الأولى (999أنثى مقابل 1000ذكر سنة 1911)إلى الأفضلية النسبية للإناث خلال السنوات الأخيرة للوجود الأوروبي في الجزائر[1] .

-حسب فئات الأعمار

أما بالنسبة لفئات الأعمار،فقد بيّن الاحصاء الذي أجري في 31أكتوبر 1954بأن السكان الأوروبيين أقل شيخوخة وأكثر فتية من سكان فرنسا ،فالسكان الأقل من 20سنة يمثلون 35.4 %من مجموع السكان مقابل 30.5% بفرنسا ،بينما نسبة البالغين 65سنة فأكثر فهم 7.8% في الجزائر مقابل 11.5% بفرنسا،بينما الفئة العمرية من 20إلى 65 سنة تصل نسبتها 56.8 % ،فالمعمرون أقل سنا وأكثر شبابا من المجتمع الفرنسي،وأقل شيخوخة مقارنة بالأهالي.

حسب النشاط الاقتصادي

ارتفعت الفئة النشطة في المجتمع الأوروبي حتى عام 1948 ،وذلك بسبب التقدم الإقتصادي الذي مس المستعمرة إلى 332.000عامل ،يشكل العمال الرجال 259000عامل ،بينما شكلت النساء العاملات من الأوروبيات 73000عاملة . كما بلغت نسبة التشغيل للعمال الأوروبيين نظيرتها التي في فرنسا ، وأضحت فرص العمل متوفرة خصوصا في مجال الخدمات ،كالإدارة والتعليم ...أو الصناعة (مجال إدارة المعامل)،أو في الزراعة ذات التقنيات الحديثة (137عامل يشتغل في الزراعة من كل ألف عامل)،وهي بالطبع تلك التي احتكرها المستوطنون،وظلت مهنا ميسورة لهم،ليترك الجهد العضلي فيها و الأعمال الشاقة للأهالي [2].والجدول التالي يوضح لنا توزيع العمال الأوروبيين حسب النشاط الاقتصادي[3]

المهنة	الصيد /الغابات	المناجم	الصناعة	التجارة	الجيش والأمن	الخدمات(الصحة ،التعليم،الأعمال الحرة..)	المواصلات العامة
العدد لكل 1000عامل	23	15	393	126	72	282	89

[1] - Ibid,p66.
[2]- Louis (Henry), « **Recensement de L'Algérie en 1948 »**, Revue population, N°4 ,7eme Année, Institut national d'études démographiques , Paris -1952,p737.
[3] -Ibid,p,p737,738.

4- دور الإحصاء السكاني في تنظيم الوتيرة السكانية في الجزائر

إن جمع المعطيات الإحصائية خلال فترة الاحتلال الفرنسي سارت بطريقة منتظمة ،ولا سيما في أواخر القرن التاسع عشر،وقد مست مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.وقد كانت غايتها المبدئية هي تزويد سلطة الاحتلال بالمعلومات الكافية عن سير العمليات الحربية وتقدم سيرورة التعمير والاستيطان في الجزائر.إذ تكلفت المصالح العسكرية بتلك المهمة في البداية ، وتركزت على إحصاء أعداد الوافدين من الأوروبيين إلى الجزائر ،وأعداد الزيجات ،الطلاق ، المواليد ،الوفيات ...،غير أن متطلبات الحرب جعلت من هذا العلم يتحول إلى دراسة وجمع المعلومات والمعطيات الرقمية عن الأهالي الجزائريين[1] .

وإذا كانت عميات الإحصاء المتعلقة بالأوروبيين قد تكفل بها الجيش من جهة،والمصالح المدنية التابعة لحكومة الاحتلال من جهة ثانية،فإن الجزء الأكبر من عملية الإحصاء المتعلقة بالأهالي في النصف الأول للقرن 19على الأقل قد تكلفت بها المكاتب العربية. وكان أول إحصاء عام للمعمرين قد بدأ سنة 1836،أما بالنسبة للأهالي فقد تأخر إلى غاية ظهور المكاتب العربية خلال الموسم (1844-1845)،وتكرر سنوات1866،1856.ثم استمر بشكل دوري ليمس المستوطنين والأهالي معا كل خمس سنوات في معظم الحالات[2].

وانطلاقا من إحصاء 1856تم اعتماد طريقتين لإحصاء الذكور والإناث ،الأولى تعتمد على تعداد السكان من غير الأطفال(فصل إحصاء البالغين عن الأطفال) ،والثانية اعتمدت على الإحصاء العام للسكان حسب الجنس(فصل إحصاء الإناث عن الذكور) ،وهذه الطريقة المثلى التي سوف تعتمد في وقت لاحق.غير أن الطريقتين أعطت نتائج متباينة ،فمثلا قدر عدد الإناث مقارنة بتعداد الذكور –حسب إحصاء سنة 1856-ب782أنثى مقابل ألف ذكر،أما بالنسبة للطريقة الثانية فقد تم إحصاء 821أنثى مقابل 1000ذكر[3].

---

[1] - Hicham Mohamed(Bahlouli)**, l'enquête poste censitaire une mesure de l'exhaustivité et de la qualité de collection des données recensement réalisé en Algérie** ,mémoire de magistère en démographie ,faculté de sciences sociales ,université d'Oran ,2009-2010,p,p18,19.

[2] -Ibid,p19.

[3]- Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p63.

كما اعتمدت نفس طرق وتقنيات الإحصاء الموجودة بفرنسا،غير أن التطبيقات كانت تصطدم بعدة عراقيل على أرض الواقع نظرا لحداثة التجربة ،وصعوبة الوصول لكل المناطق بسبب الجغرافيا المعقدة وغير المعروفة ،وعدم تصريح الأهالي الدقيق بمواليدهم ووفياتهم ،غير أنها سوف تتحسن بعد عام 1856.

وفي الأخير استقرتقسيم السكان الذين تم إحصاؤهم إلى ثلاثة فئات ،هي:

***المجموعة الأولى**:تم إحصاؤها عبر طريقة الإحصاء الإسمي عن طريق التسجيل عبر اسبيان أسري ،للسكان الحضر وساكني المدن والمستوطنات الأوروبية في مناطق الحكم المدني أو في مناطق الحكم العسكري.

***المجموعة الثانية** :تم إحصاؤها عبر طريقة الإحصاء العددي ،إي عد سكان الخيم ،والدواوير والقبائل الواقعة تحت الحكم العسكري ،وهو خاص بالأهالي،وإذا لم يتم الوصول للمنطقة يحتسب المتوسط العددي ما بين 5إلى 7أفراد لكل خيمة ويضرب في عدد الخيم ،وهي طريقة تعتمد في المناطق النائية إلا أنها ظلت غير دقيقة.

***المجموعة الثالثة** :وهي الفئة التي تم إحصاؤها بكل سهولة ،على اعتبار تمت تسجيل نفسها كمجموعة في سجلات الّإدارات المحلية[1] .

ومما يجب التنويه إليه ،أنه حتى في الدول الأكثر تطورا آنذاك ،لم تكن عمليات الإحصاء السكاني بتلك الدقة والشفافية المرجوة ،وسواء الجهود التي قام بها" **بيرنهوف**" أو حتى الباحثين "**هوفنر** "و"**بايي**" في الجزائر للإحصاء والتدقيق حول المجموع السكاني العام للأهالي والأوروبيين ،فإن الثغرات والأخطاء كانت كبيرة ،والأرقام المقدمة لا تزال في وقتها بعيدة عن الواقع [2].

استلزم الأمر سن جملة من القوانين والمراسيم لتنظيم عملية الإحصاء من جهة ،وتحسيس وتوعية جميع السكان بأهمية الإحصاء،والتشديد على ضرورة الإسراع في تقييّد المواليد الجدد والوفيات في سجلات الحالة المدنية ،وإي تماطل أو تخلف أو إهمال ،يعرض صابحها لعقوبات

[1] - Hicham Mohamed(Bahlouli),op-cit,p20.
[2] - Mesnard(G),op-cit,p,p13,14

من قبل الإدارة المحلية ،ولذا كانت السنوات الممتدة ما بين 1875إلى 1878 انطلاقة فعلية لتنظيم الإحصاء السكاني في الجزائر [1].

كان يجب انتظار حتى عام 1878ليتم ميلاد أول مكتب إحصاء للجزائر،ليأخذ مكان الألواح القديمة للمؤسسات الفرنسية بالجزائر.وكانت بصمة الدكتور **"ريكو"« Ricoux »** وعائلة **"بارتيلون« Bartillon »** الأب والإبن ظاهرتين في ظهور هذا المكتب ،الذين عملوا وفق توصيات المكتب العالمي للإحصاء المنعقد بباريس عام 1878.وكان لهذا المكتب مصالح مثل مكتب الاستعلامات الذي له فروع في مختلف الموانئ تقوم بجمع المعلومات المتعلقة بعمليات الاستيطان والسكان والأشغال العمومية الكبرى والتجارة والفلاحة ومكتب الاستخبارات يدرس ويتابع الأشغال الكبرى ذات الفائدة الجماعية تحت سلطة مهندس عام للجسور والطرق ...[2].

وللعلم فإن عملية الإحصاء العام للسكان قد وجدت في بداياتها صعوبات كبيرة .فكلما تزايد عدد المهاجرين الأوروبيين،ازدادت الحاجة لإحصائهم ثم تنظيمهم وتوجيههم ،مما استوجب تعيين إداريين مدنيين في صفوف الجيش ،الأمر الذي أدخلهم في صراعات بين ضباط الجيش والأعوان المدنيين حول من يتولى مهمة الإحصاء خلال العقدين الأوليين للاحتلال ، ولم تنته الخلافات إلا بعد قرار 4مارس 1848الذي قسم الجزائر إلى إقليمين مدني وإقليم عسكري ،وبالتالي توزعت المناطق الخاصة بكل فريق[3] .

ساهمت الملاحظات التي أبداها" **د.ريكو"** في التأسيس لمكتب الإحصاء والتمهيد لميلاد قانون الحالة المدنية مارس 1882[4]،حيث أشار للنقائص التي تواجه السلطات في إدارة السياسة الديمغرافية في الجزائر وتوجيهها حسب مصالحها الاستعمارية ،فيما يتعلق بالحلة المدنية فقد

---

[1] -Faouzia(Chafia), « **Etat civil et analyse démographique -historique en Algérie : Historique diagnostique et évaluation** », Revue des sciences humaines et sociales ,université kasdi Merbah, ouargla, N°11,Juin 2013, p145.

[2]-كاتب(كمال)،المرجع السابق ،ص،ص146، 147.

[3] - Hicham Mohamed (Bahlouli),op-cit,20.

[4]-قانون الحالة المدنية 23 مارس 1882 ،أول وأهم قانون مس تنظيم الحياة الإدارية والمدنية لسكان الجزائر ،وفق الالتنظيم الإداري والأسري المعمول به في فرنسا ،واشتمل على عدة مواد غيرت من طبيعة الحياة الاجتماعية والإدابة للشعب الجزائري ،فمن جهة المشرع الفرنسي فقد سهّل عليه دمج المجتمع الجزائري في المنظومة القانونية للمستعمر ،بحيث أجبر الأهالي على امتلاك بطاقة هوية تعرف به "المادة 06"وتحدد هويته وتسهل مراقبته ،كما أرغم على اكتساب لقب عائلي على نفس التلقيب المتعارف عليه بفرنسا "المادة5"،كل ذلك وغيره ساهم في تفكيك الأسرة القبيلة الجزائرية وتجزئتها ،ومكّن المحتل من إعادة رسم المنظومة الاجتماعية القبلية والتحكم فيها ،للمزيد يرجى الإطلاع على :

-Karim (Oueld ennabia), « **Histoire de l'état civil des Algériens (Patronymie et Accultura -tion) »,** Revue maghrébine des études historiques et sociales, Labo « Algérie moderne et contom -poraine ,UDL ,Sidi belabbès,N°1 ,Septembre 2009,p06

-el Mobacher du 13 mai 1882.

-Barriere (Louis-Augustin), **Le Statut personnel des musulmans d'Algérie de 1834** à 1962, Edition universitaire de Dijon, 1993.

أشار د.ريكو إلى غياب الإشارات المتعلقة بالجنسية وإلى أعمار المتوفين ،وإلى غياب مرجع أماكن الازدياد والزواج والوفاة،وحسب د. ريكو فإن التوزيع حسب الجنسية والتفرقة بين مواطنين فرنسيين لا يأخذ بعين الاعتبار واقع السكان في الجزائر .فهناك غموض بين الأهالي واليهود والفرنسيين ،ثم أن الفرنسيين لم يفرقوا عن المجنسين ،كما اقترح وضع آلية تفرق الأهالي حسب الانتماء الديني (المسلمون-اليهود غير المتجنسين)ثم تفرقة الأهالي المسلمين حسب العرق (عرب –بربر)[1]

حمل قانون الحالة المدنية (23مارس 1882) إجراءات تجديدة تهدف للتسجيل الدقيق لكل سكان الجزائر من أوروبيين،ولكن بالرغم من ذلك لم يشمل الإحصاء معظم سكان الجزائر ،فقد نص القانون على إحصاء فقط سكان التل الجزائري ،ولم يشمل الإحصاء كل منطقة الشمال إلا عام 1894،و الصحراء إلا في سنة 1904،كما لم يدخل السكان البدو الرحل في تسجيلات المكاتب المتنقلة إلا في وقت متأخر جدا ،وكان ذلك عام 1952[2].

كانت الإحصاءات العامة تجرى بإحكام تام كل 5سنوات،ويعد إحصاء 1876أول إحصاء بالجزائر ينشر في الإحصائيات العامة بفرنسا،كما أنه الأول الذي طبقت فيه المعايير والتقنيات للإحصاء المطبق بفرنسا ،غير أنه يعاب عليه إحصاء موجز لعدد السكان ،ولذا ألغيت هذه الطريقة (قاعدة العد المختصر)في المناطق المدنية عام1886مع إبقائها في مناطق الحكم العسكري، لتعتمد طريقة الكشوفات الفردية منذ عام 1906وتكون الوسيلة الأنسب والأدق في إحصاء السكان المستقرين ،وتقوم هذه الطريقة على إلزام رؤساء البلديات بإرسال حصيلة عملهم بعد مضي 15يوم من نهاية كل إحصاء إلى الولاية يتضمن عدد البنايات والعائلات والكشوفات الفردية ،كما ألزموا أيضا بإرسال في أجل محدد بين 30و40يوما التي تلي كل إحصاء قوائم اسمية للسكان القاطنين تحتوي المعلومات التالية (الاسم ،اللقب،تاريخ ومكان الازدياد ،المهنة،الجنسية)،وبعد عمليات النشاط التعدادي تتم عمليات فرز الكشوفات الفردية في

[1]-كاتب(كمال)،المرجع السابق ،ص148.

[2] - Faouzia (Chafia),op-cit,p148.

علب مصنفة حسب الجنس والحالة المدنية وبعدها، وابتداءا من 1906أصبح فرز الكشوفات الفرية وبطاقة العائلة تجرى في مكتب مركزي ملحق بالحاكم العام بالجزائر[1] .

غير أنه في الواقع فإن دراسة سكان المدن الجزائرية خلال الحقبة الاستعمارية كانت تواجهها صعوبات جمة،ولا سيّما في المدن الصغيرة ،والتي تمثلت في مجملها :

1/اقتصار معظم التعدادات السكانية على إعطاء البيانات العامة للسكان والاكتفاء في الغالب بإعطاء بيانات إجمالية عن سكان البلدية دون تخصيص سكان المدينة أو المركز.

2/معظم هذه التعدادات السكانية كانت تقتصرعلى السكان الأوروبيين ،فيما يتعلق بالبيانات التفصيلية كالحالات المدنية والاجتماعية المهنية دن الاهتمام بالسكان المسلمين

3/نقص الدقة والتفصيل في التعدادات السكانية مثل تطور الحدود الإدارية للوحدات ،وعدم توفر معطيات تفصيلية دقيقة حول النواحي الديموغرافية والثقافية والمعيشية

4/إهمال البيانات والتعدادات الخاصة بلمسلمين،حيث ظلت غير منشورة في معظمها[2].

كما أن الجهود لوضع المطابقات الفرنسية لعمليات الإحصاء واجهت عراقيل خاصة بظروف البلاد : وجود سكان البوادي،اتساع مساحة البلديات وتشتت المساكن ،ونقص الموظفين الأكفاء ، والعد الجزافي للسكان بالأخص البدو،كل ذلك ترجم باحصاءات غير دقيقة ،كما أن ارتباط السياسة السكانية بالأهداف الاستعمارية يترك انطباعا بأن مختلف المصالح كان هدفها التحديد الإجمالي لسكان البلديات ،ولأسباب ضريبية ،ولقياس علاقة السكان الأوروبيين بالأهالي لأسباب سياسية . كما ركزت الإحصائيات بعناية لمتابعة وزن المستوطنين الفرنسيين بالنسبة للجنسيات الأخرى ..كلها تركت المختصين الفرنسيين في الديموغرافيا من أمثال د.ريكو ود. ديمونتاس Démontes يتساءلون حول صحة النتائج المتحصل عليها قبل إحصاء عام 1948.[3]

[1]- كاتب(كمال)،المرجع السابق ،ص156.
[2]-توفيق (صالحي) ، **المجتمع والعمران في مدينة سكيكدة خلال الحقبة الكولونيالية (1838-1962)**،مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث ،جامعة منتوري،قسنطينة،2008-2009،ص75.
[3]- كاتب(كمال)،المرجع السابق ،ص-ص159-161.

خلاصة

1/شهد المجتمع الأوروبي في نموه وتطوره مرحلتين هامتين ومتباينتين ،مرحلة البطء الشديد في النمو خلال النصف القرن الأول من الوجود الاستعماري،والتي تسبب فيها عدم التأقلم العام مع الظروف الجديدة في الجزائر ،وارتفاع نسب الوفيات وقلة نسب المواليد ،ومرحلة النمو المعتدل في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بسبب تحسن الوضع في جميع المجالات.

2/كانت الهجرة الأوروبية نحو الجزائر العامل الأساسي لتطور المجتمع الأوروبي ،وذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر، لضعف الزيادة الطبيعية في نمو السكان بسبب قلة ارتفاع نسبة الوفيات ، خاصة وفيات شريحة الأطفال.

3/شهدت فئة الأطفال ارتفاعا كبيرا في الوفيات خاصة لدى الرضّع منهم ،وذلك خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بسبب انتشار الأمراض والأوبئة ،وقلة حملات التلقيح في أوساط المعمرين والأهالي على حد سواء ،مما ساهم في تراجع في بطء النمو الديمغرافي للمجتمع الأوروبي ،غير أن تحسن الوضع العام وتكثيف حملات تلقيح الأطفال ساهم تحسن الانتقالية الديمغرافية للمستوطنين نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين .

3/ساهم الإحصاء السكاني في وضع التعدادات الصحيحة للسكان الأوروبيين ،وذلك مبكرا ،رم ما كان يعتري عمليات الإحصاء من عراقيل كقلة الدقة وعدم مسح تعداد كافة السكان من أوروبيين وأهالي لا سيما في العقود الأولى للاحتلال.

ثانيا :العلاقات بين مكونات المجتمع الأوروبي وفشل نظرية الانصهار العرقي

تشكل المجتمع الأوروبي في الجزائر بعد الهجرات الأولى التي تلت الاحتلال مباشرة في شكل أنوية أسرية ومجتمعات صغيرة إما داخل المدن الكبرى أو داخل المستوطنات الصغيرة على المناطق الساحلية والداخلية فيما بعد .ومع مر الزمن ،وتوسع المدن والقرى الاستطيانية بفعل حركية الهجرة والنمو الديمغرافي والاختلاط ،بدأت تترسم الملامح الأنثروبولوجية والإثنية والاجتماعية للتركيبة الأوروبية في الجزائر ،وتبزر هويتها الجديدة ،والتي لا تشبه هويتها الأوروبية الأصلية ، ولا تنتمي من جهة ثانية للمجتمع الأهلي ،بل هوية غريبة تعاني المتزق ،والأنانية المفرطة ، والعنصرية اتجاه الآخر .

1-خصائص المجتمع الأوروبي في الجزائر

أ- الانفصام الاجتماعي داخل المجموعة الأوروبية

قدمت كلاريس بيونوClariss Bueno في كتابها الموسوم ب**"الأقدام السوداء من الأب إلى الابن"** ثلاثة نظريات لأصل كلمة الأقدام السوداء ،الأولى ترى بأن أول من أطلق هذه التسمية هم سكان الجزائر العاصمة الذين شاهدوا جنود الجملة الفرنسية على الجزائر عام 1830،وهم يرتدون أحذية عسكرية سوداء خلافا لما كانوا عليه ،أي أنهم كانوا حفاة ،ويمشون بلا أحذية.أما الرأي الثاني ، فيرى بأن أصل التسمية هي نعت أطلقه الأهالي على أقدام العمال التي كانت تتخضب بلون العنب الأسود الذي كانوا يعصرونه بأرجلهم لصناعة الخمور .أما الرأي الثالث فيرجعها أصحابها إلى أوروبي الجزائر أنفسهم ،حينما أطلقوا هذا التعبير على هنود أمريكا الذين قدموا سنة 1942مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية لتحرير شمال إفريقيا من الاحتلال النازي ،حيث أطلقوا عليهم اسم **"الأقدام السوداء-les black feet»** [1]. أما الباحث في شأن " أوروبي الجزائر""**كسافي يوكونو**"« [2] **Xavier « Yacono** فيميل إلى الرأي الأول ،بأن أصل التسمية يعود إلى لون الأحذية للجنود الفرنسيين ،لكنه يختلف حول حقيقة الرواية بأن الأهالي هم من أطلقوا تلك التسمية لأنهم كانوا حفاة وتفاجئوا بلون الأحذية السوداء ، وإنما السبب هو أن لون أحذية جنود الأمير عبد القادر كانت

[1] -Gomez Bellomia (Catherine),**Construction/reconstruction identitaire dans le discours des pieds-noirs :Etude de cas** ,thèse de doctorat, Faculté des lettres, Académie d'Aix-Marseille , Université d'Avignon et des pays de Vaucluse, Décembre 2009,p38.

[2]-(voir) Yacono(Xavier), **les Pieds-noirs**, Editions Philippe Lebaud,Paris- 1982, p-p, 15-19

حمراء وأحذية جنود الاحتلال كانت سوداء ،والتسمية جاءت للتفريق بين الجيشين ليس إلا ، في حين نجد المؤرخ **"غي برفيلي"** يؤيد الرأي الذي يقول بعصر العنب ،غير أن هذه التسمية أول ما ظهرت في الكتابات كانت سنة 1934في مقال للعدد الثالث لجريدة **"الدفاع الأهلية "**، تحدث فيه كاتبه عن التسميات التي كان يطلقها الأهالي على أوروبي الجزائر[1] .

ومهما كان فإنه يبقى من المؤكد بأن التسمية التي ألصقت بأوروبي الجزائر حديثا ،ترجعها جل المصادر الفرنسية إلى الأهالي ،في توصيف لأحد الفئتين ،جنود الحملة الفرنسية أو للفرنسيين و الأوروبيين القادمين إلى الجزائر خلال الأيام الأولى للاحتلال.وهو توصيف التصق بهؤلاء لحد اليوم يعبر عن كل أوروبي الجزائر الذين سكنوا وحكموا الجزائر ، واضطروا لمغادرة الجزائر بعد استقلالها،وركوب البحر نحو أوروبا من حيث أتوا أوّل مرة[2].

وبالرغم من أن هذا المصطلح يحمل دلالات تهكمية وعبارات احتقارية **connotation péjorative** ،إلا أن الكثير من المستوطنون الأوروبيون لم يعترضوا عليه وتقبلوه في من البداية،طالما يضفي عليهم نوعا الخصوصية ،خصوصية عاداتهم وطباعهم ووضعهم القانوني في الوطن .وسريعا راج استعمال هذا التعبير ضدهم خلال حرب التحرير من قبل فرنسيي الميتروبول للتعريف بهم ، فلفظ فرنسيو الجزائر لم يكن كافيا للتفريق بينهم وبين فرنسيي الميتروبول ،الذين حولوا التسمية إلى لقب تهكميsobriquet péjorative فرضوه على مستوطني الجزائر فرضا وأصبح مرادفا بديلا عن عبارة **" أوروبي الجزائر"**[3].

لقد خُلق هذا المجتمع الجديد من تشكيلات عرقية مختلفة الألوان ،والعادات واللغات ،وحتى المذاهب الدينية ،أُريد له أن تتعايش مجموعاته الإثنية ،ليكون ولائها الأول فرنسا ومحور إيديولوجيتها وثقافتها هي لب الثقافة والحضارة الفرنسية ،ودورها الأساسي هي تبّني مشروع الاحتلال وخدمته،هذا المجتمع خُلق و كبُر على ضفاف البحر الأبيض المتوسط المشمسة ، شعب مندمج مكوّن من أقليات جد مختلفة ،فمنها الفرنسي، الاسباني ،الايطالي، المالطي و

[1] -Gomez Bellomia (Catherine),op-cit,p39.
[2] -Guy pervillé : « **pour en finir avec ''les pieds-noirs''** »exposé tenu au colloque « les mots de la colonisation », université de bordeaux 3,22-24janvier 2004,p 32
[3] -Gomez Bellomia (Catherine),op-cit,p40.

الألماني، لكن هذا المجتمع سوف يكوّن له قريبا هويته الخاصة وثقافته الجديدة بعيدا عن الأطروحات الفرنسية التي أثبتت فشلها كأفكار الأمة الواحدة والمجتمع المنصهر[1].

اتفقت كل الدراسات التي تناولت التركيبة الاجتماعية والنفسية لهذا المجتمع الجديدعلى عدم انسجامه،وتكوينه الطبقي ،وعلى عنصريته المتنامية ليس فقط اتجاه ما يعتبرونه شعوبا منحطة وبدائية كالأهالي واليهود المحليين،بل تعدته اتجاه الأعراق الأوروبية فيما بينها ،خاصة لدى العنصر الفرنسي،الذي كان يرى نفسه أرقى وأذكى من تلك الأعراق ،التي يراها أقل شأنا منه،ولم تكن المسافة بين الأجانب الفرنسيين والأوروبيين سياسية فحسب ،بل كانت عنصرية أيضًا فقد ساعد التطوُّر الاستعماري في التأكيد على وجود تسلسل هرمي بين مكونات المجتمع الأوروبي الواحد وأظهر بعدين حضاريين مختلفين في القيّم والطموحات والأفكار ، وساهم بقصد أو بغير قصد في نشر داخل ذلك الإطار السوسيوثقافي عقلية الأجناس المتدنية والمتفوقة. وإذا كان الأوروبيون في البداية قد نظروا إلى السكان المستعمَرين على أنهم أعراق أدنى منهم قبل أن تخلق القومية الفرنسية مع الزمن تسلسلاً هرميًا بين الشعوب الأوروبية وأظهر حكمهم الاستعماري الفرنسي تفوق "العرق " الفرنسي،وكّرس لنظرية نقاوة الدم الفرنسي على الأجناس الأوروبية [2].

دق علماء الاجتماع والديموغرافيا ناقوس الخطر من الانقسام الذي يعيشه المستوطنون ، وهذا ما عبر عنه ديمونتاس سنة 1923بقوله :"**إن وجود مجموعة هامة من الأجانب في الجزائر ،والذين كانت مواليدهم أكثر من المجموعة الوطنية أصبحت تشكل خطرا علينا ،و مضايقة لسياستنا الوطنية ،إذ أن هؤلاء الأجانب المنحدرين من جنسيات متوسطية إذا ظلوا بلا تجنس أو فضّلوا إبقاء أطفالهم على جنسيتهم الأصلية هومناف لأهدافنا الاجتماعية .ألا يوجد مجال للخوف في مثل هذه الأوضاع من حصول تمزق اجتماعي وصراعات بينهم وبين مواطنينا الفرنسيين؟**"،وفي نفس الاتجاه دعا " **ألارلي" Allarlé** سنة 1901إلى ضرورة تمسك الفرنسيين الأصليين بالأفكار الوطنية وبهويتهم ووحدتهم أمام هذه الجماعات والأجناس

[1]- لوكا(فيليب) ، فاتان (جون كلود) ،**جزائر الأنثروبولوجيين نقد السوسيولوجيا الكولونيالية** ،تر محمد يحياتن ،منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال ،وزارة المجاهدين،الجزائر-2002،ص185.

[2] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p119

المختلفة،ودعا إلى مقاومة الذهنية الأوروبية التي وصفها بعقلية المتزمتين،وبالمقابل أكّد على الإبقاء على الهجرة الأوروبية شرط إخضاعهم لفكرة الوطنية وإذابتها في الآمة الجديدة [1].

اعتبر الفرنسيون أنفسهم سادة سكان الجزائر ،وأن باقي المستوطنين هم أجانب ،حتى بعد تحصلهم على الجنسية الفرنسية ،فلو تفحصنا كتابات الفرنسيين خلال تلك الفترة لوجدنا أن الكثير منهم كلما كتبوا عن المستوطنين وصفوهم بالأجانب .وهذه شهادة أحد الأقدام السوداء ،وهو أندري مونتيرو Andrée Montero، ،إذ كتب يقول :" **كان الإحساس لدى الكثير منا بأننا لدينا نوع من الاختلاف عن الفرنسيين ،بالرغم من أن الكثير منا غيّر جنسيته وتقّبل تقّمص حياة الفرنسيين ،إلا أننا كنا نعتبر أنفسنا أقل قيمة منهم ، إنه الشعور بالدونية المقيتة الذي غزا حياتنا"..."**[2].

هذه شهادة أخرى من "ج كامبوس"G. Campos ،الذي كتب:"**كان الفرنسيون شديدي التهكم والسخرية من الإقدام السوداء ذوي الأصول الاسبانية ،وكانوا يلقبونهم ب"الحلزونات" ،تعبيرا على اختباءهم تحت قوقعة الجنسية الفرنسية،الأمر الذي جعل من الاسباني يعاني عقدة النقص والمهانة أمام الفرنسيين من جهة ،وبالإحساس بأنه مجرم ومنفي من غير محاكمة « l'ostracisme »في نظر بني جلدته الذين بقوا على جنسيتهم الأصلية ،وكم كنت أرى في صِباي نظرة الاحتقار في عيون الذين عارضوا أولئك الذين ارتبطوا بالفرنسيات ،وتقبلوا أن يكونو فرنسيين "**[3].

تشير الوثائق التاريخية ،على الرغم من قلة تطرقها لدراسة الأوضاع الاجتماعية للمستوطنين في العقود الأولى للاحتلال،إلى أن العنف الاجتماعي بين شرائح المجتمع الأوروبي أو تلك الممارسات العنيفة الأحادية الجانب من قبل المستوطنين على المجتمع الأهلي ،كانت أكثر حدة وانتشارا خلال القرن 19عنه وفي القرن 20،ولعل أكثرها بروزا مشكلات السرقة والاعتداء الجنسي،وهاتين الحالتين تعكسان بوضوح القلق الجماعي ،الذي شهده المجتمع الأوروبي ،ومما زاد في تفاقم هذه الظواهر الاجتماعية السلبية التوتر والقلق

[1]- لوكا(فيليب) ، فاتان (جون كلود)،المرجع السابق،ص267.

[2] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p,p118,119.

[3] - G(Campos), **Les palmiers d'Arzew, 1849-1962**,Edition Spéraced, Aix-en-Provence ,France - 1989.

الناجم عن قلة الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي شهدته المستعمرة والشعور الدائم والمستمر بفقدان الأمن و الإحساس المزمن بالعزلة والغربة[1] .

يعكس الزواج بين الأعراق الإثنية الأوروبية مدى الشرخ الكبير والانقسام الحاد الذي عرفه المجتمع الأوروبي .كما يظهر أولوية الزواج داخل الطائفة العرقية الواحدة ،وقلة الزيجات مع الأعراق الأخرى،بالرغم أن ما يجمعها أكثر مما يفرقها (وحدة الدين ،المصير المشترك ،تشابه العادات والتقاليد)،إلا التعصب العرقي،والعنصرية الداخلية،والخوف والحقد اتجاه الآخر كانت أكثر الأمراض الاجتماعية التي نخرت المجتمع الأوروبي،وهدمت كل فرص و إمكانات نسج أية علاقات وشراكات الممكن إنشاؤها فيما بينها، ففي الوقت الذي فشلت فيه إدارة الاحتلال في صهر الأجناس عبر سياستها الّإدماجية المختلفة كان بإمكان الزواج أن يعوض ذلك الإخفاق بأن يلعب دور الوسيط الاجتماعي والرابط بين المجموعات العرقية المتنافرة،ومع ذلك فقد كان الفشل نصيبه هوالآخر [2].

إن مؤيدي الجمع بين الأعراق المختلفة لخلق مجتمع جديد من توكفيل إلى موريس فيوليت مرورا بنظريات ريكو حول خلق عرق جديد ناتج عن اختلاط الأعراق الأوروبية المختلفة، والذي ينتج -حسب آراء هؤلاء – عرقا ذو طاقة وذكاء عال ،لم ينجحوا في الوصول في إنتاج أمة واحدة نتيجة صهر الأجناس المتعددة،ولما كان هذا غير قابل للتطبيق من الناحية الميدانية ،كان الحل بعد تنامي فكرة الانفصال في أوساط المستوطنين من أصل أوروبي ،وتزايد أعدادهم بشكل كبير مما أصبح يشكل مصدر قلق بالنسبة للسلطات ،هو منعها من تهديد السيادة الفرنسية،خاصة في حال رجوع هؤلاء إلى بلدانهم الأصلية في حالة نشوب أزمة سياسية بإدماجها وتجنيسها[3].وتبقى المعضلة الكبرى للإدارة الفرنسية في الجزائر،هي أن الاسبان والإيطاليين والمالطيين عناصر غير محببة ومرغوب فيها ،لأنها كما ذكرنا سابقا تهدد الأمن الديمغرافي والاقتصادي، وأكبر من ذلك قد تنسف مشروع الإدماج العرقي برمته،إلا أن أنها تشكل في نفس الوقت مجموعات بشرية لا يمكن الاستغناء عنها بتاتا في تعمير المستعمرة والنهوض بها ،ورصيد بشري هام لتقوية الأمة الفرنسية في الجزائر أمام التزايد السكاني

[1]- Sessions (Jennifer),op-cit,p121.
[2] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p,p114,115.
[3]- لوكا(فيليب) ، فاتان (جون كلود)،المرجع السابق،ص،ص262،263.

الكبير للأهالي المسلمين نهاية القرن التاسع عشر.وبالمحصلة فإن زيادة نمو هذه المجموعات الأوروبية وعدم الإسراع بتجنيسها ودمجها أدى إلى تعزيز من شعورها القومي ،ودفعها إلى التمسك أكثر بجذورها العرقية ،مما أضعف بلا شك مركز وقوة المجموعة الفرنسية،وأسهم في دمجها هي نفسها في ثقافة هذه المجموعات الأوروبية[1]. **فهل ياترى هل كان المشكل اللغوي حاجزا آخر للاندماج الاجتماعي بين الأعراق الأوربية في الجزائر؟**

لقد اعتبر الكثير من المؤرخين والكتاب بأن اللغة كانت أحد مقومات ووسائل الانقسام داخل المنظومة الاجتماعية الكولونيالية،وبالفعل كانت أحد عوامل الانفصام الاجتماعي ،غير أنها لم تكن العامل الرئيسي والوحيد للمشكلة ،ومع ذلك فقد كان له دورا كبيرا في ذلك ،بحيث شكل تمسك الكثير من المستوطنين بلغاتهم الأصلية في أحيائهم شبه المعزولة والمغلقة حاجزاحقيقيا أمام الاندماج عبر اللغة،ونورد هنا قصة أحد المهاجرين الألزاسيين الذي قدم إلى الجزائر عام 1871،واضطرته الظروف للزواج من فتاة مالطية لم يتجاوز سنها 15 ربيعا ،والتي كان والداها من أصول تركية ،ولا تتكلم سوى اللغتين المالطية والعربية ،بينما هو لا يتكلم سوى اللهجة الألزاسية ،وأبنيه في المدرسة لا يتعلمان إلا اللغة الفرنسية ،فأحدث هذا مشكلة التواصل بين كل أفراد العائلة ،وهذه عينة واحدة من بين الآلاف من الحالات [2].

وعلى عكس الجيل الأول والثاني ،الذي وجد صعوبة في الاندماج اللغوي والفكري والاجتماعي ، كانت الأجيال اللاحقة أكثر سرعة في التأقلم والاندماج في الثقافة الفرنسية ، فهي لا تعرف وطنا إلا الذي ولدت فيه ،ولا لغة إلا التي تعلمتها في المدرسة الفرنسية ،ولا عاطفة تشدها للوطن سوى العاطفة نحو الوطن" الجزائر "،وأصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة فرنسيين ،-أي فرنسيو اللسان وجزائريو الأرض-،لقد تغير مفهوم الانتماء والولاء عند الكثير من الأجيال اللاحقة ،وأصبحت رابطة الأرض التي سقيت بدم أسلافهم أهم قيمة من رابطة العرق والولاء للأب الإيطالي أو للأم الفرنسية [3].

---

[1]- Jean Jacques (jordi), « **Les pieds noirs : constructions identitaires et réinvention des origines »** ,Revue Homme et Migrations, N°1236 Mars-Avril, Musée de l'histoire de l'immigration ,Paris-2002,p,p17,18.

[2]-Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p,117.

[3] - Populus, **L'Algérie ce qu' elle fut ,ce qu'elle est ,ce qu'elle doit être**, Orlando Librairie-Editeurs, Alger-1878,p18.

لكن في الواقع فإن الأمر شديد التعقيد .ففي الجزائر فإن الثقافة الفرنسية السائدة كانت تتعارض وتتضارب مع الثقافات الأصلية للمستوطنين الأوروبيين غير الفرنسيين ،وخلقت في نفسية المستوطن كما للأهلي الذي ارتاد المدرسة واختلط بالثقافة الفرنسية نوعا من الفصام الثقافي والتمزق الفكري .فهو الذي كان يكتب بالفرنسية ،كان أيضا يتكلم بلغته الأصلية في البيت والشارع وفي حييه الصغير،والتي حرص مجتمعه الصغيرعلى أن يلقنها إياه منذ نعومة أظافره ، كما أنه يستمتع بقراءة القصص والروايات الفرنسية ويقبل على حفظها عن ظهر القلب ، لكنه في نفس الوقت يقبل على النهم من ثقافته الأصلية وتراثه الشعبي بشكل كبير .حتى أطلق المؤرخ **"جان جاك جوردي** "على تلك الأنوية الصغيرة داخل المجتمع الأوروبي اسم **"الجزر الصغيرة داخل المحيط الواسع"** للدلالة على احتشاد المجتمعات الأوروبية في أحياءها الصغيرة لحماية هويتها وثقافتها أمام التيارات الفكرية الفرنسية الجديدة .وفي الأخير فإذا كانت فرنسا قد تمكنت من فرض قانون التجنيس الآلي على أرض الوقع ، فإنها لم تستطيع أن تغير من صلب الموروث الثقافي للمجتمع الأوروبي ،الذي ظل متمسكا بعاداته وطريقة عيشه ولغته الأصلية [1]،حتى بعد رحيلهم الكبير عن الوطن إلى فرنسا،وهناك عانى المستوطنون من غربة البعد عن الجزائر وألم الشتات والعزلة بعد أن فقدوا كل شيء ،فمثلما جاء هؤلاء غرباء إلى الجزائر عادوا إلى فرنسا غرباء وليس إلى أوطانهم الأصلية ،فلا الوطن وطنهم ولا هم في نظر الشعب الفرنسي ضيوفا مرحب بهم .فقد وجهوا لهم سيلا من الاتهامات على أنهم من تسبب في خسارة الحرب ودفعوا بفرنسا في الغرق في مستنقعها ،كل ذلك بسبب أنانيتهم المفرطة وعجزهم في إدارة المستعمرة،وعنصريتهم المقيتة اتجاه الأهالي ،فهم في نظر أغلب الفرنسيين فإن تلك العنصرية اللامحدودة كانت السبب الرئيسي في تفكير الشعب الجزائري الأعزل في التمرد[2].

ب-العنصرية ضد الآخر،واستحالة التعايش الاجتماعي : يشبه هؤلاء الملقبون بالأقدام السوداء سكان أمريكا من العرق الأبيض ،عرق جديد ولد في بوتقة اجتماعية « **melting-pot**

[1]-Bachoud(Andrée), « **Les espagnoles en Algérie question sur l'identité et sur l'intégra -tion »** ,Revue (Exils et émigrations ibériques au XXème siècle) » , N°7, Centre de recherches ibériques et ibéro-américaines de l'Université de Paris X Nanterre ,Paris-1999,p,p209,210.

[2] -Gomez Bellomia (Catherine),op-cit,p,p40,41.

»مزجت فيها كل سلوكيات الشعوب وثقافاتها المنحدرة من غرب المتوسط ،بأفكار المنبوذين و المنفيين ضحايا التغييرات السياسية الحاصلة بفرنسا ،وداخل هذا الخليط البشري ولدت شيئا فشيئا ثقافة كولونيالية شاذة وغريبة في نمط حياتها وكلامها وحتى في عاداتها **"ثقافة متمردة ومتعجرفة"** كانت غايتها تدجين كل مقومات الحياة في المستعمرة لصالحها ،وقد صدقت الباحثة **"ماري آلب" Marie Elbe** حين وصفت هذا العرق ب**"العرق المراهق"**[1].

إن علاقة المستوطنين الفرنسيين والأجانب بالأهالي المسلمين قليلا ما كانت ودية،بل شابتها في معظم الفترات الكراهية المتبادلة ،والعنصرية غير المبررة والحقد من قبل المعمر على الأهلي المسلم .وغالبا يشتكي الكولون من الأهالي وتمتلئ تقاريرهم وجرائدهم بالعبارات النابية ،قد وصف أحد المعمرين لنا العرب بالكلمات التالية **"إنهم كذابون ومنافقون وشاهدوا الزور "،غير أنه ليس من المعقول أن تكون حقيقة العرب بذلك الشكل.وهي شهادة قاسية ،إذ يجب الاعتراف بأننا مصدومون من معاملات وتصرفات بعض الأوروبيين اتجاه الأهالي"** [2].

تميزت عقلية المستوطنين دوما بالاعتراض على كل تطور سياسي يستطيع أن يمس بمصالح الطبقة الاستعمارية.إن هذه المعارضة أتت من انسلاخ ازدواجية الثقافة، ثقافة العنف وثقافة الخوف ، فثقافة العنف تجد جذورها في النظام الاستعماري نفسه ،وثقافة الخوف تنتج من جهة من الوجود الدائم للآخر،الذي يختلف عنه في الثقافة والدين والعادات والقيم ،ومن جهة أخرى في العدد المتزايد من هذا الآخر.وبالنتيجة منعتهم من فهم كنه عدد من الإنذارات الموجهة لهم من أنصار استعمار الجزائر مثل" **ستيفان جزال"**،الذي خاطب الجموع الفرنسية ذات يوم : **"إن الاستعمار المادي يجب أن يتبعه استعمار العقول.حذار لأسياد إفريقيا من الذين لا يفهمون "**،ومن جهته انتقد المنظر الاستعماري **"توكفيل "Tocqueville** بشدة عقلية المستوطن والذي يقف وراءه دوما كيان عنصري استئصالي،بقوله**"إذا نظرنا إلى السكان القدامى يقصد – الأهالي- بأنهم جنس يعرقل توسعنا بإبادتهم،وليس بتربيهم بين أذرعنا نحو الأفضل والنور وسعينا لإطفائهم وخنقهم ،فستكون مسألة الحياة والموت واقعة بين العرقين .وتصبح الجزائر**

[1]- Stora (Benjamin) et Jenni (Alexis) , **les mémoires dangereuses de L'Algérie coloniale à la France d'Aujourd'hui** , Edition Albain Michel, Paris- 2016 ,p85.

[2] -Bonze (Raymond), **L'Algérie du centenaire vue par l'université de France**, publication du comité national métropolitaine du centenaire de l'Algérie ,SD,p,p29,30.

عاجلا أم آجلا حقلا مغلقا يقتتل فيه الشعبان ،حيث على يستوجب أن أحدهما الفناء..."[1].

وبالرغم من إختلافهم العرقي ،فإن ما كان يشد المستوطنين لبعضهم البعض طبائع الاحتلال ،والاستيطان والعنصرية ،وقد كان لهم ثقة كبيرة على تفوقهم على المسلمين الجزائريين ،ومصدر هذا التفوق أن الجزائر أخضعت بالقوة العسكرية وفرضت عليها قوانين الأجنبي المحتل ،وبالتالي فهم سادة هذا الوطن وقادته ،وأن الأهلي حسب ما ورد في كتاباتهم وأدبياتهم عبارة عن مخلوق ضعيف تابع ،كاذب ،سارق ،ورافض لكل ما يدفعه نحو التقدم أو التجديد [2].

تناول الكثير بالتحليل نفسية المستوطنين ،فوصفوهم بالأنانية ،وبالعنصرية والفردية ،إلى غير ذلك من الخصال المذمومة،والأمثلة على ذلك كثيرة ،ولعل أحسن من وصفهم **"جول فيري"**رئيس وزراء فرنسا حينما كتب عام 1892متحدثا عن طباع المستوطن **:"لقد قمنا بدراسة نفسية المستوطن دراسة دقيقة ووثيقة ...فوجدنا أنه إنسان محدود للغاية ،ولا شك أن الكفاءة العقلية ليست هي السبب التي تجعل المستوطن المتحكم إلى حد ما في مصير أهل البلاد بل أنانيته وجنونه ...،ومن الصعب للمستوطن أن يستوعب أن ثمة حقوق أخرى غير حقوقه ،وأن أبناء هذا البلد من الأهالي ليسوا شعبا خلق للعبودية أو التنكيل بالأصفاد وفقا لرغباته ،فهو لم يرق حسبه إلى مستوى البشر ،وأنه غير قادر على التطور والارتقاء ، وبالرغم من ذلك فلم يبذل هذا المستوطن أي جهد لرفع مستواه العقلي والمادي..."**[3].

رغم كل تلك الأساطيروالشعارات التي ناد بها بعض المتعاطفيين مع الأهالي ،كالأصل الواحد قابلية الأهالي للانصهار،الاندماج والوطن الواحد فإن العربي النموذجي منفي من مزاعمه و من أرضه محكوم عليه بالحياة الضنكة لا يمثل الا اكسسوار مرفوض و مرمي ،و بالتالي يترك المكان لهؤلاء المتوسطيين أو بروليتاريا الاستعمار المتشبعين بالنهضة اللاتينية على الأرض الإفريقية ، فعلى مدار القرن كانت خطب **" Eugene Etienne "** الذي كان يمثل الكولون بالغرفة التجارية الفرنسية ،ثم وزيرا، تجمع بين الرجاء و الحذر،فحسب رأيه كان يجب أن تكرس الجزائر أكثر من إي وقت مضى كمستعمرة للإسكان و أن يكون ميزان

---

[1]- الأشرف(مصطفى)،المرجع السابق،ص290.

[2]- بن الشيخ (حكيم)، **"سياسة الاستيطان الأوروبي في الجزائر (1830-1960)"**،مجلة عصور الجديدة ، مجلة علمية فصلية محكمة يصدرها مخبر تاريخ الجزائر،جامعة وهران 1، العددان 14-15،صيف وخريف 2014،ص360.

[3]- السيد(محمود)و الصاوي(كامل)،المرجع السابق، ص200.

تزايد السكان لصالح الأوروبيين،ومن جهته يترجم " **Victor démontes** " بالأرقام كل التقارير الديمغرافية الهامة حول الزيادة السكانية للأهالي،التي يتوقف عليها كل شيء في المستعمرة ،فالزيادة بالنسبة إليه تعني التهديد المباشر للوجود الأوروبي في الجزائر ،وليس الشعب الجزائري إلا نواة صغيرة ضمن مجموعة أنوية لخدمة السياسة الاستعمارية[1].

لم يصقل الزمن ،ولا العشرة والتجاور سلوك المستوطن،و لم تتغير أبدا عقليته ولا نظرته المتعالية للأهلي ،والمشبعة بقيم عدم التعايش والقبول بوجود عرق آخر يمكن أن يتقاسم معه الأرض ومقومات الوجود التي ينتفع منها ،ولم يفهم إطلاقا نصيحة الحاكم السابق **"موريس فيوليت M violette "** الذي وصف بالعربي فقط لأنه دعا إلى إعطاء بعض الحقوق الانسانية للأهالي ، وهونفس النعت الذي وصفت به من قبل السياسة النابوليونية .إنها مقاربة في الدفاع عن امتيازاتهم الهزلية بكل تعنّت وعنجهية، فلم يعرف المستوطن كيف يتلقى التحولات السياسية التي جرت سواء في الجزائر أو في المحيط الدولي ،ولم يتقبل حقيقة التغيرات العالمية في إزالة مشروع الاستعمار ، حينما كانت الفكرة الاستعمارية نفسها تحتضر أمام تزايد موجة التحرر العالمي[2] .

كثيرة هي تلك الأنماط الغريبة المميزة لحياة المعمرين، وتعاملهم مع الآخر –سواء أكان ذلك داخل المجموعة الأوروبية أو مع الأهالي–،وهي أنماط يختلط فيها كل أسلوب:أسلوب أوبو" Ubu، وماريوس Marius،وشخصيات الكاتب كافكاKafka ،لم تتغير بالزمان ولا بالحال ،فلما انتهت الحرب مع الأمير عبد القادر أعرب المستوطنون على مخاوفهم من انقراض العنصر الأهلي بما يلي:"**إن الأوروبيون يشعرون بالحزن ،لأنهم يتوقعون أن يتناقص عدد الجنود مثلما قد يتناقص عدد الأهالي...إن سكان جنوب فرنسا متأسفون لأنهم يتوقعون ركود التجارة..**"[3] ،وهو نفس شعور الحزن ،الذي اعتراهم على حالة الأهالي بعد مضي ما يقارب القرن من الزمن ،حينما أفزعتهم هجرة الجزائريين إلى الميتروبول ما بين

[1]- لوكا(فيليب) ، فاتان (جون كلود) ،المرجع السابق،ص184.

[2]-- نفسه،ص،ص435، 436.

[3]-الأشرف(مصطفى)،المرجع السابق،ص290.

الحربين هروبا من بطشهم واستغلالهم وفرارا من البؤس والفقر[1] ،فكما في الحالة الأولى نفس الحالة النفسية اعترت المستوطن ،فقط المتغير فيهما الزمان ،ويبقى الثابت المطلق هو أن ذلك الخوف مصدره "[2].

ليس أصدق في التعبير عن الكراهية الشديدة ،التي اعترت المستوطن المتعصب ضد الأهالي ، كالذي جاء به الكاتبان الفرنسيان**"باسكال غوشو"وباتريك بيسو" « Gauchon Pascal »** و « **Patrick Buisson** » حينما عبّرا عن نرجسية المستوطن حينما كتبا**: " في هذه الأرض الشاسعة "الفارغة "،أين يسود قانون الإقصاء ،لا يمكن أن تنشأ علاقة الصداقة بين الشعبين إلا ببقاء كل شعب يحتفظ بروابطه العرقية والفكرية والتعصب لانتماءاته القومية ،إن جزائرنا ليست فضاءا يفسح المجال لاختلاط الثقافات وامتزاج الأعراق،لقد وجدت فقط لتصادم الهويات القومية المتناقضة،والتي ينتصر فيها الأوروبي.إنه صدام يعيد في ثناياه صراعات القرون الوسطى"أين يكون الناجون من الموت مجبرون على اللجوء للجلاد**[3]**« le suzerain »".**

وهنا نتسائل ،**هل العنصرية المقيتة التي جُبلت عليها نفسية المستوطن ،هي ظاهرة طبيعية نفسية ناتجة عن عقدة التفوق العرقي، أم حالة مرضية مست جميع طبقات وفئات المجتمع الأوروبي ،ولم تكن تقتصر على الطبقة الارستقراطية دون غيرها؟**.يجيبنا هنا الكاتب الفرنسي **" جول روي "« Jules Roy »**، الذي شرّح عقلية هذا المستوطن في كتابه **"حرب الجزائر"**عندما عبّر له أحد المستوطنين البسطاء (عامل سكك حديدية) عن نظرة المجتمع الأوروبي للأهالي **:"نحن معظمنا نعتبر أن العرب حثالة وساقطون ،لقد أخطأنا حينما عاملناهم بانسانية لا يستحقونها ،لا نثق فيهم لأنهم لصوص ولا يؤتمنون ،يرفضون كل تطور أو تجديد منغلقون ومنزويون ويفضلون العيش في أفكارهم الرجعية والظلامية...."**[4]

---

[1]- وقد حظي موضوع هجرة الجزائريين إلى فرنسا باستقبال متعدد الإشكال ،فقد ابتهج الفرنسيون لهذا الرحيل في البداية واعتبروه خير وسيلة لتطوير الأهالي ،وباسم السياسة البربرية أعلنت جريدة لاديباش دوكنستنتين la dépêche de constantine تأيدها للهجرة،أما المستوطنون في الجزائر فإنهم لم يتوانوا بالتنديد بتسرب اليد العاملة إلى فرنسا والزيادة في أجورهم وطالبوا بتوقيف هذا النزوح المحير.يمكن العودة في هذا الموضوع إلى :شارل روبير اجيرون،**الجزائريون المسلمون وفرنسا1871-1919**،ج1، المرجع السابق،ص،ص402، 403.

[2]- الأشرف(مصطفى)،المرجع السابق،ص287.

[3] - Gauchon (Pascal) Patrick (Buisson**), OAS , Histoire de la résistance française en Algérie** ,Jeun pied-noir Edition ,France-1984,p12.

[4] -Roy (Jules**), La guerre d'Algérie**, Editions Julliard,Paris-1961,p39.

لكن بالرغم ما يسوء هذه الأقلية الأوروبية ،فإنها لم تكن كلها على قلب رجل واحد،ولما كان التعميم لا يبني فكرة شاملة وحقيقة مطلقة عن ظاهرة ما،فإنه من غير العدل اعتبار كل أوروبي الجزائر بنفس مستوى التفكير ،وبنفس الموقف والنظرة العنصرية والاستهتارية بالأهالي .كما أن لتلك العنصرية مايبررها ،-سواء أكانت المبررات مقبولة أم لا-،وإذا كان المتطرفون من هنا وهناك يربطون التباعد بين المجموعتين بخلفيات دينية ولغوية وعرقية أدت حتما إلى إنتاج كراهية متبادلة ، فإنه أيضا يمكن تقديم تفسيرات أخرى توضح هذا الانقسام الذي استمر لمدة 132سنة،وأفشل كل محاولات الساسة ودعاة التعايش والإندماج من الجانبين ،الفرنسي(توكفيل ، جونار،فيوليت،....) والأهلي(مرسلي،بن حبيلس[1]،فرحات عباس، ...)،والتي منها الصراع حول الأرض،والاختلاف الجذري في ثوابت الهوية والانتماءات المختلفة ،وأيضا سياسة الظلم والإقصاء والقهر التي مارسها المستوطن بأنانية مفرطة ،والمدعومة بكل أسابب القوة التي منحتها أياه إدارة الاحتلال ضد الأهلي المسلوب الإرادة[2] .

وهكذا نشأ عالم من القيّم الرخيصة داخل البناء الاجتماعي، أكان ذلك في المدن الساحلية أو في الضواحي،ظهرت وتطورت جنبا إلى جنب بالموازاة مع عالم آخر اعتبره المستوطنون الدخلاء عالم همجيا وغريبا ،لقد ترجمت تلك القيّم الاجتماعية والأخلاقية التي آمن ودافع عنها المستوطنون طيلة تواجدهم بالجزائر إلى سلوكيات عنيفة غذتها الحرية المطلقة التي تمتعوا بها والهيمنة على المراكز المالية و الاقتصادية والحماية الكاملة من قبل سلطة الاحتلال [3].

لم يكن لدى المستوطن هَمٌ في هذا البلد ،سوى إشباع غرائزه وحماية مصالحه ،فبالنسبة للمستوطن هذا الوطن هو متنفس الأهواء ومجالا لممارسة شهواته وغرائزه اللامحدودة ،مثلما كتب ستورا وعبّر بقوله: **« avec ses bourgs perdus , ses crimes passionnels, une sexualité dissimulée et exacerbée…L'Algérie est une région emblématique de la solitude des passions ,ou la chaleur presque**

[1]-لخّص الشريف بن حبيلس في كتابه "الجزائر الفرنسية في نظرة أحد الأهالي "باعتباره أحد رموز النخبة المفرنسة المطالبة الإدماج بالجزائر والمتأثرة بالقيم الفرنسية طموحات وآمال ثلة من الأهالي الجزائريين في العيش الكريم في ظل القانون و الراية الفرنسية ،داعيا على لسان جميع المتجنيسين الجزائريين فرنسي الجزائر إلى القبول بمبدأ التعايش الاجتماعي والحضاري ،كما ناد الأهالي بتمجيد فرنسا والقبول بالحضارة الغربية ، منتقدا في نفس الوقت روح الضيقة والنظرة الإقصائية لدعاة فكرة أسلمة المجتمعات الإسلامية ،التي حملتها أفكار الجامعة الإسلامية « panislamisme ».غير أن نضال هذه النخبة المتجنسة والمفرنسة ظلت محدودة الانتشار وفلسفتها مرفوضة من المجتمعين الأوروبي والأهلي .أنظر:

-Cherif Benhabiles **, l'Algérie française vue par un indigène**, suivi de Guerre à l'ignorance, de Ben Mouhoub Mohammed el Mouloud, discours et conférences prononcés en arabe au cercle Salah de Constantine, préface de Georges Marçais , chapitre III , éd Fontana Alger, 1914, P-P127-180.

[2]-- لوكا(فيليب) ، فاتان (جون كلود) ،المرجع السابق،ص،ص185، 186.

[3]- الأشرف(مصطفى)،المرجع السابق،ص،ص،287، 288.

palpable des après –midi de canicule semble peser comme une fatalité..l'ennui est que ce peuple adolescent progresse dans des contrées malheureusement peuplées d'indigènes !qu'importe ,la tâche des conquérants (après écrasement et soumission)sera de les protéger de leur apporter les bienfait de la mission civilisatrice »[1].

ومع ذلك فالقليل فقط من يعرف الجزائر ويتفهم ذهنية ونفسية الأهلي،وفي ذلك عبّر **"جورج فيولي"**بقوله:**"نراه نحن الأوروبيين له قابلية لتقبل واقعنا،وبأنه شديد التأثر بحضارتنا وسلوكنا الراقي وبأنه منبهر جدا بعاداتنا وتقاليدنا،غير أن الحقيقة تنافي ذلك بشكل كبير،هي فقط نظرتنا الأحادية والنمطية المليئة بالأوهام التي رسمناها في مخيلتنا عنهم،فالأهلي كائن غير قابل للتغيير،ولم يتقبل أي جديد يمت بصلة لنا.ومنذ أكثر من خمسين سنة من الاحتلال بقي متقوقعا على نفسه،رغم أنه حاولنا أن نزرع في عقله أفكارنا وعاداتنا،ولم تنفع فيه التأثيرات الفكرية لا في عهد الملك لويس فيليب ولا في عهد الإمبراطورية ولا الجمهورية**[2]"

وحتى فكرة التعايش العرقي ،التي طرحتها نخب مثقفة وسياسية كوسيلة للخروج من الصراع الطبقي والعرقي الذي هدد مستقبل الوجود الفرنسي بالجزائر وكضامن وحيد لمصالح الشعبين ، والتي جاءت تحت مسميات عدة كالإدماج التدريجي للأهالي في المجتمع الفرنسي ووحدة الأمة وزواج الأعراق وغيرها، وجدت معارضين لها من قبل طيف واسع من أوروبي الجزائر ،حيث تعالت الأصوات الرافضة من المعسكرين تحت حجج سياسية ودينية وإقتصادية .ونظرا لهذه المعطيات واستحالة تعايش عرقين يستعبد أحدهما الآخر،أصبحت سياسة **"فرانكو أنديجان"** كما يسميها" **إيسبي دو ماتز** "حبيسة الكتب والخطابات" [3].

ومما سبق نستخلص بأن المستوطن –كأي إنسان آخر-هو نتاج للمحيط الذي ولد وترعرع فيه ،وقد تأثر بالظروف التي أوجدها النظام الاستعماري ذاته .وما معارضة المستوطن لكل الإصلاحات التي حاولت السلطات الاحتلال إدخالها لصالح الأهالي ،وخاصة المعتدلين

[1]- Stora (Benjamin) et Jenni (Alexis),op-cit,p86.

[2] - Violier(Georges) ,**Les Deux Algérie** ,Imprimerie et Librairie Paul Dupont, Paris-1898,p38.

[3] -Espe De Metz(Gabriel) ,**Par Les Colons, L'Algérie aux Les Algériens et par les Algériens**, Emile La rose ,Libraire Editeur ,Paris -1914,p-p190-192.

والمقبلين على الثقافة الفرنسية منهم،والتي تضمنتها **"سياسة الإدماج "**،مبعثها بأن هذه الحلول ستهدم أسس **"الوضع القائم"**الذي كان ينتفع به المستوطن إلى حد كبير.

2-التجنيس الأتوماتيكي عام 1889ونمو النزعة الانفصالية لدى أوروبي الجزائر

وجدت إدارة الاحتلال الحل لظاهرة الفصام الاجتماعي الذي كان يهدد مستقبل وجود الأمة المنشودة،بسن قانون التجنيس الآلي الذي صدر عام 1889،والذي كان له طابع جماعي وتلقائي فالمولودون في الجزائر ومن أصل أوروبي يصبحون فرنسيين في سن الرشد ، إلا إذا رفضوا ذلك،وحتى الأجنبيات حينما يتزوجن بفرنسيين يأخذن جنسية الزوج .وقد حطم كل ذلك المبدأ القديم القائم على منح الجنسية بعلاقة الدم والاعتراف بحق الأرض،كما ساعد هذا الإجراء القانوني في تفكيك الهوية القُطرية لأوروبي الجزائر وصهرها في الأمة الفرنسية [1].

حسب صناع هذا المشروع لا يمكن لسياسة التجنيس الجماعي أن تنجح إلا باستئصال ماسمي ب**"حرية الاختيار" (l'élimination des choix)** بين الاندماج والبقاء بالجنسية الأصلية. وكان القانونان الصادران تباعا 26جوان 1889،وقانون 22جويلية 1893أسسا بشكل مباشر لعملية التجنيس الأوتوماتيكي ،وبعد ذلك ،فإن كل أجنبي لن يقاوم للاحتفاظ بجنسيته الأصلية مستقبلا ،وسيدمج تلقائيا في الأمة الفرنسية ،أي الأمر الواقع (ispo facto)، وهكذا، فالأسبان والإيطاليين الذين رفضوا تقبل الجنسية الفرنسية قبل 1889لن يبقوا بعده اسبانا أو إيطاليين [2].

ولما كان الخطر محدقا تحركت الدوائر الحكومية للتفكير الجدي في الحل النهائي للمعضلة ، ففي 30سبتمبر 1884عرض رئيس الحكومة الفرنسية لويس تيرمان على حكومته مشروعا للتجنيس شاركت في إعداده مدرسة الحقوق بالجزائر العاصمة ،والذي اقترح بمنح الجنسية الفرنسية لكل شخص مولود بالجزائر من أبوين أجنبيين،إلا أن الحكومة قررت رفض المشروع لما للقانون من نقائص لاسيما فيما يتعلق بخدمة الأرض والدفاع عنها ،وقد كان نواب شمال فرنسا يد في ذلك وربطوا شريطة الموافقة بإلزام المستوطنين بقبول بالواجبات

[1]- لوكا(فيليب) ، فاتان (جون كلود) ،المرجع السابق،ص265.

[2] - Jordi (Jean Jacques),op-cit,p19.

كالدفاع الوطني مقابل الحصول على حق المواطنة الكاملة « **Jus Soli** »،وبعد التعديلات وبضغط من اللوبي المستوطنين في البرلمان الفرنسي ،تم الموافقة على مشروع قانون الجنسية بتاريخ 26جوان1889[1].وساهم قانون التجنيس الأوتوماتيكي في رفع عدد الفرنسيين ،وامتص العديد من الأوروبيين ،ففي إحصاء 1891ارتفع عدد الفرنسيين نتيجة التجنيس إلى 267.672مقابل 215.793 مستوطن، وفي 1896بلغ عدد الفرنسيين 331.137فرنسي مقابل 211.580 مستوطن أوروبي لم يقبل أغلبهم التجنيس [2].

وجد المستوطنون الاسبان كغيرهم من أوروبي الجزائر أنفسهم تحت الضغط المزدوج،فمن جهة كانوا يصِرون على الاحتفاظ بجنسيتهم الأصلية ،على أساس أن ذلك قد يبقي على مكاسبهم السياسية في بلدانهم الأصلية ،ومن جهة أخرى كانوا يرون في اكتساب الجنسية الفرنسية طريقا للحصول على المواطنة التامة وكامل الحقوق كغيرهم من فرنسيي الجزائر،ولذا كانوا مترددين بين هذا وذاك ، وانقسموا على أنفسهم بين مؤيد لقانون 1889ومعارض له [3].

لقد كان تأثير التجنيس الآلي قويا مابين سنوات 1900و1910،وهي الفترة التي بلغ فيها أبناء الأجانب الذين وصلوا إلى الجزائر نهاية القرن التاسع عشر سن البلوغ ،ومعظمهم لم يرفضها لأنه كان يرغب في التمتع بالحقوق الكاملة .وهو ما اعتبره الكاتب **"روبير اجيرون" "شهادة ميلاد العنصر الأوروبي في الجزائر"**[4] . وإذا كان التجنيس الأوتوماتيكي قد امتص بشكل كبير الأجانب ، فإنه لم يستطع استيعاب العنصر الاسباني ،ولا سيما العنصر النسوي ،حيث ظلت الاسبانيات أكثر النساء الأجنبيات صمودا ورفضا للاندماج مقارنة من الأعراق الأخرى التي فضلت الاندماج في العرق الفرنسي .فبعد تطبيق قانون 1889ظل عدد الاسبانيات يتزايد بشكل كبير ،فقد انتقل عددهن من 63063إمرأة سنة 1886إلى 81506سنة 1896في حين تقلص عدد الإيطاليات من 16305إلى 14905، وتراجعت أعداد الأنجلو

[1] - Weil (Patrick), « **Le statut des musulmans en Algérie colonial une nationalité française dénaturée** », Revue la justice en Algérie 1830-1962 ,la documentation française ,Collection histoire de la justice ,Paris-2005,p05.

[2] -Ibid,p06.

[3] - Bachoud(Andrée),op-cit,p,p,207,208.

[4]- بلعزوز (العربي) ،**"السياسة الاستعمارية في الجزائر وأثرها على تطور الهجرة الأوروبية بها (1830-1962)"**،مجلة عصور الجديدة، مجلة علمية فصلية محكمة يصدرها مخبر تاريخ الجزائر ،جامعة وهران 1،العددان 8/7خريف شتاء ،2013 ،2012،ص299.

مالطيات من 6915إلى 6201،ومع مطلع القرن 20أصبحت الاسبانيات تشكلن 70من المجتمع الأوروبي الأجنبي الرافض للتجنيس[1] .

انتقل الجدل والصراع حول مخاطر قانون 1889على أوروبي الجزائر من حدود الجزائر إلى خارجها بين المملكة الاسبانية والجمهورية الفرنسية الثالثة ،فقد دخلت حكومة **"بريمو دي ريفييرا "**« **primo de rivera** »[2]الصراع بشأن مصير ومستقبل أكثر من 200الف اسباني أصبحوا مهددين بأن يتحولوا من مجموعة ضاغطة تستعملها اسبانيا خلال أزماتها مع فرنسا إلى مجموعة فرنسية تنسلخ مع مرور الوقت من ماضيها الأيبيري ،وولائها للتاج الاسباني .ولذا فقد سعت حكومة بريمو دي ريفييرا جاهدة على منافسة حكومة الاحتلال في الإبقاء على المدارس الاسبانية في الجزائر ،ودعم نشاط الكنيسة الاسبانية للحفاظ على ما تبقى من مقومات ثقافية اسبانية في المستعمرة ،غير أن ذلك كان قد حدث كله في الوقت الضائع ،في ظل إصرار فرنسا على سياسة الإدماج الشامل عبر المدرسة واللغة والقانون[3].

وكما أنه في نهاية القرن التاسع سادت الأفكار والنظريات التي نادت بالإدماج ،انتشرت الأفكار الانفصالية بقوة لدى المستوطنين المتطرفين ،حتى كادت أن تقسم المجتمع الأوروبي على نفسه إلى قسمين ،وهو المجتمع الذي مافتئت الجهات الرسمية تناضل لعقود لتشكيله،والذي أصطلح عليه تسميات عديدة خلال **"فرنسي الجزائر " "العرق الجديد"**،ومهما تعددت تلك التسميات فإن الكثير من أبناء هذا الجيل الجديد أصبح أكثر قناعة بفكرة الانفصال عن فرنسا على اعتبار أن ثقافته عاداته تاريخه يومياته، وحياته الثقافية

---

[1] - Robert - Guidard (Claudine) , op-cit,p,84.

[2]-ميغيل بريمو دو ريفييرا"« Miguel primo de rivera » ،ديكتاتور ،واريستوقراطي ،وضابط عسكري،ولد بمسدنة شريش الاسبانية في الثامن من يناير سنة 1870،استلم منصب رئيس وزراء اسبانيا منذ 1923إلى 1930،خلال فترة عودة أسرة البربون لحكم اسبانيا .وقد آمن بشدة أن السياسيين هم الذين خربوا اسبانيا واعتقد أنهيدونه أنه يمكن إعادة مجد الأمة،شعاره كان "الوطن ،الدين ،الملك"،وصفه المؤرخون بالديكتاتور الأحمق الذي يفتقر للفطنة السياسية والتفكير الواضح ،أدت أفعاله إلى تدمير اسبانيا ،وكانت سببا في اشتعال الحرب الأهلية ،توفي في 16مارس 1930. أنظر: عبد المجيد النعنعي ،عبد العزيز نوار ،**أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى** ،طبعة جديدة،دار النهضة العربية للنشر،بيروت ،لبنان،2014،ص-ص606-609.

أنظرأيضا:القرار الملكي الخاص بعزل بريموديريفيرا

-Real decreto **« presidencia del cosejo de ministros »** ,Num2087 ,In Journal "Gaceta de Madrid", N°279,06 Octobre1929,p130.

[3] - Bachoud(Andrée),op-cit,p,p208,209.

والاجتماعية تختلف تماما عما سائد في المتروبول ،و حتى لغته الجديدة **"باباوات"**[1] أصبحت بعيدة عن اللغة الفرنسية .وأصبح هذا الجيل يطلق على نفسه الجزأريون **"ألجيريانيست"« Algérianiste »** كتعبير وتيار مرادف للانفصال ومضاد لدعاة الإدماج و الإلحاق [2]« simulationnisme »

كانت كتابات **" لويس بارتراند"**[3] **و"أندري جيد "**[4]نهاية القرن 19،-والتي سنتطرق لها بالتفصيل لاحقا-،قد وجدت أنصارا لها في الوسط السياسي والثقافي ،وتبنى الكثير من أساتذة الجامعة والمراكز العلمية وطلابها نفس الأفكار الانفصالية بل وجعلوا منها مشروعا سياسيا انفصاليا أدى إلى التسبب في الكثير من المناسبات أحداثا أليمة ومأساوية ،وعلى شكل حركات تمرد انفصالية صغيرة **« révolutions manquées »**سنوات 1870 ،1898لم تكتمل ولم تعرف تجاوبا كبيرا من قبل أكثرية المستوطنين [5].

وبعد تأسيس**" مجلس النيابات المالية"** عام 1901دخلت الجزائر مرحلة جديدة من الاستقلال الذاتي الجزئي،ووجد المستوطنون الفرصة الكاملة لإحكام سيطرتهم أكثر على المستعمرة ،وأصبح الحلم يكبر لدى الكثير منهم بإمكانية الانفصال وبناء جزائر جديدة إفريقية الأرض[6]،لاتنية الشعب متوسطية الانتماء،ومنذ بداية القرن وإلى غاية رحيل المستوطنين من الجزائر انتشرت الأفكار الانفصالية،وكانت بمثابة مشروع لدى الكثير من النخب السياسية

---

[1]-لغة "الباباوات"،هي لغة الحديث والكتابة للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر نهاية القرن 19 ،وبداية القرن العشرين ،خليط من الفرنسية والاسبانية والعربية ،أي اللغة الدارجة المبتكرة آنذاك ،تتجلى في كتابات "كاغايوس "أو "زوج سوردي"وهي مجموعة قصص للكاتب الساخر "أوغيست روبيني"الذي عاش مابين (1862-1930).للمزيد أنظر الفصل الثالث،أنظر أيضا :
–سعد الله (أبو القاسم)،**"الاستعمار والثقافة بالشعبية في الجزائر"**،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ،ج4،ط1،دارالغرب الاسملايم للنشر ،بيروت،1996

[2] - Hourant(Georges –pierre),**Les autonomistes les séparatistes chez les français d'Algérie (1830-1962)**, L'Algérianiste,N°90,Juin2000 ,p48.

[3]-لويس برتراند(20مارس 1866-6ديسمبر 1941)،كاتب وروائي واقعي فرنسي ،من أنصار الاحتلال الفرنسي للجزائر ،وأحد المثقفين الفرنسيين الذين نادوا بفرنسة الجزائر ،على اعتبار أن شمال إفريقيا امتداد للامبراطورية الرومانية ،وأن العرق اللاتيني يجب أن يتسيّد الشعوب ،من أشهر مؤلفاته ،"دم الأعراق ".أنظر :

-Auguste Petit, **Louis Bertrand souvenirs de Dijon** ,Lecture faite A l'Académie delphinale dans la séance de 24 novembre 1865,Imp de Prudhomme,Grenoble,1865.

أنظر أيضا:الفصل الثالث

[4]-أندري جيد(22نوفمبر1869-19فيفري1951)،كاتب وروائي فرنسي،حاصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1947،واحد من كبارالكتاب الفرنسيين خلال النصف الأول من القرن 20،ووقد عرفه القراء العرب آنذاك بروايات التي ترجم العديد منها إلى العربية ،ومن بينها "أقبية الفاتيكان"و "المزيفون"و"الباب الضيق"،كشف عن تعلقه المبكر بأفكار نيتشه ،سافر إلى الجزائر سنة 1893،وقد ترك أدبه وسمعته فيها أثرا في ميلاد الأدب العربي المكتوب بالفرنسية ،للمزيد يرجى الإطلاع على الفصل الثالث،أنظر أيضا:

-ar.m.wikipedia.org.

[5] - Hourant(Georges –Pierre),op-cit,p49.

[6] - Girault(Arthur),**Principes de colonisation et de ligislation coloniale ,L'Afrique du nord et Algérie** ,3eme partie ,Cinquième édition, Société anonyme de recueil sirey 1927,p106.

والفكرية كان يطرح بقوة كلما شعر المستوطنون بالخطر يحدق أكثر بوجودهم أو كلما أحدثت فرنسا إصلاحات في فائدة المسلمين الأهالي[1].

مع نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت المشاعر القومية والأفكار الانفصالية تتلاشى وتضعف،فكل عوامل قوتها بدأت تخبو أمام تنامي الروح الوطنية للأهالي المسلمين واندلاع الحرب عام 1954، لتعود مشاعر الخوف من المستقبل،والتي ازداد تأثيرا على أوروبي الجزائر كلما زاد الإحساس بأن فرنسا عاجزة على تأمين حياة المستوطنين[2] .و تحول رافضوا التجنس إلى أعداء جدد بالنسبة للفرنسيين ،وأصبحوا ينعتون بالأجانب وتحولوا إلى مجموعة موازية للفرنسيين (الأصليين والمتجنسين) ،بل فئة خطرة تحلم بالانفصال .وكان 92000من الأسبان أكثر ما يثير قلق فرنسي الجزائر البالغ عددهم نهابة القرن 160000،على اعتبار أن عدم تقبلهم للجنسية الفرنسية كان يعني إخفاء نوايا وأطماع انفصالية خطيرة[3].

خلاصة لما تقدم نقف عن النقاط التالية:

1/لقد كان لعمليات تجميع مجموعات بشرية مختلفة الأصول العرقية محاولة صهرها في مجتمع واحد كانت مهمة مستحيلة ،فقد فشلت كل نظريات الدمج الاجتماعي التي ناد بها علماء الاجتماع الفرنسيون في تكوين أمة واحدة ،إذ كان التمسك بالروح الوطنية والأصول العرقية وبالعادات والتقاليد واللغة الأصلية عامل مهما في بطء عملية الإدماج وسياسة التجنيس الاختياري للأقلية الأوروبية في الأمة الفرنسية ،ولم يكن ذلك ممكنا إا في نهاية القرن التاسع عشر حينما تم سن قانون التجنيس الأوتوماتيكي .

2/مارس المستوطن المتعصب –عدا القلة منهم -عنصريته المقيتة ضد الأهلي المسلوب من أرضه وحريته وحرمه من كل مقومات الحياة الكريمة .كما مارس نفس تلك العقلية المتعالية والنظرة الفوقية على بني جلدته ، وهو ما مثّل عائقا دون خلق مجتمع منسجم في علاقاته الداخلية ،وساهم في تكوين مجتمعات وأنوية صغيرة ومتنافرة عن بعضها البعض ،يعتريها حالة التمزق والاغتراب والشعور بعدم الانتماء والتضحية لأمة جديدة لا يؤمن بوجودها.

[1]- Hourant(Georges –Pierre),p-p50-52.
[2] -Ibid,p,p53,54.
[3] - Populus,op-cit,p,p19,20.

ثالثا: يهود الجزائر المفرنسين بين الإدماج عن طريق التجنيس ومشكلة معاداة السامية

كان أحد أهم أهداف السياسة الاجتماعية للسلطات الاستعمارية هو تشكّيل القومية اليهودية وصياغة هويتها بما يتناسب والمشروع الاجتماعي الاستعماري،ووفق استراتيجية كان المُراد منها دمج اليهود الأهالي في المجتمع الاستيطاني الجديد ،ورفع تعداد فرنسيي الجزائر،وسلخ الطائفة اليهودية من هويتهم الأصلية وإخراجها من انتمائها الجزائري ، وإلحاقها بالهوية الفرنسية .**فألى أي مدى تمكنت استراتجية الاحتلال في جذب هذه الطائفة نحو المجتمع الجديد(الفرنسي –الأوروبي)، وما طبيعة العلاقات بين يهود الجزائروفرنسا من جهة ؟وعلاقتهم بفرنسي وأوروبي الجزائر من جهة ثانية؟.**

1-البنية العرقية –الثقافية (Ethnoculturelle)و تطورالحياة الاجتماعية ليهود الجزائر داخل المجتمع الأوروبي(1871-1945)

أ -الأصول العرقية ليهود الجزائر

يعود تواجد اليهود في الجزائر إلى العصور القديمة ،يبدأ من العصر البزنطي،بل وتعيده بعض الدراسات قبله ،واستمر وجودهم إلى غاية الاحتلال الفرنسي ،وقد تعايشوا مع الجزائريين الأهالي في فترات تميزت أغلبها بالتسامح الديني[1] والتعايش الانساني .

وخلال العهد العثماني عرفت الطائفة اليهودية التي عاشت بالجزائر على أنها فئتين رئيسيتين، هما : اليهود الأهالى، ذوي التاريخ العريق على هذه الأرض، الذين توالوا على البلاد منذ ما قبل الميلاد حتى الفترة التي سبقت المطاردات المسيحية الإسبانية لليهود في القرن 14 م والقرن 15م ودفعت بالآلاف منهم إلى الهجرة إلى الجزائر. وكذلك اليهود القادمين منذ هذا التاريخ من أوربا ومن إسبانيا بصفة خاصة إلى مختلف المدن الجزائرية حيث استمر تدفقهم على البلاد حتى وقت متأخر من فترة الحكم العثماني.

[1]-للأسف تقدم لنا المصادر الفرنسية صورة غير حقيقية وقاتمة لحالة اليهود خلال فترات الحكم الإسلامي ،منذ الفتح ،وإلى غاية الحكم التركي ،فهاهو المؤرخ الفرنسي أرسان بروتاي،يرى بأن العرق اليهودي في الجزائر العائد إلى عهد طويل،والذي أرجعه إلى نهاية مملكة القدس على يد البابليين،كان مهمشا ومضطهدا ،ولم يشكل اليهود فئة هامة في المجتمع الجزائري إلا بعد طردهم من أوروبا خلال القرن الثالث عشر ،ويضيف مثل غيره من الكتاب اليهود الناقمين على الجزائر،بأن اليهود قد عانوا من اضطهاد الأتراك والموريسكيين والعرب.وقد أرغم الأتراك العرق اليهودي على لبس السواد،ولم يتحرر اليهود من هذا الظلم وسوء المعاملة إلا بعد دخول الفرنسيين لمدينة الجزائر ،وأصبحوا مثلهم مثل يهود أوروبا يتمتعون بالحرية وحسن المعاملة.للمزيد أنظر :

Breteuil (Arsène) ,**L'Algérie française, histoire, mœurs, coutumes, industrie, agriculture, botanique** , Imp Simon Raçon , Paris-1836,p348.

الفئة الأولى تدعى توشابيم (tochabim) بالعبرية Les و(tochab)بالفرنسية والأهالي بالعربية، أما الفئة الثانية فتعرف بـ ميغورشيم (Megorachim)بالعبرية(LesMegorach) بالفرنسية ويهود الأندلس أو إسبانيا بالعربية [1].

***اليهود الميغوارشيم أو "السفارديم":**وهم في أغلبهم يهود الأندلس ،المهجرون من الأندلس ، وضحايا الاضطهاد الديني الاسباني ،ويسهل التميّز بينهم وبين اليهود التوباشيم من حيث المظهر ، فهؤلاء يضعون في العادة على رؤوسهم لحاف قماشي ،أو "العمائم"،أما اليهود الميغوارشيم فيضعون على رؤوسهم ما يعرف ب"البريطة"[2].ويعرفون أيضا ب: الكبوسيين نسبة إلى الكبوسة الحمراء التي كانوا يضعونها على رؤوسهم،وهناك أيضا من يلقبهم ب" السفارديين"« Les Sepharades » أو «Saphardim » بالعبرية[3]، وبحكم تكوينهم الديني المتفوق لفى الفئة الأولى ، وإمكانياتهم العددية والمادية والعلمية،النابعة من البيئة الأندلسية،فقد استحوذوا على المراكز الهامة للجالية اليهودية [4].

وكان اليهود الميغوارشيم،إلى جانب أنهم أكثر قربا من الجزائريين ،بحكم الاضطهاد الذي عانوه من قبل الاسبان والبرتغاليين خلال محاكم التفتيش ، كانوا أكثر ثقافة وتدينا وعلما من إخوانهم التوشابيم، كما وضعوا قواعد أساسية للتنظيم الداخلى للطائفة اليهودية بمدينة الجزائر، وهذا بهدف تنظيم وتحسين الأحوال الثقافية والاجتماعية،وتقنين أطرالمعاملات،ووضع أسس المبادلات الاقتصادية والتجارية للجماعات اليهودية المحلية،وهذا ما جعلهم يملكون مكانة في المجتمع الجزائري –التركي،واستمر الأمر كذلك حتى قدوم الفرنسيين[5].

***اليهود التوشابيم :** أصبح التوشابيم مع مرور الزمن عنصرا منصهرا في المحيط الثقافي - الحضاري والاجتماعي الجزائري يصعب تميزهم عن غيرهم من الجزائريين لولا اختلاف

---

[1]-سعدالله (فوزي)،**يهود الجزائر هؤلاء المجهولون** ،ط2،شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر-2004، ص142.
[2]-مناصرية (يوسف)،**النشاط الصهيوني في الجزائر 1897-1962**،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر-2013،ص73.
[3]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق،ص143.
[4]-الهنسي (أحمد) ،"**يهود الجزائر في الفكرين الاستشراقي والسياسي الإسرائيلية**"،مجلة دراسات شرقية ،مجلة فصلية محكمة تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية،العدد الرابع عشر،السنة الخامسة،ربيع 2018،ص22.
[5]- طوبال (نجوى)،**طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر 1700-1830م من خلال سجلات المحاكم الشرعية** ،دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر-2008،ص192.

الدين والطقوس الروحية والطبائع النفسية المكتسبة من التلمود ومن قرون التشرد والتشتت[1]. وكلن لعمق الاندماج والانصهار الثقافي في المجتمع الجزائري لهذه الفئة اليهودية أدى بالجزائريين المسلمين إلى تسميتها ب"اليهود العرب" أو اليهود الأصليين الأوربي الأصل. ولقّبهم آخرون ب**" اليهود الشيكليين"** نسبة إلى الشيكلة، وهى صفيحة معدنية كانوا يعلقونها حول أعناقهم لتمييزهم عن غيرهم. ثم ظهرت التسمية العبرية الجديدة في الأوساط اليهودية المعروفة بـ **"التوشابيم"** القرن 4 إثر أحداث إشبيلية وقشتالة والباليار في1391م[2].وبلغت درجت الانصهار في المجتمع الجزائري أن تعايش هؤلاء جنب إلى جنب داخل القرى والمدن،ولكن بالطبع في أحيائهم الخاصة المحاطة بالسرية والحذر،سرية أفكارهم ومعتقداتهم،والتي مارسوا من خلالها حياتهم بشكل طبيعي في مجال الصناعات التقليدية والتجارة[3] .

وبالرغم ما يوحد الطوائف داخل الشعب اليهودي من عقائد دينية وتقاليد وأعراف من العهد القديم ، إلا أن طوائفه تختلف عن بعضها البعض في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافات المكتسبة بسبب اختلاطها وانسجامها بالمجتمع الجزائري المسلم [4]،ويبقى دوما الميغوراشيم ،ومعهم الليفورن أقرب إلى السلطة والمجتمع من اليهود التوشابيم ،بالرغم من الروابط التاريخية والجغرافية التي تحكم المجتمع المسلم بهذه الطائفة .وفي هذا السياق كتب الكاتب ورجل الدين اليهودي **"ريباش** "مايلي:**"هناك من يطالب إدخال إصلاحات داخل الطائفة "يقصد التوشابيم"،فهم جامدون ،وغير قابلون للتجديد ،محافظون ، ومتزمتون**

[1]-لقي اليهود في الجزائر معاملة قل نظيرها في البلدان الأخرى ،والتي عانوا فيها الاضطهاد الديني والتمييز العرقي والطائفي كألمانيا والنمسا وبولونيا وغيرها ،حيث تحدثت المصادر الأمينة وغير المنحازة إلى أن هذه الطائفة عاشت مجالا كبيرا من الحرية في المعتقد والممارسة التجارية وحسن الجوار من قبل الأهالي الجزائريين ،وإن كانت بدرجة أقل عند حكامها من الأتراك ،والتي اختلفت في نوعها حسب الطبقة الحاكمة والظرف السياسي السائد آنذاك،وقلة هدي المصادر التي تحدثت عن سوء المعاملة التي لقيها اليهود من قبل الأهالي ،وهي في أغلبها أجنبية وفرنسية بشكل خاص ،أرّخت لحياة اليهود قبل الاحتلال وخلال عقوده الأولى ،وتبقى قليلة الوثوق بها نظرا لطبيعة الكتابات الصادرة آنذاك ،والتي تمجد الاحتلال الفرنسي وتسيئ للجزائريين ،كوسيلة واداة لتبرير الاحتلال وتلميع صورة الفرنسي في نفس الطائفة اليهودية ،في ظل التقارب اليهودي الفرنسي ،الذي اتضحت معالمه بدايات القرن 19.للمزيد حول الموضوع ،يرجى العودة إلى المصادر التالية

-جريس (صبري)،**تاريخ الصهيونية1862-1917** ،الجزء الأول ،ط2،مركز الأبحاث للنشر ،منظمة التحرير الفلسطينية ،بيروت-1981، ص، ص14،15.

- De Ligneau(Jean),**Juifs et antisémites en Europe**, Librairie de Saint-Joseph,Paris-1891.

-Teranga(Victor),**Sur les psychoses chez les juifs d'Alger,** Imprimerie Delord-Boehm-et Martial, Montpellier,1902,p-p14-16.

[2]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق،ص143.

[3] - Garrot (Henri) ,**Les Juifs Algériens Leurs origines** ,Librairie Louis Relin ,Alger-1898,p-p36-40.

[4] -Martin(Claude),**Les israélites algériens de 1830à1902**,Edition Herakles,Paris-8-1936,p16.

"[1]. ولعل هذا ما جعلهم أبعد عن إدارة الاحتلال ،وأكثر عزلة ورفضا لمشاريعه التجنيسية والإدماجية ،ويجعل طائفة الميغوراشيم تفضل الارتماء في السياسات الفرنسية ،وأكثر انفتاحا على الحياة الفرنسية والأجنبية الأوروبية بشكل عام 2-**لمحة عن الحياة الاجتماعية والثقافية للطائفة اليهودية في المجتمع الجزائري**

ب-الحالة الاجتماعية لليهود المتجنيسين داخل المجتمع الأوروبي

مرت الطائفة اليهودية بالجزائر بتطورات عميقة وشاملة ،منذ القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر ،تحت تأثير المستجدات والتطورات الجديدة التي طرأت على حوض المتوسط والعالم في هذه الفترة، إذ أثرت على وضعيتها داخل المجتمع الجزائري، وعليه، فقد اضطر اليهود تحت كل هذه الضغوط والاضطرابات إلى البحث عن توزانات ومواقع جديدة حيث يمكنهم أن يعيدوا هيكلة أمورهم في مناطق أكثر أمنا واستقرارا، وأدى هذا إلى حركة جماهيرية عفوية من مراكز تجمعهم التقليدية في المناطق الداخلية وفي العمق الجزائري إلى المدن الشمالية .وبذلك عرفت حركية التمدن تسارعا كبيرا بتدفق عدد كبير من العائلات اليهودية الجزائرية إلى جانب تلك المتوافدة من الأندلس على أهم المدن الشمالية كالجزائر و وهران وقسنطينة ومستغانم وتنس وتلمسان وشرشال وبجاية..، حتى أصبحت المراكز الحضرية الكبرى تشكل أهم نقاط تمركز العنصر اليهودي في الجزائر في ظرف لايتجاوز قرنين ،وهذه الحركة التمدنية،مثما يؤكد ذلك "**ريشارد حيّون**" و" **برنارد كوهين**"، بدأت قبل القرن 15م، إلا أنها نشطت أكثر منذ هذا التاريخ وطوال القرن 16م إلى أن أصبح معظم أفراد الجالية خلال القرن 18،حتى خلال التواجد الفرنسي طيلة القرن 19 من سكان المدن الكبرى ،عدا يهود بني ميزاب وبعض الواحات ،الذين ظلوا بالجنوب[2].

أما من حيث التعداد ،فلا يمكن تحديد رقم معين لأعداد اليهود عشية الاحتلال ،على اعتبار أن معظم المصادر المستقاة تختلف في الأعداد ،كما أن بعض المصادر-والتي هي معظمها أجنبية - تقتصر بإعطاء تعدادا لليهود في المدن الكبرى ،كالجزائر العاصمة،والتي قدر

[1]- Abraham (Cahen),**Les juifs dans l'Afrique septentrionle** ,Extrait du recueils des notices et mémoires,Ed Typographie et lethographie .L Arolet,Constantine-1867, p,p64,65.

[2]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق،ص132.

القنصل الأمريكي "شيلر"« Shaler » عددهم سنة 1818 بحوالي "5000يهودي".وهو نفس العدد الموجود في قسنطينة ،وبأعداد أقل في المدن الأخرى مثل وهران وتلمسان[1] ،وقد قدّرت بعض المصادر والمراجع التاريخية عدد اليهود عشية الاحتلال بحوالي 30000نسمة[2] .بحيث أحصي وجود 6500يهودي يعيشون بجوار الأهالي في العاصمة الجزائرية بنسبة 20 %من سكان المدينة ،أما في قسنطينة فقد قدرت أعدادهم 4000نسمة،وفي مزفران ووهران وتلمسان بلغ تعدادهم 3000نسمة ،ولم يقتصر تواجدهم على المناطق الحضرية،بل تقاسموا مع الجزائريين الأهالي نفس الأنماط السكنية في بعض المناطق الريفية والبدوية ،فقد سكن اليهود في أولاد ميمون قرب سوق أهراس الخيم،وعاش بعضهم في مدن وادي ميزاب وفي واحات الأغواط بين السكان الإباضيين[3] .

وقد قدر بودان أعداد اليهود في الجزائر إلى غاية 31ديسمبر 1851ب21048نسمة ،في حين كانت أعدادهم حسب إحصاء 31 ديسمبر 1849ب19028نسمة ،بزيادة قدرت 2020نسمة ،وفي اتجاه معاكس عما كان يسير عليه المنحى الديمغرافي للأهالي المسلمين ،والذي شهد تباطأ مع مضي السنون،وقد توزع معظمهم في العمالات الشمالية الثلاث أغلبهم في عمالة وهران والتي قدر عدد اليهود فيها ب8891أغلبهم أطفال ب 3947طفل[4]. غير أن حياتهم في ظل الحكم الفرنسي ،و تحسن الوضع السياسي ،والاجتماعي،والاقتصادي في المستعمرة بشكل عام ،وعلى الطائفة اليهودية بشكل خاص ،قد ساهم في تطور أعدادهم ،كما هو موضح في الجدول التالي[5].

السنة	1851	1861	1872	1891	1901	1911	1921	1931
ع/السكان	21000	28097	34574	47459	57132	70271	73967	110000

أما من حيث النشاط الاقتصادي فقد امتهن اليهود التجارة ،والتي سيطروا عليها بكل كبير ،كما احترفوا عدة مهن ،كإصلاح الساعات ...وبعض الحرف التي امتهنها الأهالي

[1]- نفسه،ص138.

[2] - Dermenjian Geneviève, « **Les juifs d'Algérie dans le regard des militaires et des juifs de France à l'éoque de la conquête (1830-1855)** »,Revue Hisotique ,T284 ,Presses Universitaires de France,Paris ,p-p333-339.

[3]-كاتب (كمال)،المرجع السابق،ص268.

[4] - Boudin (Jean-Christian-Marc),op-cit,p06.

[5]- Eisenbeth(Maurice), **les juifs de l'Afrique du nord démographie et onomastique** ,Imprimerie de Lycée ,Alger-1936,p17.

الجزائريين،الخزف ، الصناعات التقليدية،وغيرها ،لكن نشاط المضاربة والأعمال الربوية ،وكان المجال المفضل للعائلات الكبرى[1].والتي برزت مع مر الزمن ،وتعاظم نفوذها خلال الفترة الأخيرة من الحكم التركي ،وخلال العهد الفرنسي ،ولعل أهمها أسر يهودية تحكمت في مفاصل المستعمرة ،وأبرزها عائلة سليمان،عائلة تابت ابراهيم،زرماطي،يعقوب،موسى في مدينة الجزائر،وعائلات اسحاق، ناهون، عارون، أواليد ،يوهري،في قسنطينة، وعائلات داوود،كنوي،سباعون،في وهران، عبر التستر بنشاط البنوك والمصارف والربح التجاري،على حساب المستوطنين ،وعلى الأهالي[2].

ومما يلفت النظر ،أن الكثير من هذه العائلات المتنفذّة كانت لها هويات مركبة ،ويصعب تحديد جنسياتها الأصلية ، نظرا لكثرة تنقلاتها واستقرارها في البلدان المتوسطية كإيطاليا ،فرنسا ،وتونس ..، وهو ما جعلها تنتمي لكل تلك البلدان ،ولا يجعلها في نفس الوقت لا تنتمي لأي بلد منها ،وقد كان هؤلاء كشركاتهم ومحلاتهم متعددي الجنسيات،فمثلا كانت عائلة "كوهين بريسيوزا"« Cohen Preciosa » ،مترددة ما بين مدينة الجزائر ومدينة ليفورنو الإيطالية ، وبنفس الحالة عائلة ستورا« Stora » ،سالومون« Salomon » ،مريام بالشيم« Meriam Balchim » ،واللواتي قضين وقتهن بين إيطاليا والجزائر[3].

أما فيما يخص العلاقات العامة مع الأهالي الجزائريين بشكل عام ،بين المد والجزر ، التعايش أحيانا والتصادم أحيانا أخرى ،ففي أصعب الحالات المتأزمة مارس الأهالي نوعا من العنف والتسلّط والانتقام ضد اليهود ،كمصادرة الأملاك الممنوحة لهم من قبل البايلك ،وفرض ظرائب إضافية من قبل أعوان الإدارة التركية ،وفي حالات قليلة إجبارهم على إظهار الطاعة والاعتذار للأهالي برفع أحذيتهم فوق كاهلهم كلما مروا بالأماكن المقدسة للمسلمين،وغيرها من التصرفات التي تعبر على عمليات الإخضاع والعقوبة النفسية[4]

[1] -Garrot (Henri),op-cit,p,p60,61.

[2] - Meynie (Georges) ,**Les juifs en Algérie**,3éme édition, Nouvelle Librairie Parisienne Albert Savine, Editeur, Paris-1888,p,p57,58.

[3]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق،ص139.

[4] -Taupiac(c),**Les Israélites indigènes**, Challamel Librairie ,Paris-1871,p09.

سكن اليهود بمختلف طوائفهم وأصولهم بشكل مختلط مع الأهالي ،سواء في المدن أو الأحياء ، كما هو الحال لليفورنيين ،لكن في حارات خاصة بهم ،وبشكل منزوي ومنغلق و سري على العالم الخارجي ،وبعيدا عن الأعين الفضولية ،عدا القلة منهم التي فضلت الإنخراط بالمسلمين لظروف فرضتها في الأنشطة السياسية والاقتصادية . وقد نشأت هذه الحارات الخاصة باليهود في العهد التركي،ففي قسنطينة نشأت حارة اليهود بأمر من صالح باي المعروف بتسامحه وكرمه مع اليهود،بحيث اقتطعت لهم أراض واسعة بسيدي الكتاني،وفي وهران فقد تأخر ظهورها بعد تحرير الباي المدينة من الاسبان عام 1792،وخصص للوافدين اليهود من مستغانم وتلمسان وندرومة ومعسكر مكانا للإقامة فيه،وفي غرداية تعايش بنوميزاب مع يهود المدينة في جو من التسامح وبدون اظطرابات كثيرة [1].

وفيما يتعلق بعادات يهود الجزائر الأصليين وتقاليدهم ،فنجد في كتابات الباحثة" **لويس ريجيس**" ، والتي استقرت لمدة غير قصيرة في كل من قسنطينة وباتنة وبسكرة وصفا لحياتهم اليومية ولعاداتهم وتقاليدهم ،حيث ركزت على إيضاح التفاصيل في ملابس اليهود ،حيث ذكرت بأن اللباس كان انعكاسا طبيعيا للتغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع ،ففي الوقت الذي كان الجيل الجديد ،ولاسيما أبناء الطبقة الغنية قد ارتدى اللباس الأوروبي ،فقد حافظ الآباء على اللباس التقليدي الذي يشبه إلى حد كبير لباس الأهالي المسلمين .غير أن ما اهتمت به ريجيس هو الوصف الدقيق للباس اليهوديات ولا سيما المتزوجات منهن ،حيث كتبت:**"بعد زواجهن يغطين رؤوسهن بمنديل من الحرير الأسود على شكل قبعة على الجبين ،يربط من الخلف،كما يوضع قماش آخر من الدنتيل ، حيث يطوى ويمرر حول الذقن ّ،ويربط حول الرأس،.تلبس النسوة على الدوام فستانا من الحرير ، وسترة صغيرة مطرزة بالذهب ،مفتوحة من الذراعين،،ويضعن على أكتافهن شال مطوي بلون رماني..."**[2].

ج-الثقافة اليهودية والتغريب أو أزمة الهوية المستمرة : ليس المقصود هنا التعريف بالثقافة اليهودية الأصلية في تشكيلها ومقوماتها وتراثها وموروثها المعرفي والفلكلوري ،وإنما الغاية

[1]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق ،ص،ص140،141.

[2]- الواعر (صرينة)،"**يهود مدينة قسنطينة من خلال رحلات الفرنسيين إبان القرن 19**" ، مجلة عصور الجديدة ، مجلة علمية فصلية محكمة يصدرها مخبر تاريخ الجزائر ، العدد 18عدد خاص عن قسنطينة ،جامعة وهران 1، صيف 2015،ص184.

من الدراسة هو فهم سياقها وسيرورة تلك الثقافة وتغيراتها خلال احتكاكها بالثقافتين الأهلية والأوروبية خلال الفترة الاستعمارية .

وعموما فإن الثقافة اليهودية في مجملها ثقافة محافظة جدا ومنغلقة على نفسها متمسكة جدا بتقاليدها الدينية المستقاة من الأسفار اليهودية ،غير أن ذلك الفكر الديني المحافظ يختلف من منطقة إلى منطقة ،وحسب الظروف والمتغيرات التاريخية والاجتماعية التي مست الطائفة اليهودية،ففي دجينة وهران ،فقد تعرضت الثقافة اليهودية إلى التأثر بالثقافة الاسبانية المسيحية ،نظرا للقمع الديني والفكري الذي تعرض له يهود المدينة من قبل الاسبان المحتلين ،في حين نجد أن يهود قسنطينة كانوا اكثر تحفظا وانغلاقا ،وأكثر طوائف اليهود في الحواضر الجزائرية محافظة وتمسكا بالتقاليد الدينية والتعليمية اليهودية [1].

لقد كان لدخول يهود الأندلس (الميغورشيم)،ويهود ليفورنو (إيطاليا) على المجتمع اليهودي الأصلي (التوشابيم)آثار ونتائج على الهوية والثقافة اليهودية في الجزائر،وإذا كان اليهود الأصليون قد اندمجوا وتعايشوا مع الثقافة الجزائرية قبل الاحتلال ،وأصبح فقط المظهر الخارجي والعادات والتقاليد والدين هي الفيصل الذي يحدد البيئة الثقافية ،طبيعة الهوية لكل مجتمع ،فإن مجيئ يهود أوروبا واختلاطهم باليهود الأصليين ،قد جرّ هؤلاء إلى الانحدار شيئا فشيئا نحو الثقافة والحضارة الغربية التي اكتسبها اليهود القادمون ،وزاد الانسلاخ من الثقافة الأصلية اتساعا بعد قدوم المستوطنين الأوروبيين إلى الجزائر ،وعمليات الإدماج المتواصلة التي قامت بها الإدارة الفرنسية ، بالتعاون مع كبراء اليهود الأوروبيين سواء بأوروبا أو الداخل .ولم تسلم من عمليات السلخ الثقافي هذه سوى التجمعات الصغيرة لليهود الأصليين ،في الأوراس أو جرجرة أو غرداية ،أي في المناطق المعزولة[2] .

وفي نظر المؤرخين والكتاب اليهود فإن ما يسمى بعملية التغريب ،أو مسخ ثقافي لليهود الأصليين(التوشابيم)هي إدعاءات،ومايحدث ليس إلا ذوبان عفوي وتلقائي للثقافة التوشابيمية في الثقافة الميغورشيمية ،واندماج الثقافتين معا في الثقافة الليفورنية (الثقافة الإيطالية الغربية)،لتكتمل عملية الاندماج في الثقافة والحضارة الفرنسية ،والتي لا ينظرون إليها كثقافة

[1]- الهنسي (أحمد)،المرجع السابق،ص،ص13، 14.
[2]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق،ص،ص147،148.

محتل ،بل ثقافة جالبة وناقلة للحضارة والثقافة العالمية ،بل أكثر من ذلك يعتبرون أن عملية المثاقفة الجديدة هي تصحيح لمسار "الثقافة اليهودية الجزائرية "،التي تحورت وتعرضت للاختراقات المقصودة من قبل ثوابت الثقافة الجزائرية "العروبة –البربرية – الإسلام"،وأبعدتها عن هويتها اليهودية الصحيحة ،ولذا فإن كل رافض من الطائفة الأصلية للاندماج والتغريب تلقى الاحتقار والازدراء من قبل الطبقة التي ترى نفسها متحضرة ومنغمسة في الثقافة الفرنسية [1].

ومن جهته فقد عمل الاحتلال الفرنسي على زيادة القومية اليهودية في الجزائر ،عبر تجميع اليهود من كافة الأقطار الأوروبية ،وحتى من البلدان المغاربية (تونس ،المغرب) في الجزائر،ولايمكن أبدا إغفال الدور الهام ليهود فرنسا في الضغط على حكومة باريس لنقل يهود أوروبا وفي البلدان المجاورة وتوطينهم بالجزائر،بحيث كان المال والبنوك التي يملكها اليهود في أوروبا وسيلة ضغط وابتزاز على الحكومات الفرنسية المتعاقبة[2] ولاسيما في الفترات العصيبة التي تمر بها فرنسا ، ولعل اضطرار رئيس الوزراء الفرنسي **"تيار"**[3] على التوقيع على **"قرار كريميو"** الذي منح الجنسية الفرنسية بصورة جماعية لليهود حتى يتمكن من الحصول على قرض قيمته 5ملايين فرنك من إحدى البنوك اليهودية الكبرى[4].من هنا نطرح السؤال التالي : لماذا تبنت السلطات الفرنسية سياسة احتواء اليهود وتفضيلهم على المسلمين وإلحاقهم بالمجتمع الأوروبي، بالرغم من أن شريحة عريضة من المستوطنين كانت تعارض ذلك ،وترفض أن تنافسها مغانمها الاقتصادية والسياسية ؟.

لعل لهذا التقرب الاستعماري من الطائفة اليهودية بالجزائر له مسبباته،وأهمها:

---

[1]-المرجع نفسه،ص148.

[2]- من خلال عملية البحث عن بدايات التقارب اليهودي الفرنسي ،نجد أن بعض المصادر المستقاة تتحدث عن أن الملك لويس فيليب قد وطّد علاقاته بيهود فرنسا ،نظرا لحاجة الملك آنذاك للمال اليهودي في دعم الاقتصاد والبنوك الفرنسية ،ولحاجة الأقلية اليهودية لدولة أوروبية قوية تتبنى الأطروحات اليهودية فيما يتعلق بالحقوق العامة ،وتدافع عنها،ولذا فليس من الغريب أن ينعكس ذلك على يهود الجزائر إيجابا ،وينالوا نوعا من السطوة والمكانة لدى إدارة الاحتلال الفرنسي،وقد ذكر الباحث"جون دو لينو",(Jean)de Ligneau الأسماء والعائلات الكبرى المتنفذة في أعلى هرم الدولة في عهد الملك فيليب المساواة .للمزيد حول الموضوع اطلع:

- De Ligneau(Jean),op-cit ,p-p27-33.

[3]-أدولف تيار« Adolphe Thiers » (15أفريل 1797-03سبتمبر 1877)صحفي ،ومحامي ورجل دولة فرنسي ورئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة مابين (31أوت 1871-24ماي 1874)،بعد سقوط الإمبراطورية الثانية إثر هزيمة أمام بروسيا في حرب 1870عُين كرئيس تنفيذي لحكومة الإنقاذ الوطني في فيفري 1871،وأمر في ذات العام حكومته بقمع ثورة الكومون بباريس ،يعد أحد المناهضين للملكية ،وأحد مؤيدي الاستيطان الأوروبي في الجزائر ،وساهم في صدور قرار كريميو المشؤوم ،وبالتالي فهو أحد أشهر القادة الفرنسيين دعما للسياسة الاستيطانية في الجزائر ،أنظر:

- Dubreton (Jean Lucas **), Aspects de Monsieur Thiers**, Arthème Fayard, Paris- 1948.

- Pomaret (Charles Henri), **Monsieur Thiers et son siècle**, éd ,Gallimard, Paris- 1948.

[4]-معوشي(آمال)،**يهود الجزائر والاحتلال الفرنسي (1830-1870)**،منشورات وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر-2013،ص78.

محاولة تسخير اليهود لخدمة المصالح الفرنسية والاستفادة من خبرتهم السياسية والاقتصادية ، وسعي يهود فرنسا- برئاسة وزير الداخلية أدولف كريميو [1]–في تحسين أحوال اليهود الجزائريين[2] والعمل على جذب الأقليات للإدارة لاستعمارية ،لتجزئة المجتمع الجزائري المتماسك من عقود طويلة ، والعمل على خلخلته وتفتيته من الداخل ،وإضعاف قدرته على مواجهة سياسات الاحتلال الهادمة لبنية المجتمع الأهلي.

وقد لخّص الباحث الفرنسي **"هنري غارو"** سببية تعلّق كبار يهود الجزائربفرنسا دون غيرهم من اليهود الأهالي،وإدارة ظهرهم للأهالي المسلمين رغم ما كان بين المجتمعيين من تعايش وتجاور تمتد جذوره إلى أعماق التاريخ،بقوله**:" استمر ذلك التواصل بين فرنسا واليهود بعد الاحتلال ،وازدادت الروابط وثاقة بين الجانبين ،ففي الوقت الذي غضت فيه سلطات الاحتلال نظرها عن نشاط اليهود غير القانوني والأخلاقي ،استمر اليهود في عرض خدماتهم لها كأعمال الجوسسة ،وإذا وازنا بين الطرفين فإننا نجد بأن دافع اليهود لتقاربهم مع فرنسا كانت تحكمها المنفعة المادية لا أكثر ،فقد حوّل إغداق النعم على هؤلاء ،إلى فئة غنية متنفذة ،وبالمقابل أحسن هؤلاء استغلال الظروف لصالحهم أحسن استغلال،وهي نفس الظروف التي شكلت شخصيتهم المتعالية والاستغلالية "**ثم اختتم قوله**"،لقد أصبح مصيرنا بأيديهم ووجودنا في خطر..."**[3].

ومع ذلك،فقد وقف يهود الجزائر ضد سياسات الجمهورية الفرنسية الثالثة،بل وهاجموها في مراحل عديدة،فإذا كانت القلة القليلة قد رحبت في بداية الاحتلال بالحملة الفرنسية على الجزائر وباركت الوجود الفرنسي بالجزائر،فإن الأكثرية تحفظت وأبدت تخوفها من تزايد تأثير الجالية الأوروبية على هويتهم وممتلكاتهم،غير أن أكثر ما يثير الاستغراب هو تخوف اليهود وعلى رأسهم الحاخامات الأصليين الأهالي لقدوم يهود أوروبا إلى الجزائر،فقد وقف

[1]-جاء في القرار الذي أثدرته حكومة الدفاع الوطني يوم 24 أكتوبر 1870التي اجتمعت بمدينة تور مايلي:"إن حكومة الدفاع الوطني تقر بأن جميع الإسرائيليين الأهالي في عمالات الجزائر قد أصبحوا مواطنين فرنسيين ،وسوف ينتظم قانونهم الحقيقي والشخصي ابتداءا من إصدارهذا القانون الفرنسي ،وسوف يحتفظون بجميع الحقوق التي اكتسبوها .إن كل التشريعات وكل القوانين الصادرة عن مجلس الشيوخ والأمرات أو القوانين المخالفة لهذا القرار تعتبر لاغية"جاء هذا القرار مختوما بحررفي مدينة تور يوم 24 أكتوبر 1870،وحمل توقيع أعضاء الحكومة "تيار ،غامبيطا وأدولف كريميو"،هذا الأخير الذي حمل على عاتقه مهمة تجنيس كل يهود الجزائر وترقيتهم كمواطنين فرنسيين كاملو الحقوق .للمزيد أنظر :

-Huard(Raymond)« **Adolphe Crémieux et les institutions de la Seconde République** » , Revue d'histoire moderne et contemporaine de et du Gard ,Société d'histoire moderne et contemporaine de Nîmes et du Gard ,N° 16, Nîmes -2000, p-p 78-85

[2]- معوشي(آمال)،المرجع السابق،ص64.

[3] -Garrot (Henri),op-cit,p08.

هؤلاء موقفا معادٍ للحاخامات الكبار القادمين من فرنسا ،الذين قدموا لمهمة علمنة يهود الجزائر وتربيتهم على النموذج اليهودي السائد في فرنسا آنذاك،وعارض حاخامات الجزائر بشدة هذا النوع من الحداثة المستوردة من فرنسا على اعتبار أن التقاليد الثقافية اليهودية تتعارض في جوهرها مع بعض التدابير المقترحة من قبل الميتروبول، مثل المساواة في الميراث بين الفتيات والفتيان ،الزواج الأحادي -على الرغم من تعدد الزوجات كان جدا نادرة- ، والطلاق،وحتى التجنس مع فقدان الحالة الشخصية الذي اعتبره الحاخامات ردة،كما لقي الزواج المدني معارضة شديدة باعتباره حالة شاذة و خارجة عن تعاليم التوراة،وواصل المتدينون منهم الزواج السري في المنزل أو في الكنيس اليهودي غير المسجل لدى الهيئات الحكومية،مما سهّل لهم في نهاية المطاف الطلاق الخلاص من التبعات القانونية . أخيرا،دعونا نتذكرأنه كان هناك 142 يهودي فقط تقدم للحصول على التجنس بعد صدور« **senatus-consulte** » في 14 يوليو 1865 و هذا لا يرجع فقط بسبب لبطء الإجراءات ، التي كثيرا ما يستحضرها المؤرخون الفرنسيون،ولكن أيضا بسبب العدد الصغير من الطلبات[1].

شهدت الطائفة اليهودية نهاية التاسع عشر قرن وبداية من العشرين تغييرا تدريجيا لدى البعض وسريعا لدى البعض الآخر في الآداب العامة وفي نمط العيش وفي أسلوب الحياة ،وبدا التأثر بالزي الأوروبي جليا ،وأضحى الخروج بالملابس الأوروبية عادة ،ففي سياق حديثه عن أصوله قدم لنا **"بنيامين ستورا"**صورة تبين مدى التناقض بين جيلين،جيل محافظ بملابسه التقليدية وجيل متحرر ومقبل على الحضارة الأوروبية الجديدة يرتدي اللباس العصري [2].

تقبل يهود الجزائر الوجود الفرنسي بسهولة كبيرة ،وظهر الاندماج الثقافي والاجتماعي لهم في المجتمع الأوروبي الجديد ،وأصبح اليهود الشباب يتردد أكثر فأكثر على المؤسسات التعليمية الفرنسية ،ويتكلم بطلاقة اللغة الفرنسية ،وفي عام 1860لم يعرف اللباس اليهودي تغييرات كبيرة ،ولكن أصبح بإمكان اليهود اختيار الألوان التي تعجبهم ،أما في أعوام 1860-1870أصبح لباس الأطفال في المدن الكبرى يشبه ثوب الأطفال الأوروبيين ،وأضحى من

[1] - Dermenjian (Geneviève), **« Juifs d'Algérie (1830-1962): Une histoire entre mémoire et liens intimes »,** Quaderns de la Mediterrània**,**N°23 , Pensar el magreb contemporaneo **,**Institut catala Mediterrània d'estudis,Barcelona , 2016,p,p43,44.

[2]- Stora(Benjamin),**Les trois exils juifs d'Algérie**, Edition Stock, Paris- 2006,p27.

النادر العثور على شباب وشابات بلباس شرقي ،أما بالنسبة للمستوى الاجتماعي فقد تحسنت حياة أغلب يهود الجزائر ،وانتعشت تحت حكم الاحتلال التجارة واستمرت الحرف الصناعية التقليدية والتجارية الصغيرة في التمدد ،وأضحت تمثل المصدر الرئيسي الزرق للأغلبية منهم ،مثل الخياطة الطرز ،تصليح الساعات ...،وبالمقابل فقد سيطرت العائلات الكبيرة على العديد من أنواع التجارات ،واختفى الحي اليهودي ،وبدأت الحياة التقليدية للمجتمع اليهودي بالاختفاء بشكل تدريجي أمام موجة العصر وحياة التمدن[1] ،يبدو أن الحياة الجديدة التي أتى المستوطنون قد ألقت بظلالها على كل شيئ في حياة اليهود،فقد أورد المؤرخ **"أرنست فايدو"** عن ذلك التغير الطارئ مايلي:**"لقد تخلى اليهود عن برانيسهم البنية والسوداء ،ونزعوا عن رؤوسهم الطرابيش السوداء والزرقاء،التي كانت تميزهم من زمن طويل ، وارتدوا بدلها شاشية بيضاء صغيرة ،تردى في مناسبات قليلة ،وكان أكثر ما يضع هؤلاء على رؤوسهم قبعات من القطيفة مثل الأوروبيين ،وحل محل اللباس اليهودي البدلة الأوروبية ورابطة العنق العصرية "**وأردف قائلا:**"لقد ترك الكثير من اليهود الأصليون "الأهالي"منازلهم في الأحياء العربية ،وانتقلوا للعيش في الأحياء الأوروبية ،وعاشوا نفس الحياة التي تعيشها الأوروبيون ،وقد غيروا حتى أثاثهم التقليدي بالأثاث الأوروبي العصري،ففي مكان الأرائك التقليدية وضعت الأرائك العصرية ،وبدل الصناديق التقليدية وضعت الخزائن الصغيرة « Commodes »،وأصبح الاكل بالموسى والشوكة والملعقة ،بدل الأكل باليدين ،باختصار أصبح اليهود أوروبيون...."**[2]. ومن جهته بول بورد ،وهو مراسل لجريدة « Le moniteur universel »الذي اصطحب الرحلة البرلمانية المكونة لأكثر من23 من النواب وشيوخ مجلس السينا « Sénat »عام 1878 كتب عن التحول الاجتماعي الكبير الذي مس المرأة اليهودية بسبب التأثير الكبير الذي تركه الاحتكاك المتلازم لهؤلاء بالحياة الفرنسية الأوروبية في الجزائر ،وأثنى على التحرر الكبير الذي مس المرأة اليهودية ،بحيث أصبحت تتجول بلا محرم وكاشفة وجهها،وبعضهن يخرجن باللباس الأوروبي[3].

[1]- معوشي(آمال)،المرجع السابق،ص64.

[2] -Feydeau (Ernest),**Alger ,**Michel Lévy Frères Librairs-Editeurs,Paris-1862,p,p178,179.

[3]-الواعر (صبرينة)،المرجع السابق،ص178.

وهكذا أصبح اليهود أكثر انفتاحا على الأوروبيين وأكثر تقبلا لهم من المسلمين الأهالي ،وبالمقابل نظر إليهم عدد من الفرنسيون بصفتهم جماعة وفية لهم،كيف لا وقد قدم لهم اليهود عددا كبيرا من المترجمين الذين خدموا الفرنسيين في مختلف المجالات وتطوع العديد منهم في الجيش الفرنسي ، وضحوا من أجله في العديد من المعارك والحروب مثل حصار وهران 1833والمشاركة في الحرب الفرنسية البروسية عام 1870قبل صدور قانون التجنيس .

يبدو أن احتكاك اليهود بالمستوطنين الأوروبيين قد أدخل نوعا من التغير في البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع اليهودي المحافظ ،والأخذ بعادات الأوروبيين ،ففي قسنطينة أين تنتشر القبائل البدوية كان الإقبال بطيئا ،وتقبل الحضارة والثقافة الغربية ضعيفا،عكس يهود وهران والجزائر العاصمة ،الذين انكبوا على الأخذ من منابع الثقافة الفرنسية الجديدة [1]،حتى لقبوا من قبل المتعصبي ب"يهود الغرب" ،الذين استباحوا لأنفسهم الغوص في كل المحرمات ،المنهي عنها في التوراة والتقاليد والأعراف اليهودية[2].

ولما كان التقارب الفرنسي اليهودي أكثر وثاقة ،ارتأت سلطات الاحتلال الفرنسي دمجهم ،لاعتبارات سياسية واقتصادية،وديمغرافية بحتة،ومن أجل ذلك أصدرت قرارا لتجنيس اليهود عرف باسم **"قرار كريميو** ".

2-مسألة تجنيس يهود الجزائر وموقف المستوطنين الأوروبيين منها

أ-صدور قرار كريميو 24أكتوبر 1871 وتداعياته المختلفة

إن الدعوة للتجنيس كانت منذ السنوات الأولى للاحتلال ،وقد تطورت الفكرة مع الزمن ،حيث ومع كل تنظيم جديد للإدارة الفرنسية تتكرر دعوة كبار اليهود وعدد من رجال الدولة الفرنسية بإلحاقهم بالمجتمع الاستيطاني في الجزائر ،ففي سنة1835انتقل مندوبون يهود إلى باريس لمقابلة الملك **"لويس فيليب"** المعروف باهتماماته لليهود الفرنسيين الذي استقبلهم برعاية كاعتراف منه للمساعدة المقدمة من طائفته **"الفيالق النصرانية"**.وخلال تحقيق اللجنة الإفريقية التي أرسلت إلى الجزائر،أبدى رئيس الأمة استعداد اليهود لوضع أنفسهم تحت

[1]- معوشي(آمال)،المرجع السابق،ص،ص128،129.

[2]- Lazare (Bernard),**Le nationalisme juif,** Publication kadima,N°1,Imprimerie A Reiff, Paris-1898 , p07.

القوانين المدنية الفرنسية [1]،ومع ذلك فلم يصدر الملك أي قرار لتجنيس اليهود ،وظلت المسألة معلقة إلى حين.

ظلت دعوات تجنيس اليهود تتكرر ، خاصة لدى الفئة البرجوازية منهم،فخلال إقامة الإمبراطور **"نابليون الثالث"** في الجزائر عام 1860،وضع اليهود بين يدي وزير الجزائر" **م .دي شاسلو –لوبا "M de Chasseloup-Laubat**عريضة فصيحة وقعها 1000يهودي تدعو إلى رفع الظلم –المزعوم-عنهم،وتحديد موقع اليهود من سكان البلاد،وذلك من خلال وضعية قانونية رسمية ،وتترجاه فيها لفرنستهم جميعا ،وأثنوا على فرنسا التي حررتهم من طغيان بشع وبربري تعرضوا له من قبل الجزائريين،وخلال زيارته الثانية سنة1865استقبل نابوليون الحاخام الكبير **"شارفيل"**« Charville »في" **شاتونوف** **"** « "Château Neuf » بوهران ،والذي جدد له دون شك تلك الرغبة [2].

وبالفعل أثمرت جهود كبار اليهود ،وتحصل عدد منهم على الجنسية الفرنسية لأول مرة ، حيث تم ذلك القرار في سيناتوس كونسيلت 14جويلية 1865،حيث قدّر عدد المستفدين من القرار بحوالي 30ألف ،بالرغم من أن القانون لم يتشدد مع اليهود مثلما كان الحال الأهالي المسلمين، الذين اشترط فيهم التخلي عن أحوالهم الشخصية ،فإن القلة من فضلت التجنس ،لأنها رأت فيه وسيلة لسلب هويتهم وخلال زياته الثانية للجزائر في ماي 1865 تلقى "**نابوليون الثالث** "عريضة حملت توقيع 10000 ليهود الجزائر يطالبونه فيه بالتجنيس الجماعي لكافة يهود الجزائر،وماكان على نابليون إلا تقديم وعده لليهود بتحسين وضعهم الإداري ودمجهم في الأمة الفرنسية[3] ، فقد أورد" **لويس فورست"** موقف الإمبراطور" **نابليون الثالث"** المتعاطف مع القضية اليهودية بأن أبرق لهم **"بأن سيادته يأمل أن يندمج الإسرائيليون في الأمة الفرنسية ،وأنه سيسعى كي يصبحوا كذلك"**[4].وبين زيارة نابليون وصدور قرار كريميو كثف اليهود نشاطاتهم السياسية لانتزاع حقوقهم السياسية كاملة

[1]- كركار (عبد القادر) ،**الطائفة اليهودية في الجزائر1830 - 1900 التجنيس و ردود الفعل** ،رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر ، جامعة الجزائر2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، 2008،ص63.

[2]- المرجع نفسه،ص64.

[3] -weil(Patrick),op-cit,p04.

[4]- Forest(Louis) ,**La naturalisation des juifs Algériens et l'insurrection du 1871**,Société française de l'imprimerie et de libraire, Paris, SD ,p34.

بالتجنيس أو بدونه،فقد تلقت المجالس العامة للعمالات الثلاث عشرات الرسائل من حاخامات اليهود وزعمائهم تطالب الحكومة بالإسراع بالدمج الجماعي لليهود [1].

وبعد مجيئ حكومة الدفاع الوطني ،وتولي "أدولف كريميو"وزارة الداخلية استفاد من مشروع كريميو 37ألف من يهود الجزائر،والذين قدموا عدة عرائض للإمبراطور تطالب بالتجنيس خلال زيارته للجزائر عام 1865.وقد جاء هذا القانون في ظروف استثنائية عاشتها فرنسا من قبل أقلية من أعضاء الدفاع المدني (أربعة عناصر من أصل أربعة عشر عنصرا)[2].و ليتوج سلسلة من القرارات والمراسيم التي كانت تصب في مصلحة الطائفة اليهودية في الجزائر ، لتمثل مكافأة لهم نظير خدماتهم الجليلة للاحتلال الفرنسي منذ الأيام الأولى للحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830[3].ومع ذلك ظل اليهود في المناطق النائية والمناطق الفقيرة،والبعيدون عن دوائر السلطة والقرار سواء في المجلس اليهودي ،أو لدى السلطات الفرنسية ،خارج القرار ،وظلوا أهالي تنطبق عليهم نفس الإجراءات الاستثنائية التي طبقت على المسلمين [4].

أضاف اليهود المتجنسون لأنفسهم امتيازات جديدة لامتيازاتهم السابقة ،وتحصلوا على مكانة مرموقة في المجتمع الأوروبي،وتحت راية المحتل الفرنسي كونوا مجتمعا صغيره داخل المجتمع الأوروبي ،ودولة داخل دولة ،فقد أعطاهم قرار كريميو متنفسا للحرية ومستوى من المساواة مع الأوروبيين،وفسح لهم المجال لممارسة ألاعيبهم المفضلة كالاحتكار والربا ، وجمع الثروات ، كل ذلك كان كافيا ليجلبوا على أنفسهم قدرا كبيرا من السخط والكراهية الشديدة من قبل المستوطنين الأوروبيين [5].

إن الفرد اليهودي الذي حوله قانون كريميو إلى مواطن فرنسي ،عمل بذكاء بمهارة كبيرة على خلق التوازن في كل شيء،الحفاظ على التراث والعادات القومية من جهة وتقبل الثقافة والحضارة الأوروبية واكتسابها بشكل تدريجي من جهة ثانية،كما اعتبر بحكم علاقاته المتشابكة

[1] -weil(Patrick),op-cit,p04.

[2]- بلعزوز (العربي)،المرجع السابق،ص299.

[3] -weil (Patrick),op-cit,p04.

[4]- **A Travers le monde juif**, Journal La renaissance du peuple juif ,Ancien Echoc sioniste, Onzième Année,N°29,30,15juillet -15Aout1917,p13.

[5] - Dermenjian (Geneviève),op-cit, p49.

مع الأهلي والأوروبي معا كعامل تواصل بين العرقين المختلفين .غير أن ذلك لم يمنعه من أن يكون موضع اتهام وسخط من قبل الجميع ،فالأهالي المسلمون ساخطون عليه بسبب القانون المقيت الذي حولهم إلى أتباع لسلطته المادية والمعنوية ،أما المستوطنون الأوروبيون فقد رأوا فيه منافسا حقيقيا لمصالحهم المكتسبة [1]. فهم في أعين الكثيرين من المجتمعين ضائعين بين حضارتين وممزقين بين ثقافتين فلا تمسكوا بتقاليدهم الاجتماعية ،ولا استطاعوا فعلا الاندماج الحقيقي في الثقافة الفرنسية[2].

تمتع اليهود في عهد الجمهورية الثالثة بشكل خاص بامتيازات وتسهيلات كبيرة مكنتهم من السيطرة مع مر الزمن على مفاصل الدولة بالجزائر وربط علاقات وثيقة من رجالاتها وساساتها ، واستحوذا على مراكز المال والاقتصاد في المستعمرة[3]، ولم يحدث ذلك بمحض الصدفة ،بل كان عملا مدروسا وممنهجا .فالشاب اليهودي الذي فشل في الدراسة كان يوّجهه أعيان اليهود للتجارة ، والمتعلم يدرس الحقوق ليتخرج محلفا أو موثقا أو محضرا أو قاضيا ...الشيء الذي أهّلهم لإدارة الشؤون العامة بالبلاد .وبالمحصلة تحوّل المال القليل بفعل التحكم في مقاليد التجارة ونشاط المضاربة إلى ثروة بيد أغنياءهم ،وسيطر أبناؤهم المتعلمون على الدوائر الحكومية والوزارية،وهكذا خلق المال والسلطة من العرق اليهودي طبقة ثانية بعد كبار الكولون في السلم الاجتماعي بالجزائر،كما امتدت سلطة يهود الجزائر على الأراضي الزراعية الخصبة و الواسعة، ونافسوا كبار ملاك الأراضي من المستوطنين.ولأن اليهود لم يشتهروا بخدمة الأرض فقد حولوا قسما كبيرا من الأهالي إلى خماسين وأجراء في أراضيهم التي انتزعت منهم ، والتي اشتراها اليهود في معظم الحالات بطرق ملتوية وغير قانونية [4].

أما على الصعيد الديمغرافي فقد أصبح أكثر من 100ألف من يهود الجزائر يتمعون بالجنسية الفرنسية (110.127مواطن يهودي أغلبهم ذوي الجنسية الفرنسية)بعدما كان لا يتجاوز عدد النستفيدين من التجنيس لا يتجاوز الآلاف نهاية القرن[5].وهو ما مثّل وزنا ديمغرافيا أزعج

[1]- Mathieu (Auguste),**Les races et Les religions en Algérie :Etudes Algériennes** ,Imprimerie x. jevain, Lyon - 1894,p,p25,26.

[2]- Dermenjian (Geneviève),op-cit, p-p42-45

[3] - Meynie (Georges) ,**L'Algérie juive** ,Nouvel librairie parisienne Albert savine Editeur ,Paris-1887,p,p140,141

[4] - Ibid,p-p-25-27.

[5] -Eisenbeth(Maurice),op-cit,p13.

أعداءهم من المستوطنين والأهالي ،لما يمثلونه من قاعدة بشرية يحسب لها ألف حساب ،لاسيّما في المواعيد الكبرى كالانتخابات والمواعيد السياسية المختلفة .ومع ذلك فبالرغم من العقود الطويلة من التعايش مع المستوطنين فلم يستطع أغلب اليهود التخلص من ذهنية القبيلة ،ومن الاعتقاد بأن روابط الدم هي أهم من الولاء للوطن،وبأن الالتجاء والاحتماء بالجماعة هي الضمانة الأساسية من إرهاب الآخر كائن من كان،وهذا الإرهاب النفسي يلاحقه دوما في يومياته وحياته البسيطة وحتى وإن كان على شكل كلمات بذيئة توجه له مجانا مثل "اليهودي القذر"وغيرها.ولذا فليس من الغريب أن يعيش هذا المجتمع الصغير حالة مستمرة من الفوبيا الاجتماعية والانفصام الاجتماعي،وقد أخطأ الكثير من المتفائلين الذين اعتقدوا بأن قانون منح الجنسية لليهود بأنهم يقبلون الاندماج وبالذوبان في المنظومة الاجتماعية الأوروبية[1].

لقد أقلقت المكانة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ،التي تمتع بها اليهود في ظل قانون كريميو المستوطنين،ورأو فيهم منافسين حقيقين نظرا للمكانة الاقتصادية الجيدة والوضع الاجتماعي المتميز والثقل السياسي الذي أصبح يمثله هؤلاء في ظل حماية الإدارة الاستعمارية [2]،وكان اكتسابهم لحق المواطنة الفرنسية مصدر سخط لدى الكثير من المستوطنين في مختلف مراكز الدولة ودوائرها الحكومية، وهو ماعبّر به "ف.غورجو" بقوله"لم يغدق أي بلد أوروبي على العرق اليهودي ،مثلما فعل الفرنسيون ،لقد جعلوا منهم عبر المساواة في الحقوق والواجبات مواطنين فرنسيين"[3]،وهذا ما نستشفه بشكل آخرفي تصريح ل**"هنري قارو"**،وهو أحد أكثر المستوطنين عداءا للعنصر فيمايلي،**"لقد أصبح اليهود وزراء في حكومتنا،وأعضاء في مجلس الشيوخ ونوابا في الغرفة البرلمانية وقضاة ومدرسون في مدارسنا،عملوا على التجنيس الجماعي لليهود بطريقة ملتوية ، وعبر صفقات سرية و مشبوهة تمكنوا من الحصول على عقود ضخمة لإنجاز طرق السكك الحديدية،لقد سيطروا على ثلث المراكز الاقتصادية الحيوية في فرنسا، وما يعادل الثلثين في الجزائر،وعلى ثلاثة أرباع الشركات التجارة البحرية ،..لقد**

[1] -Dagan(Henri), **Enquête sur l'antisémitisme**, P.V Stocke Editeur, Paris - 1899,p,p78,79.

[2]- سعيدوني (نصرالدين)،**الجزائر منطلقات وآفاق** ،عالم المعرفة للنشر والتوزيع ،الجزائر -2009،ص420.

[3] -Gourgeot(f), **La domination juive en Algérie**, Imprimerie pierre fontanna, Alger-1894, p,p160,161.

غزا اليهود حتى الجيش ،الذي أصبح موبوءا بهم..لقد لففنا الحبل على أعناقنا ..،ومنحت فرنسا الجزائر لهم بلا ثمن ..."[1].

ومع مضي الزمن ازداد سخط المستوطنين على اليهود ،واتهموا كريميو بأنه خان فرنسا لخدمة المصلحة العليا لبني جلدته،فقد علق السيد **"بريبوا"**« **M Prébois »** أحد قادة سرايا الجيش الفرنسي،وممثل سابق للجزائر في البرلمان الفرنسي قائلا:**"ماذا ننتظر لما نقدم على تجنيس أرذل طبقة من المجتمع الجزائري ،حتما ستندلع ثورة للأهالي المسلمين ضد فرنسا..."** ، وعبرت جريدة **"الأخبار"** في عددها الصادر يوم25 نوفمبر 1872عن الآثار المحتملة لتجنيس يهود الجزائر بقولها :**"إن تجنيس اليهود كان أحد الأسباب الرئيسية لثورة الأهالي، لقد أهان المسلمين الأهالي بتحقيق تفوق العنصر اليهودي على العرب والقبائل،ومن جهة الأهالي كان ردهم ساخطا على سياسة التمييز والإقصاء التي مارستها إدارة الاحتلال ضدهم،وعبروا بالرفض والاحتجاج لسياسة الكيل بالميكيالين ،وهنا نورد مثالا لرد المقراني العنيف، حينما أرسل إليه أحد ضباط الجيش الفرنسي قانون كريميو ليتطلع عليه،حيث بزق على الورقة التي تحتوي المرسوم ،وأخبره بأنه لن يخضع أبدا لسلطة أي يهودي،ولا للسلطة التي تحمي اليهودي"**[2]. ولعل أكثر ما يثير السخرية أن طيفا واسعا من يهود فرنسا والجزائر رفضوا التجنس وحتى انتفضوا ضد قرار كريميو ،على أنه قرار ظالم هدفه تفكيك وحدة الشعب المختار وتعطيل مشروعه في العودة للأرض المقدسة بدمجه في المجتمع الفرنسي ،وفي هذا الاتجاه يعبر أحد رافضي القرار ،وهو **"برنارد لازار"** « **Bernard Lazare »** عن حال يهود فرنسا المرحبين بالقرار بالقول:"لا يوجد أعداء للشعب السامي إلا يهود فرنسا ،فبدل أن يستجمعوا قواهم المادية والمعنوية ضد أعداءهم من الشعوب الأخرى ،نراهم اليوم أدوات طيّعة لهم.."[3]

ضغط المستوطنون المعارضون بشِدّة لإلغاء قانون كريميو،وبالفعل استطاعوا أن يجذبوا إلى صفهم عددا من الساسة الفرنسيين ،وفي مقدمتهم وزير الداخلية "لامبريشت"« **Lambrecht »** الذي أعد مشروعا يحتوي على مرسومين صدرا تواليا يومي 7و9أوكتوبر 1871،و الذي كان يهدف منه إلى إنهاء قانون كريميو،حيث نصت المادة الأولى منه على التجميد

[1] - Garrot (Henri) ,op-cit,p,p60,61.
[2]- Meynie (Georges),op-cit,p-p103-105.
[3] - Lazare (Bernard),op-cit, p09.

المؤقت لمشروع التجنيس إلى غاية انعقاد المجلس الوطني المزمع عقده يوم 21 أكتوبر1871 ،لإعادة النظر في قرار إلغاء أو الإبقاء عليه،غير أن الحظ أدار ظهره للمستوطنين هذه المرة ،بعد الوفاة المفاجئة للوزير لامبريشت وتولي السيد **"فيكتور لوفران" victor** « **Lefranc**»مقاليد وزارة الداخلية ،والذي كان هو الآخر خاضعا للدوائر اليهودية المتنفذة في أعلى هرم السلطة بباريس،وكم كانت فرحة اليهود كبيرة بوفاة أحد أكثر المعادين لفكرة إعطاء المواطنة ليهود الجزائر ً. ومع ذلك لم يستسلم المستوطنون لقرار التجنيس ، ففي عام 1884أعاد المستوطنون المتطرفون اتصالاتهم بالغرفة البرلمانية لتغيير الأوضاع بما أمكن لصالحهم ، ،غير أن تلك المساعي وغيرها مساعيهم باءت بالفشل ،ووأصبح الأمر واقعا لا مفرّ منه [1].

ب- مستوطنون ضد اليهود ونشأة حركة الهيباي المعادية للسامية نهاية القرن التاسع عشر

تبدو أن فكرة معاداة العرق السامي لم تكن فقط لدى الطبقات الوسطى والدنيا من المجتمع الأوروبي فحسب ،بل تخطته لتصل إلى أعلى دواوين السلطة الفرنسية آنذاك ،فقد أورد **"أنفنتان"** على لسان الحاكم العام للجزائر ،ويبدو من كلامه أنه بيجو،بأن الأخير أسّر له بكلام يحمل معاني الحقد لليهود ،حينما زاره في إحدى الأمسيات وفد من الحاخامات اليهود جاء فيه:" **هم سعيدون لأني لا أفهم لغتهم ،وإلا رددت بعبارات نابية على مديحهم وتملقهم الزائف إليّ"**[2]

وفي هذا الإطار يقدم لنا **"برنارد لازار"** « **Bernard Lazare** »وهو أحد الباحثين المتخصصين في مسألة معاداة السامية « **Antisémitisme** »، تبريرا منطقيا ومعقولا للعداء الذي أجهره المستوطنون الأوروبيون في الجزائر ،وشخّص أحد الأسباب التي تجعل من اليهودي عنصرا غير مرغوب فيه داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر كما في المجتمعات العديدة في أوروبا والعالم ،حيث كتب يقول : **"في الواقع ،فإن المستوطن يرى في اليهودي ذلك الشخص الذي لا يقبل إلا العيش تحت سيطرة الرب« Iahvé »** ،**ويرفض أي سلطة من غيره أو الاحتكام لأي قانون أو سلطة تشريعية إلا التي تأتي من التوراة ،ومن ثم فهو يتعالى عن**

[1] - Meynie (Georges) ,op-cit,p112.

[2] - Enfantin (prospère), **Colonisation de L'Algérie**, P. Bertrand, Libraire, paris-1843,p472.

القوانين المدنية التي اجتهد العقل البشري في إنتاجها وتطويرها ،إنه يقاتل ليعيش في مجتمعه الصغير المنزوي ،وبالمقابل يتمرد على نظم حياتنا وتشريعاتنا.."[1].

على أية حال ، فهل يمكن لنا اعتبار أزمة الحركة المعادية للسامية ، في البلد الأم ، هي التي تسببت في اندلاع الحركة المناهضة لليهود في الجزائر بعد مرور ربع قرن عن صدور قرار Crémieux؟ لا نعتقد ذلك لأن مسألّة معاداة اليهودية نشأت ، بصفة عفوية ،و في الجزائر بسبب الصراعات الإنتخابية منذ عهد Crémieux بالذات .كما أن مسألة معاداة اليهود،تعود قبل إصدار كريميو لقراره بتجنيس اليهود ،ولذا فالذرائع التي ساقها أعداء السامية من الكتاب الكولونياليين لا أساس لها من الصحة ،فقد أرجع شارل روبير أجيرون أن انطلاقة شرارة الحرب السياسية والنفسية ضد اليهود ، حينما تأسست أول رابطة معادية لليهود في الجزائر في شهر جويلية 1871 و ذلك بمدينة مليانة بمناسبة الانتخابات التشريعية ، والتي كان هدفها أبعاد الناخبين اليهود الجدد عن صناديق الاقتراع . و من المعلوم أن هؤلاء كانوا السبب في فوز الراديكاليين في الانتخابات البلدية بمدينة الجزائر في فيفري 1871 ، ثم في الإنتخابات التشريعية في شهر جويلية 1871 و أكتوبر 1872 ، و كان الناخبون اليهود سببا في فوز المرشحين المعتدلين في كل من وهران و قسنطينة مما أدى إلى حنق الراديكاليين وقد يصح الاستنتاج بأن هؤلاء الناخبين وزعوا أصواتهم بالإنصاف ، لضمان فوز تيارين سياسيين في صفوف الحزب الجمهوري ،أما المنهزمون في الإنتخابات فرفعوا أصواتهم للتنديد بتصرفات" حزب اليهود " ، و هكذا نشأت الحركة المناهضة لليهودية [2].

زادت الظروف الاقتصادية والناتجة بالأساس أزمة الكروم في تأزيم حياةالمعمرين ،وسخطهم عن الإدارة الاستعمارية آنذاك ،وتعالت الأصوات المطالبة بتأسيس جمعية "برلمان "خاص بالمستوطنين ،وتصاعد المدالمنادي بالاستقلال الذاتي عن الميتروبول ،بتحريض وتأطير من عدد كبير من أنصار "التيار الاشتراكي" المناهض للعرق السامي ،ففي عددها الصادر يوم 3ديسمبر 1884نشرت جريدة **"صدى وهران"**مقالا للمحامي الاشتراكي المعادي لليهود **"دانيال**

[1]- Lazare (Bernard), **L'Antisémitisme, son histoire et ses causes** ,Tome1,Edition de Jean Crès , Paris-1934.

[2]-أجيرون (شارل روبير)،**الجزائريون المسلمون وفرنسا(1871-1919)**،الجزء الأول ،المرجع السابق،ص988.

سوران"،جاء فيه مايلي:"**من اليوم لن تصبح الجزائر فرنسية،ستصبح جزائرية"**وهو ماعُد آنذاك تهديدا بالانفصال كان أحد مسبباته إحساس المعمرين بالانصياع الفرنسي لسطلة اليهود[1].

ومهما تكن الأسباب،فقد تحولت الكراهية بين المتطرفين من الجانبين المستوطنون واليهود في نهاية القرن19 إلى مشادات وصدامات عنيفة بين الفينة والأخرى،كان من بين أعنفها تلك التي حدثت في جوان 1884،وكان سببها الرئيسي احتجاج المستوطنين المتواصل ضد قانون كريميو ،وازدياد النفوذ اليهودي داخل الدوائر الحكومية،حيث تشابك العشرات من الجانبين حول من يسيطرعلى لجنة محلية لإحياء حفل بالجزائر العاصمة،وانتهت الأحداث بجرح العديد منهم[2].

وفي اليوم الموالي للأحداث خرج المستوطنون وبالأخص الفرنسيين منهم في مسيرة في ساحة الحكومة،واستمرت الاحتجاجات لأيام رغم تدخل قوات الأمن بأمر من رئيس الحكومة" **تيرمان"** الذي كلف والي العاصمة**" أروون فيرباخ"** « **Aaron Firbach** »بحماية أملاك الطرفين

اتهمت السلطات جرائد المستوطنين المستقلة، بأنها يمينية متعصبة ،و محرضة الجماهير لإحداث أعمال الشغب،ومن جهتها حملت تلك الصحف الحاكم العام ووالي العاصمة بالتخاذل في إنصاف المعمرين ومحاباة اليهود،وبالسكوت المطلق حينما لم تكن جادة في إجراء تحقيق نزيه[3]

ومع ذلك فسرعان ما تطورت الحركة الانتخابية المناهضة لليهودية فتحولت إلى مرحلة الهجوم ، من ذلك تشهير السيناتور[4] Pauliat بعدد من الفضائح أمام مجلس الشيوخ ،والتي وجدت صدى واسع في الصحافة الجزائرية (الاستيطانية) المعارضة ، مما وجه ضربات مؤلمة إلى ما كان يسميه الراديكاليون " **المنظومة اليهودية _ الانتهازية "** و لقد أدت حملة تطهير البلديات تحت إمرة Jules Cambon » « إلى زعزعة القاعدة الانتخابية تحت أقدام " النقابة اليهودية _ الانتهازية " إلى درجة اتهام ذلك الحاكم العام بتطبيق سياسة مماثلة للراديكاليين ،وشعر مناهضو اليهود بأنهم يحضون بمساندة الإدراة : فمضوا ينشطون في جلب الأتباع إلى صفوفهم و ساد الاعتقاد بأن الانخراط في صفوف الحزب الراديكالي المناهض لليهود يقرب أكثر

---

[1]- عباد (صالح)،المرجع السابق،ص،ص101، 102.

[2] - Meynie (Georges) ,op-cit,p,p122,123.

[3] -Ibid,p-p126-131.

[4]-لويس بوليا ،(13جانفي1845-22سبتمبر1915)سياسي فرنسي ،صحفي وسيناتور ممثلا لمنطقة شار الفرنسية من سنة 1887 إلى غاية وفاته 1915،داعم للاستيطان ،ومؤيد للسياسة الانفصالية المالية للجزائر ،وأحد رافضي توسع اللوبي اليهودي بالجزائر . للمزيد،انظر :

-Adolphe (Robert) et Cougny(Gaston),**dectionnaire des parlementaires français depuis 1er mai 1779jusqu'a 1er mai 1879** ,Edition Edgar Bourloton,Vol 5,Paris,1891.

من دواليب السلطة و يفتح باب الاستفادة من الامتيازات ،وهو ما خلص إليه الوكيل العام بالقول **:" إن الطمع في اكتساب تلك الفوائد الجمة هو السر الكامن وراء اندفاع الأحزاب السياسية المعادية للسامية من أجل حرمان الأسرائيليين من حقوقهم الانتخابية "**[1] .

تعاظمت موجة مناهضة اليهود ، بعد أن تأسست رابطة مناهضة اليهود في قسنطينة سنة 1895 و أخرى في وهران سنة 1896 و كان أي تنقل للنائب Thomson،(الفائز في انتخابات 1893 بفضل أصوات اليهود) ، يتحول الى شجار بين اليهود و الأوروبيين ، و في الانتخابات البلدية بتاريخ 30 ماي 1896[2] انقلب المنتخبون إلى صفوف مناهضي اليهود بقسنطينة ، و بمناسبة الانتخابات البلدية ، سنة 1897 ، استبد الخوف بقلوب عدد كبير من اليهود في وهران فامتنعوا عن المشاركة فيها مما أدى فوز الراديكاليين أمام المعتدلين[3]

ظلت الحركة "الجزائرية " المناهضة لليهود إلى غاية سنة 1897 مرتبطة بالصراعات الانتخابية التقليدية و لم تكن لها علاقة وطيدة بمعاداة السامية كمذهب عقائدي سياسي ، ذلك هو الرأي السائد لدى عموم الناس المتطلعين على حقائق الأمور . و لكن ،**هل يمكن اختزال مآرب الحركة " الجزائرية " المناهضة لليهود في حدود الإعتبارات الانتخابية فقط ؟** .

تعد أحداث 1897 أهم مظاهر هذه الأزمة ، و ربما تكون مظهر متفردا في تاريخ الحركات المعادية للسامية كلها ، و لا مراء في وجود جوانب أخرى لابد من استعراضها بإيجاز للوقوف على خصوصيات الحركة " الجزائرية " المناهضة لليهود.

تجددت الحركات المناهضة ضد يهود الجزائر مطلع القرن العشرين في أحداث،لكن المتهم فيها هذه المرة ليس المستوطنون بل الأهالي المسلمين ،الذين بلغوا أسفل الهرم الاجتماعي ،وعانوا التهميش والإذلال ،والقهر،وكل أشكال الإهانة ،من المجتمعين الأوروبي واليهودي على حد سواء،وهي التي كان مسرحها سطيف وقسنطينة هذه المرة،بحيث شهدت مدينة سطيف سنة

---

[1]- أجيرون (شارل روبير)،**الجزائريون المسلمون وفرنسا(1871-1919)**،الجزء الأول ،المرجع السابق،ص990.

[2]-في الحقيقة تعود الاضطرابات بين المستوطنين واليهود إلى عام 1885،وبالضبط مابين 28جوان إلى 5جويلية 1885 ،إذ يعيد المؤرخ أوميرات أسبابها إلى حملات التحريض التي مارستها الصحافة المعادية للعرق السامي ضد اليهود ،والتي عدت تواصلا لسلية الحملات التحري التي اندلعت بأوروبا نهاية القرن ضد العنصر اليهودي في كل من روسيا وألمانيا .لمزيد حول أسباب الموضوع ونتائجه يرجى العودة للمصدر التالي:

-Aumerat(Joseph -François), **L'Antisémitisme à Alger** ,Imp Victor pézé,Alger-1985.

[3]-- أجيرون (شارل روبير)،**الجزائريون المسلمون وفرنسا(1871-1919)**،الجزء الأول ،المرجع السابق ،ص991.

1920مشاداة بين الطرفين ،وزاد من حدتها تدخلات إدارة الاحتلال المنحازة لصالح اليهود ،انتهت بغلق المدينة وفرض حالة الطوارئ ،وعقوبات ضد المسلمين[1] .

مما سبق نخلص إلى ما يلي :

1/استغل المحتل الطائفة اليهودية لصالح مشروعه الاستيطاني الكبير ،حيث عمل على عقد علاقات ميزها الطابع البراغماتي والمنفعة المشتركة مع الأوليغارشيا اليهودية ،بحيث استفادت هي من ضمان مصالحها المادية والسياسية ،وتمكّنت من دمج جزء كبير من يهود الجزائر في الأمة الفرنسية، وتجنيسهم بالجنسية الفرنسية ،بينما استفاد المحتل من خدماتها السياسية ،لاسيما في السنوات الأولى للاحتلال .

2/ بقدر ما كان تجنيس اليهود عاملا في زيادة عدد المستوطنين ،ومساعدا لنيل العنصر اليهودي لحقوق المواطنة الكاملة ،لقي هذا الأمر استياءا ومعارضة من قبل طيف واسع من المعمرين،الذين عارضوا بشدة بمختلف الوسائل ،وعلى كافة الأصعدة أن يشارك هؤلاء حياتهم ويتمتعوا بنفس حقوقهم ،وقد تطور الأمر إلى مصادمات بين المجموعتين كادت أن تعصف بوحدة المجتمع الأوروبي ،وتهدد بنشوب حرب داخلية .

[1]-مناصرية (يوسف)،المرجع السابق،ص،ص124،123.

رابعا: الظواهر الاجتماعية و الروابط الأسرية داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر

1-الزواج بين الأعراق الأوروبية وانعكاساته على المجتمعين الكولونيالي والأهلي

يعتبر الزواج وتأسيس الأسرة في أي مجتمع اللبنة الأساسية لتشكله والعامل الأساسي الحافظ لوجوده واستقراره وتطوره .لكن في مجتمع جديد ومكون من عرقيات وجنسيات مختلفة يصبح الأمر صعبا ،ويتطلب جهدا من قبل السلطة الوصية ،وهذا ما تفطنت له سلطة الاحتلال مبكرا ، باعتمادها لسياسة اختلاط القوميات وتشجيع ظاهرة الزواج والمصاهرة فيما بينها لتسهيل عملية الاندماج الاجتماعي .**فكيف كانت ظاهرة الزواج داخل المجتمع الأوربي ؟،وإلى أي حد نجحت السلطات المحتلة في سياستها المشجعة على المصاهرة بين مختلف القوميات ؟وماهي المشاكل التي ميزت الأسرة الأوروبية في الجزائر ؟.**

ليس غريبا إذا اعتبرنا أن الزواج خلال العقود للاحتلال كان أمرا يصعب الحصول عليه ، فتفوق عنصر الرجال عن النساء(7نساء مقابل 10رجال)،كان سببه أن معظم المستقرين كانوا من الجنود العزاب،والذين هاجروا من الأوروبيين كانوا قد بلا زوجات ،لذا طرحت مشكلة الزواج في تلك الفترة بشكل كبير ،ولم تجد إدارة الاحتلال حلا سوى إرغام الوافدين الجدد بضرورة الزواج قبل ركوب السفينة والهجرة إلى الجزائر،وأكّدت على ضرورة تقديم المترشح للهجرة قبل قدومه تعّهدا بالزواج في مدة لا تزيد عن ستة أشهر ،وإلا يفقد كل المنح والتسهيلات التي تقدمها له إدارة الاحتلال حينما تطأ أقدامه الجزائر.أما الذين هاجروا فقد اهتدت الإدارة إلى حل تمثل في تزويج العزاب من بنات الميتم من المسيحيات أو المسلمات اليتيمات والتي تم تنصيرهن ليتم تأهيلهن للزواج بالأوروبي.ولذا كان هذا الرباط المقدس أساسه الضرورة الاجتماعية وليس بسبب الرغبة أو التوافق النفسي بين الشريكين[1].

تؤكد وثائق الأرشيف التي جمعتها الباحثة"**كلودين غودار**" فيما يخص الشأن الاجتماعي للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر بأن أول عقود الزواج المسجلة في الجزائر يعود تاريخها

[1] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p13.

إلى سنة 1832،بينما يرجع الباحثان **"فولاي ومارتان"** بأن أول حالة زواج سجلت كانت عام 1831،حيث قُيدت سجلات الزواج خلال هذه السنة ثلاث حالات[1] .

والجدول التالي يوضح تطور الزواج بين الأوروبيين ما بين 1830-1876ومعدل إنجاب الأطفال لكل فترة[2] .

السنة	40-35	45-40	50-45	55-50	60-55	65-60	70-65	75-70
عدد الزيجات	5240	2940	1923	1354	1128	1115	1029	1268
معدل أطفال لكل عائلة	4.7	3.8	3.2	3.9	4.15	4.7	4.4	4.3

إن القراءة المبدئية للجدول توضح لنا تراجع حالات الزواج وتباطئها ،وذلك بالرغم من تزايد المطرد للسكان ،ففي ظرف 20سنة نزل عدد الزيجات من 5240حالة في الفترة مابين 1835-1840إلى 1128حالة في الفترة الممتدة ما بين (1855-1860)،وقد قدم الدكتور" **بارتيلون"** تفسيرات عدة لذلك ،منها الأمراض والأوبئة الفتاكة التي ضربت الجزائر عقدي الخمسينات والستينات مما أجبر الكثيرين على عدم الزواج والإنجاب،ولعل ما يبرر ذلك هو تزايد حالات الزواج مطلع السبعينات بعد التحسن العام الذي عرفته الجزائر في تلك الفترة[3].

ومع استقرار الأوروبيين في الجزائر واستقرار الأوضاع بالمدن بدأت مراسيم الزواج تزداد أكثر،ففي مدينة الجزائر ارتفع عدد حالات الزواج من 14حالة سنة 1832إلى38حالة سنة 1833ثم إلى 41حالة سنة 1834.أما في وهران فقد سجلت حالتين عام 1833 ثم ست حالات عام 1834وتسع خالات عام 1835،وفي عنابة فقد سجل أول عقد زواج سنة 1833بأربع حالات ، وبأربع حالات مماثلة بقسنطينة،وذلك عام 1840أما أول حالة في سكيكدة فقد سجلت عام 1839، وخلال السنتين الأوليتين للاحتلال كانت السلطات العسكرية هي من يتكفل بمراسيم الزواج وبتسجيلها ،وذلك لأن معظم حالات الارتباط كانت تتم بين رجال الجيش

[1] - Ibid,op-cit,p101.
[2] - Ricoux (René),op-cit,p,p84,85.
[3] -Ibid,p-p74-76.

وبعض الأوروبيات اللاتي قدمن مع الحملة الفرنسية ،وهن أرامل الجنود المتوفين ،أو بعض العازبات المهاجرات.وبعد أن استقرت الأوضاع السياسية وتثبتت أركان الإدارة الفرنسية أصبح الزواج يتم داخل مكاتب الحالات المدنية [1].

هناك ملاحظة أخرى فيما يتعلق بسن الزواج الخاص بالأوروبيين هي الاختلاف في سن الزواج بين كل طائفة وأخرى ،بحيث كان الألمان والمالطيين والفرنسيين أكثر عرق يشجع الزواج المبكر ، عكس الإيطاليين والاسبان الذين يتزوجون في سن متأخرة نوعا ما .والجدول التالي يبين لنا مقارنة لمعدلات أعمار الزواج للأعراق الأوروبية في الجزائر مقارنة مع بلدانها الأصلية في الفترة الممتدة ما بين (1874-1878)[2] .

الجنسيات	أعمار الرجال "الجزائر"	أعمار الرجال "أوروبا"	أعمار النساء "الجزائر"	أعمار النساء "أوروبا"
الفرنسيين	26	32	19	24
الاسبان	26	32	20	31
الإيطاليين	26	30	19	22
المالطيين	23	31	18	21
الألمان	23	31	19	36

ملاحظة: لم يحتسب الأرامل والمطلقات اللاتي أعدن الزواج

من خلال معطيات الجدول نستنتج بأن المجتمع الأوروبي في الجزائر في الثلث الأخير من القرن19كان يعرف ظاهرة الزواج المبكر عكس الشباب في أوروبا ،الذي كان زواجه متأخرا ، حيث يتزوج أغلب الشباب في الجزائر في حدود السن 26و27،والفتيات ما بين 19و20سنة .أما في أوروبا فهم يتزوجون ما بين 30و31سنة بالنسبة للرجال وفي ما بين 20إلى 36سنة ، وهي متباينة من عرق إلى آخر .

[1] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p,p101,102.
[2] - Ricoux(René),op-cit,p72.

كانت أغلب الشابات المالطيات والإيطاليات والفرنسيات يتزوجن دون سن 24،والشابات الاسبانيات والإيطاليات يتزوجن فوق سن الثلاثين سنة ،أما بالنسبة لمعدل سن الزواج للفرنسيين، فقد كان منخفضا في الجزائر في حدود 26و 27 سنة للرجل ومابين 19 و20 سنة للنساء ،بينما كان الأمر في فرنسا مرتفعا في حدود 31-32سنة للرجال و24سنة للنساء[1] .في حين يرجع الباحث الفرنسي بارتيلون معدل الزواج بين للشباب الفرنسيين ب28سنة والإناث 25سنة[2]. مخالفا في ذلك رأي الباحث ريكو.

وهناك ظاهرة استوقفنا لتحليلها، وهي قلة الزواج المختلط بين مكونات المجتمع الأوروبي والذي قلنا عليه آنفا أنه يعكس انعزال القوميات الأوروبية وتقوقعها ،غيرأن هذه الظاهرة بدأت تتغير مع نهاية القرن 19،ومطلع القرن 20 [3]،بحيث كانت مكاتب البلديات الجزائرية تسجل ارتفاعا لعقود القران بين الفرنسيين وبقية الأوروبيين ،مع ندرة حالات الزواج المختلط بين الأوروبيين عموما مع الأهالي المسلمين ومع يهود الجزائر أو بين السكان الأصليين (المسلمين واليهود)،فخلال 47سنة من الاحتلال (1830-1877)سجلت 30حالة زواج مختلط بين المسلمين واليهود،وحوالي 120حالة بين الأوروبيين والأهالي من بين 45ألف حالة زواج خلال نفس الفترة منها53حالة بين الفرنسيين والأهالي المسلمين(32إمراءة فرنسية تزوجها مسلم مقابل 21إمراءة مسلمة تزوجت فرنسي)نفس الحال بالنسبة للزواج بين الأوروبيين واليهود،إذ سجلت في الفترة ذاتها30 حالة زواج مختلطة بين العرقين .أما بالنسبة للحالات بين الأوروبيين فقد قدرت ب6881حالة ،أي 45مرة ضعف الحالات بين الأهالي والأوروبيين[4].

والجدول التالي يوضح عدد الزيجات بين الأوروبيين ومع الأهالي سنتي 1882-1884[5]

[1] -Ibid,p-p74-76.

[2] - Bertillon (Jacques), **La statistique humaine de la France (naissance, mariage ,mort)**,Librairie Germer Baillière et Cie, Paris-SD ,p66.

[3]-انظر صورة لعائلة أوروبية تمثل الزواج بين زوجين فرنسي وإيطالية في الملحق رقم 02،ص488

[4]- Ricoux(René),op-cit-,p,p91,92.

[5] - Gouvernement générale civil de l'Algérie, **Statistique générale de l'Algérie** ,Années 1882à 1884,Imprimerie de l'association ouvrière p Fontana et Cie ,Alger-1884,p57.

الزيجات	سنة 1882	سنة 1884
زواج الفرنسيين بالفرنسيات	1407	1442
بين الأقليات الأوروبية فيما بينها	1173	1170
بين الفرنسيين وباقي المستوطنين	360	400
الأوروبيين	137	140
المستوطنين مع الفرنسيات	6	5
الأوروبيين مع الأهالي	14	9
الجزائريين مع الأوروبيات		

خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى (1914-1918)ازدهرت الحياة الاجتماعية ، وازدهرت معاها ظاهرة الزواج عند المستوطنين الأوروبيين ،بشكل مقارب لما كان عليه الحال في فرنسا ،بحيث بلغت النسبة 10.7حالة زواج لكل ألف نسمة ،مقابل 12.9بفرنسا).لما يشبه استدراك جماعي للنشاط الاجتماعي الذي توقف من خلال الحرب ،لتعود الحالة إلى ما كانت عليه خلال الحرب ،وتستمر كذلك بنفس الوتيرة حتى الاستقلال بنسبة 6.6حالة زواج لكل ألف نسمة[1] .

واستمر معدل أعمار الزواج في بداية القرن 20على حاله ،مثلما كان نهاية القرن التاسع عشر،في حدود 20سنة للإناث(29%منهن يتزوجن تحت سن 20) ،وفي حدود 27سنة بالنسبة للرجال. وبالرغم من قلة أعمارهن فلم تسجل عقود الزواج أي خرق للسن القانوني المسموح به للزواج ، وهو 15سنة آنذاك،غير أن السن سيعرف الارتفاع شيئا فشسئا مع مضي السنين ،حيث ارتفع في حدود 21للنساء ،ومع ذلك فقد كانت 58%من الأوروبيات بشكل عام يتزوجن تحت سن 25سنة ، وذلك عام 1938بعدما أن كان 73%من الأوروبيات يتزوجن تحت سن الخامسة والعشرين عام 1894،بينما كان الأمر للرجال معكوسا حيث كان

[1] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p103.

63%من الرجال يتزوجن تحت سن الثلاثين عام 1894،وأرتفع عدد المتزوجون تحت سن الثلاثين إلى 67%من مجموع المتزوجين[1].

وفي هذا الشأن ،يرى الدكتور ريكو بأن حالات الزواج في الجزائر هي أكبر من كل الدول الأوروبية (ما عدا إيرلندا)،بالرغم من كل الظروف المناوئة التي عرفها الأوروبيون في الجزائر كانتشار الأمراض ، والمقاومة الوطنية ،صعوبة التأقلم من البيئة ،ومع ذلك كان الزواج أمرا مرغوبا ومحببا في المجتمع الكولونيالي،حيث قدرت نسبة الزواج بين الأوروبيين في الجزائر في الفترة الممتدة ما بين 1855-1865ب91من كل ألف نسمة ،بينما كانت تتراوح مابين 70إلى 93في كل البلدان الأوروبية[2].

تشابهت الوضعية هنا مع اليهود لحالة الزواج المختلط الأهلي –الأوروبي ،حيث سجل 139حالة زواج بين اليهود والأوروبيين خلال 70سنة (1830-1900)،بالرغم من سن قانون كريميو الذي كان من أهم أهدافه دمج الطائفة اليهودية في المجتمع الأوروبي ،إلا أن عامل العنصرية ومعاداة السامية يبقى العامل الرئيسي لضعف الزيجات بين المجموعتين .

واالجدول التالي يبين عدد حالات الزواج بين المستوطنين واليهود مابين 1830-1900 .[3]

	أوروبيين مع اليهوديات	يهود مع الأوروبيات
مابين 1830-1877	17	13
مابين 1878-1900	62	47

إن عدد الزيجات بين المستوطنين الأوروبيين واليهود كانت قليلة جدا خلال 47سنة أي ما بين 1830-1877 تم إحصاء 30حالة زواج مختلط بين اليهود وباقي الأعراق الأوروبية ،وهنا يلعب العامل الديني واختلاف العادات والتقاليد والعنصرية المقيتة التي يكنها المستوطنون لليهود دورا رئيسيا في ذلك ،وبالتالي كان الزواج انعكاسا طبيعيا للانفصام الاجتماعي الذي مزق المجتمع الأوروبي برمته ،ونتيجة للعنصرية الاجتماعية والدينية التي مارسها الأوروبيون على اليهود.نفس الحالة تنطبق على الزواج بين الأهالي والأوروبين

[1]- Ibid,op-cit,p107.
[2] --Ricoux(René),op-cit,p,p66,67.
[3] - Claudine ROBERT-GUIARD,op-cit,p136.

،بحيث لم يتجاوز عدد الزيجات طيلة 47سنة 120حالة(56زواج بين الأوروبيين والمسلمات مقابل 64حالة بين المسلمين والأوروبيات) معظمها كانت تتم مع العنصر الفرنسي[1] .ومع ذلك فقد كان الزواج بين العرقين المسيحي واليهودي هو النافذة الوحيدة ،التي يمكن أن تسمح لدخول رياح التغييرالاجتماعي داخل الطائفة اليهودية،وكان الظاهرة الاجتماعية التي راهن عليها الكثير من الساسة الاستعماريين في الجزائر لإحداث تقارب اجتماعي بين العرقين[2].

وهذا الجدول التالي يوضح لنا عدد الزيجات بين اليهود والمستوطنين الأوروبيين [3]

السنـــــة	1873	74	77	1878	1879	1880	1882	1883	1884
يهود -أروبيات	1	4	3	3	2	3	4	6	1
أوروبيين يهوديات	1	1	2	3	3	3	5	1	4

من خلاله أعماله البحثية المعمقة ،عد الدكتور ريكو عدد الحالات الزواج بين الأوروبيين والأهالي حتى عام 1880 ب120حالة ،إلا أنه لم يعطي لنا تفسيرا واضحا عن أسباب هذا الضعف ،واكتفى فقط بالتأسف لقلة الروابط بين العرقين ،والتي تعود في رأينا إلى تحفظ الأسرة المسلمة الارتباط بغير المسلم ،مع أن الدين الإسلامي لا يعارض زواج الرجل المسلم بأهل الكتاب ،إذ كان من الصعب جدا عقد علاقات صداقة متبادلة بين الشعبين في العقود الأولى للاحتلال،ولاحتى في عهد سياسة التقارب والاندماج التي تبناها" **شارل جونار** "،ولعل الفضاء الأقرب لبناء جسور صداقة تربط المجموعتين الأهلية والأوروبية من الزواج ،بحيث كانت المدرسة المختلطة ،هي من حاولت عبر قوانينها وسياستها اللائكية صد كل الأفكار العنصرية والعصبيات العرقية والدينية وإبعادها خارج أسوار المدرسة .

شجعت إدارة الاحتلال على زواج المعمرين من ملاجئ الأيتام من بنات المستوطنين اليتيمات من أبناء المستوطنين المتوفين، أو من بنات الجزائريين اللاتي قامت الجمعيات الدينية المسيحية بإيوائهن ورعايتهن ،بالرغم من سياسة التحفظ والتضييق التي قامت بها الحكومة الفرنسية اتحاه الزواج الديني المتعدد نظرا للمشاكل التي تنتج عنه .ولعل أبرز مثال

[1] - Ricoux(René),op-cit,p91.
[2] - Taupiac(c), op-cit,p17.
[3] - Ricoux(René),op-cit,p61.

على ذلك البنت الجزائرية المسلمة " **إيميلي سليمان"** ،والتي ولدت سنة 1856وفقدت والديها وهي صغيرة ،فنقلتها **"جمعية سانت فانسنت دو بول** "ووضعتها في ملجأ الأيتام في قرية فندق ،ولما كبرت تم تزويجها لمستوطن أوروبي[1] ،حيث تركت الحادثة عاصفة من الانتقادات والاحتجاجات من قبل أقربائها. وفي الحقيقة ليست قصة ايميلي والتي لا يعلم اسمها الحقيقي ،الحالة الوحيدة التي عرفتها الأهليات المسلمات ،إذ أنه في الواقع معظم اللواتي تم رعايتهن في دور الأيتام المسيحية تم تزويجهن بهذه الطريقة أو فضلن الزواج بمستوطنين أوروبيين ،لأنهن لما كبرن جهلن أصولهن المسلمة .

وحتى الحالات القليلة،التي ثبت فيها وجود زيجات بين الأوروبيين والمسلمين كان القانون الإسلامي في نظر القانون الفرنسي يقف حاجزا أمام وجود فرص للتقارب الإثني والاجتماعي بين المجموعتين ،فالشريعة الإسلامية مثلما هو معروف تبيح فقط زواج المسلم بذات الكتاب (الأوروبية) بينما يحرم زواج المسلمة بالأوروبي ،كما أن زواج الأوروبية بالمسلم لا يمنح الجنسية الفرنسية لزوجها المسلم ،كما يحرم أولادها من ذلك أيضا ،بالرغم من احتفاظها بجنسيتها الأصلية ،وهو ما يمثل بالنسبة للإدارة الفرنسية خسارة بشرية بفقدان أولاد الزوجة الأوروبية لصالح الأهالي .الأمر الذي دعا إلى سن مادة قانونية جديدة (المادة 165من القانون المدني) تجبر الزوجين المسلم والأوروبية على عقد زواجهما عند ضابط الحالة المدنية الفرنسي ،كما أن قانون الحالة المدنية الصادر بتاريخ 23مارس 1882يجبر الزوجين الذين عقدا زواجهما عند القاضي المسلم بتسجيله عند رئيس البلدية أو إداري رفيع المستوى في البلدية في غضون ثلاثة أيام لكي يتحصل الزوج على حقوقه المدنية [2].

والحق فإن هذا الزواج لقى الاستهزاء والسخط من الجانبين ،فبالنسبة للأوروبيين كان زواج الأوروبية عار على العائلة والمجتمع وإهانة لكرامة المرأة الأوروبية،ومن جهتهم اعتبر الأهالي المسلمون هذا الزواج غير مبارك وغير مرحب به في الكثير من الأحيان وفي هذا الشأن تقول إحدى المستوطنات الأوروبية،وهي **"ماري كاردينال"« Marie »**

[1]-Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p116.
[2] - Ibid,p,p116,117.

Cardinal:"لم اسمع أبدا من أيّد الزواج بين الأوروبيين والأهالي ،فقد كان مُجَّرما وممنوعا .."[1] .

ومع ذلك فحتى إذا أراد المسلم الزواج بالأوروبية أو الفرنسية،فإنه يصطدم بعراقيل اجتماعية وإدارية أقلها التصريح بعدم زواجه من قبل ،بحيث أجبرت المادة165من القانون المدني كل مسلم يتزوج بفرنسية أمام ضابط الحالة المدنية الفرنسي إثبات حالته الشخصية (متزوج ،أعزب ..إلخ).بينما ظل الزواج بين الأهالي المسلمين يتم دوما وفق الشريعة الإسلامية ،وبين يدي القاضي المسلم ،وظل الأمر كذلك حتى صدور قانون 23مارس 1882،والذي اخضع المتزوجان لإجبارية إعلان زواجهما في غضون الثلاثة الأيام التي تلي زواجهما في مكاتب تسجيلات العقود في البلدية . لكن بعد عام1930 أصبح على القضاة المسلمين كل شهر إرسال عقود الزواج أو الطلاق لرئيس البلدية أو إلى إداري الحالة المدنية[2].

وقد كانت معظم حالات الارتباط بين الأوروبيين بالمسلمات الأهليات أو بين المسلمين والأوروبيات كانت في معظمها حالات ارتباط عاطفي عابرة ولم تكن حالات زواج سري فرضته التقاليد والأعراف والاختلافات الدينية ،[3] فحسب**" ديمنتاس"** فإن سبب تزايد حالات الارتباط الحر أو العلاقات المحرمة بين المستوطنين والأهالي في بداية القرن20 إلى توسع المدن واحتكاك مناطق الحضرية الأوروبية بالأهلية الجزائرية ،كما لاحظ بأن تلك العلاقات كانت مع الطبقات الأهلية الفقيرة والمحرومة ،والتي يجبرهن العوز والفاقة الشديدة على الارتباط بالأوروبيين[4].

غير أنه ومع مطلع القرن 20،وبالضبط في بداية الثلاثينات بدأت حالات المختلط بين الأهالي والمستوطنين تزاداد في الارتفاع ،حيث سجل سنة1936وجود 67حالة زواج مختلط أي بنسبة10 %من كامل الزيجات في تلك السنة ،لكن ومع ذلك يبقى الرقم ضعيفا ،إذا ماوضعنا في الحسبان أن عدد السكان من الجانبين قد ارتفع ،الأهالي في حدود 5ملايين نسمة

[1] - Cardinal(Marie), **Les Pieds Noirs**, souvenirs personnels en préface d'un ouvrage collectif, Belfond , Paris-1988 , p 32.
[2] - Ricoux(René),op-cit,p-p93-95.
[3]- Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p98.
[4] -Démontés(Victor), **Le peuple algérien, de démographie algérienne**, Impressions algériennes du Gouvernement général, 1906_Alger, p 216. .

والأوروبيين ما يقارب 1مليون نسمة.وكما نعلم أنه من النادرأن يحصل الزواج بين الأوروبي والمسلمة ،ومع ذلك تزايدت حالات الزواج بين الأوروبيات والمسلمين ،فقد أحصى الدكتور" **ريكو**" في الفترة الممتدة ما بين 1830-1877وجود 32 حالة زواج مع الأوروبيات،و32حالة مع الفرنسيات، أما **"ديمنتاس"** فقد أحصى في الفترة الممتدة مابين 1905-1915وجود 51حالة زواج مع الأوروبيات كانت كالآتي:18مع الاسبانيات ،7مع الإيطاليات ،و26مع باقي الأعراق الأخرى)،مقابل 28حالة مع الفرنسيات[1] .

والجدول التالي بين لنا عدد حالات الزواج كل فترة [2].

	1877-1830	1900-1878	1936	1938
مسلم /أوروبية	64	117	43	54
أوروبي مسلمة	56	110	24	34

ومثلما كان الزواج بأوروبا زواج تتحكم فيه الطبقية الاجتماعية ،أو بالأحرى خاضع للتقاليد والأعراف البرجوازية والإقطاعية،كان الأمر كذلك داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر ،فقد كان كبار الكولون من ملاك الأراضي والعقارات وأرباب المال يتزوجون من نفس الطبقة الاجتماعية ، ونادرا ما كان يتم بين بنت الريف الفقيرة وبين الإقطاعي ،وبين بنت الأحياء الفقيرة وبين أبناء الطبقات الغنية والبرجوازية .ففي بحث قامت به مجلة **"الزواج في الجزائر وتونس** "في عددها الأول الصادر سنة 1903حول رغبات الزواج للطبقة المتوسطة ،بحيث كان أكثر الرجال من الطبقة المتوسطة يفضلون الاقتران بالنساء من نفس مستواهم الاجتماعي ،والأغلب كان يفضل من نفس المهنة (ثلاثة تجار فضلوا الزواج بالتاجرات ،وعدد من النساء اللواتي كن يعملن في مهن الخياطة وطب النساء والمعلمات كن يفضلن بموظفين وعلى الأقرب من نفس المهنة)[3]. وبالرغم من السياسة المشجعة لاختلاط الأعراق التي تبنتها إدارة الاحتلال طيلة القرن 19 إلا أن عدد الزيجات بين الاوروبيين والفرنسيين كانت قليلة ،فمن مجموع 45000حالة زواج ما بين (1830-1876)بلغ عدد الزيجات بين المستوطنين غير الفرنسيين والفرنسيين 6881حالة ،وهو رقم أقلق كثيرا المهتمين بهذا الشأن ،وقد لاحظ ريكو

[1]- Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p-p130-133.
[2] - Ibid,p130.
[3] - Ibid, p,p119,120.

بأن المستوطنين المنحدرين من غرب المتوسط يفضلون الارتباط فيما بينهم أكثر من الجنسيات الأخرى كالفرنسيين والاسبان .ففي 1000حالة زواج بين الأوروبيين يتزوج 771الفرنسيين فيما بينهم ،ومع الأجانب في 229حالة فقط ،أما المستوطنون غير الفرنسيين فيتزوجون فيما بينهم أكثر من الارتباط مع الفرنسيين(579حالة زواج داخلي مقابل 321حالة زواج مع الفرنسيين) [1]. والشكل البياني يوضح نسب الزيجات بين مختلف الأعراق بالجزائر [2]

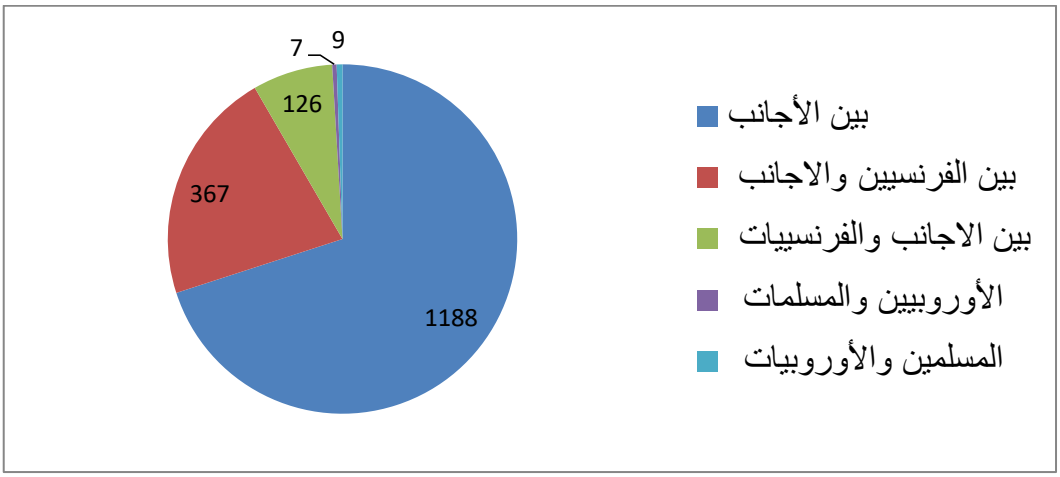

2-تزايد مشكلة إنجاب الأطفال غير الشرعيين (الأسباب وغياب الحلول): لقد أرعبت الأرقام المخيفة حول نفور المجتمع الأوروبي من الزواج والارتباط الشرعي ،خاصة خلال العقود الأولى للوجود الأوروبي في الجزائر معظم الباحثين الديموغرافيين وعلماء الاجتماع والنفس ،وتعدى القلق إلى السلطات الكولونيالية نفسها التي دقت ناقوس الخطر مرات عدة ودعت إلى ضرورة الحد من هذه الظاهرة والبحث لخلق ظروف أكثر ملائمة وتشجيعا للارتباط الطبيعي ، فقد عبر **"فيكتور ديمونتاس** "عن قلقه بقوله:"**إنها ظاهرة تعم المستعمرات الناشئة ،لكن في الجزائر تعدى الأمر حدوده الطبيعية**"،وهي نفس الملاحظات التي قدمها لاحقا الدكتور" **ريكو**" حينما قال:**"لا يوجد في الوعي الجماعي للمستوطنين مفهوما للأسرة ،فالكثير من المستوطنين ينجب أطفالا غير شرعيين ،والأمر مقلق حقا ،فهم في تزايد مطرد ،ونسبتهم في ارتفاع مستمر مقارنة بما يحدث في فرنسا ..**".وقد قدر الباحثان" **مارتان وفولاي**" عدد

[1] - Ricoux(René),op-cit,p92.
[2] - Maison (Dominique),op-cit,p58.

الأطفال غير الشرعيين في الفترة الممتدة ما بين جانفي 1831وديسمبر 1847ب7980طفل شرعي مقابل 2193طفل غير شرعي ،أي 216طفل غير شرعي لكل ألف مولود جديد[1].

والجدول التالي يوضح لنا مقارنة بين عدد الأطفال المولودين بطريقة شرعية والذين ولدوا بطريقة غير شرعية في الجزائر ما بين1840 -1938. [2]

الفترة	-1842 1844	-1847 1851	-1867 1872	-1873 1881	-1894 1900	1910	1938
أطفال شرعيين	4309	20576	46607	96015	103207	190402	16067
أطفال غير شرعيين	1009	4036	6764	9393	14396	2338	1115

أما الجدول التالي ،فيمثل أعداد المواليد غير الشرعيين في كل من الجزائر وفرنسا

الفترة	-1841 1850	-1851 1860	-1861 1870	-1871 1880	-1881 1890	-1891 1900	-1901 1910
فرنسا	71	74	75	72	80	87	82
الجزائر	165	148	125	90	90	118	109

إن أهم ما يلاحظ من الجدول الأول، هو التزايد المطرد لولادة الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين مع تطور السنين ،وإذا كان تزايد الأطفال بشكل عام مبررا و منطقيا ومفهوما نظرا للتطور الطبي وتراجع الأوبئة والأمراض نهاية القرن التاسع عشر،فإن الأمر الذي يحتاج إلى تفسير هو ارتفاع الشديد للأطفال غير الشرعيين نهاية القرن التاسع عشر ،فقد قفز عددهم من 6764طفل ما بين (1867-1882)إلى 14396وهو ما يشكل الضعف،وهو رقم مرعب يهدد تماسك المجتمع الكولونيالي . ولعل أهم تفسير لذلك ،هو ما قدمته الباحثة **"غودار"** والمتمثل في إصدار السلطات التشريعية الفرنسية لقانون الطلاق عام 1884، إلى جانب توسع المدن وانتشار مراكز البغاء بشكل كبير خاصة في المدن الكبرى. ولهذا عدة تفسيرات، أهمها :

[1] -Robert - Guidard (Claudine),op-cit,p89.
[2] -Ibid,p90.

1-زيادة عدد الجنود خلال العقود الأولى للاحتلال الفرنسي مما أدى إلى اتجاه معظم الجنود لعقد علاقات عاطفية محرمة سريعة، وذلك نظرا عن معظم الجنود يرى أن في مقامه المؤقت بالجزائر لا تشجعه على عقد الزواج طويل مادام وجوده مؤقت.

2-صدور قانون الطلاق عام 1884 بحيث أصبح الطلاق مباحا للجميع ،بحيث أصبح الطلاق أكثر سهولة وأقل تعقيدا مما سبق ،مما أدى إلى كثرة المطلقات اللواتي أكثرهن فضلن حياة لتحررالجنسي و الانعتاق من روابط الحياة الأسرية التقليدية حيث نلاحظ في الجدول ارتفاع سريع للمواليد غير الشرعيين من 9393 سنة1881 إلى 14396 مابين 1894 و 1919

3 – توسع المدن الكبرى والتي ازدهرت فيها الحياة العصرية و انتشار البذخ، مما، ساهم في انتشار العلاقات غير شرعية والمحرمة[1].

و بالرغم من تزايد نسبة العلاقات غير الشرعية و ارتفاع عدد المواليد غير الشرعيين نهاية القرن التاسع عشر ، ألا أنه بالمقابل ازداد ارتفاع حالات اعتراف الآباء بأولادهم غير الشرعيين، إذ نجد أن نصف المواليد تم الاعتراف بهم لكن دون أن يتم لم شمل الأسرة (أي زواج الأب بأم المولود غير الشرعي ،غير أن ذلك لم يكن أكثر سوء من البلد الأم فرنسا ،والتي تجاوزت نسب انجاب الأطفال غير الشرعيين مستويات كبيرة [2] .

وإذا كان **"ديمنتاس"**قد أرجع ارتفاع العلاقات غير الشرعية إلى ارتفاع نسبة الذكور في الجيش الفرنسي ،و إلى المناخ الحار الذي يزيد من الرغبة في عقد علاقات غير الشرعية محرمة ،فإن الدكتوران **"فولاي و مارتان** "يرجعان الدافع الرئيسي إلى عامل الهجرة و حرمان المهاجرين من العمال و الفلاحين بشكل خاص إلى دفء العلاقة الزوجية و الابتعاد عن الزوجة يجعل من السهولة عقد علاقات شرعية وفي مثل غياب الرقابة الاجتماعية تصبح العلاقات المحرمة و العبارة أفضل طريقة لإشباع الغرائز[3] . بينما تورد الباحثة كلودين غودار عاملا آخر،و هو لا يقل أهمية عن العوامل و الدوافع السابقة،وهو قلة المعرفة أو الرفض في أغلب الحالات لتشريعات و القوانين الفرنسية داخل المستعمرة، والتي يراها الكثير من

[1] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p,p92,93.
[2] - Bertillon(Jacques),op-cit,p-p92-94.
[3]- Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p95.

المستوطنين غير الفرنسيين تشريعات معقدة و مقيدة للحريات في نفس الوقت فمثلا كان الإنسان حين عقد قرانهم في إسبانيا كان يتم بشكل سلس ويتم في الكنيسة دون الحاجة إلى تقنية عبر إجراءات قانونية معقدة ،و لذا فلم يعترف المهاجرون الاسبان بالقانون الفرنسي ،و فضلوا الارتباط عرفيا دون الذهاب إلى البلديات . إلا أن الأمر لم يطل كثيرا ،حيث تحرك رجال القانون والإدارة الفرنسية إلى تقديم الكثير من عرائض الاحتجاج للحكومة العامة للجزائر تطالبها بوقف الزواج عند رجال الدين من الأسبان و المالطيين و أمروا إلى تطبيق المادة 199 من القانون المدني التي تجبر المتزوجين،إضافة لما سبق كان هناك عامل أخر ، وهولا يقل أهمية عن العوامل السابقة ،ألا وهو ثقل إجراءات الزواج في ظل القوانين الفرنسية التي تشترط على الراغب في الزواج تقديم حزمة من الوثائق الإدارية من شهادات الميلاد للمعني والأب وشهادة عدم الزواج ،وغيرها،وهي ما رأى فيها المهاجرون الجدد خصوصا المالطيين والأسبان شروطا صعبة وتعجيزية للكثير منهم،فالكثير منهم هاجر وليست له أي وثيقة تثبت هويته ،والبعض الآخر يرى في السفر إلى مسقط رأسه لاستخراج وثائقه المطلوبة أمرا متعبا،ولذا فالأسهل بالنسبة لهؤلاء هو الزواج غير القانوني [1]. والجدول التالي يبين لنا نسبة الأطفال غير الشرعيين المعترف بهم من قبل آبائهم الأوروبيين، والذين تم تسجيلهم في سجلات المواليد الشرعيين في الفترة الممتدة ما بين (1897-1899)[2]

جنسية الأم الأصلية	الفرنسيات	المالطيات	الاسبانيات	الايطاليات	المسلمات
%الأطفال غير الشرعيين من المولودين الجدد	%10.04	%7.91	%12.31	%13.50	%19.23
%الأطفال غير الشرعيين المعترف بهم	%54.11	%60.33	%72.41	%74.71	%84
%الأطفال غير الشرعيين غير المعترف بهم	%45.89	%39.67	%27.59	%25.29	%16

من خلال أرقام الجدول نجد بأن المالطيات والفرنسيات كن الأقل إنجابا للأطفال غير الشرعيين ،بالرغم من أن الفرنسيات كن الأكثر تقبلا وانفتاحا للعلاقات العاطفية لا سيما في

[1]-Ibid,p,p95,96.
[2]-Ibid,p98.

بدايات الاحتلال، ومع ذلك فقد كان أبنائهن الأقل تبنّيا واعترافا من قبل أزواجهن [1]. وبالمقابل نجد بأن المسلمات كن الأكثر إنجابا للأطفال غير الشرعيين ب19.23%،وهو عدد كبير إذا عرفنا بأن المجتمع الأهلي مجتمع محافظ وتعاليمه الإسلامية تحرم زواج المسلمات بالأوروبيين فما بالك بالزواج السري والعلاقات غير الشرعية،ولذا فإن كانت حالات الزواج للمسلمات بالأوروبيين حالات قليلة فإنه يلاحظ بأن أبنائهن كانوا الأكثر تبنّيا واعترافا من جميع الأولاد الأوروبيين بنسبة تصل إلى 84%من مجموع الأبناء غير الشرعيين [2].

ولكن ابتداء من بداية القرن 20وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية شهدت نسبة الأولاد غير الشرعيين في المجتمع الاستيطاني انخفاضا محسوسا ،حالها كحال بقية الدول الأوروبية،وذلك راجع لانتشار الثقافة الصحية والتوعية من مخاطر العلاقات غير الشرعية داخل المجتمع ومخاطره على مستقبل الفرد والمجتمع معا ،إضافة إلى إيمان المجتمع بأهمية الأسرة ودورها في تحصين المجتمع.وبشكل مختلف عما سبق انخفضت نسبة وفيات الأطفال المواليد بشكل عام في بداية ق20 إلى حدود4% ،وهو ما أصبح يماثل نسبة وفيات الأطفال في أوروبا ،غير أن نسبة وفيات الأطفال غير الشرعيين تبقى مرتفعة بسبب الإجهاض أو لأسباب أخرى كالتعنيف ضد المرأة .والجدول يعطينا لمحة عن نسبة وفيات المواليد الجدد سنة1896 [3]

	عدد المواليد الأحياء	عدد المواليد المتوفين	% الوفيات
المواليد الشرعيين (الذكور)	22288	918	3.95
المواليد الشرعيين(الإناث)	21330	680	%3.08
المواليد غ الشرعيين (الذكور)	3229	178	%5.22
المواليد غ الشرعيين (الإناث)	3075	145	%4.50

إن أهم ما يمكن استخلاصه من الجدول هو الانخفاض العام لنسب الوفيات بشكل عام إلى حدود 3-5%،ومع ذلك فإنها ترتفع عند الذكور مقارنة بالإناث،وترتفع أكثر للأطفال غير الشرعيين بشكل أكثر سواء أكانوا من الذكور أم الإناث .

[1]- Bertillon (Jacques),op-cit,p,p95,96.
[2] - Robert Guidard (Claudine) ,op-cit,p98.
[3]-Ibid,p92.

لقد شكلت قضية الأطفال غير الشرعيين صداعا لإدارة الاحتلال ، ولم تجد حلا سوى بإدماجهم والاعتراف بهم وتسجيلهم في سجلات الحالة المدنية ،فقد أحصا الباحثان الدكتوران" **فولاي ومارتان"** عدد الأطفال الشرعيين المعترف بهم في الفترة الممتدة مابين 1831-1847 ب1373من بين 2193طفل غير شرعي في العاصمة لوحدها .أي بنسة 626من الألف.

والجدول التالي يبين لنا عدد الأطفال غير الشرعيين المعترف بهم من قبل إدارة الاحتلال ما بين 1873-1938[1]

	1881-1873	1900-1894	1910	1938
مواليد غ شرعيين	9393	14396	2338	1128
المعترف بهم	5078	8878	1495	552
النسبة العامة	%54	%61.66	%64	%49

من خلال الجدول نلاحظ أن نسبة المواليد المعترف بهم بلغ أكثر من 50%من مجموع المواليد الجدد غير الشرعيين .ولعل لذلك أسباب تبرره ،وأبرزها تراجع العلاقات الزوجية غير الشرعية ، واعتراف الآباء العزاب بأبنائهن بالرغم من عدم زواجهم من أمهات هؤلاء الأطفال ورفض المجتمع الأوروبي المتزايد بالزواج غير الشرعي .

3-ظاهرة الطلاق و الترمل في المجتمع الأوروبي

هناك ظاهرة اجتماعية أخرى تتعلق بالحياة الأسرية داخل المجتمع الأوروبي ،وهي ارتفاع معدلات الأرامل ،وإذا كانت الإحصائيات المقدمة خلال القرن التاسع عشر حول أعداد العوانس والأرامل كانت شحيحة وأحيانا غير دقيقة [2]،فإن أهم إحصاء يعطينا تفاصيل أكثر دقة ومعلومات أكثر ،هو إحصاء عام 1931،غير أن ما يعيبه هو إنه مسح فقط مدن الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة،وهي كلها لا تضم سوى 44من إجمالي السكان الأوروبيين ،ومع

[1]-Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p92.
[2] -Legoyt(Alfred), « **Les mariages en France de 1800à1860 »**,Journal de la société statistique de paris ,Tome 4, Societé statistique de paris-1863,p-p248-250.

ذلك فإننا نجد بأن معدل العنوسة قد بلغ متوسط7 .7 %من إجمالي السكان الذين هم في سن الزواج(8%في العاصمة،7.3%في وهران ،6.6%بقسنطينة)[1]

والجدول التالي يوضح تطور حالات الترمل مابين 1856-1936.

السنة	1856	1866	1872	1911	1936
نساء أرامل	764	861	1036	975	1071
رجال فقدوا نسائهم	308	313	327	346	261

أما بالنسبة للطلاق فقد كانت نسبة المطلقين والمطلقات أيضا مرتفعة حالها كحال الأرامل ،ولم يكن الطلاق قبل صدور" **قانون ناكي**" عام 1884مرغوبا فيه أو سهلا ،نظرا لأن التعاليم الدينية للمجتمعات المسيحية عادة لا تقبل به ،ولكن بعد صدور قانون ناكي ارتفعت حالات الطلاق بشكل كبير،حيث قدر عدد حالات الطلاق فور صدورالقانون 125حالة ،وبعد ذلك أصبح زواج من بين 32إلى 35زواج ينتهي بالطلاق ،أي بنسبة تقارب 3%من حالات الزواج نهاية القرن 19،ويرتفع أكثر ما بين الحربين لتصل النسبة 10% في فترة ما بين الحربين 1919-1939مقابل 11%في الميتروبول .غير أن القلة منهم من فضل إعادة الزواج أو من سمحت له الظروف بإعادة الزواج،حيث قدرت نسبة المطلقين والأرامل الذين أعادوا زواجهم سنة1936ب12%،أما المطلقات والأرامل ممن أعدن زواجهن فقد قدرت نسبتهن9.64%[2]، ولكنه أقل مما عليه بفرنسا آنذاك ،حيث قدر الباحث " **جاك بارتيلون** "بأن الأرامل يحظين بفرصة تتجاوز أربعة أضعاف في الزواج من العازبات التي بلغن سن الأربعين ولم يتزوجن[3].

لم تكن العنوسة كظاهرة تثير القلق بشكل كبير ،مثلما كانت تثيره ظاهرة ارتفاع المطلقات ، وإذا كانت ظاهرة الترمل لها ما يبررها من وفيات الأزواج خلال الحروب ضد المقاومة الأهلية أو خلال الحربين الأولى والثانية ،فإن ارتفاع ظاهرة الطلاق المرتفعة،ولاسيما عند النساء الأوروبيات لا سيما بعد أن أصبح الطلاق مُقَننا ومسموح به حسب قانون ناكي **(La loi Naquet**،الذي صدر عام 1884،وفي العام اللاحق تم تسجيل 122حالة طلاق ،لتترفع

[1] - Robert - Guidard (Claudine) ,op-cit,p108.
[2] -Ibid,p-p108,109.
[3] - Bertillon(Jacques),op-cit ,p52.

حالات الطلاق وتصل نهاية القرن، حالة طلاق لكل 32حالة زواج ،ثم ترتفع أكثر بين الحربين لتصبح من بين 10حالات زواج حالة زواج تنتهي بالطلاق. ورغم ذلك فإن حالات إعادة الزواج لم تكن كثيرة لتمتص هذا العدد الهائل من المطلقين والمطلقات ،لا سيما مع مطلع القرن 20 ،حيث قدرت الإحصائيات لعام 1911احتمالات إعادة الزواج بحالة لكل حالة طلاق99 ، لتتقلص حظوظ أعادة الزواج لتصبح حالة لكل 173حالة طلاق ،ويصبح الحال مغايرا تماما لما كان خلال العقود الأولى الجزائر،أين كان المجتمع أكثر حفاظا على عفة وسمعة المرأة المطلقة .و ظل الحشمة والتعفف يظهر فقط في المدن الداخلية القرى الريفية البعيدة عن صخب الحياة العصرية التي بدأت تضرب برياحها الأسر الأوروبية في المدن الكبرى والساحلية[1] .

عطفا عما سبق نلخُص إلى ما يلي:

1/ كانت السلطة المحتلة في الجزائر تنظر إلى الزواج وتكوين الأسرة داخل المجتمع الأوروبي في الجزائر إلى اسمنت يضمن تماسك المجتمع واندماج الأقليات أكثر من كونه ظاهرة اجتماعية صحية تنشر قيّم المحبة والتكافل الاجتماعي ،وسعت لأجل ذلك لتسيهل عملية انصهار الأقليات الأوروبية عبر الزواج العرقي.

2/ظل الزواج خارج المجموعة العرقية غير محببا لعقود طويلة ،وأضحى مقتصرا بين أبناء المجموعة العرقية الواحدة ،ولايعود سبب ذلك إلى الاختلاف في العادات والتقاليد أو لتصادم المرجعيات الدينية بين الأهالي والأوروبيين المسيحين،وإنما يعود كذلك إلى تخوف كل مجموعةعرقية في اندماج أبنائها وفقدانهم لهويتهم الأصلية .

3/ إلى جانب عزوف المجتمع الأوروبي عن الزواج بشكل عام ،فقد شهد هذه المجتمع ظاهرتين اجتماعيتين خطيرتين ،هددتا تماسكه ،وهما كثرة الأطفال غير الشرعيين ،وكثرة الطلاق خاصة نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

[1] - Robert Guidard (Claudine) ,op-cit,p-p109-111.

خامسا: الدين و النشاط الكنسي داخل المجتمع الأوروبي

تُدين أكثر العرقيات المختلفة المشكلة للمجتمع الأوروبي بالديانة المسيحية ،بمختلف مذاهبها الدينية ،والتي أهمها الكاثوليك والبروتستانت ، أما اليهود المتجنسون بالجنسية الفرنسية فقد احتفظ أغلبهم بديانتهم ومقدساتهم وبدور عباداتهم .وقد عملت الإدارة المحتلة على إعطاء حرية العبادة والممارسة الدينية للجميع،على الرغم أنها من جانب آخر ضيقت على الأهالي المسلمين في حق ممارسة شعائرهم الدينية.

ارتبط استمرار ممارسة أوروبي الجزائر في ممارسة شعائرهم الدينية والتعبدية بنشاط الكنيسة ، والتي سعت إلى الحفاظ على بقاء الدين المسيحي في نفوس وعقول المستوطنين ،بل أكثر من ذلك العمل على نشر المسيحية وتعاليمها في أوساط الأوروبيين والأهالي معا.**فماهي مكانة الدين في المجتمع الأوروبي في الجزائر ؟وما دور الكنيسة في حياة الأوروبيين الدينية؟وكيف كان واقع الممارسة الدينية لليهود خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر؟.**

1- الجمعيات والكنائس ودورهما الديني والاجتماعي في المجتمع الأوروبي

لقد كانت إحدى أهداف الاحتلال الفرنسي في الجزائر هي دمج المجتمع الجزائري المسلم في الأمة االفرنسية ،والتي كان أحد مقوماتها الإدماج عبر غرس العقيدة الكاثوليكية في المجتمع الأهلي،كما كان الاهتمام بالجانب الديني للمستوطنين الأوروبيين يندرج في ذات السياسة الدينية التي انتهجها المحتل ،بحيث لم تهمل الحكومات المتعاقبة الاهتمام بتحسين كل الظروف وتوفير كل الوسائل لأداء المستوطنين لشعائرهم الدينية بكل راحة.

من العوامل التي أدت بسلطات الاحتلال إلى الاهتمام بالجانب الديني ا،وسعيها لتنظيمه:

أ-مراسلات بعض المعمرين في الجزائر إلى ملك وملكة فرنسا تدعوهما للاهتمام بالجانب الديني

ب- المساعي التي قام بها البابا غريغوري الخامس « Grégorie 5 »لدى مسؤلي الدولة الفرنسية بهدف إحياء مجد الكنسية الإفريقية في شمال إفريقيا

ج-الدور البارز الذي لعبته ملكة فرنسا "ماري إميلي"« Marie- Amélie[1] » بالاهتمام بالجانب الديني للمستوطنين ،فيما يخص ببناء دور العبادة وتنظيمها ونشر المسيحية وإلى غيرها من الأمور الدينية الأخرى،وقد استنجدت برجالات الدولة الفرنسية من **"الدوق دي بروغلي "« duc de broglie »** ووزير الحربية **"دو ريني "« de régny »**لاتخاذ القرارات المتعلقة بتنظيم الجانب الديني للمستوطين .

د-وجود مستوطنين أوروبيين من مختلف الجنسيات ،ورغبة فرنسا الكاثوليكية صهرهم في أمة متجانسة [2]. ولكي تؤدى المهمة على أتم وجه تكفلت الجمعيات الدينية والكنائس بمهام رعاية الشعائر الدينية للمستوطنين .

أ-الجمعيات الكاثوليكية

لم تكن الجزائر غريبة عن الجمعيات التبشيرية ،فالكثير منها استقرت بها قبل الاحتلال وذلك لافتداءالأسرى الأوروبيين،وبعد الاحتلال وطيلة السبعين سنة الأولى توافد إلى الجزائر عدد كبير من الجمعيات الكاثوليكية وعدد أقل من الجمعيات البروتستانتية ،الرجالية منهاوالنسائية ،والتي اهتمت بالمهام الدينية المتعلقة بالأوروبيين ، وأهمها:

-جمعية الجزويت (الآباء اليسوعيين)،التي استقدمها "ديبيش [3]"،وتركز عملها على إدارة ملجأ اليتامى الأوروبيين بابن عكنون المؤسس سنة 1842،وفي نفس السنة استقر البعض منهم في قسنطينة للاهتمام بالعلاج والإرشاد في المستشفى الإسلامي ،وإدراتهم لمدرسة البلدية ،وفي سنة 1844وصل عدد منهم إلى وهران حيث أسسوا كوليجا ضم حوالي 1500تلميذا .

---

[1]-الملكة ماري-ايميلي دوبربون دي سيسيل "صقيلية"،المولودة بتاريخ 26أفريل 1782بنابولي والمتوفاة بتاريخ 24مارس 1866بكلاريمونت (المملكة البريطانية)هي أميرة نابولي وصقلية ،تنحدر من أسرة آل بربون العريقة ،وزوجة الملك الفرنسي لويس فيليب بعد قرانهما ،الذي أجري بتاريخ25نوفمبر 1809،حكمت عرش فرنسا ما بين 1831-1848قبل أن تختار عيش المنفى رفقة زوجها الملك لويس فيليب بمدينة كلاريمونت ببريطانيا بعد أن أطاحت بهما ثورة الكومون عام 1848،عاشت متدينة ، مناصرة للكنيسة وللبابا من جهة وحياة الترف من جهة ثانية ،للمزيد انظر:
Vidal (Florence), **Marie-Amélie de Bourbon-Sicile Épouse de Louis-Philippe**, Pygmalion éd, Paris-2010.

[2]-وعلي (محمد الطاهر)،**التعليم التبشيري في الجزائر من 1830إلى 1904دراسة تحليلية تاريخية**، دار دحلب للنشر والتوزيع ، الجزائر -2009، ص،ص32، 33.

[3]-الأسقف ديبيش ،من مواليد بوردو(فرنسا)سنة 1800متدين متعصب لفكرة نشر المسيحية في شمال إفريقيا والجزائر ،وأحد أعمدة التنصير في الجزائر ،ترأس أول كاتدرائية في الجزائر العاصمة وأول من أسس أسقفية فيها ،وذلك سنة 1838،عمل قبل مجيئه إلى الجزائر كأسقف في أبرشية بوردو،وفي مجال التنصير وتربية الفتيات اليتيمات على المذهب الكاثوليكي والرهبنة ،وفي 1845تنازل عن نشاطه التبشيري بعد خلافات مالية وفكرية مع البابا وحكومةالاحتلال ليرحل عن الجزائر نهائيا في نوفمبر 1846بعد أن أرسى عماد النصرانية في الجزائر ،أنظر:
- Vauthier (Gabriel), « **Le premier évêque d'Alger Mgr dupuch(1838-1845) »**,Revue d'histoire du1848et du XIX, Tome 26,N°130,September –Novembre,Anneé1929-France ,p-p414-420.

-أخوات القديس جوزيف دي لباريسيون « les sœurs de ST joseph de l'apparition »،[1]استقر بهن المقام في كل من العاصمة وعنابة ،تركزنشاطهن على رعاية اليتيمات الأوروبيات،غادرن الجزائر إثر خلاف شب مع رئيس الجمعية **"المطران ديبش"**

-الراهبات الثالوثيات [2] **« Les religieuses trinitaires »**:حضرن بتاريخ 26 نوفمبر 1840واستقر بهم المقام بوهران،انحصر نشاطهن على التعليم إلى غاية صدور قانون 30 أكتوبر 1880الذي يمنع على أعضاء الجمعيات التبشيرية من التعليم في المدارس الحكومية [3]

-أخوات العقيدة المسيحية [4] **«Les sœurs de la doctrine chrétienne»**،اللاتي استقرن بالشرق (قسنطينة ،عنابة ،سكيكدة) في كامل البلاد اهتمن بالتعليم ،وبلغ عدد مؤسساتهن 18 مؤسسة وملجأ للأيتام [5].

-راهبات باستور الطيب« les religieuses du Bon pasteur[1] **»**اللائي أسسن ملجأ باستور الطيب بالعاصمة1843،ومعبد مسرغين في وهران1850 ،ومعبد قسنطينة 1855[2].

---

[1]-لا يعترف بالتحديد تاريخ إنشاءها ،لكنها على الأغلب تأسس في أواسط القرن السابع عشر بفرنسا، من قبل سبعة نساء تحولن إلى أخوات لخدمة المسيحية ،وذلك في بلدة سانت فلور ،بمساعدةأحد الآباء الجزويت ،وهو الأب ميداي،أما بالنسبة لنشاطها التبشري فقد ارتبط وجودها بالراهبة ايميلي دو فيلار حينما ساهمت في إرسال عدد من الأخوات للاستقرار في الجزائر ما بين 1835-1842،والتي قدمن لتقديم خدمات صحية للجيش والمستوطنين خلال العقود الأولى للاحتلال ..للمزيد ، يرجى العودة للمقال التالي :

Falgas (Geneviève) **, Une congrégation missionnaire en Algérie (1835-1842) : Les Soeurs de Saint-Joseph de l'Apparition,** Revue d'Outre-Mers. Revue d'histoire Année 2013 p-p, 163-183

[2]-في عام 1718 ، افتتح الأب جان بابتيست فاتيلوت (1688-1748) ، مع أخواته الثلاث ، مدرسة للفتيات في منزل عائلته في برولي ، بالقرب من تول. وسرعان ما انضمت إليهن نساء أخريات وبدأت في إدارة المدارس الريفية في الأبرشية. أسقف تول ، هنري بونس دي تيارد دي بيسي يأمر Vatelot بوضع لائحة. وفقا للقوانين التي وضعها الكاهن ، فإن المعلمين ليسوا ملتزمين بوعودهم ، ولا يلتزمون بالجدار الديني ، ويمكن إرسالهم اثنين من قبل اثنين إلى المدارس الضيقة. وافق ملك فرنسا لويس الخامس عشر على الجمعية عام 1752 كشركة لأخوات العقيدة المسيحية. تم حل الجماعة من قبل الثورة ، ثم وافق عليها نابليون لعودتها للعمل في(20 أبريل 1803) ، واستأنفوا العادة الدينية في عام 1804 وأعادوا التجمع في دير كابوشين السابق لنانسي. في عام 1821 ، انتُخبت بولين دي فايلونيت جنرالًا متفوقًا ، وقامت ببناء مبتدئ جديد ومصلى جديد وأرسلت راهبات إلى لوكسمبورج وبلجيكا والجزائر.للمزيد أنظر:

https://fr.wikipedia.org/wiki/S%C5%93urs_de_la_doctrine_chr%C3%A9tienne_de_Nancy

[3]- وعلي (محمد الطاهر)،المرجع السابق، ص35.

[4]- أخوات العقيدة المسيحية ،جمعية دينية تبشيرية متشددة في الأخذ بتعاليم الأنجيل تأسست حوالي 1700بمدينة تول الفرنسية من قبل القس جون فاتيلو Jean Vatelotمع ثلاث من أخواته ،توسعت الجمعية وازدهرت أنطتها داخل فرنسا وخارجها بأوروبا والمستعمرات الفرنسية في ما وراء البحار كالجزائر ،وتخصصت كغيرها في تربية الأيتام والطب ..للمزيد،أنظر:

Maison-mère de la doctrine chrétienne**, Constitutions de la directoire spirituel des sœurs de la doctrine chrétienne**, Imprémerie de v Raybois et Cie ,Nancy-1844, voir l'introduction.

[5]- وعلي (محمد الطاهر)،المرجع السابق،ص36.

إلى جانب جمعيات أخرى هي جمعية" **راهبات القلب المقدس" Les religieuses du « cœur sacré**،"**جمعية ترابست" « les trappistes de staoueli »** ،"**جمعية القديس فانسان دي بول" « les sœurs de ST Vincent de Paul »**،"**إخوان القديس جوزيف دي مان"« les frères de ST joseph de Mans »**

ب-الجمعيات البروتستانتية:لم يكن معظم المستوطنون الأوروبيون على مذهب أو ديانة واحدة ، نظرا لاختلاف أصولهم العرقية والدينية ،وإذا كان السواد الأعظم من المستوطنين يدين بالمذهب الكاثوليكي ،فإن ذلك يعود لانحدارهم من جنوب أوروبا ذات الأغلبية الكاثوليكية.وتبقى الأقلية منهم من المذاهب الأخرى كالبروتستانتية،دون احتساب طبعا العنصر اليهودي ذو الأصول الجزائرية[3].

على الرغم من ضعف وزنها الديني مقارنة بالجمعيات الكاثوليكية،فإن الجمعيات البروتستانتية بفرنسا تحمست وبشدة في نشر رسالة الإنجيل بالجزائر،ولعل أبرزها **"الجمعية البروتستانتية للاستعمار"** التي تأسست عام 1890،حيث كفلت بمهمة نقل البروتستانت من فرنسا إلى الجزائر، ففي يوم 24 أكتوبر 1890 نقلت 22عائلة مسيحية بروتستانتية فقيرة من فودوا الوقعة في فال فريسينيار Val Fraissinières أعالي الألب(Hautes- Alpes)إلى قرية عين طلبة (غيارد-Guiard)الواقعة في القطاع الوهراني.كما تكفلت اللجنة البروتستانتية بمدينة ليون بنقل أسر بروتستانتية أخرى من مدينة ليون إلى نفس المستوطنة [4].

وإلى جانب هذه الجمعية المهمة ،كانت ثلاث جمعيات بروتستانتية أخرى ،لكنها ليست فرنسية ، تنحدر معظمها من شمال أوروبا **"أنجلوساكسونية"**،وهي **"نورث أفريكا ميشيون" « North Africa mission »** ،وجمعية **"ألجيريوس ميشييون**

---

[1]-شكلت راهبات القس الصالح أحد الجمعيات التبشيرية للمذهب الكاثوليكي في إيطاليا وفرنسا والتي تنتسب لأحد حواري المسيح المعروف باسم القس الراعي، تأسست في فرنسا عام 1835 ، من قبل الراهبة الفرنسية ماري إفراسيي بيليتييه Marie-Euphrasie Pelletier،لحماية و رعاية النساء اللواتي يواجهن صعوبات في الحياة كالمشردات واليتيمات والفتيات القاصرات المعرضات لخطر البغاء أو يواجهن صعوبات اجتماعية كبيرة .للمزيد في هذا الموضوع يرجى العودة إلى :

-Réau (Louis), **Iconographie de l'art chrétien**, Presses Universitaires de France, Paris- 1955, p 33.

[2]- وعلي (محمد الطاهر)،المرجع السابق،ص36.

[3] -Mannoni(Pierre),**Les français d'Algérie ,Vie, Mœurs, Mentalités,** Edition Le Harmattan, Paris-1993, p,p205,206.

[4]- Réveillaurd (Eugène), **L'établissement d'une Colonie de vaudois français en Algérie** ,Edition la société coligny (société protestante de colonisation),Paris-1893 ,p-p01-03.

باند"« Algiers mission band » ،وجمعية **"لاميسيو ميتوديست" La mission « méthodiste**،وقد كانت الآنسة **"ميس لياس تروتار** "أحد أبرز الأخوات المسيجيات الناشطة في الوسط البروتستانتي في الجزائر ، وأحدى أهم الداعيات للمذهب لدى المجتمع الأوروبي والمسلم معا[1].

أما المناطق التي ينحدر منها البروتستانت من فرنسا ،فإن معظم العائلات البروتستانتية المهاجرة من فرنسا تنحدر من قاردGarde , دروم drome ، وأعالي الألب Hautes Alpes ، شارونت Charente،مونبيليار[2] Monbéliard.

وكغيرها من الجمعيات الدينية عملت الجمعية الكاثوليكية للاستعمار على شراء الأراضي للبناء وتخصيص مبلغ 2000ف ف كمساهمة منها لكل عائلة بروتستانتية جديدة لبناء منزل خاص بها، ومبلغ مماثل لمساعدتها على الإنفاق إلى غاية نضج المحصول أو لشراء مستلزمات العمل الزراعي،كما خصصت قرض تتراوح قيمته ما بين 4000إلى 4800ف ف يسدد على عشرة أقساط وبلا فوائد،كما عملت بالتنسيق مع السلطات الفرنسية في توفير مزرعة ومساعدات لكل عائلة بروتستانتية جديدة [3].

مع استقرار الجالية الأوروبية بالجزائر ،وخاصة من السويسريين والألمان والهولنديين والإنجليز من مختلف الطوائف الدينية المسيحية ،اضطرت السلطات الدينية الاستجابة لمتطلباتهم الروحية بتأسيس كنائس وأديرة حسب المذهب الديني لكل طائفة دينية،ويعود أول مجمع ديني بروتستانتي تم تأسيسه بالجزائر إلى 07جانفي 1836بالجزائر العاصمة ، وبعد ذلك صدرت أمرية ملكية في أكتوبر سنة 1839تفرض وجود كنسية بروتستانتية يديرها كاهن،لينطلق البروتستانت مع مر السنين في التأسيس لدور العبادة الخاصة بهم في كل المدن الجزائرية التي اتجمعت فيها الجالية الأوروبية ذات المذهب البروتستانتي سيدي ابراهيم 1840 الدويرة 1840 سكيكدة 1845 البليدة 1849 قسنطينة 1853 بجاية 1874، حيث كانوا يقومون بزيارة معسكرات الجنود،حيث اقترحت الكنيسة الأنجليكية (مذهب لوثر)الإصلاحية

[1] - Mannoni(Pierre),op-cit,p206.
[2]- Réveillaurd (Eugène),op-cit,p103.
[3]-Ibid,p,p85,86.

تشكيل ثلاث مجامع دينية مختلطة في وهران ،والجزائر وسكيكدة ،والسبب في ذلك كونها تشكل الطائفة الأكبر في صفوف السكان البروتستانت ،المدنيين والعسكريين[1] .

إن أولوية الجمعيات البروتستانتية هي الدفاع عن المعتقد البروتستانتي في الجزائر،وحماية معتنقيه من الذوبان في الطائفة الكاثوليكية،دون إغفال مهمتها في التبشير الديني. حيث اتخذت من القرى المنتشرة في غرب الجزائر مثل عين طلبة ،الزوايا الثلاث ،حمام بوحجر ،بني صاف قواعد تنطلق منها الإرساليات الدينية نحو باقي المناطق [2].كما تكفلت لجنة تشكلت بباريس يترأسها السيد "ريفيور" M.Réveillaurd والمعروف بالدفاع عن البروتستانت بنقل 96فرنسي بروتستانتي إلى الجزائر في قرية عين طلبة في منتصف أكتوبر 1890 .

ومن جهتها ،شكلت **"جمعية التضامن والأخوة الدينية"** الرابط بين الأسر البروتستانتية ، وكان كل فوج من المهاجرين الجدد يصل إلى قرية عين طلبة أو مدينة Trois marabouts -والبعيدة ب05كم من عين تموشنت-،يحظى باستقبال حافل من قبل رئيس البلدية ورجال الكنيسة،وتقام الولائم وتتلى الأغاني الدينية والنشيد الفرنسي **"لامارساييز" « La Marseillaise »**فرحا بلم شمل البروتستانت وابتهاجا ببداية العهد البروتستانتي في الجزائر[3] .

احتفظ الاسبان بإيمانهم المسيحي على المذهب الكاثوليكي،غير أن معظهم كان يرى في المسيحية طقوسا تتم تأديتها ولم يكن يؤمن ولا يعرف روحها ولا يفهم كنهها،فقد كان الرجال يهملون تأدية طقوسهم الدينية بشكل كبير .أما النساء فقد كانت تخلط الدين بالخرافات والشعوذة ، ورغم ذلك فإن الاسبان أكثر الأوروبيين تعصبا للمسيحية الكاثوليكية إلى حد التضحية من أجلها . و يتهمون الفرنسيين بالتقاعس في نصرة الإنجيل ،وبجهل الدين المسيحي وبإهماله [4]

ومثل حال الاسبان بقي الايطاليون لوقت طويل متعلقين بالدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي ،ونظرا لاندماجهم السريع في الحياة العصرية وارتياد الأطفال المدرسة الفرنسية

---

[1]-توفيق صالحي:**المجتمع والعمران في سكيكدة،المرجع السابق** ،ص285.

[2]- Réveillaurd (Eugène) ,op-cit,p92.

[3] -Ibid,p55.

[4]- Mathieu (Auguste), **Les races et Les religions en Algérie :Etudes Algériennes** ,Imprimerie x. jevain, Lyon - 1894,p29.

الحديثة وازدياد عدد المتحدثين باللغة الفرنسية خصوصا من الأجيال الجديدة المولودة بالجزائر سارع رجال الكنسية الكاثوليكية من العرقين الاسباني والايطالي لمضاعفة نشاطهم الديني للحفاظ على الدين المسيحي داخل المجموعة الإيطالية ،فقد كان القساوسة ورهبان الكنيسة يقدمون تعاليمهم الدينية(**Catéchisme**) لا سيما أيام الآحاد باللغتين اللغة الأم واللغة الفرنسية خصوصا للتلاميذ في الطور الابتدائي بتأييد من أولياءهم الذين يرون بأن المدرسة الفرنسية لا تؤدي واجبها الروحي نحو أبنائهم .ولهذا فإننا نجد بأن أبناء المستوطنين الأوروبيين عموما كانوا يتلقون تعليما حديثا في المدرسة الفرنسية وتعليما روحيا داخل الكنسية ، ولعل هذا أحد أهم الأسباب التي جعلت من المستوطنين الأوروبيين الأوائل معارضين لفكرة الادماج والتجنيس[1] .

وعموما ظل كل من الأوروبيين الكاثوليك والبروتستانت يحافظون بشدة على تعاليمهم وطقوسهم الدينية وفق المذهب الخاص بهم ،لكن ومع انتشار التعليم الحديث واللائكي ،وانتشار الأفكار التحررية نهاية القرن 19وبداية القرن20 بدأ الدين يفقد قيمته ودوره في المجتمع ،وأصبحت معه الأجيال اللاحقة تتحرر من قيود التعاليم الدينية .وأضحت الممارسة الدينية تقتصر أيام الآحاد لفئة كبارالسن والمحافظين الدينيين.

2 - الكنيسة و رجال الدين ودروهما في المجتمع الأوروبي

أ-دور أسقفية الجزائر الديني: بالرغم من الاستيلاء قسرا على جامع كتشاوة ،لم يهدأ بال المتعصبين المسيحيين من الوسطين العسكري والمدني ،لحال المسيحية في الجزائر ،وأقلقهم تراجع التدين في المجتمع آنذاك،وتعود أسباب التأخر في التأسيس أسقفية للمسيحيين الكاثوليك في الجزائر إلى الأسباب التالية:

1/سوء التفاهم الذي وقع بين البابا والملك لويس فيليب حول من يحق له تعيين رجال الدين.

2/مشاكل التوسع الاستعماري ،والتي لم تترك للمسؤلين فرصة الاهتمام بالأمور الدينية .

[1] -Ibid,op-cit,p30.

3/ الروح الفولتيرية التي اتصف بها عدد من العسكريين،حيث انتشر تيار مضاد للدين بين صفوف الجيش المقيم في الجزائر ،وبعض قادته الذين تخوّفوا من تزايد هيمنة رجال الدين،وسعوا لإبعادهم عن الوسط السياسي والاجتماعي [1].

وفي الواقع لم تكن أوامر الأسقفية للجمعيات الدينية والإرساليات التبشيرية ،هي تنصير الأهالي فحسب،بل كانت المهمة أيضا إصلاح حال أوروبي الجزائر ،بعد ما أفسدتهم موجة الإلحاد التي جلبتها الأفكار الفولتيرية ،والتأثيرات الإسلامية على المجتمع الأوروبي المسيحي الناتجة عن الزواج المختلط .ولذا فإننا نجد بقدر ماكان نشاط الجمعيات الدينية منصبّا على تغيير عقيدة الشعب الجزائري،فإنه كان أيضا موّجها لحماية عقيدة المستوطن،وبعث الثقافة المسيحية بالجزائر،عن طريق إحياء كتابات القديس أوغسطين ،والقديس سيبريان وغيرهما، وكذلك عن طريق دراسة آثار الكنائس القديمة بإفريقيا بهدف إثبات الماضي المسيحي للجزائرفي نفوس مسيحي الجزائر.

لقد تداول على أسقفية الجزائر ،وعلى الإشراف على المقدسات المسيحية في الجزائر ،ورعاية الحياة الدينية للمستوطنين الأوروبيين ،وخاصة الكاثوليك منهم ،عدد كبير من الكاردينالات والأساقفة ،الذين اتخذو من أسقفية الجزائر مركزا لهم.فبعد رحيل الأسقف "**ديبيشي** ، شغل بعده **"لويس أنطوان بافي "** منصب رئيس أساقفة الجزائر في الفترة الممتدة مابين(26فيفري1846-16نوفمبر 1866)،والذي كانت أهم مهامه في الجزائر هي التسهيل لتأسيس الجمعيات الدينية ، وتقديم امتيازات لها لممارسة أنشطتها الدينية والتبشرية في الوسطين الأوروبي المسيحي والأهلي المسلم ،وبعد رحيله تولى" **الكاردينال لافيجيري**" مهمة رئاسة الأسقفية في الجزائر[2].

بعد رحيل" **لافيجري** "تولى الأسقف **"بيار جان جوزيف صوبيران"** رئاسة الأساقفة مابين (30جانفي 1880-18جوان 1893)،ليأتي بعده **"ديسار أوغيست بروسبار"** في الفترة الممتدة مابين (26نوفمبر 1892-30ديسمبر1897)،والذي اشتهر بنشاطه التبشيري الكبير في سوريا،حينما عيّن هناك أسقفا في دمشق عام 1882،ونظرا لحماسه الديني وقربه من

[1]-بقطاش(خديجة)،**الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1871)**،دار دحلب للنشر والتوزيع ،الجزائر-1992، ص50.

[2] -Gueydan(Jean), « **Les évêques d'Alger** », Revue L'Algérianiste,N°84,Décembre1998,Narbonne , France , p,p24,25.

الكاردينال لافيجري ،عينه هذا الأخير لتولي أسقفية الجزائر بالنيابة عن صوبيران عامي 1892-1893،وذلك خلال فترة مرضه ،وبعد وفاته تولى بروسبار نهائيا مهمة رئاسة أسقفية الجزائر .و يمكن أيضا ذكر أسماء أخرى تقلدت مهام الأسقفية خلال النصف الأول للقرن العشرين ،مثل "**أوري فريديريك**" (08جويلية 1898-15فيفري1908)،و"**كليمو كومب بارتيليمي**"،الذي تولى أسقفية الجزائر مابين (02فيفري1908-11مارس 1917)،ثم تلاه عدد آخرون ،وأهمهم أوغيست فرنو ليونو ،بيني بول بيار[1] .

ب-العبادات والأعياد الدينية للمستوطنين المسيحين

مع استقرار الجالية الأوروبية بالجزائر،وخاصة من السويسريين والألمان والهولنديين والإنجليز من مختلف الطوائف الدينية المسيحية ،اضطرت السلطات الدينية الاستجابة لمتطلباتهم الروحية بتأسيس كنائس وأديرة حسب المذهب الديني لكل طائفة دينية،فقد كان أول مجمع ديني بروتستانتي تم تأسيسه بالجزائر كان في 07جانفي 1836بالجزائر العاصمة ، وبعد ذلك صدرت أمرية ملكية في أكتوبر سنة 1839تفرض وجود كنسية بروتستانتية يديرها كاهن،وبعد ذلك انطلق البروتستانت في تأسيس دور العبادة الخاصة بهم في كل المدن الجزائرية التي تتجمع فيها الجالية الأوروبية ذات المذهب البروتستانتي سيدي ابراهيم 1840 الدويرة 1840 سكيكدة 1845 البليدة 1849 قسنطينة 1853 بجاية 1874، حيث كانوا يقومون بزيارة معسكرات الجنود،وفي نفس الفترة اقترحت الكنيسة الأنجليكيةالإصلاحية تشكيل ثلاث مجامع دينية مختلطة في وهران ، والجزائر وسكيكدة ،والسبب في ذلك كونها تشكل الطائفة الأكبر في صفوف السكان البروتستانت ،المدنيين والعسكريين[2].

ففي مدينة سكيكدة على سبيل المثال تجاوز عدد الكنائس المشيدة خلال الفترة الاستعمارية في المدينة وضواحيها عشرة كنائس ،ونذكر منها :**كنسية سانت فيليب والباقي بسطورة ،سان انطوان ، دانريمون،سان شارل ،قاستون فيل ،روبرت فيل** ،وأكبرها كنيسة "**سانت تيريز**" التي بنيت بضاحية الأمل بجنوب سكيكدة ، وتتربع على مساحة تتجاوز

[1] -Ibid,p,p25,26.

[2]- صالحي (توفيق)،**المجتمع والعمران في سكيكدة خال الحقبة الكولونيالية 1838-1962**،المرجع السابق،ص285.

7260م^2،ووضعت تحت إشراف أسقفية قسنطينة ،وتحتوي الكنيسة على دار للعبادة ومجمعين سكنيين وحديقة[1].

لقد تنوعت الأعياد المسيحية ،التي واضب المستوطنون الأوروبيون على الاحتفال بها شأنهم شأن باقي مسيحي العالم ،ولعل أبرز تلك الأعياد المعروفة ،والتي يعيرها أوروبيو الجزائر الاهتمام البالغ هما: عيد الفصح وعيد الميلاد .

تمتد الاستعدادات لعيد الميلاد أسابيع قبل حلوله ،فكما هو مقدس لدى المتدينين ،هو كذلك طقس وعادة مهمة لا تفوّت لدى الكثير من الناس العاديين ،بحيث يتم تزيين المحلات والكنائس والمنازل بأشجار الميلاد ،وتدق أجراس الكنائس في المستوطنات ذات الأغلبية الأوروبية ،وتصنع الحلويات داخل كل البيوت .إنها عادة وتقليد مسيحي موروث منذ القدم .وحينما يحل أسبوع الاحتفال برأس السنة الميلادية -حسب كل مذهب- يزداد الإقبال لتقديم التحايا والتبريكات للبطاركة والقساوسة وكل رجال الدين ،وبالمقابل يقوم رجال الدين خلال فترة الاحتفالات بطقوس مسيحية كتعميد الأطفال ، وتلاوة وترتيل الإنجيل وترديد الأناشيد الدينية بحضور عدد غفير من طالبي الغفران والصفح من المستوطنين ،الذين يأملون في سنة جديدة مملؤة بالخير والمحبة. وبالرغم من التشابه في طقوس الاحتفال لدى معظم المسيحيين ،إلا أن هناك بعض الفروق في بعض الممارسات الدينية لدى بعض الأعراق ،فمثلا كان للاسبان في الغرب الجزائري تقليد ديني تمثل في صناعة نوع من الحلوى « **Les mendiants** »يوزع على الفقراء والمحتاجين ،وتزيّن بها أغصان أشجار الزيتون والنخيل « **les friandises** » ، وفي الكنيسة يبارك القساوسة صفوفا من الأطفال و النساء والرجال يحملون أغصانا من الزيتون والنخيل فيما يعرف في التراث الإبيري واللاتيني « **Dimanche in palmis** » [2].

بالرغم من الاختلافات العقائدية ،فإن الدين لم يشكل حاجزا أمام تقاسم بعض المستوطنين من مختلف الأديان والمذاهب لفرحة المسلمين خلال أعيادهم الدينية ،وبالمقابل أبدى الكثير من الأهالي المسلمين احترامهم للعادات والطقوس الدينية التي يمارسها المستوطنون خلال أعيادهم الدينية . وكثيرا من الأحيان تقاسمت المجموعتين المسلمة والمسيحية الاحتفالات

[1]- المرجع نفسه ،ص285.

[2] -Verdès –Leroux(Jeannine), **L'Algérie et la France** , Edition Robert Laffont,Paris, 2009,p384.

الدينية معا ،حيث شارك فيها أوروبيو الجزائر أعياد الجزائريين الكبرى ،لاسيما العيدين الأضحى والفطر ،كما كان الكثير منهم يؤدي بعض الشعائر الدينية ،التي يقوم بها المسلمون كصيام أيام من شهر رمضان ،والإفطار مع العائلات المسلمة .ومهما أن الأمر كان يبدو بسيطا ،إلا أنه كان يحمل الكثير من الدلالات والإشارات التي ترمز إلى محاولة المجموعتين جعل المناسبات الدينية فرصة للتأخي وتناسي الأحقاد التي ترسبت خلال عقود من الزمن[1] . وهو مادعت إليه جريدة "ليفور"« L'effort » القريبة من ،حيث كتبت سنة 1935 مقالا تنتقد فيه عنصرية الأوروبيين اتجاه الأهالي ،وطالبت منهم التحلي بروح الأنجيل وتعاليمه الداعية للتسامح ونبذ التعصب والفرقة بين الشعب الواحد [2].

أما بالنسبة لليهود،سواء اتعلق الأمر ذلك بالمندمجين أوالأهالي فقد حافظ الجميع بدينهم اليهودي بشدة ، وتعلق اليهود في الجزائر بالرغم من أن الكثير منهم قد تفتح على المدنية والحرية الفكرية التي اكتسبوها باختلاطهم بالمستوطنين –بالتعاليم الدينية ،وظلوا على عقيدة التوحيد والعادات والتقاليد الموروثة منذ العهد القديم ،إذ يقوم الدين اليهودي على عقيدة توحيد الرب ،وعقيدة الاختيار الإلهي لبني اسرائيل ، وعقيدة توريث الأرض لإبراهيم ونسله من بني إسرائيل ،وعقيدة المُخلص المنتظر ، ويقول فلاسفة اليهود وأحبارهم أن اليهود يؤمنون بأن الله واحد ،وأن العبادة تليق به وحده،وهو منزّه عن التجسيد ،وأنه الأول والآخر ،وهو عالم بأحوال البشر،وأنه يجازي الذين يحفظون وصاياه ويعاقب الذين يخالفونها ،وأن هناك حياة بعد الموت،وأن اليهود يؤمنون بشريعة موسىّ،وبأنها غير قابلة للنسخ ،ومن كتبهم المقدسة **"تيناخ"« Tenakh »** ،يتكون من39سفر ،والقسم الأول من التوراة ،الأسفار الخمس الأولى،والقسم الثاني من التوراة،وهو أسفار الأنبياء ويتكون من 21سفرا ، والقسم الثالث من الصحف والكتب،،ويعنى بالحكم والأمثال ،والمزامير ،والأخبار التاريخية الخاصة باليهود بعد خراب الهيكل ،وبه 12 سفرا،وتنسب جميع هذه الأسفار لعزرا الكاتب ،الذي كتبها عام 444ق-م،أي بعد وفاة نبي الله موسى ب700عام[3].

[1] -Ibid,p383.
[2] - JounaL L éffort , journal hebdomadaire ,22 Mars1935.
[3]-الربيعي (نبيل عبد الأمير)،**تاريخ يهود العراق (859ق م-1983ب م)**،الجزء الأول،دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع،بغداد-2016،ص17.

أما بالنسبة للأعياد التي يحتفل بها يهود الجزائر ،على غرار بقية يهود العالم فسنختصر بالذكر على أهمها حضورا واهتماما وتقديسا لدى هذه الطائفة ،وأهمها:

-**عيد الفصح** (فصح أي الفسح،أوالخروج أو المرور):يقيمه اليهود يوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية ،وهو شهر نيسان (أفريل)،وفيه يحتفلون بنجاتهم ونجاة النبي موسى من فرعون وخروجهم من مصر .

-**عيد الإستير أو البوريم**:يقع في شهر فبراير أو مارس من كل سنة،وهي احتفال بمناسبة نجاتهم من مذبحة تذكرها أسفار العهد القديم ،أنجتهم منها إمرأة إسرائيلية،يقال أنها زوجة لأحد ملوك فارس ، كانت تسمى إيستير،حيث أحبطت هذه الزوجة اليهودية مادبره لقومها وزير الملك ،و قام قومها بقتل عشرات الآلاف من الفرس معظمهم من الأطفال والنساء[1].

مثل جميع يهود العالم يستمد اليهود في الجزائر القوانين والنواميس المنظمة لحياتهم الدينية والدنيوية من التوراة ،والتعاليم التي كتبها أحبارهم ،لكن الطائفة اليهودية في الجزائر أخذت لنفسها تنظيما تشريعيا وإطارا قانونيا وضعاه كل من الحاخامين " **ريباش**" و"**راشباش** ".

فالحاخام "**ريباش**" اتخذ من الشريعة اليهودية الكتالونية ،ونظام الحلخة السائد بها نموذجا لتشريع قوانين خاصة بيهود الجزائر تعرف ب « **Les Takanot d'Alger** » ،وهي قوانين تنطبق على مختلف الجاليات اليهودية خارج الإطار المحلي العاصمي ،فتخص جميع يهود الجزائر ،عكس « **Les Haskhamat** »،والتي هي قوانين جهوية محلية ،وقد اعتبر ريباش « **Les Takanot d'Alger** » دستورا قانونيا ملزما لجميع اليهود في الجزائر ،وإطارا منظما لهم ،يقنن لجميع الأحوال الشخصية كالزواج ،الطلاق ،والميراث ،وتنظيم جميع الشؤون الاقتصادية ،والأمور الدينية بكل ما تحتوي عليه من عبادات وشعائر وصلوات وأعياد وطقوس ..،في حين قام راشباش زميل ريباش بتدوين وجمع جميع القوانين والتعاليم التي وضعها ريباش[2] .

---

[1]-علي عبدالواحد(وافي)،**اليهودية واليهود ،بحث في ديانة اليهود وتاريخهم ،ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي**،القسم الأول ،دار نهضة مصر للطباعة والنشر ،القاهرة،د ت ط،ص،ص43، 44.

[2]- سعدالله (فوزي)،المرجع السابق،ص،ص151، 152.

لم تلق كل التعاليم والقوانين التي وضعها كل من "**ريباش**" و"**راشباش**" التطبيق الحرفي من قبل الطوائف،بل تطور كل طائفة عاداتها وطقوسها الخاصة (جزائرية ، قسنطينة ،الوهرانية ...) ، والتي لا يزال من الممكن العثور عليها اليوم، بالرغم من أن هذه الطائفة اليهودية أهمية كبيرة على التعاليم والقوانين التي أرساها كل من الحاخامين Ribach و Rachbatz،أوحتى التعاليم والقوانين الدينية والمدنية التي تحكم اليهود من قبل الحاخام" **إفراييم أنكوا"أو"النكاوة"**[1]،والذي لازال قبره بتلمسان مزارا للكثير من المريدين والأتباع اليهود من الغرب الجزائري وحتى من مناطق عدة من العالم بعد استقلال الجزائر[2] .

وبعد استقرار الفرنسيين في الجزائر ،سعت الإدراة المحتلة لتنيظم دور العبادة لليهود، بموجب المرسوم الملكي المنظم للممارسة الدينية لليهود ،والصادر في09 نوفمبر 1845،وتم تأسيس مجمعا لليهود في الجزائر العاصمة ضم ثلاثة علمانيين وحاخام ،ومجمعين محليين الأول في قسنطينة والأخر في وهران ،تكوّن من ثلاثة أعضاء علمانيين وحاخام ،تتولى رئاسة هذه المجمعات ،وتكون تحت رقابة الشخصيات اليهودية العلمانية،والحاخامات القادمين من فرنسا ،وكان ملك فرنسا قد عين الحاخام الأكبر لمجمع الجزائر حين تأسيسه ،بينما كان تعيين الرؤساء والأعضاء العلمانية للمجامع الأخرى قد أوكل لوزير الحربية ،وللذكر فقط فإن أول رئيس للمجمع الديني اليهودي هو المحامي كوهين ، أما أول من شغل منصب كبير الحاخامات هو" **ميشال فيل**" [3]« **Michel Weil** » .

تعددت وظائف ومهام المجمع الديني اليهودي ،والتي منها،حفظ الأمن داخل أماكن العبادة ، ومراقبة النشاطات الدينية ،والمهام التعليمية لليهود ،والدعاية للمدرسة الفرنسية الحديثة ،أما مهام الحاخام الأكبر وبقية الحاخامات هي الاهتمام بالجانب الروحي والديني لليهود ،وهي

[1]-إفراييم بن إسرائيل النكاوة ،من مواليد توليدو الاسبانية 1359،فر من اسبانيا بعد الحملة الصليبية التي مست المسلمين واليهود في الأندلس سنة 1391،وانتقل من مركاش المغربية ليستقر بتلمسان ،أصبح حاخاما ،ومفكر ديني سيفارادي ،توفي في سنة 1442،تحول قبره إلى مزارا لكافة يهود إفريقيا الشمالية ،خلال موسمي "الحالولة "و"لاغ باعمر"..للمزيد حول الشخصية ،أنظر :

Gitlitz (David) et Kay Davidson(Linda), **Pilgrimage and the Jews,** Westport, Praeger, 2006 , p 141-143

[2] -Benayoun(Allouche)et Bensimon(Doris**), Les Juifs d'Algérie. Mémoires et identités plurielles,** Paris, Edition Cerf, 1989,p-p,18-20.

[3]-معوشي (آمال)،المرجع السابق،ص-ص139-141.

تعليم الدين وإقامة الصلوات ،وحماية دور العبادة وتسيرها ،ومراسم الزواج والدفن ،والتفيش والإشراف على الملاجئ والمدارس الدينية اليهودية[1] .

اكتسبت المرأة في المجتمع اليهودي وفي نظر المستوطنين احتراما أكثر مما تجده المرأة الأهلية المسلمة،كما أنها أصبحت بعد اختلاطها بالمجتمع الأوروبي أكثر ميلا للتحرر من القيود الدينية والعرفية التي حاصرتها فيما مضى،وغدت أقل تحفظا للزواج من الأوروبيين ، غير أن اختيارها في معظم الحالات يقع على الفرنسيين أو من الكاثوليك المحافظين أكثر من الفرنسيين المتحررين فكريا وغير المتدينين.وبالتالي فالمرأة اليهودية هي أقل عدائية وكراهية الأجنبي مقارنة بالرجل اليهودي . أما بالنسبة للرجال اليهود فهم أكثر عدائية وأقل تقبلا للحياة الأوروبية الجديدة ،إذ يتصف الرجل اليهودي بارتباطه الشديد بتعاليم الطائفة وخضوعه شبه التام لسلطتها الدينية ،كما أن ولعه الزائد بأسطورة الشعب المختار وحنينه الوهمي للمجد الضائع جعل منه عنصرا معزولا عن المجتمع الأوروبي وتفاعله به أقل ايجابية. وبذلك اشتهر اليهود أكثر من نظرائهم من الطوائف الدينية الأخرى في المجتمع الأوروبي بالتدين إلى حد التزمت و التعصب .أما غير المتدينين منهم فهم قلة ،ورغم ذلك فهم خاضعون كغيرهم للسلطة المعنوية لرجال الدين[2] .

مما سبق نستخلص مايلي:

1/ الدور الكبير الذي لعبته الكنيسة والجمعيات الدينية الكاثوليكية والمسيحية في الحفاظ على القيم المسيحية وفي نشرها لدى الأوروبيين، وذلك بتأسيس الكنائس والمدارس الدينية ،والجمعيات الخيرية ،وغيرها من الوسائل الأخرى .

2/على الرغم من دور الكنيسة تراجعت قضية التدين والتمسك بالتعاليم الدينية،سواء للأوربيين أو اليهود المتجنيسين من الأجيال المتلاحقة،لاسيما في العقود الأولى للقرن العشرين بسبب سياسة التغريب والحياة العصرية.

[1]-المرجع نفسه،ص،ص144 ،145.

[2] -Mathieu(Auguste) op-cit,p27.

سادسا : العمارة الأوروبية وتغير نمط العمارة الجزائرية

يعتبر فن البناء ونمط العمارة أحد أوجه تطور الحياة الاجتماعية و مقياس لمدى الرقي الثقافي والذوق الفني للشعوب،ومظهرا من مظاهر الشخصية وخاصية من الخصائص الحضارية للدول . وهو الأمر الذي أدركه المستعمر خلال السنوات الأولى للاحتلال وسعى للقضاء عليه ،عبر محو واستئصال كل مقومات الدولة الجزائرية ،وتغيير كل ملامح وثوابت الأمة الجزائرية ،وفي مقدمتها العمران المحلي ، وتحويره لصالح العمارة الفرنسية الأوروبية الغربية . **فماهي السياسة العمرانية التي انتهجها المستوطنون ،وما هي الأساليب والمخططات العمرانية التي اعتمدها المهندسون الكولونياليون في تغيير النمط المحلي وإحلال محله النمط العمراني الأوربي؟**

1 -إدخال نمط العمران الأوروبي وأثره على العمارة المحلية (الجزائر العاصمة كأنموذج)

يقوم النسيج العمراني في أي بلد من البلدان وفق التقاليد الحضارية السائدة في البلد ،والتي غالبا ما تكون صادقة لأبعد الحدود ،كما أنه لا تكون إلا من خلال تفاعلات كثيرة ،أهمها العوامل المشتركة في الحياة الاجتماعية والاستجابة للشروط الجارية التي يسير عليها ذلك ،وأهم هذه الشروط الحضارية في الجزائر الدين الإسلامي الذي يدعو إلى المحافظة والتزام الاحتشام وعدم التطفل .

ولذلك بنيت المساكن في مدينة الجزائرأو مثيلاتها في المدن الساحلية تقريبا ،وحتى الداخلية،بشكل أو بنمط التضام إلى بعضها البعض (مجمع سكني) ، وكأنها كتلة واحدة ،كما يوحي ذلك للمرائي من بعيد ،أو هي على شكل مدرج حسبما يتخيلها القادم من البحر، بسبب ارتفاع المساكن العلوية عن مثيلاتها الواقعة أسفلها ،فضلا عن إبراز الرواشن عن المباني ،مما نتج عنه التصاق المباني فيما بينها.وبالتالي تغطية الطرقات والممرات التي أصبحت تسمى **"سباط"**،زيادة عن التوائها وضيقها، وتشعبها إلى تفريعات ،كأنها شرايين عروق أو قلوب ،ومنها التي تتوقف عند أحد المنازل وهذه تسمى" **الدروب"**[1].

[1]- عقاب (محمد الطيب)،**قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني** ،دارالحكمة للنشر والطباعة،الجزائر -2009، ص، ص27 ، 28.

في كل المدن التي استوطن فيها الأوروبيون بالجزائر حاول الغزاة فرض رؤيتهم المعمارية عليها في محاولة لطمس المعالم الدالة على البعد الثقافي للهوية المجتمعية لسكانها الأصليين ، وإحلال المعالم الفرنسية محلها ،وهي ظاهرة شملت معظم المدن التي خضعت للهيمنة الفرنسية ،ولكن بدرجات متفاوتة مما يدل على عزمهم البقاء فيها ومسايرة التطور العمراني والتصميمات العمرانية في مجال الاسكان وفق التصميم ورسم الهيكل المعماري وتصور الشكل النهائي للمبنى ، في ظل بروز عناصر أخرى مثل تكلفة البناء وتجهيزات المبنى وغيرها[1] .

لقد مرت عملية تعمير المدن الجزائرية،وتغيير ملامحها العمرانية أثناء إحتلالها بمرحلتين:

- مرحلة الغزو والاحتلال والتدمير لملامحها و معالمها ، إذ هيأ المحتل الفضاءات اللازمة لبناء المدينة الأوربية على أنقاض مدينة الجزائر العتيقة.

- مرحلة القطيعة التاريخية التي عاشتها المدينة عندما اضطرت للتأقلم مع نمط غريب مسيطر ناكر جلب معه المدنية الغربية محولا إياها ببطء و بعنف إلى مدينة جديدة تسع لوافدين جدد يختلفون عن مجتمعها الأصلى،إذ حرم هؤلاء الجزائريين من العيش فيها، وحصروهم في فضاءات ضيقة و مهمشة تفتقر لأبسط الشروط.

إن الهدم الذي تعرضت له المدن لم يتوقف، بل استمر إلى غاية بداية القرن العشرين ، حيث لوحظ تغّير تدريجي للنمط العمراني،الذي طغي عليه البناء العسكري والأشكال النيوكلاسيكية لصالح هندسة شرقية في محاولة لاحتواء الفن الاسلامي،الذي اعتبره **"جونار"** الموجة العصرية للبناء ، ليتخلى المعمر عن هذا النمط العمراني،ويختفي مطلع الثلاثينات ،ويحل محله الطابع المتوسطي[2] .

تكفلت **"مصلحة الهندسة الاستعمارية** "خلال العقود الأولى للاحتلال التابعة للجيش الفرنسي بإدارة عمليات التخطيط والتهيئة العمرانية للمدن،ولاسيّما الساحلية منها،ذات الأغلبية الأوروبية، كما كانت الرؤيا والإستراتجية السائدة آنذاك تهدف إلى الحفاظ على التراث

[1]- صالحي(توفيق)،**المجتمع والعمران في سكيكدة**،المرجع السابق ،ص15.

[2]-كلثوم (ميدان)،**"التطور العمراني في مدينة الجزائر 1830إلى 1939** "، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا،المجلد الثالث ،العدد الخامس،مخبر التاريخ والجغرافيا ،المدرسة العليا للاساتذة ،ص260.

العمراني الجزائري، الذي يستلهم عناصره الهندسية من العمارة المتوسطية بأبعادها الحضارية التركية الموريسكية الأوروبية [1]. إذ عمل هؤلاء المهندسون العسكريون في تحوير الهندسة الأصلية للتلائم مع الطراز الهندسي الأوروبي ، ففي عام 1832قررت سلطات الاحتلال الشروع في أعمال التهيئة لبناء الحدائق العامة وسط الأحياء الأوروبية والمراكز الإدارية الفرنسية ، وأهمها " **حديقة التجارب في الحامة"** ، والتي أشرف عليها التخطيط لها فريق عمل من المهندسين الاستعماريين يرأسهم" **الجنرال أفيزارد"** ،في الوقت الذي أشرف فيه **"الكولونيل مارينغو"** على بناء حديقة حملت اسمه في مكان حديقة الداي في العاصمة[2] .

هذا فيما يخص المنشآت العامة ،أما فيما يتعلق بإسكان المستوطنين فقد وضعت إدارة الاحتلال كل مخططاتها وإمكاناتها لتوفير السكن اللائق للمستوطن الجديد، فبمجرد أن تم تحويل العديد من الممتلكات الأهلية أو التي كانت تخضع لملكية الأتراك إلى مستودعات للخزينة ومعسكرات للجيش ،ومنازل المستوطنين الأوائل ،أعطت الإدارة الأوامر والتعليمات لمصلحة الهندسة لوضع مخططات عمرانية تعمل من جهة إلى إيجاد مساحات جديدة لإسكان الوافدين الجدد من المعمرين ،ومنع استمرار عمليات النهب المتواصلة التي كان يقوم بها الكولون لممتلكات الأهالي من جهة ثانية،بهدف الحفاظ على ما تبقى من النسيج العمراني للأهالي المسلمين[3].

بدأ وجه المدينة الجزائرية مع مر الزمن يعرف تغِّيرات جذرية، حيث بدأت عمليات الهدم والتهيئة للأحياء الأهلية وبناء محلها مساكن وبنايات تراعي الذوق الفرنسي ،فمثلا كان كل من" **باب الواد"** و**"باب عزون"** مثاليين واضحان للتغيير العمراني الكبير ، فقد تمّ بناء ساحةٍ عمومية بالقصبة السفلى على أنقاض ما تهدّم، أُطلق عليها" **الساحة الملكية"**، وشقت الطرق الواسعة لتأمين حركة الآليات العسكرية، وبناء المساكن لإيواء الجنود وأسرهم. وهكذا ما

[1] -Picard Malverti (Aleth) **,« Architecture et urbanisme en Algérie. D'une rive à l'autre (1830-1962) »**, Revue des mondes musulmans et de la méditerrané, N°73/47, Presses universitaires de Provence , France, Année 1994,p121

[2] - Trodi (Fares) et Autres, « **L'architecte paysagiste à Alger pendant la période coloniale (1830-1962), une figure émergente »**, Revue scientifique sur la conception et l'aménagement de l'espace, N°18, CNRS - université de Tours, France, p06.

[3] - Picard Malverti (Aleth) **,**op-cit,p121.

كادت العشرية الأولى للاحتلال حتى بدأت بواكير النموذج العمراني الاستعماري بالظهور وبصفةٍ مغايرة تماماً لنموذج العمران والطابع الأصلي للمدينة[1].

وانطلاقا من خبرتهم الفنية والعلمية انطلق ضباط الفرق الهندسية التابعة للجيش في دراسة جغرافية الجزائر وتاريخها العمراني وملاحظة عادات سكانها وتقاليدهم وطرق معيشتهم في وضع تصور أولي حول خصوصيات وماهية العمارة المناسبة للمستعمرة الجديدة ،فهذه المعرفة التي تبدو بأنها غير ذا صلة بالدراسة العمرانية ،إلا أنها برهنت عن أهميتها في فهم المنطقة ومدى تأثيراتها على طبيعة المشاريع العمرانية المراد إنجازها[2] .

لم تكن عملية التعمير التي انطلقت وفق مخطط تهيئة شامل ومدروس، بل تميزت بطابعها الظرفي الوظيفي الذي يلبي احتياجات حربية وعسكرية للاحتلال.ومعها تواصلت عملية الهدم، حيث بوشر بهدم المرافق المحلية التي كانت تراها سلطات الاحتلال بأنها غير مناسبة ،كحالة الأسواق المحاذية ل"**باب عزون**"،و" **باب الواد** "و"**حي البحرية**"، وتم هدم السور وكافة الأبواب عام 1846فيها، وبناء الواجهة البحرية بدلها ،وذلك عام 1860، كما تمت توسعة ميناء الجزائر ومتابعة شق الطرق الواسعة بين 1865- 1890[3].

وهكذا فإن السياسة العمرانية التي انتهجها المحتل كان يبررها دوما بخدمة حاجات اقتصادية و اجتماعيه مادامت الجزائر قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من فرنسا وهناك ساكنة أوروبية قد استوطنت هذه الأرض ،ولذا فانه ارتأى في الإقدام على عمليات هدم مرافق ومنازل كانت موجودة منذ العهد العثماني بكونها اكواخا تعيق توسعة الطرق الرئيسية الثلاثة مثل "**شارع البحرية**"،"**باب عزون**"،و **"باب الوادي"** ،و اذا كانت تلك الحجج تبدو له موضوعية ،فإنها كانت تخفي ورائها غرضا ثقافيا ، مثلما يعترف بذلك **"بورتويل آرزان "** حين كتب قائلا **:" إن رغبتنا كبيرة ،هي أن نجعل من الجزائر مدينة أوروبية، لهذا الغرض كنا مرغمين على هدم عدد كبير من المنازل و المساجد وبدأت الجزائر تأخذ صبغة مدينة فرنسية ،ويصعب التعرف عليها بعد مرور أربعة عشر عاما على غزونا.."** .ففي آواخر الأربعينات بدأت بعض

[1]- بودقة (فوزي)،**"وجه مدينة الجزائر وجوانب من مسارها العمراني"**،مجلة انسانيات،المجلة الجزائرية للأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية ،العدد45/44،جامعة وهران،الجزائر -2009،ص06.

[2] - Picard Malverti (Aleth) , op-cit,p122.

[3]- بودقة(فوزي)،المرجع السابق،ص06.

الأحياء تنمو منها"**حي ايسلي** " و"**حي مصطفى**" لإن الجيش كان مقتنعا أنه لا يمكن للمدينة الأوروبية و الموريسكية أن تتعايشا معا دون أن تضيق أحداهما على الأخرى أو تزيلها[1].

وكما كان حال مدينة الجزائر ،كان حال معظم المدن الساحلية فنمط العمارة متشابه ،وعمليات الهدم والتحوير ضد العمارة المحلية ذات الطابع المغاربي الإسلامي لم تقتصر فقط على العاصمة بل مست معظم الممتلكات المحلية،وذلك بالرغم من أن المهندسين الاستعماريين كانوا على دراية بتنظيم مدن ما قبل الاستعمار،وأهمية الحفاظ على المنازل المغربية الوظيفية وإصدارتهم بتوصيات نصت على إعادة استخدامها وتحويلها إلى مستشفيات و ثكنات للجيش الاستعماري.إلا أن رغبة "**بيجو**" كانت تستهدف إستئصال كل ما يمت هذه الأرض بتاريخها، حيث أصدرعام 1844 أمرية تنص على توجيه مديرية الهندسة لاهتمامها في تحديد قواعد الإنشاءات في الجزائر،ووضع مخططات معمارية تناسب المدينة المحتلة ،ولم يطل التقرير عن الوضعية العمرانية من قبل المهندسون الاستعماريون كثيرا، حيث أرسل مدير الهندسة في الجزائر" **العقيد شارون** "، مذكرة طويلة إلى حاكم الجزائر جاء فيها: **"إن المنازل المغاربية المعدلة والمناسبة لعاداتنا هي الوحيدة المؤهلة في هذا البلد، فالمناخ وخطر الزلزال يجب أن يقودنا إلى دراسة دقيقة عن البناءات التي يضعها العرب. بغض النظر عن الأعراف والمعتقدات الدينية التي كان لها تأثير كبير في تحديد النمط العمراني، وفي حالة تغيير شكل مباني السكان الأصليين من قبل السكان الجدد للجزائر من المستوطنين، يجب أن يكون ذلك التعديل والتصرف فيه جزئيا، دون المساس بقواعد البناء التي تفرضها طبيعة التربة ومتطلبات المناخ في المنطقة"**[2].

إن هذه المشاريع (العمرانية –الحضرية) لمدينة الجزائر حسب **"جان بيار فوري"** هي الطريقة التي تحيل العمران المتنوع للمشروع الاقتصادي و الثقافي للاستعمار ،والتي تمثل إعادة انتاج نمط الحياة الأوروبية ،وفي سياق شرحه لمآلات هذا التحول الذي عرفته مدينة الجزائر ، يقول: **"حقا ، لا يجب استصغار وظيفة المرفأ لمدينة مثل الجزائر ،فلو كان لهذه المدينة هذه الوظيفة فقط ،لكن ذلك أقل تحفيزا لطموحها ،ولذا يجب توسعته وتحديثه ،وهو**

[1]-حاجي(فريد)،المرجع السابق،ص،ص107، 108.

[2]- Picard Malverti (Aleth) ,op-cit,p123.

الطموح الذي علّل عنوان عمراننا "الجزائر العاصمة الحديثة " .أما **"غوتييه "** فيقول في هذا السياق :" **غالبا ما نتذّكر تلك القرابة بين الجزائر العاصمة ومرسيليا، وهذه القرابة هي أقل الروابط التي توحّد البلدين. ومن ثم ففرضية إستقلال الجزائر لا يمكن تصوره "**.ولا شك فإن أكثر الروابط ،هي تلك المستوحاة من تركة روما،وهي فحوى المشروع الثقافي،أو المرجعية التي استند اليها المحتل في التأسيس لهذا المشروع العمراني في الجزائر" [1].

لم تلق توصيات العقيد شارون آذانا صاغية من قبل الإدارة الاستعمارية ولا من قبل المستوطنين ، بل انتصرت في النهاية أنصار تيار الهندسة الغربية كأمثال **جان بيار فوري"** و **غوتييه "**، فهؤلاء الغزاة لم يتقبلوا العيش في مدن ومساكن لا تشبه لتلك التي هاجروا منها ،وفضلوا عمرانا يتناسب مع العمران الأوروبي،لذا كانت معظم المباني العامة الأولى التي بنيت في الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الطراز الأوروبي، أو حسب المعايير الهندسية الجديدة التي تم تدريسها في مدرسة الفنون الجميلة " **الطراز الباروكي**[2] "فيما يتعلق بالمسارح المشيّدة في المركز الاستيطانية الصغيرة ،أو للعمارة الرومانية-البيزنطية للمباني الدينية مثل **"كاتدرائية الجزائر"** التي بنيت على أسس مسجد كتشاوا القديم[3].

إن هذه الصيحات المعترضة على عمليات تخريب الرموز الثقافية ،لم تجد من يصغي لها، فقد عاصر **"بوربريغر**[4]**"** عمليات الهدم الأولى وأبدى امتعاضه من هذا التصرف ،قائلا **:" إن الجزائر التي أصبحت أرضا فرنسية ،لا ينبغي تجريدها من ثروتها الأركيولوجية ، أليس**

---

[1]- حاجي(فريد)،المرجع السابق،ص،ص108،109 .

[2]- الأسلوب الباروكي، مصطلح يطلق على أشكال كثيرة من الفن الذي ساد غربي أوروبا وأمريكا اللاتينية. والعصر الباروكي بشكل عام هو الفترة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن الثامن عشر في تاريخ أوروبا.*باروك* هو اصطلاح مستعمل في فن العمارة والتصوير معناه الحرفي شكل غريب، غير متناسق، معوج. وقد ظهر هذا الفن أول مرة في روما في السنوات الأخيرة منالقرن السادس عشر الميلادي. ويتميز الأسلوب الباروكي بالضخامة ويمتلئ بالتفاصيل المثيرة. وفي القرن الثامن عشر تطور الفن الباروكي إلى أسلوب أكثر سلاسة وخصوصية ويسمى بفن الروكوكو .وكان فنانو الباروك يغرمون بالجانب الحسى للاشياء ويعتنون في وصفها بتفصيل وتنميق وكانت إيطاليا وعاصمتها روما في القرن السابع عشر هي المركز الرئيسى للنشاط الفنى الكبير كما كانت أهم مصدر للفنون في أوروبا.يستخدم المؤرخون الموسيقيون مصطلح «باروك» عمومًا لوصف طيف واسع من الأنماط من منطقة جغرافية كبيرة معظمها في أوروبا .للمزيد حول الموضوع ،أنظر:

-Le style Baroque https ://fr .wikipedia.org.

[3] Picard Malverti (Aleth),op-cit,p-p124-126.

[4]- أدريان بر بروجر1869 -1801 : Louis Adrian Berbrugger، عالم أثار و تاريخ و حفريات، دخل الجزائر سنة 1834، اهتم بجمع المخطوطات الجزائرية، جمع حوالي ثمان مائة مخطوطة . عين محافظا للمكتبة العامة الجزائرية، التي أنشأها سنة 1835 .عين في نفس السنة مديرا عاما لجريدة الممرن الجزائري،وأحد أبرز مؤسسي المجلة الإفريقية ،والتي اختصت بالأبحاث الأركيولوجية ،والتاريخية ،والجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا .

من التناقض إعادة بعث الحضارة في إفريقيا من ناحية ،وحرمان هذا البلد من عناصره الأساسية والمحلية"، لكن **"بورتويل "** رد على هكذا موقف قائلا **:"إن هذا العمل عادي جدا ،إن من يبكي على هؤلاء المورسكيين و يبدون تعاطفا مصطنعا غالطوا به الكثير من الفرنسيين الذين تحولوا إلى وندال عند قدومهم إلى الجزائر مخطئون ،حتى أن بعض نوابنا في مجلس الشيوخ قد انخدعوا ،لذا لم أستطع التزام الصمت ،ومنه فإنني أؤكد أن ما تم هدمه لم يكن بسبب الاحتقارأو التدنيس،وإنما من أجل المصلحة العامة التي اقتضت ذلك"**[1].

وعليه ،فالواقع الميداني للمدينة الجزائرية كان يسير بما لا يشتهي**"بوربريغر "** ولا غيره ، فهناك من الشهادات التي أدلى بها أجانب ومن مختلف الجنسيات ممن زاروا الجزائر بمناسبة الإحتفالية المئوية ، ووقفوا على هذا التحول الذي ينحى في اتجاه التماثل الثقافي ذو المرجعية الغربية وانتقدوه بشدة،ومن هؤلاء الكاتب الانجليزي **"كران "** الذي كتب**:" الجزائر العاصمة ،هي ببساطة جزء من صورة أوروبا المكررة على ساحل إفريقيا .إن كرومها هي نفسها كروم "لاكوت دور" و "لاجيروند" وخطوط الموصلات ،هي طرق رائعة كانت من نتاج المهندس الفرنسي المبدع، وأن بناياتها المختلفة الأشكال،و الأعمال الفنية التي تبرز في كل مكان تلك الإناقة و الإتقان التي تعد بصمة وطنية، إلا أنه في الحقيقة،لا يمكن إعتبار الجزائر كلها إلا بمثابة ثلاث ولايات فرنسية"** [2].

غدت مدينة الجزائر العاصمة عبر الأنامل والأيدي التي صقلتها وغيّرتها صورة نمطية لما كان يحدث لباقي المدن العريقة في الجزائر من عمليات الهدم والمسخ العمراني والتحوير الهندسي ، وإلى غاية نهاية القرن 19 وصل إزالة المباني التراثية حدود غير معقولة ،وامتدت محاور النمو العمراني الأوروبي في شرق النواة القديمة للمدينة بتشييد حي **"Isly"** المعروف اليوم بحي**" العربي بن مهيدي"**، وغرب نواة المدينة ببناء **"حي باب الواد"**، وبذلك بدأت تظهر ملامح عمرانية جديدة، تعبِّر بلا شك عن استنساخ مدينة أوروبية ، وبالمقابل بدأت المدينة القديمة بالمقابل تفقد تدريجياً دورها الوظيفي، وأضحت مجرد حي **"القصبة"**،إذ كان يجب فقط انتظار مرور نصف قرن من الزمن، ليتضح شكلها النهائي

[1]- حاجي (فريد) ،المرجع السابق،ص،ص110، 111.
[2]-المرجع نفسه،ص111.

بظهور أحياء جديدة في أعالي المدينة : حي" **ميشليMichelet**" وشارع **"ديدوش مراد"**، وهو الشارع الرئيسي بالمدينة حالياً،وشارع" **تيلملي" « Télemly »** شارع كريم بلقاسم اليوم، وحي **"مصطفى باشا "و"ساحة أول ماي"** و **"الحامّة"** كامتداد لمركز المدينة الجديدة، وفق نمط العمران الأوروبي[1].

ولما كان تطور المدن في الجزائر يواكب زيادة في توافد المعمرين واستقرارهم بها ،فقد أراد المهندسون الاستعماريون بناء مدن تلبي الذوق الأوروبيين وتضمن راحتهم ،وتذكرهم بالحياة الشبيهة من التي هاجروا منها ،وكان الرأي السائد هو بناء مدن على الطراز الأوروبي الحديث مع الحفاظ على العمارة التركية الموريسكية،وعلى هذا المنوال العمراني استمرت العمارة الكولونيالية من الأيام الأولى للاحتلال وإلى غاية الاستقلال عن فرنسا[2] .ومع استقرار المستوطنين أخذ مظهر المدن يتغير،فلم يتغير الزمان والمكان فحسب بل تغيرت رائحة المدينة ولونها وسحرها المغاربي الأصل وتصطبغ بكل ماهو أوروبي العمران ،وفرنسي النكهة والروح ، والذي انتشر في مقاهيهم ومتاجرهم ومطاعمهم ومصارفهم وكهرباؤهم ومخازنهم ،وهذا كله أضحى يضفي على المدينة طابعا جديدا ،فحياة السكان الأصليين أخذت تتقلص لتنعزل في الشوارع الضيقة،كما عبر عن ذلك مالك بن نبي.[3]

أكدت كل الدراسات الحديثة التي اختصت في الهندسة والعمران المنجز خلال القرنين التاسع عشر والعشرين في البلدان المستعمرة وبالأخص الجزائرعلى أنها خليط هندسي متعدد الأصول الحضارية والفنية الهندسية ،تعكس بوضوح التقاء الحضارات وقيمة التأثير الثقافي المتبادل بين المنجز المادي للغازي الأوروبي وصاحب الأرض،إنها **"ظاهرة والتدجين و التلاقح الحضاري"** الذي أفسد في النهاية الصورة الجميلة للجزائر المحروسة .[4]

وبالموازاة مع هذا التغيير للمدينة الجزائرية ،شرع المحتل في إنشاء مستوطنات جديدة على الطراز الأوروبي، وراح يطلق عليها وعلى شوارعها و ساحاتها تسميات أوروبية لإعطاء

---

[1]- بودقة (فوزي)،المرجع السابق،ص06.

[2] - Picard Malverti (Aleth) , op-cit,p121.

[3]- بن نبي(مالك)،**مذكرات شاهد القرن** ، الطبعة الثانية ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،دمشق،1948، ص18.

[4] - Hadjilah, (Asma), « L'architecture des premières maisons européennes d'Alger, 1830-1865. » Revue Artlas ,Bulletin 5, N° 1, Spring 2016, purdue university ,India,p08.

الشعور بالروح الفرنسية للمدينة و للمستعمرة بوجه عام ،فهي أسماء رومانية مأخوذة من تاريخ إفريقيا ، وجديرة بالتشريف-حسب منظوره – ومن هذه التسميات مثلا (rue impasse Scipion , place Térence ,Rue saint _louis ,Bélisaire….)، وهناك شوارع تذكر بأسماء السفن الفرنسية التي كانت تحمل الجند surprise ,Bellone. De la rue bédouin) Suffren,rue béarnaise)أو أسماء العسكريين أمثال (Dumas ، ،Duvivier ،Canrobert ,Boutin ,Bugeaud .)،أو ممن شاركوا في غزو الصحراء (Laperrine , lamy)وإذا كانت هذه الأسماء قد تركت بصماتها في الإستماتة عن **"الشرف الفرنسي"** بمنظورة الغزاة ،إلا أن الدافع الرئيسي وراء انتقاء هذه العبارات التي تم على أساسها اختيار هذه الأسماء هو تغييب التاريخ الحقيقي للمدينة الجزائرية من هذا المشهد العمراني الجديد ،وإبراز السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر المتمثلة في إحياء المجد الروماني بصفتهم أسلاف الفرنسيين في إفريقيا [1].

وعموما، فقد تميزت السياسة الحضرية الاستعمارية التي وضعت لتطوير المدن في الفترة الممتدة من 1830 وإلى غاية 1919 بتطبيق (plan d'alignement et réserve)،حيث كانت هذه الخطة تهدف بالأساس إلى :

1- توسيع شبكة الطرق في المدن و الأرصفة ،خاصة الجديدة منها لاستيعاب حجم المركبات وأعداد المشاة المتزايدة

2- تحديد المساحات العامة كفضاءات للترفيه والتنزه خاصة للمستوطنين

3-تحديد وتعيين أماكن البنايات العامة و الرسمية في وسط المدن،وكذا تعيين أماكن النصب التذكارية بدقة

4- ترسيم حدود المنشآت العسكرية

5-تخصيص مساحات ملائمة للمنشآت الإسكانية الجديدة[2].

[1]- حاجي(فريد)،المرجع السابق،ص113.

[2] Nedjai (Fatiha), **les instruments d'urbanisme entre propriétaire foncier et application cas d'étude : la ville de Batna,** Mémoire présenté en vue de l'obtention Du diplôme de Magister, Département d'architecture, Faculté des sciences et de la technologie, Université Mohamed Khider - Biskra, 2013,p32.

2- التحديث في العمارة الكولونيالية والتوجه نحو المعمار الموريسكي المتوسطي مطلع القرن العشرين

مع بداية القرن العشرين ،وبعد التطور الاقتصادي الحاصل في المستعمرة، ظهر جيل من المهندسين المستوطنين سعى إلى بناء عمارة بهوية **"جزائرية"** خالصة ،بعد أن تطورت ثقافة جديدة كنوع ثقافي محلي تبناه المستوطنون خاص بالجزائر الجديدة عرف آنذاك ب**"تيار الجزأرة"** « **L'Algérianisme** [1]» .فقد ولدت هندسة معمارية موريسكية جديدة بتشجيع من الحاكم **"جونارت"**« **Charles Jonnart** [2] » المعروف بهوسه بكل ما هو شرقي ،هذا التجديد في الحركة العمرانية سمح للمهندسين المعماريين والمسئولين بإطلاق مشاريع كبرى في العاصمة وفي مختلف المدن ساهمت في تغيير وجه المدن وطابعها العمراني، ففي حكم **جونار** عرفت الجزائر ازدهار العمارة ،وتم تشييد العديد من المباني الرسمية ،والمنشآت ثقافية، كالمسارح، والمؤسسات التعليمية ،والحدائق ،والعمارات السكانية ..إلخ،فمن بين المباني التي ترجع لهذه الحقبة البريد المركزي ،الذي بني في عام 1906 برؤية هندسية جديدة بلمسة فنية وهندسة من المهندسين الكولونياليين" **فوانو"** « **Voinot** » و"**توندوار"**« **Tondoire**» ،و" **القصر القنصلي للجزائر العاصمة** "الذي بناه المهندس **"هنري بوتي"** عام1893[3].

[1]-تيار الجزأرة « L'Algérianisme »، تيار فكري أدبي وفني كولونيالي ولد في الجزائر أوائل القرن 20،وتبنته شريحة من مثقفي الجزائر من المستونين كنوع من التعبير عن الذات وعن ثقافة الائفة ،التي ترى نفسها بأنها لا فرنسية ولا جزائرية أصلية ،بل صورة للثقافة الجزائرية ،التي يراها المستونون،فالجزائرية بالنسبة لهم ليست مجرد تيار أدبي ، إنها حالة ذهنية ، حقيقة إنسانية وتاريخية ، مشاجرة من الأرواح ، ثقافة أدت إلى السلوك ، اللغة ، الفولكلور ، المأكولات التي عبرت عن نفسها وتواصل التعبير عن نفسها في الفنون والمسرح والسينما والأغنية. لكن مما لا شك فيه أنه من خلال عدد لا يحصى من المؤلفين الذين كتبوا عن الجزائر ، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل ملامح هذا الفكر وتطوره. كل هذه الذاكرة المكتوبة تسمح لنا بإعادة ربط الخيط.للمزيد أنظر :-الفصل الثالث ،أنظر أيضا:

-Fréris(George**),L'Algérianisme, le mouvement du Méditerranéisme et la suite**, Actes du colloque tenu à Nicosie, les 20-22 octobre 2001, Université Lumière-Lyon 2, Université de Chypre,

[2]-شارل جونار (1857-1927)سياسي فرنسي ،برلماني ورجل أعمال ،إداري ورئيس لشركة السويس ،وسفير أحد الوجوه البارزة في تاريخ الجزائر المعاصر ،عين حاكما عاما لمدة تزيد عن عشر سنوات لثلاث مرات 1900-1903،1901-1918،1911-1919،أحد دعاة فكرة الإدماج الشامل والموانة الفرنسية ،وصاحب النهضة الفنية والعمرانية ،التي شهدتها الجزائر ملع القرن 20،كانت له أفكار خاصة تدعو للتعايش بين المسلمين والمستوطنين فى ظل الثقافة الفرنسية .للمزيد حول الموضوع ،أنظر :

Vavasseur-Despérier (Jean), **« Charles Jonnart et le «parti colonial»,** L'esprit économique impérial (1830-1970). Groupes de pression & réseaux du patronat colonial en France & dans l'empire. Société française d'histoire d'outre-mer, Paris – 2008, p-p, 121-134

[3]- Picard Malverti (Aleth),op-cit,p126.

وعموما فقط اعتمد المهندسون المعماريون والمختصون في الهندسة المدنية في بناء مدن أوروبية جديدة في المناطق المهيئة أصلا للاستيطان وإسكان الأوربيين ،أو في المدن الجزائرية القديمة التي أعيد تهيئتها ،بحيث اعتمد مخطط الصليب (-شرق –غرب –شمال – جنوب-) في شق الطرق الرئيسية الممتدة في وسط المدينة ،بنفس الرسم الهندسي المتعمد في المدن الكبرى بفرنسا كباريس ومارسيليا وغيرهما [1].

وكما قلنا لم يشمل التخطيط الجديد الخاص بالشوارع الكبرى كل المدن ،بل ترك التخطيط المحلي القديم على حاله في بعض المدن الساحلية أو الداخلية كمدينة قسنطينة التي ترك نفس التخطيط القديم ،حيث بقي الشارع الرئيسي الشارع الأكبر في المدينة .ونفس الأمر تقريبا في مدينة البليدة التي تم فقط توسيع الشارعين الرئيسيين اللذان توسطا المدينة ،مع توسيعهما قليلا لفك الازدحام المروري ، الذي ازداد مع تطور المدينة وتوسعها أفقيا وعموديا،ونفس الحال في مدينة معسكر ،والمدية ، ووهران وغيرها .كما لم يمس التغيير توسيع الطرق ،وإنما تم تغيير الأبواب التي اشتهرت بها المدن الكبرى خلال الحكم التركي وتغيير شكل الساحات العمومية ،واستحداث أخرى جديدة في قلب المدن كل ذلك تم على حساب الممتلكات العامة للأهالي كالأسواق وكل الممتلكات الخاصة كالحمامات والمباني الخاصة ،وغيرها [2].

لم يشمل التحوير والتغيير فقط نمط المدن ،أو الشوارع بل حتى الواجهات الأمامية للبنايات ،فإذا أخدنا" **باب عزون"** في كمثال ،فإن الشارع قد تغيير شكله كثيرا ،فقد كانت البنايات تستند على أقواس وعلى شكل طابقين لا أكثر ،كما كانت تفتقد لشرفات ورفوف مطلة على الشارع [3]،ولذا تم هدم الكثير من البنايات التي تعود للعهد التركي من أجل توسيع الطرقات وإحلال محلها بنايات جديدة كان بعضها قد تزينت واجهاتها الأمامية بنفس النمط العمراني والهندسي لواجهات العمارات الإيطالية ،وهو ما نشاهده في العمارات العاصمية ،التي تطل على" **شارع لير"** سابقا "**أرزقي بوزرينة "**حاليا،حيث تزينت واجهات هذه العمارات بطابع

[1] - Picard Malverti (Aleth) **, « Lotissements et colonisation : Algérie, 1830-1970 »**. Revue « Villes en parallèle », n°14, Institut d'urbanisme de Paris, Paris-juin 1989,p219.
[2] - Picard Malverti (Aleth), **« Architecture et urbanisme en Algérie. D'une rive à l'autre (1830-1962) »**,op-cit,p219.
[3] -ANOM GGA,1N4,Lettre de l'architecte bournichon au maire d'Alger ,29juin1852.

العمارة الإيطالي[1] والتي تم بناؤها بداية القرن العشرين ببنايات شيدت فوق أقواس أكثر ارتفاعا عن التي تم تشيدها نهاية القرن 19،أما النوافذ فقد كانت ذات شرفات تسندها دعامات صغيرة،وتعلوها قوس صغير مزخرف يشبه العمامة[2]

بدت الجزائر في بداية القرن العشرين أكثر تنظيما وازدهارا في حياتها العمرانية كما في باقي نواحي الحياة ،لقد تطورت الأفكار الفنية والهندسية وتحولت جامعة الجزائر إلى مركز فكري هام وجذاب للعديد من الأكاديميين و المهندسين المعماريين ،الذين تشكلوا في مجموعة كبيرة من المهندسين الحديثين حول **"لوكوبوربيزي"** و**"ب.أ إيمري" « P.-A. Emery »** لتطوير الجزائر وتحديث معالمها العمرانية ،فقد ساهم العديد منهم بالتعاون مع شركة" **بيريت"** ، والتي تكفلت ببناء الإنشاءات الكبرى بمعية كبار المهندسين من المستوطنين ،فقد أشرفت هذه الأخيرة بالتعاون مع المهندسين **"ب.فوريستي"**« **P. Forestier** »و" **ج.جيواشان" Guiauchain » .« G**بتطوير مشروعي قصر الحكومة والغرفة الزراعية بالعاصمة ،واستمرت الإنجازات إلى غاية 1930 ،لتشكل الاحتفالات المئوية للاستعمار مناسبة لإطلاق مشاريع كبيرة في العاصمة: **"قصر الحكومة العامة"** من قبل **"ج.جيواشان"** ،و**"المنزل المدني** "من قبل المهندس **" كلارو"** و**"متحف الفنون الجميلة"**من قبل **"غيون"** « **Guion** »و**"فندق المدينة"**من قبل الإخوة **"نييرمان"** « **Niermans** » [3].

وبالموازاة مع ذلك،فقد أعيد تصميم المدينة تصميما عصريا وبهندسة جديدة تراعي المقاربة التالية"الحاجة الماسة للإسكان، التلائم مع روح العصر، والتأقلم مع فلسفة **جونار** ،التي حاولت المزج بين عبق تاريخ المدينة الجزائرية والتطوّرالهندسي العصري ،إذ غيرت الرؤيا الهندسية الجديدة للمهندسين الكولونياليين،كما أدت إلى اختلاف تصوراتهم للنمط المناسب لهكذا تهيئة عمرانية وفق المنظور الاستعماري،غير أن إدارة الاحتلال وجدت نفسها بعد الغزو الكبير للريفيين نحو المدن (1919-1945)تتخلى عن فلسفة جونار الهندسية ،وتسعى للتركيز على مسألة الإسكان بدل التركيز على النواحي الجمالية ،وبالتعاون مع مصلحة الهندسة العسكرية

[1] -Piaton (Claudine)Lochard(Thierry),**L'architectures et propriétaires algerois ,1830-1870** ,Imprimerie de l'institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman ,Aix- en- Provence ,2017,p13.

[2]-أنظر صورة تبين العمارة الكولونيالية فى مدينة الجزائر فى فى الملحق رقم 03،ص488.

[3]-Picard Malverti (Aleth) « **Architecture et urbanisme en Algérie. D'une rive à l'autre (1830-1962) »**,op-cit,p128.

، ومع كوكبة من المهندسين الأوروبيين استقرت السياسة الجديدة على ضرورة خلق مدن تحتك فيها المجمعات السكنية بالثكنات العسكرية باعتماد قاعدة**"ثلاثية المرافق المدنية ،والعسكرية والإقامة السكنية"**، كما تم احتساب المساحة المخصصة لكل بناية المراد إنشاؤها لتوفير الوعاء العقاري ،فمثلا خصصت مساحة البناية بالنسبة لمسكن الأهلي ب 20 م2، أما المستوطن فقط خصصت له مساحة 14 م،وذلك لأن المستوطنين يفضلون بنايات ذات طوابق[1]

وما بين سنوات 1920 و 1935 ،دخل الحديد والإسمنت المسلح كعنصرين أساسيين في عملية البناء،بحيث تم بناء العديد من المباني الحديدية في الجزائر العاصمة. وقد جاء هذا النمط من البناء للتكيف بشكل جيد مع القيود الطوبوغرافية للموقع ،وتحت دعم المكتب الفني لاستخدام الفولاذ (OTUA) بدأت التجربة في الانتشار عام 1930 ،حيث تمت اعتماد مراجعة جديدة للمباني المزمع إنشاؤها في الجزائر العاصمة أو في المدن الأخرى أساسها الخرسانة والحديد ،وقد كان مثلا مطار الجزائر فرصة لتنفيذ تجربة البناء بالخرسانة.

وبذلك كان هذا إيذانا لبداية العمارة الحديثة والتوسع الحضري على نمط المدينة الأوروبية الحديثة ونهاية للعمارة التقليدية أو النمط الموريسكي المتوسطي (**Xarabisance**). وبذلك قدّم العديد من المهندسين في الجزائر قراءة جديدة للعمارة المغاربية وكان في مقدمتهم **"مارسيل لوتويلار"« Lathuillère »** ،و**" لوكوربيزيي"**[2] **« Le Corbusier »** .

ومن جهة ثانية فقد كانت الفترة الممتدة من1919وإلى غاية1948 بداية لسياسة حضرية جديدة منتهجة من قبل المصالح التقنية للإدارة الاستعمارية تهدف إلى تحديث كلي للمدينة لتصبح أكثر عصرية ،وأكثر تنظيما وتسهيلا للحياة العامة ،ولأجل ذلك وضع قانون لتسيير وتهيئة المدن، عرف باسم قانون**"كورنيدي "« la loi cornudet »** امتد سريانه من سنة 1919إلى 1924 ،فقد فرض هذا القانون على البلديات ،ولاسيّما الأوروبية منها والتي تجاوز تعداد سكانها 10.000ساكن ضرورة وضع خطة لتنظيم وتوسيع المدن وتحسينها ،وقد بدأت الإجراءات العملية بعد إصدار مرسوم مكمل وموضح صدر في05جانفي 1922،وفي إطار هذا المضمون أنشأت مخابر متخصصة في التهيئة العمرانية وتنظيم المدن.ولم تكمن أهمية هذا

[1] - Picard Malverti (Aleth) , « **Lotissements et colonisation : Algérie, 1830-1970** »,op-cit,p219.
[2] -**I**dem, « **Architecture et urbanisme en Algérie. D'une rive à l'autre (1830-1962)** »,op-cit,p127.

القانون في التخطيط لتنظيم المدينة فحسب ،وإنما لوضع حلول واستراتجيات عملية في حال توسعها مستقبلا[1] .

وقد ساهم هذا القانون بتفعيل مايلي:

1 -تعميم منح رخص البناء .
2-إخضاع عمليات توزيع الأراضي المخصصة للبناء لنظام خاص من الترخيصات والتسوية
3-توسيع عمليات التهيئة العمرانية مما سمح لتغير المدن من طابعها التقليدي القديم إلى العصري الأوروبي[2] .

ورغم أن هذه القوانين جاءت لتنظيم لتوسع العمراني في المدينة والاهتمام بجماليتها،إلا أنه تم التخلي عنها مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية ،وتم اعتماد مشاريع جديدة للتهيئة العمرانية كان الهدف منها المساعدة في مواجهة المشاكل المصاحبة للتوسع العمراني بسبب النمو السكاني المتزايد وتوسع المدينة الناتج عن النشاط الاقتصادي .غير أن معظمها تركز على تهيئة مدينة الجزائر العاصمة استمر العمل بها من عام 1948وإلى غاية 1958،نذكر منها:

أ-مخطط التهيئة العمرانية الرئيسية ،والتي حدد مدتها ب 20سنة هدفها خلق توازن بين النمو السكاني والنشاط الاقتصادي داخل المدينة .

ب-برنامج التجهيزات الحضرية ومخطط التحديث و التجهيز (PME)،يضم المخطط توفير ميزانيات لتمويل تجهيز المدن وتنميتها اقتصاديا.

ج-برامج التخطيط العمراني والمناطق المؤهلة للتعمير حسب الأولوية(z.u.p).

استهدفت هذه البرامج الاعتناء بالمناطق الفقيرة في الضواحي وهوامش المدن لإزالة المعالم العمرانية القديمة واستبدالها بأحياءعصرية ،على شكل دفعات انطلاقا من بناء وحدات سكنية من (800إلى 1200مسكن)وصولا إلى بناء مجموعات سكنية يصل عددها 10000 مسكن [3].

[1] - Nedjai Fatiha,op-cit,p32.
[2] - Ibid,p34.
[3] - Ibid,p34.

حاول التيار المعماري الجزأري جاهدا،بُعيْد الحرب الكونية الثانية احترام هوية البلاد أمام الهجمة التحديثية في البناء والعمران ،فقد كانت سياسة **"وكالة التخطيط الحضرية الفرنسية"** الواقعة تحت رئاسة« **E Dalloz** » **"إ-دالوز"** « و**G. Hanning** » **"ج-هانينغ"** ، تصب في اقتراح خطط بديلة للتهيئة الحضرية القائمة على التوسع العمراني العشوائي والكثيف ووضع مخططات تتلائم مع العمران الحديث وتتناسب مع الطابع المحلي للبلاد .إلا أن هذه النوعية من الأبحاث في الهندسة المعمارية ،التي أدارتها مدرسة الجزائر العاصمة ،اصطدمت بتنفيذ خطة قسطنطينة في عام 1958 ،والتي عدت كمحاولة أخيرة للسياسة العمرانية الاستعمارية الجديدة لإحداث ثورة للإسكان الجماعي للعدد الكبير من الجانبين الأوروبي والأهالي في الجزائر.إذ هدفت الخطة إلى بناء 50000 منزل في العام ، يتم تسليم 18000 منزل في عام 1958 ،والباقي يوزع في السنوات التالية [1].

أما إذا انتقلنا للريف،فقد كان له هو الآخر نصيب من التغيير العمراني،إذ أن أشغال التهيئة الريفية كانت في صلب المشروع الاستيطاني العمراني والديمغرافي،ولعلّ المجمعات السكنية الريفية الصغيرة والشبه الحضرية،التي أنشأها المستعمِر مثلت الطّابع المميز للمناطق الريفيةخصوصا في الغرب الجزائري، فقد أضحىالساحل الوهراني مع مسار التعمير، المنطقة الأكثر كثافة، على الرغم من التغيرات في التوزيع الديمغرافي، وقد مثل نمط الضيعة الريفية (La ferme coloniale) الإقامة الأكثر انتشاراً في هذا النوع من الإقامة، فمن شروط هذا الأخير أنه لا يوطن إلاّ فيالأراضي التي جرى عليها سبر مائي (Sondage hydraulique)، إذْعد المورد المائي ذا بعد اقتصادي أكثر منه ذا بعد اجتماعي يمد القيمة المضافة للعقار، باتباع الأسلوب المكثف، وهو الأسلوب ذاته الذي كان متبعاً في الريف المغربى والتونسي أيضاً[2].

وبالمقارنة بالمجال الذي كان يتمركز فيه الأهالي، فإن التفاوت كان واضحاً للعيان، فالتقسيم النطاقي للعمران جسد التفاوت والتناقضات التي كانت سائدة آنذاك ، إذْ نجد من جهة

[1] - Picard Malverti (Aleth) **, « Architecture et urbanisme en Algérie. D'une rive à l'autre (1830-1962) »**,op-cit,p129.

[2]- فكار (عثمان)،**الاستيطان العمراني الفرنسي في الريف الجزائري مقاربة سوسيوتاريخية**،مجلة جامعة دمشق ،المجلد 29،العدد ،3و4، 2013،ص،ص 594،595.

المراكز الكولونيالية المدعمة بمستلزمات الحياة كلّها، ومن جهة ثانية مساكن الأهالي المفتقِرة لأي تنظيم عمراني مشكلةً بذلك حزاماً بائساً ،وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن المجال الريفي، منذ الاحتلال وحتى بداية الاستقلال تطوّر عمرانيا لصالح المعمرين، من أجل تحقيق الحلم الاستيطانى "التعمير الديمغرافي العمراني "، الذي طالما راود كثيراً من المخططين الذين شجعوا حتى مبدأ إجبارية بقاء المعمر، للحصول على الأرض والمسكن[1].

3-الإنشاءات العمرانية الكبرى "حديقة الحامة وبريد الجزائر كمثال للهندسة الكولونيالية "

أ-بريد الجزائر

يتوسط مبنى "البريد العام"، كما كان يسمى في الحقبة الاستعمارية الفرنسية، أرقى أحياء العاصمة الجزائرية، ليلتقي عنده شارعا الشهيدين" العربي بن مهيدي "و"ديدوش مراد ")إيزلي وميشلي سابقاً)، منفتحاً على حديقة قصر الحكومة الواسعة والتي تنحدر بأشجارها الباسقة إلى أسفل الجبل لتلامس جذورها مياه البحر الأبيض المتوسط.

تم الشروع في بناء البريد العام على هيئة قصر فاخر عام 1910 وتم إكمال تشييده بعد ثلاث سنوات قضاها البناؤون والمعماريون في تنسيق ردهات المبنى وأعمدته وأسقفه التي تتألق حاملة زخرفاً عربياً أندلسياً راقياً، ليتحول مبنى البريد المركزي رويداً رويداً إلى تحفة معمارية متفردة.هندسته المعمارية تنبض بدقات قلب المدينة حيث استلهم المهندس **"ماريوس تودوارد"** المعمار العربي الإسلامي في تشييد هذا القصر الأنيق، كانت الفكرة تنطلق من محاولة الحاكم العام للجزائر في بداية القرن العشرين "شارل جونار" توطين المباني لجعلها جسر عبور إلى قلوب الجزائريين الذين كانوا ينفرون من التعاطي مع الإدارة الاستعمارية بمبانيها الفكتورية ذات الطراز الأوروبي الصرف.

يُذكر أن جونار شجّع إحياء فن العمارة الإسلامية، والتقرّب من طبقة المثقفين التقليديين، وشجعهم على القيام بمهمتهم القديمة، كإقامة الدروس في المساجد ونحوها، أشرف جونار على فتح المدرسة الثعالبية سنة1904 ، بجوار مقام "سيدي عبد الرحمن الثعالبي" في حي القصبة بالعاصمة الجزائرية، واستهدى إلى فكرة تشييد مبان على شكل قصور ذات طراز معماري

[1]--نفسه،ص594.

أندلسي ومغاربي لعله من خلال ذلك يجد طريقاً إلى قلوب "الأهالي"، وهو النعت الذي كان يطلق على السكان الأصليين في العهد الاستعماري للجزائر والذي امتد لقرن وواحد وثلاثين سنة كاستعمار استيطاني كامل الأركان والأوصاف، حينها شيدت بعض مبان تخدم فكرة التقرب من الأهالي باستنباط المعمار المحلي والإسلامي مثل مبنى المحافظة (الولاية حالياً) الواقعة في واجهة البحر أو بعض المدارس المتناثرة في أحياء الجزائر العاصمة المختلفة.

استُعمل مبنى البريد المركزي في كل أنواع الخدمات البريدية والمالية منذ افتتاحه في سنة1913 ، فكان قبلة لكل من كان يريد أن يبعث برسالة أو طرد أو برقية أو يستقبل مثيلاتها، كما كان محجاً مع تطور الزمن لدفع فواتير الهاتف أو تخليص المعاملات البريدية المختلفة من برق وفاكس وتلكس أو أي معاملات مالية إذ استعمل المقر لسنوات طويلة لتسيير الحسابات الجارية للموظفين سواء في إيداع أموالهم أو في سحب رواتبهم

ب-حديقة التجارب الحامة

كان للشركة العامة الجزائرية نصيب كبير من أشغال مشروع الحديقة ،ولكن بالرغم من التصميم الحديث والباهر لها فإن الأشغال لم تسلم من الانتقدادت الهندسية والفنية لها ،وعلى العموم فقد احتوت الحديقة على أندر الفصائل النباتية ،التي تم جلبها من بيئات متعددة ،(استوائية مدارية ومناطق معتدلة..)تتناسب والبيئة المتوسطية التي وجدت لها ،ومن بين النباتات نكتفي بالذكر أشجار **"البامبو"« Bambous »**وأشجار النخيل بأنواعها **« Datiers »**،وأشجار**"الشاميوروبس"،« Chamaerops "الإكسيلزا"« Excelsa »** **،"الفيكيس"« Ficus »** ،و**"الكوكوس" « Cocos »** ومن نبات **أروكارياس " « Aucarias »و"سيكاديالنادرة" « Cycadées »و"التريناكس"« Thrynax »** إلى جانب الآلاف من الفصائل الأخرى ،من نباتات التزيين والمنازل ،والتي جلبت من فرنسا وبلجيكا والمكسيك والبرازيل وأستراليا ،لتشكل في النهاية أكبر حديقة ضمت مختلف أنواع النباتات الموجودة في العالم ،والغاية منها تزويد المناطق الحضرية والريفية بهذه النباتات واستخراج أجود العطور والمستحضرات الطبية والصيدلانية منها.أما الجهة السفلية للحديقة

فقد خصصت مساحة كبيرة منها قدرت بحوالي 30 هكتار كمشتلة ،ضمت حين تأسيسها 40قطعة لزراعة فتيلات صغيرة للنباتات المجلوبة ،بقي الكثير منها غير مستغلا حين فتحها[1]

لم يتوقف المهندسون الاستعماريون على تطوير الحديقة وتوسيعها على الجانب النباتي فقط ، بل أرادوا منها أن تكون قطبا إقليميا وعالميا يجمع أندر الحيوانات الموجودة في العالم ،ولذا فقد خصص في الجزء السفلي قسم خصص كحديقة للحيوانات ،فقد احتوت الحديقة خلال السنوات الأولى لافتتاحها على 50من حيوان النعام الجزائري،والعديد من أنواع الغزالان الإفريقية وغزال اللاما ،وحيوانات متعددة من مختلف القارات[2] .

4-أثر العمران الأوروبي على العمارة المحلية والمجتمع الأهلي

خلقت لنا الهندسة الكولولنيالية مدينة مزدوجة العمران (عمران حديث أوروبي يزداد في التوسع ، وعمران قديم يلاشى ويضمحل) ففي الجزائر العاصمة، أصبح حزام المدينة الجديد يخنق حي القصبة العتيق ،و في وهران تظهر الواجهة البحرية كورنيش في أوروبا كحي عصري يخفي بعصريته وراءه مدينة ذات طابع عربي إسلامي انهكها الإهمال،وهكذا فإن هذه المدن الجديدة غالبا ما تكون مبنية على حساب الآثار الاسلامية والعربية ، مما أدى إلى الفصل بين الأحياء الأهلية بشكل مقصود ،وإذا كان حظ حي قصبة الجزائر العاصمة العتيق قد حالفه الحظ بالبقاء شامخا إلا أنه أصبح حي مبتور عن الأحياء الأخرى وضائع وسط الأحياء الأوروبية.[3]

أصبحت المدن بداية القرن العشرين ،ولا سيما المدن الكبرى منها أكثر اكتظاظا ،بسبب النزوح الريفي الكبير ،الذي جعل وتيرة النمو الحضري في تسارع تحت تأثير النمو الديمغرافي ،بسبب قلة فرص العمل في الأرياف وتدهور القطاع الزراعي ،وفي ظل هذا الخلل المُضعف ،فإن الأحياء القصديرية بدأت تظهر كنتيجة حتمية في داخل المدن ثم حولها،وكان أول ظهور لحي قصديري في الجزائر العاصمة كان مابين1926 -1930.وفي عام 1938أحصت سلطات الاحتلال وجود 13حي قصديري بالعاصمة كان يقطنه ما يقارب

[1] -Auguste (Rivière) ,**Jardin Hamma et la société générale algériénne** ,Imprimerie Horticole de E.Donnaud, Paris-1872,p-p03-11.
[2] - Auguste (Rivière) ,op-cit,p,p16,17.
[3] - Meynier(Gilbert), « **L'Algérie et les Algériens sous le système colonial.Approche historico historio-graphique »**,Revue Insaniyat ,N°65-66, juillet - décembre 2014

4800نسمة ،وارتفع العدد بشكل لافت ليصل إلى 164 حي قطنه 86000ساكن من الأهالي بداية الأربعينات[1]. أما في آخر إحصاء ،الذي أُجري سنة1954،أصبح هناك 50000من قاطني الأكواخ القصديرية في مدينة الجزائر العاصمة لوحدها ،وهو ما عادل 7/1من سكان المدينة يتوزعون على 109من الأحياء القصديرية داخل مدينة الجزائر العاصمة وحولها،ولعل أبرزها الحي القصديري المعروف باسم **"دار محي الدين"**،بحيث ضم لوحده 10000ساكن[2]،كما أن 40ألف من ساكني هذه المدينة القصديرية ، كانت أكواخهم متواجدة في بلديات حضرية و10500منهم في البلديات الريفية .ويلاحظ بأن سكان الأحياء القصديرية كانوا يتكدسون أكثر في المدن الأربعة الكبرى (بنسبة 72.5%من المجموع)منهم 41.5% في ضواحي العاصمة ، و30% في ناحية وهران،و7%فقط في ناحية قسنطينة المدينة الوحيدة التي تفوق فيها الأهالي على المستوطنين بداية من سنة 1930[3].

على العكس من فلسفة العمران الإسلامي،نجد مخطط المنزل يأخذ النمط الغربي، فمثلا كانت (الفيلا) تتميّز بضرورة انفتاحها على كل الجهات أو على اثنين منها على الأقل،وبالتالي أوهنت إمكانية الضم مع البناءات الأخرى،مما زاد من الفضاءات الخارجية،وهلهل بذلك النسيج الحضري، ولا يفوتنا هنا ذكر ما لهذه الخاصية من أثر عكسي على الحياة الخاصة للساكن الجزائري، حيث انعكس تصميم المنزل أو الفيلا الموروثة من الحقبة الفرنسية على نفسية ووعي الجزائري بعد الاستقلال ، وهو ما تعاني منه اليوم كل مساكننا الجديدة منها والموروثة من عهد الاستعمار. فعندما اضطر الناس بعد رحيل الأوروبيين إلى السكن في المدينة الأوروبية وجدوا أنفسهم فجأة ضحايا لأزمة عمرانية وثقافية عميقة لم يكونوا يتوقعونها، لأن إقامتهم بالمدينة الأوروبية كانت تتم بذهنية وعادات وقواعد السكنات المحلية التقليدية ،وحتى بعقلية البدوي. فغياب وسط الدار والسطوح الخاصة في الشقق الحديثة دفعهم إلى التحايل وتعويضها بالسطوح العامة وسلالم العمارات التي حولوها إلى فضاء عائلي حميمي إضافي ملحق بغرف الشقة.

---

[1]-كاتب(كمال) ،المرجع السابق،ص،ص374،375.

[2] - pelletier (Jean), « **Un aspect de l'habitat à Alger :les bidonvilles** »,proces-verbaux du cercle d'études géographiques de lyon,N°23 ,Lyon,seance du 10 decembre 1954,p,p279,280.

[3]-كاتب (كمال) ،المرجع السابق،ص377.

كانت نتائج إدخال العمران الأوروبي وانتقال الأهالي للسكن في العمارة الحديثة جد وخيمة على العلاقات الأسرية والاجتماعية بسبب عدم أخذ المعماريين الأوروبيين بعين الاعتبار لمبادئ أخلاقية روحية في تصميماتهم مثل السترة والحجبة وداخلية الجمال، التي تؤدي حتما إلى عدم الاستغناء عن وسط الدار- لأن مشاريعهم كانت موجهة أصلا للأوروبيين – الأمر الذي زاد من زعزعة استقرار العلاقة بين داخل العائلة. فضرورة الانفتاح على النوافذ الواسعة والشرفات الكبيرة التي تفرضها الحاجات المنزلية، أفرزت توترات بين الأزواج خلال تجفيف الغسيل واستنشاق هواء العالم الخارجي من الشرفات، وكثيرا ما انتهت هذه التوترات إلى الطلاق أوإلى مراكز الشرطة ،فالانتقال من النموذج الإسلامي إلى الغربي أثّرعلى مختلف جوانب حياة الناس وتسبب في اختلالات عميقة وكبيرة لم تتنه لحد اليوم [1].

ختاما لما سبق نستنتج مايلي:

1/غير المهندس الكولونيالي المعالم العمرانية للمدينة الجزائرية ،وصمّم مدنا وهياكل عمرانية على نفس النمط العمراني الموجود بأوروبا ،وهدّم كل تراث عمراني محلي يرمز للبيئة الأصلية ويمحي معالمها حتى لا تشبه ماضيها وحاضرها الحضاري .

2/مرّت السياسة العمرانية في الجزائر المحتلة بعدة مراحل ،ففي البداية قام بهدم العمارة المحلية ذات الطابع الموريسكي المغاربي ،وأحّل محلها العمارة الأوروبية ذات الطابع الباروكي ،لكن نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين،انتقل الطابع المعماري إلى الطابع المويسكي في عهد جونار ثم إلى المتوسطي قبل الحرب الكونية الثانية ،ثم إلى العمارة الحديثة بعد الحرب.

[1]-دردور (عبد الباسط)،"**الهيمنة الثقافية وتداعياتها على العمران-الجزائر أنموذجا-**"،مجلة الإحياء ،مجلة فصلية محكمة العدد 13كلية العلوم الإسلامية ،جامعة باتنة 1،باتنة-2013،ص،ص284، 285.

خلاصـــة الفصـــل

عرف مجتمع المستوطنين في نموه وتطوره مرحلتين هامتين ومتباينتين ،مرحلة البطء الشديد في النمو خلال النصف القرن الأول من الوجود الاستعماري،والتي تسبب فيها عدة مؤثرات وارتفاع الوفيات وقلة المواليد ،وعدم التأقلم العام مع الظروف الجديدة في الجزائر، لكن السياسة الحكومية من تحسين القطاع الصحي والحالة الاقتصادية ساهمت في الرفع من عدد السكان .وعلى العكس من ذلك شهد الوضع الديمغرافي للأهالي تدهورا شديدا ،فقد انعكس الوضع العام من حروب المقاومة وسوء الأحوال المعيشية في تراجع شديد لعدد الأهالي.

كان المجتمع الأوروبي مجتمعا هجينا مشكلا من مختلف العرقيات ،والمتباينة في العقلية والسكلوك والتقاليد وحتى المزاج،ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الاختلاف في التركيبة الاجتماعية على السلوك العام للسكان الأوروبيين ،فقد عاش المجتمع الاستيطاني تحت ضغوط نفسية كثيرة وأزمات سوسيولوجية حادة ،فحالة الإغتراب والخوف من المجتمع الآخر ، والإحساس بالخطر من المجهول ولّد في الوعي الجماعي للأقلية الأوروبية الشعور بالعدوانية ضد الآخر ،سواء أكان هذا الآخر من باقي الأوروبيين أو من الأهالي ،الذين شكللوا له مصدر الخوف من سلبه مكتسباته الجديدة ،فراح يمارس عليهم عدوانيته ويشهر ضدهم كراهيته وعنصريته .هذا من جهة ومن جهة ثانية شكلت تلك العدوانية مصدر قلق السلطة المحتلة من تفكك هذا المجتمع وسعت لإعادة بنائه عبر سياسات جديدة كالإدماج والتجنبيس الأتوماتيكي .

حاولت الكنيسة الحفاظ على الوازع الديني للمستوطنين ،وعملت الجمعيات المختلفة المذهب في نشر المسيحية في وسط المعمرين ،غير أن اضية التدين كانت بدرجات ، ومستويات مختلفة ،فالتعصب الديني تلاشى رويدا مع رياح التغيير والحداثة وروح العصر الجديدة ،ولم تنتهي رسالة التبشير فقد في أرساط المعمرين بل تعدته للوسط الأهالي الذي قاومه ورفضه.

تغيرت المعالم العمرانية للجزائر في نهاية القرن التاسع عشر وخلال النصف الأول من القرن العشرين ،بحيث أصبحت المدينة لا تشبه ماضيها ،ولا تحاكي ذهنية مجتمعها الأصلي ،فقد لعبت أنامل المهندس على مسخها وتغيرها ،وتحويلها إلى مدينة أوروبية الشكل ، عبارة عن نسخة عن للمدينة الأوروبية في طابعها العمراني ،ومميزاتها الهندسية.

الفصل الثالث :الواقع الثقافي للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر وأثره على الأهالي المسلمين ما بين (1870-1945)

المبحــث الأول:الأدب الكولونيالي في الجزائر

المبــحث الثاني:الفنون الجميلة

المبحث الثالث: المستوطنون والأهالي و فن المسرح "الرسائل والمضامين"

المبحــث الرابع :المستوطنون والأهالي في فن السينما الكولونيالية

المبــحث الخــامس:احتفالات مستوطني الجزائر بمئوية احتلال الجزائر سنة 1930 وأثرها على الواقع الثقافي للأهالي المسلمين

لقد كان للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر ثقافتهم الخاصة ،وهي خلاصة التراكم الكمي للتراث والفلكلور والثقافة الشعبية الخاصة بكل عرق أو جماعة داخل هذه المنظومة الاجتماعية ،ومع الوقت ظهرت الثقافة الأوروبية في الجزائر نتيجة التمازج بين مختلف الثقافات وتحت تأثير الثقافة واللغة الفرنسية ،وكإنعكاس للثقافة الخاصة بكل جماعة . **فما هي مجالات الإنتاج الثقافي والمعرفي ،وماهو حقيقة تأثير ثقافتهم على المجتمع الأهلي ، وهل كان للمجتمع المسلم مقاومة ثقافية للثقافة الأوروبية ،أم أن الثقافة الأوروبية فعلت فعلها على ثقافة المجتمع المسلم؟**

أولا:الأدب الكولونيالي في الجزائر

1- ماهية الأدب الكولونيالي والتيارات الأدبية في الجزائر ما بين 1870-1945

تعج المكتبة الأدبية بمئات الأسماء من المؤلفين والكتابات الأدبية خلال الحقبة الاستعمارية ، والتي تتميز بالثراء الأدبي ،وتحمل في طياتها حقائق تاريخية تعبر بوضوح رغم طابعها الملتزم بالنص الأدبي عن تفاصيل المجتمع الاستعماري المتداخلة والمتناقضة أحيانا،وتكشف لنا عن حالة البؤس التي عانى منها الأهالي،وتوصلنا في النهاية إلى التعرف على درجات الالتزام بالإنسانية في كتابات فاعليها .

ولذا فإننا حاولنا هنا أن نسلط الضوء على بعض الكتابات الأدبية للأدباء المستوطنين ،على اعتبار بأنها تعطينا صورة عن الحياة الأدبية وعلاقتها بالأحداث السائدة خلال تلك الحقبة .

إذا كانت الرواية الاستعمارية منتوجا خياليا،فإنها في الواقع موضوع أدبي قوي الرموز،يمكن أن يستعمل كشهادة من شأنها أن تساعد في معرفة المجتمع الاستعماري ،وفي الحقيقة فإنها نتاج الواقع الاستعماري نفسه ،ومثلما كانت الرواية والأدب الكولونيالي وسيلة مميزة لنشر الدعاية لخدمة الايديولوجيا الاستعمارية كما عبرت عنه **"مارتين آستيي لوفني"** في أطروحتها المعنونة ب:**"أدب واستعمار :التوسع الاستعماري كما نراه في الأدب الفرنسي**

1914-1871"،فإن الرواية الاستعمارية بالمقابل مثلت أداة لنقد وفضح المظالم والتجاوزات الممارسة من قبل المعمرين والإدارة الاستعمارية في حق المجتمع الأهلي المسلم[1].

ارتبطت بدايات الأدب الكولونيالي بنشأة الظاهرة الاستعمارية بحد ذاتها،أي خلال السنوات الأولى للاحتلال ،فقد واكبت الكتابات الأولى الحملات العسكرية التي شنها قادة الجيش لاخضاع القبائل ومجدت بشكل رومانسي بطولاتهم وانجازاتهم.وكانت على شكل قصص منقولة من رسائل وكراسات ومذكرات ضباط الجيش وترجمت بلغة أدبية أعمالهم الحربية ،وهي ما يطلق عليها بالقصص الإثنوغرافية[2]،كما ارتبطت الرواية والأدب الاستعماري بالتيارات الأدبية السائدة بالجزائر،وهذه التيارات بعضها عالمي معروف وبعضها نشأ بالجزائر لارتباطه بالواقع السياسي والاجتماعي والثقافي،الذي عاشه الأدباء المستوطنون،نقل **"لويس برتران "**[3]**،"** إلى الجزائر الرواية الطبيعية الوثائقية ،كما أثرت الرواية الزولية[4] في الكثير من الأدباء وفي مقدمتهم الذي انبهر أمام كل المظاهر للسكان المعمرين،كان يريد أن يقول "الحياة الحقيقية "الأوروبي الجزائر كما هي وبكل ثرائها الاجتماعي [5].

---

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)،**المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين حقائق وإيديولوجيات وأساطير ونمطيات** ،المجلد الأول،دار هومة للطباعة والتوزيع ،وزارة المجاهدين ،الجزائر- 2010، ص-ص21-24.

[2] - Messaadi (Sakina) ,**Les romancières coloniales et la femme colonisée Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie** , Entreprise nationale de livre ,Alger-1990 ,p,p19,20.

[3]- يعد لويس رتراند من أهم أدباء الأقلية الأوروبية في الجزائر ،عمل كأستاذ اللغة والأدب في ثانوية الجزائر عام 1891أكمل دراسته في الأدب الفرنسي بجامعة السربون وناقش سنة 1897 أطروحته في الدكتوراه ،بعد عودته إلى الجزائر اشتغل بالكتابة ،كانت الرواية بالنسبة له مجالا للتعبير عن أفكاره وأفكار الكثيرين من الأقلية الأوروبية حول الادماج وإقصاء الأهالي من العيش في الجزائر ،على اعتبار أن الأرض هي أرض لاتينية ،من أهم كتبه "دم الأعراق"،"مدن الذهب"،"سراب الشرق ""إفريقيا"عين رئيسا لجمعية الأدباء الكولونياليين الجزائريين ،بعد تأسيسها ، للمزيد،انظر مؤلفاته:

-Bertrand(Louis), **Africa**, Albin Michel, Paris -1933, Roman.

- ,**Le mirage oriental,** Perrin, Paris-1909, Essai.

- **Les sang des races** , Ollendorf, Paris -1899, Essai

[4]-تنسب الرواية الزولية،نسبة للأديب العالمي الفرنسي أيميل زولا (1840-1902)،يعتمد هذا النوع من الأدب –مثلما هندس له زولا -على قيام الرواية على الوصف الدقيق للمجتمع وعلى التفكير العلمي ،وعلى تشريح الواقع بعيدا على الخيال والعاطفة ،للمزيد أنظر لكتابات ايميل زولا، أو للمرجع التالي:

- Mitterand(Henri) ,Zola, la Vérité en marche, Découvertes et Gallimard, Paris -1995

[5]- يحياوي مرابط (مسعودة)،المرجع السابق،ص46.

وبعد تثبيت أركان الاحتلال ،وانتهاء المقاومة ازدهر ما يسمى بأدب الرحالة و المغامرة[1] ، إذ شهدت الجزائر توافدا كبيرا من الأدباء والفنانين الفرنسيين بدافع الفضول لاكتشاف الشرق وسحره، والبحث فيه عن أحاسيس وأفكار جديدة في عالم الصحراء الدافئ والمشمس الذي ظل لوقت طويل عالما يكتنفه الغموض وتلفه الأساطير ،وكان محور اهتمامات الأدب الكولونيالي لا سيما خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، هو التعبير والكتابة عن تقاليد وثقافة الأهالي وتصوير الحياة الفلكلورية لأهل البدو والقبائل عبر أقلام الكتاب وريشة الفنانين .غير أن هذا التصوير وإن بدا في ظاهره رومانسيا، وذو قيمة أدبية وجمالية فنية ،إلا أنه تصوير وتأليف أقرب منه إلى الخيال وبعيد تماما عن الحقيقة والواقع ،إنه أدب المغامرة والاستشراق الذي يهدف إلى إبهار الفرنسيين،ليس إلا[2].

والحق ،فقد سبق نشأة الأدب الكولونيالي ظهور ما اصطلح عليه بأدب الغريب **"الغرائبي"** [3]والذي امتزجت فيه مشاعر و أفكار الاستكشاف بالتحقير للأهالي المسلمين ،إذ ارتبط تطوره التاريخي بتوسع الجيش الكولونيالي في الجنوب الجزائري بعد فتور الثورات في الشمال،وسقوط الإمبراطورية الثانية عام 1871.وقد كشفت هذه الآداب عن انجذاب المثقفين القادمين من فرنسا لفهم سحر الصحراء وللبنى التقليدية للأهالي التي كانت في طريق التدمير التدريجي من قبل الاستعمار ،فقد اكتفى هؤلاء الكتاب بالتنديد فحسب دون أن يقيموا أية علاقة لهذا التدمير المقصود بالنظام الكولونيالي ،ما عدا القلة منهم كأعمال الأخوين**" جيروم وجان**

[1]- هو نوعٌ من أنواع الأدب القديم الذي عُرفَ في المَاضي، وارتبط بالرحلات التي كان يسافرُ فيها الرحالةُ العرب لاكتشافِ أراضٍ جديدةٍ لم تكن معروفةً في السابق، وأيضاً يعرفُ أدب الرحلة بأنه كافة المؤلفات، والمدونات، والمخطوطات التي وصلتنا من العصور الماضية، والتي تحتوي على مجموعةٍ من المشاهداتِ، والقصص التي عاصرها الرحالةُ في الأماكن التي وصلوا إليها، ويشملُ أدب الرحلة على نقلِ مواصفات الطبيعة الموجودة في مناطق العالم غير المكتشفة، وأيضاً يحتوي على سردٍ حول العادات، والتقاليد السائدة عند الشعوب الذين عاشوا في تلك الأراضي، والمناطق

[2] Messaadi (Sakina),op-cit,p,p20,21.

[3]-الأدب الغرائيبي أو العجائيبي L'exotisme، وهوأدب يقوم على عملية تشكيل تخيلات، لا تملك وجودا فعليا، ويستحيل تحقيقها. و(الفنتازيا الأدبية)، عمل أدبي، يتحرر من منطق الواقع والحقيقة في سرده، مبالغا في افتتان خيال القراء. و(الفانتازيا القصصية)، هدهدة للاوعي القارئ، ومكبوتاته المبهمة ،وهو خطاب يتميز بخاصيات ذاتية تكون فيه الاحداث والأشخاص والأشياء في انسجام تام مع مرجعية القارئ حيث التعايش إن صح التعبير والانصهار في مكوناته ،وبالنسبة للقارئ نجد أن العجائبي لا يتعارض مع عالم وتصورات هذا الأخير ، والغرائبي خطاب تكون فيه الاحداث غريبة عن عالم القارئ بحيث يتم تأويل الاحداث إلى مستوى موضوعي وعقلاني ومستوى ذاتي وغير عقلاني و التأويلان يتعارضان ويتناقضان ليظل القارئ أو المتلقي في حيرة من أمره. للمزيد أنظر:

Mellier (Denis), **La littérature fantastique** , Edition du Seuil, Paris- 2000, p04.

-تيزفيتن(تودوروف)،**مدخل إلى الأدب العجائيبي** ،ترجمة الصديق بوعلام ،ط1،دار الشرقيات المصرية ،القاهرة-1994.

طارود" اللذان عبرا عن امتعاضهما وقلقهما عن الأضرار الجسيمة التي لحقت بالكيان الثقافي لسكان المستعمرة الأصليين **"لقد خربنا أشياء لا تعوض"**[1]

اختلفت مضامين الروايات الاستعمارية تبعا للأحداث التي ميزت المستعمرة والقضايا المتنوعة التي يثيرها الواقع العام الذي كان سائدا آنذاك في الوسط الأوروبي ،إلا أن أغلبها كان يصف مستقبل العلاقات بين أطياف المجتمع الأوروبي وحقيقة الصراعات الداخلية والانفصامات الايديولوجية التي تعصف بمعسكر الأوروبيين ،إلى جانب الاهتمام بالحياة الخاصة للأهالي بكل تنوعاتها وتفاصيلها وتناقضاتها .

رغم قلة أعدادهم مقارنة بكثرة الأدباء المتروبوليين ،فإن كتابات الأدباء الاستعماريين تعد شهادة ذات قيمة أدبية وتاريخية تعكس محاولة حقيقية من قبل هؤلاء لتدجين ودمج المجتمع المسلم في المنظومة الاجتماعية والثقافية الأوروبية[2].

ومع ذلك، ينقسم الأدب الكولونيالي ثلاثة تيارات كبرى ،حسب النوع والتأثيرات الفلسفية والمحلية والعالمية :

أ-التيار الإنساني المحب للأهالي

هو تيار قاس في خطابه الأدبي مع الاستعمار، ومنتقد للنظام الاستعماري ،ومحاول في الوقت نفسه رسم لوحة حقيقية عن حياة الأهلي خصوصا في الجنوب ،إذ أحدث العديد من الأدباء وهم في معظمهم مستوطنون من أصل فرنسي أمثال **"هوبرتين أوكلار"** و" **جان طارود "**و"**جيروم"** والسيدة**" جان بومرول"** باستثناء **"إيزابيل إبرهارد"**..الخ تيارا أدبيا جديدا ذا طابع انساني متفتح ،دافعوامن خلاله،و في سياق كتاباتهم الأدبية عن معاناة

[1]- يحياوي (فضيلة)،**الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر مابين الحربين** ،ترجمة عبد الحميد سرحان ،منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ،الجزائر -2017،ص12.

[2] - Messaadi (Sakina) ,op-cit,p25.

الأهالي،ونادوا بالمساواة وبالعدالة ،وفي الوقت ذاته عبروا عن القلق في كونهم أقلية وسط المجتمع الصغير الأوروبي والكبير الأهلي[1].

ومنه فهو، تيار يعرف بمحبي الأهالي أو العرب ،مثله الأعلى الأخوة ،وطموحه الانسانية إنه رائد لتيار آخر بدأ ينمو في نهاية الحرب العالمية الأولى ،مشكل من كتاب استعماريين **"فرنسيين اسرائيليين"**و **"أوروبيون "** و**"فرنسيو فرنسا "**مثل (**ماري بوجيجا ومكسيميليان هيلار وجان فور صاردي ولوسيان فابر وألبار تروفيموس** وآخرون ...)،التزموا بالدفاع عن مصالح الجزائريين المسلمين .وهذا التيار ساهم في نشأة **"مدرسة مدينة الجزائر"**مع**" ألبير كامو"** و**"غابريال أوديزيو"** وغيرهم [2].

ب-**التيار البيكاردي الجديد"الواقعي"** تتمثل فائدة هذا التيار التاريخية والوثائقية في كونه يعبر عن الواقع المتعدد الإثنيات للمجموعات الأوروبية عبر وصفه للحياة اليومية .إن مشهد حسن التعامل الموصوفة في الروايات تشهد على مزج حقيقي للثقافات المتوسطية والبحث عن هوية مشتركة.

ج-**التيار الادماجي**

يهدف هذا التيار إلى الانصهار الاجتماعي والنفسي للأقلية الأوروبية ،وتشكيل "فرنسا جديدة" مدمجة في "فرنسا الكبيرة" ،حيث ظهرت زمرة من الأدباء والروائيين المعمرين من أصل فرنسي،مثلوا تيارا مناهضا للتيار البيكاريسكي الانفصالي الممثل للمعمرين ذي الأصل الأوروبي،وقد تناول هذا التيار الادماجي في نشاطه الأدبي والفكري مسائل عدة أهمها ،مواجهة طموحات المعمرين الانفصالية ،والدعوة للادماج الكامل للجزائر في الوطن الأم .و مثّل" **دوفندلبورغ"** ،و"**بول و فيكتور مارغاريت "**،و" **مغالي بواسنار"** ،و"**إنجال ماريفال**

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)،**المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ...، المرجع السابق،ص64.
[2]- المرجع نفسه،ص75.

برتران "،و"**فرديناند دوشان**" ،و"**ماريوس**" و"**أري لولون**" ،و"**ريموند مريفال**" ...وغيرهم هذا التيار[1]. وإذا أردنا أن نلّخص خصائص هذا التيار ،سنجده يتميز بمايلي:

- يعد بمثابة الناطق الرسمي للاستعمار في الجزائر،لذلك عمد إلى تعميق الإيديولوجيات وتوسيع دائرتها لتمس مختلف الشرائح الاجتماعية ،وقد سعى لتشكيل هذه القيم على مستوى المتخيل و الرمزبة والقيم الفنية والحس الجمعي والذوق العام

- تزامنه مع الغطرسة الاستعمارية ومن إيمان المستعمر الراسخ بانه تحكم بصفة نهائية وكلية في المستمعرة .وهذا الوهم شجع الاستعمار على تنظيم مختلف التظاهرات والاحتفالات والمهرجانات لتخليد وإحياء الملحمة الاستعمارية بعد مرور مائة عام على احتلال الجزائر

- تخليده وتمجيده للدور البطولي للمعمر وإدارة الحياة وروح التضحية لديه،فهو البطل الحضاري ،الذي روّض الأرض وواجه قسوة الطبيعة وأعداء التقدم والحضارة.وبالمقابل القتل الرمزي للآخر "الأهلي الجزائري"،وذلك باتباع استراتيجية محكمة،فهو البطل السلبي الذي تم إخراجه من دائرة الفعالية التاريخية وديناميكية الحياة.

- تقوم معمارية السرد على منع الجزائري الأهلي من أن يكون ساردا ّأو مسرودا له أو موضع سرد .كما أقصي من الحوار والتلفظ ومكونات الحبكة .وإذا حدث وأن تكلم فأقواله كلها تجب أن تصب في قوالب وأنماط جاهزة.

-إن ضمائر المستعملة للتعبير عن الجزائري هي ضمائر الغائب ،وهي: هو،هي ،هم هن،للتعبير عن الإقصاء والتهميش والمصادرة ،ولا يوصف الأهلي من الداخل بصفته إنسانا يملك جوانية وحياة باطنية ،بل يوصف من الخارج ليرى ضمن عالم الأشياء والماديات من خلال صورة مسطحة ،ويخضع في أغلب الأحيان لأسماء وألقاب وصفات تكون نمطية وجاهزة وثابتة .فالرجل يسمى محمدا والمرأة دوما فاطمة ،أما صيغة الجمع فهي لا تخرج عن الأسماء المعهودة ،العرب الأهالي المسلمين ..،كما لا تطلق عليهم اسم الجزائريين ،وفي كثير من الأحيان تستعمل أسماء عنصرية تفيد السب والقذف والتجريح ،كما يتداول بشأن الجزائري

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات** ..، المرجع السابق،ص،ص34، 35.

كلمات موحية استعيرت من عصور الانحطاط للدلالة على وضعية التخلف ،مثل المكتوب ، مرابط ،سيدي..،التي تفيد الخضوع والخنوع للواقع[1] .

د--**تيار البيكاريسك[2] الجديد " أدب الأوروبيين أو أدب المغامرة":** تشكل تيار أدبي يمثل المجموعة الأوروبية داخل الوسط الأدبي الاستعماري عرف باسم "البكريسكي الجديد"أو **"أدب المغامرات"**،بدأ مع **"موزيت"** إلى **"برتران"** إلى **"غابريال أوديزو"**وانتهى مع **"كامو"** ،وهذا التيار يؤرخ بلغة الأدب المكون الاسباني من هجرته إلى الجزائر والعيش فيها .أنه نوع أدبي يسهل لعملية إثبات الهوية .

تطور هذا الأدب في حقبة 1895-1920،والتي شهدت انفتاحا أدبيا مثله نخبة من الأسماء الأدبية هدفت إلى التعبير عن أنواع الذهنيات الممثلة للأعراق الأوروبية،وتؤسس لهوية خاصة بها في وسط يعج بالأجناس ، التي تناصبها هذه الأقلية الأوروبية العداء والعنصرية ، وهم العرب واليهود وحتى المستوطنون من أصل فرنسي .

يمثل **"روبار راندو "**و**"أوغيست روبيني"** المعروف بالاسم المستعار **"موزيت"**، و**"لويس برتران "**،و**"ستيفان شازري" **،و**"جون أنطوان ناو"**،وغيرهم من الأدباء مدرسة أدبية حديثة حداثة وجود هؤلاء في الجزائر. ممثلة فكر الأوروبي الباحث عن السيطرة والتي من خلالها يسعى لإثبات وجوده في الجزائر[3] .

---

[1]- بودربالة(الطيب)،**"صورة الجزائر في الرواية الفرنسية"**،مجلة علوم اللغة وآدابها ،العددان الثاني والثالث،دورية أكاديمية محكمة ،كلية الآداب واللغات ،جامعة الوادي ،مارس 2010،ص،ص14، 15.

[2]- لم تظهر لفظة بيكاريسكا(PICARESCA) ، باعتبارها لفظة إسبانية، إلا في نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر، قبيل ظهور الرواية الشطارية الأولى في الأدب الإسباني للروائي المجهول بعنوان (حياة لازاريو تورميس حظوظها ومحنها) . وتدل هذه اللفظة على جنس أدبي جديد قد تشكل في إسبانيا لأول مرة. وبعد ذلك، انتقل إلى فرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وأمريكا. وتعني الرواية البيكارسكية ذلك المتن السردي الذي يرصد حياة البيكارو المحتال، أو تهتم بسرد تجارب الشطاري المهمش. لذلك، تنسب هذه الرواية إلى بطلها بيكارو / (Picaroالشاطر) أو (المغامر) الذي يقول عنه قاموس الأكاديمية الإسبانية:" نموذج شخصية خالعة و حذرة وشيطانية وهزلية، تحيا حياة غير هنيئة كما تبدو في عيون المؤلفات الأدبية الإسبانية. وتعني لفظة(Picaresque)، في اللغة الفرنسية، تلك الأعمال التي تصف الفقراء والمعوزين والمعدمين والصعالكة والمتسولين والأنذال، أو تلك المنتجات الأدبية والفنية والجمالية التي ترصد قيم المتشردين والمحتالين واللصوص في القرون الوسطى. تبنى العديد من أدباء الأقلية الأوروبية في الجزائر ،وتركوا بصمتهم الأدبية فيه.

للمزيد :انظر:

-حمداوي(جميل)، **"الرواية البيكاريسكية وجدلية التأثير والتأثر"**،مجلة المثقف،العدد 5115،سبتمبر،2020.

- Tarchouna(Mohamed),**Les marginaux dans les récits picaresques arabes et espagnols**, publications de l'université de Tunis, Tunis -1982.

[3]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين حقائق وإيديولوجيات وأساطير ونمطيات** ،المجلد الثاني ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر-2010 ،ص397.

كان الهدف الايديولوجي لهؤلاء ،هو إبراز الهوية على المستوى اللساني وإظهار من خلال الكتابة الأدبية الإرادات الاستقلالية أو الانفصالية للمستعمرة الأوروبية ،والتعريف بقوة وقدرة تفوق الرجل الأوروبي في الجزائر،والذي يظهر في المخيلة الجماعية جزائريا ، وشعارهم: **"نحن (الجزائريون) الدم أسخن من فرنسا ..."**مثلما رددوا في روايات **"كغايو"** ،و**"بابيت"** و**"بلطراز" .**

و الملاحظ في المؤلفات الاستعمارية لكتّاب هذا التيار، خصوصا لدى الأدباء الأوروبيين(غير الأصل الفرنسي)خلال العشريتين الأوليتين من القرن العشرين ،هو أن الواقع المتعدد الأعراق للأوروبيين قد تم إقحامه في التمثيل اليومي.إن مشاهد حسن التعامل تشهد في الواقع وفي سياق خاص على أخلقة السلوكيات داخل المنظومة الاستعمارية، لكن الحقد العام لأوروبي الجزائر تجاه الإدارة الاستعمارية يفصح عن نفسه في "الهزل من فرنسيي فرنسا".ولذا فالكاتب والروائي الأوروبي يرى نفسه أقلية في المستوى الديموغرافي في الجزائر ،غير أنه لا يقتسم نفس "مشاعر الرفض" مع السكان الأهالي في مقاومتهم للسلطة الاستعمارية [1].

ه-مدرسة الجزأرة

ولد تيار الجزأرة بدءا من عام 1920أي بعد الحرب ،بسنوات قليلة بعد انتشار فكرة الانفصال لدى المستوطنين ووجود نخبة من المثقفين والساسة الداعمة لها ،ولعل أهم ما يلخص فكر هذا التيار هو تعريف **"جان ديجو"**له :**"إن تيار الجزأرة ليس مدرسة بل حركة أدبية وفلسفة تعبر عن وحدة وتمازج الافكار في مواجهة الفكر الغرائبي والرومانسي البائد وأدبا جديدا جاء لينهي أدب الاستشراق.."**[2]

والواضح ،فإن مطلع القرن العشرين قد مهّد لولادة حركة أدبية جامعة مثلت ما يسمى بالأدب الجزائري أو المدرسة الجزائرية ،عرفت باسم تيار**"الجزأرة"** في الأدب الفرنسي ، وقد منحت الجائزة الكبرى لأدب الجزائر إلى**" فرديناند دوشان"** سنة 1921مباشرة بعد

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة) ، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** .....،المجلد الثاني،المرجع السابق،ص362.

[2] - Messaadi (Sakina) ,op-cit,p25.

إنشائها وتحصل هذا الأخير على الجائزة الكبرى لمئوية الجزائر والتي قدمتها مدينة باريس عام 1930.وقد توالى منح الجوائز للأدباء المعمرين ،حيث منحت الجائزة لسنة 1922ل**"ماكسيمليان هيلار"** وفي 1924إلى **"لويس لوكوك"** ،وفي عام 1925 عادت ل**"غابريال أوديزو"** ،أما في 1954فقد عادت ل**"مارسيل موسي"** [1].

إن الأدب الكولونيالي يشبه كاتبه المستوطن،فلا ماض له ،ولا مستقبل ،ولا لغة ،ولا ثقافة لقد راح الكتاب الكولونياليون ،أولا وقبل كل شيء يصنعون لهم ماضيا ،و شجرة نسب ، انطلاقا من جد مشترك سيكون مختلفا حسب المؤلف ،فبالنسبة ل**"بيرتراند"**الأدماجي إنه اللاتيني، وبالنسبة ل**"راندون"**الانفصالي المتعاطف مع الأهلي، فإنه العربي المسلم المغربي المتمسح من دون أدنى شك ،ليصطنعوا بعد ذلك صيرورة ومصيرا،وعلى الأوروبيين أن يندمجوا وينصهروا ليشكلوا وطنا يختلف حسب الأحلام والتخيلات،وسيتعلق الأمر بالوطن الجزائري حسب راندون و**"ألبير كامو "**، وبإفريقيا اللاتينية حسب **"بيرتراند"** ، والفرنسيستانية[2] بالنسبة ل**"جان بوميي"**،فالكل يجهز ويرسم نظريته لوطن جديد انطلاقا من سلالة عرقية التي يريدها هو، وحسب خياراته السياسية[3] .

تغير مضمون الرواية الاستعمارية ،وولد جيل جديد من الكتاب والروائيين الأوروبيين في فترة ما بين الحربيين(1919-1939)،حيث تقاربت بينهم المسافات الايديولوجية ،ولعبت المشاكل السياسية والاجتماعية ،التي هيمنت على المستعمرة خلال هذه المرحلة ،على توحيد أقلامهم وبرزت للأفق اهتمامات أدبية جديدة ،ساهمت في ميلاد ما يسمى بتيار الجزأرة ، الذي جاء ليغير من خصائص الكتابة الأدبية الاستعمارية .

ولذا، فالجيل الأول لا يشبه الثاني، والثاني لا يشبه الثالث،ومنه فإن كتاب مابين الحربين كانوا من مختلف الأصول العرقية للمستوطنين (فرنسيين ، أوروبيون ،متجنسون)،أو يهود

---

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** .... ،المجلد الأول،المرجع السابق،ص،ص34، 35.

[2]- الفرنسيستانية هي خليط لغوي بين اللغة الفرنسية ولغة الأوكسيتان ،يتكلم بها جزء من الفرنسيين ،وكانت لغة للادب خلال القرن الثامن عشر ، اضمحلت شيئا شيئا لتحل بدلها اللغة الفرنسية الحديثة ،التي أصبحت لغة الأدب ولغة الإدارة والطبقة الراقية ،بينما بقيت الفرنسيستانية لغة العامة . أنظر:

- Lhubac (Gilbert) , **Dictionnaire francitan ou Le parlé du Bas-Languedoc, Castries** , Éditions du Mistral, 2003.

[3]- المرجع نفسه،ص22.

(أصل أوروبي أو جزائري)، وتفاعلوا بدرجات متفاوتة في الممارسة والضمير أمام العلاقات الاجتماعية والأحداث الكبرى المعاشة وعقدات التناقض الموضوعي و"مالا يقوله الوصف التاريخي التقليدي [1].

تشكلت هذه النخبة الجديدة من الأدباء الجزأريون لتدافع عن الكيان الاستعماري،و سخرت لأجل ذلك أقلامها للدفاع عن الوجود الأوروبي في الجزائر، كما وظفتها الإدارة الاستعمارية للدفاع عن القيم الاستعمارية،وقد عبر أحد رواد تيار الجزأرة والأمين العام "لجمعية الكتاب الجزائريين" **جان بومي"** بوضوح عن المحتوى الايديولوجي بقوله: **" إن الواجب يفرض على الأدب خدمة الاستعمار بفرنسة العرق الجزائري ،الذي لن يكون إلا فرنسيا .وتقع على الأدباء وفرنسيو الجزائر مهمة تثقيف هذا العرق وزرع وحدة الروح،أي خلق عرق ناتج عن التزواج الطبيعي والثقافي عرفه جان بومي ب"الفارنسيتان« Les Francitans »** [2].

ومع ذلك فإن أفكارا جديدة طفت إلى السطح ،وأهمها التصدي للتمييز العنصري والتنديد بمعاداة السامية ،وضرورة التعايش بين كل سكان الجزائر المستعمرة ،ويرجع كل ذلك إلى عاملين رئيسيين ،أولاهما سياسي ،والمتمثل في تراجع المقاومة المسلحة لصالح المقاومة السياسية ،وتطور مشروع الادماج من خلال طرح مشروع فيوليت و ما تبعه من تأييد كبير من أغلب رجال الفكر والسياسة من الشعبين الأوروبي والأهلي ،وبالتالي شعور المجموعات المختلفة بضرورة التقارب والتعايش ،وثانيها ظهور جيل جديد من الأدباء وخصوصا من الأهالي واليهود ،الذين ترعرعوا في تيار الجزأرة ،ورغم تكوينهم الفرنسي إلا أن المطالب الرئيسية لهؤلاء كانت التأكيد على قضية الهوية والوجود[3]

تأسست حركة الجزأرة سنة 1920بمساهمة عدد من الأدباء أهمهم **"راندن"**[4] و**"جان بوميي"** و **"لويس لوكوك"** ،ويعد هذا الأخير مؤسس الجائزة الأدبية الكبرى سنة

---

[1]- مرابط(مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ....،المجلد الأول،المرجع السابق،ص،ص34، 35.

[2] - Messaadi(Sakina) ,op-cit,p24.

[3]- يحياوي مرابط (مسعودة) ، **المجتمع المسلم والجماعات ....**،المجلد الثاني،المرجع السابق،ص-ص429-431.

[4]-كان لراندون دور في ميلاد التيار الجزأري ،وأحد أعمدته الرئيسية ،بفضل أعماله الأدبية ورواياته الكثيرة ،التي تناولت الشأن الأدبي في المستعمرة ،محاولا التنصل من الكلاسيكيات المعروفة وخلق نوع أدبي جديد يعبر عن الجيل الجديد للأقلية الأوروبية وعن الجزائر الجديدة ،وفيخلق

1921،والتي تمنح لأحسن أدبي في الجزائر،بينما يعد راندون أول رئيس لجمعية الكتاب الجزائريين ، والتي رأت النور عام 1921،كما يعد راندون أيضا أول من انخرط من الكتاب المستوطنين في" **جمعية الروائيين والكتاب الاستعماريين الفرنسيين**" ،والتي أنشأها في باريس "**مريوس آري لوبلون**" ،والذي لقب بأبي الجزأرة[1].

تهدف هذه الحركة إلى الغزو الثقافي والمعنوي للأهالي بوحدة الروح والثقافة الفرنسية ، إنها البحث عن روح جزائرية مشتركة والانصهار التدريجي عبر التواصل الحضاري ، وبمعنى أدق التقارب الثقافي بين المجتمعات من أجل تكوين أمة جديدة بثقافة موحدة من أبرز الأسماء الأدبية" **جان بوميي'** الذي اشتهر بإدارته لمجلة أفريك لمدة ثلاثين عاما (1924-1955)،والتي كانت نشرية للنقد والأفكار والآراء المعبرة عن مدينة الجزائر،كما ساهم رفقة عدد من الكتاب المعمرين جريدة صوت العمر ،وجمعية الكتاب الجزائريين ،جمع أحداث مدينة الجزائر في كتاب أطلق عليه"**أخبار مدن الجزائر(1910-1957)أو زمن الجزأريين**"،كما أنشأ مع الشاعرين" **ألبار تروست**" و"**بيار فالين** "**الدار الاستعمارية للشعر**"سنة 1933وساهم في نشأة ورئاسة "**صالون الشعراء الجزائريين**" عام 1934[2].

لقد ساهم "**جان بومي**" بالشراكة مع "**لوكوك**" و"**راندون**" في التأسيس لجمعية كتاب الجزائريين سنة 1920،وفي تخصيص جائزة الأدب الجزائري بعدها بسنة واحدة ،كما كان للثلاثة دور في إحياء نشاط المجلة الإفريقية سنة 1924،كما ساهم في تحرير بيان الحركة الجزائريانية[3].

ومن أهم أعمدة هذه المدرسة نجد "**شارل هاجل**" ،"**لويس لوكوك** "،"**شارل كورتان**" ، "**ألبير تريفيميس**" ،"**غابريال أوديزو**"،وقد بلغ عدد منتسبي هذه المدرسة سنة1933 ثمانية وستون عضوا ،وهم في مجملهم من الطبقة المتوسطة ،أعوان الإدارة ،موظفون حكوميون ،

أدب خاص يعبر عن ذهنية المستوطن ،من أهم أعماله"كاسار البربري"سنة 1921،"مدينةالنحاس"1923،"بيض في مدينة السود"1935،للمزيد ،انظر:

Lebel (Roland), **Etudes de littérature coloniale**, J. Peyronnet, paris.

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة) ، **المجتمع المسلم والجماعات ....**،المجلد الثاني ،المرجع السابق،ص،ص426، 427.

[2]-المرجع نفسه،ص-ص434-437.

[3] - Cantier(Jacques) , **L'Algérie sous le régime de vichy,** Edition Odile Jacob ,Paris-2002, p305.

معلمون ،متقاعدون من الجيش ،وإلى غاية هذا التاريخ لم تضم المدرسة إلا كاتب أهلي واحد ، وهو عبد القادر فكري (الحاج حمو)[1].الذي نشر رواية **"زهراء إمرأة المنجمي"**عام 1925 ، ولعلها أول رواية جزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية[2].

فمن جهته كان **"جان بوميي"** يرى في أدب هذه المدرسة أدبا جديدا ومختلفا في الأسلوب والموضوع وحقل الدراسة أدب الميتروبول ،ولذا نراه يلخص ذلك بقوله**:"نحن جزائريون، ولن نكون إلا كذلك ، ولسنا غرباء،فبخلاف مفكري الميتروبول ،فأسلوبنا هو الطريقة الأفضل والأمثل في الكتابة دون إهمال عن ديكور و مظاهر وقوة الحياة بالجزائر"**[3]

يعبر **"فرديناند دوشان"** بحق عن تيار الجزأرة بمعناه المثالي المهتم بدمج الأهالي الثقافي والحضاري في الجزائر الجديد المنفصلة عن فرنسا ،باهتمامه في التأصيل للرواية التحديثية عن معاناة الأهلي وضرورة تطويره .ولذا جاءت معظم رواياته **"البربريسك،تاميلا"**،إلى رواية **"في أسفل الجبال الخالدة"**(1925)،**"قامير إمرأة عربية"**(1926)،**" الجزائر"** (1930)**"منى كشير كسكسي"**(1929)[4]واللذان تحصل من خلالهما على الجائزة الأدبية للمئوية ،والتي منحتها باريس،إلى جانب روايات أخرى تصب لخدمة فكرة التمازج العرقي[5]

في الثلاثينيات من القرن الماضي أخذ الشعب الجزائري يستفيق تدريجيا من سباته العميق،ويتحرر من عالم الأسطورة ليندمج في الصيرورة التاريخية ،وتم ذلك نتيجة انتشار المد الاشتراكي والوعي الطبقي واتساع رقعة الحركة الوطنية ورواج الأفكار القومية وتغيير موازيين القوى الإقليمية والدولية ،فقد كان للزلزال الكبير الذي أحدثته الحرب العالمية دورا في خلخلة المعتقدات الاستعمارية وتفجير الأساطير الأدبية الاستعمارية ،التي وجدت نفسها بدون مرجعيات وبدون تقنيات ،وبدأ معها الضعف يتسلل إلى تيار الجزأريين في منتصف

---

[1] - Cantier (Jacques),op-cit,p,p305,306.

[2]-المنوّر أحمد،**الأدب الجزائري باللسان الفرنسي :نشأته وتطوره وقضاياه**،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر-2007،ص94.

[3] - Pomier (Jean) **,chronique d'Alger(1910-1957) ou le temps des Algérianistes ,**Edition La penseé universelle ,Paris-1972,p14.

[4]-إلى جانب هذه الرويات ،كانت لفرديناند ديشان عدة روايات تناولت معظمها الواقع الأهلي المرير ،وتعقيداته المختلفة ،وبعناوين تبرز تعلق هذا الحقوقي والمستشار القانوني في محكمة الجزائر بالكتابة عن المأساة والملهاة الجزائرية ،بالرغم من أعباء المهنة .من بين أهم الروايات الأخرى ،التي لم نذكرها ،نجد رواية **"المداح"**سنة 1924،**"راعي أكفادو"**1928 ، **"السيروكو"**سنة 1946.للمزيد يرجى النظر:

- Marcel Giraud, **Un magistrat algérien homme de lettres, Ferdinand Duchêne**,Revue Algéria, N° 61, 1961

[5]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات ....** ،المجلد الثاني،المرجع السابق،ص،ص447، 448.

الثلاثينات ليفسح المجال لتيار أدبي جديد بدأ يلوح في الأفق ،والذي سمي بتيار **"مدرسة الجزائر"**،والذي فرض نفسه على الساحة الأدبية حتى نهاية الخمسينات[1]

إن كتّاب مابين الحربين في هذا التيار من مختلف الأصول العرقية للمستوطنين (فرنسيين ،أوروبيون ،متجنسون)،أو يهود (أصل أوروبي أو جزائري)كانوا يتفاعلون بدرجات متفاوتة في الممارسة والضمير أمام العلاقات الاجتماعية والأحداث الكبرى المعاشة وعقدات التناقض الموضوعي و"مالا يقوله الوصف التاريخي التقليدي ،ومع ذلك فإن أفكارا جديدة طفت إلى السطح ،وأهمها التصدي للتمييز العنصري والتنديد بمعاداة السامية ،وضرورة التعايش بين كل سكان الجزائر المستعمرة ،ويرجع كل ذلك إلى عاملين رئيسيين ،أولاهما سياسي ،والمتمثل في تراجع المقاومة المسلحة لصالح المقاومة السياسية ،وتطور مشروع الادماج من خلال طرح مشروع فيوليت و ما تبعه من تأييد كبير من أغلب رجال الفكر والسياسة من الشعبين الأوروبي والأهلي ،وبالتالي شعور المجموعات المختلفة بضرورة التقارب والتعايش ،وثانيها ظهور جيل جديد من الأدباء وخصوصا من الأهالي واليهود ، الذين ترعرعوا في تيار الجزأرة ،ورغم تكوينهم الفرنسي إلا أن المطالب الرئيسية لهؤلاء كانت التأكيد على قضية الهوية والوجود[2].

2-مضمون الرواية الكولونيالية ،وثلاثية "الوطن والاغتراب والأهلي" في كتابات الأدباء المستوطنين

مع الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بدأ المد الرومانسي في الانحصار ،فاسحا المجال لظهور روايات متشبعة بالروح الواقعية ،التي أصبحت تأخذ مكان الرومانسية كتيار أدبي وفني جديد ،والتي جسدها أدباء فرنسيون واستعماريون أمثال :**بلزاك ،فلوبيير ،ستاندال ،إيميل زولا** .وقد تزامن ذلك بوصول جيل ثاني من الأدباء في الجزائر ،مع هيمنة التيار الواقعي على الحياة الأدبية بفرنسا ،لذلك ولد جيل من الأدباء الكولونياليين بالجزائر تحرروا من تاثيرات الرومانسية ومعتقداتها .ومن أعمدة هذا التيار الجديد بالجزائر نهاية القرن التاسع

[1]- بودربالة (الطيب)،المرجع السابق،ص16.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ....،المجلد 2، المرجع السابق،ص-ص429-431.

عشر **"ألفونس دودي"** الذي اشتهر برواياته التي عدت آنذاك من روائع الأدب العالمي واهمها:**"رسائلي من طاحونتي"** و رواية **"الشيء الصغير "**،غير أنها لم تبهر بشكل كبير الحضور الجزائري بقدر ما أظهره عمله الكبير **"تارتاران دوتاراسكون"**،الذي عد آنذاك عملا توصيفيا للجزائر ،ومن خلاله حطم القيم الرومانسية بالجزائر وهدم مقدساتها التي روجت بالجزائر،كما تناول في سياق أعماله الأدبية الاستشراق بكثير من السخرية وفضح المنطلقات التي تقوم عليها الاديديولوجية الاستعمارية بروح نقدية لاذعة[1].

وعموما، ارتبطت الرواية والأدب الاستعماري بالتيارات الأدبية السائدة بالجزائر،وهذه التيارات بعضها عالمي معروف وبعضها نشأ بالجزائر لارتباطه بالواقع السياسي والاجتماعي والثقافي،الذي عاشه الأدباء المستوطنون،فلويس برتران نقل إلى الجزائر الرواية الطبيعية الوثائقية ،كما أثرت الرواية الزولية في الكثير من الأدباء وفي مقدمتهم برتران ،الذي انبهر أمام كل المظاهر للسكان المعمرين،كان يريد أن يقول "الحياة الحقيقة "لأوروبي الجزائر كما هي وبكل ثرائها البشري الاجتماعي [2].

إن المتفحص للرواية الاستعمارية يجد بأن حيزا كبيرا من موضوع دراساتها يتناول حياة الأهالي المسلمين، مما يعطي انطباعا واضحا على الارتباط الوثيق في الحياة اليومية بين المستوطن والأهلي رغم البون البعيد في الثقافة و نمط الحياة ،كما أن عددا كبيرا من الروايات يحمل عناوين مستوحاة من الحياة الأهلية،وأهمها **"قهوة الزهو"** (1920)، **"سعادة المغربية "**(1919) ،**"اليهود أو بنت أليعازر"**(1921)للكاتبة ذات الأصل اليهودي **"أليسا رهيس"**[3]،و**"ليالي مدينة الجزائر"**(1929)للويس برتران،ومؤلفات **"لوسيان فابر"**والتي

---

[1]- بودربالة (الطيب)،المرجع السابق، ص10.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة) **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** .. ،المجلد 1،المرجع السابق،ص46.

[3]-أليسا رهيس (1876-1940)ولدت الكاتبة الجزائرية «ايليسا رايس» ، في مدينة البليدة، واسمها الحقيقي «روزين بومنديل»، من أسرة يهودية، ضاربة جذورها في مدينة البليدة، غادرت مقاعد الدراسة باكرًا، لم يكن لها إلمام كبير بالأدب، لكنها اشتهرت بإتقانها فن الحكي، ولعل طريقتها الفريدة في سرد حكايات مستلهمة، من تفاصيل الوضع الثقافي والاجتماعي السائد خلال تلك الفترة، مع إضفاء جرعات من الخيال يقتضيها التشويق، هو الذي لفت انتباه دار «بلون» للنشر في فرنسا، التي اقترحت عليها عقد بخمس سنوات، وتقديمها للقرّاء بوصفها مسلمة وصفها «اندريه جيد» بوردة الساحل، وقال عنها الكاتب الفرنسي جيل روا (1907-2000) : "ولدت من علاقة حب جمعت بين مسلم ويهودية، في البليدة، وهي المدينة التي سبق أن تردّد إليها كل من اندريه جيد، واوسكار وايلد، جسّدت بكتاباتها ميثولوجيا الدين والمحظور، ديكور الأسواق، الحرير المطرز بالذهب، روائح البخور، أصوات عصافير الأقفاص داخل الحريم : لقد استطاعت تجسيد جميع أحلامنا المشرقية"،ورغم أصولها اليهودية، تعرّضت ابنة البليدة، إلى حملة شرسة من طرف بعض اليهود، الذين اتهموها بالخداع، وبأنها تنكرت لأصولها، مدعية أنها مسلمة، وأنها شوّهت في أعمالها صورة اليهود، وعاداتهم وتقاليدهم.

أهمها"**دوجة ألف يوم ويوم**"(1946)"**باب الواد**" (1926) "**مراد1**" (1943) و"**مراد2**"(1947) ،"**بنت العربي**"(1935)للمؤلف "**جان فور صاردي**"[1].

*** إشكالية الوطن والاغتراب والتفوق العرقي في كتابات التيار الإدماجي**

تعد رواية "**دم الأجناس**" لكاتب لويس برتران الصادرة سنة 1898منعرجا هاما في تاريخ الأدب الاستعماري في الجزائر ،حيث تمهد لبداية العهد الذهبي للاستعمار ونقطة انطلاق الرواية الاستعمارية ،التي ازدهرت خصوصا خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وبرزت أسماء أدبية من مختلف طبقات المجتمع الأوروبي ومن الجنسين ذكورا وإناث ممثلين لمختلف التيارت الأدبية،والتي تمثل التوجهات السياسية والتقسيمات الاجتماعية السائدة آنذاك [2]

إن كتاب "**دم الأجناس**" وشخصيته الرئيسية "**رافاييل**"[3] ،والذي عد في وقته رائعة الرواية الفرنسية ،فقد كان عملا يجسد حياة المعمر وأعماله الكبيرة في بناء "الجزائر الجديدة"،والتي تشرق شمسها فقط على المستوطنين.ويتضح شجع المستوطن في الاستيلاء على كل شيء وعنصريته المقيتة في رواية "**السينة** "،والتي أصدرها برتران عام 1909،إذ تمثل شهادة حقيقية لأزمة مناهضة السامية وكراهية الأهلي،وصورة نمطية للحياة الأوروبية وكل ما يمثل "الجنس الجديد"[4]

اعتمد برتراند على أسلوب واقعي بعيد كل البعد عن الواقعية النقدية والواقعية الطبيعية ، لأنه ارتبط أساسا بما يعرف ب"**واقعية الأطروحة** "،التي ستضحي بالجماليات والأشكال واللغة ،بغية الترويج لمذاهب إيديولوجية معينة "استعمارية"،ممهدا في نفس الوقت لميلاد تيار انفصالي "**جنوبي** "،الذي سيظهر مع تراجع المد الاستعماري ،ويشكل لنفسه خصوصية أدبية ومقومات ومرجعيات وجماليات خاصة به،ليتحول إلى أدب مستقل عن أدب الميتروبول،

توفيت «ايليسا رايس» أو «روزين بومنديل»، في البليدة بتاريخ 18 أوت 1940، وقد خلفت وراءها العديد من الأعمال الأدبية من بينها: سعدة المغربية (1919)، غناء المقهى (1920)، اليهود أو ابنة ليازار (1921)، ابنة الباشا (1922)، ابنة الدوّار (1924)، قميص السعادة (1925)، أندلس (1925)، زواج حنيفة (1926).

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية...** ،المجلد الأول،المرجع السابق،ص،ص32، 33.

[2]- المرجع نفسه،ص30

[3]- Bertrand(Louis),**Le sang des races** ,Arthème Fayard Editeurs ,Paris –SD ,128p

[4]- المرجع نفسه،المجلد الثاني،المرجع السابق،ص،ص410، 411.

والأدب القاري،ويتمكن من الاندماج في الواقع الجزائري والتعبير عن المجتمع الكولونيالي الجديد الذي سيطر على كل الفضاءات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية[1]

يبدو أن برتران ومعه الكثير من الروائيين الاستعماريين تعمدوا في المبالغة في تصوير المجتمع الاهلي بالعالم المنزوي والمنغلق على نفسه وبالمحافظ والغارق في الوقت ذاته في البؤس والدعارة ،وإظهار الحياة الأوروبية حياة الرغد والهناء والقوة .وهذا الذي يتضح في عمله الروائي **"ليالي مدينة الجزائر"**،الذي نشره في عام 1930بمناسبة المئوية لاحتلال الجزائر[2]. وبذلك نظر لويس برتراند بعيون المستوطنين للتواجد الفرنسي بالجزائر على أنه إعادة للتاريخ اللاتنيني في شمال إفريقيا واستعادة لإرث الأجداد الذي اغتصبه العرب والأتراك ، واعتبروه الضامن الوحيد لديمومة وتفوق العرق اللاتيني في الجزائر[3].

ظهرت زمرة من الأدباء والروائيين المعمرين من أصل فرنسي،مثلوا تيار مناهضا للتيار البيكاريسكي الانفصالي الممثل للمعمرين ذي الأصل الأوروبي،وقد تناول هذا التيار الادماجي في نشاطه الأدبي والفكري مسائل عدة أهمها، مواجهة طموحات المعمرين الانفصالية ،والدعوة للادماج الكامل للجزائر في الوطن الأم .و مثل" **دوفندلبورغ** "،و"**بول و فيكتور مارغاريت** "،و "**مغالي بواسنار** "و"**إنجال ماريفال برتران**" ،و"**فرديناند دوشان** "،و"**ماريوس**" و"**أري لولون**" ،و"**ريموند مريفال**" ...وغيرهم هذا التيار.

من بين أهم الروايات التي مجدت فكرة الإدماج، نجد رواية **" المياه الباطنية"**[4]للإخوة فيكتور وبول (مارغاريت)،والتي تتناول شخصية القايد أحمد بن سالم بن ابراهيم ووفائه المتواطئ مع فرنسا ،وتلخص الرواية حكاية انضمام أحمد بن سالم كقايد في الجيش الفرنسي

[1]- بودربالة (الطيب)،المرجع السابق،ص،ص13، 14.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات** ،المجلد 2،المرجع السابق،ص،ص413، 414.

[3] - Messaadi (Sakina) ,op-cit,p25..

[4]-رواية" المياه الباطنية "للإخوة مارغريت سنة 1910،وهي أكثر الروايات الشهيرة للأخوين ،من بين الأعمال القليلة التي ألفها الشقيقان ،للإطلاع أكثر ،انظر:

- Margueritte (Paul et Victor) ,**L'eau souterraine,** Illustrations de A.de Parys cartonné idéal bibliothèque Pierre Lafitte &Cie, Paris- 1910.

للانتقام من فرنسا بالحيلة وليس بالقوة، وعمل على تزويج ابنته عائشة بعد تخليها عن الدين الاسلامي من ضابط فرنسي ، وهذا الارتباط يدعم مشاريع ومصالح سي سالم [1].

لا تخلو هذه الرواية من رموز ورسائل قوية ،فالإخوة مارغريت يعبران عن التخوف السائد في المجتمع المستوطنين من فكرة إدماج الأهالي،وإمكانية انتزاعه لمزايا ومكاسب المستوطن،كما تظهر مسألة تخوف الفرنسيين الدائم من الثورة العارمة للأهالي ،إنها القضية الدائمة التي تؤرق المعمر الفرنسي .

أما "**مغالي بواسنار**" فرغم قضاء فترة طفولتها وسط العرب الأهالي ورغم اهتمامها بالحياة المسلمة والكتابة عن تفاصيل المجتمع المسلم وطابوهاته ،لا سيما فيما يتعلق بالمرأة ، والذي يظهر في مؤلفاتها مثل "**استنفار في الصحراء**"سنة 1916،"**سلاطين تقرت**"(1933) "**الطفل الساكت**"سنة 1922،ورواية" **الكاهنة** "سنة 1925 ،رواية "**معاديث**" ،والتي نشرتها عام 1922. إلا أنها لا تخفي قلقها هي الأخرى حالها حال الإخوة مارغاريت من الوضعية العامة والبؤس الذي يعشيه الأهالي وتداعياته على مستقبل المستوطنين والمستوطنة وهذا الذي عبرت عنه في رواية " **الاستنفار في الصحراء**"بالقول": **لا تؤمنوا بالإنتصارت الصغرى التي تأتينا عبر الرسائل ،حتى تطمئنوا على هدوئنا،لأنها مخادعة كالخطب**".[2]

إن هذه الرواية والروايات الأخرى لأدباء هذا التيار تعبر عن الأجواء الاجتماعية السائدة نهاية القرن التاسع والعقود الأولى للقرن العشرين ،وتعبر عن الانقسام داخل مجتمع المستوطنين والعنصرية والخوف من الآخر .وهذا ما يفسر الدعوة الضمنية لهؤلاء للتصالح مع الذات والأخر عبر "**الإدماج الشامل للجالية الفرنسية الكبرى**".

سيطر المنظور الإثنوغرافي على هذه الكتابات التي احتفت بالمظاهر الخارجية للثقافة الأهلية :السكن ،الأكل ، الرقص، الفولكلور ..وكل ما يتصل بالعادات والتقاليد والأعمال اليومية ،حنطت هذه النظرة الإنسان الجزائري وأفرغته من ديناميته وفاعليته وإنسانيته

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ،المجلد 2،المرجع السابق،ص389.
[2]- المرجع نفسه ،ص،ص392، 393.

وكينونته التاريخية ،بحيث لا نلمس فرقا بينه وبين المظاهر المادية الأخرى المشكلة للمشهد العام في الجزائر،مما يوحي بأننا أمام جماعات بدائية معزولة في الزمان والمكان وخارج التاريخ .وقد أسهم الفرد الجزائري لاشعوريا في غالب الأحيان في ترسيخ هذا الانطباع لدى الملاحظ الأجنبي ،وذلك بالتستر والمراوغة و الإختفاء والإظمار ،حرصا منه على المحافظة على جوهر شخصيته[1].

*** تمازج الأعرق والتعايش في الوطن الجديد "من البيكاريسكي إلى الجزأرة"**

رأت حقبة 1895-1920،انفتاحا أدبيا مثلته نخبة من الأسماء الأدبية هدفت إلى التعبير عن أنواع الذهنيات الممثلة للأعراق الأوروبية،وأسست لهوية خاصة بها في وسط يعج بالأجناس التي تناصبها هذه الأقلية الأوروبية العداء والعنصرية ،وهم العرب واليهود وحتى المستوطنون من أصل فرنسي .إنه تيار **"البيكاريسكي الجديد"** الذي مثّل الانفصاليين بالجزائر

يمثل **"روبار راندو"** و"أوغيست روبيني" المعروف بالاسم المستعار **"موزيت"**،ولويس برتران ،وستيفان شازري ،وجون أنطوان ناو،وغيرهم من الأدباء الكبارلمدرسة أدبية حديثة حداثة وجود هؤلاء في الجزائر. ممثلة لفكر الأوروبي الباحث عن السيطرة والتي من خلالها يسعى لإثبات وجوده في الجزائر .

كان الهدف الايديولوجي لهؤلاء هو إبراز الهوية على المستوى اللساني وإظهار من خلال الكتابة الأدبية الإرادات الاستقلالية أو الانفصالية للمستعمرة الأوروبية ،والتعريف بقوة وقدرة تفوق الرجل الأوروبي في الجزائر، فالمستوطن أصبح في المخيلة الجماعية جزائريا **: "نحن (الجزائريون)الدم أسخن من فرنسا ..."مثلما رددوا في روايات كغايو ،وبابيت وبلطراز"**[2].

إن المتأمل في المؤلفات الاستعمارية خصوصا لدى الأدباء الأوروبيين(غير الأصل الفرنسي)خلال العشريتين الأوليتين من القرن العشرين ،يجد بأن الواقع المتعدد الأعراق للسكان الأوروبيين قد تم إقحامه في التمثيل اليومي.إن مشاهد حسن التعامل تشهد في الواقع

[1]- الطيب بودربالة "،المرجع السابق،ص08.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ،المجلد 2،المرجع السابق،ص262

وفي سياق خاص على أخلقة السلوكيات داخل المنظومة الاستعمارية، لكن الحقد العام لأوروبي الجزائر تجاه الإدارة الاستعمارية يفصح عن نفسه في **"الهزل من فرنسيي فرنسا".**ولذا فالكاتب الأوروبي يرى نفسه أقلية في المستوى الديموغرافي في الجزائر،غير أنه لا يقتسم نفس "مشاعر الرفض" مع الأهالي في مقاومتهم للسلطة الاستعمارية [1].

تعد سلسلة" **قصص كغايو**" للأديب أوغيست روبيني(موزيت) أهم ما يعبر بدقة عن الأدب البيكاريسكي ،والتي ظهر عددها الأول في عام 1895على شكل قصة عرفت باسم **"كغايو شخصية جزائرية"**،ولنجاحها الكبير والشعبية التي لقتها شخصية كغايو، واصل موزيت في إصدار مجموعات أخرى باسم كغايو ،وهي **"غراميات كغايو"**(1898)، **"كغايو ضد اليهود"**(1899)،**"كغايو في الثكنة"**(1899)،**"كغايو مترشح"**(1902) ،**"كغايو في البلدية"**، **"كغايو في الحفلة"**(1905)،**"كغايو في الكفاح"**(1909)[2].

ظلت سلسلة كاغايوس تصدر لما يقارب ثلاثة عقود(1891-1920)، في إصدارات أسبوعية قليلة الصفحات ،قد لاقت هذه السلسلة الأدبية الساخرة رواجا كبيرا ليس لثمنها الرخيص وإنما لأسلوبها المتميز في معالجة واقع المستوطنين بأسلوب تهكمي وكوميدي بارع وكانت اللغة المستعملة هي اللهجة الشعبية(**plebeian dialect**[3])لأصحاب الأقدام السوداء الحضريين ،وهي اللهجة التي أطلق عليها للتفكه **"باتاويت"(pataouéte)**،وهي عامية فرنسية "باتوا"طعمت بأشكال لفظية وصرفية من اللغات الاسبانية والايطالية والمالطية والعربية ،وإذا كانت هذه القصص قد لاقت شعبية لدى الطبقات الدنيا من المستوطنين ،فإن الطبقات العليا قد تقززوا من لغتها السوقية [4].

إن سكاتشات كغايو هي إيحاء من العالم المصغر للفرنسيين (العاصمي)،وهي لوحات حقيقية عن سلوكات شعبية عن مدينة الجزائر المستعمرة.كما تمثل نوعا من وقائع الحياة

---

[1]- المرجع نفسه،ص362.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ،المجلد 2،المرجع السابق،،ص،ص307،308.

[3]-لهجة أوروبي الجزائر "العامية أو ما يصطلح عليه بplebeian dialect ،هي خليط من الكلام المستحدث والهجين بين اللغة الفرنسية والاسبانية والأيطالية وعدد من الكلمات العربية ،أي اللغة الدارجة والعامية للأقلية الأوروبية في الجزائر ، أنظر:

- Robinet (Auguste),**Cagayous à la course**, **Cagayous au miracle** ,Imprimerie Victor Rollet, Alger, Préface.

[4]- سعدالله(أبوالقاسم)، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**،الجزء الرابع،ط1،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1996،ص-ص50-52.

الاستعمارية ،وتبين الذهنيات لدى الجاليات المتنافرة عند أوروبيي الجزائر ،وإذا تصفحنا على سبيل المثال "**كغايو ضد اليهود**"فإن القصة تترجم الحالة السياسية التي عاشتها الجزائر نهاية القرن 19خلال أحداث المعادية للسامية ،سنجد الكتيب "الترفيهي"غير "برئ" يساند كغايو و بصراحة النشاط المعادي لليهود،كما أنه مناصر لشخصية "**ماكس ريجس**"ويحتقر دريفوس ويهين زولا ويقزم مستهزئا عالم اللصوص"الاشتراكيين الموالي"لليهودية العالمية"[1].

بالرغم من أنها كتبت بلغة أوروبيي الجزائر الركيكة ،والبعيدة عن لغة فولتير وبأسلوب ساخر وتهكمي نجد أن سكاتشات 10سنتم أو زوج سوردي قد شكلت متنفسا لأوروبي مدينة الجزائر من هموم يومياته المضطربة، و تصويرا دقيقا لتفاصيل واقعه المعاش ،ففي سكاش المعنون ب"**كاغايوس في العجب**"« **Cagayous au miracle** » ينقل لنا موزيت جانبا من حياة المستوطنين البسيطة ،حياة لا تخلو من الشعوذة والاستعانة بالسحر والتداوي بالطب العربي ،لمعالجة الأمراض المستعصية التي نزلت من السماء وعجز الطب الأوروبي الحديث في إيجاد شفاء لها ، فقد مثلت حاجة أوروبيي الجزائر للأهالي في هكذا مناسبات ، وخلال فترة التعايش الذي تواصل إلى غاية رحيل الأقدام السوداء من الجزائر جانبا من الاستنجاد بخبرة صاحب الأرض الأصلي [2]. إن كاجيوس هي نموذج للإنتاج الثقافي ويوثق بدقة لعقلية أوروبيي الجزائر فقد أبدع الأديب أوغست روبيني،الذي عاش بمدينة الجزائر وعمل فيها كصحفي وعضوا في الوظيفة العمومية بمدينة الجزائر في نقل لنا يومياتهم تحت اسم مستعار "موزيت"،استمرت في الظهور بين 1894 و 1920[3]

كتب الكاتب "**أوديزيو غابريال**"[4] ،وهو أيضا من المدرسة الأوروبية في كتابه "**شباب المتوسط**" عن موزيت:"**إذا سألته هل أنت فرنسي سيجيب لا نحن جزائريون**".هذا جواب

---

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات ..**، المجلد 2،المرجع السابق،ص،ص398، 399.

[2] - Robinet (Auguste),**Cagayous au miracle** ,Imprimerie Victor Rollet, Alger- 1905,p,p03,04.

[3]- Calmes (Alain) ,**Le roman colonial en Algérie avant 1914**, Le Harmattan, Paris- 1984,p08.

[4]-أوديزيو غابريال ،من مواليد مارسيليا 27جويلية 1900من عائلة فنية عملت في المسرح انتقل رفقة أبيه سنة 1919 للاستقرار في الجزائر العاصمة بعد توليه رئاسة دار الأوبرا ،يعد أوديزيو أحد أعمدة الأدب المتوسطي والتيار الجزأري في الجزائر ،من أعماله الأدبية ،رواة ثلاثة رجال ومنارة"الصادرة سنة 1927،"رفقاء ليرغادور"1941.للمزيد أنظر :

- Alhau(Max), **Un écrivain méditerranéen : Gabriel Audisio**, Paris, Université de Paris III (thèse de doctorat en Lettres, sous la direction de Michel Décaudin), 1982

ينم عن النزعة الانفصالية التي ظهرت عند أوروبي الجزائر.وشخصية كغايو **"غافروش باب الواد"** تجسيد رمزي للشعب الجزائري "الجديد"،الذي سمي لاحقا **"الأقدام السوداء"** دعاته أدباء أمثال موزيت إدموند بروا،وألبار كامو[1].

وفي اعتقاد **"آلان كالم Alain Calmes"** ،كما لدى الكثير من النقاد والمتتبعين للأدب الكولونيالي بأن النكت التي أوردها موزيت في قصصه "كاقايوس " على الرغم من أنها قدمت لنا فهما للواقع المعيشي آنذاك ،إلا أنها تبقى تصنف ضمن الأدب الركيك ،وأسلوبه الساخر والتهكمي لا يخرج من التفاهة والقذارة والعنصرية المقيتة والانحياز للطائفة الأوروبية،والتي تحركها كوامن الخوف الدائم من مستقبل وجودها الغامض وانتمائها القومي الممزق بين الولاء للميتروبول أو للجزائر[2].

لقد أدى ظهور الجمعيات الأدبية في العشرينات والثلاثينات إلى تطور العمل الأدبي في الجزائر،وساعدت سياسة الإدارة الاستعمارية على التحفيز على الكتابة عبر منح الجوائز الأدبية مما أدى إلى تزايد المؤلفات الأدبية لحد أصبح الكم يغلب على الكيف ،ويرجع المختص والناقد الفرنسي **"بيار مارتينو"** تدني قيمة معظم الأعمال الأدبية لتلك الفترة رغم كثرة الأسماء والإصدارات إلى أحد العوامل الهامة ،وهو الكتابة للظفر بالجوائز الأدبية،ولذا سيشهد عقد العشرينات والثلاثينات ميلاد رواية جديدة تؤسس للانصهار والتآخي بين العرقين [3].

يعد" **روبار أرنو"** والمعروف باسمه المستعار **"راندو"**أحد أبرز وجوه الرواية الاستعمارية وأب لمدرسة الجزأرة ،ويمثل هذا الكاتب الاستعماري مع لويس برتران سلطة ثقافية ومعنوية في داخل المجتمع الاستعماري ،كما يعد اشتراكيا وعضوا ماسونيا .من أهم أعماله الأدبية الثلاثية المعروفة باسم **"روايات الوطن الجزائري" "المعمرون"**سنة (1907)،**"كساء البربري"**(1911)،"الجزأريون"(1921)،إلى جانب روايات أخرى .

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات ...**، المجلد 2،المرجع السابق،ص،ص400،401.

[2] - Calmes (Alain),op-cit,p07.

[3] - Messaadi (Sakina) ,op-cit,p26.

يروج "**روبار راندو**" في رواياته ،ولاسيما رواية "**كسار البربري**" أطروحة إدماج الأهالي البربر في المجتمع الجزائري أي الأوروبي حسب مزاعم أنصار تيار الجزأرة ،أي تكوين أمة من امتزاج وانصهار الأوروبيين مع الأهالي البربر ،وهذا لا يتأتى إلا بترعرع الجنس البربري في حضارته الأصلية ثم الاندماج بالتدرج في الحضارة الأوروبية،وبذلك يبتعد عن الخط الإيديولوجي لبرتران الذي يقصي الأهالي فيما يتعلق تكوين الأمة الجزائرية ،إلا أنهما يجتمعان في فكرة موحدة ،وهي ضرورة صقل شخصية المعمر من الأنانية والجشع والتعطش للسلطة ،وهي صفات تفكك مقومات الأمة الجديدة ،وكل هذا صوره راندو في رواية المعمر [1].

يظهر راندون في كتاباته عتابا قاسيا للكتاب الفرنسيين،منتقدا أعمالهم الأدبية والفكرية،التي تفتقر للإرادة الحقيقية وللموضوعية الثقافية في معالجة المشكلة الاستعمارية، فمذهب الجزأرة بالنسبة إليه هي فضاء لكل الجزائريين ،في جزائر جديدة " الوطن الجديد للأوروبيين"[2]

يرى الكثير من النقّاد ،أنه في الوقت الذي كان فيه راندون يسعى لوضع الأطر العامة لأدب فتي يبشر بولادة جزائر جديدة ،كان الأدب الساخر لموزيت يتوارى ويختفي من المشهد الأدبي العام ،ويفقد رويدا سلطته وأبوته على المنتوج الأدبي لأوروبي الجزائر بالرغم من أن هناك مثقفون فرنسيون ، من أمثال "**بيار ميل**" **Pierre Mille**، ظلوا يعتبرون كتاب "**كيجايوس**" هو العنوان الأصلي والحقيقي الوحيد للأدب الاستعماري[3]

أراد" **فرديناند دوشان**" في رواية "**قامير إمرأة عربية**"جلب انتباه السلطات لاستعمارية إلى التمييز داخل المجتمع الأهلي،وإلى قضية تعدد الزوجات وبزواج المراهقة مريم بشيخ طاعن في السن،وهذا النوع من المواضيع هو الغالب في الكتابات الأدبية الاستعمارية بين الحربين ،والتي تتناول حياة المرأة وبالخصوص المرأة البدوية في الصحراء والأمازيغية في بلاد القبائل و الأوراس والدعوة إلى تحررها من القيود العرفية[4]. أما في روايته "**منى كشير وكسكسي** "وصف دوشان العالم الذي تصبو إليه مدرسة الجزأرة ، وهو العالم الأخوي بين

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات ...**، المجلد 2،المرجع السابق،ص،ص419، 420.
[2] - Messaadi (Sakina) ,op-cit,p26.
[3] - Calmes(Alain),op-cit,p49.
[4]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية ...**، المجلد 2،المرجع السابق،ص،ص448،449.

الأطياف المكونة للجزائر "**يهود موريسكيين أوروبيين**"،فمنى هي حلوة باسكال للأوروبيين ،أما كشير فهو مجموع الأطباق الطقسية اليهودية ،والكسكسي يمثل الطبق التقليدي للمسلمين الأهالي .فالرواية هي إذن نقل معين للخيال للمجتمع الاستعماري في المدن الكبرى[1] .

تترك هده الرواية وغيرها في ذهن القارئ لها انطباعا وفهما للحالة النفسية التي تعتري رواد هذا التيار الحالم بجزائر جديدة منفصلة لكنها متسامحة مع ذاتها وموحدة بتناقضاتها .

غير أن "**فردناند دوشان**" لم يبتعد عن الخط الفكري الذي انتهجه معظم متبنو تيار الإدماج ،ففي روايته"**فرنسا الجديدة ،سلوكيات جزائرية** "،الصادرة سنة1903،يتطرق دوشان إلى تمرد الجزائريين الأهالي لسنوات 1900-1901ومهاجمتهم لقرية القديسة مارغاريت قرب مليانة ،ويعطي نظرة كارثية لعصيان الأهالي باسم"قداسة الإسلام "،محملا الأوروبيين وانقسامهم السياسي مسؤولية الحادث[2] .وتترك هده الرواية وغيرها في ذهن القارئ والدارس لها انطباعا وفهما للحالة النفسية التي تعتري رواد هذا التيار الحالم بجزائر جديدة منفصلة لكنها متسامحة مع ذاتها والموحدة بتناقضاتها .

تبرز شخصية الكاتب" **لويس لوكوك**"[3] كأحد مؤسسي هذا التيار،غير أنه يمتاز بأنه أقل منتسبيه تطرفا وأكثر قربا من التيار الانساني،ومثلت كتاباته ورواياته "**خمسة في عينيك**" (1924)"**بروميتش والقبائلي**" (1921) "**شمس**" (1928)"**الجنتان**"(1928).... غيرها من المؤلفات الأخرى ،حيث انتقد فيها الجماعة الأوروبية (غيرالمتجانسة والمنقسمة والمتقوقعة)ودافع عن تعليم الأهالي ودعى إلى احترام الدين .وبالتالي فهو يظهر من خلال كتاباته معاد للتوجه البيكاريسكي من جهة وغير متحمس للتيار الجزأري من جهة ثانية وباختصار بحث عن وطن متنوع وللجميع "وطن متوسطي"[4]. ونلاحظ هنا أن لويس لوكوك لا يحمل الفكرة

---

[1]- المرجع نفسه،ص451.

[2]- نفسه،ص394.

[3]-لويس لوكوك ،من مواليد الجزائر 1885،توفي في 14جانفي 1832،أحد أهم الكتاب المؤسيسيين للتيار الجزائري المتوسطي ،من أعماله "بروميتش القبائيلي "الصادرة بتاريخ 1920، « can » الصادرة في 1930،"خمسة في عينيك" الصادرة سنة 1925.

- lecoq(Louis),**Cinq dans ton œil**, F. Reider et Cie Éditeurs, Paris -1925.

-**Pascualette l'Algérien**, Albin Michel, Paris- 1934

[4]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ..، المجلد 2،المرجع السابق،ص-ص458-463.

لوحده،بل يقاسمه الفكرة جيل من الكتاب والروائيين برزوا بعد الحرب العالمية الثانية مثلوا تيارا فكريا عرف باسم مدرسة مدينة الجزائر أو المتوسطية ،الذين مثلهم الأديب ألبار كامو.

إن أعمال" **لولوك**" و"**لوسيان فابر** "و"**ألبار تروفموس**" تعبر على الرفض وبدرجات متفاوتة عن الانتماء إلى الجماعة الأوروبية التي ينسب إليها جميع أمراض الاستعمار .إنه قلق فيما يخص "مستقبل الحضور الفرنسي" ،والذي سيحاول منتسبوا هذا التيار الفكري أن يبرروه بأسطورة المهمة التمدينية ،وهي أسطورة الاستعمار ذي الوجه الانساني وباسم العرق لإخصاب الأرض[1].

3- الأدب النسوي الكولونيالي والنضال لتحرير المرأة الأهلية

كان للأوروبيات مكانة في الأدب الكولونيالي ،وانصب معظم أدبهن في الكتابة عن معاناة المرأة بشكل عام والمرأة الأهلية بشكل خاص، فمن أكثر الأديبات احتكاكا بالوسط الأهلي خصوصا القبائلي نجد "**ماري بوجيجا**"، والتي أمضت مايقارب 40عاما في اتصال يومي مع الأهالي عربا وقبائل ،اختلطت بأفراحهم وآلامهم ،وهي كما تعرف نفسها في إهداءات كتبها على أنها امرأة جزائرية وليست باحثة ولا مناضله نسوية مثل "**هربرتين أوكلار**".

أسر الشرق خيال "**بوجيجا** "واستلهم قريحتها الأدبية للكتابة ،تحديدا فيما يتعلق بقضية المرأة الأهلية ،ولعل رواية :"**إخواتنا المسلمات**" (1921)و"**مناظر من الجزائر**" (1929) هو يندرج ضمن ذلك.لكن ما هو طريقها في الاكتشاف لواقع المرأة الأهلية.إنه طريق التعايش اليومي الذي ساعدها في إبطال خرافة المرأة المسلمة في الخيال الفرنسي ،ونقلت بكل سلاسة وبساطة حقيقة المرأة الأهلية للقارئ الفرنسي،حيث انكبت "**ماري بوجيجا** "رغم انتمائها للمجتمع الأوروبي المرموق في الكتابة عن العلاقات العربية الفرنسية كالزواج المختلط،الذي تراه الوسيلة لتقريب الأهالي بالفرنسيين ،كما تناولت مشكلة اللغة والحجاب ، وتنتقد في كتاباتها عن الحجاب الآراء والأفكار الرائجة لدى المستوطنين باعتباره عائقا للتواصل

[1]- نفسه،ص-ص429-431.

الاجتماعي :"**فالحجاب الذي يحيط المسلمات ليس غامضا إلا على اللائي لا يعرفن رفعه.إن كل أمنيتها هو تطور المرأة وتعلمها وانصهارها في "العائلة الفرنسية الكبيرة"** [1]

إن البحث عن نقاط تشابه وتقارب بين الشعبين الأهلي والأوروبي هي أبرز اهتمامات الأدب النسوي،فالكاتبة "**ماتيا غوردي**" بحثت عن هذا الفضاء المشترك في المرأة الشاوية في الأوراس التي ألهمها حريتها في عدم لبس الحجاب ،الشيئ الذي أثار فضولها في الكتابة على المرأة الشاوية وامكانية دمجها في الوسط الأوروبي ،بل راسلت الحكومة الاستعمارية لتعليم المرأة الأوراسية ،لأنها حسب اعتقادها مؤهلة للاندماج مثل المرأة القبائلية[2].

ومن جهتها برزت "**جان فور صاردي**" باعتبارها روائية مستوطنة متمردة عن الأعراف السائدة داخل الأقلية الأوروبية ،ومناضلة فذة جاهدت لتحرير المرأة المسلمة ،فهي تقترب من "**ماري بوجيجا** "و"**مغالي بواسنار**" و"**لوسيان فابر**"و من الكثير من الروائيات في المواضيع المتناولة .إذ تثير قضايا الزواج المختلط ،معاناة الأهالي من النظام الكولونيالي ، فكرة الادماج....إلخ اهتماماتها الأدبية.

ومن جهتها تمثل "**إيزابيل إبرهارد** "[3]مثالا للأديب الرافض لغطرسة المستوطن على الأهلي والقوانين التي تحكم العلاقات بينهما،فقد حملت رواياتها "**بلد الرمال**"التي نشرها "**روني لويس دوايون**"سنة 1944،و"**في الظل الدافئ للاسلام**"1906 "و"**الفوضوي**"(1923) و"**ملاحظات الطرق**"(1908)و"**صفحات إسلامية**" سنة1920والتي نشرها "**فكتور باروكند**"و"**تريمادور**"(1922)،و"**حكايات ومناظر**" (1925) [4].

---

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة) ، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية ...**، المجلد 2،المرجع السابق،ص479، 480.

[2]- المرجع نفسه،ص،ص482،483.

[3]- أديبة وصحفية روسية الأصل سويسرية المنشأ ،عاشت في الجزائر واستقرت في عين الصفراء والأوراس،اعتنقت الإسلام توفيت في ريعان الشباب عن سن لا يتجاوز السابعة والعشرون،عانت الأزمات النفسية جرّاء انتكاساتها العاطفية والعائلية وتجاربها المرة،شاركت الجزائريين الأهالي ظروفهم الصعبة ومقاومتهم للاحتلال ،ألفت العديد من القصص والروايات والتقارير الصحفية تمحورت معظمها عن معاناة المرأة الأهلية من البؤس الاستعماري .للمزيد أنظر:

-إيزابيل إبرهارد،"**ياسمينة وقصص أخرى** "،ترجمة حسن دواس،منشورة في مجلة إبداعات عالمية ،العدد 390،الكويت-أوت .2012.

- Ali-Khodja (Djamel), « **Isabelle Eberhardt : regards, désirs et création d'une mystique »** , Revue Sciences Humaines , N°13 ,département des Langues étrangères , uiversité Mentouri

. Année 2000.

[4]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية ...**، المجلد 2،المرجع السابق،ص370.

أن القارئ لروايات إبرهارد ،وفي مقدمتها روايتي" **ياسمينة** "و"**تريمادور**" يكتشف فكرا وأسلوبا يظهران نبرة صدق في التعبير،خالية من التكلف و التزمت الايديولوجي ،وليست أطروحات أو مرافعات ،فهي تتناول ببساطة – بساطة الحياة التي عاشتها مع الأهالي وخصوصا البدو في الصحراء- قضايا الأهالي وحياتهم بتنوعها ومشاكلها وأفراحها ، وتحاول من جهة ثانية نقد المجتمع الاستعماري وكسر الحواجز الاستعمارية التي أنتجت العداوة بين سكان المستعمرة الجزائرية

إن رواية **"ياسمينة"** ،والتي تتمحور حبكتها في بدوية أوراسية،عاشت في إحدى قرى تيمقاد الأثرية من أسرة محافظة جدا كسرت التقاليد[1] ،وأحبت ملازما فرنسيا يسمى جاك ، فرضت عليه الظروف الالتحاق بمنصبه الجديد بالجنوب الوهراني،وبعد زواج غير ناجح رفضت ياسمينة العودة إلى بيت العائلة خوفا من إعادة تزويجها ،فاختارت الفرار منتظرة عودة محبوبها جاك .وقد أدى تعاطيها للخمر والحزن الشديد إلى نحولها وسقمها،وفي أحد الأيام عاد جاك مع زوجته **"باريزيانية جميلة"** للسياحة في المنطقة ،لما رآها اشمئز منها ونفرها لتنتهي حياتها وتموت أمالها وتذبل في ريعان صباها.فرواية ياسمينة تحمل صورة رمزية لوقائع الحياة الاستعمارية وتصور جانبا من العلاقات المتداخلة ضمنها ،فياسمينة هي الجزائر وجاك الاستعمار وموت ياسمينة هو موت رمزي للعلاقة بين المستوطن الاستعماري والأهلي[2] . أما في رواية **"تريمادور"**فهناك تمثيل عبر شخص ديمتري ،يبرز تناقض أساسي هذه المرة داخل شريحة المعمرين ،وهو رفض الجندي المرتزق أن يكون أداة للاستعمار وهو في نفس الوقت يمثله .إن التناقض في الرواية يرمز في الواقع إلى التمزق الذي تعيشه إبرهارد نفسها وكل الكتاب المحبين للعرب وكل مستوطن متعاطف مع الأهلي[3]

أما **"هوبرتين أوكلار"** ،وهي الروائية المستوطنة المعاصرة لإبرهارد ، فقد كانت حياتها كلها مكرسة للدفاع عن حقوق المرأة من كل الأعراق ،دون تمييز ،وناضلت لتحسين حالة

[1]- Djebara(Tin Hinan), **« Yasmina ou le personnage idéologique d'Isabelle Eberhardt »,** Revue des Lettres et des langues,Tlemcen,Volume6,N°8,Juin 2018,p375.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة))، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية ...**، المجلد 2،المرجع السابق،ص378.

[3]- المرجع نفسه،ص376.

المرأة المادية والمعنوية ،وانتقدت ذكورية المجتمعين الأوروبي والأهلي ،وبذلك فقد سبقت عصرها في الدفاع عن حقوق المرأة كحق المرأة في الميراث ،والطلاق ،وفي الدعوة في المساواة بين الرجل والمرأة [1].

لقد أزعجت المستعمرين حتما بتعاطفها مع جانب الأهالي،وكذا حكاياتها العنيفة ، فروايتها:"**النساء العربيات في الجزائر**"(1900)تعد واحدة من المؤلفات النادرة المناهضة للاستعمار لأنها تطالب بالمساواة في الحقوق العامة بين كل القوميات ،وتحقيق الانصهار العرقي بين الأهالي والمستوطنين ،وانتقاد لتجنيس اليهود والنزعة الاستقلالية لأوروبي الجزائر ،وفي مؤلفها **"تحرير المرأة العربية"**،فإنها تظهر في شخصية المقاوم لسلطة الأعراف والتقاليد التي ساعدت الاستعمار في تخلف المرأة الأهلية وجهلها والمنادي بعودة المدارس العربية التي تم غلقها أمام الفتاة المسلمة عام 1861[2].

لقد كان للأقلية اليهودية ،وخاصة العنصر النسوي حضورا أدبيا قويا مطلع القرن العشرين،إذ تعد" **ماكسمليان هيلار**" و"**أليسا رهيس**" و"**بلانش بن دهان**" و"**روزاليا بن تامي**" من أبرز القامات الأدبية لفئة اليهود داخل المجتمع الاستيطاني الأوروبي في الجزائر .حيث تركت هذه الأدبيات إنتاجا أدبيا غزيرا تمحورت مواضيعه بين الاثنغرافيا وبين شيئ من **"الإغراب"** .إنها تحكي في الخيال عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للجماعة الفرنسية اليهودية .فالإشكالية المطروحة في الأدب اليهودي في المغرب العربي عموما وفي الجزائر بالأخص هي مشكلة **"الأنا والآخر"**،وتعني إشكالية الارتباط العميق بالثقافة والتقاليد اليهودية وفي نفس الوقت الحاجة إلى "الحياة" مع "الوقت" في الحداثة والفرنسية[3] .

إن القارئ لهذه الجماعة الأدبية سيجدها مرتبطة بذاكرتها وتأكيد هويتها ،ولكنها في فترة انتقالية تعرضت إلى تطور حقيقي وصادم في الوقت نفسه ،فحكاياتها تروي التناقضات والصدامات بين ثلاثة أجيال من اليهود ،لتنتج جيل متفتح ومتواصل بالمسلمين والأوروبيين

[1] - Castagnez (Noëlline) et Legoy (Corinne), « **Hubertine Auclert et la naissance du suffra -gisme** »,Parlement (s),Revue d'histoire politique,Volume 3, N° 22, -Paris 2014,p-p 153-160.

[2]- يحياوي مرابط (مسعودة)، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية ...**)، المجلد 2،المرجع السابق،ص-ص480-484.

[3]- المرجع نفسه،ص،ص502، 503.

المستوطنين .إنها همزة وصل بينهما ،مثلما سيظهر في بعض الروايات التي سنتناولها وفي بعض النماذج الأدبية.

تلخص **"ماكسيمليان هيلار"** ،والتي تعد الكاتبة الثانية بعد فرديناند دوشان التي تحصلت على الجائزة الأدبية الجزائرية الكبرى عام 1923 عن رواية **"البحر الأحمر"** التناقضات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية وانفصامها حيال الأوضاع السائدة في المستعمرة .فالرواية تدور حبكتها حول المعمر دوروك الذي قتل خماسه اسماعيل بن عمر الذي سرق له القمح ،وثأر والد اسماعيل بقتل المعمر دوروك ،وهنا يقف المحامي اليهودي الشاب إيلي ملنداس بالدفاع عن الفلاح الأهلي ،وتظهر الرواية التضامن بين المعمرين الكبار ضد الأهالي ،وخاصة المعمرين الكبار في متيجة من أصحاب المال والصناعة والإعلام .ومع ذلك تؤكد في ثناياها رسائل رمزية تعبر عن أمنيات هيلار في انصهار الشعوب في الجزائر ، وعن مطالب العدالة والإنسانية والدعوة لكسر الحواجز بين الأجناس المتساكنة ،كما تثير التحامات اجتماعية في مستقبل قريب في نظر الكاتبة مابين مختلف الجماعات .وتظهر توجسات اليهود عن الزواج المختلط اليهودي الأوروبي الذي سيكون مصيره الفشل عكس الزواج اليهودي الأهلي الذي استمر لقرون[1].

إنها الحالة المتكررة التي تعتري نفسية اليهودي في حسم الخيار بين الانتماء لماضيه المتلاحم بالأهالي ولمستقبله في الكيان الأوروبي الاستيطاني.

كانت **أليسا رهيس"** المرأة ذات الأصل اليهودية والمنتمية فكرا وأدبا للثقافة الفرنسية،تعد إحدى أهم المدافعات عن حقوق المرأة الأهلية ،فقد وصفتها دار بلون للنشر بأنها العربية المسلمة لشدة تعلقها بالمرأة الأهلية ونضالها لتحريرها من قيود التقاليد الجائرة من جهة ، ومن قهر المستعمر من جهة ثانية [2]،فهي تظهر في أدبها ولباسها وطريقة عيشها كنموذج فريد يعبر عن الانتقالية الثقافية التي مست الجيل الجديد من يهود الجزائر خلال فترة مابين الحربين ،من المثاقفة التصادمية إلى ثقافة الانفتاح على الحالة الأوروبية، مع العمل على تعريف الآخر

[1] – يحياوي مرابط (مسعودة))، المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية ...،المرجع السابق،ص،ص507، 508.

[2] - déjeux (Jean), « **Élissa Rhaïs, conteuse algérienne (1876 -1940) »,** Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, *n°37, 1984, P47.*

الأوروبي بالموروث الثقافي الجزائري المختلط (يهودي- مسلم). ولذا فإن روايات أليسا رهيس التي صدرت حسب الترتيب الزمني **"سعادة المغربية "** 1920، **"قهوة الزهو"** 1920 **"اليهود أو بنت أليعازر "** 1921،**"بنت الباشوات"** 1924،**"بنت الدوار"** 1925،**"القميص المحظوظ والأندلسية"** 1926،**"الثدي الأبيض" 1928** وغيرها تلخص لنا الحالة العامة للمجتمعين المسلم واليهودي في الوسطين التقليدي و الأوروبي مع طرح درامي لإشكالية الهوية للمجتمعين بين الحفاظ على الموروث المجتمعي والضرورة العصرية [1].

في الوقت الذي اختارت الأديبة اليهودية **"بلانش بن دهان** "الكتابة عن سلوكيات الجماعة اليهودية والمرافعة لترقية المرأة اليهودية نحو الحداثة ،نجد بأن مواطنتها**" روزاليا بن تامي** "خصصت كتاباتها للمرافعة من أجل تعليم المرأة المسلمة الأهلية [2].

4- الأدب الجزأري المتوسطي ، نحو أدب جديد يكرس لثقافة التعدد والتعايش: انصب بحث الأدباء من الفرنسيين و الأقدام السوداء خلال الربع الأخير من الحياة الاستعمارية في الجزائر 1930-1960عن إيجاد مدرسة فكرية تعبر عن الثقافة المشتركة للأعراق المختلفة في الجزائر هو محاولة فعلية للتملص من **"همجية الأجداد"**على حد تعبير **"كاتب ياسين"** ،كما تعبر عن رغبتهم في تطهير ذواتهم من آثام التاريخ الاستعماري بالجزائر .

وبالرغم من إدعاء معظم كتاب هذه المرحلة انتمائهم إلى التيار الجزأري والمتوسطي ، كتيار يمثل التعددية الفكرية والعرقية الموجودة في الجزائر،وبأن أدبهم يمثل أدبا جديدا لا يرتبط بالأدب الفرنسي البتة ،ويعبر عن الجزائر الجديدة ،إلا أن مواقف أدباء هذه المدرسة انقسمت إزاء مسألة الهوية كلما اشتد النقاش حولها،ففي الوقت الذي نجد فيه ألبير كامو وأوديزيو قد أبانا عن ولاءهما لفرنسا نجد الكاتب والشاعر جون سيناك قد اختار الانتماء لوطن متعدد الأعراق المتعايشة والمنصهرة ببعضها البعض [3] .

[1]- يحياوي مرابط (مسعودة))، **المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية** ...،المجلد 2،المرجع السابق،ص-ص514-519.

[2]- المرجع نفسه،ص-ص522-524.

[3] - Liauzu (Claude) **, « Gabriel Audisio, Albert Camus et Jean Sénac Entre Algérie française et Algérie musulmane »**, confluences méditerranée , N°33, Printemps, 2000- France,p161.

وعن هوية هذه المدرسة يقول روبرت راندون(أرنو):"**نحن جزائريون ولسنا باريسيين ...وتطبيقا لهذا المبدأ،فإننا نرى بأن :السياسة العامة،الاقتصاد السياسي،العلاقات العرقية، الشعوب المختلفة الجنس، الشارع ،المدينة،البْلاد ،الإنسان ،الأرض،البحر،جزائر إيكوزيوم وجزائر (الدزاير Djzair)،وكل المعاني والمفردات التي تلتصق بهذه الأرض سنسعى على جمعها ودمجها معا في فننا الأدبي (nihil algeriani a me alienum)**" ،وقد بدا هذا العرق الممتزج والناتج عن تزاوج المستوطنين الأوروبيين بالبربر يبشر بولادة عرق جديد "**أروبي-بربري**"،وهذا ما أراد راندون أن يقنع به الجمهور المثقف من العرقين، في روايته "كسار "« **Cassard le bèrbere** » ،وفي كتابه "**مرافقو الحديقة**" « Les **compagnons des jardins** » 1933 ،يبرز لنا راندون الحوار الساخن بين المثقفين من الجهتين الأوروبيين والأهالي حول قضية الزواج بين الأعراق والسبل الكفيلة لتحويله إلى طريقة اجتماعية وسياسية للإندماج العرقي بين سكان الجزائر الجديدة[1] .

إن النموذج الذي قدمته مدرسة الجزائر والتي عبر عنه "**ألبيركامو**" وجماعته باعتباره رؤية فنية ومذهبا أدبيا، لا يختلف في الواقع الأمر في جوهره عن دعوة "**لويس برتران**" قبله في بحث الحضارة الرومانية القديمة في شمال إفريقيا فكانت تعمد مدرسة الجزائر على تحظي الحدود القومية الضيقة إلى انفتاح على كل سكان المتوسط، وفي الحقيقة أنها كانت تسعى إلى وضع أسس أدب المتوسطي الذي يقوم على عناصر الطبيعة التي تشترك فيها كل الشعوب المطلة على المتوسط هذا في شقها الأول اما في شقها الثاني تكشف لنا الدعوة إلى تسليط المركزي الأوروبي[2]

إن هذا الاهتمام الذي أولاه أدباء هذه المدرسة من أوروبيي الجزائر لفكرة الذوبان العرقي فتح المجال لميلاد "**المدرسة الأهلية الأوروبية**"التي كما ضمت مثقفين من المستوطنين واليهود ضمت أيضا الأهالي المسلمين ،حيث أراد راندون من وراء خلق تيار أدبي تشترك

[1] - Liauzu (Claude) ,op-cit,p162.

[2]- المنوّر(أحمد) ،المرجع السابق،ص144.

فيه كل الانتاجات الأدبية و الفكرية وعصارة العقل الجزائري .ولذلك كتب العديد من المقالات والكتابات مع "**صاديا ليفي**" (يهودي) ومحمد فكري المدعو بعبد القادر حاج حمو[1]

وفي بداية الثلاثينات ظهر تيار المتوسطي كتيار أدبي وفكري موسع ،والذي تزعمه أوديزو ،و"**جون غرونيي**"« **Jean Grenier** » ،و"**ألبير كامو** "« **Albert Camus** »[2] ، وشيئا فشيئا سيأخذ هذا التيار مكانه كتيار جديد ومهين على الساحة الأدبية والثقافية الجمهور الأوروبي في الجزائر[3]، وباستثناء أوديزيو وجون غرونيي ذو أصل ميتروبوليتاني ،فإن معظم أدباء هذا التيار من أصل متوسطي (اسباني –ايطالي)،وهذا ما يفسر النزعة المتوسطية لهؤلاء ،وقد صنعت الأحداث التي ميزت الجزائر،مثل الاضطرابات التي عاشتها قسنطينة عام 1934، ووصول الجبهة الشعبية ،وخطابها العنصري الموالي للأهالي – كما يدعي غلاة المستوطنين- والحرب الأهلية في اسبانيا وتأثيراتها الممتدة لعمق الوسط الاسباني في الجزائر،كلها عوامل أثرت على التوجه الأدبي والفكري وعلى نوعية السرد والخطاب لفئة من فاعلي هذا التيار[4].

يرى كامو بأن التيار المتوسطي ليس أدبا فحسب ،بل هو واقع ملموس وفيزيائي ،ففي مقاله"**سياسة وثقافة متوسطية**" « **Politique et culture méditerranéenne** » ، يقول :"**إن رائحة المتوسط لا نعبر عنها، بل نحس بها تخترق مسامات بشرتنا** "،وباريس بالنسبة إليه مدينة لا تغريه ،ولا تقارن بجمال مدينة الجزائر،:"**أن باريس هي الجحيم بالنسبة لي ،فهي عبارة عن مستنقع موحل ،وشوارعها الطويلة الرمادية لا تنتهي تملأها الأجساد المرتدية السواد ،أما الجزائر فهي دافئة دفئ جسدي ،هي تلك الفرحة الغريبة التي تنزل من السماء نحو البحر** "، إنها فضاء مشترك يلتقي فيها الشرق الحضاري بالغرب،وسيسمح التقاء

[1] -Liauzu (Claude) ,op-cit,p162.

[2]-هذا المستوطن المتناقض المشاعر ،الذي يظهر التعاطف حينا مع الجزائريين الأهالي ،ويكشف في مرات عديدة عن أصوله الأوربية ،ويرفض الإدلاء بأي اعتراف في حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره خلال كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي ، ولد في 13 نوفمبر 1913بموندوفي سابقا "الذرعان "حاليا ،بعد أستكمال دراسته في ثانوية "بيجو" بالجزائر العاصمة ،درس الفلسفة ،وتأثر بمبادئ"نيتشه" الوجودية ،التحق بجريدة صدى الجزائر ،ليعمل بها سنوات عديدة ما بين(1937-1940)لينتقل إلى جريدة "الجزائر الجمهورية "لسان حال الجبهة الشعبية .كتب في الأدب والمسرح والسياسة،من كتبه "الغثيان"،"عارنا في الجزائر""الغريب" والتي تحصل بها على جائزة نوبل للأدب

[3] -Keling (Wei), « **Le premier homme. Autobiographie algérienne d'Albert Camus »**, Revue Études littéraires, Volume 33, N03, Département des littératures de l'Université Laval automne 2001 ,P131.

[4] Liauzu (Claude) ,op-cit- ,p,p163,164.

التاريخ والجغرافيا فيها بنشأة العبقرية المتوسطية"، نفس الشعور بالانتماء للمدرسة المتوسطية نجده عند جون غرونيي :" **إنها فكرة ترسلها أشعة الشمس ،ويجود بها البحر"**[1].

وبالنسبة لأوديزيو دائما ،فالأدب المتوسطي يندرج ضمن سياسة صهر الأجناس ،فهو يبني معتقده الفكري على مبدأ تاريخي وانثروبولوجي بحت ،ففي اعتقاده ،فإن البحر المتوسط لم يكن عبر تاريخه مجالا لممارسة الجهاد والحروب المقدسة في معظم الأوقات ،بل كان أيضا للتقارب الحضاري وجسرا لعبور الحكمة والمعرفة بين الضفتين، ففي كتابه الشباب المتوسطي ،يقول:"**إن هذا الشعب الفذ ،الناتج عن تعدد اللغات (Languedociens) ،ومن مقاطعات أوروبية عدة،هو طور النشأة والظهور ،ليشكل الجزائر،فهو خلاصة امتزاج الأعراق المتوسطية ،والذي شكلت الثقافة الفرنسية اسمنت تماسكه"**[2].

ويرى المؤرخ الفرنسي "**كلود ليوزو**" بأن أدب كامو يعكس نظرته وانطباعه نحو الأهالي ، فلم تثير فضوله أبدا مشكلة الأهالي ،ولا أبدى اهتماما فعليا للتقرب من الحضارة العربية ومقوماتها،التي تمثل الرصيد الحضاري لهؤلاء،فعكس أوديزيو الذي تعلم اللغة العربية وتعرف على ثقافتها الغزيرة خلال دراسته للتعليم الاستشراقي في جامعة الجزائر خلال سنوات العشرينات ،فالجزائر بالنسبة إليه وإلى الكثير من بني جنسه قطعة متوسطية ،تنتمي للعرق اللاتيني ،ولم يطرح مسألة الأهلي إلا في مناسبات قليلة ،ففي كتابه **"الرجل الأول"« Le premier homme »** يبرز نوعا من العاطفة اتجاه الأهلي،وهذا مقتطف مما جاء:"**إنه الحضور غير المرئي،غير أنه ثابت ،إنه الشعب المثير والحائر ،قريب منا غير أنه معزول ،وكنا نعتقد أن الصداقة والرفقة تجمع بيننا ،إلا أنه كلما حل المساء ،يعدو إلى هذا الشعب ليختفي في منازله غير المعروفة والمعزولة "** [3]. بالرغم من ذلك ،وبالرغم من الآراء المتضاربة حول مواقف كامو السياسية والانسانية ، فقد كان لأدب كامو وتيار الجزأرة ومعه ما يسمى بالأدب المتوسطي -بشكل خاص والأدب الفرنسي الكولونيالي بشكل عام-،تأثير واضح ،ولا يمكن نكرانه ، في ظهور نخبة من ألمع الأدباء الجزائريين ،أو ما عرف عنهم

[1] -Ibid,p,p164,165..
[2] - Liauzu (Claude) ,op-cit,p,p164,165.
[3] - Ibid p,p166,167.

آنذاك بالأدباء الأهالي ، فتطور الحالة الثقافية في الجزائر وازدهارها قبل وبعد الحرب الكونية الثانية ،والزخم الأدبي الكبير الذي ميز تلك الفترة ،والانفتاح العام للجزائريين على الثقافة الفرنسية كان له دورا في ظهور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسي.

5-تأثيرات الأدب الكولونيالي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

لقد تركت اللغة والأدب الفرنسي أثرها على الأهالي الجزائريين،ولاسيما النخبة المثقفة منهم ، حيث كان للمدرسة والاحتكاك في النوادي الفرنسية ،وارتياد المحافل الأدبية والإطلاع على الأدب الذي كتبه أوروبيو الجزائر أثرا عظيما في ميلاد نخبة جزائرية مفرنسة ، اختارت من اللسان الفرنسي وسيلة للكتابة والتعبير عن هموم وقضايا الشعب الجزائري .

ومثلما كانت بداية النهضة السياسية في الجزائر نهاية القرن19ومطلع القرن العشرين عسيرة ،كان أيضا تجدد الأدب الجزائري وانبعاثه بعد سنوات وعقود طويلة من الركود عسيرا وبطيئا كذلك. حيث تجدد الأدب الجزائري على يد قلة من الأدباء ،الذين وجدوا في انتهالهم من الأدب الفرنسي والعالمي وسيلة لتجديد الأدب وإعطائه مواصفات الأدب الحديث .

غير أن الرواية الأهلية المكتوبة بالفرنسية عكست آنذاك نفسية النخبة المفرنسة، التي كان خيار الانسلاخ من الهوية الأصلية بالنسبة لأغلبيتها مغامرة مليئة بالغموض ،وركوب موجة التغريب والانكباب على الثقافة الفرنسية ليس مجرد وسيلة للاندماج أو فرصة للتحضر أو للكسب والارتزاق ،وإنما مثل ذلك هجرة طوعية نحو عوالم جديدة لا تحكمها القيود الفكرية ولا القوانين الدينية التقليدية ،فالكتابة بالفرنسية بالنسبة لها عملا إراديا وتحرريا [1].

إلى جانب نخبة الكتاب نجد كذلك شعراء جزائريون كتبوا باللسان الفرنسي ،إذ يبدو أن نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين،كانت مرحلة جادت فيها قريحة الأهالي الجزائريين بما تملك ،وتفجرت فيها موهبة الكتابة والإبداع للمثقف الأهلي في مختلف المجالات الأدبية والفنية ،وكما كان الإنتاج الأدبي والفني غزيرا باللغة العربية ،كان كذلك

[1] - déjeux (Jean) ,**la littérature maghrébine d'expression française,** 1er Edition , *que sais- je* ? ,presses universitaires de France, Paris-1992,p14.

باللغة الفرنسية،ولا يفسر كل ذلك إلى تأثير المحيط والمدرسة فحسب ،وإنما لحاجة هؤلاء للتعبير عن كوامن النفس من معاناة وقهر ،وتوصيل رسالة المستضعفين إلى المستعمر باللغة التي يفهمها هو. ومن هنا ،كان الكتاب الجزائريون الذين كتبوا بالفرنسية ونهلوا من مصادر الثقافة الفرنسية نتاج ظروف تاريخية محكمة،عايشتها الجزائر ،وانعكاس للاحتكاك الطبيعي لاختلاطهم بشعبها المستعمِر الذي لايتكلم إلا الفرنسية ،وكانت الثقافة المسموح بها آنذاك هي الثقافة الفرنسية فحرمان الجزائريين من لغتهم جعلها لغة غريبة ويتيمة كادت أن تموت[1].

لقد كان لقاء الأديب الفرنسي الشهير " **أندري جيد**" بالشاعر "**عثمان بن صالح** "عام 1896 إيذانا بميلاد الشعر الأهلي المكتوب بالفرنسية، ثم تبعه الكاتب "**أحمد بوري**"الذي ألف أول رواية مسلسلة بعنوان "**مسلمون و مسحيون**"التي نشرها في صحيفة "الحق "الوهرانية ،وذلك بعد عام فقط من محاولة "**عثمان بن صالح**"[2].إلا أن أول محاولة سجلناها للكتابة الشعرية بالفرنسية كانت سنة 1910في مجموعة شعرية للشاعر" **سيدي قاسم**" بعنوان "**أغاني نذير** "« **Les chants du nadir** » ،ثم الأعمال الشعرية ل"**سالم القبي**" أهمها : "**أغاني وأشعار الإسلام** "**Les chants et poésies de l'islam** » (1917)،و"**ورود الشرق**"الصادرة بتاريخ 1920،كذلك "**أغاني القافلة** " **Les chants de la** « **caravane** » ل "**س أوديان**" سنة 1926، والمجموعة الشعرية الحاملة لعنوان "**أغاني لياسمين** « **Les chants pour yasmine**"عام 1930،غير أن أشهر قامة شعرية هي الشاعر القبائلي "**جان عمروش**"[3] ،الذي صنع له اسما مع كوكبة الشعراء الكولونياليين

[1]- جبّور (أم الخير)، **الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيونقدية** ، أطروحة دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة وهران،2010-2011،ص37.

[2] - Benchrif(Mohammed), « **Ahmed Ben Moustapha, goumier »**, Payot, Paris- 1920, réédition chez Publisud, 1997, Collection « Espaces méditerranéens ».

[3]- شاعر وكاتب وصحفي جزائري ،من مواليد إيغيل (بجاية)1906 ،مسيحي الديانة،من دعاة الإدماج وأنصار الجزائر الفرنسية ،تغيرت قليلا مواقفه حينما إندلعت الثورة التحريرية ،ففي الوقت الذي وقف ضد الثورة رفض القمع الاستعاري على الشعب الجزائري ،تولى الوساطة بين ج.ت.و.والحكومة الفرنسية ،وساهمت وساطته في إنجاح المفاوضات،أنظر:

-الخالد (يوغرطا)الابراهيمي(كريمة):"**الشاعرالجزائري جان عمروش**"مجلة عود الند،العدد53، لندن بريطانيا،نوفمبر2011،وللمزيد عن حياة جان عمروش، أنظرأيضا:

Lebaut (Rejane) ,**Elmouhoub amrouche algerien universel** ,Edition chihab-Alger,2014,p-p21-75.

بالجزائر فقد ظهر له ديوان سنة 1934 مجموعة شعرية **"الرماد"**« La **cendre** » ، و أردفها بديوان آخر عام 1937محل عنوان **"النجمة السرية "** **« L'étoile secrète »** [1]

هل من الممكن للأهلي الرابض تحت نير الحكم الاستعماري أن يكتب بلغة أخرى؟يمكن ذلك ،إلا أن هدف الأدب المغاربي ، ونعني به الجزائري بالتحديد هو الكتابة بلغة المستعمر للمستعمر .فالغاية هنا واضحة إبراز الآثار التدميرية للمحتل على الجزائريين.

تظهر أول روايات مغاربية المكتوبة بالفرنسية في بعد الحرب العالمية الثانية ، لتزدهر بالتحديد في مطلع الخمسينات مع ازدياد الوعي القومي وانتشار الفكر الاستقلالي ،وتتبلور معه الكتابة ويزداد النص جمالا ، سواء في سلامة اللغة وقوة المعنى [2]، وتتذكر **" آسيا جبار"**[3] كيف تعطيها اللغة الفرنسية قوة في الكتابة والتأمل إذ تقول: **" يمكن أن تمنح لي اللغة الفرنسية كل شيء من كنوزها التي لا تنضب ،لأن هذه الحالة التوحدية التي تصاحب الكتابة بها تزيد حماستي،وتحدث لي انفجارا مفاجئا في ملكة الحس والإبداع"**[4].

يمكن أن نشير هنا إلى رواية **"نجمة "**،والتي أراد **"كاتب ياسين "**[5]من خلال معالجته الأدبية لها التطرق لقضية المرأة الأهلية و تعلق وشغف الرجل بها ،وجوانب مقاومتها للألم الذي عانته من القهر الاستعماري ، ليتمكن كاتب ياسين من استخدام القوة الرمزية لكي يقول كل شيئ عن حرية بلده وهويته وأصوله. فنجمة بالنسبة للكاتب كما للرجل الأهلي، هي المرأة

---

[1] - déjeux (Jean), **la littérature *maghrébine d'expression française*,**op-cit,*p16.*

[2]- Hachani (Louisa) , **Étude comparative de la condition féminine dans la littérature maghrébine et la littérature négro-africaine Un exemple d'étude : L'incendie de M. Dib et Les bouts de bois de Dieu de Sembene . O**, de magistere, Département des Langues Etrangères, université kasdi merbah ouargla- 2007,p15.

[3]-أسيا جبار(1936-2015)،وجه بارز في الأدب النسوي الجزائري ،وأكثر من ذلك أستاذة تاريخ تدرجت في العمل الجامعي من جامعة الرباط مابين 1959-1962،ثم في جامعة الجزائر العاصمة حتى عام 1965 ،ثم أكملت مسيرتها كأستاذة في جامعات فرنسا ،لتلتحق سنة 1995 بجامعة لويزيانا بباطونروج بالولايات المتحدة الأمريكية.ثم جامعة نيويورك وتحصلت هناك على أستاذة الكرسي الفضي فيها .من أبرز أعمالها الأدبية ،رواية "العطش"سنة 1957،ورواية "أطفال العالم الجديد"سنة 1962،"ظل السلطان"سنة 1987وغيرها من الأعمال .للمزيد أكثر حول أدب آسيا جبار،أنظر:

- Labontu-Astier (Dianna),**L'Image du corps féminin dans l'œuvre de Assia Djebar,**Thèse de Doctorat, Universit é de Gronoble ,soutenu le 20Septembre2012,

[4] - Djebar (Assia), **L'Amour, la fantasia**, Edition Albin Michel, 1995- Paris , p,p 40,41

[5]-الرواية ،المسرح ،والشعر الرومنسي ،والعمل الصحفي كلها مجالات ثقافية ،شكلت لنا شحصية كاتب ياسين وصقلت موهبته وإبداعه ،كان هذا الرجل الشاوي الأصل ،والمولود في الأرواس يوم 25جانفي 1929،لم يكن فقط أديبا وإنما مناضل من أجل القضية الجزائرية في صفوف حزب الشعب ثم الحزب الشيوعي الجزائري ،من أشهر أعماله رواية "نجمة"التي نشرها عام 1948،وفي جريدة "إيسري "نشر عمله الموسوم ب"الجثمان المطوقة"« le cadavre encerclé » سنة 1954، ثم اعاد نشر رواية نجمة سنة 1956،ورواية"الأجداد يضاعفون ضراوتهم" « Les Ancêtres redoublent de férocité »..وغيرها من الأعمال القصصية والمسرحية الأخرى .أنظر:

-Chikhi(baida) et Douare-Banny (Anne) ,**Kateb yacine**,presses universitaires de Rennes, 2014.

الحبيبة ، المرأة المرغوبة ذات القوى المتعددة ، ملكة اللاوعي من المنافسين المتعددين ، البطلة الرومانسية ، التي جعلت منه ينحني وتعطيه القوة الدافعة وراء الإبداع الأدبي [1] .

لقد كانت رواية" **نجمة**" باكورة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ،فقد ولدت في فترة كان الانتاج الأدبي الأهلي محتشما و الكتاب الجادون يعدون على رؤوس الأصابع ، غير أن **"كاتب ياسين"** في روايته نجمة 1950،و**"محمد ديب"** في روايتين**"الدار الكبيرة** "سنة 1952 و**"الحريق**"1954،و**"مولود فرعون"** بروايتيه الشهيرتين **"ابن الفقير** "سنة 1950، و**"الأرض والدم"**[2]سنة 1954،و**"مولود معمري"** بروايته**"الأفيون والعصا"**و**"التلة المنسية** "1952،و**"غفلة الحق**"1955[3] ،كانوا بمثابة عرابو الرواية الجزائرية و أعمدة للأدب الجزائري الحديث، كظاهرة ثقافية جديدة مافتأت تستهوي القراء الفرنسيين قبل اندلاع الثورة وخلالها ،ساهمت في فهم الآخر حينما تكلم هو ،وليس كما أراد الكتّاب الكولونياليون فهمه كما أرادوا أن يفهموه[4] .

مثلت المرأة الثائرة على القيود عند **"كاتب ياسين"** ولغيره من الكتاب الجزائريين الذين عاصروه ترميزات لعدة وجوه للوطن المسلوب من قبل الاستعمار ككيان وللمستعمر كسلطة معنوية ،فهي الأرض، والثورة على الظلم بأشكاله المتعددة ،وكرمز للأمل والمستقبل الأفضل [5]، نجد أيضا في الكتابات الأدبية نفس القضايا الاجتماعية والاقتصادية ،التي يعالجها كاتب ياسين ،الأرض ، المرأة ،المعاناة ،ففي رواية الحريق ،(ص31)نجد للعلاقة القوية بين المرأة

---

[1] - Boussaha (Hassen), « **La représentation de la femme à travers l'œuvre romanesque de Kateb Yacine** », Revue Synergies Algérie, N° 9 – 2010,p262.

[2]-تقوم روايات "الأرض والدم " و"ابن الفقير "المولود فرعون ،الكاتب القبائلي على ثلاثية الإنسان والمجتمع القبلي والأرض ،وتجسد العلاقات المتنافرة والمتداخلة داخل المجتمع الأهلي الذي سلبه المستعمر أره وحطّم وحدة مجتمعه ، وهّجر أبنائه نحو المهجر ،أراد فرعون من شخصية "فورولو "،في "ابن الفقير "إظهار تمسك الأهلي بأرضه كملاذ أخير لجلب قوت يومه ،لقد استطاع تجسيد بشكل حقيقي مأساة اجتماعية صانعها المستوطن المغتصب الذي سلب للجزائري كل شيئ تقريبا إلا أرادته.أنظر كتابات فرعون:
-**الأرض والدم** ،ترجمة عبدالرزاق عيد ،دار صالح تلاشنيقيت للنشر ،الجزائر،2005.
-**نجل الفقير** ،ترجمة محمد عجينة،ط1،ديوان المطبوعات الجامعية ،ابن عكنون،الجزائر ،1987

[3]-تعد الثلاثية الأدبية للأديب مولود معمري "التلة المنسية" "العصا والأفيون"و"غفلة الحق"،أحدى أهم روائع الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ،والذي تناول بحق ثنائيات متناقضة عاشتها الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية ،(المغتصب للأرض-الأهلي الفقير)،(الظلم والحرية)،...فقد اختلف بأدبه عن كاتب ياسين ،حيث كان أدبه أكثر جرأة ،وأكثر وطنية وثورية .

[4] - Bonn (Charles), **Kateb Yacine « Nedjma » (Réédition)**, 1ère Edition ,PUF, Paris- 1990, p,p 19,20.

[5] - Boussaha (Hassen) ,op-cit,p269.

وقضية الأرض : **"باعت كل حليها بعض مقتنياتها لتسديد الضرائب التي فرضها عليها المستعمر ، بيع كل شيء ممكن إلا الأرض"**[1].

وإذا انتقلنا لرواية **"الحريق""لمحمد ديب"** فقد كانت هي الأخرى صورة تمثيلية عن حالة الفقر التي عاشها الفلاحون وعن نظرة المستعمر في الفلاح الجزائري واستحقاره له ، وكان الهدف من مضمون هذه رواية دفع القارئ الجزائري إلى إدراك حقيقة الاستدمار الفرنسي والمؤسسات التي أوجدها لخدمة مصالح أبنائه، ففي فقرة مقتبسة من الحريق وتنص على ما يلي **"تلك الحفنة من التربة السمراء هي أرضكم ووطنكم، إنها كلها في أيدي الكولون لا يجعل ذلك من جانب في بلادنا؟ لسنا نحن الأجانب،والأجانب هم أهل هذه البلاد، إنهم بعد أن ملكوا كل شيء يريدون الاستيلاء علينا نحن أيضا دفعة واحدة"**[2].

أراد الأدباء الجزائريون إثبات الذات ،والتعبيرعن وجود أمة لها ثقافتها ،خصوصيتها، وموروثها الفكري والمعرفي الغزير .لقد كانت الكتابة بالفرنسية بقدر ماهي غنيمة استعمارية ،هي أيضا أداة للمرافعة ومحاكمة المستعمر على تمييزه واستئصاله للآخر،وفضاءا للتنفيس والاحتجاج والرفض للقيود الاستعمارية .

لقد ترك أدباء الأقلية الأوروبية أدبا متنوع الخصائص ،والمدراس والاتجاهات الفكرية والفلسفية ،وثري في انتاجه ،عبّر عن تنوع التركيبة العرقية للأقلية الأوروبية في الجزائر ،وتعدد اتجاهاتها السياسية وطموحاتها المستقبلية،بين الإدماج ،الإقصاء ،الانفصال ...

- كان الإنسان الأهالي مصدر الكتابة ومحور الأدب الأوروبي في الجزائر ،ليس فقط لأنه كان يمثل رمزا للبؤس والمعاناة التي تسبب فيها المستعمر ،أو لأنه كائن جديد يثير كل أشكال الفضول والاستغراب فحسب،بل لأنه جزء من التركيبة الاجتماعية والثقافية ،والتي بدونه تنتهي حياة الآخر .ولذا كان العدد الكبير من الروايات والكتابات الأدبية يفسر هذا التوجه في الكتابة عن الأهالي.

[1] - Dib (Mohammed), **L'Incendie**, Edition du Seuil, Paris- 1954,p31.

[2]- الزبيري (العربي) ،**المثقفون الجزائريون والثورة** ،منشورات المتحف الوطني ،المجاهد ،الجزائر-1995،ص104.

-ساهم الأدب الكولونيالي في تجدد الأدب الأهلي وحداثته ،وتنوع اتجاهات نخبه ،وقد مهّد الطريق في ظهور نخبة من الأدباء الجزائريين ،الذين كتبوا بلغة الاستعمار لمقاومة الاستعمار.

ثانيا:الفنون الجميلة

تعد الفنون الجميلة عالما يجسّد تقلبات النفس البشرية ويعبر عن مشاعرها باللوحة والريشة ،يظهر لنا إبداعات فنية رائعة غالبا ما تعكس الروح الصافية والمشاعر الصادقة للفنان ،لكن ما مثله أغلب الفنانين الكولونياليين لا يحاكي ولا يعكس كثيرا غاية هذا الفن ولا رسالته النبيلة ،فقد كرّسوا الريشة لخدمة الأهداف الإيديولوجية العليا للمشروع الكولونيالي في الجزائر.**فإلى أي مدى وظفت الريشة لخدمة الأهداف الكولونيالية ؟وكيف كان موقف الفنان الجزائري في مواجهة هذه الوسيلة الفنية؟وهل استطاع التعبير عن همومه ونقل معاناة الأهالي للآخرعبر لوحاته الفنية؟.**

1- سحر الشرق وصورة الأهلي المهزوم في لوحات الفنانين الكولونياليين خلال القرن التاسع عشر

لقد مثل القرن التاسع عشر مرحلة التأسيس لرؤية أسطورية عن الجزائر (بوابة الشرق الساحر)من خلال الفن ،عوالم غريبة من اللوحات والصور التي تجسد المناظر العجيبة، وتعكس انبهار الفرنسيين بهذا السحر والجمال ،وتنقل للمتلقي **"الميتروبوليتاني"**في كثير من الاحيان مشاهد تعُج بالأهالي الخاضعين ،ونساء حُبسن في بيوتهن ،ومن بين أولئك الذين أصيبوا بهذا الهوس **"أوجين دولاكروا"** [1]**« Eugène Delacroix »** (1798-1863)بأعماله الإبداعية التي رسمها أثناء رحلته التي قادته إلى المغرب،ثم الجزائر سنة 1832،وخاصة منها اللوحة الشهيرة الموسومة ب[2]**"نساء الجزائر في مخدعهن" « Femme d'Alger dans leur appartement »** .[3]

---

[1]- فرديناند فيكتور أوجين ديلاكروا(Ferdinand-Victor-Eugène Delacroix)"مواليد 26 ابريل 1798 - 13 اغسطس 1863" . رسام فرنسي من رواد مدرسة الرومانسية الفرنسية فى الرسم ، له لوحات فنية فى متاحف كثيره و منها متحف اللوفر اشهرها لوحته "الحرية تقود الشعب " (La Liberté guidant le peuple)، التى رسمها سنة 1830 كتجسيد ثورة يوليو التى حصلت فى فرنسا من ذات السنة،ولوحة **"نساء جزائريات في مخدعهن"**،والتي رأى فيها الناقد شارل بودلارC harlesBaudelaire بأنها **" قصيدة عن الداخل، مليئة بالراحة والصمت والأقمشة الغنية لا أعرف ما هو هذا العطر الرفيع لمكان سيئ و الذي يقودنا بسرعة كافية نحو حدود غير مسبورة من الحزن"** ،للمزيد أنظر:

- Gharbi (Farah Aïcha**), « Femmes d'Alger dans leur appartement d'Assia Djebar : une rencontre entre la peinture et l'écriture »**, Études françaises, Volume 40, numéro 1, 2004, p -p 63-80

[2]-أنظر اللوحة في الملحق رقم04،ص489.

[3]- بتقة(سليم)، "**حوارية النص والصورة،آسيا جبار قارئة لدولاكروا (نساء الجزائر في مخدعهن)**"،مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري،العدد العاشر،جامعة بسكرة ، الجزائر،2014،ص88.

وهكذا، مثلت الجزائر في مُخيلة الرسامين التصوييين والفنانين التشكيليين والنحاتين الكولونياليين، الأرض التي تمثل سحر الشرق الفاتن ومجالا خصبا للإبداع الفني لما تحتويه من مناظر طبيعية مختلفة عما هو موجود في أوروبا وقيم فنية جديدة فجرت إلهام الرسامين ،وأبدعت ريشتهم لوحات زاهية الألوان[1].

فتح الاستشراق الباب واسعا لزيارة عدد كبير من الفنانين الجزائر نهاية الثلاثينات وخلال الأربعينات ،حيث زار كل من **"غوتييه"** و**"بيللي "و"ديودون"** و**" هنري رونيو"** و**"تورنمين وجيرو"** و**"ش.لانديل** و**"ى.لوري"** الملقب بلورثين (الذي مكث فيها ما بين عام1850-1862)[2]،وقد خلدوا في أعمالهم الفنية انتصارات الجيش الفرنسي، ودونوا الكثير من اللحظات الشرقية، وفتحوا باب الاستشراق في الفن على مصرعيه". وبعدهم وفد إلى الجزائر عدد من الفنانين العالميين نذكر من بينهم **"أوجين دولاكروا"** و**" أوجين فرومونتين"** و**" تيودور شاسيريو "ورونوار"** و**"ماركييه "** و**"هونري ماتيس"** وغيرهم وكان الرسامون يجوبون أرجاء البلاد ويطوفون الواحات مرورا بالقرى الصغيرة ،في الوقت الذي كان النظام العسكري يؤمن لهم الحماية الكاملة ،فدونوا في لوحاتهم العادات والتقاليد، والعمارة والفنون، والطقوس والقدرات القتالية، وما إلى ذلك .وتميّزت هذه الأعمال الاستشراقية التي كانت تندرج ضمن الدراسات السوسيولوجية بأسلوب محاك للواقع ولغة تشكيلية بليغة الوصف والابتعاد عن التجريد والغموض، واتصف رساموها بالصبر ودقة الملاحظة، والقدرة على تحمل مشقة وطول الأسفار والمهارة الفائقة في فن التصوير،والتفاني في الرسم والانقطاع له[3].

وبقدر ما كان الفن الاستشراقي عملا إبداعيا بامتياز،كان بالمقابل عملا كريها ومساندا للتوسع الفرنسي في الجزائر ،فقد أُعتبر الرسامون المستشرقون العيون التي تتجسس على الشرق، وكانت رسموهم،من حيث**"القيمة التوثيقية"** مماثلة للصور الفوتوغرافية لاعتماد الرسامين على أسلوب محاكي للواقع يرصد كل صغيرة وكبيرة،والرسم هنا ليس موجها

[1] - Messaadi(Sakina) ,op-cit,p22.

[2]- بيطار (زينات)،**الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى**،عالم المعرفة للنشر ،الكويت-1992،ص274

[3]-قجّال (نادية)،**"الوظائف الأساسية للفن الاستشراقي قبيل وإبان الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي"** ،مجلة إنسانيات، العدد46، ديسمبر 2009، ص132.

للجمهور ، وإنما لنظام الاستعماري العسكري ،وظيفته النقل الدقيق للواقع ،دون حذف أو زيادة لضمان وصول المعلومة [1].

ظل مصدر الضوء في اللوحة لغزا كبيرا للفنان الكولونيالي،حيث لم يجد النقاد التشكيليون مصدره داخل اللوحة الفنية ،ولو أن أكبر ما شد الفنانين الغربيين في الجزائر هو الضوء الطبيعي،فالشمس لم تكن شبيهة بأية شمس في مكن آخر ،لذا تبدو الألوان مضيئة في لوحاتهم ، وكانت عاملا فنّيا ساعد في جمالية اللوحة ،ذلك الضوء المُحيّر في وجوه نساء لوحة دولاكروا ،مشرقا رغم وجودهن في غرف القصبة ذات النوافذ الجانبية المتماشية مع تقاليد المجتمع المحافظ،فمنذ ما يقارب من قرنين بقي السر غامضا مبهما ،وهذا ما روّج لتحفة الفنان الفرنسي ،الذي كانت نساء الجزائر بملامحهن البربرية الموريسكية،وأثوابهن وتفاصيل حياتهن السر الحقيقي فيما رسمه،لكن ماذا أراد" **دولاكروا**" إبرازه في لوحة" **نساء مدينة الجزائر**" التي جسد فيها الرسام غرفة المرأة الجزائرية حواء صورة للراقصة الجزائرية ؟أنه أراد بشكل غير بريء إعطاء صورة نمطية لحياة العهر والمجون التي أراد الفنانون الفرنسيون إلصاقها بالحياة الجزائرية[2] .

ولذلك ،فإن كل تلك الألوان الجميلة الدافئة والغنية المشرقة في لوحات وأعمال فرنسيي وأوروبي الجزائر،ولاسيما لوحة دولاكروا التي تناولت النساء الأهليات تحاول كبت صوتا مكتوم ومقهور خلف نظرتهن الحزينة المسروقة ،فتلك اللوحات رغم جماليتها فهي في نظر "**أسيا جبار**" عبارة عن:"**ظلم طال المرأة الأهلية بسرقة وجوههن دون غطاء ،والدخول إلى فضائهن الحميمي باسم الفن ،وتعبر عن تصور سطحي للشرق الذي لم يفهمه الغرب**" [3].

لقد أراد العديد من الفنانين الاستعماريين تشويه صورة المرأة الجزائرية الشرقية برسم لوحات عدة لاستحمام النساء وهن عاريات، إما في الحمامات العامة،أو على ضفاف الوديان

[1]- مفرج (جمال)،"**جميلات الجزائر في اللوحة البصرية الاستشراقية**"،مجلة جماليات ،مجلة دورية محكمة،العدد الأول ، جامعة عبد الحميد ابن باديس،مستغانم-شتاء 2014،ص10.

[2] - Messaadi (Sakina) ,op-cit,p22.

[3]- بتقة (سليم)،المرجع السابق،ص،ص91، 92.

تحت الشلالات، مثل لوحة " **ماريوس دي بوزو"**[1] **Marius de buzon** التي رسمها سنة 1926،وتظهر فيها النساء عاريات داخل حمام بخاري ،وهي مشاهد تناقض الواقع تماما ، فالغرب يعرف تماما بأن المرأة المسلمة لا يسمح لها مجتمعها المحافظ بالكشف عن وجهها ، فكيف يسمح لها بالتعري ،كما أن الوديان والشلالات ليست الأماكن الآمنة التي يمكن أن تظطجع فيها المرأة المسلمة بالطريقة التي تظطجع بها الأوروبيات على الشاطئ[2].

استمر التشويه المقيت لصورة المرأة الأهلية المسلمة بشكل مستمر وفظيع،فقد صورت النساء الجزائريات وهن يتعاطين التدخين بالنرجيلة ،وهن مستلقيات حالمات ،وقد ارتدين أثوابا فاخرة شفافة ،ولم يقتصر الأمر على النساء فقط بل شمل الرجال،ولوحات الرسامين – سواء الذين استقروا بالجزائر أو غادروها-تعج بمشاهد الحشاشين وتدخين الحشيشة المقصود وراء ذلك ترسيخ فكرة خاطئة وصورة نمطية مشوهة للمجتمع الأهلي[3].

بعد هذا العرض لبعض الأعمال الفنية للفنانين الاستعماريين والأوروبيين في الجزائر، نجد أنه من حق القارئ أن يطرح هذا السؤال على نفسه :**ما مبرر هذا التزييف ؟ولماذا البحث عن صورة مناقضة للواقع؟.**

قام العديد من الباحثين تقديم إجابات وتفسيرات عن هذا التمثيل الزائف للمرأة الجزائرية والشرقية في الفن البصري الاستشراقي ،وفي مقدمة هؤلاء نجد" **إدوراد سعيد"** الذي صوّر نظرة الإنسان الغربي للجسد والروح الشرقية بأنها كائن يجب إعادة بنائها وفق متطلبات الفكر الغربي وأهوائه [4]،ونسب ذلك ضمن استراتجية الهيمنة الاستعمارية ،ففي رأيه المرأة الشرقية صورة للشرق السلبي والأنثوي والدوني الذي يمكن الهيمنة عليه ،وهذا في مقابل الهيمنة

[1]-كانت بدايات ماريوس ديبيزو الفنية في مدرسة الفنون الجميلة ببودو ،ثم في مدرسة الفنون بباريس ،انتقل في مطلع القرن العشرين على الجزائر العاصمة ليدرس في معهد الفنون ،ويتحصل على جائزة فيلا عبد اللطيف ،ليصبح فيما بعد أحد أهم أعمدة الرسم والفنون التشكيلية في الجزائر ،تخطت أعماله الشهرة الوطنية وتعدت حدود الميتروبول ،من أشهر أعماله الفنية "سطوح غرداية والعيد الصغير "والتي عرضها بمعرض العاصمة التشيكية براغ سنة 1930 ،ولوحة استحمام مورسيكيات في غارداية ،المعروضة في المعرض الدولي للفنون الكولونيالية بنابولي سنة 1931،توفي سنة 1959بالجزائر العاصمة تاركا أعمالا فنية هربت إلى خارج الجزائر بعد الاستقلال .في الموضوع أنظر:

Barrucand (Victor), **L'Algérie et les peintres orientalistes** , Éditions B. Arthaud, Grenoble-1930, et Éditions du Tell, août 2003, Blida-Alger ,p15.

[2]- مفرج(جمال)،المرجع السابق،ص13.

[3]- المرجع نفسه،ص14.

[4]-سعيد (إدوارد)،**الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق**،ترجمة محمد عناني،طبعة مزيدة،دؤيا للنشر والتوزيع،القاهرة-1995،ص199.

الذكورية التي ترمز للغرب ،وفي النهاية فهي صورة رمزية تبرر الهيمنة الغربية على المجتمع العربي[1].

أما الباحثة **يمينة منخرفيس** صاحبة الدراسة التحليلية السيميولوجية للمرأة الجزائرية في الفن الاستشراقي خلال الفترة الكولونيالية ،فترى بأن هذه اللوحات ،بدءا من لوحة نساء الجزائر ل"**دولاكروا**" هي إنما جاءت لتثبت الأسطورة الشرقية التي نسجها الغرب من خلال حكايات ألف ليلة وليلة بأن المرأة سجينة الحرم الشرقي،والرجل الكولونيالي هو منقذها من العنف والحرمان الذي مارسه عليها الرجل الشرقي[2].

مثل "**شاسريو**[3]" و"**فرومنتان**" آخر أعلام الرومانسية بفرنسا قصدا "**الشرق بدلا من روما**".الأول بهدف العثور على اللون والشكل"والاختلاج الطبيعي للألوان والظلال والثاني بهدف البحث عن المصادر للصورة والشكل الفني الحي وأعداد نسق جديد لتفاعل الألوان،أي أن الاستشراق في كلتا الحالتين كان مبنيا على الحاسة البصرية ،والتوفيق بين الأدب والفن وتحت تأثير نظرية" **الفن للفن**" والتي يعتبر رائدها ،والأب الروحي للاستشراق الشاعر والناقد" **تيوفيل غوتييه**" [4].

ففي عام 1846قام "**شاسريو**" برحلة إلى الجزائر مدفوعا بسعيه إلى العثور على الجمال الأصيل والقديم للشرق وبدا ذلك وكأنه عودة إلى الشباب .وإلى مرحلة الدراسة عند "**انغر**"،ومرحلة التوليف،لقد جذبته المؤثرات الفنية وفتن ب"**النقاء الأزلي لعنصر الجمال العربي واليهودي**"،وكذلك التقاليد والبيئة ،والمناخ ،وبغنى الألوان "**إن الخليط العميق للألوان هنا ،يجعل الطبيعة تبدو وكأنها فسيفساء تشع بالنضارة وصخب الألوان**"،وبعد عودته منها استعرض شاسريو قدراته الفنية ،واستطاع شاسريو كما (ديلاكروا،وديكان ، وماريلا)أن يلمس العلاقة العضوية بين الضوء والظل، وبين الظل واللون والتلاعب

---

[1]- مفرج (جمال)،المرجع السابق،ص15

[2]- منخرفيس(يمينة) ،**صورة المرأة في الفن الاستشراقي "دراسة تحليلية سيميولوجية لعينة من اللوحات الفنية للفنانين "أوجين دولاكرواو"ايتيان دينى"**،مذكرة لنيل شهادة الماجيستير ،قسم علوم الإعلام والاتصال ،جامعة الجزائر- 2010،ص272

[3]-ولد شاسريو سنة 1819 م وتوفي في باريس عام 1856 م . وفي 1833 شارك في مدرسة الفنون الجميلة بباريس , وفي 1840 م التحق بتيار دواكروا ،أي المدرسة الرومانسية ، سافر إلى قسنطينة أقام فيها عدة أسابيع سنة 1846 م ، قام برسم صورة شخصية لحاكم قسنطينة آنذاك ،وقد قام المتحف الوطني للفنون الجميلة بالجزائر 1936 م معرض خاص بالجزائر والتي يحتفظ بها لحد اليوم .

[4]- بيطار (زينات)،المرجع السابق،ص273

بالدرجات اللونية لإظهار صدق الحالة الروحية.أما من حيث الموضوع فلم يخرج عن فلك المنظومة الايقونغرافية الاستشراقية التي كانت سائدة آنذاك:شرق الحريم،شرق المعارك ، شرق النقاء الجمالي[1] . ومن البليدة مقر أقامته بالجزائر إلى باتنة،فالقنطرة ،ثم الصحراء ، كان الأطلس البليدي بسفوحه الخضراء وثلوجه التي تغطي قممه وجمالية الألوان في الأوراس ،وتمازج ألوان الطبيعة في الصحراء وتنوعها دورا مميزا في فن فرومنتان، قد جُعل منه رجلا يبني فنا خاصا به،[2]وينتمي إلى كوكبة الفنانين الذي ظهروا في المرحلة الانتقالية بين الرومانسية والواقعية،فبينما برز **"ديلاكروا** "بوصفه فنان ذا عبقرية وناقدا وصاحب نظرة جمالية متفردة ،دخل عالم الشرق في صلبها ،وغدا الاستشراق ركنا رئيسيا من أركانها ،نرى أن شرق فرومنتان برز بسطوع في أعماله الفنية والأدبية، أولا ومن ثم في إبداعه كفنان.غير أن أعمال فرومنتان بقدر ما كانت تندرج ضمن الفن الاستشراقي، فإن فرومنتان كغيره ممن انتقل إلى الجزائر في بداية الاحتلال كان قد كرس قلمه وريشته للاستعمار [3] .

كانت زيارة**" فرومنتان** "إلى الجزائر عام 1845 تلبية لدعوة الفنان **"لايبيه "**،الذي فضل الاستقرار والعيش في مدينة البليدة ،ولما عاد فرومنتان إلى فرنسا عرض ثلاث لوحات لم تلق الشهرة الواسعة لكنها عرفته بنجاح للجمهور .ثم زارها مرتين عام1852 بطلب من السلطات الرسمية ،وفيها نشر مقالاته حول الحياة في الجزائر وبرر فيها رسالة الاستعمار ودافع عن الوجود الفرنسي في الجزائر[4] ،وفيها ترأس **"أوجين فرومونتين"** قافلة الرسامين المستشرقين وأظهر جدية قل نظيرها في دراسة الصحراء وتمثيل سكانها، وقد أفصح قائلا: **"لا زلت إلى حد الآن مجرد عابر سبيل. . لكن هذه المرة سأقيم في البلاد وأعيش فيها وسأتعوّد عليها وأتطبع بعادات العرب التي ستساعدني على التقّرب بحميمية من المكان**"[5] .

لقد بلورت أرض الجزائر العملية الإّبداعية والروحية لهذا الفنان،الذي اعترف في إحدى المرات قائلا:**"إنني أعيش خارج الزمان والمكان ،حيث أهذي في اليقظة وأخشى أن**

[1]- المرجع نفسه،ص300.

[2] -Marchat(Henri**) ,« Fromentin en Afrique »,** Revue de l'occident musulman et de la méditerrané,1er trimestre, Année 1974, Aix-en-Provence,p-p120-122.

[3]- بيطار (زينات)،المرجع السابق،ص،ص303، 304.

[4]-المرجع نفسه،ص307.

[5]-قجّال (نادية)،المرجع السابق،ص،ص113، 114.

استيقظ" ،ودفعه تعطشه للعثور على شيء جديد أن يتوغل في عمق الطبيعة الجزائرية ويزور مناطق لم يزرها أحد قبله ،ومثلما سلبت عقله فهي سلبت إبداعه وفجرت طاقته ، وجعلته يبدع في رسم أجمل لوحاته،ويؤلف كتابين عن سحر الجزائر وكرم وشهامة أهلها ، وهما "سنة في الساحل"وكتاب "صيف في الصحراء" [1]. ولا شك أن إقامة **" فرومنتان"** بالجزائر مكنته لاحقا أي خلال الخمسينات ،من إيجاد ذاته في لوحات شرقية تصب في جوهرها في التوجه الرومانسي الغرائبي .غير أنها تنم عن فكر جمالي ،ففي لوحة"**غابة النخيل**"استطاع أن يدخل الطبيعة الشرقية وسحرها في المنظر الطبيعي الفرنسي [2].

أجاد فرومنتان توزيع الألوان وتوظيفها بشكل بارع لتتناسب مع روعة الشرق وسحره ، عبر اكتشافه لنظرية اللون وتطوريه لها في عملية تنويع مشتقات اللون وتدرجاته و بطغيان اللون الرمادي في معظم لوحاته ،ابتداء من اللون الرمادي للجدران وانتهاء باللون الرمادي الحاد للأرض،مثلما تبرزه لوحة **"مخيم في جبال الأطلس".**ومن أهم أعماله التي أبرزت قدرته الفائقة في توظيف اللون الرمادي لوحته الشهيرة **"مشهد صحراوي"**أو **"حرامية الليل"**[3]،وعلى الرغم من أن الليل موضوع رومانسي تقليدي، إلا أن فرومنتان كان من أوائل الفنانين الأوروبيين في أوروبا والجزائر الذين صوروا ليالي الشرق ،وبخاصة ليل الصحراء بشكل فني متميز ،ومرة أخرى يبرز ملكته الإبداعية عبر اللون الرمادي ونهاياته –فن اللون الرمادي-اللؤلؤي لضوء القمر.وحتى لون الأجساد السمراء للفرسان ،مرورا بلون الحصان الأبيض "مركز الحدث"حيث يطغى الفضاء الرمادي المائل للأزرق[4].

رغم تعصبه للظاهرة الاستعمارية ،نجد بأن فن **"فرومنتان"** يحمل جانبا مهما من الانسانية والتعاطف مع صاحب الأرض،وهذا ما توضحه رائعته الفنية **"هبوب الريح في الصحراء"** عام 1864،فقد وضع يده على نبض وآلام بدو الصحراء ومآسيهم.فقد تمكن تصوير الرياح وهي تهب ،حيث يلمح الناظر في اللوحة صوت الريح يعصف في خفايا الانسان الصحراوي الممتطي صهوة جواد فيبدو ككتلة في مهب الريح مازالت تثبتها أقدام الخيل على الأرض ،

[1]- بيطار(زينات)،المرجع السابق،ص307.
[2]- المرجع نفسه،ص309.
[3]-أنظر الصورة في الملحق رقم05 ،ص489.
[4]- بيطار (زينات)،المرجع السابق،ص،ص314، 315.

مبرزا تناقضا بين كتلة الانسان الخفيفة المائلة مع الريح (مشهد الملابس المائلة باتجاه الريح)وكتلة أجساد الخيل المتراصة باتجاه الزوبعة .وقد أحسن غوتييه وصف هذه اللوحة بقوله:**"إن الريح لا شكل لها ،ولا لون ،وتصويرها يعتبر أمرا مستحيلا ،ورغم ذلك ففي لوحة فرومنتان تعصف الريح بوضوح ملموس "**[1].

2-عهد جونار وانبعاث الفنون التشكيلية الكولونيالية

مثّل مطلع القرن العشرين للجزائر المستعمرة عهدا جديدا من السياسة الثقافية الفرنسية ، فقد تشجعت زمرة من المستوطنين تحت إمرة **"شارل جونار"** سنة1906 من إعادة الحياة الثقافية داخل المستعمرة .وكان فجر القرن العشرين بحق فترة تطور فيها الجانب الثقافي بشكل كبير ،إذ عرفت الهندسة المعمارية والفنون الجميلة والموسيقى نهضة حقيقية ،وتم إطلاق **"الفن الأهلي"**[2] ،وانتشر الأسلوب الموريسكي في تشييد البنايات العمومية وقد أسست مدراس فنية ،وأعطيت منح مالية ولتطوير تيار فني جزائري أهلي[3].

منح المعرض الكولونيالي سنة 1906إشارة الانطلاق لدعاية فنية بالجزائر مادامت السلطات الاستعمارية في عهد **"جونار"** قد قررت بهذه المناسبة تقديم منح للسفر والإقامة للشباب المبدعين والفنانين الأهليين ،الذين بإمكانهم إنجاز مهام وطنية"استعمارية" ،وسيسمح إنشاء فيلا عبد اللطيف بإعطاء بعد جديد لهذه الإرادة،ومن جهتها سعت السلطة المحتلة إلى تمويلها ورعاية أعمالها ،وكلفت المستوطن ورئيس جمعية المستشرقين **"بيونس بينيديكت "** مهمة الإشراف عليها ،وكانت فيلا عبد اللطيف[4] –باعتبارها ناديا فنيا وثقافيا –تنتقي

---

[1]-المرجع نفسه،ص،ص316، 317.

[2]-الفن الأهلي كما أراد له جونار ونخبة من المهتمين بالفن التشكيلي والعمارة ،هو فن جديد قديم يستمد روحة وشكله وكنهه من العمارة والفنتازيا والفن الجزائري الأصيل ،الذي عرفه الأوروبييون عشية دخوله للجزائر ،وحاولوا تجديده في مرحلة سياسية وفكرية حاسمة عاشتها الجزائر في مطلع القرن العشرين ،أراد شارل جونار من خلالها فتح باب الفنون والأدب للأهالي مثلما حاول فتح مرحلة سياسية جديدة يتقارب فيها الأهالي بالعنصر الفرني الأوربي .الغاية إذن تقارب الشعبين باسم الفن ،والذي في اعتقاده قد يصلح ما أفسدته السياسة ،ويوحد المجموعتين البشريتين ،ويكون أداة للإدماج والامتزاج

[3]- ريسلر (كميل)،**السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر (أهدافها وحدودها1830-1962)** ،ترجمة نذير طيار،ط1،دار كتابات جديدة للنشر الالكتروني ،الجزائر ،2016،ص164.

[4]- أصبحت فيلا عبد اللطيف ورشة لفن الرسم والنحت والنقش والتصوير منذ فاتح هذا القرن. وكانت تستقبل الفنانين الفرنسيين المبعوثين من فرنسا مدة سنتين لكل منهم. وقد أصبحت مدرسة فنية في حد ذاتها تمثل الفن الجزائري بأزاميل وأذواق فرنسية. ويبدو أن الفنانين الجزائريين لم يدخلوا هذه الفيلا التي هي لهم بالأصالة، ولم يتمتعوا بالمنح التي تمتع بها الفنانون الفرنسيون طيلة نصف قرن ،ويبدو أن الفيلا تنسب لعائلة عبد اللطيف التي اشتهرت في القرن الثامن عشر بالثروة والجاه والسياسة والأدب. وكان من هذه العائلة وزراء وقضاة. وقد خلدها الشاعر أحمد بن عمار في قطعة نثرية نادرية وقصيدة فريدة نشرناها في المجموعة الشعرية التي صدرت منذ سنوات وبناء على وصف ابن عمار فإن الفيلا) القصر (كانت غارقة في

المستفيدين من المنح مستقبلا ،وستتمكن هذه المركز الميديسي Médicis الجزائري من دعم الفنانين التشكيليين الاهليين والتكفل بهم ماديا (الإقامة ،منحة مالية سنوية قدرت ب3000ف ، والمساهمة في التأسيس تيار فني كولونيالي-أهلي وإدراجه في الفن الفرنسي المعاصر[1]

لقد تخرج من مدارس الفنون الجملية عدد كبير من الفنانين الفرنسيين من أبناء المعمرين ، وبعض الرسامين الجزائريين القلائل ،كما تركت المتاحف التي بنتها الإدارة الاستعمارية في المدن الكبرى كالجزائر العاصمة ، وهرن،بجاية ،قسنطينة ،الأثر البالغ في الحياة الفنية بما تحتويه من جوانب فنية على النمط الأوروبي الغربي ،الشيء الذي ترك لمسته على نفسية الفنانين الجزائريين الأوائل وأثر في تكوينهم الفني ،ولعل الاتجاه البارز الذي انعكس على موهبة هؤلاء الفنية منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية الخمسينات هو أساليب المدرسة الشخصية ،ولاسيما المدرسة الواقعية منها[2].

أنتجت المدرسة الجزائرية في الفنون التشكيلية رسامين وفنانين استعماريين بالرغم أنهم كانوا قلة إلا أنهم كانوا مبدعين من أمثال **"كوفي "** « **Cauvy** »،**"أسيس"**« **Assus** »،**"غالييرو"** [3]« **Galliero** » وغيرهم ،فقد كان**" أسيس"** يقدم عن موضوع الرقص قراءة عالمية جدا ،متوافقة تماما مع المثل الامبريالية ،كما تعبر أعماله الفنية عن

الإخضرا الزمردي، وكانت آية في الجمال والرونق. وقد استقبلت ضيوفها من الأدباء والسياسيين حيث قضوا سهرة من سهرات القصور البغدادية والأندلسية.أنظر:

-سعد الله (أبو القاسم)،**تاريخ الجزائر الثقافي**،ج8،المرجع السابق،ص384.

[1]- ريسلر (كميل)،المرجع السابق،،ص،ص155، 156.

[2]- مردوخ (إبراهيم) ،**الحركة التشكيلية المعاصرة بالجزائر**،ب ط،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر-1988، ص،ص 08، 09.

[3]-كوفي ،أسيس ،غالييرو هم ألمع فنانين الكولونياليين الذين أنجبتهم فيلا عبد اللطيف ،وصقلت فيهم البيئة الجزائرية وسحرها الشرقي إبداعهم وعبقريتهم الفنية ،فإذا تكلمنا عن" ليون كوفي" ،فقد ألهمت بوسعادة وصحراءها إبداعه لأحسن اللوحات الفنية "أولاد نايل"،تحصل على عدة جوائز ،وأصبح مديرا لمعهد الفنون الجميلة ،وأحد أهم أساتذة الفن التشكيلي فيها .أما" أرمند أسيس" (1892-1977)المستوطن، واليهودي الأصل ،والجزائري المولود فيعد هو الآخر أحد أهم خريجي فيلا عبد اللطيف وثاني مستوطن يتحص على جائزة فيلا عبد اللطيف بعد كوفي ،من بين أهم أعماله "شاطئ سيدي فرج ".في حين كان غالييرو (1914-1963)،نحى بأعماله طريقا أخرى وكان أقرب للفن الأهالي ،بالرغم من كونه مستوطن ومن مواليد باب الواد ،كان مقربا بأعماله الفنية للأهالي ،حيث كان صديقا للشاعر جون سيناك ومولود معمري ،واستقر بالجزائر إلى غاية وفته سنة 1963،ولم يرحل كبقية أقرانه من الأقدام السوداء ،هوأيضا من فناني فيلاد عبد اللطيف ،من أشهر أعماله "لوحة الحج "،"من داخل بيت موريسكي".للمزيد أكثر حول الفنانين الكولونياليين ،أنظر :

-Cazenave(Elisabethe),**La villa abd-Latif**,Editions Association abd-Latif ,Alger-1998,p,p198 , 199.

- Vidal-Bué (Marion), **Alger et ses peintres (1830-1960),**Editions Paris-Méditerranée, Paris- 2000

- Pouillon François, **Exotisme, Modernisme, Identité:la société algérienne en peinture**, Annuaire de l'Afrique du Nord, Torne XXIX, Editions du CNRS , 1990,p-p218-220.

تقاليد الجماعات المختلفة ،وتصور مشاهد نموذجية عن المجتمعين الأوروبي والأهلي ،يكون الأهلي في صورة غير خاضعة ، بل مشرقة ومبتهجة في هذا الكيان الجديد[1].

كانت الإدارة الاستعمارية بقيادة "**جونار التركي** "أو "**العربي**"- كما يحلو لخصومه من المستوطنين نعته - تسعى إلى تطوير الحياة الثقافية للمجتمعين الأهلي والأوروبي على حد سواء،إنقاذ الفن الأهلي من التداعي والركود ،وإعطاء نفس جديد للفنون والحرف الأهلية، وستشهد الثقافة المحلية الأهلية انطلاقا من سنة 1906نشأة أول مصلحة الفنون الأهلية ألحقت برئاسة جامعة الجزائر لتتولى مهمة بعث هذا الفن وترقيته ،لكن بما يتناسب والذوق العام للمعمرين وبما يخدم طبعا الإيديولوجيا الكولونيالية[2].

أثرت السلطات الاستعمارية بواسطة المستشرقين في الساحة الفكرية والفنية بفضل النشاط والحركية التي خلّفتها الحركة الاستشراقية الفكرية من جانب ، والحركة الفنية المتمثّلة في مدرسة الجزائر للفن التشكيلي الكائن مقرها في فيلا عبد اللطيف ،فكان ذلك التأّثر جليا على نخبة المثقفين الجزائريين ،وعلى إثره نشأ الفن الجزائري المعاصر ، وانعكس على عدة فنون كالفن التشكيلي .وعلى غرار الاتجاهات والأساليب التي كانت متداولة بين الفنانين التشكيليين الأوروبيين ،انتشر في الوسط الفني التشكيلي الاتجاه الفني الحديث "**الواقعي** ،**الرمزي** ،**التكعيبي**، **التأثيري** ،والتجريدي "وغيرها .وبفعل تأثير الفن التشكيلي الغربي وصقله لعدة مواهب ظهرت نخبة من الفنانين التشكيليين الجزائريين المتشبعين بالأساليب والمذاهب الغربية في بداية القرن العشرين ،ولاسيما الفترة الممتدة بين 1906-1962[3]،ومن الطبيعي والبديهي أن ترتبط نشأة الفن التشكيلي بتأثير النفوذ الثقافي الغربي ،كما يجب الاعتراف بتأثير الثقافة الاستعمارية على الحركات الفنية الوليدة خلال وبعد المرحلة الكولونيالية .وأصبحت

[1]- ريسلر (كميل)،المرجع السابق،ص،ص156، 157.
[2]- المرجع نفسه،ص198.
[3]- خالدي (محمد)،"**المستشرقون وأثرهم الفكري والفني في الجزائر**"، **مجلة الأثر**، دورية علمية محكمة تصدر فصليا ، عن كلية الآداب واللغات *جامعة قاصدي مرباح* ، العدد13 ،مارس، *ورقلة* 2012،ص278.

"الوحشية والتكعيبية ،والتجريدية ،والسريالية" من الأساليب الدارجة، والمدارس الحديثة التي التي ستسهم في صقل تلك المواهب الفنية [1].

3- أعمال خالدة ورسائل فنية متناقضة ،دراسة لأعمال"إيتيان ديني،و هونري ماتيس "

كان الفنانون الكولونياليون ،سواءا الذين استقروا في الجزائر ،أو الذين أقاموا فيها لمدة وجيزة ،ينحدرون من مختلف المدارس الفنية (الواقعية،السريالية ،التجريدية ،والوحشية).كما أن ميولهم وأذواقهم الفنية ،ولاسيما إيديولوجيتهم وخلفياتهم الفكرية اختلفت من شخصية لأخرى .فقد انقسموا فكريا بين أنصار الكولونيالية ،وبين أنصار النزعة التحريرية ،التي كانت تقف إلى جانب الأهالي وحقهم الطبيعي في الحرية وفي قدسية الحياة.ولابأس هنا أن نسوق مثالين ،الأول يتعلق بشخصية الفنان " **هونري ماتيس"**،والتي مثلت النزعة الكولونيالية التغريبية .أما الشخصية الثانية فتمثل شخصية الفنان **"إيتيان ديني"**الذي سخّر ريشته لرسم معاناة الأهالي ويومياتهم في ظل الاحتلال والوجود الاستعماري**.**

في عام 1906 سافر" **هونري ماتيس** "من فرنسا إلى الجزائر محاولا تحقيق النتائج والمؤثرات ذاتها في معاينة الأماكن التي سبقه إليها ديلاكروا والعديد من فناني فرنسا الذين رافقوا الجيش الفرنسي في حملاته العسكرية على الجزائر. وعاد **"ماتيس** "من هذه الرحلة مشبعا بالضوء الذي امتلك بصره وأعطاه زخمًا جديدًا في فهم علاقة الضوء باللون فأنجز لوحة **"العارية الزرقاء"** ولوحة **"ذكريات من بيسكرا"** 1907 ومنحوتة **"العارية النائمة"** 1907. وقد حددت هذه الأعمال المستقبل القريب والبعيد لتطور أسلوبه المنفرد في رؤية وخلق الموديل الفني الجديد ضمن فهم جديد لفضاء اللوحة[2].

منحت إقامة ماتيس بالجزائر ثم انتقاله للمغرب الأقصى فرصة لتفجر موهبته الفنية ، وتطوير مدرسته الوحشية ،فالإقامة وإن قصرت استغلها الفنان الفرنسي ماتيس لرسم لوحات ذات طابع استشراقي بغيض ،وبعيدة عن الواقع ،مثلت إسقاطات لمخيلات غربية للواقع

---

[1]- البهنسي (عفيف) ،**رواد الفن الحديث في البلاد العربية**،دار الرائد العربي ،الطبعة الأولى ،بيروت -1985،ص17.

[2]-البيطار(زينات)،**"ماتيس مستشرق التقليدية بأسلوب الحداثة"**،مجلة العربي ،فبراير،2011.مأخوذ من الموقع الإلكتروني:
http://www.3rbi.info/Article.asp?ID=4032.

الشرقي ،كانت الغاية تجسيد لثقافة العري الجديدة على المجتمعات الأوروبية في تلك الفترة ونقلها للمجتمعات الشرقية.

راح الرسّام التّشكيلي" **هونري ماتيس**" « **Henri Matisse** »يرسم الواحة،مثل لوحة "**العارية الزرقاء ،هدية بسكرة**"والتي رسمها سنة 1907، ويُدخل عنصرا خياليّا عليها، وهو رسم جسد إمرأة عارية وسط أشجار النّخيل، والموجودة حاليا بمتحف بالتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية .ومن خلال ذلك حاول نشر مذهب وعقيدة العري"**الجسد العاري**"، الذي كان منتشرا وسط المجتمع الأوروبي المتشبّع بتلك الثّقافة الإباحيّة .ونجد هذا الفنّان قد انتهج سبيل الذين رأوا أن من شأن الفنّ أن يغيّر من أشكال الموضوعات التي يمثّلها، وما ذلك إلاّ لأنه يدرجها في عالم سحري جديد هوعالم الفنّان الذي يجئ فيحوّرها وينقّحها ويؤنّسها[1].

على عكس "**ماتيس**"كان "**إيتيان دينيه**"[2] أحسن مثال للفنان الكولونيالي، الذي تأثر بالحياة الجزائرية التي أحبها واندمج بها، أحب الجزائر وهام بها، وأحب شعبها وقاسمه أفراحه وأتراحه، استطاع أن يتغلغل داخل الروح الجزائرية، ويحس بمعاناة شعبها، ويعبر عن تلك المعاناة بكل صدق، و بفضل اتصالاته المعمقة بشعب هذا البلد المسلم ،وتعرف لبساطته وصدقه الذي طبعته بها طبيعة الإسلام،فأحب هذا الدين الذي هو مصدر طبيعة هذا الشعب المتميز بسماحته وبساطته، ودخل فيه عن طواعية واقتناع حتى أنه أوصى أن يدفن في بقعة من الأرض الجزائرية مع شعبها المسلم الذي أحبه من أعماق قلبه[3].

وقد كتب عنه المفكر الكبير **"مالك بن نبي"** مايلي : **"إتيان دينيه لم يكن فحسب الرسام الذي استيقظت هنالك رسالته، التي أخذت به إلى مداها . وهو لم يكن، فحسب، الشاعر الذي**

---

[1]- خالدي (محمد)،المرجع السابق،ص276.

[2]- ألفونس إيتيان دينيه Alphonse-Etienne Dinet ابن عائلة فرنسية بورجوازية، لقد كان أبوه محاميا لدى محكمة السين وكان جده مهندسا وابن وكيل الملك في قصر فونتين بلو. أما أمه لويز ماري أدل بوشيه .« LoiseMarie_Adel Boucher » فقد كانت ابنة محام ،وبعد حصوله على الشهادة الثانوية توجه إلى مدرسة الفنون الجميلة بباريس، ثم التحق بأكاديمية جوليان، وتتلمذ على يد الفنان بوجورو، وعلى يد روبير فلوري واحتل هذا الفنان مرتبة خاصة جدا في تاريخ الرسم الاستشراقي. وقد أنهى بعجلة دراسته الأكاديمية، شأنه فى ذلك شأن الفنانين الآخرين، ليشق طريقه سريعا .عرف دينيه بلوحاته التي سجل فيها التاريخ الجزائري ،كما اتسمت لوحاته بالأصالة نظرا لارتباطه وتعاطفه تجاه الشعب الجزائري .للمزيد عن حياة إيتيان دينيه،أنظر:

- صبطي (عبيدة)،قايد (عادل)، **"الصورة الفنية ودورها في بناء الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري (قراءة سيميولوجية للصورة الفنان دينيه"**،مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية ،العدد 29، جامعة قاصدي مرباح - ورقلة ،جوان 2017، ص، ص200، 201.

-باغلي(سيد أحمد)،**نصر الدين دينيه الفنان المبدع في الرسم الجزائري**،الطبعة الثالثة،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر.

[3]-صبطي عبيدة،قايد عادل،المرجع السابق،ص201.

استسلم لسحر ذلك النداء الخفى. لقد كان ذلك كله بل أكثر.." . ففي الواحة هناك حياة إنسانية، سوف يكتشفها وهو يجتاز طرقاتها الضيقة. هذه الحياة لها ألوانها الخاصة بها، والتي تتحدث إلى المشاعر وإلى الرسام فلوحاته ، كلوحة **"النساء الذاهبات إلى الزيارة"** أو لوحة **"التماس هلال رمضان"**هي قمة الإبداع الفريد في التعبير عن الإشكال والحضور الإنساني. لقد كان دينيه، كما اعتقد بن نبي، الريشة التي أعطت لتلك الأشكال اللهجة الأكثر تأثيرا، واسمه سوف يبقي ذلك الرسام الأوفى بحياة الجنوب[1].

كان لإسلام **"دينيه** "وتقرّبه من حياة الأهالي والاندماج فيها،سببا في صدود أعداءه من أعماله الفنية، وتنقيصا من مقدرته الفنية، وتعمدت الأوساط الإعلامية في الغرب التعتيم على أعماله الفنية ، وكان هذا بمثابة الضربة القاضية لسمعة دينيه الجيدة في الأوساط السياسية والفنية والصحفية". و أصبحت سنة 1913 م التي أعلن فيها إسلامه بالنسبة للكثير من المؤرخين التاريخ الفاصل بين **"المستشرق الموهوب"** و **"المرتد صديق العرب"** ، وفي هذا يرى **"فرنسوا هالم ":"أن أي فرنسي يعتنق الإسلام إنما يندد من خلال فعلته بالحركة الاستعمارية لبلاده"** واعتبر إسلام دينيه خطيئة في حق الأمة الفرنسية بقوله : **"إذا كان دينيه قد كرّس جهده لدراسة فن وذهنية لا علاقة لنا بهما البتة، فالأجدر به لو أنه اشتغل لصالح وطنه ،واكتفي عند حدود الدراسة ليساعدنا على الولوج إلى نفسية الأهالي، لا أن يخضع للإسلام ذاك الدين الوضيع حيث ألقي بحياته وكذا بأمته ".** إذن اعتناق الإسلام في نظر أمثال **"هالم"** [2]وهم كُثُر، خيانة لفرنسا، وهذا طبيعي مادامت الغاية الحقيقية من الاستعمار الفرنسي للجزائر هي القضاء على الإسلام في عقر داره[3] .إن **"نصر الدين دينيه"** الذي استهوته بوادي الجزائر في الأغواط وبوسعادة فاندمج فيها مبدعا بريشته، ومتدينا بدينها الإسلامي عن علم وقناعة قويين،لم يعد عميدا للفن الاستشراقي الفرنسي فحسب ،بل أصبح ملهما في نشاة الفن التشكيلي الجزائري ، وأستاذا وقدوة لأغلب الفنائين الجزائريين ، فقد

[1]-خالدي (محمد) بن عمر(عزوز)،**"الاستشراق الفرنسي وأثره في نشأة الفن التشكيلي الجزائري"**،مجلة جماليات ،المجلد الأول،العدد الخامس ،2018،ص53

[2]-للمزيد حول عن موضوع إسلام دينيه وعن نظرة الفنانين الكولونياليين لإسلام شخصية نصر الدين دينيه،أنظر:

Helme (François), **un français chez Allah**,E.D. Etude ,Paris,1932.

[3]-قجّال (نادية)،المرجع السابق،ص140.

استطاع دينيه أن يستقرأ الإنسان من خلال لوحاته التي صور فيها الطفولة في المجتمع البوسعادي، وهي تلهو أو تتعلم أو وهي تقوم بأعمال البيت الروتينية، صور النساء ويومياتهن المليئة بالأحاديث والأشغال وكذلك في المناسبات، كما صور الرجال في أشغالهم[1].

اختار دينيه أن يكون رساما تشبيبيا وانطباعيا ،فهو عندما يعالج صورة أو منظرا طبيعيا أو موضوعا روائيا فإن براعة فنه تظهر في الانسجام بين الألوان والضوء في جوها العام، وكل هذا جعل النقاد يشبهونه" **بانجر** "و**كوربي** "و"**ماني**ي**ه**."،لقد عاش نصر الدين في عصر كان فيه الفنانون يقتسمون إلهامهم من القديم والأساطير بشكل مستمر.أما هو فقد حول ريشته إلى العالم العربي لكي يجعله للآخرين مفهوما ومحبوبا،وينقل للغرب معاناة الأهلي وبؤسه[2].

4-تأثيرات المدرسة الفنية الكولونيالية في نشأة المدرسة التشكيلية الجزائرية"الإخوة راسم ،إسياخم ،باية محي الدين، كنماذج"

في مطلع القرن العشرين لم يكن عدد الفنانين الجزائريين كبيرا ،بل لم يلتحق إلا قلة قليلة من أبناء الأهلي بمدرسة الفنون التشكيلية،وذلك لأن سيطرة المعمرين عليها كان وضحا، ولم تقبل أن يسجل بها الجزائريون الأهالي ،بل كانت تقتصر على أبناء المعمرين ،وكان الاشتغال بالرسم من اختصاص أبناء المعمرين ،غير أن عبقرية والمواهب الفذة للفنانين الأهالي ، الذين كانوا يعدون على رؤوس الأصابع كانت تعوض ذلك النقص في العدد ،ولم يكن ذلك الاحتكاك بأبناء المعمرين إلا عاملا إيجابيا ساهم في تفتق المواهب الجزائرية ،التي أبانت عن ذوق رفيع وأسلوب راقي في الرسم ،انعكس كله في ظهور فنانين نافسوا في أعمالهم أشهر الفنانين العالميين ،أبرزهم: **"أزواو معمري "،"عبد الرحمن ساحولي"، "عبد الحليم همّش"،"محمد زميرلي "**،و **"باية محي الدين"**، إلا أن أشهرهم الفنان أبو فن المنمنمات في الجزائر والعالم العربي والإسلامي وحتى على المستوى العالمي ،الفنان **"محمد راسم"**[3].

[1]- خالدي (محمد) بن عمر(عزوز)،المرجع السابق،ص،ص،52، 53.
[2]-قايد (عادل)وصبطي (عبيدة)،"**الصورة الفنية ودورها في بناء الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري**(قراءة سيميولوجية لصورة الفنان دينيه)"،مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ،العدد29،جوان 2017،ص207.
[3]-خالدي(محمد)،المرجع السابق،ص279.

عُد الفنان **"محمد ارسم"**[1] مع متواليات الزمن واحد أبرز رسامي المنمنمات في التاريخ ، لما قدمه من أعمال عامرة بفتنة الوصف والتجلي البصري الواقعي والمتخيل، فيها ما فيها من آليات الرسم والتصوير بما يكفى لفتنة التأمل والإعجاب وما تحمله، مواهبه من خصوصية تأليف وسرد بصري، ولتكريس جماليات مرئية وتفاصيل يجمع في متنها لغة الشرق العربي الإسلامي وروحانيات وتقنيات الفنون الأوروبية ومدارسها واتجاهاتها الكلاسيكية والواقعية التعبيرية ومادياتها، لتخرج لوحاته بخطوطها وملوناتها وسطوحها وفكرتها الجمالية الموصوفة باقة تشكيلية عربية منفردة. مفعمة بالسمو الذاتي والجمال الإنساني [2].

وعلى عكس أخيه" **عمر راسم**" ،فقد اختار **"محمد راسم"** طريقا فنيا خاصا به بما يتماشى والرؤيا الاستعمارية للفن الأهلي ،حيث رأت الطبقة الفنية من المستوطنين ،والإدارة الاستعمارية في فنه جانبا زخرفيا موافقا لتصورها للفن الأهلي،واعتبرته **"ممثلا للأصالة المعتدلة وسفيرا لها"**،وكانت لدى **"جورج مارسيه"** فكرة طرحت آنذاك على الوسط الرسمي والفني الاستعماري تقوم على إرساء **"فن للغرب الإسلامي"** يكون فيه طابع المنمنات الإسلامية دور في الحاضرة الفرنسية [3]،وهكذا فقد بدأ الفن الجزائري في مرحلة تشكله ،شأنه في ذلك شأن الفن العربي الحديث محاكيا للفن الأوروبي والغربي الحديث ، وكان الفنان يعيش صرعا داخليا بين الأسلوب المستورد و بين الواقع المعاش .ويجب أن نسجل لرواد الفن سعيهم في إبراز خصائص الفن العربي والمحلي القديم ،على الرغم من غياب الدراسات الجمالية والتاريخية التي تفسر وتعرف بماهية هذا الفن[4].

استلهم **"محمد رسم** "من التقنيات الأكاديمية الغربية التي تعلمها في مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر، ومن التقنية الحرفية التي ورثها عن أسرته في إثراء فن جزائري محض ، فبعد تخرجه من مدرسة الفنون الجميلة عمل في عدة متاحف بالجزائر ، ثم في قسم المخطوطات

[1]-كان لنشأة محمد راسم الفنية بين أفراد عائلته التي كانت تمتهن الزخرفة و،ثم انتقاله لمدرسة الفنون الجميلة سنة 1910دورا في صقل موهبته الفنية مبكرا ،ومن أسرته استلهم التقنية الاسلامية ،ومن مدرسة الفنون استلهم التقنيات الأكاديمية الحديثة ،لينطلق بعيدا في مسيرته الفنية في عالم المنمنات ،والتي أبهر فيها العالمين الشرقي والغربي بفنه الفريد، فبالاضافة إلى أعماله الفنية الشهيرة ،تكفل راسم بتزيين العديد من الكتب التاريخية ،منها كتاب "بربروس" و"الإسلام تحت الرماد"،و"ممر الخيام"إضافة إلى تزيين كتب ملهمه المؤرخ الفرنسي الشهير جورج مارسي .

[2]-زيتوني (عبد الرزاق)،بلبشير (عبد الرزاق)،**"الفكر في الفن التشكيلي الجزائري الحديث،محمد راسم أنموذجا"**، دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية ،مخبرالفنون والدراسات الثقافية ، ،مجلد 11،العدد الأول ، السنة الحادية عشر، جامعة أبو بكر بلقايد ،تلمسان،مارس2011، ص373.

[3]- ريسلر (كميل) ،المرجع السابق،ص،ص199، 200.

[4]- البهنسي (عفيف) ،المرجع السابق،ص17.

بالمكتبة الوطنية باريس ،ومما ساعده على التعمق و التعرف أكثر على المخطوطات الإسلامية القديمة ،وفي سنة 1920م تحصل على منحة دراسية سمحت له بزيارة اسبانيا، فتعرف فيها على الآثار الإسلامية بإشبيلية و قرطبة و غرناطة و غيرها من مدن الأندلس ثم توجه بعدها إلى لندن وهناك تعمق في الدارسات الإسلامية ،ثم عمل في المتاحف البريطانية إطلع فيها علي المجموعات الفنية اللندنية، وشارك بعد تجربته القصيرة في لندن في العديد من المعارض الفنية في كل من الجزائر ، و باريس و القاهرة و روما و فيينا و بوخارست، وارسوا ستوكهولم ،كوبنهاغن ، تونس وفارصوفيا... ، وتحصل على العديد من الميداليات والجوائز منها وسام المستشرقين الذي تحصل عليه في باريس سنة 1924م ،وفي سنة 1933 تحصل على الجائزة الفنية الكبرى بالجزائر،وفي سنة 1950م عين عضوا شرفيا في الجمعية الملكية البريطانية للرسم و الممنمات بلندن[1].

وفي رأي الباحث الدكتور" **جمال مفرج**"، فإن "**محمد راسم**" وعددا من الرسامين الجزائريين الأوائل حذوا حذو الرسامين الأوروبيين وقلدوهم بشكل كامل، وهذا ما يفسر مشاهد العري التي أنجزها "**محمد راسم**" في"**لوحة نساء في الشلال**" مثلا ،وترجع الباحثة" **أنيسة بوعياد**" في دراستها القيّمة عن تاريخ التصوير في الجزائر ،السبب إلى تكوين "**محمد راسم**" ،إلى تتلمذه منذ صغره ،على يد علماء وفنانين مستوطنين أمثال "**بروسبار ريكار**"« Prosper Ricard »،"**إتيان ديني** " « Etienne Dinet » ،"**جورج مارسيه**" « Georges Marcais »،الذين أطروه تأطيرا جماليا غربيا ،فجاء فنه نتيجة لهذا التأطير،ونفس الشيء يقال عن الفنان" **معمري**" الذي يدين في تكوينه للرسام "**ليون كارييه**"« Léon Carré »ولهذا لا يوجد لديه أدنى نقد للتصوير الاستشراقي[2] . لكن لم يكن فن محمد راسم بكل ذلك التغريب ،فقد كانت جل أعماله الفنية تحاكي التاريخ وتستقرؤه بألوان زاهية . هنا نشير إلى عدة لوحات فنية مستوحاة من التاريخ الوطني نالت شهرة عالمية ،ونذكر منها ،لوحة"**الأمير عبد القادر** "منمنمة بألوان ترابية ،وكذ االلوحة الشهيرة "**معركة بحرية بين الأسطول الإسلامي والمسيحي** واللوحة العالميةالشهيرة "**بربروس** .

[1]- زيتوني (عبد الرزاق،المرجع السابق،ص373.
[2]- مفرج (جمال)،المرجع السابق،ص14.

أما" **عمر راسم**"[1] فقد شق طريقا فنيا خاصا به ،فقد كان رسمه يعتمد على الخط العربي، واستلهم من الثقافة العربية الاسلامية ،وقد نجح عمر راسم في تكوين جيل من الفنانين أعاد الحياة والاعتبار للفنون الاسلامية أمثال "**محمد تمام**"،"**مصطفى دباغ** "،"**بوطالب محي الدين**" .لقد كان" **عمر راسم**" على خلفّ أخيه محمد قد بعث التراث العربي الاسلامي بالاعتراض على الحركة الاستشراقية ،التي كان أصحابها يعملون لطمس كل ماهو عربي-إسلامي من جهة ،وتوحيد الفنانين الجزائريين الشباب وحمايتهم من الاغتراب ،من جهة أخرى.إن" **عمر راسم**" كان ينظر للفن كوسيلة لمقاومة الاستعمار ،وشحن النفس بالأخلاق[2].

ومن جهته فقد كان "**محمد تمام** "قد اتصل برواد الحركة الفنية الاستشراقية الأوائل ، وعلى رأسهم "**دواكروا** " ، "**فرومنتان**"،"**رينوار**"،"**ايتيان ديني**"واستقى معارفه الفنية من المؤرخ "**جورج مارسيه**"،ومن "**سوبيرو**"، "**لانغلو**" ،كما استقى الكثير من الرسم وتدبيج الألوان خلال انتسابه لمدرسة الفنون الزخرفة والمنمنات التي أسسها "**عمر راسم** "، ليعمل معا في إطار هذه المدرسة للتصدي للأهداف الاستعمارية الكامنة في حركة الاستشراق[3]،اشتهر" **محمد تمام** "كأحد أعمدة فن الزخرفة والمنمنات ،فضلا عن كونه رساما وفنانا تشكيليا ،فقد مزجت أعماله بين الفن الشرقي والفن الغربي المعاصر ،مما يعكس البيئة الاجتماعية والتنشئة الفنية التي عاشها في الوسطين الأهلي والأوروبي معا[4].

وفي الوسط النسوي فقد تفننت"**باية محي الدين**"[5] في صنع تجربتها الفنية الجمالية بأناملها رغم قصرها إلى درجة أن أحد النقاد المغاربة يدعي" **إبراهيم الحسين** "قال عنها :"**أنها**

---

[1]-عمر راسم(03جانفي1884-13فيفري 1959) من حي القصبة العريق ،رسام وفنان تشكيلي أبدع في فن المنمنات ،اشتغل في الصحافة في جريدة المبشر والطباعة منذ 1898،ثم انتقل للصحافة الإصلاحية في جريدة ذوالفقار ،متأثرا بالفكر الإلاحي الذي تزعمه في بداية القرن 20الشيخ محمد عبده والمصلح شكيب أرسلان ،رغم مروره بالمدرسة الفنية الفرنسية إلا أنه استقى من تقاليد عائلته العريقة المبادئ الاسلامية المحافظة عكس أخيه محمد ،اشتهر عمر بمزج لوحاته الفنية بالطابعين الفارسي و العربي،وبذلك يعتبر عميد فن التهذيب والخط والمنمنات.للمزيد أنظر:

- سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج10، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-1998

- ناصر (محمد)، **عمر راسم المصلح الثائر**، ط2، وزارة الثقافة، دار لافوميك، الجزائر- 2013،ص405.

[2]- مفرج(جمال)،المرجع السابق،ص14.

[3]- بوزار (حبيبة)،**مكانة الفن التشكيلي في المجتمع الجزائري دراسة ثقافية فنية** ،أطروحة دكتوراه قسم الفنون، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان ، 2014/2013،ص137.

[4]- مردوخ(إبراهيم)،**مسيرة الفن التشكيلي في الجزائر** ،الطبعة الأولى ،الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها ،منشورات وزارة الثقافة الوطنية ،الجزائر-2005،ص،ص36، 37.

[5]-كللت الفنانة التشكيلية باية أول عرض لأعمالها الفنية سنة 1947بباريس،حيث أعجب بها الجمهور الفني إعجابا كبيرا وانبهر النقّاد بفنها البدائي-العفوي الساذج-وقد أثارت لمستها الفنية وطريقتها اندهاش .فنانين .عالميين أمثال "ماتيس" وبيكاسو"و"جورج براك" والشاعر السريالي "أندري برايتون"،ولا تزال أعمالها الفنية لحد اليوم مصدرا للألهام للعديد من الفنانين الحاليين ،للمزيد أنظر:

رسامة فطرية امتزج أسلوبها بعفوية الأطفال، ونافست أعمالها كبار الفنانين العالميين أمثال "بيكاسو"، "براك "، "ماتيس" .وعنها قال الشاعر **"أندري بريتون": "إن ما تسعى إليه باية أمر له دلالة كبيرة "**، إذ لا يمكن إغفال دور السيدة الفرنسية **"مارغريت كامينا"** في نمو وتبلور روح التنشئة الفنية لدى باية بحيث أنها صقلت مواهبها وروضت فطرتها واستفزت ملكاتها في الرسم وشجعتها على الاعتكاف في ما يسمى بالرسم التجسيمي الذي حولته باية إلى الفن الساذج ،كما أن ندرة الكتابات والقراءات حول الفنانة باية ومسارها وانجازاتها يعود إلى ظروف تاريخية حالت دون أن يذاع صيتها بحيث أنه بمجرد أن بدأت إبداعاتها تنكشف إلا وصادفت الفنانة عائق الاستعمار والثورة التحريرية المجيدة.

إذن ومن هذا المنطلق، ارتسمت التجربة الفنية التشكيلية لهذه الفنانة وتجلت معالمها فيما قاسته على المستوى الشخصي ،حياة اليتم ،وعلى المستوى الفني عندما توقفت عن الرسم ثم عادت تحت الإلحاح، وهذا ما سيظهر وتتضح ارتداداته على لوحاتها الفنية التي ستعكس هذه التجربة، وستكشف عن نمط جديد من الفنون هو" **الفن الساذج"** [1].

وإذا حاولنا إجراء دراسة لأيقونات الرسم التشكيلي في لوحة" **امرأة وطائر في قفص"**[2] تظهر أشكال مشوشة بألوان حمراء نارية، وزرقاء داكنة، يتوسطها قفص بلون أسود، والناظر لهذه اللوحة يتراءى له منذ الوهلة الأولى أنها لوحة من فن المنمتمات، كما أنه سيعجب برسم الطائر وهو يقبل يد المرأة التي تبدو بين طرفين متقابلين نصف جسد على اليمين والنصف الآخر على الشمال، وبين اللونين الأزرق والأحمر تظهر حرارة الصورة وبراءة الدهشة التي تتصارع في هذه اللوحة، كما أن الفنانة لم تدخر أي جهد أو تكليف في استخدام الألوان لأنها اعتمدت على لونين بريقين يخدمان بصورة بسيطة الموضوع المراد تشكيله[3].

لعز(نور الدين) ، " **قراءة في التجربة الفنية التشكيلية للفنانة باية محي الدين "استتيقا البساطة، استتيقا الإبداع"** مجلة جماليات، عدد01، الجزائر، مختبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية، جامعة عبد الحميد بن باديس،مستغانم ،شتاء ،2014،ص-ص28-32. متاح على الرابط:

. http://evpaa.univ-mosta.dz/wp- /revue-ar28-03-2015.pdf : URL

[1]- بلعز (نورالدين)،**"قراءة في التجربة الفنية التشكيلية باية محي الدين إيستيتيقا البساطة،ايستيتقا الإبداع "**،مجلة جماليات ،العدد1،،مجلة دورية محكمة ،مخبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية ،جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم -2014،ص،ص32، 33.

[2]-أنظر الوحة في الملحق رقم06،ص490.

[3]-المرجع نفسه،ص،33.

وفي لوحة **"الشابة والطاووس"** يتجلى سحر لا مثيل له في عالم الفن التشكيلي،الشابة تتوسط الطاووس الذي يظهر على طرفين متقابلين على اليمين بشكل مائل ذو لون أزرق يميل إلى البنفسجي،وعلى الشمال يظهر بشكل واضح وبلون بني وكأنه يحاول أن يتلمس يدي الشابة،ويغلب على اللوحة اللون الأسود،كما أن اللباس الذي ترتديه الشابة تمتزج فيه جميع الألوان الموجودة ،الأزرق،البني،الأسود،وهي الألوان الأساسية في اللوحة [1].

كان" **محمد إسياخم**"[2] نموذجا آخر للفن الجزائري لكنه بأسلوب النضال ضد عنف المستعمر وبؤس حياته القاسية ،فقد خلّد على قماش لوحاته محطات عديدة من تضحيات الشعب الجزائري للتحرر والانعتاق من هيمنة الكولونيالية، فأعماله كانت ثورية أبرزت الفن الأصيل والمعدن الثوري للفنان ، وكانت لوحاته تجسد معاناته تحت حكم المحتل ،فالتعبير عبر لوحاته هو بمثابة غريزة وحتمية لا مفر منها وهي إحساس وشعور وأفكار عرف كيف يوظفها في صياغة فنية حديثة، ولهذا السبب، جاء الكم الكبير من الإنتاجات الفنية القوية في خالدة في تعابيرها الصادقة، لما تحمله من قيم فنية، أما الألوان والشكل فقد حاول من خلالها عكس الواقع االمرير لذي عايشه .إذ كانت الثورة مصدرا مهما في تعديد موضوع وأسلوب عمل الفنان إسياخم، ليعكس معاناة الشعب الجزائري في عالم ممزق والأزمة النفسية الناتجة من قهر الاحتلال ،وفي نفس الوقت لم تخل من التفاؤل والأمل في غد أفضل .فقد حاول أن يتغطى عذابه في بحثه المأسوي عن الحقيقة وفي سعيه الدؤوب للوصول إلى مفتاح الخلاص الفردي والجماعي، فانعكست شخصيته بما فيها من مواهب وقدرة إنتاجية، في تصوير نضال الشعب خلال وقبل الثورة التحريرية وترجمته إلى لوحات فنية رائعة ، فكانت النتيجة أن يترجم من خلال أسلوبه تجربة حياة الشعب الجزائري في التصدي بالكفاح بحثا عن الحرية التي دعى إليها إسياخم في الكثير من أعماله منها: **"الشهداء،إحياء نكرى،ظل**

---

[1]- مردوخ(إبراهيم)،**مسيرة الفن التشكيلي في الجزائر**، المرجع السابق، ص،ص33، 34.

[2]-كان الحادث المأساوي الذي تعرض له محمد إسياخم في عام 1943 ،والذي بتر ذراعه الأيسر بعد لهوه بقنبلة أمريكية كانت ملقاة في حقل أثر في نبوغه الفني وتحول مسيرة حياته نحو الفن ،فبعد نهاية الحرب الكونية الثانية التحق بمدرسة الفنون الجميلة ليتعلم فن المنمنات والرسم التشكيلي الحديث ،ليتعرف فيما بعد بمحمد راسم الذي شجعه على الالتحاق بمدرسة الفنون الجميلة بباريس خلال السنوات الأولى للثورة،كانت روائعه الفنية "بوحيرد ""الأرملة "،"ذكرى فلان"،"الصبية "وغيرها مستلهمة من معاناة الشعب بكل أطيافه من نير الاستعمار وظلم المستعمر ،وفي رأي الناقد الفني أحمد عبد الكريم فإن أعمال إسياخم هي انعكاس للقهر الذي عاناه في طفولته .أنظر:

- مراد حمدان'(سوسن)،**الفن الأمازيغي البدائي وآثاره على الفن التشكيلي الجزائري**،منشورات الإبريز،وزارة الثقافة ، الجزائر -2015،ص104.

ثورة،المعطوب،البحث عن الحرية عن الفكرة"[1] ، نستشهد هنا بلوحة فنية تمثل إمرأة حزينة تعبر عن المكابده لكل أشكال القهر وعناء الحياة ومجابهة الواقع المرير، التي عانته الجزائر خلال الحكم الفرنسي كلها تعبيرات صادقة نابعة من نفسية إسياخم المبدع وهي لوحة **"الشمس السوداء"**[2] ،في نطاق قراءة لوحة الشمس السوداء ما يشد انتباه المتلقي، وعلى الرغم من بساطة التكوين إلا أنه استطاع أن يبين الحزن والعناء بشكل جلي، باستخدامه لدرجات لونية حادة قصد عكس المزاج العصبي والقلق أثناء العملية الإبداعية،باستعمال الملمس الخشن للتعبير عن الحياة الدرامية الكئيبة، مما يصنع انسجاما بينه وبيين المتلقي،وتبدو فيها تجليات معاناة الواقع اليومي المستنبط من الثورة فالبيئة مصدر الاستلهام عند الفنان كذلك هو الألم والمعاناة فقد لعب دورا في تحديد أسلوب وموضوع عمله وفي ترجمة الأحداث الثورية[3].

الخلاصة

كان الفن التشكيلي في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية،بالرغم من جماليته وسحره ،أداة لاختراق العالم الشرقي "الجزائر" وفهم كنهه ومن ثم العمل على تشويهه ونقل صورة مخالفة له للملتقي الميتروبوليتاني صورة الغاية منها الانتقاص من قيمة الشرق ،وضرب مبادئه

لقد مثلت فيلا عبد اللطيف ،مدرسة فنية بامتياز ،ساهمت بتخريج العشرات من أمهر الفنانين الأوروبيين ،ذاع صيتهم في الداخل والخارج ،وعلى الرغم الانتقادات والآراء المتباينة حول ماهية الفن الذي جادت به هذه المدرسة وأهدافه ،إلا أنها سمحت لنا بتذوق لوحات فنية جميلة نقلت لنا مشاعر وصور متناقضة عن واقع الجزائر الاستعماري ،من بؤس شعبها وأفراحه .

ساهم احتكاك الأهالي الجزائريين بالفنانين الأوروبيين ،وارتيادهم لمدرسة الفنون الجميلة تفتق موهبهم ونضج معرفتهم الفنية . فقد كان الإخوة راسم وباية محي الدين وإسياخم وغيرهم على اختلاف مدارسهم الفنية ،واختلاف تأثرهم بالفن الكولونيالي إيقونات فنية خالدة ،ولم يعبر فنهم سوى على إرادة الفنان الأهلي في تحدي واقعه الاستعماري المؤلم .

---

[1]-سوسي(مهدي)،**"الثورة في أعمال امحمد إسياخم"**،مجلة جماليات ،المجلد الأول ،العدد الرابع مجلة دورية محكمة ، مخبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية ،جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم ،ديسمبر 2017، ص، ص48،49 .

[2]-أنظر الصورة في الملحق 07،ص490

[3]-المرجع نفسه،ص51.

ثالثا: المستوطنون والأهالي و فن المسرح "الرسائل والمضامين"

يعتبر فن المسرح فنا نبيلا ،احتل نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مكانة رئيسية لدى غالبية الشعوب ،ومثّل المتنفس الأساسي ليس فقط في عقول وقلوب عاشقيه ومحبيه ،بل لأكثرية الناس في العالم والجزائر .فقد برع الفنانون الأوروبيين والجزائريين الأهالي في تقديم مسرحيات ذات محتوى وأخراج جيّد ورسائل وأهداف متباينة ومتناقضة،بالرغم من قلة التجربة آنذاك ،وإذا كان لدى الأقلية الأوروبية مجالا ترفيهيا ،فإنه كان بالنسبة للفنانين المسرحيين الجزائريين يحمل معنى وهدف أكثر منه وسيلة للترفيه والتسلية .**فما واقع المسرح في الجزائر ،وكيف وظف سياسيا لدى المجموعيتن ؟ولما مثّل لدى الأهالي أكبر وسيلة للمقاومة الثقافية ؟**

1-المسرح الكولونيالي في الجزائر (النشأة والمحتوى)

ولدت فكرة تأسيس مسرح فرنسي بالجزائر مباشرة بعد الاحتلال ،وذلك بعد إصدار الحاكم العام "**كلوزيل**" لأمريتين يوم 12نوفمبر 1830تقرر فيهما إنشاء مسرح فرنسي بمدينة الجزائر العاصمة لتقديم عروض للباليه والأوبرا الإيطالية لترفيه الجيش الفرنسي المرابط بالمدينة ومن معه من الوافدين الجدد،وقد كان من المفروض أن يتكفل "**بيليسي** "وهو أحد المقاولين الفرنسيين ببناء أول مسرح للأوبرا في الجزائر ،غير أن التفاهمات مع الحكومة الفرنسية حول قيمة المشروع والاعتراضات التي رافقته ،أدت في النهاية إلى تأجيل إنجازه إلى وقت لاحق،فقد رفض المسؤولون السامون في الحكومة الملكية برئاسة" **الدوق دومال** "الصلاحيات الكاملة التي يدعيها "**كلوزيل** "،وأن باريس لم تقر أبدا الاتفاقية المتعلقة بإنشاء مسرح في العاصمة،وفي سنة 1832 بدأت التجربة الأولى للمسرح الكولونيالي بالجزائر حينما سمح الحاكم العام "**الدوق روفيغو** "بإطلاق أول العروض المسرحية ،فقام ضباط جيشه والموظفين الإداريين بتقديم عروض كوميدية للمجتمع البرجوازي الذي بدأت تتشكل نواته بمدينة الجزائر. كان الهدف إسعاد الأوروبيين، وتوفير جو يحاكي أجواء أوروبا [1].

[1] - Lepagnot (Lucette), « **Les théâtres en Algérie de 1830 à 1860 »,** Revue Outre -mers ,Revue d'histoire des colonies,N°137 , Paris-1952 ,p,p 77,78.

وفي إطار تغير النمط العمراني التقليدي ليتلائم مع حاجيات وأذواق القادمين الجدد ،أسس المستوطنون مسارح على النمط الإيطالي لاستقبال الفرق المسرحية الآتية من فرنسا ومن كل المدن الأوروبية[1]

لقد تصرف المارشال" **كلوزيل**" من تلقاء نفسه دون انتظار تعليمات مكتوبة ، لثقته الكاملة في الملك ووزارة الحربية ،والتي كان يعتقد فيها بأنها لن تعترض لأوامره في إفريقيا ، وأنه كان لديه أسباب جيدة للرغبة على الفور بإثارة مشروع بناء مسرح يخرج الجيش المحبط من نفسيته المتدهورة من الحرب ، هذا من ناحية ،أما من ناحية أخرى ، فقد كان المسرح بالنسبة لكلوزيل بمثابة وسيلة من وسائل التحضير للمجتمع البدائي ،وركحا لامتزاج الثقافات ،ثقافة المستوطنين الجدد بثقافة أصحاب الأرض وليس ركحا لعرض المسرحيات فحسب، ولهذا كتب يقول:"**عرضنا فكرة مزج ثقافات الشعبين في مشاعر مشتركة ، يكون المسرح فيها أحد أقوى الوسائل لجعل فرنسا وحضارتها أقرب إلى الرجال الذين أن نبيدهم بأسلحتنا..ولاستعمار الجزائر، يجب أن نعلق آمالنا، قبل كل شيء ،على كسب روح السكان بجعلهم يحبون الفرنسيين ،وتقريبهم منا،و من قيمنا،ومن عاداتنا ، يجب منح فرص الحياة الأفضل للمهاجرين الجدد من أوروبا** "[2].

وبالعودة إلى نشأة مسرح مدينة الجزائر ،فإن تأسيسه كاد أن يتوقف بسبب المشاكل المالية ولتداخل الصلاحيات وتضارب المواقف حول مدى أهميته في الجزائر من عدمه ،ولاعتبار بعض الساسة من أنه ليس في مقدمة الأولويات ،ولذا فإن إلحاق جهاز ثقافي بوزارة الحربية خلال العقود الأولى التي تلت الاحتلال صعّب من نشأة هذا الفن بالجزائر.ولعل وصاية وزارة الحربية عليه وتعقيدات الإجراءات أبطأت العمل المسرحي الكولونيالي بالجزائر ،ففي الفترة الممتدة من 1830إلى 1846كانت تمنح إدارة المسارح للمقربين من الحكومة الفرنسية ،سواء أكان ذلك خلال العهد الملكي أم الجمهوري أم الإمبراطوري ، إذ كان يجب على المترشح للمنصب التقرب من السلطات المحلية ،وهي الوحيدة المؤهلة آنذاك لتقييم طلبات المترشحين

[1]- casas (Arlette), « **théâtre algérien et identité** « », Revue du mots .Les langages du politique , N°57,presses des sciences po , Décembre 1998- Paris,p55.

[2] - Lepagnot (Lucette),op-cit,p78.

، لتحال بعدها لمدير الداخلية بالجزائر بعد موافقة المجلس الأعلى لإدارة الجزائر ، لتحال فيما بعد إلى الحاكم العام العسكري الذي يرسله بدوره إلى وزير الحرب. وبعد موافقة الأخير على طلب الامتياز ،يعود الطلب إلى المستفيد بنفس الطريقة المعقدة ، يمكن أن يقدر الوقت اللازم لهذه الإجراءات الرسمية شهرين كاملين،ولم تخفف الإجراءات إلا بعد عام 1848،إذ أصبح من الممكن للولاة والمجالس البلدية تسهيل عمل المسرحيين ، غير أن امتياز العمل لا زال تحت السلطة الخاصة لوزارة الحربية ،كل تسوية للخلافات حول تطبيق ذلك الامتياز تتولاه السلطات المحلية ،إلا في الحالات المعقدة يرجع حلها للسلطات العليا [1]

وإلى غاية 1843لم تكن هناك مسارح ملائمة للعرض المسرحي بالجزائر ،غير أن ذلك لم يقلل من شأن انتشار التجربة المسرحية بالجزائر ،فالحاجة لترفيه المستوطن في بلد تختلف قيمه وظروفه اختلافا عميقا عن قيمه التي تركها في بلده الأصلي كانت أكثر من ملحة ،ولذا نجد رواد المسرح الأوروبي قد جالوا في المدن المحتلة ليقدموا عروضهم المسرحية ،في كل من وهرن ،سكيكدة ،عنابة قسنطينة ،البليدة ،مليانة فمدينة تلمسان عام 1848ثم مدن بجاية مستغانم الشلف "أورليان فيل" بعد عام 1849،وفي 1851تشهد مدينة المدية أول عرض مسرحي لها ،وفي عام 1854تتعرف مدينة بلعباس هي الأخرى على المسرح الأوروبي،ومع توالي السنين تزداد العروض المسرحية انتشارا ونشاطا بباقي المدن الجزائرية المحتلة،ومن أجل حماية حقوق الإدارة الاستعمارية والمصالح المدنية ،فإن تلك الامتيازات كانت تمنح بعقود مؤقتة لمديري المسارح من أجل ممارسة أنشطتهم،فقد تراوحت المدة من 5إلى 9سنوات في العهد الملكي ثم خفضت مدتها إلى 3سنوات كحد أدنى عام 1848خلال العهد الملكي [2].

وكان القادة الفرنسيون يحاولون إصباغ المجتمع الجزائري بصبغة الأوروبيين خاصة، فأعادوا تخطيط المدن وأقاموا الشوارع والبنايات ،وأنشئوا المطاعم والملاهي والقصور والحدائق الغناء ،ووفروا للسكان الجدد الأوروبيين حياة ثقافية ذات نمط أوروبي ،من قاعات للمطالعة وإصدارات للجرائد والمطابع ،واستقدموا فرق مسرحية من فرنسا لتقدم عروضا

[1]-Ibid,p81.

[2] - Lepagnot (Lucette),op-cit,p,p80,81.

للثكنات وأماكن اللهو ،حتى قيل عن الفرنسيين:"**إن المسرح يسير معهم أينما ذهبوا،فهم يحبون المسرح بمختلف أنواعه ،ويعتبرونه لازمة من لوازم حياتهم الاجتماعية "**[1].

مع مضي السنون، نظمت السلطات الاستعمارية العمل المسرحي وحفظت بموجب الأحكام الأساسية الموجودة في جميع العقود معظم الحقوق لممارسي هذا النشاط الفني ومديريه. إذ يمكن تلخيص التزامات المديرين وفقاً للمرسوم الصادر عام 1845 ،والذي تم إرساله إلى البليدة،ومن ثم تم إرسال نسخ منه إلى قسنطينة وسكيكدة ...وباقي المناطق ، فهي تتعلق بالمتطلبات الرئيسية بممارسة مهام تسيير المسرح وتصنيفاته إلى أنواع اعتمدتها الحكومة (كوميديا ، دراما ، vaudevilles ، الأوبرات في وقت لاحق) وشروط تكوين الفرق مسرحية في الآجال الزمنية المحددة ،واحترام قرارات السلطة المحلية بشأن عدد الأيام والساعات والتعريفات وشرطة قاعات العرض...وغيرها من الشروط المحددة للعمل المسرحي[2].

كما هو الحال بالنسبة لفرنسا ،وبالشكل نفسه ،فقد أخضعت المسارح تحت رقابة الشرطة ، كما ألزمت القوانين المنظمة لهذا الفن مسارح الجزائر بدفع نصيب من الأرباح لصالح الفقراء من المستوطنين ،بمايعادل1/11 من الإيرادات اليومية ، واحترام حقوق المؤلفين والناشرين المنضوين في جمعية المؤلفين والملحنين والموزعين الموسيقيين ، التي تشكلت في عام 1850 ، والتي تم إضفاء الشرعية عليها من قبل محكمة النقض في 24 يونيو 1852 ، وقد عمم القانون ليشمل كامل التراب الجزائري في عام 1853[3].

قدم المسرح الكولونيالي أعمالا كانت في البداية استلهمت مواضيعها من النوستالجيا أو تكرار للمسرحيات الشهيرة والأوبرات التي انتشرت خلال القرن التاسع عشر، ففي حوالي عام 1850 ،قدمت أعمال "**دونيزيت**Donizetti[4] الموسومة ب، **"آنا بولينا"** Anna

[1] – لمباركية (صالح)،**النص المسرحي العربي في الجزائر 1922–1972**،أطروحة دكتوراه في الأدب العربي الحديث، قسم التاريخ وآدابها ،جامعة العقيد الحاج لخضر ،2002–2003،ص27.

[2]- Lepagnot (Lucette),op-cit,p82.

[3] -Ibid,p93.

[4]-أنا بولينا هي أوبرا غنائية شهيرة للعازف الإيطالي الشهير غايتانو دونيزيتي ،أخرجها للمسرح فيليس روماني يوم 20 ديسمبر 1830،قدمت لأول مرة في مسرح كاركانو الشهير بمدينة ميلانو ،اعتبرت آنذاك إحدى أجمل الأعمال الفنية والغنائية ليس في إيطاليا فحسب بل في فرنسا أيضا،نقلت وأعيد عرضها في عدة مسارح فرنسية وفي مسرح الجزائر ،للعازف والمسرحي دونيزيتي أعمال مسرحية كثيرة ،نكتفي بالذكر منها "فرانسيسكا ودفويكس""لونوزي إن فيلا"،"ألفريدو الكبير "وغيرها ،للمزيد أنظر:

Bolena ، **" لوتشي دو لاميرمور« Lucie de Lammermoor »** ،في **"لافافوريت " « la Favorite »** ،والعمل الفني ل"**بوللليني" « Bollini** »الموسوم ب « **LA Norma** » و"**روسيني**"« **Rossini** »في **"حلاق إشبيلية"« Le Barbier de Séville**، و"**بوديلديو**"« **Boïeldieu** »في "**السيدة البيضاء " La Dame Blanche** »،فقد كانت هذه الأعمال وغيرها بداية للنشاط المسرحي [1]

والجدير بالذكر ،فقد كان الجنود أنفسهم يقومون بتمثيل بعض الأدوار النسائية ،ويمكن أن نقول أن الفرنسيين أنشئوا مسرحا فرنسيا في الجزائر يعبر عن حياتهم وبيئتهم ،ولذلك كانت مسرحياتهم الأولى تحمل أسماء من الواقع الاجتماعي الجزائري ،مثل:"العربي والبدوي والبربري والميزابي واليهودي وسالم ،والتومي ،وبابا عروج وخالد،وأسماء نسائية مثل : عائشة واليهودية والكاهنة ،بالإضافة إلى أسماء محمد قدور عيسى[2].

أوحت الجزائر للكتاب المسرحيين الفرنسيين بما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مسرحية بين سنوات (1830-1925)،مما أدى بالقوات الاستعمارية إلى التفكير ببناء مسارح بلدية في كبريات المدن الجزائرية المحتلة ،كل العاصمة ووهران ،قسنطينة وعنابة وسطيف وباتنة وسكيكدة ،وقد تم تقديم عروض مسرحية داخل هذه المسارح ،كمسرحية"**عبد القادر في باريس**"التي عرضت حتى في باريس 1842،ومسرحية **"أسير الداي"**،ومسرحية **بابا عروج"**لصاحبها "**جوبيان "« jupain »** التي قدمت على خشبة مسرح العاصمة وقد تم مسرح "دار الأوبرا"سنة 1850وقدم فيها أول عرض مسرحي يوم 29سبتمبرّ1853،من تأليف **الكابتان "دي كورا"« de cora »** ،فحوادثها تدور حول الاحتلال الفرنسي للجزائر ، وهناك مسرح آخر بالعاصمة " المسرح الكبير "أو "الامبريالي"،بني سنة 1860، وعرضت فيه حفلات للبالييه[3].

-Damien (Colas), **« Parler sans accent : Examen de la déstalinisation de la prosodie dans Dom Sébastien »,** Actes du colloque Donizetti, Parigi e Vienna, Rome, 19-20 mars 1998, , Accademia nazionale dei Lincei, Rome- 2000,p181.

[1] - Lepagnot (Lucette),op-cit,p,p93,94.

[2] -- لمباركية(الصالح)،المرجع السابق،ص27.

[3] - المرجع نفسه،ص28.

نشط أوروبيو الجزائر بهدف إنشاء مسرح مستقل يعبر عن هويتهم الخاصة وعالمهم المنزوي، لذا فقد حاولت الأقليات الأوروبية جاهدة التأسيس لمسارح خاصة بها ،وتكون الأعمال المسرحية ناطقة بلغاتهم الأصلية ،وأول من سعى لهذه الغاية الاسبان والإيطاليين ، والذين راسلت قنصلياتهم في اسبانيا وسردينيا إدارة الاحتلال على بناء مسارح خاصة بهم ، إلا أن إرداة الاحتلال وسياسته كانت توحيد المسارح وتخصيص أوقات معينة لكل فرقة مسرحية لتقديم عروضها الفنية لجمهورها الخاص بها[1] .

وما يمكن قوله عن هذه المسرحيات بأنها مرتبطة بالزمن الذي مثلت فيه وأحداثها آنية دعائية ،غرضها التشهير ،وهدفها التسلية والترفيه،وقد جاء كشف عناوين هذه المسرحيات عند كل من "محي الدين باشطرزي"في مذكراته ،وأبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي

ومن المسرحيات الكولونيالية المقدمة بالجزائر ،والواردة في كتاب " الجزائر في الأدب الفرنسي "لصاحبه"**شارل تيليار" « Charles Tailliart »** المطبوعة سنة 1925[2].

المؤلف	المسرحية	تاريخ العرض
منديل داكستا	داي الجزائر عند السيد بولينياك	1830
موكبيرو	عبيد الجزائر	1830
جوهر ثيودور و كوينار	قصة حرب مدينة الجزائر	1831
جارند دوبواز	حيلة بالحب أو هجوم البدو	1833
جوهر	أسير عبد القادر	1840
دوميير سيان وفونتني	عبد القادر في باريس	1842
كارموش	البغايا في إفريقيا	1842
فوتييه وبارفيه	اليهودية القسنطينية	1846
جابيان	عروج بربروس	1849
سوفاج	القايد	1849
دي كورا	الجزائر	1853

[1] – Casas (Arlette), op-cit,p96.

[2]- لمباركية (صالح)،المرجع السابق،ص29.

مكلمان	المريسكية	1858
إدمون	الإفريقي	1860
جالييه	نقرأ في الأخبار	1864
البرقي زيون	زواج سيزاري أو الزوج الذي لا بد منه	1867
ليقوتيه	زمرة تلمسان	1877
ليقوتييه	الحب الإفريقي	1877
بويلوس	عمار	1877
ديهير فيليه	عين بني مناد	1878
ريبولي	الزواج	1890
الصديق بن العوطة	وصاية الجزائر	1913
الصديق بن العوطة	حادث المروحة	1914
لينورومانـد	السيمون	1920
شوازيني	الكاهنة	بدون تاريخ

من البطلات المسرحيات ذوي الأصل اليهودي اللاتي سطع نجمهن على الركح في مجال التمثيل والغناء سواءا، أكان ذلك مع الممثلين الأهالي أم مع أوروبي الجزائر نجد الممثلة "**ماريا سوزان**" ،إذ قاسمت هذه الممثلة بطولة عدد من الأعمال المسرحية التي أنتجها وقدمها الممثل "**رشيد قسنطيني** "،فلم تكن تتمع بموهبة التمثيل فحسب ، بل كانت مغنية ذات صوت جميل ،ولم يكن لها إلا عيب صغير وهو اللهجة التي تميز يهوديات قسنطينة ،كما مثلت مع "**محي الدين بشطارزي**" في عدد من الأعمال المسرحية ،منها مسرحية الجزائر وتونس[1]

عرف المسرح الأوروبي في الجزائر نوعا من الاستفاقة في أوائل القرن العشرين،حاله كحال الفنون والآداب عموما ،إنها نتاج تلك الطفرة الثقافية التي كان سببها" **جونار**"،وامتدت آثارها الإيجابية لتشمل الجزائر بأكملها،فقد تشكلت عدة فرق فرنسية ،وقدمت عروضا باهرة في العديد من المدن ،ولعل أهم تلك العروض المسرحية المؤدات آنذاك**"ينبوع بني مناد** "أو **« la fontaine de béni ménad »**"**مارسيان**"**« Marcienne »** ،"**لوسيمون**"

[1]- سلالي (علي)،**شروق المسرح الجزائري** ،ترجمة أحمد المنور،منشورات التبيين ،الجاحظية ،الجزائر-2000،ص35.

للمسرحي لينورمان « Lenorman» "« Le simoun » ،"الكاهنة"« Kahina » للدكتور شوازني ،"زهرة تلمسان "« la Fleur de Tlemcen » ،"الحب الإفريقي"[1]« L'Amour Africain »

مثلما تميز الانتاج الأدبي للمستوطنين بعد الحرب لعالمية الثانية بالتراجع والضعف وقلة الإصدارات،كان الإقبال على الكتابة المسرحية كذلك محتشما ،وحتى العروض المقدمة على الخشبة كانت تتصف عموما بالبساطة وبالقلة ،فقد شبه "**ألبير كامو** "جمود الحياة المسرحية بالجزائر العاصمة بالصحراء القاحلة ،ومن الكتاب الذين تركوا بصمتهم في المسرح الأوروبي بالجزائر ،نجد **جيل روي** « Jules Roy »،**ألبير كامو** « Albert Camus »،**إيمانويل روبلاس** « Emmanuel Roblès »[2] « Henri Kréa ».و من أشهر الكتاب المسرحيين الأوروبيين نجد "**هنري كرية**" [3] ،الذي كتب مسرحية "**الزلزال**"،وهي أشبه بالسرد الكرونولوجي لتاريخ الجزائر قبل وخلال الاحتلال الفرنسي،وأيام اندلاع الثورة ،فعنوان العمل المسرحي "**الزلازل**" ،والذي لم يترجم إلى مشاهد كي تؤدى على الركح، كما كان للمسرحية دلالات رمزية تعبر على نهاية فرنسا بالجزائر ،ونهاية لشراكة لم يكتب لها النجاح بين المكونين الأهلي والكولون ،والتي لطالما كانت أمل العديد من أوروبيي الجزائر ،من أمثال هنري كرية ،وروبلاس، وكامو،يحمل هذا العمل المسرحي نبوءة الثورة الدامية التي تنهي الوجود الفرنسي وتجلب للأهلي حرية واستقلاله [4].

[1] - Chéniki (Ahmed), **Le théâtre en Algérie: Histoire et enjeux**, Edition sud, Aix-en-Phrovence, 2002,p16.

[2] - Hadj (Dahmane) , **Engagement et contestation dans le Théâtre algérien des origine à nos jours**, Thèse de doctorat, Faculté des Lettres, Langues et Sciences Humaines, Université de Haute Alsace, Mulhouse 2009,p144.

[3]- مسرحي وصحافي وناقد أدبي كولونيالي، رحل فرنسا بعد استقلال الجزائر. إلى جانب عمله مسرحية "الزلزال" ،فهو مؤلف للعديد من الروايات ،ومنها رواية جمال Djamal (باريس ، 1961) ،كما له عدة مقالات حول الأدب المغاربي والمسرح الجزائري وإصدارات شعرية: "مدة طويلة "(باريس 1955)؛وأعمال أخرى نشرت عام1964،أهمها: الحرية الأولى ،الثورة والشعر ، وبالرغم من كونه من الأقدام السوداء كان مروجا للغة الجزائرية وثقافتها المحلية ،عرف بارتباطه بالجزائر وداعيا لاندماج الأعراق، ومتعاطفا مع الأهالي الجزائريين،دعا عام 1960إلى التحدث بلغة جديدة تحتوي على خليط من المفردات العربية والبربرية والاسبانية والمالطية ،لغة تعكس التمازج الإثني المتعارف عليه في الجزائر .للمزيد،أنظر الموقع الإلكتروني التالي:

www.wikipoemes.com/poemes/henri-krea/

[4] -Hadj (Dahmane),op-cit,p,p145,146.

أما الكاتب المسرحي الثاني ،فهو الكولونيالي ذو الأصل الاسباني **"ايمانويل روبلاس"** **« Emmanuel Roblès »**[1]،المؤلف لمسرحية **"مونت سييرا " « montserrat »** ، والتي تدور حبكتها وأحداثها حول القمع الاسباني بعد احتلالهم لفنزويلا ، وتصوير مشاهد تمثيلية للمعركة التي حدثت بين حاكم فنزويلا "ميراندا" والجنرال الاسباني "مونتفيردي" يوم11جويلية 1812،والمجازر الفظيعة التي ارتكبت خلال عملية الغزو،إذ انتقد هذا مؤلف هذا العمل الجريمة التي ارتكبها أسلافه الاسبان في حق السكان العزل في فنزويلا ، وأمريكا الجنوبية بشكل عام ،لكنه لم يشر بشكل ضمني أو صريح إلى تجريم للظاهرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وممارساتها الهمجية التي تجاوزت الوصف،ولم يبد أي تعاطف اتجاه مسألة كفاح الأهالي المسلمين للتحرر والانعتاق من القيود الاستعمارية، وبالرغم من ذلك فإنه لما تقرر عرض المسرحية عام 1952قامت الإدارة الكولونيالية بمنعه من العرض[2].

ومثلما كان كامو يمثل حالة فريدة من الالتزام في مجال الأدب ،فهو كذلك في مجال المسرح ، ففي عام 1936أسس ما يسمى بمسرح العمل « **Le théâtre de travail** » الذي ساهم في إخراج وتقديم مسرحيته[3]« **la révolte dans les Asturies** »،والذي يروي التمرد الذي قام به العمال في مدينة أوفيدو سنة 1934[4].

حاول كامو إضفاء روح جديدة على المسرح الكولونيالي بالجزائر،وإعطائه نفسا جديدا ليتماشى مع روح العصر ومتطلبات التجديد،فأنشأ ما يسمى بمسرح الفريق ليكون بديلا

[1]-مؤلف وكاتب مسرحي من الأقلية الأوروبية في الجزائر ،ينتمي ليتار الجزأرة الأدبي ،من أصول اسبانية ،ولد في وهرن وترعرع فيها ،صديق ألبير كامو ،أسسا معا مسرح الفريق من أشهر أعمالها المسرحية ،الجزيرة المتصحرة عام 1941، الحقيقة المتوفاة ،سنة 1952)(**1941 Île déserte**)(**1952 : La vérité est morte pièce en 3 actes**)،للمزيد أنظر:

- Emmanuel Roblès et ses amis, actes du colloque de Montpellier, sous la dir. de Guy Dugas. Montpellier, Presse universitaire de la méditerranée, 2000.

- Dugas (Guy) , **Emmanuel Roblès. Une action, une œuvre**, éditions du Tell, Alger- 2007

[2] - Hadj Dahmane,op-cit,p,p146,147.

[3]-الغريب في كتابات كامو ،سواءا أكانت مسرحية أو رويات ومؤلفات أدبية تكتسي من جهة طابعا انسانيا تحرريا ،لكن لما يتعلق بالأمر بالأهلي المغبون والمقهور نجد كتاباته تكاد تخلو من تلك النزعة والعاطفة الانسانية ،وإن بدت في أعماله فهي نوستالجيا للصبا في الأحياء العربية وإرهاصات للذاكرة تستعيد بطريقة حساسة العلاقات مع الأصدقاء العرب ،ولذا بالرغم من كونه تربى في الأرض الجزائرية فهو لا يعترف لها من حقوق إلا الحنين للوطن والشمس والبحر ،وليس للإنسان الجزائري ،للمزيد حول كامو وأعماله المسرحية أنظر للأعمال المسرحية التالية :

« Caligula » , « Le malentendu », « L'etat de siège », «Les justes » ,« Requiem pou une nonne », « Les possédés »

انظر أيضا:

-Albert Camus, **Caligula**, Edition Gallimard, Paris,1958.

[4] - Hadj Dahmane,op-cit,p148

لمسرح العمل ابتداء من سنة 1937، أراده أن يكون محايدا لا يصبغ بأي صبغة أو تلوينا عرقيا أو مذهبيا ،ومبتعدا عن كل التأثيرات السياسية المتعددة ، ومقترنا بكل نزعة انسانية . غير أن ذلك المسرح الملتزم ،لم يظهر التزامه إلا حينما تعلق الأمر بالقضايا والمواضيع التي تمس جزائريته بمنظورها وأبعادها الأوروبية [1].

2-نشأة المسرح الوطني ودوره لصالح القضية الوطنية

في الوقت الذي ذهب فيه العديد من المؤرخين وأصحاب الاختصاص في هذا الفن إلى أن بدايات المسرح الأهلي تسبق زيارة جورج أبيض للجزائر،وقبل الحرب الأولى وليس بعدها ، حيث أكّد الدكتور أبو القاسم سعد الله أن هذا الفن لم يكن غريبا أو مجهولا عن الأهالي الجزائريين ،فقد مارسوه واستمتعوا به خلال التواجد التركي بالجزائر،غير أن المسرح الحديث حسب "**علالو** "أحد مؤسسي المسرح الجزائري الحديث فلم يظهر إلا مع نهاية الحرب الكونية الأولى[2] ، ولعل من أبرز الذين أرسوا دعائم الفن المسرحي بالجزائر وحاولوا إدراجه ضمن الوسائل التثقيفية في الأوساط الشعبية هو الأمير خالد،فقد مكنته ثقافته الواسعة على إدراك أهمية المسرح في إيقاظ الأمة ،وتشير المصادر بأنه من طلب من الممثل المسرحي الكبير "**جورج أبيض**" ،حينما التقى به بباريس سنة1910 أن يرسل له بعض المسرحيات لتمثيلها بالجزائر ،وحين عودته إلى القاهرة أرسل له عدة مسرحيات ، منها،مسرحية "**ماكبث**

[1] -Ibid,p149.

[2]- يرجع سبب الاختلاف في تحديد بدايات الظاهرة المسرحية في الجزائر إلى طريقة النشاط والممارسة الفنية لهذا الميدان ،فأكثرية المؤرخين والكتابات التاريخية تعترف بوجود نشاط مسرحي في بدايات الاحتلال ،لكنه كان فنا للإضحاك والترفيه وكنوع من الكوميديا الشعبية فحسب،ولم يرق لأن يكون فنا ذا رسالة تحمل في طياته مضامين اجتماعية أو أفكار هادفة ،فقد اعتمد على القراقوز أو عرائس القفاز ،الذي ازدهر بشكل خاص خلال التواجد التركي ،غير أن جوهر الاختلاف يرجع إلى تحديد بداياته كفن حديث تجتمع فيه عناصره الرئيسة كوجود الركح والقصة أو السيناريو ..إلخ ،فالبعض من أمثال أبو القاسم سعد الله و يقرنون بداياته كمحاولة نصية جاءت للكاتب اليهودي اليوناني الأصل إبراهام دانينوس بعنوان "نزهة المشتاق وغصة العشاق في الترياق في العراق" ،لم تترجم للأسف كعمل فني ،ولذا تأخر ظهوره بشكله الحالي إلى مطلع القرن العرين سواء أكان ذلك قبل الحرب أو بعده ، وحتى إذا كان المسرح بدأ بزيارة جورج أبيض ،فإنه لا يمكن إغفال الحركات الثقافية السابقة لذا التاريخ من نشاطات فنية ومسرحية . للمزيد حول الموضوع ،يرجى العودة إلى :

- صبيان (نصر الدين)،اتجاهات المسرح العربي الحديث في الجزائر ،ص12

-أبو القاسم (سعد الله) ،تاريخ الجزائر الثقافي،ج 8،ص128

-ش.موربيه وفيليب سادجروف:الحركة المسرحية عند يهود البلاد العربية في القرن التاسع عشر

"لشكسبير تعريب محمد عفت المصري ،مسرحية" **الوفاء والمروءة**" لخليل اليازجي ،ومسرحية" **الشهيد**" للشاعر حافظ ابراهيم [1]،بينما يربط إدريس قرقوة في كتابه "**الظاهرة المسرحية في الجزائر**"ميلاد المسرح الأهلي والوطني بزيارة فرقة التمثيل المصرية التابعة ل" **جورج الأبيض**" للجزائر سنة 1921،مما سمح بتأسيس أول فرقة مسرحية بالجزائر سنة 1921 تحت اسم "**جمعية الآداب والتمثيل العربي**" ، وتقديمها لعرضين مسرحيين ،وهما مسرحية "**صلاح الدين الأيوبي**" ومسرحية "**ثارات العرب**" للمؤلف نجيب حداد[2].

وعلى العموم فقد كانت للجمعية المطربية،والتي تأسست عام 1911م على يد اليهودي "**ناطون إيدمون يافيل**" (1877م-1928م)،والتي ضمت في بادئ الأمر اليهود فقط،ثم توسعت لتضم المسلمين أيضا دورا في بروز الرواد الأوائل للمسرح الوطني الجزائري، فقد انتقل إليها" **محي الدين باشطارزي**[3] "الذي أعجب يافيل بصوته فضمه إلى الجمعية عام 1919م، وقد انضم إليها الممثل "**علالو**"،و "**الطاهرعلي الشريف**"،و "**إبراهيم دحمون**"،" **بن شعبان**" المعروف "**بن شوبان**"، "**رشيد القسنطيني**"، وقد كان لـ"**يافيل**" دورا بارزا في تلقين بشطارزي مبادئ الفن الأندلسي، أما علالو فقد التحق بالفرقة كمغن فكاهي ساخر، يتخذ من المونولوج وسيلة لاضحاك الجمهور، وقد ساعدته هذه الجمعية في تنمية مواهبه الفنية ، وابتداء من عام 1928م،أصبح بشطارزي رئيسا لها بعد وفاة "يافيل"[4]. وهذا ما يؤكده محمد اسطنبولي ،حينما كتب في مذكراته بأن:" **الانطلاقة الأولى على خشبة المسرح**

---

[1]- المباركية (صالح)،المرجع السابق،ص،ص42، 43.

[2]- قرقوة(إدريس)،**الظاهرة المسرحية في الجزائر دراسة في السياق والآفاق** ،دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر-2005، ص،ص27، 28.

[3]-ترك بشطارزي تراثا مسرحيا ضخما ،وعُد أحد أعمدة المسرح الجزائري الحديث ،وأهم مؤسسيه أوائل القرن العشرين ،جعل من الركح وسيلة للكفاح ضد الاستبداد الفرنسي وأداة لنشر الوعي الوطني بين الأهالي ومنبرا حرا لاسماع صوت الأهالي المقهورين من خلال عمله في التأليف والتمثيل والإخراج ،وفي بداياته شارك مع طلبة المدارس الإسلامية في تمثيل عدة مسرحيات، ومثل رفقة علولة في اسكتشات قصيرة هزلية. وبعد الزيارات التي قامت بها بعض الفرق العربية (فرقة جورج أبيض ونجيب الريحاني.) شكل محيي الدين بشطارزي مع مجموعة من الهواة فرقة "المطربية" التي كانت تقدم أعمالا مسرحية ممزوجة بالغناء والرقص. وبعد الحرب العالمية الثانية أي في عام 1947أنشأ فرقة المسرح العربي بدار الأوبرا، وبعد الاستقلال عين مديرا للمعهد البلدي للموسيقى.أنظر:

-Bachetarzi(Mahieddine), **Mémoires (1919-1939),** Tome I, SNED ,Alger-1968, 339 p.

- - , **Mémoires (1939-1951**), Tome II, E.N.A.L, Alger- 1984.

[4]- ختالة (عبد الحميد)،**المسرح الجزائري النص والعرض والتلقي –تأصيل نظري ومقاربة في الأنساق المعرفية-**، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي،كلية الآداب واللغات ،جامعة باتنة1 ،2015-2016،ص25.

الجزائري كان صاحب الفضل فيها الأمير خالد الجزائري، الذي كان حاضرا في مأدبة وحفل أقامه "جورج أبيض" بالعاصمة الفرنسية باريس سنة 1910"[1]

وبالفعل فقد ساهم "**الأمير خالد**" ومعه ثلة من المثقفين الجزائريين ورواد هذا الفن في التّأسيس لثلاث جمعيات لتقديم عروض مسرحية ونشاطات ثقافية استمرت لسنوات عدة ،في كل من الجزائر العاصمة ، البليدة ، والمدية .فقد قدمت جمعية العاصمة مسرحية "ماكبث" ، التي عرضت في قصر "**قدور بن محي الدين الحلوي**" بمنطقة العيون الزرقاء ،قرب الحامة ،وقد حضر الحفل المسرحي نخبة من المثقفين الجزائريين ،من بينهم (**محمد بن شنب،عبد الحليم بن سماية ،قدور مراد التركي ،الشيخ دحمين** ،وغيرهم).أما جمعية البليدة التي أسندت رئاستها إلى (محي الدين بن خدة)فقد مثلت نفس المسرحية في زاوية (أحمد الكبير)[2]

لقد كان "**علي الشريف الطاهر**" أحد مؤسسي المسرح الأهلي في الجزائر، فقد كان مؤلفا مسرحيا وممثلا ،وأكثر من ذلك كان له الفضل في تأسيس وإدارة أول جمعية تهتم بفن المسرح وهي "**جمعية المهذبية** "التي رأت النور عام 1921،وكتب ثلاث مسرحيات مثلت انطلاقة المسرح الوطني ،وهي مسرحية " **الشفاء بعد العناء**"سنة1921،ومسرحية **"خديعة الغرام**"والتي مثلت عام 1921،ومسرحية "**البديع**" سنة 1924[3] .

لم يكن ظهور المسرح الجزائري الحديث حالة خاصة ،فهو مرتبط بتجدد و بتطور المسرح العربي بشكل عام ،فهو ظاهرة معاصرة للنهضة العربية نهاية القرن التاسع عشر ، فقد كانت أولى العروض المقدمة عبارة عن عروض فكاهية مرتجلة ،دون التعمق في المواضيع ذات البعد السياسي أو الاجتماعي ،وبعد تجربة قصيرة أصبحت المواضيع الاجتماعية تأخذ محور القطع المسرحية المعروضة،والمقدمة أحيانا باللغة الفرنسية ثم تترجم إلى اللهجة المحلية [4].

[1] - Aziza (Mohamed) ,**Le théâtre et l'Islam**, SNED, Alger-1970,p45.

[2]- المباركية (صالح)،المرجع السابق،ص43.

[3] - samrakandi(Mohammed Habib),**le théâtre arabe au miroir de lui-même et son contact avec les créations de deux rives de la méditerranée** ,presses universitaires du Mirail , France-2008,p22.

[4] - **Roth (Arlette), « Le théâtre algérien de langue dialectale 1926-1954 » , [compte-rendu]** Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N°03 , Année, 1967- France, p209.

من هنا بدأت المرحلة الجنينية للمسرح الجزائري حيث شكل فن السكاتش، مرحلة انتقالية نحو ميلاد فعلي لأبي الفنون في الجزائر، حيث اعتمد كثيرا على الغناء والطرب والفكاهة، وقد أشار إلى ذلك **"مصطفى كاتب"** وأناط نشأة المسرح الجزائري بعوامل أربعة تتعلق في مجملها بالذوق الشعبي واللغة الخفيفة والترفيه بعيدا شيئا ما عن البعد الثقافي[1].

قدمت العروض المسرحية بالعربية والعامية ،لكن لم يعش المسرح العربي كثيرا ،فقد تعددت أسباب موته ،والمتسبب رجال المسرح والجمهور معا ،فلم يكن للمسرحيات اللغة العربية متذوقوها ومريدوها ،سوى قلة من النخبة المثقفة والمتعلمة تعليما عربيا،أما العامة من الجماهير الأهلية المتعطشة فلم تفهم اللغة أو وجدت صعوبة بالغة في فهمها أو فهم الأحداث التي يتمحور حولها العرض المسرحي،لذا أصبح من الواضح أن السبيل الأمثل للنجاح هو الكتابة بالعامية واقتباس المواضيع من الفولكلور المحلي والقصص والأساطير الشعبية .

وهناك عوامل كثيرة جعلت من العروض المسرحية المقدمة بالفصحى تفشل ،نذكر منها:

1- إن المسرح الجزائري ظهر من خلال العرض الشعبي مرتبطا بذوق الجماهير الشعبية غير المثقفة ،حيث كان عبارة عن سكاتشات تقدم في مقاهي الأحياء الشعبية المزدحمة بالسكان

2-ارتبط المسرح بالغناء واللغة الشعبية الخفيفة القادرة على توصيل الفكرة و التعبير الفني وإرضاء الذوق العام للمتفرج وإضحاكه

3-كان مسرحا شعبيا غير مثقف،بقي بعيدا عن رجال الأدب ،وحتى الذين جربوا الكتابة المسرحية لم تكن نصوصهم صالحة للتقديم على خشبة المسرح ،ولذلك بقيت حبيسة الرفوف ولم ترى النور،فضلا عن كونه كان مسرحا شعبيا ارتجاليا اعتمد أساسا على الموهبة العفوية ولم يقترن أبدا بالمدارس الأوروبية ،وأصحابه عصاميون لا يعرفون الكتابة والقراءة ،ولذا كانت معظم الأعمال عامية ،ولم تدون ،ولم تطبع ،وحتى التي طبعت خلال الأربعينات أو الخمسينات ،فقد طبع بعضها ،ولاقى الكثير منها الإهمال

[1]- ختالة (عبد الحميد)،المرجع السابق،ص28.

4-قلة دور العرض ،المتواجدة حصرا في المدن الكبرى التي يكثر فيها المستوطنون [1].

بعد الركود الذي عرفه المسرح الجزائري خلال الحرب العالمية الثانية ،بسبب التضييق الاستعماري على كل أشكال الحياة السياسية والثقافية ،ووفاة عدد من رواد المسرح الأهلي ، من أمثال "**رشيد قسنطيني** "و"**إبراهيم دحمون**" و"**ابن شوبان**""**علي سلالي المدعو علالو**[2]"،شهد المسرح الأهلي استفاقة نسبية في الفترة (1947-1955)إذ سمح الجو العام لتأسيس فرق رسمية منذ سنة 1947بعد اكتساب أول اعتراف من طرف الحكومة الاستعمارية ،عندئذ ظهرت عدة فرق مسرحية مثل فرقة (المسرح الجزائري)،وفرقة (هواة التمثيل العربي)وفرقة (الغد)وفرقة (المركز الجهوي للفن الدرامي) [3].

ومن الواضح، فإن تأثير المسرح الفرنسي في الجزائر على المسرح الأهلي كان مباشرا ، وبالأخص المؤلفات المسرحية العاصمية وبدا تأثير النصوص الدرامية والكوميدية قويا على النص المسرحي الجزائري رغم قلة الترجمات والاقتباسات[4]،ولم يقتصر على مجال دون آخر ، بل تجاوز المساعدة في توفير قاعات العرض للمسرحيين الجزائريين لتقديم أعمالهم الفنية إلى التعاون في مجال التأليف المسرحي والإخراج ،مما سهل في نقل تجربة الفرنسيين في الجزائر ، وتعد سنة 1932سنة فارقة في التعاون الفرنسي الجزائري في عالم المسرح ، حيث كتبت أول مسرحية بالعامية،وهي "**البوزريعي في العسكرية**"،وكانت الأولى من سلسلة

[1]- المباركية (صالح)،المرجع السابق،ص،ص52، 53.

[2]- يعتبر علي سلالي أحد رواد الحركة المسرحية الجزائرية، وُلد في الثالث مارس 1902 بحي القصبة أعالي الجزائر العاصمة، بدأ نشاطه الركحي في بداية عشرينيات القرن الماضي مع محي الدين بشطارزي، حيث شكّل فرقة "الزاهية" وقدّم رفقة "دحمون" و"جلول باش جراح" تمثيليات قصيرة ممزوجة بالغناء والرقص.وساهم "علالو" في تأسيس الحركة المسرحية الجزائرية رفقة "محي الدين بشطارزي" و"رشيد قسنطيني"، وفي عام 1926 كتب مسرحية "جحا"، وهي ملهاة من ثلاثة فصول، وتعتبر أول مسرحية جزائرية مكتوبة بالعامية، وحقّقت نجاحا كبيرا.وألّف"علالو" اضافة إلى مسرحية "جحا" سبع مسرحيات أخرى، وهي: "زواج بوعقلين"، "أبو الحسن" أو "النائم اليقظان"، "الصياد والعفريت"، "عنتر الحشايشي"، "الخليفة والصياد"، "حلاق غرناطة"، "الإخوان عاشور"، كما ، وأنجز كتابا حول نشأة المسرح الجزائري بعنوان "شروق المسرح الجزائري".

[3]- بوالنوار (مصطفى)،**صورة المرأة في الخطاب المسرحي الجزائري "مولات اللثام"أنموذجا** ،مذكرة ماجستير،كلية الآداب اللغات والفنون،جامعة وهران،2010-2011 ،ص،ص20،21 .

[4] - Bencheneb (Saadeddine), « **Le Théâtre arabe d'Alger** », Revue Africaine ,N° 364-365, 3e et 4e trimestres 1935,p78.

المسرحيات العربية- الفرنسية،والتي كتبت بالتعاون مع فرنسيين من أمثال: **"لويس شابرو" ، "جورج بودري"**،و**"جورج هيرتز"**،وحضيت بعروض استمرت إلى ما بعد سنة1934م [1].

كان الاحتكاك الاجتماعي داخل المدن الجزائرية جسرا للتوصل الثقافي وللتلاقي الحضاري بين المكونين الأوروبي والأهلي ،فقد مكّن تقاطع الأحياء وتجاورها من تبادل الأفكار والتعاون الثقافي بين المجموعتين ،ومما نلاحظه في نشأة أغلب رواد ومؤسسي هذا الفن هو نشأتهم في الحدود الفاصلة بين الحي الأوروبي والأهلي ،فقد سمحت فترة الشباب التي قضاها رائد المسرح الجزائري **"علي سلالي"** (المدعو علالو) في الأحياء الأوروبية من التعرف على أحد المعمرين ،الذي كان يصطحبه إلى قاعات السينما والمسرح والأوبرا من تفتق موهبة علي سلالي المسرحية ،كما كان انضمامه لفرقة المطربية لليهودي **"ناطون ايدموند يافيل"**في التعرف على مبادئ فني المسرح والموسيقى ،وساعداه على شق طريقه الفني فيما بعد[2]

في أقل من ثلاثين عاما من نشأته،اتجه المسرح الجزائري من المجال الترفيهي والتعليمي إلى المستوى السياسي. وتزامنت مع عصر معين من كل المظاهر الثقافية كسلاح سياسي ووسيلة متميزة للتعبير الشعبي. ليصبح رجل المسرح لوحة صوتية غير عادية: يعبر عن رأي الأغلبية في النغمة التي تناسب الجميع من خلال العمل إلى جانب القادة الجزائريين، في الدعوة بالتمسك بالقيم الإسلامية ، الدفاع عن اللغة العربية وتمجيد الشعور الوطني[3]. وعند ولادة الحركة القومية الجزائرية شكل المسرح مهمة البرجوازية وطبقة المثقفين الحضريين ، في غياب سكان الريف ،المشغولين بمشاكل حياتهم اليومية ،والتي أضحت غير قادرة على الارتقاء إلى الوعي المدني بسبب فقدانها لقوتها كمقاومة ريفية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ،وتفسح المجال لظهور مجموعات حضرية اجتماعية وثقافية ، لعبت دوراً مهماً في التمرد ،على القيم التي أفرزها الاحتكاك بالأوروبي ولكن كان نشاطها مبتورا و بدون أي علاقة عضوية مع الجماهير خارج المدينة[4].

---

[1]-ختالة (عبد الحميد)،المرجع السابق،ص29.

[2]-صالح لمباركية ،المرجع السابق،ص80

[3] - ben cheneb(Rachid), « **Regards sur le théâtre algérien** »,Revue des mondes musulmans et de la méditerranée , , N°61,er et 2e semestre, Année 1969, Aix- en Provence,p26.

[4] -Ibid,p25.

تطور المسرح الأهلي نهاية الثلاثينات، وشق طريقه الخاص به ليس كفن للترفيه بل وسيلة للتثقيف السياسي ولنشر الوعي الوطني ،وأخذ المسرح السياسي يأخذ مكانا له إلى جانب العروض المسرحية التقليدية المعروفة ،مثل السكاتشات والفودفيل،وغيرها،والتي تتناول عادة مشكلات اجتماعية وثقافية لقد تجاوز جمهور المسرح نشوة مرحلة الاكتشاف ، ولم يعد بإمكان السكاتش إرضائه. لقد أصبح الارتجال من الماضي مانحا الفرصة الأكبر للاحتراف ، ذلك لإن تبلور الحياة السياسية وظهور الأحزاب الوطنية أصبحت تفضي على المواضيع المسرحية نكهات سياسية خالصة ،ومع ذلك التطور الحاصل في المسرح ازدادت رقابة الإدارة الاستعمارية عليه شدة،فلم يكن من سبيل لتفادي المنع والتملص من المسائلة القانونية سوى تفادي أسلوب مجابهة الاستعمار ،ومع ذلك فإن هذا الحل لم يمنع من التوقيف المؤقت للمسرح في الجزائر أياما فقط بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية[1].

وابتداء من عام 1934 ،دخل المسرح الجزائري المشهد السياسي ، ليجعل من مطالب المسلمين المنتخبين محور اهتماماته وصلب مواضيعه ،سيدين العبودية الإقطاعية والمسؤولين المنتخبين الفاسدين في الإدارة الاستعمارية ، والمستوطنين الكبار ، والمرابطين الظلاميين والمستغلين لجهل الجماهير. ويحث على محاربة الجهل و الخرافات ، ويدفع الفتيات إلى التمرد الاجتماعي على الزواج القسري،ويدفع الرجال إلى التلاحم الوطني، يدعو المستوطنين إلى مناهضة نظرية تفوق الأعراق ،وسيقدم عروضا مسرحية أخرى تعالج أيضا قضايا تعليم النساء وظاهرة الزواج المختلط[2]. والحقيقة ،فإن ملامح المسرح الجزائري بدأت تظهر بعد الحرب العالمية الثانية، حيث لعب هذا الفن دورا هاما في نشر الوعي السياسي في محاربة الكثير من الآفات الاجتماعية والخرفات التي علقت بحياة الجزائريين نتيجة لسياسة فرنسا الساعية إلى تقويض إلى كل ما يمت بصلة بالحضارة العربية الاسلامية في محاولة خبيثة لطمس معالم الشخصية الوطنية ، ومن هنا فإن فضل المسرح في تهيئة الظروف الملائمة لا ينكر،حيث كان بمثابة الوسيلة الفعالة في الترويج للثورة وإعداد الجزائريين

[1] - Benkhellaf(Abdelmalek) ,**Les fonctions narratives dans le théâtre de Abdelkader Alloula Alagoual (Les Dires) et Lejouad (Les Généreux),** Mémoire de Magister, faculté des lettres et des langues, université Mentouri, Constantine, Année 2006,p,p70,71.

[2]– Roth (Arlette) , « **Théâtre algérien et identité** », Revue Mots ,Les langages du politiques , N°57 , décembre 1998 ,France ,p05.

لها،باعتباره أقرب الفنون إلى روح الشعب وقدرته على إيصال رسالته الوطنية والفنية-حتى وإن لم تكن بسهولة لتضييق الاستعمار ومحاربته لكل دعوة يشتم منها رائحة الثورة والتمرد[1].

كان لاندلاع الثورة التحريرية، وتشديد الرقابة الاستعمارية على النشاط المسرحي ،دورا في اضطرار الفنانين الوطنيين إلى الدخول في مرحلة النشاط السري ،والانتقال إلى الخارج لتقديم أعمال مسرحية وطنية تعرف الرأي العام الدولي بحقيقة القضية الجزائرية[2] كانت تقع على عاتق" **مصطفى كاتب**" مهمة حساسة ومسؤولية كبيرة في تجميع الفرق المسرحية المنفية في خارج الوطن ،في كل من فرنسا وتونس وسويسرا والاتحاد السوفياتي ،وتوحيدها في فريق مسرحي يعمل تحت إمرة جبهة التحرير الوطني[3]. وقد قدمت الفرقة الوطنية للفنون التابعة لجبهة التحرير الوطني العديد من الأعمال ،منها مسرحية "**نحو النور**" عام1958،ومسرحية "**أطفال القصبة**"عام 1959 ،مسرحية "**الخالدون**"ل"**عبد الحليم رايس**"1959، فكل هذه الأعمال وغيرها أبرزت للعالم مدى المعاناة التي كابدها الجزائريون تحت حكم الاحتلال الفرنسي[4].ففي الوقت الذي كانت هذه الأعمال تعرض في مختلف الميادين ،في المعسكرات،في الجبال،في المنافي ،كان عدد من رجال المسرح القدامى من الجزائريين وحتى المتضامنون من المستوطنين في السجون الفرنسية ينتجون أعمالا أخرى تنتظر من يؤديها على خشبة المسرح ،فقد كتبت في السجون والمعتقلات العديد من الأعمال ، هنري كرية "**الزلزال** " 1958، "**موت** " 1959 ل"**عبد الرحمن روبايقي**"،مسرحية "**طرق في القصبة**"لبوزاهر 1960،"**ميلاد وشجرة زيتون**" 1960للكاتب "**محمد بودية**"وغيرها من الأعمال الأخرى[5].

الخلاصة

1/اعتبر المسرح لدى أوروبي الجزائر والأهالي وسيلة الترفيه الأولى ،والفن الأكثر شعبية ، وإذا كانت أكثر الأعمال المسرحية لدى الفئة الأوروبية يصور يومياتها وواقعها داخل

[1]- المباركية (صالح)،المرجع السابق،ص09.

[2] -Baffet (Roselyne) ,**Tradition théâtrale et contestation en Algérie,** Le Harmattan, Paris- 1986, p45.

[3] -Ibid,p48.

[4] - Feuillebois(Eve), **Le théâtre dans le monde arabe**, Hal Edition, Paris- 2011,p,p,33,34.

[5] -Ibid,p34.

المستعمرة ،ويجسد ثنائية الصراع بين المستوطن والأهالي،فهو بالنسبة للأهالي وسيلة للمقاومة والتثقيف السياسي وأداة للتعبير عن المعاناة في ظل الاحتلال والاستبداد.

2/برز عدة ممثلون ومخرجون جزائريون خلدوا في أعمالهم المسرحية معاناة الجزائري تحت نير الاحتلال ،أمثال علي سلالي،رشيد قسنطيني ،محي الدين بشطارزي وغيرهم ،ومع أن انطلاقة فن المسرح كانت صعبة بسبب الرقابة الاستعمارية فقد ساهم في التأسيس للمسرح الوطني الثوري ،الذي أسمع العالم صوت الثورة على ركح المسارح العالمية .

رابعا:المستوطنون والأهالي في فن السينما الكولونيالية

منذ العرض الأول لأفلام **"لوميير ميليه"**،التي أظهرت للعالم إمكانيات السينما ،لم تتوان فرنسا في دعم سياستها الاستعمارية في الجزائر باستعمال الصورة للدعاية لمشروعها الاستيطاني ،ومن الفيلم الغرائبي مرورا بالفيلم الساخر إلى الفيلم الوثائقي ،كان موضوع اهتمام السينماتوغرافيا الاستعمارية يتمثل في عملية تشويه الحقائق التاريخية والاجتماعية والثقافية للشخصية الأهلية الجزائرية بصورة نمطية مشوهة ،وبالمقابل صورت المستوطن بالرغم من قلة حضوره المتعمد في المشهد السينمائي العام في قالب الرجل المتحضر، وحامل للقيم الغربية للمستعمرة الجديدة.وبالرغم من تناولها السلبي لقضايا الأهالي ،إلا أن السينما الفرنسية في الجزائر ،ساهمت من غير قصد في نشأة سينما وطنية ثورية ،استخدمت من الفيلم الوثائقي الثوري والملتزم وسيلة لمقاومة الاستعمار،ونقل حقيقة الكفاح الوطني للعالم.

مثلت السينما أحد ركائز السياسة الثقافية لفرنسا،وأهم أدوات الغزو الفكري والحضاري لمستعمراتها في إفريقيا وأسيا بشكل عام والجزائر بشكل خاص،فقد أولى الاستعمار اهتماما كبيرا لهذا الجهاز الإعلامي ،لما له من قوة التأثير على سيكولوجية الرأي العام ،والقدرة على الدعاية الواسعة لإيديولوجيتها الكولونيالية،ولما كان سكان المستعمرة من الأهالي الجزائريين

، والمستوطنين الأوروبيين محور اهتمام السينماتوغرافيا الكولونيالية ، والعنصر المستهدف من وجودها ،فقد جاءت معظم الأفلام الكولونيالية التي أخرجت وأنتجت بالجزائر ،على الرغم من تنوع مجالاتها وتعدد مواضيعها ذات طابع دعائي محض ،وممجد من جهة لانتصارات فرنسا ولانجازات الأقلية الكولونيالية بالجزائر، ومن جانب أخر ساخر وناقم من الوضعية العامة للأهلي في محاولة مقصودة هدفها الحط من قيمته ،وتشويه صورته.

قدم لنا تاريخ الجزائر الاستعماري ،مكتبة سينمائية ضخمة من وجهة نظر إيقونية وفيلموغرافية ،خاصة فيما يتعلق بالأحداث الكبرى التي ميزت المستعمرة كالحرب التحريرية ما بين 1954-1962،والقضايا الهامة التي تربط مصير الوجود الفرنسي في الجزائر ،كقضية الاندماج وانصهار الأجناس الأوروبية في الجزائر، و مسألة تحضير الأهالي الجزائريين وعملية دمجهم في المجتمع الكولونيالي . إن التساؤل الذي نطرحه في هذا المجال :**ما طبيعة الإنتاج السينمائي في الجزائر ،وما هي صورة الأهالي والمستوطنين في المشهد السينمائي الفرنسي،وما حدود نجاح السينما الكولونيالية وتأثيراتها على الأهالي؟**

1- تطور السينما الكولونيالية في الجزائر(من الفيلم الغرائبي إلى الفيلم الوثائقي)

في بدايات 1896،وبعد أيام من عرض **"لوميير"** السينمائية بباريس ،قام الفرنسي – الجزائري المولد-**"فليكس مسغيش "**بتصوير مشاهد من العاصمة الجزائرية ووهران وعرضها على المستوطنين[1]، واستطاع **"فيليكس ميسغيش"** من الحصول على ترخيص بالعمل الاحترافي الدولي كمصور إخباري وثائقي وقد تمكن من التقاط العديد من المشاهد الفيلمية التي تضمنت العديد من الجوانب التاريخية والثقافية الفلكلورية[2]،فلأول مرة تسرح الكاميرا في أزقة الجزائر ،وكغيرها من البلدان العربية والإفريقية سارت عملية عرض الأفلام في الجزائر ببطء في بدايتها،ولم تسجل الصحافة إلا حفنة أسماء قليلة من الرواد أتوا من

[1]- منصور (كريمة) ،**اتجاهات السينما الجزائرية في الألفية الثالثة** ،أطروحة الدكتوراه في الفنون الدرامية،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة وهران،السنة الجامعية 2010-2011،ص23.

[2]- رأس الماء(عيسى) ،"**الخطاب السينمائي الكولونيالي في الجزائر بين الواقع والإيديولوجيا**" ،مجلة دراسات وأبحاث،المجلة العربية في العلوم الإنسانية ،العدد24 ، السنة الثامنة، الجزائر- سبتمبر 2016،ص68.

فرنسا لعرض الأفلام ،مثل البروفيسور الشهير **"دافيد"**الذي عرض أفلام **"ميليه"** في الجمعية الأدبية لوهران سنة 1899،ورجل استعراض اسمه **"جودار "** أتى سائحا في سنة 1900،ولم تنشأ في الجزائر أي دار سينما قبل عام 1908،وبحلول عام 1914لم يتجاوز في الجزائر كلها سوى 07 الدور عرض،لصالح المعمرين ،وقد كانت تزداد دور العرض وفقا لمتطلبات ورغبات المعمرين،وبازدياد أعداد المعمرين وشغفهم بالسينما ازداد انتشار دور العرض السينمائية ،وزاد عددها ،حتى بلغ عددها 150دار عرض في سنة 1933[1]، وفي نهاية حرب التحرير ارتفع عددها إلى المئات ،أما فيما يتعلق بقاعات المختصة بعرض "الأفلام العربية"،فهي تكاد تكون نادرة،فقط سجلت أربعة قاعات في الجزائر العاصمة، اثنتان في وهران،وواحدة في قسنطينة،وواحدة في عنابة ،وهي بذلك ضئيلة مقارنة بالمئات من القاعات الأخرى المخصصة للأوروبيين[2].

تعتبر سنة 1905البداية الفعلية للنشاط السينماتوغرافي في الجزائر ،و كانت جل الأفلام المنتجة تتولاها شركتا **"باتي " « Pathé »** وشركة **"غومون" « Gaumont »** ، فكانت موجات المخرجين الذين تدفقوا إلى الجزائر ومعهم معداتهم السينماتوغرافية مؤشرا على بداية نشوء السينما بشكل عام في الجزائر ومعها تولد ظاهرة جديدة ،وهي **"الفيلم الغرائبي" « Le film exotique »**[3].

عموما يمكن تصنيف مجالات واهتمامات السينما الكولونيالية إلى ثلاثة أصناف،وذلك لارتباطها بتطور حياة الفرد الأوروبي بالجزائر واهتماماته اليومية،وتأثير الثقافة الاستعمارية المكتسبة والمشكلة خلال عقود طويلة بطبيعة المستعمرة وعلاقته اليومية بالمستعمر الأهلي،وهي كالآتي:

أ/الأفلام الغرائيبية(films exotiques) :

---

[1]- منصور (كريمة) المرجع السابق،ص23.

[2]- دوني (سيباستيان)،**السينما وحرب الجزائر دعاية على الشاشة من أصول النزاع المسلح إلى إعلان الاستقلال(1945-1962)**،ترجمة يوسف بعلوج – هاجر قويدري، سيديا للنشر، الجزائر-2013،ص72.

[3]- بتقة (سليم) ،"**المتخيل الكولونيالي من وهم المكتوب إلى زيف المرئي**"،مجلة المخبر،العدد الثامن،جامعة محمد خيضر ، بسكرة-2012،ص10

هي الأفلام التي يصور فيه الأهلي الجزائري على أنه كائن غريب يثير فضول الأوروبيين ويسليهم،ويستخدم الطبيعة الجزائرية كخلفية أو ديكورا جميلا،ويجعل من الطابع الفلكلوري للمنطقة إكسسوارا ساحرا وجذابا،وفي مرحلة إنتاج هكذا أنواع من الأفلام ،لم يكن هذا النوع من السينما يحمل رسائل مضمرة وما كان يشغله هو الإثارة والبحث عن الغرابة وعن الشمس والسماء الزرقاء والصحراء الشاسعة ،وهو ما تجسد في أفلام" **فيليكس مسجيش**" ، ومن أهم الأعمال التي سجلت هذا الاتجاه فيلم **"الواحة"** وفيلم **"حديقة الله" Le jardin « d'allah**،أما المميز لهذه الأفلام أنها تنتقي مناظر مثيرة لأحاسيس المعمرين وأهوائهم وتتجاهل الأهالي في إدراجهم ضمن الديكور العام للفيلم[1]،فقد وجد السينمائي الفرنسي في الجزائر،التيمة الرئيسية لمجمل ما يقدمه من أفلام سينمائية، و بما تزخر به من جمال طبيعي مصدرا مهما لتلك العجائبية ،ويرى فيها سحر الشرق وعبقه ،وكان كل ذلك الإقبال ناتج عن التميز والاختلاف القائم بين بيئتين مختلفتين ، في كل شيء تماما،الأمر الذي يدفع بالمشاهد إلى ضرورة تصديق تلك الصورة النمطية دون معرفة سابقة لها ،وكل الشرائط الأولى المصورة منذ 1896- 1897تبرز أحياء أهلية للمدن الجزائرية ،وخاصة العتيقة منها ،إنهم هنا لهذا الغرض،و يصبحون مثيرون للفضول والغرابة [2] .

ب/الأفلام الساخرة (films cyniques):

في مطلع القرن العشرين اتجهت السينما لدراسة القضايا الاجتماعية في المستعمرة بأسلوب كوميدي وساخر ،غير أن تلك السخرية كانت تحركها الميول العنصرية،وتصوب الكاميرا حصرا للضحك على الأهلي المهزوم،وتمجد انتصار الغازي، فقد تعمدت السينما الكولونيالية إبراز الأهالي كمخلوقات دونية غير قادرة على التفكير،وتصوير المعمر الأوروبي كشخصية منقذة وحاملة للحضارة ، ومن ثم أصبحت الأفلام مغامرات بطولية تبرز قوة وإيجابية الأوروبي وحماقة وضعف الأهلي وتندرج أفلام مثل **"المسلم المضحك" Le musulman « rigolo**،وفيلم **"علي ينفخ في الزيت" « Ali bouffle à l'huile »** وفيلم

[1]- منصور (كريمة)،المرجع السابق،ص،ص27،28.

[2]- رأس الماء (عيسى) ،المرجع السابق،ص87.

« **Tartarin de Tarascon** » للمخرج **"ب.رايموند"**« **B Ramond** »،في هذا المجال ،فقد أظهرت الشخصية الجزائرية على أنها ساذجة وغبية،ويعتبر فيلم **"وجوه محجبة وأرواح مغلقة"** « **Visages voilé ames closes** »للمخرج **"هنري روسل"** « **Henry Roussel** »من بين أكثر الأعمال تشويها للشخصية الجزائرية ،والتي صورها بأنها مستهترة ومحبة للملذات ودونية ،ومستسلمة للمعمر، فقد منحه الأهلي كل ما يملك حتى نساؤه، فالمرأة هنا كما في غيرها من أدبيات المعمر تدل على الهوية والأرض التي تخلى عنها مالكها الشرعي[1]،ويمكن الاستدلال أيضا على فيلم أخر أكثر سخرية،إلا أنه أكثر الأفلام وقاحة ،وهو فيلم **"صراتي المرعب"** للمخرج **"أندري هيغون"** « **André Hugon** »،الذي يصور القيم الجديدة التي اكتسبتها التشكيلة الاستعمارية في الجزائر،والقائمة على المادية والانفرادية ،التي تبرز كيانا وذاتا منفصلين عما يحيط بهما،الأمر الذي أنتج إيديولوجية قائمة على العنصرية والقوة، فالشخصية ترمز إلى عالم القيم المصطنعة القائمة على العنصرية والاحتقار،يرافقها عدم الارتياح النفسي الذي يعيشه المعمر بسبب تأنيب ضميره المتذبذب بين الانضباط والنظام والميل إلى البذخ والتهور،ولا يؤنبه معاناة الأهلي التي يعميه عن رؤيتها شجعه وأنانيته [2]

استمر الفيلم الساخر مع حلول عقد العشرينات ،ومعه يتكرر نفس المحتوى في فيلمين لكل من **"جورج بيسكو"** و**"روني كلير"** سنة 1920بعنوان **"اليتيم"**، حيث تظهر في الفيلم شخصية الميزابي الكاريكاتورية من خلال تقديمها في صورة بهلوانية،وذات الشخصية النمطية تتكرر في فيلم **"طارطران دي طرسكان "**،إذ يصور شخصية **"طارطران"** بأنها غريبة في ملبسها،وبالتالي الهدف واضح،وهو خلق مخادعة ساخرة،فبمجرد مشاهدة المتفرج لهذه المشاهد تأتي إلى الذهن صورة الأهلي المضحكة [3]

باقتراب نهاية العشرينات انتقلت الكاميرا الكولونيالية الساخرة إلى عمق المدينة والحي الشعبي الأهلي ،فقد غير المخرج **"جوليان دوفيفي"**« **Julien duvivier** »من القالب السينمائي المألوف ،ونقل الكاميرا من الريف لتصور واقع المدينة ،ففي فيلمه البوليسي **"بيبي**

[1]- منصور(كريمة) ،المرجع السابق،ص،ص28، 29.

[2]-بتقة (سليم)،المرجع السابق،ص14.

[3]- رأس الماء (عيسى) ،المرجع السابق،ص10.

لوموكو"« pépé le moko » ،الذي سجل في تاريخ السينما الكولونيالية ،كأحد أهم أفلام الحقبة الاستعمارية يصور الحياة في مدينة الجزائر ،ولاسيما داخل الأحياء القديمة للقصبة[1]،فقد جاءت المشاهد المصورة ضمن ديكور يوحي بكل ما هو قبيح وشرير،ليثير في نفسية المشاهد الأوروبي ما أمكن من أحاسيس التقزز ومشاعر الكراهية للأهالي الجزائريين،ففي بداية الفيلم تظهر القصبة كمكان موحش ومظلم ووكر للصوص والمجرمين[2]. فقد أراد **"جوليان ديفيفي"**، وبخبث كبير نقل صورة مشوهة لمدينة القصبة ،ويظهر في خلفيات صوره مشاهد غير لائقة للحياة اليومية للأهالي لا تتناسب مع حي داخل المدينة العصرية والأوروبية[3]، وعلى الرغم من عدم براءة أهدافه،فقد اعتبره النقاد السينمائيون عملا فنيا خارج الأفلام النمطية السائدة آنذاك،وشبيها لنوعية أعمال المخرج **"هوارد هواكس"** البوليسية في البراعة الفنية وتتابع المخططات وحتى في القدرة على التصوير في الأماكن الضيقة والمغلقة، وبالجمالية والتفرد، فقد برع **" ديفيفي"** في استخدام السواد كخلفية مكنته من إظهار أزقة القصبة الضيقة والحالكة لترمز في النهاية إلى مكان منيع وخطير يأوي الهاربين من العدالة ،إلا أن تلك الشهرة الواسعة التي حظي بها الفيلم ،لم تشفع له في تغطية جزء من نقائصه ، فقد أهمل التركيز على قوة إظهار الحوار ومتعة النص وجاذبيته [4].

وهكذا فقد جعلت السينما الكولونيالية ،نهاية القرن التاسع عشر وإلى غاية نهاية الحرب الكونية الثانية، من المستعمر –بفتح الميم-**(الأهلي-L'indigène)**في الجزائر وغيرها من الإمبراطورية الفرنسية إنسانا فاقدا للغيرية الطبيعية لدخول الحياة الأوروبية في المدار الاصطناعي للأنا .إنه مجرد شخصية بكماء،أو كمبارس يظهر في الحالات "العجائيبية"،في أفلام طارطاران ديطاراكسون سنة 1934،**"في ظل الحريم"« dans l'ombre du harem »** للمخرج **"ليون ماتو"« Léon Mathot »** عام 1928،فالأهلي يفقد في هذه

[1] - Tamba (Saïd) , **« Propos sur le cinéma colonial en tant que genre populaire »**, Revue L'homme et la société ,Vol154,N.04,L'Harmattan ,Paris-2004,p26

[2] - Reynés-Linares (Aina), « **Voix/Voies du cinéma algérien »**, Réflexions et perspectives, n°2,Université Alger 2-Juin 2012,p8.

[3] –chauvin (Stéphanie), **« Le cinéma colonial et L'Afrique 1895-1962 »**,In vingtième siècle , revue d'histoire, n°43,juillet –septembre,presse des sciences po,Paris-1994,p143.

[4] -Saïd (Tamba) ,op-cit,p26.

الأفلام وغيرها هويته واستقلاله ،وفي هذا الشأن يقول المؤرخ عبد الغني مغربي:"إن جنون المستعمر يفوق الصورة المنعكسة بوضوح في مشروعه للهيمنة ،حلمه إخضاع الآخر،والسيطرة عليه،وهو الذي فقد أرضه ،وبالتالي يفقد روحه [1] .

ج/ الأفلام الوثائقية(films documentaires)

بعد الحرب العالمية الثانية انتقلت السينما الكولونيالية إلى الحقل الدعائي ،لتهتم أكثر بالموضوع السياسي للمستعمرة ،وإن لم تكن بيد الاستعمار، فقد شكلت أداة استعملها أنصار الكولونيالية لتبرير الوجود الاستعماري وإضفاءه الطابع الإنساني،وتمرير رسالة الاستعمار لسكان المستعمرة من الأهالي المسلمين والمستوطنين الأوروبيين في قالب وثائقي ودعائي.

ولأنه من الصعوبة بمكان توحيد الأنماط المشاهدة في نمط المشاهد المثالي والواعي والمتقبل للظاهرة الاستعمارية ،في ظل اختلاف المستويات الفكرية لهؤلاء السكان "حضر ،بدو ،أهالي،أوروبيين"،فإن المضمون الجديد للسينما الكولونيالية اختير بعناية دقيقة لتوصيل الأحداث الهامة في الجزائر في شكل سلسلة أعمال وثائقية للمتلقي المشاهد[2] ،وإذا أردنا توصيف نوعية الفيلم الكولونيالي مابين1945-،1962فإننا نصفها بأنها فترة الأفلام الوثائقية والدعائية بامتياز ،فقد راهنت الدولة الفرنسية على استعمال السينما كوسيلة مثلى من أجل تحقيق فكرة "الجزائر الفرنسية".ففي خلال هذه الحقبة الهامة من التاريخ الاستعماري، تم إنتاج كم هائل من الأفلام الوثائقية القصيرة أو " **فيلم –إخباري** "،وأحيانا **"روائي"**لمساندة الأطروحات الفرنسية حول الجزائر،وتعكس بشكل عام نظرة المخرج والمنتج للوقائع وليس الحقائق كما هي ،فهو الذي يختار المشهد الذي يعكس انطباعاته وايديولوجيته[3].

لم تأخذ السينما الكولونيالية طابعها الرسمي، ولم تكتمل مؤسساتها إلا بعد واقعة فيشي،حيث تميزت مدينة الجزائر باعتبارها عاصمة فرنسا الحرة بنشاط مكثف للدعاية ،مما أجبر

---

[1] – بتقة(سليم)،المرجع السابق،ص12.

[2] - Denis (Sébastien), **« La diffusion des documentaires sur L'Algérie coloniale en France métropo –litaine (1945-1962) »,** Revue questions de communication, N7940 ,30Juin 2006- France,P319.

[3] -الشال(ا نشراح)،**السينما التسجيلية والفنان التسجيلي**،د ت ط،دار اليمان ،القاهرة– 2006،ص76.

الحكومة الحرة بتأسيس **"المكتب الفرنسي للمعلومات السينمائية"** في أوت 1943من قبل الجنرال **"جيرود"** كهيئة ترد على الدعاية الألمانية،وفي نفس السنة ظهرت**"مصلحة التوزيع السينماتوغرافي"**على مستوى الحكومة العامة،والتي كانت في بداية الأمر تابعة ل**"مصلحة المسلمين للمعلومات والتوثيق"**،ثم استمرت في الوجود في إطار **"مصلحة السينما"** إلى غاية 1962، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها قامت الحكومة العامة بحله ،ولعل حل المكتب كان يعد نقطة انطلاق لتنظيم احترافي للتجارة والصناعة السينماتوغرافية في الجزائر[1]،إذ سرعان ما أنشأت الحكومة الفرنسية بدله مصلحة الأخبار والتوثيق للحكومة العامة،والتي شملت على فرعين :

- **الفرع العام** : حيث يتولى التنسيق مع المركز الوطني للسينما،ويتكفل بدراسة وإعداد النصوص التنظيمية ويسعي لتنفيذها ،ويهدف إلى تشجيع ابتكار أفلام قادرة على التغلغل السريع للعقل الباطن للمشاهد.

-**فرع التربية والثقافة**: يهتم بكافة المسائل غير التجارية المتصلة بالسينما ،كما يسعى أيضا إلى إثراء السينماتيك المركزية للتربية والثقافة بمختلف الأفلام الوثائقية ومشاهد محدودة وعند الضرورة اقتناء عتاد وأفلام.

وإلى جانب هذين الفرعين نجد **"اللجنة الجزائرية للسينما"**والمكونة من موظفين ومحترفين في السينما،أنشئت في جوان 1950،وتتلخص مهمتها الأساسية بتقييم الرؤيا الحكومية لمجال السينما ،و**"مصلحة البث السينماتوغرافي"(SDC)**،وهي المكلفة رسميا بالتنظيم والرقابة على مستوى الحكومة العامة للجزائر[2].

وحتى عام 1946لم يكن في الجزائر سوى مصلحة فوتوغرافية واحدة، وفي عام 1947أنشأ الفرنسيون بالجزائر مصلحة سينمائية أنتجت عددا من الأشرطة القصيرة عرضت وترجمت أغلبها إلى اللغتين ،وهذه الأفلام تنقسم إلى الأنواع الآتية:

[1]- دوبي (سيباستيان)،المرجع السابق،ص،ص42، 43.

[2]-نفسه،ص،ص44،45.

*أفلام تتعلق بالآداب ،والعادات الجزائرية

*الأفلام الوثائقية،والثقافية

*أفلام حول التربية الصحية

*أفلام عن الزراعة

*أفلام عن الدعاية السياسية[1]

وإذا كانت الأفلام المنجزة قبل الحرب العالمية الثانية تتعلق قبل كل شيء بالأفلام السياحية الدعائية على الصورة النمطية لشمال إفريقيا ..أشجار النخيل ،فنتازيا ..،وإنما ذلك مرده لأن التزام فرنسا لم يكن بعد في ذلك الوقت حقيقيا بالنسبة للجزائر،لأن الإنتاج السينماتوغرافي الوثائقي سيشهد نموا استثنائيا بعد عام 1945،بحيث نجد بأن أكثر من 130فيلما تم إخراجه ما بين 1946-1954،وكلها تسلط الضوء بشكل رئيسي على دور البناء الحضاري للجزائر[2]

رغم أن البدايات خجولة عام 1946بانتاج ستة أفلام فقط ،إلا أنه في العام القادم شهد هذا الإنتاج قفزة نوعية على خلفية إصدار دستور عام 1947وماتلاه من إرهاصات سياسية وطنية أقلقت الحكومة العامة ، مما دفعها إلى تشجيع العمل السينمائي وتموينه،إذ نلاحظ إنتاج 65فيلما وثائقيا في ظرف ثلاث سنوات فقط(47-49) ،وهي سنوات الحمى السياسية التي اعترت المشهد العام بالمستعمرة، مما أجبر الحكومة إلى تبني إعلام تضليلي لسكان المستعمرة لمجابهة النشاط الوطني فيها [3]

هيمن المستوطنون على الميدان السينمائي ،وقد كان جل موظفي هذا القطاع الثقافي المهم من الأوروبيين ،وكل مراحل إنجاز الفيلم من بدايته إلى نهايته يشرف عليه فنيون مستوطنون،ولذا كان من البديهي أن يكونوا أكثر حزما في إنتاج صورة موجهة خاصة بالجزائر،وتكون معظم الأعمال الفنية المخرجة ترضي التوجه العام للحكومة العامة وذوق

[1]- الكسان(جان)،**السينما في الوطن العربي**،عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت -1990، ص146.

[2]- دوني (سيباستيان)،المرجع السابق،ص86.

[3]- نفسه،ص88.

المستوطنين قبل أن تكون عملا أخلاقيا بالدرجة الأولى ،ومنه فإن الأفلام المنتجة خلال العشرية التي سبقت حرب التحرير(1945-1954)،وأهمها فيلم **"الواد" ،"واحة ألف قبة"،" أصابع الله"،"قافلة الضوء"**...،هي أفلام تعكس رؤيا كولونيالية موحدة للإدارة الاستعمارية ولأوروبي الجزائر[1]

تحولت السينما إلى وعاء إيديولوجي لفكرة الاستعمار،وبالتالي فقد الفيلم الوثائقي بعده الفني في الكثير من جوانبه،ليصبح بذلك وسيلة لنشر الأخبار وللتضليل السياسي،والسينما الدعائية هي من ستحمل ذلك العبء بشكل تدريجي وبحسب تطور العلاقات العمومية في فرنسا ، وبشكل سطحي أكثر فأكثر**"السينما الإخبارية"**،إذ سيستند عملها على تكرار الأشكال البصرية حتى تتم عملية دمج عقل المشاهد مع الخطاب المراد تقديمه.ومن جهة أخرى تستخدم الدعاية القوالب الجاهزة لغايات محددة،حيث تكون هذه القوالب الجاهزة في الغالب بلا علاقة مع الواقع ،وعليه فإن الحديث عن هذه الأفلام الدعائية لا يعادل الحديث عن الواقع،حيث أنه يعكس خيال "صانعي" هذه الدعاية والجهات الراعية لها وهي في الغالب الدولة[2]

2-الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر وانطلاقة السينما الكولونيالية

كانت الذكرى المئوية فرصة لتطور السينما الكولونيالية ،فقد كانت المناسبة في مصلحة الطرفين منظموا التظاهرة الذين وجدوا في الكاميرا أفضل وسيلة للدعاية للمشروع الاستعماري ،وفي الصورة المتحركة أفضل لغة وأبسطها لتوصيل المنجزات فرنسا،أما مروجوا هذا الفن الجديد ورواده فقد وجدوا في المناسبة فرصة لإخراج المزيد من الأعمال السينمائية ،وضمان مورد مالي لتغطية أعمالهم الفنية.

وباعتبار أن السينما كانت إحدى أدوات السياسة الثقافية آنذاك فقد خصصت حصرا لإنتاج الأفلام القصيرة ،وبثها على مقربة من الاحتفالات المئوية،وعلى الخصوص ستتوسع السينما الدعائية نشاطاتها،لتقع عليها مهمة تمجيد الانجاز الفرنسي ،تلك كانت على سبيل المثال وجهة

[1]- نفسه ص،ص47،48.

[2]- نفسه،ص88.

فيلم **"الرجال الجدد"**،الذي أشرف على تصويره المخرج **"ليوتاي"**،وقد جاء فيلم **"البلاد"**ضمن الإطار نفسه بحكم انبثاقه عن طلبية رسمية للحكومة العامة في الجزائر إلى الجمعية الفرنسية لإصدار الروايات التاريخية المصورة[1]

قررت المحافظة العامة للذكرى المئوية دعم عبر المنافسة المنتجين والمخرجين السينمائين بمبلغ مالي قدر ب 150ألف فرنك لإنتاج فيلم دعائي عن الجزائر بالألوان الطبيعية(طريقة كيرل دوريان Kerle Dorian)كما طلبت فيلما دعائيا عن جبل الهقار من الناشر والمصور الكولونيالي **"بروهو"« Prouhou [2] »**.

إن قائمة الأفلام القصيرة المنتجة أو المعروضة على سبيل الدعاية تجاوزت سقف أهدافها،مما برهن على أهمية هذا السلاح الثقافي في عملية غزو المستعمرة،ونذكر على سبيل المثال لتلك الأفلام الدعائية **"ساعة الصلاة" ،"زيارة العيساوة" ،"سقي الواحات في الجنوب الجزائري"** [3]، ومن جهة أخرى سعت الاحتفالات المخلدة للاحتلال الفرنسي للجزائر وعلى المستوى الإيديولوجي إلى تشجيع الاستيطان بالصورة والدعاية ،فقد تراجعت أعداد المستوطنين في سنة 1930، مما زاد الخوف من نقص في الجالية الفرنسية أمام زيادة الأهالي العددية ،ومن جهتها شاركت السينما في هذا المشروع الرامي إلى تشجيع المعمرين على المجيء، وقد صادف ذلك المعرض الاستعماري الدولي الشهير بباريس عام 1931، فظهرت مجموعة من الأفلام المدعومة مباشرة من قبل السلطات الاستعمارية،لإعطاء الصبغة الرسمية للصناعة السينماتوغرافية في المستعمرة [4].

3-صورة الأهلي والأوروبي في المشهد السينمائي الكولونيالي

ظلت الإيقونة الاستعمارية،ولعدة عقود مجالا للأبحاث الريادية التي أفضت إلى كشف استمرارية الخطاب الذي أقصى الشعب المستعمر،ومن من جهة أخرى الظاهرة الاستعمارية

[1]- ريسلر (كميل) ،المرجع السابق،ص،ص322، 323.
[2]- نفسه،ص324.
[3]- نفسه،ص،ص324،325
[4]- بتقة (سليم)،المرجع السابق،ص17.

وعمل على خلق عالم عن طريق الإخراج السينمائي يكون فيه التميز واضحا بين حدود المتحضر والهمجي حتى تتم عملية شرعنة المؤسسة الاستعمارية ونزع الشعور بكره الأجانب بين الأعراق،ومن جهة ثانية أخرجت لنا الأيقونة الاستعمارية معيارا بصريا يقدم لجمهورها العريض في قاعات السينما كليشيهات تبدو وكأنها موغلة في القدم. فبالنسبة ل **"بيتر بلوم "**لا يمثل جهاز السينما الاستعمارية مدونة أفلام فقط،وإنما هو عبارة عن مجال استدلالي من شأنه أن يرتب الوضع الاستعماري في عرض بصري متحرك كحدائق للحيوانات البشرية تعمل على تمثيل الغزو الاستعماري في القرن الماضي [1]، فلم تتردد السينما الاستعمارية في تزييف أو تخليد كليشيهات نمطية عن الجزائر،فإذا حللنا سيناريو فيلم **"تفان"**الذي يتناول عمل الأطباء في الجزائر كنموذج للأفلام المنتجة آنذاك، فإننا نجده يظهر ،وبخبث كبير صورتين للجزائر قبل وخلال التواجد الاستعماري،صورة للجزائر قديمة ،مليئة بالّأكواخ البائسة،أطفال في ثياب رثة، متسولون أكثر قذارة،وصورة للجزائر الأوروبية والعصرية يتجلى فيها وبشكل جلي عظمة فرنسا الاستعمارية[2].

وإذا كان الأهالي هم الأكثر ظهورا في المشهد السينمائي ، فإن صورة فرنسيي الجزائر كانت أقل ظهورا ، فهي ينبغي أن تكون شبيهة لفرنسي الميتروبول باعتبارهم ممثلين للمؤسسات الغربية،فهم ببساطة يشبهون في حياتهم نمط الحضارة الغربية لقرى ومدن الجزائر، والتي تدافع عنهم بشراسة الأفلام الكولونيالية،أما الأوروبيين فلم يظهروا إلا نادرا ،فقط بالصورة المثلى التي يريد منتجوا الأفلام إبرازها، بنفس طريقة اللقالق والكنائس، و الأوروبيون في المشهد السينمائي هم كمبارس لهذا العمل الإخراجي للسلطة الكولونيالية ،إنهم يشاركون في خطاب يعقوبي ،دون أخذ الاعتبار لخصوصياتهم المختلفة، فلم نرى على الإطلاق ،التنويه بالمجتمع اليهودي المهم في ظل الأقدام السوداء[3]

وعموما فقد لخص "عبد الغني المغربي"المواضيع التي تناولتها السينما الاستعمارية بخصوص الأهالي والمعمرين،فكانت كالآتي:

[1]- دوني (سيباستيان)،المرجع السابق،18.

[2]- نفسه،ص50.

[3]- نفسه،ص،ص257،258.

1-السخرية من الأهلي المستعمر،ومنها :"**المسلم المضحك**"،"**علي يأكل الخبز بالزيت**"

2-الاختلاط الجنسي ،ومنها: أفلام "**أرواح مسورة و أوجه مبرقعة**"

3-الغراميات المثيرة،ومنها :"**الماسة الخضراء**"،"**صراع بين جيلين**"،"**الرمال**"

4-المرأة ،ومنها: "**في ظل الحريم**"،"**الشهوة** "،"**المرأة والعندليب**"

5- سطوة المستعمر،ومنها:"**البلاد**"،"**الأمير جون**"،**المغامر** "،"**في أفق الجنوب**"

6- الصليب في خدمة المستعمر،ومنها:"**نداء الصمت**"،**الطرق المجهولة**"

7-السيف في خدمة المستعمر،ومنها: "**الرقيب**"،"**المنبوذون**"،"**وسام الشرف**"

8-المنحرفون الأوروبيون،ومنها :"**الرمال المتحركة** "،"**ريح السموم**"[1]

رغم هذه الأفلام التي تكرس الكراهية وتؤسس للتميز،فإن الأفلام القليلة المصورة لأوروبي الجزائر أظهرت لنا في آخر المطاف حقيقة هذا المجتمع المعقد والمتكون من مختلف المجموعات العرقية أو الاجتماعية التي تتقارب في الأفلام كما في الحياة ،تتلاقى ولكن هناك صعوبة في وجود اتصال عميق فيما بينها،وأفراد منفصلين في الواقع كما في الصورة،فقط يوجد الفيلم الوحيد الموجه للولايات المتحدة في وقت جد متأخر عام 1960(اقتراب نهاية الوجود الأوروبي في الجزائر)،وهو فيلم « **De gaulle's pledge in action** »،والذي يظهر الجزائر دولة متعددة المذاهب يعيش فيها المسلم واليهودي والمسيحي ، وبالطريقة ذاتها التي قد تجعل من الأقدام السوداء جزء غير مدرك تجاه الزوال الاجتماعي لدى المسلمين[2].

ومن جهته أراد "**جون لوك غودار**" أن يسلط الضوء أمام عدسته السينمائية ليصور لمثقفي الميتروبول حقيقة ذلك المجتمع الاستيطاني الذي اعتراه الانفصام ،والازدواجية في الممارسة

[1] -Abdelghani Megherbi,**Les Algériens au miroir du cinéma colonial** , Sned, Alger - 1982, p258.

[2]- دوني (سيباستيان)،المرجع السابق،ص258.

السياسية للدولة الفرنسية وزيف الديمقراطية وتناقضاتها،في فيلمه **"الجندي الصغير"** ،الذي صوره عام 1958،ولم يكتب له ليرى النور إلا بعد الاستقلال [1]

إن غياب شبه الكلي للأقدام السوداء على الشاشة لا يفسر إلا بأنه محاولة لحجب خطابهم ، وكذا إرادتهم الشرسة لرفض توجهات الحكومة ودعايتها لصالح المسلمين،وتهدئة الجماهير الأهلية الغاضبة،والأفلام التي طرحت على مستوى مصلحة السينما لطالما احتوت على الأقدام السوداء،ولعل إظهار المسلمين أكثر على الشاشة من الأوروبيين فإن ذلك مرتبط وبلا شك بتوجه تلك الأفلام في المقام الأول إلى السكان العرب والقبائل.فلم يطالب الأقدام السوداء تبريرا على "فرنسيتهم"من خلال حضورهم في الأفلام الوثائقية:إنهم فرنسيون دون أن يقنعهم أحد ،فهم أسياد المستعمرة ،أما في الأفلام الموجهة للحاضرة الفرنسية فهم فرنسيون كباقي الفرنسيين،ماعدا في بعض الأفلام القليلة ،التي تظهر بصدق وحشيتهم الحقيقية ،مثل فيلم **"ولد المرجان"** للمخرج **"ليريزي "**عام 1953،و**"صياد يروي"** للمخرج **"كارلوس"** 1961[2].

تطلع الأقدام السوداء مثلهم مثل السكان الأهالي في بادئ الأمر إلى مسايرة الاحتياجات السياسية الراهنة ،بحيث أن تمثيلهم كان أكثر انتهازية،ومرتبط بالحتميات الوحيدة والخاصة بحصيلة التقرير للسياسة الجارية .إنهم حاضرين دوما وبانتظام في المستجدات الإخبارية المدنية كضحايا مباشرين أو شهود أثناء الدفن ،فضلا عن ذلك فإن المستجدات الإخبارية العسكرية المتعلقة بالسكان الأوروبيين تظهر مشاركة الجيش في توفير الأمن لهم وحماية مصالحهم الاقتصادية ،وما عدا ذلك فقد كان يستثنى إظهارهم عمدا في المشهد السينماتوغرافي ،وإذا ما ظهروا فإنهم سيظهرون في صورة مثالية كفرنسيين وطنيين ، وقد استمر هذا على الأقل حتى سنة1958،ليعاد تمثيلهم كأعداء للجمهورية وخطرا على الوحدة الوطنية بسبب نزعتهم الانفصالية[3].

[1] - Reynés-Linares (Aina), op-cit ,p5.

[2] - دوني (سيباستيان) ،المرجع السابق،ص،ص258، 259.

[3] - نفسه،ص،ص259، 260.

ولما كان الجندي الفرنسي الأداة الأساسية لعملية الغزو والسيطرة على المستعمرة،فإننا نجده مركز الحدث السينمائي ومحرك الدعاية للخطاب الاستعماري ،فقد تفننت الكاميرا الكولونيالية في إظهاره في أفلام عدة ،أهمها : « **La bandera** » ل"**جوليان دوفيفي**" « **Julien duvivier** » و"**جون غابان** " « **Jean Gabin** » 1935،و"**فيلم الرقيبx**" « **Le sergent x** » 1932 للمخرج "**فلاديمير ستريزوفسكي**" ، « **Vladimir Strizhevsky** » والذي صور ببلعباس مركز تجميع جيش الجوقة ،و"**جوقة الشرف**" « **Légion d'honneur** »للمخرج "**موريس غليز**" « **Maurice Gleize** » 1938[1].

أرادت السينما الاستعمارية من وراء هذه الأفلام التي تصور جندي الجوقة إظهار تلك الشخصية الضائعة المنفية من وطنه والبطلة في المستعمرة والوفاء والوفاة في النهاية لأجل الوطن ،مثل هذه البطولة لا تتحقق إلا في التراجيديا الإغريقية ،غير أن المخرجين ومنتجو هذا النوع من الأفلام أرادوا إيصال للمتلقي ،وهو عادة المعمر تلك المواجهة التي حكمت لعقود طويلة العلاقة بين الجندي والأهلي للسيطرة على الأرض،لتفسر له صعوبة الاحتواء التي تصبو إليها المهمة التحضيرية ،أنه نوع من المحاكاة للأفلام الهوليودية الأمريكية "الوستيرن"في تصوريها للأهلي بأنه قاطع طريق ومخادع ومتعطش للدماء،بينما الجندي بأنه متحضر وشريف وحامل رسالة[2]

إن موضوع الأرض والموت ، ظلت الصورة الأكثر ميلودرامية قبل وخلال الحرب التحريرية ،فقد استخدمت صور الموت والدفن والمقابر والكنائس والنصب التذكارية لتبرر جهد المستوطن وتظهر فرنسي الجزائر بأنهم أكثر قومية وحضارة وانتماءا للجزائر،لأن الأموات يعدون في الصفوف الطلائعية للحضارة ،وهذا ما تجلى في الكثير من الأفلام الكولونيالية ،فالمقبرة في فيلم "الأرض والأموات"رمز قوي لترسيخ فكرة القومية الفرنسية ،أما في فيلم "**عطش الرجال** "للمخرج "**سارج دي بولييني**" عام 1949فهي ترمز لتضحية

[1]- بتقة (سليم)،المرجع السابق،ص15.

[2]- نفسه،ص،ص16،17.

المستوطن الأول من أجل هذه الأرض[1].و لم يكن غرض الفيلم الاستعماري من سعيه من خلال عرض هذه الصورة الدرامية للمستوطن ،إلا بهدف إثارة الاهتمام بالمشاكل المتعلقة بكيفية تناول الزمان الواقعي ،أي الحاضر والماضي والمستقبل ، أو الأحداث المتتالية أو المتباعدة ،بحيث يصبح عنصر الزمن –الذي يحاكي الوجود الاستعماري بالجزائر-ذا أهمية كبرى في وضوح التعبير وفاعليته على الشاشة على حد تعبير السينمائي فيلدمان[2]

وإذا كانت السينما الاستعمارية في مقاربتها الفنية في معظم مواضيعها ذات بعد عنصري وإقصائي ، فإنها في حالات قليلة حاولت أن تعالج موضوع الجزائر كأرض فرنسية تتعايش وتتمازج فيها الأعراق المختلفة،وأحسن فيلمين يروجان لهذه الفكرة هما فيلم **"الجزائر أرض الأبطال "** عام 1950للمخرج **"ويسمان "**،وفيلم "قرية سرسو" عام 1953للمخرج **"كارلوس"**،فقد أراد كارلوس إعادة تأليف التاريخ العام للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر بطريقة كرونولوجية مخالفة لطبيعة العلاقة التقليدية التي ربطت المستوطن بالأهلي،إنها حكاية الصداقة التي كبرت مع مر الزمن بين المعمر شوفان والفلاح أحمد ومعهما تنمو وتزدهر القرية الصغيرة**"فيكتور هيغو"**في منطقة السرسو ،أراد المخرج من عمله إنجاح فكرة **"الجزائر الفرانكو إسلامية"**،والتي يكن لها المستوطنون العداء الشديد[3] إن طمس الهوية الجزائرية ،قد تواصل من خلال استهداف الثوابت الوطنية والدينية والثقافية بسلب الأنا وتفكيك الآخر كما يقول معظم مفكريهم،إذ لم يكتمل استعمار الجزائر إلا بوضع اليد على كل مفاصل المجتمع .وبذلك تتواصل عملية تصوير الأفلام في فترات متقاربة من عام 1896وإلى غاية فترة ما قبل الاستقلال 1957في هذا الاتجاه النمطي والمخطط المضلل .

4-أثر السينما الكولونيالية في ميلاد السينما الثورية الجزائرية

كان رصيد صناعة السينما الوطنية الثورية قبل الاستقلال،والتي تشكلت خليتها الأولى في الجبال على يد الثوار عام 1957،مجموعة من الأفلام الوثائقية القصيرة،التي أماطت اللثام عن

[1]- دوني (سيباستيان)،المرجع السابق،ص،ص252،253.

[2]- قحلوص (صالح علي مسعود)،"**علاقة الزمن الجدلية في الفكر السينمائي**"،مجلة الأكاديمية للعلوم الانسانية والاجتماعية ، عدد مزدوج10-11،يوليو-ديسمبر،ليبيا-2016،ص124.

[3]- دوني (سيباستيان)،المرجع السابق،ص،ص253،254.

جرائم الاستعمار،الذي كانت تدعي مدرسته السينمائية ، ومعها جحافل الصحفيين والسينمائيين، الذين أتقنوا فن الدعاية الكاذبة ، بأنه الصورة الإنسانية التي لا يمكن لها إيذاء الإنسان مطلقا ،إذ ساهم احتكاك الأهلي بالفرنسيين وبأوروبي الجزائر ،ولو لبرهة من الزمن من اكتساب الخبرة في الإخراج ،التصوير ،كتابة السيناريوهات ،تركيب الأفلام ،... ، أي باختصار عملية إنتاج الفيلم الوثائقي الثوري من لحظة ولادة الفكرة إلى عرضه في قاعات السينما وشاشات التلفاز،وكان لأصدقاء الثورة من الداخل والخارج بفضل خبرتهم السينمائية ولمستهم الفنية دورا في نجاح المهمة التي ولدت من أجلها السينما الثورية ،وهي نقل صورة الواقع المر الذي يعيشه الأهالي،وحقيقة الثورة بالصوت والصورة للرأي العام الدولي،الذي طالما حاولت الآلة الإعلامية الاستعمارية تشويهه على الدوام[1].

والحق فقد مهد إنتاج الكولونياليين لأفلام بالعربية ،ولاستعانتهم بفريق كبير من الممثلين وكتاب السيناريوهات من الأهالي في نشأة سينما جزائرية وطنية نهاية الثورة وبعد استقلال الجزائر،فقد كانت الشخصيات الفنية الرئيسية في إنتاجات **"كاستيلا"** وغيرها تتمثل في الموسيقار والمغني والممثل **"محي الدين بشطارزي "**،مؤسس أول معهد موسيقي جزائري ، و رجل المسرح المعروف،وكذا الموسيقي والسفير **"البودالي"** مسئول الحصص العربية والقبائلية في الراديو .وقد كتبا ومثلا في العديد من الأفلام ،فهما بمثابة رمز الحيوية المتجددة للثقافة العربية و الأمازيغية في الجزائر،باعتراف السلطات الفرنسية نفسها،وقد كانا محاطين بفنانين موهوبين أمثال الموسيقي **"ميسوم مراوي"**، و**"أحمد اقومي"**، **"احميدو"**،وكذا **"كلثوم"**، الذين عرفوا بعد الاستقلال نجاحا جماهيريا كبيرا[2].

كانت الحاجة ملحة لإيجاد سينما تواكب مسيرة حرب التحرير التي بدأت عام 1954،وكان لابد لهذه السينما أن تنطلق انطلاقة علمية ومدروسة ولا تكون مجرد مغامرة ، ولهذا ففي عام 1957فتحت مدرسة للتكوين السينمائي في الجبال بالولاية أ-من المنطقة الخامسة.التي كان مديرها **"رونييه فوتيي"**(وهو فرنسي التحق بصفوف جيش التحرير الوطني) [3]،كان قد كلفه

[1]- بوخموشة(إلياس)،**"جمهور السينما بالجزائر بين الوفاء والقطيعة "**،مجلة ذوات ،مجلة ثقافية شهرية،العدد 24، الرباط-2016،ص55.
[2]- دوني (سيباستيان)،المرجع السابق،ص87.
[3]- الكسان (جان)،المرجع السابق،ص217.

عبان رمضان بعد مؤتمر الصومام بالإشراف على هذه المهمة النبيلة ، إذ كانا الطرفان يأملان في تأسيس أرشيف خاص بالثورة ،وبذلك يعتبر روني فوتيه أول من استعمل الكاميرا في الجبال ،بعد أن ترك نشاطه الإعلامي بفرنسا وينضم لصفوف جبهة التحرير،قبل أن يلتحق به ،سينمائيون آخرون،من المناضلين المقربين من الحزب الشيوعي ،وعلى رأسهم **"بيار كليمون"** « **Pierre Clément** » ،**"يان لوماسون"** « **Yanne Lemasson** » ، **"سيسيل دي كوجيس"** « **Cécile de Cujis** »،الدكتور **"بيار شوليي"** « **Dr Pierre Chaulet** »[1]. وقدكانت هذه المدرسة تقوم في البداية بمهمة تعليم وإعداد سينمائيين جزائريين،كما كانت تنتج عدة عروض تلفزيونية وزعت على البلدان الاشتراكية والصديقة ،منها: شريط عن المدرسة نفسها،و شريط عن ممرضات جيش التحرير،و صور ومشاهد عن مهاجمة مناجم الونزة[2].

استمر إنتاج الأفلام بما أمكن من إمكانيات ،وكان على المقاومة عبر الصورة أن تكون بليغة ومؤثرة ، وأن توازي قوتها قوة الثورة ،وتواجه الدعاية السينماتوغرافية الاستعمارية في الداخل والخارج،ولم يمض وقت وجيز حتى استطاع كل من **"بيار كليمون"** و**"رونيه فوتي"**و**"جمال شندرلي"** وغيرهم ،نقل واقع الثورة في الجبال،والرد من هناك على الدعاية الإعلامية الفرنسية المضللة،ورغم كونها أفلاما قصيرة،وأغلبها صامتة،إلا أنها نقلت صدى الثورة وجرائم المحتل للرأي العام الدولي ،عبر أفلام عدة ، وفي مقدمتها **"ساقية سيدي يوسف"** التي صورت المذبحة الاستعمارية في حق المدنيين العزل من التونسي والجزائري،وفيلم **"الجزائر تحترق"**الذي أنتجه **"رونيه فوتي"**عام 1957،وتم عرضه عام 1958[3].

وهكذا ولدت السينما الجزائرية ومعها عوامل حيويتها كفن ملتزم بقضايا الناس والوطن.وقد حرصت على أن تحفظ أشرطتها في أماكن آمنة عن عيون الجيش الفرنسي،فقد كان لابد في

[1]- وزناجي (مراد)،"**الثورة التحريرية في السينما الجزائرية ،الدلالة والتأثير**" ،مجلة آفاق سينمائية ،مختبر فهرس الأفلام الثورية في السينما الجزائرية ،العدد الثالث،جامعة وهران ،جوان 2016 ،ص89.

[2]- الكسان (جان) ،المرجع السابق،ص217.

[3]- بوخموشة(إلياس)،المرجع السابق،ص55.

هذه المرحلة من جمع الأفلام خارج البلاد ،فهربت النسخ السلبية للأفلام المصورة ،وجمعت في يوغسلافيا وثائق مصلحة السينما التابعة لجيش التحرير ،ومصلحة السينما التابعة للحكومة المؤقتة فيما بعد،ولا يخفى على أحد كم هي صعبة تلك الظروف التي مورست فيها عملية إنتاج الأفلام، والتي أنجزت بوسائل مادية محدودة،ويد على سينمائيين تنقصهم التجربة[1] .

فتح هؤلاء الثلاث (**فوتيي ،كليمون،شاندرلي**)باعتبارهم رواد السينما الجزائرية المجال لسينمائيين جزائريين وأجانب وفرنسيين جدد انضموا لقافلة صناع الفيلم الثوري ،وساهموا من خلال عملهم في الجزائر في تدريب وتخريج جيل من المخرجين والمنتجين السينمائيين الجزائريين ،الذين صنعوا روائع السينما الجزائرية بعد الاستقلال أمثال" **لخضر حامينة** "،"**محمد راشدي**" ...ألخ،ومن بين الأفلام التي أخرجت عشية استقلال الجزائر "**أكتوبر في باريس**" « **Octobre à Paris** »للمخرج الفرنسي "**جاك بانيجل**" « **Jacques Panijel** »،وفيلم "**أشجار زيتون العدالة** " « **Les oliviers de la justice** » للمخرج"**جيمس بلو**"« **James bleu** » ،والذي انتقد فيه ذهنية المستوطنين العنصرية اتجاه الأهالي وسياستهم الانفصالية ،وفيلم"**معركة الجزيرة**" « **La bataille de L'ile**» للمخرج" **ألان كافاليي**« **Alain Cavalier** » ،الذي تضمن مشاهد الإرهاب الذي مارسته منظمة الجيش السري « **l'OAS** »لنسف مساعي استقلال الجزائر[2].والواقع فإنه لم يكن لإنتاج الأفلام الجزائرية أن ينشأ ويتطور في مسار مستقيم ومنتظم فشأنه شأن المجتمع الجزائري ومؤسساته ،فقد عرف في مسار تاريخه القصير فترات للتألق وأخرى للأفول ،غير أنها أجادت في التعبير عن ثورة شعبها على الاحتلال،ولعبت دورا في صياغة توجهه نحو تصدير حقائق الواقع المعاش،وتسجيل الأحداث التاريخية ،وخاصة المتصلة منها بالثورة ،كما أن الثورة برعت في تجنيدها كل ما أتيح لها من الوسائل والكفاءات لتوثيق كفاح الشعب الجزائري،والملاحظ أنه بالرغم من قلة إمكانياتها وتعدد مهامها وتعقدها والحصار المضروب

[1]- الكسان (جان)،المرجع السابق،ص218.

[2] - Blanchard (Pascal), « L'image des maghrébins dans les films post coloniaux français du temps colonial ou de la guerre d'Algérie (de godard à bouchareb) »**, Revue Migrance ,** Revue spécialisée dans l'histoire de l'immigration en France et en Europe,Musée national de l'histoire de l'immigration,N°37, 08/02/2012, France,P11.

عليها خاصة بعد عام 1958،فإن الثورة بالتفافها لهذا القطاع استطاعت أن توثق لمرحلة هامة من تاريخ الجزائر ،وبالرغم من أن عمليات التمحيض والتركيب كانتا تتمان في مخابر العاصمة الفرنسية "باريس" وفي بعض البلدان الاشتراكية، وخاصة منها يوغسلافيا[1].

فلم يوجد هذا الفن ذو الطابع الثوري الملتزم لإغراض الترف والتسلية بقدر ما كان ضرورة ملحة أفرزتها حرب التحرير ،استعملها الثوار كسلاح ووسيلة مقاومة .فبالنسبة للباحث عبد الغاني مغاربي فإن :"ميلاد السينما الثورية الجزائرية كان في ظرف حتم عليها أن تكون أكثر التزاما وواقعية "،فهي ذات مغزى وهدف ووسيلة نضال،وبالرغم من عدم تمكنها من الجانب التقني ،فهذه الأشرطة التي قدمتها لنا السينما الجزائرية الحديثة النشأة تمجد في مضمونها بطلا واحدا وهو الشعب الجزائري ،بشكل مبسط وبعيدا عن التعقيدات ،وبلا عنف إنها لم تقدم لنا قصصا خيالية لتسلية جمهورها ،ولكنها سعت لإسقاط القناع وكشف حقيقة الاستعمار[2]

أنجزت خلال الحرب التحريرية العديد من الأفلام الوثائقية القصيرة والمتوسطة ، **" الجزائر الملتهبة"** المنتج عامي 1957-1958من إخراج **"رونييه فوتييه"** فيلم **"ساقية سيدي يوسف"** ، 1958،**"اللاجئون"** سنة 1958،واللذان أخرجهما **"بيار كليمون"** ،فيلم **"جزائرنا"** سنة 1957 من إخراج **"ساشافييرني"** ، فيلم **"ياسمينة"** عام1961 للأخضر حامينة،وفيلمي **"صوت الشعب"** و **"بنادق الحرية"** عام 1961 للمخرجين "الأخضر حامينة" و"جمال شندرلي" ..وغيرها من الأفلام الثورية الأخرى[3]

ومع اكتساب الخبرة تغيرت المعالجة السينمائية الفرنسية الصديقة للمسألة الجزائرية ،ومع الأيام وجدت الثورة أنصارا ومؤيدين لها من قبل صانعي الأفلام وكتاب السيناريوهات من الفرنسيين ، وفي نهاية الحرب ،أي ما بين سنوات (1958-1962) ظهر جيل من السينمائيين الفرنسيين الشباب أرسوا لسينما جديدة معادية للتوجه الاستعماري السائد أنذاك، أمثال **"ألان روسني"« Alain Resnais »** بفيلم **"موريال"« Muriel » " جون لوك قودار" Jean**

---

[1]- سارة(قطاف)، **كتابة سيناريو الأفلام التاريخية من خلال عينة من الأفلام التاريخية الثورية "العصا والأفيون"،"نوة"،"الخارجون عن القانون"،"زبانة"–دراسة تحليلية وصفية**- مذكرة الماجيستير ،كلية الإعلام ،جامعة الجزائر-2013-2014،ص38.

[2]- بن نكاع (أحمد مولاي)،**ملامح الهوية في السينما الجزائرية** ،أطروحة الدكتوراه ،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة وهران -2012-2013،ص18.

[3]- الكسان (جان)،المرجع السابق،ص،ص218،219.

« luc godard– »بفيلم **"الجندي الصغير"« Le petit soldat »** ،**"ألان كافالي"** بفيلم **"العاصي"« Alain Cavalier » « L'insoumis »** ،**"جاك روزيي" « Jacques Rozier »** بفيلم **"وداعا فيليبين" « Adieu philippine » ...** إلخ،غير أن هذه الأفلام التي أنتجت بغاية إثارة المشكلة الجزائرية في الوعي الجمعي للأمة الفرنسية لم تحرك إلا بعض الضمائر الحية ،وبدت قليلة التأثير على أكثرية المجتمع الفرنسي،رغم أن معظم هذه الأفلام لم تظهر بشكل فعلي حقيقة حرب التحرير ،وركزت في اختيار مواضيع تمس الفرنسيين بالدرجة الأولى ،مثل تمرد الجنود،وتجاهلت معاناة الأهالي الكبيرة من البطش الاستعماري،مما جعلها تفتقد للقوة والتشويق ،الذي تميزت به الثورة التحريرية [1] ،لكن هناك ما يبرر ذلك،فعمل فرق العمل السينمائي من الفرنسيين والأجانب إلى جانب جبهة التحرير كان محفوفا بالمخاطر ، والقانون يجرم أي عمل فني يقوم بالدعاية للمنظمات الإرهابية ، وظروف العمل الميدانية كانت مناوئة، ولذا فمن الطبيعي أن يكون أي عمل سينمائي يوازي ويعادي التوجه الإيديولوجي الكولونيالي مرفوضا ، وكان من الواجب على اليساريين بذلك النضال داخل النظام الكولونيالي وخارجه"[2].

تحولت الأفلام الثورية التي تم إخراجها خلال فترة حرب التحرير وبعد الاستقلال، إلى مادة خبرية ومصدر مهم للكتابة التاريخية ،وكما نقلت الكاميرا الثورية بفعل قوة تأثير صورتها ونصها الملتزم وقائع الثورة ومعاناة الشعب الجزائري من القهر الاستعماري ، وتحدت الترسانة الإعلامية للاستعمار ،صنعت الحدث بعد الاستقلال ،إذ أصبحت مصدر ثالث للمعلومة التاريخية ،بعد المصادر المكتوبة والشفوية[3]،غير أن السينما الوطنية تقع خلال السنوات الأولى للاستقلال ، في نفس الخطيئة التي وقعت فيها السينما الكولونيالية ،ولم تسلم

[1] - Stora (Benjamin),**La guerre d'Algérie :la mémoire par le cinéma ,in Pascal blanchard et Isabelle veyrat-masson, Les guerre des mémoires** ,Edition de la découverte ,Paris -2008 ,P246.

[2] - carla (Jean) , Thirard (Paul-Louis), **« pour un cinéma hors-la-loi »** , Revue Partisans ,n°5,juillet-aout, France-1962,p48.

[3]- Guicheteau(Gérard) et Combier(Marc),**L'Algérie oubliée, Images d'Algérie** ,Edition Acropole ,France-2004,p7.

من الاتهام الموجه لها بأنها سينما ممجدة للنظام الحاكم للجزائر ،ومقصية للوجوه المعارضة أمثال فرحات عباس ومصالي الحاج ،وعبان رمضان [1]

وإذا كانت البدايات الأولى للسينما الوطنية بعد الاستقلال ارتبطت بالثورة ،وتجارب أخرى تتحدث عن الواقع الجزائري ،فإنها ساهمت في ميلاد **"سينما المهجر"** في فرنسا ذاتها ،وكأنها جاءت لتواصل مسيرة النضال السينمائي الوطني التي بدأت مع روني فوتيي ،وتستكمل مشروع الثورة ضد كل أشكال الاستغلال،فمباشرة بعد الاستقلال برز جيل من المخرجين الشباب الذين ولدوا بالمهجر،أو هاجروا في أعمار مبكرة ، جاءت أفلامهم تحمل همومهم الخاصة ،وتجسد فكرة الصراع العنيف الذي تعيشه الجالية في الاختيار بين ثقافتهم وثقافة المجتمع الأوروبي ، والخوف من الإبعاد إلى وطنهم الأصلي،وقضايا أخرى ،فقد كان أول الأفلام ظهورا لهذه الفئة الشابة من سينمائي المهجر فيلم **"مكتوب"**للمخرج **"علي غالم"**الذي تطرق فيه إلى حياة المهاجرين بفرنسا ومشكلة البؤس والعنصرية التي تعاني منها هذه الشريحة[2].

الخلاصة

منذ نشأتها سعت السينما الكولونيالية إلى تكريس كاميرتها لخدمة الأهداف العليا للاستعمار الفرنسي ، وتوظيف الصورة للدعاية لمشروعها الاستيطاني وإضفاءه الشرعية الأخلاقية والسياسية،وذلك بالتأثير على الجميع وفي كل الاتجاهات من الأهالي والمستوطنين والفرنسيين بالميتروبول عبر استخدام جمالية الصورة و قوة السيناريو،غير أننا وجدنا البطل الوحيد في كافة الأفلام التي تم إنجازها من الفيلم العجائيبي انتهاء بالفيلم الوثائقي ،هو الأهلي الذي كان حاضرا في معظم مراحل السينما الاستعمارية ،كصورة مشوهة ليرمز للعقل الأوروبي ككائن دوني ،وغير متحضر ،وتظهر في مناسبات قليلة المعمر على أنه حامل لرسالة الحضارة.

[1] - Stora(Benjamin) ,op-cit,p267.

[2] - بوعتو (خيرة)،"**جمالية العنوان بسينما الجزائر بالمهجر فيلم Le thé au harem d'archimède لمهدي شارف أنموذجا**"، مجلة جماليات، العدد الثاني، جامعة عبد الحميد ابن باديس ،شتاء 2015،مستغانم،ص82.

تحول الأهلي الذي كان محل السخرية ،صانعا للسينما المضادة للاستعمار ،فقد استخدم ذات الأداة الثقافية لمقاومة الآلة الإعلامية الاستعمارية ،واستطاعت السينما الثورية والوطنية محليا ودوليا أن تنقل رسالة الثورة للعالم وترد على ادعاءات المستعمر وأكاذيبه.

خامسا:احتفالات مستوطني الجزائر بمئوية احتلال الجزائر سنة 1930 وأثرها على الواقع الثقافي للأهالي المسلمين

يسجل الاحتفال بالذكرى المئوية لغزو الجزائر سنة 1930 في الأدبيات الاستعمارية الفرنسية في العادة على أنه تخليدا لفتح إفريقيا ،وغالبا ما كان يتم تقديمه على أنه ذروة الدعاية الاستعمارية لفكرة انتصار المدنية الغربية الفرنسية وتفوقها الحضاري، ومثلما ينظر إليه الكثيرون من غلاة المستعمرين بالأمس على أنه كان محطة فاصلة في تغير مواقف السكان الأهالي من الوجود الاستعماري، وكحدث جدّد فكرة النضال الوطني وأحي لدى الكثير من الجزائريين - سواء أكان الأمر يتعلق بالنخب والأحزاب أو الجماهير- فكرة المقاومة" [1].

سبقت احتفالات مئوية احتلال فرنسا للجزائر تحضيرات كبيرة ،ورصدت لها أمولا طائلة تحت رعاية وإشراف أعلى الهيئات الرسمية والمراكزالحكومية بباريس نفسها ،وبالرغم من أن التظاهرة كانت حافلة ومليئة بالأحداث الفنية والأدبية والسياسية ،وخلقت في نفوس الأقلية الأوروبية الابتهاج والارتياح لقوة فرنسا وقدرتها على حماية أمنها ،إلا أنها شكلت منعطفا حاسما في تغير مواقف النخب الوطنية الجزائرية من الوجود الاستعماري .**فهل يمكن اعتبار احتفالات مئوية فرنسا في الجزائر كمظهر ثقافي يعبر على انتصار ثقافة المحتل ؟أم أنها بداية لمقاومة سياسية وثقافية للأهالي ضد تلك الثقافة وأهدافها؟**

1-التحضير لاحتفالات مئوية احتلال الجزائر سنة 1930 : بدأت التحضيرات للاحتفالية في بداية حكم الحاكم العام "فيوليت" [2]،حيث تجدنت لها كل السلطات العليا بالجزائر وفرنسا لانجاحها،ومن أجل تغطية مصاريفها المالية تكفل مجلس النيابات المالية للجزائر بالتنسيق مع الحكومة العامة في الجزائر ووزرات سيادية بباريس كوزارتي الداخلية والمالية ،هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد قسمت الأعباء والأشغال بين حكومتي الجزائر وفرنسا ،ووضع برنامج و

[1] - Jansen (Jan), « **Fête et ordre coloniale Centenaires et résistance anticolonialiste en Algérie pendant les années 1930 »,** Vingtième Siècle. Revue d'histoire , Presses de Sciences Po, Paris-2014,p61.

[2]-في الواقع تعود فكرة الاحتفالات بمئوية احتلال فرنسل للجزائر إلى وقت أبعد من فترة حكم موريس فيوليت الأولى ، وبالضبط إلى عام 1923 في فترة الحاكم العام ستيغ ،وليس بالطبع فكرته وانما قد تحمس لها عدد كبير من الكولونياليين بفرنسا والجزائر.ففي 24 ديسمبر 1923 أبرق الحاكم العام ستيغ للحكومة الفرنسية مراسلة حدد فيها أسماء الشخصيات التي ستشرف للإعداد للحفل وتنظيم فعالياته .أنظر أسماء المنظمين في المحلق رقم 08،ص491.

قانون خاص يحدد المهام ويوضح وسائل العمل أشرف على نجاحه محافظ الاحتفال السيد"**م.برينال**"**« M.Brunel »** [1].

لقد كان التحضير يجري على قدم وساق ،وتنجدت كل الأطراف الفاعلة من سياسيين وأدباء ومؤرخين ..لإنحاج الاحتفالية ،وهنا نشير إلى التقرير الذي أعده المستشار البلدي لباريس **"بيار قودان"**،بأن إحياء مئوية الاحتلال الفرنسي للجزائر لم يكن فقط مسألة تهُم فرنسيي الجزائر ،بل كان الاستعداد لتخليد مائة سنة من احتلال الجزائر حدثا مهما وانتصارا للدولة الفرنسية نفسها ،فقد ورد في التقرير مايلي:**"إن التحضيرات لتخليد مئوية احتلال الجزائر على أشدها ،برامج ضخمة للاحتفالات العامة هي قيد التحضير ،يشرف عليها شخصيا الحاكم العام للجزائر ،وتحت إدارة النيابات المالية ،لجنة مختصة التي وضعت كل الموارد المالية الجزائرية ،والوسائل الممكنة لإنجاح أكبر تظاهرة ثقافية تشهدها الجزائر،ستظهر للعالم مجد فرنسا وعظمة حضارتها العريقة ...."**2.

ومن المؤكد ،فقد ظهر جليا الاهتمام البالغ الذي أولاه أعضاء المندوبيات المالية بالقضايا المتعلقة بالعيد المئوي من تنظيم و تحضير، وذلك خلال افتتاح الجلسة العادية للمجالس المحلية يوم 08أفريل 1827،حتى وإن أكد الوالي العام فيوليت في خطابه الافتتاحي تحمله مسؤولية التحضير للاحتفالات بكاملها، إلا أن أعضاء من المندوبيات ،والذين أغلبهم من المستوطنين لم يقنعوا بذلك،حيث عبر المندوب المالي**" فيستا فينو"** في كلمة أمام الحضور عن التململ الذي تشهده الساحة السياسية في الجزائر، والقلق الذي ينتاب الرأي العام في الجزائر جراء التماطل و عدم وضوح الرؤية لواقع التحضيرات الاحتفالات .وقد ألح خلالها على ضرورة تكاثف كل الفعاليات السياسية و الشركاء الاجتماعيين و رجال المال و الأعمال للتجند و إنجاح هذه المناسبة،و مما جاء في تدخله قوله: **«إن المندوبيات المالية تتبنى مشروع التحضير لهذه**

[1] -Gouvernement général de L'Algérie ,Rapport du commisariat général du centenaire **« Le Centenaire d'Algérie »,**exposé d'ensemble par Gustave Mercier,Tome 1,Edition P et G Souribon ,Alger-1931,p11.
[2] - Godin (Pierre), « **Proposition tendant à faire participer la ville de paris aux fêtes du centenaire algérien 1930 » ,**Rapport Municipale ,N°136 **,**conseil municipale de Paris,1927.

الاحتفالات،ولهذا تقترح إجراء انتخابات فورية لإنشاء لجنة مشتركة بين أعضاء المندوبيات المالية و المجالس المحلية بهدف التحضير الجيّد للاحتفالات..."[1].

وقد شهدت السنوات التي سبقت إجراء الاحتفالات المئوية ،ولاسيما الثلاث السنوات الأخيرة زيارات مكثفة من الجانبين ،من مسئولي حكومة الجزائر وأعيان المستوطنين ومن الوجوه السياسية والثقافية البارزة التي أسندت لها مهمة الإعداد للاحتفالية بغرض جلب المزيد من الدعم المادي والحشد السياسي والمعنوي للتظاهرة،ومن الجهات الرسمية للدولة الفرنسية للوقوف على مدى تقدم الأشغال وسير التحضيرات ومدى استعداد بلدية الجزائر والحكومة العامة لإنجاح الحدث،ففي التقرير الذي أورده مسئول الاحتفالية عن بلدية باريس السيد**"بيار غودين"** يظهر تلك الزيارات المتبادلة والمكثفة من الجانبين،حيث جاء فيه : **"تكررت زيارات مسئول اللجنة المكلفة بالاحتفالات السيّد والرئيس السابق لمجلس النيابات المالية ونائب الرئيس السابق المجلس الأعلى للجزائر السيد صاباتي،والذي كان يلّح على أن تشارك فرنسا بلجنة أخرى تساهم فيها مدينة باريس ، لما للأمر من رمزية تاريخية خاصة تخلد مائة عام من انجازات الفرنسية في الجزائر ..."**[2].

لم يكن في وسع الوالي إلا مباركة الفكرة وإجراء انتخابات على شرط أن تكون تشكيلتها على النحوالتالي:(06من المستوطنين ،و06من الفرنسيين غير المستوطنين ،وثلاثة من العرب وعضوين من القبائل)، و تمّ انتخاب أعضاء اللجنة في نفس الجلسة مما يوحي لنا بأن الأمر كان مهيأ من قبل ،وأن المناقشة لم تكن إلا صورية، و شكلية، و ضمت اللجنة ممثلي المستوطنين(**لوسياني- فروجر- باريس جوبونتار- سردا- اونجلبر- هفارد)** و ممثلين غير المستوطنين،وهم (**بونيفاس- قال- مرسيي- لسيون- قوستافينو- موسلي)** ،وممثلي العرب (**الشريف سيسبان- بن شبان- مولاي مصطفي)** وممثلي القبائل (**سي صالح- اسماعيل)** ،

[1]- بن خروف (عمار)،**الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر وأثرها على الحركة الوطنية** ،مذكرة ماجيستير،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر 2-2004،ص41.

[2] -Rapport de Mr Pierre Godin,op-cit.

والتي انتخبت في اجتماعها الاول 12ماي 1927مكتبها المشكل من :الرئيس" **قوستاف مرسيي"**،و نائبا الرئيس ،وهما(**قوستافينو- سيسبان)** و مقرر اللجنة (فروجر)1.

والملاحظ فإن اللجنة المكلفة بالتحضير للاحتفالات تعرضت لتغييرات كثيرة لإطارها البشري خاصة بعد رحيل **"موريس فيوليت"** من حكم الجزائر ،بعد اعترض جماعة من **"الأنديجينوفويل "**[2] وعلى رأسهم **"جان ميليا"** عن الطريقة الاستفزازية للاحتفالات التي تجرح الأهالي وتسيئ لسمعة فرنسا التي تحتفل ببذخ في وقت يعيش جزء من رعاياها والجوع3.

وبعد تولي **"بيار بورد"** حكم الجزائر،ازداد حماس المستوطنين في القيام بحفل كبير يخلد تواجدهم في الجزائر ،ووجدوا في بورد الرجل الأنسب لهكذا مهمة ،حيث حظي الحاكم الجديد باستقبال وحفاوة من قبل المستوطنين ،ومثّل لهم أداة طيّعة لتمرير مشاريعهم .ومباشرة بعد تعيينه أصدر قرارين في 13ديسمبر 1927لاستكمال هيكلة الأجهزة انطلاقا من**"مفكرة فيوليت"**،تضمنت مجلسا أعلى للاحتفالات المئوية،ومحافظة عليا للاحتفالات، وبتاريخ25 مارس1928 صادق البرلمان الفرنسي على قانون ينظم الاحتفالات واضعا الخطوط العريضة لبرنامج الاحتفالات وقضايا التمويل والميزانية الخاصة بالاحتفالات، وتحديد الصلاحيات 4.

ويمكن توضيح أجهزة اللجنة الجديدة المكلفة بالاحتفالات كالتالي:

1-المجلس الأعلى للاحتفالات المئوية

2-المحافظة العليا للعيد المئوي

وبتاريخ 19 ماي 1928م أصدر الوالي العام قرارا يحدد من خلاله تنظيم المحافظة العليا للعيد المئوي،وتم تحديد مهامه كجهاز تنفيذي يتابع التطبيق الميداني للتوصيات والمشاريع المصادق عليها من طرف المجلس الأعلى،ورتبت المسؤوليات في المحافظة على الشكل

[1]- بن خروف (عمار)،المرجع السابق،ص42.

[2]-الأنديجينوفيل ،جماعة من أوروبي الجزائر الأكثر تعاطفا مع الأهالي والأكثر انتقادا للسياسة الفرنسية الممارسة ضد الأهالي ،هم أدباء ،سياسيون ،فنانون ،أي من مختلف أطياف المجتمع وطبقاته وشرائحه الاجتماعية .

[3] -Jansen (Jan), op-cit,p,p63,64.

[4]- بن خروف (عمار)،المرجع السابق،ص45.

التالي، (المحافظ العام -رئيس السكرتارية العامة-رئيس مكاتب المحافظة -أمين عام المحافظة).كما منح القرار إمكانية استخدام موظفين أو مستخدمين مؤقتين حسب ما تتطلبه الظروف و الحاجة للإسراع في وتيرة عمليات التحضير، فأوكلت مهمة المحافظ العام لشارل برونال لكنه استقال فاسحا المجال ل**"جوستاف مرسيي"**،كما تم تعيين عدد من المتعاونين من المستوطنين،أمثال فروجر،فيدال،شالتان،ديجواس(مكلف بالشئون العسكرية للأهالي) 1. بينما كانت المهام والمسؤليات الكبرى تتوع على "غيستافو مارسي" **« Gustave Mercier »** كمحافظ للتظاهرة ،والسيد **"مورارد" « M.Morard »**رئيس الغرفة التجارية ،والسيد **"م ." أرموند " « M.Armond »** كمستشار للحكومة الفرنسية والمسؤول المباشر للاحتفالات ، إضافة إلى ائب رئيس المجلس الأعلى للاحتفالات السيد **"بونفوي" « Bonnefoy »** [2]، وآخرون لا يتسع المقام هنا لذكرهم .إضافة إلى عدد كبير من الباشاغات والقياد ومن المكاتب العربية ،الذين سخّرتهم الإدارة الفرنسية لإعطاء صورة مزيفة بأن الأهالي يباركون الوجود الفرنسي وبأنهم يقاسمون أوروبي الجزائر فرحة الاحتفال،ومنهم شيخ العرب **"بن عزيز بن قانة** "والباشاغا **"روابح عبد الرحمن".**[3]

2-النشاطات والمظاهر الاحتفالية

كان برنامج الاحتفالات ،يضم استعراضات ،ومعارض،وألعاب،ومحاضرات ،وأفلام ، ومطبوعات ،وجولات سياحية ،وافتتاح منشآت جديدة إلخ،ومن بين الاستعراضات واحد يعيد كيفية دخول الجيش الفرنسي إلى الجزائر العاصمة سنة 1830،وكان الدعوات قد وجهت للعديد من الشخصيات ،والصحف الفرنسية والأجنبية ،ولكي تعطى صورة عن انجازات فرنسا في الجزائر ،تولت أكاديمية الجزائر طبع سلسلة من الأعمال بعنوان **"مجموعة الاحتفال المئوي"** بهدف جعلها في يد مجموعة كبيرة من المهتمين بالعمل الفرنسي في

[1]- بن خروف (عمار)،المرجع السابق،ص47.

[2] - Rapport du commisariat général du centenaire **« Le Centenaire d'Algérie »,**exposé d'ensemble par Gustave Mercier,op-cit,p16.

[3] -Conseil municipal de Paris ,**Cérémonies du centenaire de l'Algérie**,Bulletin municipal officiel,Mercredi 13 Aout 1930,11Année,N°186,p3819.

الجزائر وقدّر للاحتفالات أن تدوم لأكثر من ستة أشهر فقد انطلقت في جانفي لتنتهي في 5 جولييية 1930م1.

لم تتوقف الاحتفالات سنة 1930 بمدينة الجزائر فحسب بل امتدت سنة 1937إلى قسنطينة ، لما أصّر أعيان المدينة من وممثلوها في الإدارة المحلية لإحياء ذكرى مماثلة للتي قامت بها مدينة الجزائر تخليدا لمئوية دخول الفرنسيين لمدينة قسنطينة، وتعود المبادرة الأولى للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة إلى رئيس بلديتها الدكتور **"لياقر"**« **Liagre** »الذي دعا منذ 12 ديسمبر 1936 المجلس البلدي للانضمام إلى مشروعه". وقد صادق هذا المجلس على المقترحات التي تقدم بهارئيس البلدية، وحتى النواب المسلمين (**ابن جلول بوحيرد، ابن الشريف،ابن لبيض ،كوتشكالي**) وافقوا عليهادون تردد2.

كلفت الاحتفالات مايقارب 130 مليون فرنك فرنسي [3]،،وهي الميزانية التى كان بعض النواب المسلمين والفرنسيين يحبذون أن تخصص لبعض المصالح العامة كإنشاء الطرقات وبناء المدارس والمستشفيات. ولم يكن الغرض من إحياء الذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة الاحتفال بـ **"الاتحاد العريق بين العبقرية الفرنسية والروح الاسلامية "** ،كما أدعت الجهات الرسمية ذلك، وإنما كان الهدف منها إشعار القسنطنيين خاصة والجزائريين عامة ، بعد مضي قرن من الزمن، بالهزيمة والمذلة،والتي ظهرت من خلال العروض والأزياء العسكرية ، ذلك أن قسما من الجيش الفرنسي الذي شارك في الاحتفال، كان يرتدي نفس الزي العسكري الذي كان يرتديه الجيش الفرنسي الذي دخل مدينة قسنطينة في 13 أكتوبر سنة 1837"4.

ومن جانب أخر، كانت الاحتفالات فرصة لنشر العديد من المؤلفات والكتب التاريخية حول ماضي الجزائر القديم في محاولة ربطه بالاحتلال الفرنسي لإضفاء المزيد لشرعية المحتل في

---

[1]-سعد الله(أبو القاسم)،**تاريخ الحركةالوطنية** ،الجزء الثاني،ص306.

[2]-صاري (أحمد)،**شخصيات وقضايا من التاريخ المعاصر** ،ط1،المطبعة العربية ،غرداية ،الجزائر-2004، ص، ص124،125.

[3]-سعد الله (أبوالقاسم)،الحركة الوطنية ،المرجع السابق،ص306.

-أنظر أيضا :

-Gouvernement général de l'Algérie ,**Projet de budget pour l'exercise de 1929**,Imprimerie administrative Emile Pfistre,Alger,1928.

[4]-المرجع نفسه،ص125.

الأرض ،وحول مآثر ومحاسن الوجود الفرنسي في الجزائر[1] ، نكتفي بذكر أهمها، كتاب: **"الذكرى المئوية لدخول قسنطينة ضمن الأمة الفرنسية1838 -1937" Le Centenaire de l'entrée de Constantine dans la patrie française**) أسوة بالكتاب الذهبي (Le livre du Centenaire)،الذي صدر عام 1835م 2.

لقد عرفت المئوية تدشين لأعمال ومنشآت ضخمة أراد من خلالها غلاة المستوطنين بعث رسائل عدة ،أولها إلى الداخل ،مفادها استظهار غلبة الغالب على المغلوب وإبراز رمزية القوة الاستعمارية وبث روح الهزيمة والدونية في نفوس الأهالي،أما الرسائل الموّجهة نحو الخارج ،فهي متعددة أيضا ،وأهمها إظهار مفاتن الاستعمار وفوائده على الشعوب غير المتحضرة أو التي تعيش في مرحلة البدائية أو ما قبل عصر الحضارة الحديثة ،وعلى العموم فقد تم تدشين أول غرفة البث للإذاعة الاستعمارية ،وهو ما اعتبره الكثيرون محاولة لإنجاز عمل خالد ومشروعا عصريا للولوج بالمستعمرة إلى عصر الثورة الصناعية،كما تم بالمناسبة فتح وتدشين ثلاثة متاحف الفنون التشكيلية في كل من مدينة الجزائر العاصمة و وهران و قسنطينة، و اثنين من متاحف الآثار في كل من تيمقاد وجميلة3.

تجند الصحافة الاستعمارية للحدث،إذ فور الإعلان عن تنظيم الاحتفالات سارعت معظم الصحف الاستعمارية سواء المحلية أو الميتروبوليتانية ،أو اليمينة و اليسارية أو التي أعلنت تعاطفها مع الأهالي أو التي يملكها الكولون أو التي تناصرهم إلى القيام بحملة دعائية وتشهيرية للاحتفالات المئوية،فقد عنونت جريدة **"لوبوتي جورنال" Le Petit « journal »** الأسبوعية بالبنط العريض عنوانها الرئيسي بالتالي:**"بعد 100سنة الجزائر أصبحت فرنسية"**تعبيرا عن بهجة الفرنسيين وأوروبي الجزائر ببقاء الجزائر بلدا فرنسيا [4] ،فقد استطاعت جرائد الكولون جمع ما يقارب 2 مليون من الأموال كحصيلة للإشهار والدعاية خصص جزء كبير منها لتمويل احتفالية القرن،ولم يتوقف الأمر للدعاية للحدث التاريخي في الإشهار على ظهر الصحف ، بل وضع السينمائيون الكلونياليون أنفسهم في مقدمة الدعاة

[1] - Bouche (Denise), **Histoire de la colonisation française**, Tome 2 ,Fayard, Paris- 1991, p,p 304-305.

[2]- صاري (أحمد)،المرجع السابق،ص125.

[3]- Verdès –Leroux (Jeanine), op-cit, p168.

[4] -« **Depuis cent ans l'Algérie est devenue française** »,Le petit journal,N°2054,04Mai 1930, p01.

والمشهرين ،ويكفي هنا أن نستذكر بالأعمال التي قام بها المخرج الكولوينالي "**رونوار** "الذي قام بإنتاج أفلام قصيرة ، وأبرزها فيلم **"البلاد"** الذي أشرنا إليه سابقا،والذي كان أهم شريط سينمائي روّج للمناسبة في قاعات السينما في الجزائر أو بفرنسا ، إلى جانبه أنتج مخرجون سينمائيون آخرون أفلاما عن مواضيع ارتبطت جلها بما سمي بالإنجازات الحضارية والعلمية للستعمار والمستعمرين في الجزائر،مثل الأفلام التي أنجزت عن الاكتشافات والأبحاث الأثرية المنجزة في تيبازة وجميلة وتيمقاد 1.

كانت زيارة الرئيس الفرنسي **"دومرغ" « Doumergue** »للجزائر وإقامته لمدة تزيد عن أسبوع (04ماي إلى 12ماي 1930)،ومشاركته للاحتفالات مع المستوطنين[2] ،قد زادت من فرحة وابتهاج المستوطنين ،ورأو في زيارته تكريما من باريس على جهودهم لخدمة المقاطعة الفرنسية ، واعترافا لهم بمزاياهم وفضائلهم التمدينية والتحضيرية التي مارسوها طيلة قرن من الزمن للنهوض بالمستعمرة 3. ففي افتتاحيتها المعنونة ب**"دومرغ في طريقه للجزائر العاصمة** "4،كتبت الصحيفة الاستعمارية في الجزائر **"صدى الجزائر** " L'echo » « d'Algerوالمحسوبة على التيار المساند للكولون تقريرا تفصيليا عن مسار رحلة الرئيس دومرغ وحماسه الشديد لحضور الاحتفالات المئوية.أما في عددها الموالي الصادر بتاريخ 05ماي1930،5يظهر عنوان في صفحتها الأولى **"مدينة الجزائر تستقبل رئيس الجمهورية استقبال النصر" « la ville d'Alger a fait hier au président de la république un accueil triomphal** »،جاء فيه: **"جموع كثيرة من سكان الجزائر – من الاوروبيين-تحتشد في ميناء مقر البحرية لاستقبال الرئيس....والتي اصطفت في الشارع تحي وتستقبل الرئيس الزائر بالورود والأهازيج،وكان في كل زيارة له لمعالم المدينة التي كان يتفقدها كتمثال الموتى يجمتع المستوطنون لتحيته...**"كما حملت الجريدة صورة للرئيس

[1] - Verdès –Leroux (Jeanine), op-cit,P169.
[2] - Stora (Benjamin) **,Histoire de l'Algérie coloniale(1830-1954)**,Edition la decouverte,Paris, 2004,p-p65-70.
[3]- Verdès –Leroux(Jeanine), op-cit,P169.
[4] **-« M Doumergue en route pour Alger »** Le Journal L'écho d'Alger, N°7512 ,19eme Année, Dimanche 04Mai1930 ,p01.
[5] - **« la ville d'Alger a fait hier au président de la republique un acueil triomphal »**, Le Journal L'echo d'Alger, N°7513 ,19eme Année,Lundi05Mai1930,p01.

رفقة الحاكم العام للجزائر **"بورد"** ،وهو يلوح بيديه يحي المستوطنين على ظهر عربة التي تجرها الخيول1 .

3-إقامة النصب التذكارية المخلدة لرموز الاحتلال

***النصب التذكاري ببوفاريك:** تعود فكرة إنجاز النصب المنجز في بوفاريك سنة 1827 لرئيس بلدية بوفاريك وعدد من سكانها من المستوطنين،ويحمل دلالة قوية ومغزى عميق فهو يرتبط بالذاكرة الجماعية لكل المستوطنين ،الذين أرادوا تمجيد آبائهم الأوائل من المهاجرين الذين قدموا لهذه الأرض واستوطنوها في بداية الاحتلال وتحملوا من أجلها كل الصعاب ، ولغرض دراسة التصاميم و متابعة عملية بناء النصب تم إنشاء لجنة خاصة بهذه المهمة، وكان أعضاؤها من جماعة الكولون يتقدمهم **"برونال"**، كما أسندت مهمة الدراسة الفنية لأحد الفنيين الكبار من الفرنسيين وهو " **أندري بوشار"** ، يحمل الجزء الأعلى للنصب وجوه مجموعة من كبار المستعمرين الفرنسيين، يتوسطهم بشكل بارز وجه **"الماريشال بيجو"** والذي لقبه المستوطنون بأبي الاستعمار،وفي أسفل النصب كتب عبارتان **"إلى عبقرية الاستعمار الفرنسي"**وعبارة **"إلى الأبطال العسكريين الممهدين للحضارة"**،كما أضيفت عبارة كتبها المستوطنون لتخلّد ماضيهم في المستعمرة ،وهي**"لو استجيب لمطالبنا فإننا سنبين لكم ما يمكن أن نقدمه في هذا البلد خلال عام من الأمن"** [2].

وخلال زيارته دشن **" دومرغ"** النصب رفقة شخصيات هامة من الحكومة العامة ومن أبناء المدينة ،وأهمهم،**"بوسيبون"**(رئيس غرفة النواب الفرنسيين)،ووزراء البحرية والأشغال العمومية ،والبريد...وكذا رئيس بلدية بوفاريك**"فروجر"**،ورئيس بلدية الجزائر" **برونال".**

مما يلاحظ خلال الاحتفال بالنصب التصريحات الاستفزازية والعنصرية التي أطلقتها الشخصيات العامة من المستوطنين ،ففي كلمة محافظ الاحتفالات المئوية " **مارسي"**ثناء كبير على المستوطنين ،ودورهم في تعمير الأرض ،ونوّه ببطولات بيجو والغزاة الأوائل الذين

[1]-أنظرصورة الجريدة في الملحق رقم09،ص492.
[2]- بن خروف (عمار)،المرجع السابق،ص47.

اعتبرهم رموزا وطنية[1] ،غير أن الكلمة التي ألقاها رئيس بلدية بوفاريك**"فروجر"**، والتي جاء فيها:**"بدلا أن نهدم بنينا،وبدلا من أن نقتل أنجبنا،إن الأهالي في هذا الهدوء الذي انتظروه طويلا أصبحوا شراكائنا المخلصين،يستفيدون من كل مؤسساتنا ومن كل حريتنا ...لقد كان عددهم2.5مليون سنة 1830وأصبحوا اليوم 5ملايين نسمة.."**[2].

***نصب سيدي فرج:** صاحب تدشين نصب سيدي فرج إقامة حفل كبير بمناسبة اليوم المصادف لعمليات الإنزال أي يوم 14 جوان 1930م ،وقد كلفت عملية إقامة النصب والاحتفالات التي خلدت ذكرى إنزال سيدي فرج 180 ألف فرنك فرنسي ، وتم كتابة العبارات التالية على الوجه المقابل للنصب التذكاري :**"هنا في 14 جوان 1830بأمر من الملك شارل العاشر و تحت قيادة الجنرال دوبرمون، الجيش الفرنسي يعلي راياته ،و يعيد الحرية في البحر و يعطي الجزائر لفرنسا بعد 100 سنة من ذلك أعطت الجمهورية الفرنسية لهذا البلد السعادة ،الحضارة ، والعدالة..."**[3]. وإلى جانب هذه النصب المخلدة للاحتلال ،دشنت نصب أخرى ،مثل نصب بوتان التذكاري،والنصب المخلد لمركز القالة لصيد المرجان ...وغيرها.

4-موقف الأهالي الجزائريين من الاحتفالات المئوية

إن البذخ الذي ميز الإحتفالات المئوية لإحتلال الجزائر والوسائل التي سخرت لها، فضلا عن الحملة الدعائية ووضوح الطابع الإستفزازي للتظاهرات التي رافقتها ، جعل الشعب الجزائري يشعر في أعماقه بأنه هو المستهدف من كل ذلك ،وتأكد طابع التفاهة والإزدراء لهذه الإحتفالات بوضوح أكثر في إعادة تمثيل عملية الإنزال بجنود يرتدون زي تلك المرحلة ،وفي اشتراك وفد من المسلمين الموالين للإحتلال. وقد أدى احياء الذكرى المئوية الذي كان يراد به استعراض قوة الإحتلال وديمومته التي تسارع الوعي الوطني

[1]- خصصت جريدة صدى الجزائر ملفا كاملا عن زيارة الرئيس دومرغ وإقامته في مدينة الجزائر ،وعن برنامج الاحتفالات وعمليات التدشين التي قام بها خلال زيارته للجزائر ،ورصد تصريخات بعض أوروبي الجزائر بمناسبة الاحتفالات المئوية ،أنظر :
« Le séjour du président fe la république en Algérie », L'echo d'Alger-journal, , N°7513 , 19eme Année, Lundi 05Mai1930.

[2]- بن خروف (عمار)،المرجع السابق،ص،ص68، 69.

[3]-المرجع نفسه ،ص،ص71، 72.

وهيكلة أكثر التيارات تقدما في الرأي العام الجزائري والتي تخفي استنكارها لمثل هذه التظاهرات وحتى أكثر الأعيان ولاءا لفرنسا أبدى بعضهم انزعاجه لذلك الاستفزاز [1].

أحدثت الإحتفالات خيبة أمل كبيرة في أواسط الجزائريين ،سواء كانوا من النخب أو من الفئات الشعبية في المدن أو في الأرياف ، وجعل أكثرهم يقتنع أن اهمال فرنسا لأدنى مطالب الشعب عواقب وخيمة فضلا من استفزازها لمشاعر المسلمين[2]. فقد نددت كل النخب الجزائرية بالمئوية ،وغيرت من قناعاتها السابقة ،فيما يخص إمكانية التعايش والامتزاج بين الشعبين،إذ أصبح حلم الاندماج أمرا مستحيلا ،وهنا نجد **"فرحات عباس"** في كتابه **"الشاب الجزائري"** يصف الاحتفالات بالحالة المخزية وأن مجيئ فرنسا لتحضير الشعب كدعاية رافقت الإحتفالات مجرد كذبة استعمارية وإن أعمال البر والتعاطف مع الأهالي " **la philanthropie** " التي يقوم بها المستوطنون ،هي مجرد أكذوبة وضحك على العقول[3].

نشر النجم أيضا في صحيفة **"الاقدام** "بيانا عام 1928 بعنوان:" **من أجل افريقيا الشمالية "**، وفي هذا البيان طالب الحزب من مناضليه ومن الشعب أن يعلنوا حقوقهم وينظموا حركة واسعة ضد العنجهية الفرنسية في الجزائر،وضد الدعاية للوجود الفرنسي في الجزائر [4].

والحق أن الاحتفال الفرنسي قد ساعد في مضاعفة الجهود الحركة الوطنية وتصاعد الروح النضالية بين أعضاء النجم الذين أعلنوا استقلالهم الكامل عن الشيوعيين وبدلوا اسم حزبهم من النجم إلى حزب الشعب[5]،وفي هذا الشأن ،يقول السيد مصالي الحاج **:"إن برجوازيتنا ومثقفينا ومصليحينا كلهم كانوا مدعون في المشاركة في الاحتفال . فالقياد والباشاغوات ، وحراس الحدود والغابات والجمعيات كانوا مدعون لتحضير بذلاتهم وبرانيسهم الحمراء للاحتفال بالمئوية المخزية ...إن إخواننا من الحزب كانوا يشعرون بأنهم مداسون ومهانون ومحطمون في كرامتهم وفي دينهم ومشاعرهم ،فقد كانوا أقل من الأجانب في أرضهم**

[1]- محساس(أحمد)، **الحركة الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الاولى الى الثورة المسلحة**،ترجمة الحاج مسعود محمد عباس ،دار المعرفة ، الجزائر -2003،ص 98

[2]- حميد (عبد القادر)، **فرحات عباس رجل الجمهورية** ،دار المعرفة للنشر- الجزائر، ص 52

[3]-عباس (فرحات)، **الشاب الجزائري**،ترجمة أحمد منّور،وزارة الثقافة الجزائرية،الجزائر-2007، ص 113

[4]-إبراهيم دسوقي(ناهد)، **دراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** ،دار المعارف ،الاسكندرية-2001،ص105.

[5]- سعد الله (أبوالقاسم)،الحركة الوطنية ،المرجع السابق،ص308.

يفرض عليهم ان يحتفلوا بقرن من الاستعمار والآلام والظلامية .إننا نريد بدل ذلك أن نقيم محاكمة القرن لهذا الاستعمار وأن نسعى لتوحيد جهودنا لمقاومة الاستعمار ..."[1]

لقد كان الحدث باعثا أساسيا في تأسيس العلماء لجمعيتهم ،وفي توحيد جهودهم للوصول لموقف موحد إزاء هذه الهجمة الاستعمارية ،وفي هذا الصدد يرى توفيق المدني بأن ثلة من المصلحين اجتمعوا في جويلية 1830وناقشوا الآثار النفسية الناجمة عن الاحتفالات على الرأي العام المسلم ،واجمعوا أمرهم على تأسيس جمعية لهم توحد كلمتهم[2].

ومن جهتها نددت النخبة المحافظة ،وفي مقدمتها جمعية العلماء المسلمين ، بالاحتفالات المئوية معبرة عن غضبها الكبير عن المظاهر العدائية التي صاحبت الاحتفالات ،وعن المشاهد الصادمة والمجرحة لمشاعر الأهالي ، فقد عبرت عن امتعاضها وأسفها لما آلت عليه أحوال الجزائر وسكانها من المسلمين ،وذلك عبر تصريحات وأقوال شيوخ جمعية العلماء المسلمين ومن جهتهم تهيكل عدد من مثقفي ونخبة الأهالي في دواليب الحزب الشيوعي الفرنسي ، وأظهروا داخل الحزب الفرنسي عن غضبهم واستيائهم للاحتفالات ودعوا إلى مقاطعتها ، ونظرا لما يتوفرعليه الحزب الشيوعي من إمكانات مادية ووسائل الدعاية ،فقد بدأ حملته بكل فعالية وقوة ،فقد شنت جريدته **"المغربي"** حملة شرسة ،حملت طياتها جملة من العبارات المتداولة في الأدبيات الشيوعية مثل **"أيها الجندي الجزائري ،إن الاحتلال الفرنسي منحكم الانحلال والخمر والجهل ....أنتم تقاتلونه في كل مكان وتقاتلون الكولون الذين يستعبدونكم لمدة مائة عام"**[3] .

هذا جانب من الردود الوطنية من بعض الأحزاب الوطنية ،والتي مثلت جزء من النخبة المثقفة الوطنية ضد الاحتفالات المئوية .أما على المستوى الشعبي فلم يختلف عن الموقف كثيرا فقد استهجن الجزائريون الاحتفالات .وإن لم يظهر على شكل احتجاجات أو مظاهرات

[1]-الحاج (مصالي)،**مذكرات مصالي الحاج** ،منشورات Anep،الجزائر -2007،ص،ص147، 148.
[2]- بن خروف (عمار)،المرجع السابق،ص105.
[3]- المرجع نفسه،ص111.

خلاصة

1/مثلث الاحتفالات المئوية ذروة النشاط الثقافي لأوروبي الجزائر ،فقد كانت الأيام الاحتفالية حراكا ثقافيا كبيرا استعرضت فيه السلطة المحتلة ومعها المثقف الكولونيالي أهم الإنتاجات الثقافية والأدبية والفنية ،من إصدارات للكتب وإقامة النصب التذكارية والأفلام الوثائقية .

2/ساهمت الاحتفالات المئوية في إيقاظ الوعي الوطني والثقافي والفكري لدى النخب الجزائرية ،فبقدر ماكانت مؤلمة وصادمة ،كانت محفزة ومحركة لها لتقوم برد فعل لتوعية الجماهير وتثقيفها ثقافة سياسية وطنية .

خـلاصــة الفصــل الثالـــث

شهد المجتمع الكولونيالي في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حركية ثقافية كبيرة ،تعدت حدود الأدب والفن والمسرح لميادين ثقافية أخرى.وتنوعت تنوع التشكيلات العرقية المكونة للمجتمع الأوروبي في الجزائر .وانعكست نفسية تلك الأقليات الأوروبية وسلوكياتها الاجتماعية وطموحاتها السياسية على نوع الانتاج الثقافي داخل المستعمرة.

كان الأدب والمسرح والسينما والفن أهم مجالات الإبداع الثقافي للأقلية الأوروبية ،ومع أن هذه المجالات الثقافية ازدهرت مطلع القرن العشرين لأسباب داخلية كاستقرار الأوضاع ، وسياسة جونار المؤيدة للفن والأدب وخارجية كتأثيرات التيارات الفكرية والفلسفية والفنية العالمية التي ألقت بظلالها على المستعمرة .إلا أن الفرد الأوروبي الانتاج الثقافي لم يتميز بالغزارة والتنوع الكافي ،ماعدا في مجالي الأدب والفن التشكيلي .

تنوعت الإنتاجات الثقافية بتنوع التيارات والمذاهب الأدبية والفنية التي عاشتها الجزائر الكولونيالية في عصرها الذهبي (1871-1945)،حيث تعددت المذاهب الأدبية ،التي عكست توجهات الأقليات الأوروبية ،فالإنفصاليون كتبوا في الأدب البيكاريسكي، والإدماجيون في الأدب الوطني الضيق (الاستعماري)، والقلة المتعاطفة مع الأهلي (الإنديجونوفيل) في الأدب المحب للأهالي.ونفس الظاهرة كانت في الفن التشكيلي والمسرح والسينما وميادين أخرى.

كان الأهلي محور اهتمام الأدب والفن الكولونيالي وصلب موضوعه ،فقد كان عجيبا غرائيبيا ،في البداية ،ثم نراه عدوا ومريبا في كتابات وفن المعادين للأهلي تارة،وصديقا يثير الشفقة والعطف في أدبياتهم تارة أخرى .فكان الأدب والفن بذلك انعكاسا لنفسية الأوروبي ونظرته السياسية ،وتقلباته النفسية .

ترك الفن والأدب الكولونيالي تأثيراته الخاصة على الإنسان الأهلي وحرّك في كينونته ووجدانه روح المقاومة وإثبات الذات وإظهار الأنا ،فقد استخدم نفس الوسائل ،واستعملها لإخراج أورع انتاجاته الأدبية والفنية .

الفصل الرابع:واقع المؤسسات السوسيوثقافية الكولونيالية وأثرها على الحياة العامة المستوطنين والاهالي

المبحث الأول : واقع المؤسسة الصحية في الجزائر ونتائج العمل الطبي على المستوطنين والأهالي

المبحث الثاني: المستوطنــون والأهالــي في المنظومة التعليمية الفرنسية

المبحث الثالث:المستوطنون وتسعف المنظومة العدلية على الأهالي المسلمين

المبحث الر ابع:المستوطنون والممارسة الإعلامية في الصحافة المكتوبة والإذاعة بين العمل الأخلاقي والميول الاستعمارية

لتماسك اي مجتمع واستمراريته وتطوره ،تعمل المؤسسات الاجتماعية والثقافية(الصحة ، المدرسة الجامعة ،القضاء،الصحافة ...) ،سواء أكانت حكومية أو خاصة لتحسين الحالة العامة لذلك المجتمع،غير أن الوضع في الجزائر -والتي تحولت إلى مستوطنة أوروبية- كانت تلك المؤسسات فيه تدار لصالح فئة دون أخرى ،وتُستعمل من قبل الأقلية الأوروبية المسيطرة على دواليب الدولة والمتغلغة في مختلف دوائر هذه المصالح الاجتماعية والثقافية لصالحها ،مقصية الأغلبية الساحقة من الأهالي من الاستفادة من خدماتها ،بل وجعلت من تلك المؤسسات أدوات فاعلة لترويج لأفكارها العنصرية ،والتمرير لمشاريعها الضيقة.**فماهو واقع ودور تلك المؤسسات ؟وماهو موقع الأهالي الجزائريين فيها؟وما أثر ذلك على حياة الأهالي ،كيف كانت دافعا لهم للمقاومة الاجتماعية والثقافية ؟**

أولا: واقع المؤسسة الصحية في الجزائر ونتائج العمل الطبي على المستوطنين والأهالي

1-الوضع الصحي العام للمستوطنين والأهالي مابين 1870-1945

كغيرها من البلدان المتوسطية ،عانت الجزائر نهاية الحكم العثماني وفي بدايات الاحتلال الفرنسي من عدة أوبئة فتاكة وأمراض قاتلة ساهمت في تراجع عدد السكان طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر. والواقع ،فإن الحكام الأتراك لم يولوا الاهتمام الكافي للحالة الصحية للأهالي الجزائريين ، ولم يعطوها الأهمية التي تستحقها ،كما لم يعطوا العناية اللازمة لوسائل الوقاية من الأوبئة التي قدمت أغلبها عبر السفن من الدول المجاورة ،وأقصى ما بذلوه كان الحجر الصحي أو ما عرف بالكارنتينة (quarantaine)[1]مما أثر سلبا على الأوضاع الصحية العامة للسكان[2] .

-الطاعـون: كان الطاعون من بين الأوبئة الأكثر انتشارا في الجزائر نهاية الحكم التركي ،وبداية الاحتلال الفرنسي ،ومن بين أهم سنوات التي حل بها الطاعون في الجزائر العثمانية ،نذكر على سبيل المثال ،طاعون 1794المعروف باسم" **طاعون عثمان"**بالغرب الجزائري ،

[1]-نظام الحجر الصحي (الكارنتينة)،هونظام صحي معتمد منذ عهود سابقة يعني عزل المسافرين برا وبحرا لمدة تقارب الأسبوعين حتى يتأكد من خلوهم من أي وباء كالطاعون أو الجدري ...وغيرهما من الأوبئة الفتاكة .

[2]-مجاهد (يمينة)،**تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830-1962**،أطروحة دكتواه في التاريخ الحديث والمعاصر،قسم التاريخ وعلم الآثار ،كلية العلوم الانسانية والعلوم الإسلامية،جامعة وهران 1،الجزائر-2017-2018، ص200.

وطاعون سنة 1799الذي حل ببايلك قسنطينة،أما أخطره فقد حل سنة 1816الذي اختلف المؤرخون في مدة بقاءه ،أربعة أشهر أم ستة أشهر،والذي عاد إلى الظهور مرة أخرى شهر جوان 1817،بعد رسو سفينة قادمة من مدينة أزمير التركية بميناء الجزائر،والتي أدت كلها إلى وفاة الآلاف من الجزائريين فقد أكدت بعض التقارير عدد ضحايا هذا الطاعون في الجزائر وفحصها في الفترة الممتدة ما بين 21جوان 1817وإلى غاية 06سبتمر 1818، ب 13330شخص ،منهم 6095هلكوا في النصف الأخير من عام 1817[1].

وخلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي عادت الأمراض والأوبئة للظهور مرة أخرى ، وبشكل قوي ،لتفتك بسكان الجزائر (أهالي ومستوطنين،وأفراد من الجيش الفرنسي)،وتتسبب في هلاك الآلاف من الجزائريين والمستوطنين ، وعرفت الأمراض والأوبئة انتشارا واسعا خصوصا في المناطق العربية الأهلية ،وبدرجة أقل المناطق الأوروبية .وتعتبر الفترة الممتدة من 1850-1880أكثرالفترات التي انتشرت فيها الأوبئة بشكل مخيف ،بسبب الجفاف وقلة المحصول خصوصا بين 1867-1868[2].

وباء الكوليرا(le choléra Morbus): ما كادت الجزائر أن تتخلص ،ولو مؤقتا من وباء الطاعون ،حتى ابتليت بوباء الكوليرا الذي حل بالجزائر خلال الأيام الأولى للاحتلال ،واستمر بشراسة كبيرة يفتك بسكانها حتى نهاية القرن التاسع عشر،ويعود سبب تفشي المرض إلى رسو سفينة موبؤة آتية من جزر الباليار في 31 جويلية 1831بميناء الجزائر ،إضافة إلى العدوى التي تسببت فيها سفينة أخرى رست بميناء الجزائر في شهر سبتمبر .

وعلى الرغم من الإجراءات الطارئة والسريعة من قبل سلطات الاحتلال[3] ، كفرض نظام الكارنتينة لمدة 21يوما،والحجر الصحي لمدة 10أيام على السفن ومنعها من الرسو بالميناء ،

[1] القشاعي (فلة)،**النظام الضريبي بالريف الجزائري أواخر العهد العثماني1771-1837**،رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث،،معهد التاريخ ، جامعة الجزائر-1989،ص132.

[2]- تيران (ايفون)،**المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة ،المدارس والممارسات الطبية والدين1830-1880**، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغلة،دار القصبة للنشر ،الجزائر -2007،ص316.

[3] -ANOM ,G GA .Carton,3F 4.

إلا بعد تقديمها لشهادة صحية (patente nette) ،إلا أن انتشار المرض كان كبيرا،ليتكرر ظهوره تواليا سنوات 1881-1832-1833-1834،وكان أول ضحاياه الجنود الفرنسيون[1] .

لقد كان وباء الكوليرا أكثر انتشارا بين السكان ،فقد حدث سنوات 1833، 1849، 1854،1851 ،1865، 1869 ،1884، 1887 ،1896،1893،1889،ثم1912، و 1916، وإذا كانت الاهتمامات الطبية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر في إحصاء الأمراض التي كانت منتشرة في وسط الأهالي ،والبحث عن سبل مواجهتها والتخلص منها ،غير أنه في الحقيقة لم يكن الأهالي وحدهم من يتحمل انتشار الأوبئة والأمراض ،فقد جلب المعمرون معهم وباء الكوليرا من طرف المهاجرين الاسبان من قرطاجنة الذين نزلوا بميناء وهران عام1834 ،وأدى ذلك إلى وفاة 500ضحية عسكرية و467مدنية ،الأمر الذي تسبب في نزوح الأهالي نحو الداخل إلى مدن معسكر ومستغانم وغيرها[2].

كان قطاع قسنطينة الأكثر تأثرا بوباء الكوليرا خاصة سنتي 1850-1851،بحيث امتدت في معظم أحواز وأرياف القطاع،وتحدث أحد الأطباء الفرنسيين اسمه **"بروسلار"**عن الجثث التي ملئت شوارع قسنطينة جراء الانتشار الكبير لهذا الوباء الذي لم تجد له سلطات الاحتلال ولا أطباؤها العسكريون حيلة له،كما تسبب القحط الذي ضرب الجزائر سنتي 1867-1868في توسع دائرة الأمراض والأوبئة ،وخاصة وباء الكوليرا ،لتشمل الفئتين الأوروبية والأهلية معا ،وخصوصا في مناطق التماس التي يتعايش ويختلط فيها الأوروبي بالأهلي ، ففي رسالة بعثها **"سيريزيات"**القائد الأعلى لمنطقة تبسة في عام 1867للحاكم العام ،جاء فيها **:"لقد اختفى الكوليرا ،لكن الضعف الذي جلبه البؤس سيتسبب في وفيات كبيرة يمكن مقارنتها بالتي تسببت فيها الكوليرا،إذ تنامى التهاب الأمعاء أكثر خلال سنوات المجاعة المشئومة ،انتشرت الأمراض من قسنطينة إلى باتنة،ومن برج برعريريج إلى سطيف "**. كما عادت الكوليرا للظهورعلى التوالي سنوات 1851،1850،1849،بحيث كانت سيدي عقبة بؤرة انتشاره هذه المرة ، والتي بدأت في ذلك الوقت بتاريخ 07أوت1850 ،وتسببت في وفاة 385شخصا من

[1]- مجاهد (يمينة)،المرجع السابق،ص،ص47،48.
[2]-كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص79.

أصل 1500نسمة من سكان القرية ،ثم انتقلت إلى المركز العسكري للفرنسيين ببسكرة ...ومست في ظرف قصير سطيف وبجاية ،حيث توفي في منطقة القبائل 300 شخص،أما إجمالا فقد أحصي وفاة 340من ألف نسمة ،أي ثلث السكان تقريبا في الدائرة الفرعية لوهران.وقدمثلت تقارير1867نعيا للحالة المأساوية التي شهدتها الجزائر.ففي باتنة والتي مات فيها 2324شخصا ،فإنها تعتبر نفسها قد سلمت من الشر،مقارنة ببعض المناطق المجاورة ،حيث سجل في بسكرة وفاة 4348[1].

-السل (la tuberculose) :يعد مرض السل أحد الأسباب الرئيسية في عدد الوفيات ،وقدعرف تطورا وانتشارا في القرن 19 وطيلة القرن 20،والذي كان غير مألوفا لدى الجزائريين ،حيث كتب الدكتور**" جيلو "« Gillot »** في هذا الأمر ما يلي:**"عندما احتل الفرنسيون الجزائر وجدوا بلدا معزولا تماما عن هذا المرض وسكانه معافون من هذا المرض ،وأنه تطور كثيرا في النصف الثاني من القرن 19"**[2].

لم تتخلص الجزائر من شرور هذا المرض إلا بعد الحملة القوية للتلقيح التي انطلقت غداة الحرب العالمية الثانية،وأصبحت الحملات تزداد اتساعا شيئا فشيئا .إن فقد شمل التلقيح بال (ب س ج)بين 1950-1956ما يقارب 1447600شخص ،أي قرابة 15%من مجموع السكان مما يعني استثناء معظم الأهالي الجزائريين منه،ضف إلى ذلك فإن معظم حملات التلقيح بعد الحرب العالمية الثانية ،كانت تخص إلا موجهة للقضاء على الجدري (أكثر من مليون جرعة تلقيح في السنة)وإلى أمراض معدية أخرى كالطاعون سنة 1946،حيث لقح 7000نسمة ضد الطاعون في السنة ،والحمى الصفراء 2000نسمة ،وتلقيح 45000شخص ضد داء الخناق الغشائي ،الذي انطلقت عمليات التلقيح ضده سنة 1949[3].مما يعني استمرار هذا المرض اللعين بالفتك بأرواح أخرى من الأهالي المساكين.

-الجـــدري(la variole): كان مرض الجدري من الأمراض المعروفة والمنتشرة في الجزائر ،لكنها انحصرت دائرة المرض وقل انتشارها قبل الاحتلال الفرنسي .إلا أنه عاد

[1]- تيران (ايفون)،المرجع السابق،ص،ص316، 317.
[2]- كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص400.
[3]- نفسه،ص401.

للظهور بعده مباشرة ، مابين 1831و1833،ثم عاد لينتشر بسرعة في أوساط الأهالي سنة 1837مخلفا عددا من الوفيات في وسط المسلمين واليهود،كما تجدد سنوات 1846-1847-1850-1851-1853،وفي سنوات لاحقة لكن بدرجات أقل نتيجة إدخال التلقيح ووسائل الوقاية[1] .غير أن أخطر فترة للجدري عرفتها الجزائر كانت سنة 1896،حيث أصاب أكثر من 220ألف شخص معظمهم من الأهالي ،بسبب نقص حملات التلقيح ،ليعاود ظهوره بباتنة سنتي 1899-1900،ولم يتم القضاء عليه نهائيا كوباء إلا بعد 1926بعد أن فتك الموت بأعداد هائلة من السكان ،وتتضاءل صفته الوبائية ويصبح حالات قليلة [2]، بالرغم من عدم تسجيل أرقام تؤكد وجود وفيات محققة ،إلا إن الحالات المحصاة في مستوصفات الأهالي كانت تسجل ما يعادل 4500حالة إصابة في السنة ،وبعد أعقاب الحرب الكونية الثانية واجهت سلطات الاحتلال المرض باستباقه بحملة قوية ،انطلقت باستعمال المبيدات عن طريق الطائرات [3].

-الحمى التيفوئية(la fièvre typhoïde): لقد كان القرن التاسع عشر قرنا للأمراض والأوبئة ،التي عانى منها الجزائريون ،ولعل أكثر الأمراض إلى جانب الكوليرا والسل والجدري تنغيصا لحياة السكان هو الحمى التيفوئية ، وقد سجلت أول حالة وباء للتيفوئيد خلال العهد الاستعماري في سنة 1840ب 48حالة معظمها سجلت لدى الأهالي ،ليتجدد سنوات الخمسينات (1857-1858-1859)ليمس عمالة الوسط بشكل خاص ،ويخلف وفاة أكثر من 175شخص،ثم يتكرر الوباء مع حلول سنوات المجاعة والكوارث الطبيعية (1864و1867)،ويعود مرة أخرى نهاية القرن مابين سنوات 1894 و1896،حيث بلغت عدد الإصابات به 138إصابة آنذاك[4].

وإلى جانب هذه الأمراض والأوبئة ،انتشرت خلال القرن 19 أمراض كثيرة كالتيفيس ،الزهري[5] ، الملاريا ،والتي أدت بطرق مباشرة وغير مباشرة إلى وفاة الآلاف . لكن السؤال

---

[1]- مجاهد (يمينة)،المرجع السابق،ص،ص60،61.

[2]-بن سالم (أحمد)،**الأوضاع الصحية للجزائريين في منطقة وادي سوف من خلال أرشيف معهد باستور الجزائر1919-1939**،رسالة ماجيستير في التاريخ المعاصر،قسم التاريخ،كلية العلوم الإنسانية ،جامعة الجزائر،2008-2009،ص69.

[3]- كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص401.

[4] - Ben Kmar (Néfissa), Moulin(Anne Marie), **La peste nord-africaine et la théorie de Charles Nicolle sur les maladies infectieuses**, Ed Gesnerus, Schwabe Verlag Basel- 2010,p34.

[5]- هو أحد أهم الأمراض الجرثومية المعدية ،والأكثر انتشارا في الجزائر ،تظهر أعراضه في الحمى المصاحبة لقشعريرة البدن ،والآلام في العضلات ،ونقص الوزن ،وفقدان الشهية ،والتقيؤ..،له أنواع تيفوس الحرب،تيفوس السجون ..أما الزهري فهو أيضا أكبر الأمراض المعدية والخطيرة

الذي ينبغي أن يطرح هنا ،**هل يتحمل الاحتلال جزءا من المسئولية فيما يخص انتشار الأوبئة ،أم أن هذه الأمراض والأوبئة كانت موجودة سلفا في الجزائر ، باعتبارها بعض بقايا العصور الوسطى والحديثة ،وما التفسيرات والتعليلات التي قدمها الأطباء الاستعماريون لتوضيح سببية انتشار الأمراض لدى سكان الجزائر بشكل عام والمستوطنين بشكل خاص ، وما الإجراءات الوقائية والوسائل الطبية التي استخدمها الطب لمواجهة ذلك، والتي ساهمت في تحسين الحالة الصحية للمستوطنين بشكل خاص والجزائريين بشكل عام ؟**

2-جهود الأطباء الاستعماريين في مواجهة الأمراض والأوبئة (التوعية والتلقيح)

أ-الأطباء العسكريون :لم تكن مشكلة انتشار الأوبئة والأمراض الهاجس الوحيد لدى المستوطنين ولإدارة الاحتلال فحسب،بل كان ضعف الهياكل الصحية وقلة الإطارات الطبية والأدوية أكبر عائق لاستمرار الوجود الأوروبي في الجزائر ،فقد كانت التقارير العسكرية ورسائل المستوطنين الأوائل تعج بالشكوى والاحتجاج على تماطل باريس في الإسراع في التأسيس لقاعدة صحية جيدة تضمن راحة المستوطن ،وتقضي على انتشار الأوبئة المهددة لحياتهم.وفي الواقع كانت الفترة التي امتدت من سنة الاحتلال وإلى غاية نهاية القرن التاسع عشر تشهد ضعفا عاما في نوعية الخدمات الصحية المقدمة ،كما كان عدد الأطباء ناقصا ولا يضمن علاج الأوروبيين ،فما بالك بالأهالي ،وأنه علاوة على كونهم عسكريين ،فقد كانوا غير مستقرين ، حيث كانوا يتنقلون أينما انتقل الجيش الفرنسي،وهو ما يعني أن المستشفى ،وعلى الخصوص المصحة المتنقلة ،تضطر لتغيير الطبيب مرتين أو ثلاثة مرات في السنة،وحتى تعداد ضباط الصحة كان متغيرا وفق احتياجات الميتروبول،وتشير مذكرة صدرت عام 1931إلى أنه لم يتبق من بين 144ضابطا جراحا الذين كانوا في الجيش الفرنسي حتى تاريخ 01سبتمبر 1830 إلا 53 منهم بتاريخ01 جانفي 1831 ،وهذا ما دفع بالحاكم العام كلوزيل بالاحتجاج المتكرر على تقليص عدد مستخدمي مصالح الصحة في زمن كانت عدوى الكوليرا تنتشر شيئا فشيئا في الجزائر ،حيث ذكر في أحد تقاريره أنه نظرا لقلة الرعاية الصحية ولندرة

،والتي انتشرت بشكل كبير خلال الاحتلال الفرنسي تتمثل أعراضه تساقط الكثيف لشعر الرأس،وتساقط الأسنان وتقرحات على مستوى الأنف والفم ،والمناطق الحساسة من الجسم ،مرض يخجل منه الأهالي ويلقبونه ب"مرض الرومي"،حيث يتهمون الأوروبيون بإدخاله للجزائر ،بينما يصر الأطباء الاستعماريون على أنه مرتبط بقلة النظافة التي يعاني منها الأهالي .للمزيد حول الأمراض في الجزائر .يرجى النظر إلى :
-خياطي (مصطفى)،**الأوبئة والمجاعات في الجزائر** ،المؤسسة الوطنية للاتصال،الجزائر ،2013،ص-ص106-133.

الكوادر الطبية والمرافق الصحية فقد سجل خسارة 1500شخص من جملة10.000ساكن في مدينة معسكر لوحدها.ومن جهته ذكر الطبيب الاستعماري "ل.**بوديكور**" « Baudicour » أن عدد الأطباء كان قد تقلص من 418طبيب عسكري عام 1847إلى 267طبيب عام 1853[1]وهو ما مثل خطوة نحو الوراء.

لقد كانت النظرية الأكثر قبولا بين الأطباء الاستعماريين،هي العلاقة القوية بين المناخ والظروف الطبيعية ،وازدياد حالات الوفيات وانتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة بين المستوطنين خلال النصف الأول من الوجود الفرنسي في الجزائر،و ماقابلها من عدم قدرة المستوطن الفرنسي بشكل كبير والمالطي والاسباني والإيطالي بدرجة أقل على التأقلم مع البيئة الشمال الإفريقية ،وقد برر الدكتور" **بيريي "« J.-N. Périer »** "القدرة الكبيرة على احتمال الأهالي المسلمين للأمراض وقلة نسب الوفيات لديهم مقارنة بالأوروبيين ،هي بنيتهم المورفولوجية القوية ،وارتداءهم ثيابا بيضاء وسراويل واسعة ومعاطف فضفاضة ، فضلا عن تحريم شرب الخمور وأكل لحم الخنازير،وإتباعهم لعادة القيلولة لاستراحة الجسد داخل البيوت ذات التهوية الجيدة..." [2] وإلى جانب الأسباب التي ترفع أعداد المتوفين من المستوطنين التي تطرق إليها الأطباء السابقون ،فقد تطرق الدكتور **"بوزان"**إلى عاملين جديدين يرفعان من نسبة الوفيات لدى المستوطنين ،وهما :الغذاء السيئ للأوروبيين ،مقارنة بالغذاء الصحي والمتوازن للأهالي ، وتنقل الأمراض المعدية في المستشفيات العسكرية ،والتي أشار إلى أنها لا زالت تفتقد لوسائل الوقاية الجيدة ،هذا فضلا على العدوى المنتشرة أكثر خارج بنايات المشافي والمستوصفات ، كالحمى التيفوئية،و الديفتيريا ،وهي ليست أقل انتشارا عند الأهالي من المستوطنين[3]. وإذا كان العديد من الأطباء الأوروبيين قد أرجع انتشار الأمراض والأوبئة في وسط السكان الأوروبيين إلى المناخ الحار وتلوث المجاري المائية ،وانعدام قنوات الصرف الصحي ،فإن الطبيب **"فيتال"** توصل إلى استخلاص أن السبب

[1]- تيران(إيفون)،المرجع السابق،ص85.

[2] – J.-N(Périer), **de l'Acclimatement en Algérie**, t. XXXIII, Edition A.H.P.M.L ,Paris-1845, p 301.

[3] - Dr(Puzin) , **Considérations pratiques sur le climat en Algérie**, Gazette médicale de l'Algérie ,N°3,25Mars ,Paris-1864,p26.

الرئيسي لوفيات الأهالي هم المستوطنين أنفسهم،فخلال بحثه الطويل الذي استغرق سنوات عديدة أعلن أن السبب الرئيسي لانتشار الأمراض والأوبئة كالكوليرا والتيفيس، والتي مست بشكل كبير الأهالي المسلمين كان مردها إلى استيلاء الكولون للأراضي الخصبة والتضييق على مصادر الرزق على الفلاح الأهلي "البروليتاري" الذي أصبح يكد أكثر في أرض جرداء قاحلة قليلة المياه ، مما أضعف جسمه الذي أنهكه الجوع والتعب ،وأصبح غير قادر على تحمل مشاق العمل ، وأضحى معرضا أكثر للأمراض والأوبئة الفتاكة في بيئة غير نظيفة وملوثة،كما لخص في تقريره بأن الوضع الصحي قبل الاحتلال وقدوم الكولون كان أفضل بكثير عما أصبح عليه بعد استيطانهم في الجزائر،وحمّل الاحتلال معاناة الأهالي التي كابدوها في وجود الكولون[1] ومن جهته استعرض "**ريني جيل برولت**"« **Rennais Jules Brault** (1862-1916) ، في عام 1905 ، في مؤلف له موسوم ب"**النظافة عند المسلمين الأهالي في الجزائر**" أسباب عدم القابلية للشفاء لدى الكثير من الأهالي وبعض المستوطنين، إلى قلة النظافة خصوصا في المنازل الريفية التي تشهد رطوبة مرتفعة والمملؤة بالفيروسات والطفيليات ،كما أن التصاقها بحظيرة الحيوانات،كما هو الحال في بعض المزارع الفرنسية الريفية القديمة يزيد من احتمال التعرض للأوبئة والأمراض الفتاكة ،ناهيك عن الاختلاط، والنوم الجماعي في غرف ضيقة وتقاسم الأسرة الواحدة الأكل في نفس الطبق[2].

كان نتيجة للظروف السابقة أن أصبحت الأمراض أكثر فتكا وعملت على إضعاف مناعة المستوطنين،مما دفع بالأطبّاء الاستعماريين دوما إلى نصح القادمين الجدد من المعمرين إلى الجزائر بتفادي فصل الصيف الحار ،وحثهم على الهجرة في الفصول الأخرى ،حيث يعتدل الطقس، ولا يتعرض الوافدون الجدد لضربات الشمس وللأمراض التي تزداد خلال موسم الحر.حيث نجد أن الدكتور" **برتراند**" قد خصص كراريس صحية وطبية قدّم من خلالها جملة من النصائح الطبية خصوصا للمعمرين الجدد ،والذين أكثرهم هم الفلاحين البسطاء وغير متعلمين،والتي من بينها: عدم الإقامة في المناطق شديدة الرطوبة أو شديدة الحر ،وعدم

[1] - Noushi(André), « **Notes sur la médecine et la démographie en Algérie de 1830-1880 »** , Annales de démographie historique,Paris-1973,p ,p528,529.

2 - Jules Brault (Rennais), **« l'Hygiène chez les indigènes musulmans d'Algérie »** ,Annales d'hygiène publique et de médecine légale , 4e série ,Tome5,Edition Baillière, Paris- 1905,p69.

استعمال و شرب من المياه الراكدة ، لما قد تسببه من أمراض طفيلية خصوصا مع انتشار الأوبئة بين السكان في تلك الفترة،وشددعلى ضرورة العناية أكثر بمنازل المعمرين الجدد ،والذين كان يتم إسكانهم في بيوت مؤقتة مبنية من صفائح الخشب،كما ألح على أن تطلى سقوفها بالزفت حتى لا تتسرب إليها مياه الأمطار،وطلاء جدرانها بالجير لتفادي انتشار الحشرات الناقلة للأمراض [1]، واستمر في إعطاء تعليماته لسلطات الاحتلال ،حيث دعا إلى ضرورة احترام قواعد النظافة العامة ،والتي لخصها في النقاط التالية:

1-تجميع المستوطنين في أحياء تراعى فيها شروط الإقامة الصحية ،وتشييد المنازل على أرضية صلبة من الاسمنت وأن يكون ارتفاعها 50سنم عن سطح الأرض وبناء الطابق الأرضي من الحجارة السميكة للحماية من الرطوبة خلال الشتاء والحرارة في فصل الصيف .

2-ضرورة ربط التجمعات السكنية بشبكة الصرف الصحي .

3-تخصيص الطابق الأول للغرف ،والتي يجب أن تكون واسعة وذات تهوية ،ويستحسن فصل الذكور عن الإناث في المبيت. إلى جانب نصائح أخرى تمثلت في إبعاد إسطبلات الحيوانات عن المنازل ،وغرس أشجار الصنوبر والإكاليبتوس للتصدي للرياح القوية .

لم يهمل الدكتور برتراند أي نصائح،ولم يدخر أي جهد في التطرق إلى أدق التفاصيل لحياة أفضل للمعمرين،فتحدث عن نوع الملابس التي يجب أن يرتديها المعمرون لتتلاءم مع تقلبات الفصول ،وارتداء القبعات الطويلة والواسعة الحواف،وارتداء لحاف مصنوع من القطن الأبيض ليغطي الرقبة وأسفل الوجه وأعلى الصدر خلال موسم الحر للوقاية من الشمس الحارقة ،ونصح بعدم ارتداء الملابس الضيقة ،بل شدد على ارتداء الملابس الواسعة خلال الصيف والملابس الداخلية القطنية خلال الشتاء ،وعدم وضع الأحزمة والأشرطة خلال

[1] - Bertherand (Emile) ,**Hygiène de Colon En Algérie** ,2ème Edition ,Impr de L'association ouvrière v .Aillaurd Et Cie,Alger-1875,p-p09-11.

الصيف، باختصار نصح المعمرين بتقليد لباس الفلاحين الأهالي ،للتكيف مع الظروف القاسية خلال العمل في المزارع[1].

في النهاية ،أخذ الأطباء العسكريون على عاتقهم مهمة نقل الطب الحديث إلى الجزائر ، بفتح المدارس الطبية و المستشفيات والمستوصفات الصحية ،والصيدليات لصناعة الأدوية الضرورية لتزويد الجيش أولا ،والمستوطنين المدنيين ثانيابما يحتاجونه من الطب الحديث، ولعل أبرز الأطباء العسكريين الذين أقاموا في الجزائر ،وطوروا القطاع الصحي في الجزائر خلال السنوات الأولى للاحتلال نذكر منهم :الطبيب الجراح "**موريشو بوبري** " ، وهو طبيب جراح في قيادة الجيش الإفريقي و"**بودان**" الطبيب الجراح الأول للإسعافات في قيادة الجيش ،إلى جانب أطباء جراحون آخرون من أمثال :"**تيزنيار ، مايو ،بروسيي ،بارتراند**..." ، وقد لعب هؤلاء الأطباء العسكريون وغيرهم دورا رئيسيا في الترسيخ للطب الحديث في الجزائر ،بحيث ساهموا في إنشاء أول مدرسة للطب والصيدلة ،والتي تم تشيدها بالقرب من "**جنان الداي**" في مدينة الجزئر العاصمة سنة 1832،والتي كانت تتسع لألف سرير آنذاك ،فقد تكفل كل من الطبيبين "**ستيفانوبولي**" ، و"**بودانس** "بتقديم دروس التشريح ،بينما تكفل الطبيب "**ديسبريار**" بتقديم دورس الكيمياء ،ومنها تخرج العشرات من الأطباء الأوائل ،الذين سيروا وأداروا عدة مستشفيات جديدة لصالح المستوطنين في أرزيو ، وهران ،بجاية عنابة ،مستغانم...وغيرها من المدن الأخرى،ولكن بالرغم من كل النجاحات التي حققتها هذه الكلية الطبية فقد تم غلقها سنة 1836،ثم أعيد افتتاحها سنة 1857[2].

أكمل الاطباء الاستعماريون الآخرون ،وفي مقدمتهم الطبيب "**مايو**[3]" والطبيب "**فيتال**"مهمتهم الطبية ،وواصلوا خلال الأربعينات والخمسينات من القرن 19جهودهم في تطوير قطاع الصحة،وأبحاثهم للقضاء على الأوبئة والأمراض التي كانت بالأوروبيين [1] .

[1] - Bertherand (Emile) ,op-cit,p-p12-15.

[2] - Noushi(André),op-cit,p,p524 ,525.

[3]- فرانسوا كليمو مايو(François Clément malliot)،من مواليد براي بموزيل بتاريخ 18فيفري سنة 1804،عمل بمستشفى فور موزيل ،ليلتحق بفال دوغراس ثم يرسل ضمن البعثة الطبية سنة 1832 إلى الجزائر ليعمل خلال فترةعمله في الجيش الفرنسي بعنابة عام 1834على مواجهة الحمى التيفوئية التي ضربت جموع المستوطنين وأفراد الجيش الفرنسي أثناء حملته على الشرق الجزائري ،عاد إلى فرنسا ليتوفي في مدينة باريس في يوم 24فيفري 1894،ويخلده الاحتلال الفرنسي بإطلاق اسمه على مستشفى الداي بالجزائر العاصمة .أنظر :

ب-الطب المدني الحديث: خارج إطار الطب العسكري،وبهدف تشجيع الاستيطان ،استثمرت الحكومات المتعاقبة في مجال الصحة بالجزائر،وكان من الضروري ضمان صحة مواطنيها من المستوطنين بدرجة أولى ثم الأهالي بدرجة ثانوية [2]،إذ يعود الفضل الأول للدكتور" **بوزان"** الذي أرسى لبنات الطب الحديث في الجزائر،وفور وصوله إلى الجزائر شرع في حملة التشهير لصالح الفعالية السياسية للطب في أوساط الاهالي ،وقد اقترح في أكتوبر1835 إنشاء مصحة متنقلة تجوب المناطق المحتلة تقدم الخدمات لصالح المستوطنين والعرب على حد السواء ،مبررا ذلك بكسب ثقة زعماء القبائل والمرابطين واستقطابهم للتوجه للمستشفيات وإظهار لهم منافع الطب الحديث وتفوق الشعوب المتمدنة ومفاتن الحضارة الغربية[3].

في الحقيقة لم يكن الدكتور "**بوزان** "وحده من فكر في توطيد الاستيطان بالعمل الطبي ، فقد نحا نحوه عددا من الأطباء وخصوصا العسكريين ،وهاهو الطبيب "**جيسكار**" يطلق العنان لقلمه بعبارات منمقة مخاطبا"السادة العسكريين لمجلس صحة الجيوش يوم 22مارس 1835 ويقترح إقامة مستشفى أوسع فيما وراء موقع المتقدمة –في إقليم متيجة- يمكنه استقبال مائة مريض من كل الأجناس.وهكذا فإن فكرة إنشاء المصحات المستقلة أثارت الاهتمام ودفعت إلى البروز مبادرات جديدة[4]،ويعتبر الطبيب "باين"[5]« payn » أحد ركائز خدمة الطب المدني في بداياته لقد كان موجودا في الجزائر منذ عام 1834 ،واستمر نشاطه إلى غاية 1854وساهم في ترقية الخدمات الصحية للجميع الساكنة بدون استثناء من مدنيين وعسكريين [6]،(ولانعني هنا

---

https://fr.wikipedia.org/wiki/Fran%C3%A7ois_Maillot_(m%C3%A9decin)

[1] - Noushi(André),op-cit,p 526.

[2] - Boufenara(Kamel), « **Les militaires Français et dynamique de la structure sanitaire en Algérie durant la période coloniale** » ,Revue Sciences & technologie D,N9 , université mentouri ,constantine , 30 décembre 2009.

[3] – تيران (إيفون)،المرجع السابق،ص90.

[4] - المرجع نفسه ،ص89.

[5] -الطبيب أدولف اناستازباين(Adolphe Anathase PAYN)طبيب فرنسي المولد بمدينة باريس 1ماي 1801،استقر في الجزائر ،ومات فيهافي 21أوت 1883أحد أهم الأطباء الأوائل الذين رافقوا الجيش الفرنسي وأرسى للبنات الأولى للطب المدني في الجزائر،اهتم بعلم الفيروسات ومقاومة الأوبئة الفتاكة التي كانت تفتك بالمستوطنين والأهالي معا
.للمزيد عن أعمال الدكتور باين ،أنظر:
« **Accdémie royale des sciences** » ,le moniteur d'Algérie,Journal officiel de la colonie ,14 eme Année, N°658, 10Janvier1845,p06.

[6] -Fredj(Claire), **« Les médecins de l'armée et les soins aux colons en Algérie (1848-1851) »,** Annales de démographie historique , Sous-commission française de démographie historique ,N°113 ,Année 2007-Paris,p138.

الاهتمام بالمدنيين من الأهالي)، لقد كان طبيبا يتمتع بروح التنظيم،حيث حرر تقارير عديدة ومفصلة حول إقامة لبنات العمل الطبي.غير أن غالب انشغالاته كانت تقنية،وكان تعنى تقريبا بالحماية الصحية للمستوطنين ،فنادرا ما كان يتحدث عن الأهالي،إلا إذا تحدث عن الأخطار التي تمثلها بالنسبة لمرضاه الأوروبيين [1].

وهكذا، فقد بدأ جيل من الأطباء المدنيين في العقود الأولى للاحتلال يقدمون الخدمات للأوروبيين بشكل خاص.أما الأهالي فقد ظلت الممارسة الطبية لديهم لمدة طويلة من مهام المصلحة الطبية العسكرية، ودوما تتوجه الخدمة الطبية والمستشفيات المدنية والعسكرية أولا للمستوطنين الأوربيين ،غير أنها كانت مفتوحة للأهالي ويغلق جميعها أيام وساعات الفحص بالنسبة للأهالي .فهل يأتي أحد لطلب العلاج بها أم أن العداء إزاء الطبيب الأوروبي هو من الشدة ما يماثل المدرس والمدرسة الفرنسية ،ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال في ظل شح الإحصائيات لا سيما في السنوات الأولى للاحتلال[2]. وفي الحقيقة كان الأطباء الكولونياليون في خدمة أدوات الاستعمار"الجيش ،الإدارة، والمستوطنين "في المقام الأول،وحتى أكثرية أولئك الذين كانوا يرفضون الاستعمار ، مؤيدوا الانصهار العرقي ،كانوا ويعتقدون أنهم يخدمون مصالح وطنهم ،لم يأتوا إلى الجزائر لمساعدة السكان الأصليين ومعالجة و تطعيم الأطفال المسلمين تحت إملاء الواجب الإنساني وإنما لأغراض استعمارية بحتة تحت الطاعة العمياء للتعليمات الرسمية ، ومن جهتهم أيضا شكل هؤلاء الأطباء الطبقة البرجوازية الفرنسية الصغيرة في المجتمع الكولونيالي ،ومثلوا بدورهم إحدى أدوات الهيمنة الاستعمارية على الأهلي المسلم البسيط ،سلاحهم في ذلك العلاج والدواء مقابل الاستسلام لنزوة المستعمر ورغباته وروحه العنصرية التي تختفي بشكل بارع وراء ابتسامة عفوية ، وضمير طيب ونوايا حسنة3.

[1]- – تيران (إيفون)،المرجع السابق،ص85.

[2]- المرجع نفسه،ص86.

3 - léonard (Jacques), **« médecine et colonisation en Algérie au 19eme siècle »** , Revue Annales des Bretagne et pays de l'ouest ,N°3,Tome 84, Bretagne-1977,p492.

تمكن الأطباء من الحد من انتشار عدد من الأمراض التي تهدد حياة الأوروبيين والأهالي معا ، واستطاعوا أن يوفروا لها بعض الأدوية والعلاجات –وإن كانت أحيانا تعطى الأدوية للأهالي دون فحص طبي خصوصا لدى القبائل التي ظلت ترفض الاحتكاك بالطبيب الفرنسي- ،فمرض العيون والسيفيليس كان لكل منهما علاجه،وذلك عن طريق الشياف (les collyres)ومشتقات الزئبق أو ايودير البوتاسيوم .إلا أن الكثير من الأمراض والأوبئة ظلت تفتك بدرجة أقل الأوروبيين وبدرجة أكثر الأهالي العرب ، وظل الطبيب الأوروبي عاجزا عن وضع حد لها،وحتى غير قادر على تفسير الكارثة وطريقة علاجها ، وأرق انتشار الجدري ووباء الكوليرا -بسبب ارتباطهما بقلة شروط النظافة والوعي الصحي - الكثير من الأطباء ،فلم يجدوا بدا سوى إرغام الأهالي والمستوطنين على طلاء البيوت وحتى الأكواخ التي تأوي إليها الحيوانات باستعمال الجير ،كما أن الأطباء اكتفوا بوصف جغرافي للآفة ، فهم يشهدون ظهورها هنا ،وهناك ،وزوالها والكوارث التي تخلفها ،وليس ثمة على الإطلاق فرق بين سنة 1849و1867،فالجو هو نفسه بين السكان وبين السلك الطبي .إن الوباء غير قابل للتوقع شأنه شأن الزلزال[1].

لا يبدو أن المشكلة الطبية قد حركت سكان الجزائر الأصليين أو دفعتهم لتقبل الطب الحديث، فهم واثقون من **"صدقية الإسلام"** « **providentialisme de l'Islam** »، وقدرتهم على المقاومة الشديدة للألم البدني ، معتبرين ذلك نوعا من التضحية وتكفيرا للذنوب، وهو ما كان يشبه لرفض فلاحي مناطق بريتون أو أوفرنجنا « **auvergnats** » « **bretons** » في بعض المناطق الفرنسية للطب الحديث في فترات سابقة ،وقد غرست فيهم معتقداتهم المسيحية روحا استسلامية للمعتقدات الغيبية.و كان العرب يرون في الجدري عقابًا من لله ويرفضون التطعيم والتلقيح المستمر،مما جعل المجتمع الطبي الفرنسي أمام هذا التصور وهذه المقاومة الطب الحديث أمام معضلة حقيقية[2].

[1]– تيران (إيفون)،المرجع السابق،ص،ص318،319.

[2] - léonard(Jacques),op-cit,p482.

لقد كانت أبرز مثبطات العمل الطبي والتلقيح بشكل خاص خلال العقود الأولى للاحتلال ، عدم تقبل الأهالي الطبيب الاستعماري لأسباب حضارية وثقافية بالأخص،فضلا عن عوامل موضوعية مرتبطة بمحيط العمل الطبي الوضع المزري الذي يعيشه الأهالي، كالبعد عن مراكز التلقيح،والتكاليف المالية لعمليات التلقيح.فقد أورد مكتب مدينة الجزائر عام 1861بأن كل مريض يكلف 50سنتيم ،وبذلك لا يمكن توفير العلاج ل15000ساكن ،ولذا كان العلاج في ظل هذه الظروف يتوجه للمستوطنين أو البعض القليل من الأهالي من فئة المشردين أو سكان الضواحي من المدن الذين تم إحصاؤهم كفئة معوّزة في حالات ضيقة ،وهذا ما جعل الجنرال **"بوفر"** ،قائد فرقة وهران ،ذات يوم من عام 1855يطالب بغضب بالمساواة التامة في المعاملة بين الأهالي والمستوطنين ،ويتهم أطباء الاحتلال بأنهم يوفرون العلاج إلا للسكان الأوروبيين ،والذين لا يقارن عددهم بعدد السكان الأهالي[1] .

وللعلم،فإن تنظيم مهنة الطب في الجزائر،قد تأخر صدوره إلى غاية 1851حينما صدر القرار المنظم لمهنة الممارسة الطبية،ومهام الطبيب والطبيب الجراح والقابلات والممرضين ،ومما جاء في القرار تنظيم مهام الطبيب وتحديد دوره ،وإخضاعه للتحقيق النفسي وإعادة تقييم المستوى والشهادة من قبل الولاية الاصلية في فرنسا قبل قدومه إلى الجزائر ،وذلك قبل أن يتم قبوله على مستوى وزارة الحربية وبعدها وزارة الجزائر ،ووزارة المستعمرات 2.

ومن جهة أخرى لجأت حكومة الاحتلال الفرنسي إلى تأسيس **"مصلحة الطب المدني" (Médecine de colonisation)**والسماح لبعض الجزائريين الأهالي العمل فيها .حيث تم إنشاء **"مصلحة طب الاستعمار"** بمرسوم 21جانفي 1853،الصادر عن وزير الحربية الفرنسي الماريشال **"سانت أرنو"** .حيث كان أن يتكفل طبيب الاستعمار بعلاج المستوطنين ، ويضمن في نفس الوقت مراقبة طبية للجزائريين المقيمين بعين المكان ،إلا أن العلاج اقتصر على المستوطنين فقط ،ولم يسمح لهم بمعالجة الأهالي أبدا ،حتى ضباط الصحة من الجزائريين الأهالي وضعوا تحت المراقبة الإدارية حتى لا يقدموا العلاج للأهالي ،مثلما حدث

[1]- – تيران (إيفون)،المرجع السابق،ص،ص324، 325.

2 - Robert-Guiard (Claudine), op-cit,p233.

مع ضابط الصحة" **محمد العربي الصغير**"،الذي شغل منصب طبيب الاستعمار ،حيث حررت شكوى ضده من السلطات المحلية إلى الحاكم العام في أكتوبر 1876،بينت استياء المستوطنين منه لتقديمه العلاج للأهالي وتقديم الدواء لهم وتعليمهم الطب الأوروبي، نفس الحالة تقريبا نجدها مع الطبيب "**بولوك باشي**" الذي اتهم هو الآخر بالتقاعس عن أداءه واجبه وكثرة الغياب إلى الرغم من أن مرسوم مارس 1883كان يتيح التنقل مرتين في الأسبوع لتقديم العلاج للأهالي في الدواوير [1].

لتسهيل عملية الوصول للأسر الجزائرية بشكل سريع، وبالضبط المرأة المسلمة ،تم استعمال الطبيبات الفرنسيات اللواتي حققن ما لم يحققه الأطباء الرجال في الدخول وسط الأسرة المسلمة،وقد بدء تطبيق العملية منذ عام 1895،حينما كلف الحاكم العام "**جول كامبون**" الطبيبة "**شوليي**" بدراسة موضوع الصحة عند المرأة الأهلية،وكيفية إيصال العلاج لهن،وبإرسالها لمهام علاجية في الأوراس والقبائل ،كما تم إرسال بعثات مشابهة أخرى فيما بعد إلى مختلف مناطق البلاد.وتم تدريب الكثير من الجزائريات وتم توظيفهن كقابلات مع القابلات الفرنسيات والأوروبيات[2].

استمر العمل الطبي لصالح الأهالي،وقد جاء مرسوم 14سبتمبر 1904لينص على إنشاء منصب المساعد الطبي الجزائري لمساعدة أطباء الاستعمار في عيادات الأهالي ،وفي دورات العلاج الأسبوعية في القبائل الجزائرية ،وقد اقتصر عملهم في الترجمة ،ومنفذي العمليات الجراحية والطبية ،وتوزيع الأدوية،إلى جانب إطلاع الطبيب على عادات وتقاليد الجزائريين الأهالي.ودائما في إطار دعم طب الاستعمار في مهامه أسس الحاكم العام "**موريس فيوليت**" منصب "**الممرضات الزائرات الاستعماريات**" **« Infermières visiteuses**

[1]- علامة (صليحة)،"**الطب الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (أداة للهيمنة وحقل للتنصير)**"،مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ،مجلة دورية ودولية محكمة ،تصدرها جامعة حمة لخضر ،الوادي ، العدد18،ديسمبر 2017،ص144.

[2]-المرجع نفسه،ص،ص144، 145.

« **coloniales** [1]بمصلحة طب النساء والأطفال في الدواوير،وقد تكفلت الممرضات الأوروبيات بالمهام الاجتماعية وعمليات إسعاف الأمهات والرضع [2] .

ظل عدد الأطباء بكل تخصصاتهم (العامون،الجراحون ،الصيادلة ...)ضعيفا ،وبالطبع معظمهم يعملون في المستشفيات في المدن والقرى ذات الأغلبية الأوروبية ،ففي بلد ضم 9مليون مواطن كان عدد الأطباء يقدر 1851طبيب عام ،و660طبيبة قابلة ،و611صيدلي 462طبيب أسنان ،فمن بين 100.000ساكن نجد مابين 4إلى 8 فقط من الأطباء يقدمون خدماتهم لهم ،بينما نجد في في العاصمة78طبيبا لساكنة لا يتجاوز عددها 200ألف شخص، أما الجنوب فلم يبلغ عدد الأطباء سوى37،وهو عدد قليل لايلبي احتياجات الأهالي [3].

3- الجمعيات المسيحية الطبية في الوسط الأهلي بين الواجب الانساني و الهدف الديني

ارتبط العمل الطبي في العقود الأولى للاحتلال وإلى غاية نهاية الحكم العسكري وبداية الحكم المدني كثيرا بنشاط الكنيسة وبمشاريعها التبشيرية ،ففي مقاطعة قسنطينة أسندت مهمة الاستشفاء إلى الأخوات من المذهب المسيحي المنحدرات من منطقة نانسي .أما في وهران فأسندت المهمة لأصحاب **"مذهب الثالوث"** .وأما العاصمة فأسندت لأخوات **"القديس فانسون دوبول"**اللائي بقين غير معروفات،فقد اشتهرت الأخوات كالأخت كوسنتوس والأخت أغلاي والأخت هيلار والأخت هيوليت، اللواتي عملن على تدريس الأوروبيين وتقديم الخدمات الطبية لهم ،كما تعدى نشاطهن لخدمة الأهالي .لقد حضرت هؤلاء الراهبات تلبية لدعوة **"المونسينيور دوبوش** "للخدمة في المستشفيات والعناية بالمدارس في مطلع الأربعينات[4] .

لم يخلط الطب بالسياسة فحسب بل اخلط بالدين أيضا ،ويعتبر المقال الصادر في جريدة **"المبشر"** بتاريخ30 مارس 1849 حول التلقيح ،مقالا نموذجيا،فأغلبية كتابات الدكتور برتراند ،وجميع الكتابات الموجهة للإعلام الطبي الخاص بالسكان العرب،تعيد نفس المسائل

[1] - Girard (Lucile),**Des femmes en blanc : La " fabrication " des infirmières,**Thèse de Doctorat en Sociologie Université Bourgogne Franche-Comté, 2018,p46.

[2]- علامة (صليحة)،المرجع السابق،ص145.

[3] - Jeanson francis,op-cit,p171.

[4]- تيران (إيفون)،المرجع السابق،ص101.

التي تعتبر بمثابة الهيكل لبرهانهم ،فالمبشر تبين بداية بأن إمبراطور القسطنطينية* ،وباشا مصر ،وحجاج مكة أنفسهم يستخدمون التلقيح ضد الجدري. إن تحليل نص جريدة المبشر يقربنا إلى الميتافيزيقيا.ولاشك بأنه يعبر عن فكر عدد كبير من الأوروبيين :**"الله يقوّم التقدم"**، وقد اعتمد برتراند على التمييز الذي قام به الدكتور" **بوزين** "(**Pouzin**)في محاضراته الموجهة لمرضاه ،وهو التمييز الذي لم يكن في الواقع سوى إعادة تفسير لفكر أرسطو[1].

من أهم الجمعيات المسيحية التي تكفلت بالمهام الطبية سواء في عهد لافيجري أو بعده نذكر على سبيل المثال لا الحصر،" **جماعة الآباء البيض**" لمؤسسة بعثات إفريقيا ،والتي بدأت أعمالها الطبية في الوسط الاهلي بتكليف من الحاكم العام "**كامبو**" وبمبادرة من "**لافيجري**" ، حيث أسست مستشفى لصالح الأهالي ب"**سان سيبريان** " العطاف حاليا،وذلك سنة 1874 ، كما أوكلت لهذه الجماعة إنشاء وإدارة عدة مستشفيات في كل من "**سانت أوجيني**" بعين الحمام ببلاد الزواوة ،و"**سانت أوغيسطين**" بأريس بمنطقة الأوراس ، ومستشفى "**لافيجري**" ببسكرة ،و"**سانت ماري مادلين**" بغرداية ،و"**سان أندري**" في الأبيض سيدي الشيخ،وعلى سبيل المثال كان مستشفى "**سان سيبريان**" نموذجا لبقية المستشفيات الأخرى،فقد كتب على بابه في سنة افتتاحه 1876 عبارة باللغة العربية **"باب الله"**،وكانت تسيره 12من الأخوات البيض ،وكان يستقبل الجزائريين من كل مكان ،وعلى منواله كانت باقي المستشفيات الأخرى.وقد أوردت عدة تقارير تجاوزات خطيرة للعديد من الممرضين والأطباء التابعين للجمعيات التبشيرية ترغم المرضى على التنصر مقابل الحصول على العلاج أو الغذاء،مثل الشكاوى التي رفعها طبيب مستشفى سانت أوجين ببلاد القبائل إلى مستشار الحكومة العامة يومي 28ماي ،و3جوان 1903،وهذا مقتطف مما جاء التقارير:

« ..Les malades en général maltraités reçoivent une nourriture insuffisante et mauvaise , a l'exception de ceux qui témoignent de

[1]- المرجع نفسه،ص380.

leur intention de se convertir a la religion catholique ,aux quel un régime de faveur est réservé… »[1].

لم يبدأ استبدال الممرضين وخاصة الممرضات التابعات للجمعيات التبشيرية بممرضين وممرضات من الكليات الطبية بشكل تام إلا بعد حرب الكونية الأولى. ويصبح عددهم كبيرا بعد عام 1939 في كل المصالح الطبية كالمراكز الاستشفائية و المستشفيات العامة في المدن الكبيرة.بعد أن تم تدعيم الجزائر بجامعة ومدارس لتخريج الأطباء والممرضين في كل من الجزائر ووهران ، وهي مدارس عامة أو خاصة تمكن الطالب من الحصول على دبلوم الدولة أو دبلوم من الصليب الأحمر يؤهله للولوج في العمل الطبي2.

4-التلقيح كأسلوب حديث للوقاية من الأمراض بين القبول والرفض

تشابهت الظروف الصحية تقريبا لدى المستوطنين الأوروبيين ،وتقاربت نظرتهم لفكرة المرض ودواعيه وطرق علاجه،وذلك يعيدنا إلى الوضع التاريخي الخاص بالجزائر بسبب الاختلاط للشعوب والذهنيات التي تحتك ببعضها خلال الفترة الاستعمارية فهناك بين الأوروبيين مستويات مختلفة من الرقي،شعوب متوسطية ومهاجرون فرنسيون وأصول اجتماعية متباينة أيضا ،كلها تسهم في بروز التنوع ،إذ يمكن للطبيب من وهران أن يصادف بين بعض المرضى الأوروبيين المشاكل نفسها التي يصادفها مع ا الأهالي،كما ارتبط دوما بمسألة نشر الحضارة ،واعتبر لدى الكثير من الأطباء أداة للغزو والحضارة ، وهذا ما عبر عنه الدكتور" **أنييلي**" المكلف بمصلحة التلقيح بقوله**" بعد أن أبهرنا المتحضر بقوة أسلحتنا ،هل نستطيع أن نضم إلى سيطرتنا اللطيفة أفعال الشعوب غير المعروفة ،إن دعوة وإرشاد فئة هامة من جنس البشر التائه في غياهيب البربرية نحو سبل الحضارة ،تعد مهمة يجب على فرنسا التطلع إليها"**.بنفس المنطق كانت كتابات الدكتور برتراند في المكتب العربي في العاصمة (1848-1855) تتكلم عما يسمى **"التلقيح الأخلاقي"**، ولم تقتصر ضرورة التلقيح على الأهالي فقط– والذين اتهموا حصرا بقلة النظافة - بل شمل المعمرين وخصوصا منهم

[1]- علامة (صليحة)،المرجع السابق،ص،ص148، 149.

[2] - Robert-Guiard (Claudine) ,OP-CIT ,P,P235,236.

الإسبان، وإن كانت تقارير المكاتب العربية ليس مخولا لها تقييم سلوك المعمرين الأوروبيين،ولهذا نجد إشارات بشأنهم ،ويلجأ أحيانا الطبيب أو ضابط إلى إجراء مقارنة قصد تطييب خاطر مسؤوليه،غير أن هذه المقارنة ليست دائما معاكسة لمصالح الأهالي .فهناك من يرى أن الجيش الفرنسي عانى من مرض الجدري أكثر من غيره من الجيوش الأجنبية [1].

كانت أوامر الدكتور" **أنييلي**" والمدعومة من وزارة الحربية كانت تنص على إلزامية التلقيح للمستوطنين،فقد اختلفت الأوضاع في الجزائر عن فرنسا فإذا كانت بعض المراكز تتقبل التلقيح سهولة، فإن بعض المراكز الاستيطانية أكثر ترددا،لا سيما الآهلة بالأسبان ،كما كان سوء النية للمستوطنين حال العرب ،وفي بعض الحالات توجد مقاومة فعلية من الأهالي ولامبالاة أكثر لدى المستوطنين ،إنها مسألة مزاج ،وفي سنة 1896أبدى الدكتور" **لوناز** " من سيدي بلعباس ،استياؤه من الاسبان "**الشعب الأكثر تمردا على قواعد النظافة ،حتى البسيطة منها.إن وسخه لا يضاهيه شيئ سوى عجرفته**[2]،وهي نفس الملاحظات التي سجلها الدكتوران فولاي ومارتان حول قلة نظافة المحيط لدى الساكنة الأوروبية [3].

واجه الأطباء الفرنسيون دائما،أفكارا معارضة،ذات طابع ديني(تيولوجي)قبل أن تُسيّس عملية التلقيح وبعض التقديرات،كانت لها علاقة مباشرة بالشك الطبيعي ،وهي عفوية ، ومنتشرة من جيجل إلى باتنة ومن سوق أهراس إلى عمي موسى:"**إن العرب لا يريدون الفهم بأن حقنة بسيطة معقمة بجرثومة ما تجنبهم مرضا خطيرا مدى الحياة ،والذي يمكن أن يخطف جموعا من الأطفال ...إنهم لا يأتون إلينا سوى بعد أن يستنفذوا جل الوسائل الأخرى،لماذا يحملون أنفسهم عناء إجهاد أنفسهم لوقاية أبنائهم من مرض مرتقب؟**[4].

لقد ضاعف السياق الاستعماري في حالة اللافهم هذه ،إذ أن العادات الأجنبية كانت دائما تثير الحذر لأن الاستعمار ما كان له إلا أن يجعل منها أكثر اشتباها وتخوفا،فهي لم تعتبر فقط ممارسات المسيحي ،بل أنها ممارسات السيد.إن العائق ضخم جدا، فبعكس ما كان يتصوره

[1]- تيران(إيفون)،المرجع السابق،ص-ص312-314.
[2]- المرجع نفسه،ص314.
[3] -Fredj(Claire),op-cit,p132.
[4]- تيران(إيفون)،المرجع السابق ،ص388.

المستوطنون الأوروبيون من أن سمعتهم كانت محصنة،فإن الواقع بين أن الأهالي يتحلون بالحذر أكثر إزاء مبادراتهم،فمن جهة "يشمئز العرب من كل ما يصدر عن المسيحيين،لكنهم يرتابون ويحتاطون أكثر مما يمكن أن يكون نية طيبة من الغزاة.

تحسنت الأجواء الصحية نهاية القرن التاسع عشر،وبدأت حملات التلقيح تأتي بثمارها وبدأت تتلاشى الأمراض والأوبئة وتتقلص مساحتها،فقد أكدت معظم التقارير التي كتبها الأطباء بعد عام 1870 بأن الحالة الصحية العامة لسكان الجزائر بدأت بالتحسن،فقد قدم الدكتور" **دونيون**" « Denion » عام 1873حصيلة غير متوقعة عن نشاط الأطباء المحليين « **Les tébibs** »في نشر الطب الأوروبي في المناطق العربية ،"ففي مدينة القالة مثلا ،فإن جميع الأشخاص ،من الأطفال إلى العجزة قد تم تلقيحهم"،ويضيف الدكتور " **دونيون**" بأنه وجد **"الإرادة الحسنة للأهالي ،ودعما كبيرا له في مهمته ،بعد أن فهموا بأن الأمر يتعلق بمصلحتهم** "،و نفس الشهادات والأصداء كانت تصل من كل ربوع الجزائر،ففي عام 1879أكد طبيب تنس بأن وباء الجدري لم يصب السكان بفضل عمليات التلقيح ،التي أجريت في القبائل خلال السنوات التي سبقت، وفي مستغانم كتب ضابط الصحة العمومية سنة 1880:"**إن التلقيح بدأ يدخل في عادات العرب ،وهم أقل تمردا عند التطعيم"**،رغم عدم تخلي الأهالي عن الطب التقليدي ،وفرض على المصالح الصحية الاعتراف بضرورة التعايش بين الطريقتين التقليدية والحديثة ،وبقي الأمل المنبعث من الطبيب **"بروسلار"** في انهزام طب الأدعية والأحراز أمام الطب التجريبي العقلاني بعيد المنال ،غير أن المنافسة بين المنهجين صارت أقل حدة ،وعوضت بنوع من التسوية والمصلحة [1].

5-الطبيبة والممرضة الأوروبية لاختراق المجتمع الأهلي:كانت مهنة التطبيب في النصف الأول من القرن19 كانت حكرا للرجال ،وكان دور المرأة الأوروبية ضعيفا ومحدودا،غير أن الأمر بدأ يتغيّر بالتدريج مع مطلع القرن 20. ففي سنة 1915كان في مقاطعة قسنطينة أربعة طبيبات كن يزاولن مهنة الطب من بين 120 طبيب ،ولم يكن حتى قد تخرجن من كلية الطب الموجودة في الجزائر العاصمة ،منهن واحدة في عنابة والأخرى طبيبة في مستوصف خاص

[1]- المرجع نفسه،ص،ص403-405.

بالأهالي،كما توجد صيدلية واحدة ،وطبيبة أسنان واحدة .بالرغم من أن الجزائر كانت سباقة قبل الميتروبول في فتح الدراسات الطبية للعنصر النسوي،وكانت أول طالبة دخلت الدراسات الطبية هي الشابة **"راينغر دولاليم "** « **Reingguer de la lime** » التي انخرطت في مدرسة الطب في الجزائر العاصمة، وذلك 1865،ومع ذلك لم تلتحق الطالبات سواء الفرنسيات أو من الاهالي بهذا التخصص ، بالرغم من أن أكثر الفئات معاناة هي النساء لاسيما المسلمات اللواتي يرفض الذهاب للمستوصفات أو تقبل الفحص عند طبيب ،فلا التقاليد والأعراف المحلية كانت تسمح لذلك[1].

وبالمقابل ،نجد الطبيبات خريجات الجامعات أو ما أطلق عليهن اسم **"الطبيبات اللائيكيات أو العلمانيات"**[2] قد تأخر نشاطهن الفعلي في مجال الطب في الجزائر حتى بداية الحكم المدني أي بعد عام 1870،وانطلاقا من هذا التاريخ سوف يأخذن مكان الطبيبات والممرضات التابعات للجمعيات الدينية المسيحية ،.ولم يكن هذا فقط بالجزائر بل حتى في فرنسا ،ولا بأس هنا أن نستشهد بأن أول طبيبة في فرنسا كانت **"مادلين براس"** « **Madeleine Brès** » ، وكان ذلك عام 1875،ونظرا لنقص القابلات والطبيبات فقد كانت النساء في المنازل هن من يقمن بتوليد النساء، واستمر ذلك حتى بداية القرن20،وفي بعض المناطق حتى عام 1939،هذا بالنسبة للمستوطنات ،أما بالنسبة للنساء الأهليات ،فالقلة منهن من تم توليدهن في المستشفيات على يد الطبيبات الممرضات3.

قدمت القابلات لأول مرة –حسب ما تشير إليه الوثائق الأرشيفية–عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، إذ تشير شهادات الميلاد المستخرجة من عمالة الجزائر لسنة 1832أنه كان قابلة فرنسية عرفت باسم**"سيليستين هارفين"« Célestine Hervin »** ،والتي ذكر اسمها في سجلات المواليد الجدد،وقد سمح تسجيل أسماء الممرضين والأطباء ،والأطباء الجراحون والقابلات ،وأعوان الصحة العمومية من المدنيين والعسكريين بعد الطلب الذي قدمه" **الكونت**

[1] -Claudine ROBERT-GUIARD,OP-CIT,P235.

[2]-أطلقت تسمية الممرضات والطبيبات العلمانيات على المتعلمات والمتخرجات من الكوليجات ومدرسة الطب المستحدثة في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر للتمييز عن ممارسات الطب التابعات للجمعيات الدينية المسيحية التي زاولت نشاطها الطبي في القرى والقبائل الجزائرية طيلة نصف القرن الأول من الاحتلال الفرنسي للجزائر

[3] -Claudine Robert –guidard,op-cit,P 231.

غييو" من إحصاء 9قابلات في كل الجزائر ،وذلك حتى عام 1843،أغلبهن عازبات أو مطلقات أو أرامل قدمن للعيش وخدمة الكولون بصفة خاصة 1.

كان يجب الانتظار حتى السبعينات من القرن الماضي حتى نرى هناك تكوينا علميا للقابلات في الجزائر. ومع ذلك فإن أول مدرسة عليا للطب قد افتتحت في الجزائر كانت مدرسة الطب في عام 1859 ، وعلى الفور قامت بإصدار شهادات تخرج لمسئولي الصحة والأطباء والصيادلة والقابلات،إذ يشير الدليل الطبي لسنوات 1879-1881 أنه منذ عام 1871 ، تخرجت ستون طالبة قابلة من العاصمة و في عام 1915 بلغ الضعف أي 30،وبالرغم من ذلك فقد كان عددهن قليلا جدا لا يكفي لمعالجة النساء الأوروبيات ، فما بالك بالنساء المسلمات ،وفي نفس السنة أي 1915 ، بلغ عدد القابلات في القطاع القسنطيني 46 قابلة،منهن 12 فقط من خريجي كلية الجزائر العاصمة . اقتصر عملهن في المدن ذات الأغلبية الأوروبية2.

و لم يبدأ استبدال الممرضين وخاصة الممرضات التابعات للجمعيات التبشيرية بممرضين وممرضات من الكليات الطبية بشكل تام إلا بعد حرب الكونية الأولى.بعد أن طلب رئيس مدرسة الطب بالجزائر العاصمة السيد الطبيب "بوتان"« potin » سنة 1863بإدماج فتيات تمخرجات من كلية الطب ،إذا كان ذلك يحسن من مزاج النساء الأهليات ويجعلهن أكثر قبولا للطب الحديث وغير التابع لسلطة الكنيسة [3] ويصبح عددهم كبيرا بعد عام 1939 في كل المصالح الطبية كالمراكز الاستشفائية و المستشفيات العامة في المدن الكبيرة بعد أن تم تدعيم الجزائر بجامعة ومدارس لتخريج الأطباء والممرضين في كل من الجزائر ووهران ، وهي مدارس عامة أو خاصة تمكن الطالب من الحصول على دبلوم الدولة أو دبلوم من الصليب الأحمر يؤهله للولوج في العمل الطبي4.

نظرا لقلة الممرضات خاصة في المناطق الأهلية المعزولة والريفية ، قرر الحاكم العام فيوليت في عام 1925 إنشاء هيئة خاصة من الممرضات ، أطلق عليها اسم " **الممرضات**

[1] -Ibid,P-P232-235.
[2] -Ibid,P,P233,234.
[3] -Régine (Goutalier), « **Les États généraux du féminisme à l'Exposition coloniale, 30-31 mai 1931** » Revue d'histoire moderne etcontemporaine, tome 36 N°2, Avril-juin ,Paris-1989 , P272.
[4] - Claudine Robert –guidard,op-cit,P,P235,236.

الاستعماريات أو الممرضات الزائرات"، تم افتتاح أول مدرسة خاصة سنة 1928 للممرضات الزائرات تابعة لمستشفى **"بارنيت"** في حسين داي بلغ عددهن سنة 1938ما يناهز60 ممرضة 60.تتلخص مهامها في التنقل مع الأطباء لمعالجة المرضى من الأهالي في الأحياء الفقيرة والمناطق الريفية وتقديم النصائح والإرشادات حول طرق الوقاية والنظافة الصحية ،وبالرغم من ذلك فقد تلقى النشاط الطبي في المناطق الأهلية نفس الصعوبات التي صادفها الجيل الأول من الأطباء رغم مضي قرن من الوجود الاستعماري في الجزائر،وهي مشكلة اللغة والتواصل،وعدم الثقة في الطبيب الأوروبي وغيرها من العراقيل الأخرى.بالرغم من أنه تم فتح المجال أمام الطالبات الأهليات،إلا أن النتائج كانت مخيبة للغاية 1.

6-المستشفيات والوسائل الطبية: وإلى جانب الصعوبات المذكورة آنفا ،كان تنظيم المصلحة الصحية في الجزائر يعاني من الصعوبات نفسها ،من ضعف الميزانية المخصصة لهذا القطاع ومن الافتقار للإطارات ، وهي نفسها المشاكل التي أعاقت التطور المدرسي ،وقد حاولت الحكومات المتعاقبة البحث عن حلول واقعية لنقص الإطارات الطبية وعيا منها بأهمية الرهان.وفي خضم الإصلاحات المدرسية حرر **"روندون"** سنة 1952ديباجة قانون يتعلق بإنشاء مدرسة طبية في الجزائر،كانت انطلاقتها عام1833أين كانت تقدم دروس في علم الأمراض في المستشفى العسكري بالعاصمة مخصصة حصرا للمستوطنين الأوروبيين قصد إيجاد مجال لتأقلمهم مع الواقع الجديد[2].

كانت المنشآت قليلة وضيقة ،وحتى حينما تكون مستقرة فهي تظل تتضمن العديد من نقائص المعسكر ،وفي النهاية لم يكن في الأيام الأولى من واجب يفرض تقريرا بانتظام .كما يحتفظ" **فال دوغراس"** « **val de grace** » ببعض "المذكرات المهمة" وببعض العلاقات ضمن السرايا ،لكن على العموم فهذه الأرشيفات ظلت زهيدة نوعا ما إلى غاية 1840.لقد كان الأرشيف الوطني هو الذي جمع اكبر عدد من الوثائق المتعلقة بالأطباء المدنيين .أما أرشيف

[1] -Ibid,P-P236-239.

[2]- تيران(إيفون)،المرجع السابق،ص336.

"إيكس أون بروفنس" (Aix en province)فيحتفظ بجزء من التقارير التي تستخدم في إيضاح المستشفيات العامة بعد تنظيم الخدمة المدنية للصحة في عام1845.

لقد عرفنا مدى السرعة التي تم بها إنشاء المستشفيات ،إلا أنه ليس من السهل حصر تطورها بدقة متناهية فالتقارير اتصفت بالطابع المحلي وبالجزئية ،فحتى الدكتور" **بودان** "نفسه لا يقدم لمحة شاملة ،حيث اكتفى بذكر المراكز التي زارها فعلا .وهي 13مستشفى من بينها 09أنشئت في عام 1844،وهي تلك أيضا أي عام 1843أعد ضباط الصحة الفرنسيون قائمة تضم 27 مستشفى في الجزائر من بينها 15 في القطاع الجزائري و05في القطاع الوهراني و7في القطاع القسنطيني .وفي عام 1848ارتفع هذا العدد من 27 إلى 33مستشفى بسعة 13700سرير .وقد وضعت خريطة استشفائية تعود إلى عام 1853قائمة ب17 مركزا لمنطقة وهران وحدها أي بزيادة 12 مركزا في ظرف 10سنوات .في الوقت نفسه زودت 6مستوطنات للمعمرين في المنطقة نفسها بطبيب دائم وهي :عين تادلس ،تونين ، عين سي الشريف،ارزيو،سان كلود،وبوتليليس[1].

تطور بناء المستشفيات بالجزائر تبعا لتزايد المستوطنين في أي منطقة وبالتواجد العسكري للمحميات الفرنسية ،وكلما ازداد التوسع نحو الداخل وتم ضم مناطق أخرى لتشكل نواة لبؤر استيطانية جديدة كلما ازدادت الحاجة لبناء مستشفى أو مستوصف جديد .

ونستشهد هنا بالمؤسسات الاستشفائية الفرنسية التي بنيت في العقود الأولى للاحتلال ،والتي قدر عددها حتى سنة 1854ب 36مستشفى،وأهمها: مستشفى داي الجزائر سنة1830 الذي بلغت طاقة استيعابه 1200سرير ،بعد تحويل مكان استراحة الداي المسماة جنينة الداي إلى مستشفى عسكري،و مستشفى وهران ،الذي افتتح سنة 1832،ومستشفى عنابة ،الذي افتتح سنة 1833 ،بعد تحويل مسجد سيدي مروان إلى مستشفى بسبب وقوعه في أعالي مدينة عنابة ،وقد اختير بعناية نظرا لوفرة الهواء العليل والهدوء ، وبعده عن المناطق الملوثة .

[1]- المرجع نفسه،ص،ص84، 85.

افتتاح مستشفى الدويرة (قرب العاصمة)،ومستشفى مستغانم بالغرب سنة 1835،وبناء مستشفيين سنة1837 في الشرق ،الأول في قالمة والثاني في قسنطينة ،وكان هذا الأخير في قلب المدينة لدواع أمنية ،وفي عام 1843تم بناء 22 مستشفيات صغيرة :15في قطاع الجزائر،و05في القطاع الوهراني،واثنان في قسنطينة،وفي الفاتح أوت 1854تم تدشين مستشفى مصطفى باشا المدني[1] .

إن تجهيزات المستشفيات من مختلف الأنواع استمرت في التطور والتحسن .فكانت المدن الرئيسية كلها مجهزة تقريبا وإلى غاية سنة 1955 كان هناك 12مستشفى عسكريا و134مستشفى عونيا و16 مستشفى خاصا .كما تطور عدد الأسرة انتقل من 13033سنة 1939إلى 20830سنة 1949وإلى 33780سنة 1959،منها 1800سرير في المستشفيات الأوروبية ،وفي سنة 1936كان هناك حوالي سرير استشفائي لكل 550 ساكنا ،وانتقل في سنة 1948سرير إلى 412ساكنا ،وفي سنة 1954كان هناك سرير لكل 340ساكنا [2].

والجدير بالذكر، فإن هذه المنشآت الإستشفائية كانت قد خصصت بالأساس للمستوطنين ، أما الأهالي فقد استوجب عليهم التنقل للمستوصفات الأهلية المخصصة لهم في مناطق تجمعاتهم الكبرى،وكان كل مستوطن يجد له سريرا في كل مستشفى ،وإلى نهاية القرن التاسع عشر لم يستفد المرضى الأهليون من هذا الامتياز ،حيث حرم الأهالي من الإقامة الاستشفائية في أسرة المستوطنين ،بل كان سريرهم فراش رث على الأرض في مراقد عرفت باسم الغرف الجماعية ،مثلما كان بناء المستشفيات الكبرى يتم غالبا وبشكل غير متساو وتميزي ويتبع التوزيع السكاني للأوروبيين في العاصمة والغرب والشرق ،كان الحال نفسه داخل المدن إذ كانت تبنى في المناطق ذات الكثافة الأوروبية العالية ،ونفس الحال ينطبق على نوعية الخدمات والأدوية والرعاية الصحية ،ولم يبقى أمام هؤلاء البؤساء من الأهالي سوى التوجه

[1] -Kamel(Boufenara),op-cit,p11.

[2] -كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص396.

إلى **"مراكز المساعدة العمومية"(L'assistance publique)** التي تشرف عليها الجمعيات والإرساليات التبشرية المسيحية[1].

إن هذه الهياكل تتمركز في المناطق الحضرية الكبرى ذات الأغلبية الأوروبية،فمدينة الجزائر العاصمة تضم 79 من الأسرة المتوفرة في كل الجزائر،إن الكثافة الاستشفائية هي سرير لكل 180 ساكنا بالجزائر وسرير لكل 200 ساكنا بوهران وسرير لكل 350 ساكنا بقسنطينة،أما العمالات الأقل كثافة بالمستوطنين والتي تحسب ريفية فهي تعاني الاهمال ،ففي تيزي وزو يوجد سرير لكل 950 ساكنا وفي باتنة سرير لكل580 ساكنا وفي مستغانم سرير لكل 560ساكنا وفي سطيف سرير لكل 730 ساكنا[2]. وإذا كان الأهالي العرب يرفضون الدخول إلى المستشفى ماعدا بعض المشردين الذين هم على حافة الموت ،فالأمر ليس كذلك بالنسبة للكشوف الطبية ،ومع ذلك فحال علاقة الأهلي بالطب الأوروبي كان على غرار العلاقة بالمدرسة الفرنسية ،وظل التساؤل والحذر والتردد في العلاج لدى الطبيب الأوروبي ،ويقصد المرضى العرب الأطباء الفرنسيين وهم مترددون وواثقون ثقة يساورها الشك تقريبا في أن تكون الممارسة الطبية مضرة وغريبة تماما عن فوارق الطبيعة التي تفصل هذه الأشكال الجديدة للشفاء عن عاداتهم الخاصة، ولفهم التمييز في تقديم العلاج بين المستوطنين والأهالي ،نورد الجدول ،الذي يمثل المعالجين من المستوطنون الأوروبيون والأهالي في عدد من المستشفيات العسكرية خلال العقود الأولى للاحتلال من 1836(سنوات 1836-1837)[3].

السنة	العنصر	وهران	بجاية	مستغانم	عنابة
1836	الأوروبيون	437	320	60	2265
	الأهالي	155	29	/	265
1837	الأوروبيون	737	520	77	811
	الأهالي	30	25	/	61

[1] - Kamel (Boufenara),op-cit,p13.

[2]- كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص396.

[3]- تيران(إيفون)،المرجع السابق ،ص،ص86، 87

تدل هذه الأرقام على أن الفحوص الطبية مستمرة وذات أهمية ،إلا أن الأرقام القليلة المقدمة قبل 1845قد تكون أقل صدقا كذلك من أرقام المستشفيات ،إذ تتميز جميعها بالتقطع وعدم الاستمرار.وفي عام1845قدر الدكتور "**مورو** "عدد المرضى المعالجين في المستشفيات الأوروبية 2629مريض بينهم 501 من الأهالي والبقية أوروبيون [1].والرسم التالي يوضح نسب المعالجين في المستشفيات الجزائرية من المستوطنين الاوروبيين سنة 1882 [2].

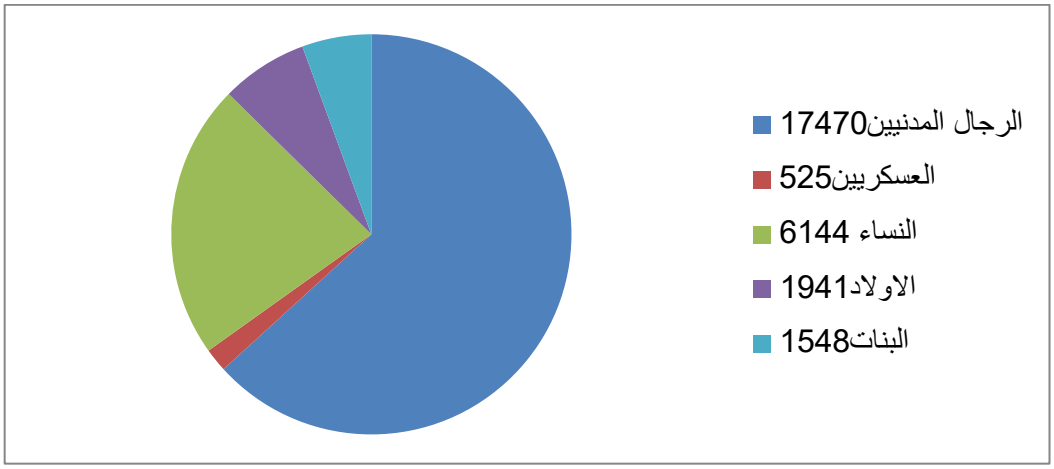

كما يبين الجدول التالي يبين أعداد المعالجين الأوروبيين يوميا في المستشفيات الجزائرية في العمالات الثلاث وأهم الأمراض المنتشرة والتي تم معالجة المرضى منها لسنة 1882[3].

نوع المرض	عدد المعالجين في عمالة الجزائر	عمالة وهران	عمالة قسنطينة	المجموع
الحمى بأنواعها	167.060	78.874	184.902	430.833
إسعاف الجرحى	63.704	79.861	29.875	173.437
الأمراض الطفيلية (vénéneux)	26.582	17.251	11.070	54.903
Galeux	718	67	1.044	1.829
Aliénés	1.323	2.217	2.270	6.260
أمراض أخرى	36.251	2.036	1.726	4.013

[1]- المرجع نفسه ،ص88.
[2] - Maison(Dominique), **La Population de l'Algérie**, Revue population,28eme Année ,N°6,France , 1973, p93.
[3] - Maison(Dominique),op-cit,p95.

المجموع العام	295.635	180.303	231.337	707.275

والجدول التالي يوضح لنا أعداد الأسرة المتوفرة للمستشفيات في محيط عمالة الجزائر عام 1884 ،وتكاليف الإقامة اليومية للمرضى المدنيين والعسكريين وأعداد الحالات المعالجة و المتوفية منها للسنوات الإثني عشر الأخيرة (من 1887إلى 31ديسمبر 1884)[1] .

مستشفيات عمالة الجزائر	عدد الأسرة عام 1884	متوسط ثمن العلاج	أعداد المعالجين خلال عام 1884	متوسط السنوي لعدد المتوفين
الدويرة	125	220	1.106	88
مرينغوMarengo	140	235	1.134	45
مينرفيلMénerville	155	180	1.624	41
مصطفى باشا	642	226	6.342	484
العطافst elisabeth	60	200	381	7
بوفاريك	36	165	238	16
مستشفيات عمالة قسنطينة	عدد الأسرة	ثمن العلاج	أعداد المعالجين	الوفيات
عنابة	320	227	3.902	128
بجاية	40	215	509	21
قسنطينة	350	240	2.819	225
الحروش	"	"	"	23
ميلة	38	250	328	9
واد العثمانية	28	260	233	17
سكيكدة	150	200	750	47
سوق أهراس	31	31	338	14

[1] - Ibid,p97.

مستشفيات عمالة وهران				
عين تيموشنت	70	220	1.015	84
وهران	423	220	4.062	275
غيليزان	60	215	1.140	32
سان دوني دوسيق	165	215	1.674	78

يتبين جليا التحسن الكبير للحالة الصحية العامة خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إذا ماقارناها خلال العقود الأولى للاحتلال بفضل تحسن المستوى المعيشي والخدمات المقدمة وتطور الذي مس البنية الصحية من هياكل استشفائية والتطور الحاصل في أعداد الأطباء والممرضين وغيرها من العوامل الأخرى ،فقد أحصت مصالح الإحصاء الاستعمارية عدد الحالات المعالجة خلال السنوات الممتدة ما بين 1882-1885ب2.163.352حالة منها 707.275حالة سنة 1882،و716.173عام 1883،و 739.904حالة عام 1884(ص95)،وهو عدد كبير جدا عما كما كان خلال الخمسين سنة الأولى للاحتلال التي لم يتجاوز عدد المعالجين الآلاف والجدول التالي الفرق في الاستفادة من الخدمات الطبية بين المعمرين والأهالي 1939-1947 [1].

السنوات	المستوطنون الأوروبيون	الجيش الفرنسي	الأهالي	العدد الكلي
1939	88643	6609	4290	118426
1941	79098	6124	3280	123186
1943	108347	5869	3461	135582
1945	114904	11718	3217	154197
1947	126779	4499	4599	160085

وخلاصة لما سبق فإننا نقف عند الاستنتاجات التالية :

-أولا :صاحب دخول الاستعمار والمستوطنين انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة بشكل كبير ، وهذا لا يعني أن الأمراض والأوبئة كانت منعدمة ،وإنما لم تكن بالانتشار الذي عرفته

[1]- كاتب(كمال)،المرجع السابق،ص398.

الجزائر خلال بدايات الوجودالاستعماري،فقد ساهمت بنية المعمر ،وجهله للطرق الواجبة للتعامل مع البيئة الشمال الإفريقية ،وقلة النظافة في انتشارها.

-ثانيا:الاهتمام الكبير الذي أولته الإدارة الاستعمارية لتحسين الواقع الصحي "منشآت استشفائية ، إطارات طبية ،تلقيح ....إلخ،والذي قاده الأطباء العسكريون ،وأكمله الأطباء المدنيون ،بحيث بذل الجميع جهودا طبية جبارة انصبت أولا لتحسين الحالة الصحية لأفراد الجيش والإدارة الفرنسية والمستوطين ،والأهالي المسلمين بشكل ثانوي .

-ثالثا:التمييز في الواجب الطبي ،والتباين في الخدمات الطبية بين الأهالي والمستوطنين ،ولم يدخل الاهتمام بحالة الأهالي الصحية إلا في خانة التبشير الديني ،والتحبيب في المستعمر .

ثانيا:المستوطنــون والأهالــي في المنظومة التعليمية الفرنسية

لم تول سلطة الاحتلال الفرنسي أهمية لأي قطاع مثلما أولته لقطاع التعليم ،وعيا منها لرسالة المعلم ودوره في غرس القيّم الفرنسية والأفكار الكولونيالية في نفوس وعقول النشء من أبناء الأقلية الأوروبية والأهالي الجزائريين ،معتمدة في ذلك على سياسة مزدوجة ،فمن جانب كانت تضيق على التعليم العربي الاسلامي وتحارب انتشاره ،كانت من الجانب الآخر تسعى في نشر التعليم الفرنسي الغربي ،وتركز على خلق نخبة مفرنسة من المجموعتين الأوروبية والجزائرية تساند الأطروحات الإديولوجية الاستعمارية والعمل على نشرها ، وذلك رغم الصعوبات والتجارب البيداغوجية المختلفة والنقاشات الحادة والمستمرة في أهمية تعليم الأهالي من عدمه.**فما واقع التعليم بكل مراحله؟ومامدى نجاح المنظومة التعليمية الاستعمارية الفرنسية ؟**

1- التعليــم العــام

أ-الوضعية العامة للتعليم العام قبل 1870

-مدرسة التعليم "التعاضدي "أو "المتبادل" وفشل مشروع المدرسة الواحدة للجميع

إن أول مشروع تعليمي لسلطات الاحتلال كان اقتراحا قدمه جانتي دوبيسي يقضي بتجميع الأعراق المتعددة "**الأهالي ،اليهود،الأوروبيين**"تحت سقف واحد،حيث تم فتح ما عرف آنذاك "**بمدرسة التعليم التعاضدي**" أو "**المتبادل**"أو" **المزدوج " l'enseignement mutuel »**في 01جوان 1833،عين السيد جوني فرعون [1](Joanny pharaon)أستاذا للغة العربية ،وبلغ عدد التلاميذ نهاية السنة 200،كان توزيعهم على الشكل الآتي:100 فرنسي أغلبهم من أبناء العسكريين ،21ألمانيا ،15اسبانيا ، 05 إيطاليين، ومالطيان ، و58من أبناء الأهالي،وفي 01سبتمبر 1834افتتحت ثانوية مشتركة للفرنسيين و الأهالي ،غير أن اليأس خيّم على المتحمسين لفكرة التعليم التعاضدي بسبب ضعف الإقبال عليها خصوصا من قبل الأهالي، عدا "**دوبيسي**" الذي ظل يردد على الدوام **"سوف يأتون..."** في إشارة لأبناء الأهالي الذين ظلوا رافضين للتعليم الفرنسي[2]،ولأبناء المستوطنين الذين رفضوا تعلُم لغة الأهالي، وبالتالي ترددت الحكومة الفرنسية في حسم الخيار بين تلقين الأوروبيين اللغة العربية ،أو تعليم الفرنسية لأبناء الأهالي ،وكلاهما كان خيارا صعبا بسبب عزوف الفرنسيين وأبناء الأوروبيين غير الفرنسيين في الإقبال على التعليم بالعربية ،وتمسك الأهالي بالتعليم الأصلي بالعربية[3]،بعد أن هدّمت القوات الغازية عشية الاحتلال كل مرفق ديني أو مدني يرمز للعلم ، وبعد أن كان دوبيسي أحد أهم المحرضين على محو وهدم معالم الشخصية الجزائرية [4].

وبوفاة جانتي دوبيسي عام 1834،استمر مشروع التعليم الفرنسي ، وظلت مدرسة التعليم التعاضدي في العمل ،لتفتتح في سنة 1836مدرسة أخرى بالقبة وواحدة بدالي ابراهيم ،وإلى غاية 1839افتتحت 05مدارس خاصة في العاصمة ،كلها مخصصة للمستوطنين الأوروبيين

[1]-ولد بالقاهرة بتاريخ 10جانفي 1803من أب مترجم سابق في الجيش الفرنسي ،تلميذ سابق في كلية اللغات الشرقية ،وأستاذ اللغة اللاتينية بباريس سنة 1821،عمل أيضا أستاذ للغة الفرنسية في المدرسة المصرية بباريس 1825نصب مترجما شفويا من الدرجة الثانية ضمن الهيئة الترجمية سنة 1831 ضمن الجيش الفرنسي في الجزائر ،وفي عام 1839أصبح المترجم من الدرجة الأولى ضمن الجيش الفرنسيُثم أستاذ اللغة العربية في الجيش ،له كتب في اللسنانيات والتاريخ وغيرها توفي في ماي من سنة 1846.أنظر:
-بليل وداد ،**الترجمة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962**،أطروحة دكتورة في الأدب،جامعة العربي بن مهيدي ،أم البواقي ،2016-2017،ص76.

[2]-ايفون توران،المرجع السابق،ص،ص49، 50.

[3] - tsourikoff (Zénaide), **L'enseignement Des Filles En Afrique Du Nord** , Editions A.Penode ,Paris -1935,p14.

[4]- بن عثمان (خوجة)،**المرآة** ،تعريب تقديم وتحقيق محمد العربي الزبيري ،منشورات Anep،الجزائر-2006،ص254.

وبطلب من السيد" **لوبيشو** "[1]تم يوم 14مارس 1839 فتح مدرسة للفتيات اليهوديات بعد موافقة حاخام الجزائر العاصمة ،حيث لم يسبق لليهوديات إلى غاية هذا التاريخ القراءة والكتابة ،وهذا ماعدا في تلك الفترة ثورة منقذة لأخلاق وذهنية العائلة[2] .

رغم الاستمرار في فتح مدارس التعليم التعاضدي في عنابة ووهران ،والتي خصصت فقط لأبناء المستوطنين،إلا أن المعمرين من أصل فرنسي في بداية الأمر لم يولوا الاهتمام بتعليم أبنائهم اللغة العربية كمادة مضافة للمنهاج مع بقية المواد على اعتبار بأنهم لن يستعملوها أبدا ،وذلك لأن القليل منهم من كان يفكر في الإقامة بالجزائر،وأغلبهم كان يفكر في العودة إلى الوطن الأم ،وذلك لظروفهم المختلفة والتي لم يستطيعوا التأقلم معها ،يضاف إلى ذلك الأحكام الاجتماعية المسبقة،والفروق الدينية المختلفة ،فالمسلمون والمسحيين واليهود ينفرون من الاختلاط ببعضهم البعض ،ولذلك ذهبت الأفكار التنويرية والتمدينية والمستمدة من روح العصر أدراج والرياح،وأصبح معها مشروع الإدماج الحضاري عبر المدرسة مهددا بالفشل [3]، وتبعا لكل ذلك، ونظرا للتعدد العرقي واختلاف الأصول الفكرية والثقافية ،اهتدت إدارة الاحتلال للحل،وقررت فتح مدارس يهودية فرنسية لليهود ومدارس عربية فرنسية للأهالي المسلمين مادام أضحى الأمر غير ممكنا في جمع أبناء العرقين تحت سقف واحد[4].

وفي نفس الوقت لما كان الاهتمام بالمدارس المختلطة،كانت إدارة الاحتلال تؤسس للمستوطنين ولعدد من الأهالي مدراس عمومية أصبحت لاحقا تابعة للبلديات أولت أكاديمية الجزائر لها العناية الفائقة ،واختير لها أحسن الأساتذة الذين قدموا من فرنسا ،وسارت كل الأطوار الدراسية على نفس المنهاج والمقررات المدرسة بالمدارس الفرنسية،إذ لاقت

[1]-أوغيست أليكسيس لوبيشوLepescheux Alexis Auguste من مواليد المانش بفرنسا يوم 16مارس 1794عمل كناظر ونائب مدير عدة مؤسسات تعليمية بفرنسا ،انتقا عام 1832 ليتولى مهمة المفتش التعليم العام بالجزائر العاصمة وذلك يوم 1سبتمبر 1832 ،ساهم في إرساء اللبنات الأولى للتعليم الفرنسى فى الجزائر ،وأحد أنصار التعليم الحديث .للمزيد أنظر:

-Candette Jean-Françoise,**Les recteurs d'académie en France 1808-1840 dictionnaire biographique** , Institut national des recherches pédagogique,Paris-2006,p254.

[2]- توران (ايفون)،المرجع السابق،ص،ص52، 53.

[3]-المرجع نفسه ،ص،ص54،55 .

[4]- tsourikoff (Zénaide),op-cit,p15.

توصيات دوبيسي آذانا صاغية في الإعداد لبرامج تنتج أجيالا تختلط في نفوسها كل الثقافات والأفكار المختلفة ،المحلية بالأوروبية كنموذج نخبوي جديد في المستعمرة الجديدة[1] .

أما من الناحية التنظيمية فلم يلحق التعليم العام الخاص بالمستوطنين وإلى غاية 1848لوزارة التعليم الفرنسية ،بل كان من اختصاص وزارة الحربية وتحت إشرافها يسيره مفتشان أحدهما للتعليم العام والثاني للمدارس الابتدائية تحت إشراف الوالي العام ،إلا أن قرارين صدرا بتاريخ 7أوت و8سبتمبر 1848 وضع حدا للوضع السابق ، وأصبح التعليم خاضعا لوزارة التعليم العام،كما تم إنشاء أكاديمية الجزائر ،وبناءا على التنظيم الأخير تولى المدير الذي يحضر اجتماعات الحكومة،ويراسل مباشرة وزير التعليم الفرنسي في الإشراف على جميع مستويات التعليم على اختلاف جنسياتها ومعتقداتها الديني،باستثناء المدارس الإسلامية الخاصة بالأهالي،والتي ظلت لحد هذا التاريخ تحت رعاية وزارة الحربية،في الوقت الذي أخضعت فيه المدارس الابتدائية في تلك الفترة لإمرة المفتش العام للابتدائي والمقيم بالعاصمة، أما فيما يتعلق بتعيين المعلمين والمعلمات كان ذلك يتم عن طريق المدير بتفويض وتوكيل من الوزارة [2].

وخلال فترة الخمسينات والستينات انفتح المستوطنين من كل الأعراق على المدرسة الفرنسية ،واستمروا في إرسال أبنائهم للمدرسة الابتدائية والثانويات،ومع ازدياد أعداد المتمدرسين من أبناء المستوطنين ازدادت الحاجة لبناء مدراس أكثر في كل المناطق التي شهدت استتبابا للأمن وارتفع قاطنوها من الأوروبيين، حيث تشير الإحصائيات أن عدد المدارس الابتدائية بصفة عامة وصل سنة 1851 إلى 223 مدرسة بينما كان العدد 52 فقط سنة 1846،واصلت الإدارة العسكرية سياستها في إنشاء المدارس الابتدائية الفرنسية ووصل عددها 697 مطلع الحكم المدني للجزائر ، بينما لم توجد إلا واحد وعشرون مدرسة للجزائريين،نفس الشيء بالنسبة لتعداد التلاميذ فقد ارتفع إلى 66 53.6 بالنسبة للأوربيين ، ولكنه لا يتجاوز عدد التلاميذ من الأهالي 3.112 تلميذ.

[1] - Mirante (Jean),**La France et les œuvres indigènes en Algérie** ,Cahiers du Centenaire de L'Algérie ,Alger - 1930, p,p70,71.

[2]- معوشي(آمال) ،المرجع السابق،ص172.

- مراسيم سنة1850 وظهور المدرسة الفرنسية العربية

حاول الكونت غويو(Compte Guyot) خليفة جانتي دوبيسي في إدارة التعليم منذ 1833 وإلى غاية 1847وضع مشروع تعليمي أصلي يتم فيم بلوغ مستوى النجوع الاجتماعي والسياسي والتقريب بين الأجناس ، إلا أن المشكلة الدينية كانت أعمق بكثير مما كان يتصور ، ووقفت النظرة الدينية موقف العداء خوفا من الاحتكاك بالآخر الأوروبي الذي يضر بالهوية ،إذ كان يجب انتظار سنتي1846، 1847،ليشرع في التحقيقات الكبرى التي تبعت التنظيم الإداري لعام 1845،والعمل بإجبارية تقديم التقارير كل نصف شهر حول تطوير التعليم ،وقد أثمرت تلك التقارير الدورية ،والنشاط الذي لعبه عدد من المختصين في قطاع التعليم،أمثال المفتش العام لوبيشو (Lepesheux) ودوماس (Daumas)ووبلمار وأوربان الذين اجتهدوا في الاستفادة من التحقيقات المنجزة عام1847في بلورة مراسيم 1850[1].

احتدم النقاش بين الساسة الفرنسيين قبل صدور المراسيم المنظمة للتعليم قبل عام 1850حول نوعية التعليم وأهدافه وطبيعة المناهج ونوعية الدروس الواجب تقديمها في المدرسة الفرنسية،وكان هذه أم القضايا التي أسالت الكثير من الحبر،وكانت محل مرسلات وتقارير متعددة ودقيقة سواء في باريس أو في الجزائر على حد سواء ،والذي ساهم في فيه كل من (ليون روشLéon Roche،دومواينكورDemoynencourt،فلمان) ومصالح بيجو،ومصالح رئاسة المجلس؛هؤلاء الذين غالبا ما تعددت آراؤهم بشأنه إلى حد التضاد دونما إيجاد مخرج له هو مشكل تعليم اللغة ،العربية للتلاميذ الأوروبيين ،والفرنسية للتلاميذ العرب ويهود الجزائر،فضلا عن مسائل مدرسية أخرى من قبيل الثانويات العربية[2].

وفي وسط ذلك الجدل حول أهمية توسيع التعليم ليشمل أبناء الأهالي والفوائد المرجوة منه ظهرت معارضة قوية من بعض الدوائر الحكومية في باريس تحت ضغط لوبي المستوطنين تطالب بعدم تعليم الأهلي ،تحت ذريعة عدم قدرته على التأقلم على المناهج الفرنسية أو لضعف قابليته للتطور العلمي ،كما تحجج أنصار الكولونيالية بأن فتح أبواب المدارس لأبناء

[1]- توران(ايفون)،المرجع السابق،ص،ص56،57 .
[2]-المرجع نفسه ،ص67.

الأهالي سيضر بالمصالح الاقتصادية للمعمرين مسببا هجرة أبناء الفلاحين للقطاع الزراعي وسيعني تخليهم عن المهن اليدوية والشاقة ضربة قاصمة للمستعمر.واعتبروا بأن أي محاولة للإدماج عن طريق المدرسة سينتج عنها بالضرورة عزلة وضياع للمتعلم المسلم ، لأن المجتمع الأوروبي سوف يرفضه بسبب عدم أهليته الكاملة للاندماج،والمجتمع الأهلي المسلم سوف يتخلى عنه باعتباره مرتد ومفرنس[1].

وفي الحقيقة لم يكن أصحاب هذا الرأي من المستوطنين المتشددين يفضلون أن تصل أنوار العلم لشرائح واسعة من الأهالي ،لأن أفضل وضع مناسب لهم أن يبقى أبناء الأهالي أميّون ، لأن التعليم سينتج في النهاية جيلا واعيا يهدد وجودهم ،لا سيما وأن معظم الأهالي المسلمين خلال السنوات الأولى للاحتلال كان يعرف على الأقل الكتابة والقراءة ،في الوقت الذي كان فقط 45 %من مجموع الفرنسيين الذي يحسن الكتابة والقراءة مثلما أكده الباحث مارسيل إيمريت في خلاصة أبحاثه المتعلقة بالتعليم في الجزائر خلال العقدين الأوليين للاحتلال [2].

ولحسن الحظ ،فإن جهود بعض المتعاطفين مع تعليم الأهالي ،الذين عملوا على تطبيق توصيات عدد من رجال التربية والتعليم الفرنسيين ،وبمباركة من الأمبراطور الفرنسي فيما بعد قد أتت بثمارها، إذ تأسست مدارس خاصة للأهالي ،أو بالأحرى للأهالي الذين رفضوا إرسال أبنائهم للمدارس الحكومية والعامة ،والتي عرفت باسم" **المدارس الفرنسية الإسلامية** "أو العربية ،وقد حمل مرسوما جديدا صدر في 14اوت 1850توصية على تشجيع فتح هذا النوع من المدارس، لكن المرسوم الثاني والهام في السياسة التعليمية الفرنسية المتعلقة بتعليم الأهالي،والذي صدر بتاريخ (1850\09\30) حث على المدارس الإسلامية ذات المستوى العالي ،وأنشأت ثلاث مدارس إسلامية في تلمسان والجزائر العاصمة وقسنطينة، تختص بالدراسات التعليمية الهادفة إلى تكوين وتخريج موظفين تحتاجهم الإدارة الفرنسية كالمفتين والعدول والمترجمين ومعلمي مادة اللغة العربية[3].

[1]- tsourikoff (Zénaide),op-cit,p,p15,16.

[2] -Emérit (Marcel), « **L'Etat d'esprit des musulmans d'Algérie en 1847-1870 »**,Revue d'histoire moderne et contemporaine ,Tome 8,N°2 ,Belin Editeur,Avril-Juin,1961,France,p107.

[3]- حلوش (عبد القادر) ، **سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر**،دار الأمة للنشر والتوزيع،الجزائر-2013 ،ص59.

كانت السلطات الفرنسية تنوي من وراء هذه السياسة تجاه المدارس الاسلامية جعلها تحت رقابتها وإبعاد الجزائريين عن تأثيرات رجال الدين الجزائريين في المساجد و المدارس الحرة

ابتداءا من 1865وبعد زيارة نابليون الثالث للجزائر ، بدأت قضية تعليم الجزائريين تلقى نوعا من العناية و الاهتمام و في هذا الصدد اقترح الحاكم العام **"ماكمهون"« Mac Mahon »**. بموافقة مدير التربية و التعليم بالجزائر،السيد **"دولاكروا" « Delacroix »**، مع عدد من كبار رجالات التعليم من المستوطنين ،والمطلعين على شؤون الأهالي أن تكون البرامج التعليمية في المدارس العربية الفرنسية مشابهة للمدارس الفرنسية بفرنسا مع فارقين اثنين،وهما: إعطاء مكانة خاصة للغة العربية في هذه البرامج و توسيع نطاقها،وإيلاء نوعا من الأهمية للتعليم الإسلامي.والواقع فإن هذه المحاولة الجديدة المطالبة بتطبيق التعليم العربي أساسا،لم يكن ليقبل بها معارضو التعليم الجزائري من الوسط الرسمي و الشعبي من الأوروبيين،فقد كانت محاولة يائسة لتجنب عداء الجزائريين للمدرسة الفرنسية التبشيرية،فلا اللغة العربية لاقت العناية ولا الدين الإسلامي وجد الاهتمام حيث أهملت البرامج التعليمية الفرنسية الخاصة بالتعليم الجزائري و اللغة العربية حتى طرد الفرنسي من الجزائر.

بهذه الطريقة حاول ماكمهون إعطاء الحياة من جديد للمدارس العربية الفرنسية إلا أنه فشل ، فأصدر في 1867 منشورا يزيد من توسيع المدارس البلدية أو المدارس البلديات الفرنسية و فتحها أمام التلاميذ الجزائريين غير أن المجالس البلدية في المدن رفضت استقبال هؤلاء التلاميذ في مدارسها البلدية ، كما رفضت بالمقابل الحل الثاني لإنقاذ المدارس العربية الفرنسية ، والذي يتمثل في إمدادها بالقروض والمساعدات المالية ،وكان نصيب تعليم البنات الجزائريات من كل هذه المراسيم و القوانين شبه معدوم، وترجع المبادرة الأولى لتعليم البنات كذلك إلى المرسوم 1850 الذي نص على تأسيس أربع مدارس خاصة بالبنات في كل من الجزائر العاصمة إلى معمل في 1861 وتقوم هذه المدارس بإعطاء اللغة العربية و الفرنسية وأعمال الحياكة و النسيج و الخياطة و كانت طالبات المدارس من الفقيرات اللواتي كن يردن الاستفادة من المكافأة التي تقدم لهن يوميا ،وتقدر بخمسة عشر (15) قرشاوبالرغم من ذلك ظل التعليم ضعيفا،نظرا لعدم الإدارة الحسنة إزاء هذا القطاع الهام من المجتمع فحتى قرار

(1865/5/2) الذي أعاد تنظيم المدارس العربية الفرنسية بالجزائر لم يتطرق إلى موضوع تعليم الإناث ولو بالإشارة [1].و يمكن إجمالا إبراز أسباب فشل المدارس الإسلامية الحكومية إلى غياب الإدارة الجيدة و الرقابة الدقيقة للدروس (لم تكن توجد برامج و مقررات محددة بل مدرس المادة نفسه هو الذي يحضر الدرس و يحدد المقرر) ،و تدني مستوى المدرسين أنفسهم أثناء توظيفهم بهذه المدارس ،إضافة إلى ارتفاع عمر الطلاب حيث كان أكثرهم مسنين ،يضاف إلى ذلك فإن المدارس لم تجعل مستقبل المتخرج زاهرا،وقد جعلت المناصب التي يمكنه الحصول عليها ذات مردود قليل[2]. والواقع ،فإن مشكلة المدرسة العلمانية لم تكن مشكلة الأهالي فقط ،بل تعدت المستوطنين المتشددين واليهود ،الذين لم تهتدي سلطات الاحتلال حلا سوى التأسيس لمدارس دينية

المدارس الدينية اليهودية والمسيحية : تكفلت الجمعيات المسيحية حتى مطلع القرن 20بشكل كبير بمهمة تعليم الفتيات الأوروبيات ،و كان تعداد المدارس الدينية التي تسهر على إدارتها الجمعيات الدينية يقارب عدد المدارس المدنية ذات التعليم العصري العلماني ، ففي سنة 1853كان من بين مجموع 247 مدرسة حكومية موجودة في الجزائر ، 100 مدرسة تديرها جمعيات دينية ، 95منها تابعة للجمعيات المسيحية النسوية (48 مخصصة كمراكز للأيتام و 47 مدرسة للبنات)،كما كانت الأخوات المسيحيات يشرفن على استقبال وتدريس أكثر من 84من التلميذات الأوروبيات المتمدرسات سواء في المدراس الدينية أو المدارس العامة بالرغم من أن ما يقارب 91% من التلميذات الأوروبيات يدرسن في المدراس العامة والحكومية ،وبالتالي يظهر لنا سيطرة الجمعيات الدينية على تعليم وتربية أطفال الأوربيين3.

ظلت العلاقة بين مد وجزر بين أنصار التعليم المدني والمدرسة الحديثة من جهة وبين رجال الدين المسيحي والجمعيات الدينية من جهة ثانية ،وإن كان الصراع لم يشتد خلال العقود الأولى بسبب انحياز الملكية الفرنسية للتعليم الديني ،ودور الماريشال بيجو الداعم لنشاط الكنيسة في الجزائر غير أنه طفى إلى السطح نهاية الحكم الإمبراطوري طيلة خلال الحكم

[1]- حلوش (عبد القادر) ،المرجع السابق،ص53.
[2]- المرجع نفسه ،ص61.
[3] - Claudine ROBERT-GUIARD,OP-CIT,P196.

المدني ،ففي عام 1869دق رئيس أكاديمية الجزائر ناقوس الخطر على مخاطر هيمنة التعليم الديني على مشروع علمنة التعليم الفرنسي ،حيث أرسل تقريرا مفصلا للحاكم العام جاء فيه:" **يعمل رجال الدين في كل مكان بحماس لفرض التعليم الديني على التعليم العصري العلماني ... لا أحد ينكر الخدمات التي تقدمها المؤسسات المسيحية في الجزائر ، لكن هذا التساهل يجب أن تكون له حدود... إن عَلمنة التعليم واجب ،بالرغم من أننا لسنا بعيدين عن الهدف فإن علمنة مدارس البنات تبدو غاية بعيدة المنال.."**1.

لم يكن حال اليهود بعيدا عن حال الأوروبيين المستوطنين ،فقد رفض أغلبهم –بتحريض من المؤسسة الدينية –إرسال أبنائهم للمدارس الحكومية على اعتبار أنها علمانية وتدعو أفكارها إلى التحرر الفكري،وهوما يعارض البيئة المحافظة للمجتمع اليهودي ،ولهذا رأت إدارة الاحتلال أنه من الضروري فتح مدارس دينية لليهود ،والتي بلغ عددها إلى غاية 1858 ب13مدرسة موزعة كالآتي : في الجزائر العاصمة مدرسة **"تلمود توراة "** والمخصصة للبنين ،ومدرسة للبنات، ومدرستين وملجأ في مدينة وهران ، ومدرستين بقسنطينة ،ومدرستين بمستغانم ،ومدرسة واحدة في كل من عنابة ،وتلمسان ومعسكر.

وبما أن السلطات الفرنسية قد خصت اليهود بمدارس للبنين وأخرى للبنات ،فقد كلفت المعلمين والمعلمات اليهوديات بتدريس المواد الدينية كتفسير التوراة وحفظها والتعاليم الدينية، المعلمات فقط في مدراس البنات،والمعلمين في مدارس البنين ،فيما يشبه بحالة الفصل بين الجنسين.أما الحساب واللغة الفرنسية والكتابة ،وغيرها من المواد المستقاة من المنهاج الفرنسي فقد أوكلت مهام تدريسها للمعلمين والمعلمات الفرنسيات،في حين ظلت المدارس الحاخامية التقليدية **"ميدراشيم"،« Midrashim »** والتي يقتصر فيها تعليم الأولاد على تعلم مبادئ اللغة والدين العبراني تمارس مهامها التعليمة بعد الاحتلال،لكن السلطات الفرنسية

[1] -ANOM, série S 2 S 1,Enseignement primaire. Rapports trimestriels, 1860-1870.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أجبرتها على حصر التعليم أصول الديانة اليهودية فقط حتى تضيق أكثر على التعليم الديني وتشجيع التعليم العصري [1].

وإذا كانت مهمة تعليم الفتاة داخل المنظومة الاجتماعية اليهودية يلقى نوعا من النفور والاعتراض لدى النخب المحافظة ،وفي مقدمتها الهيئة الدينية على وجه الخصوص فإن العملية أقلعت مع قوانين مدرسة **"جول فيري** "لعام 1881 بشكل سريع نحو الحداثة والعصرنة ، مما أصبح يشكل تهديدا للتعليم التقليدي حاله كحال التعليم المحافظ العربي ،وقد وجد أبناء اليهود تحت سقف هذه المدرسة قيم غربية جديدة تكرس لكرامة المرأة وتدعو لتحريرها من عبوديتها نحو دفعها لتقديس الذات ،كما غيرت تلك المدرسة العلمانية في عقل الطفل اليهودي مفهوم الولاء من المجتمع الصغير والمنغلق على نفسه نحو الولاء للأيديولوجيا الجمهورية للدولة الاستعمارية[2].

ب-التعليم الفرنسي وانعكاساته على المستوطنين الأوروبيين والأهالي المسلمين مابين 1870-1945

-حالة التعليم العام ما بين 1870-1882

بمجيئ الحكم المدني بالجزائر بعد 1870 وضع حدا للمدارس الفرنسية العربية ، لأنها لم تحقق النتائج المطلوبة منها ،بسبب معارضة الوسط الأوروبي لها،و كذا رفض الطلاب الأهالي الالتحاق بها،ومن هنا سقطت المدارس العربية الفرنسية بسقوط النظام الامبراطوري ، و بالتالي يمكن القول على أن هذه التجربة (تجربة المدارس العربية الفرنسية) كانت من صنع العسكريين و النظام الإمبراطوري عامة ،وسقطت بسقوطهم.

كان لقرار 28أكتوبر 1871الذي أصدره الأميرال **"دوغيدون"** وقع الصدمة على مستقبل المدارس العربية الفرنسية حيث تقرر غلقها ،وأدمج بموجب هذا القرار تلاميذ المرحلة الثانوية في ثانويتي الجزائر و قسنطينة ،وبالمقابل أبقى على المدارس الابتدائية ،غير أنه تم رفع الدعم

[1]- معوشي (آمال)،المرجع السابق،ص،ص174، 175.

[2] - Dermenjian(Geneviève), « **Juifs d'Algérie (1830-1962) ; Une histoire entre mémoire et liens intimes** », Revue Quaderns de la Mediterrània ,N°23,Editeur IEmed,Barcelona, 2016 ,p41.

الحكومي عنها مما مهد إلى اندثارها مع مر الزمن بسبب نقص الاعتمادات المالية و المتابعة الدورية،مما أدى إلى تراجع أعدادها ،فقد أحصي 16مدرسة عربية فرنسية في كل المستعمرة عام 1881،وغيرت اسمها إلى المدارس الخاصة بالأهالي ،كما تم تقليص تدريس اللغة العربية شيئا فشيئا إلى غاية حذفها من التعليم الثانوي ثم لاحقا في الابتدائي[1].

وإلى غاية 1880 تعرض مشروع المدارس الأهلية للبنات هو الآخر للفشل ،فمن بين المدارس التي تم فتحها في كل من الجزائر العاصمة وعنابة وقسنطينة ووهران ، نجد فقط مدارس الجزائر العاصمة و قسنطينة وبجاية التي حققت نوعا من النجاح والبقاء في حين كان الفشل المطلق والحل مصير المدارس في المدن الأخرى .إذ تفيد الإحصائيات المسجلة عام 1880أن عددهن كان مابين 35إلى 40 ماعدا مدرسة قسنطينة التي بلغت فيها عدد البنات 76 تلميذة أغلبهن ينتمين لأسر فقيرة ومدرسة بجاية التي شهدت توافدا منتظما للبنات فاق عددهن 100 [2] وفي الفترة الممتدة مابين 1879-1892 أهملت هذه المدارس،وانصب اهتمام مسئولي القطاع على تعميم التعليم الفرنسي العام جميع السكان ،إذ ركز قانون 13فيفري 1883على فتح مدارس ابتدائية للأهالي مختلطة من الجنسين وتضم أوروبيين وأهالي،كما أن قانون 09 ديسمبر1887 المكمل للقانون الصادر30 أكتوبر 1886،ولاسيما المادة 68منه يؤكد على إجبارية التعليم للذكور المتراوح أعمارهم مابين 04إلى 07سنوات،في حين لم يحدد بدقة نفس الشرط على فئة الإناث [3].

في عام 1900تم فتح عشرة مدارس جديدة مضافة للتي تم فتحها سابقا نصفها في منطقة القبائل ،وخصص منها خمس للفتيات المسلمات في كل من تادارت أوفالة ،شلالة ،بجاية قسنطينة ،ندرومة .وبالمجمل بلغ عدد مدراس البنين في نفس السنة 104 مدرسة ،وارتفع عدد المدارس في 1910إلى 298مدرسة مقابل 15 للبنات الأهليات و5 للمدراس الصبيانية

[1] - Kateb (Kamel), « **Les séparations scolaires dans l'Algérie coloniale »** ,Insaniyat ,Revue d'anthropologie et de sciences sociales ,N 25-26, Crasc,Oran,Algérie,2004,p58.
[2] - tsourikoff (Zénaide), op-cit,p,38.
[3]-Ibid,p,41.

أوالتحصيرية(**écoles enfantines**).وبلغ العدد سنة 1920 ب490مدرسة للبنين و19 مدرسة للبنات ،ووصل العدد إلى 540مدرسة للبنين مقابل 23 مدرسة للبنات عام 1929[1].

-الإصلاحات التربوية لجول فيري وعهد المدرسة الحديثة مابين 1882-1945

-قانون 1882/03/28م وإقرار إلزامية التعليم: لتنظيم التعليم في هذه المرحلة الجديدة في ظل الحكم المدني صدر قانون 12جوان 1882م المتعلق بمجانية التعليم ، ثم بعده قانون 28 مارس 1882م المتعلق بالزاميته، والذي نظمت مواده التعليم الابتدائي، كما يلي:

-المادة الأولى: التعليم الابتدائي يشمل: التربية الأخلاقية والمدنية، القراءة، الكتابة، اللغة الفرنسية،تاريخ فرنسا وجغرافيتها،مفاهيم القانون والاقتصاد والسياسة والفيزياء والرياضيات.

- المادة الثانية: يوم الراحةالأحد، يسمح فيه لإعطاء تعليم ديني للأطفال خارج إطار المدرسة.

- المادة الرابعة: التعليم الابتدائي إجباري الأطفال الذين تفوق أعمارهم 6 سنوات للجنسين.

- المادة السادسة: تمنح شهادة التعليم الابتدائي بعد إجراء امتحان عمومى ابتداء من 11سنة.

وبذلك أصبح التعليم الذي يخضع له الجميع من أبناء المستوطنين والأهالي ذا طابع فرنسي، يشرف عليه معلمون فرنسيون، وتم تجاهل تاريخ الجزائر، والتركيز فقط على عظمة فرنسا ومجدها،ومايُفهم من المادة الرابعة من هذا القانون،والمتعلقة بإجبارية التعليم للجنسين، إناثاوذكورا،وتوفير المقاعد لكل الطلبة المستوطنين وليس غيرهم من أبناء الأهالي 2.

تأخر تطبيق القوانين الأساسية لعلمنة التعليم الابتدائي ومجانيته في الجزائر مقارنة بالميتروبول،إذ أمر القرار الصادر بتاريخ 13فيفري 1883كل البلديات على فتح مدارس مجانية ولائكية فيها،غير أن مجانية التعليم ولائكيته لم تطبق بشكل فوري سوى على المدارس المخصصة لأبناء المستوطنين ،بينما لم يصدر قرارا يخص بمنع ممارسة رجال الدين لمهمة التعليم وإدخال الرموز الدينية للمدرسة إلا في وقت لاحق ، عبر قانون **"غوبلي" la loi**

[1] -Ibid ,p-p42-44.

[2]-رحوي بلحوسين(آسيا)، "**وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي"** ،مجلة دراسات نفسية وتربوية ،العدد السابع، مخبر تطور الممارسات النفسية والتربوية ،جامعة مولود معمري ،تيزي وزو،ص64.

« **Goblet** » ،وقد كان ذلك في 30 أكتوبر 1886 ،وطبق بفرنسا ، بينما لم يطبق في الجزائر إلا بعد تم إدراجه في قانون المالية الصادر بتاريخ 30مارس 1902،لتدخل بذلك وبشكل جدي المدرسة الجزائرية التعليم العصري [1].

أدى تطبيق القوانين المتعلقة بعلمنة القطاع التربوي إلى انحصار دور التعليم الديني في المدارس الفرنسية في الجزائر ،وقد أدى التضييق على نشاط الجمعيات المسيحية في المدارس العمومية إلى اتجاهها لفتح مدارس خاصة في بلديات عدة في الوطن ،ومع ذلك فلم تلق استجابة كبيرة من قبل المستوطنين ،فعهد خلط الدين مع العلم قد ولى مع نهاية القرن 19 ومطلع القرن العشرين ،فالثلاثون المدرسة التي فتحتها أخوات" **الرحمة المسيحية**" « **Les Sœurs de la Charité**»في مقاطعة الجزائر وفي قطاع قسنطينة كلها تقريبا أغلقت أبوابها في الفترة الممتدة ما بين 1871-1914.وبالمقابل فقد انخفض عدد المعلمات الدينيات مع مضي الوقت ،فإذا كانت نسبتهن قد قدرت ب40%من مجموع المدرسين في التعليم العام نهاية القرن 19،فإنها نسبتهن قد انخفضت إلى 13%سنة 1910،وإلى 02 % سنة1938 ففي خلال هذه السنة بلغ تعداد معلمات الجمعيات الدينية 84معملة مقابل 3793معلمة تابعة للتعليم العصري واللائيكي في مختلف المدارس التي يدرس فيها أبناء المستوطنين ،والأهالي[2]

لقد غيرت للقوانين التي أقرها "**جول فيري**" من شكل التعليم بشكل كبير،وبنت لأركان السياسة التعليمية الجديدة ،كما مثلت فاصلا للمرحلة السابقة التي ميزها انعدام وجود سياسة تعليمية تتلائم والرؤيا الأيديولوجية للمؤسسة الاستعمارية.،ومثلت سنة 1883 محطة فاصلة بين مرحلتين متباينتين من السياسة التعليمية بالجزائر،فقد حددت القوانين الصادرة سنة 1883أولويات العمل التربوي والبيداغوجي،وختمت سلسلة من المراسيم والقوانين المنظمة للشأن التربوي،لاسيما "**قانون 1881**"القاضي بمجانية التعليم و"**قانون مارس 1882**"الذي فرض إلزامية التعليم لأبناء المعمرين والأهالي على حد سواء،قانون" **أكتوبر 1886**" المتعلق

[1] - Claudine ROBERT-GUIARD,OP-CIT,P202.
[2] -Ibid,p203.

بتنظيم التعليم وإبعاده عن المجال الديني **"فرض اللائكية"**بفرنسا، فكل هذه وغيرها طبقت على الميدان بفعل قراري 13 فيفري 1883وقرار 18أكتوبر 1892[1].

وبمجرد تعيين **"جورج هاردي "« G.Hardy »** على رأس أكاديمية الجزائر العاصمة قام بتحديد توجيه مدرسي جديد من خلال عرض المشكل المدرسي في الجزائر وإبراز الفرق الواضح بين المدينة والريف في نفس الصدد ،ولذلك أدلى باقتراح مخطط تمدرس حضري هادف إلى مسح التأخر الدراسي على مدار عشر سنوات والذي لا يتم إلا في إطار خلق جهاز تكويني ريفي،والمعروف باسم **"Les Centres d'Educations rurales (CER)**

إن من بين الإجراءات الإدارية ذات البرهان الصريح على حسن الإدارة في تقدم سير التعليم عند الجزائريين هو دعوة **"هاردي"** أمام لجان المفوضيات المالية بتسجيل الإدارة لمبلغ 2500.000فرنك فرنسي في ميزانية التعليم لسنة 1937 و 50 0000.ف في ميزانية 1938 مع خضوع المراكز الريفية الحرفية لبرنامج مسطر يشمل على ما يلي : تعليم عام، يهتم بالقراءة والكتابة والحساب مع إيجاد مقاييس توفيقية بين ما هو نظري وعملي ، وتعليم عملي في الأعمال التطبيقية ،كالزراعة ،والخياطة للبنات 2.

وعلى العموم يمكن تمييز نوعان من التعليم للنظام التربوي الاستعماري في المرحلة الممتدة ما بين 1892-1948،نظام حديث يتماشى مع القوانين والمناهج المعتمدة بالميتروبول ، وهو مخصص في الغالب لأبناء المستوطنين ومفتوحا للقلة من أبناء الأهالي ،ونظام يؤسس وينظم غالبا المرحلة الابتدائية في تعليم أبناء الأهالي ،ولا يعطي لهم فرصا لإتمام تعليمهم في هذا النظام في الأطوار التعليمية اللاحقة ،ويمثل هذا النوع المدارس الخاصة بالأهالي **les « écoles spéciales algériens**،والتي تأسست بموجب **"قرار18أكتوبر 1892"**والمعدل عام 1907.وقد لاقى هذا النظام انتقادات واسعة من قبل المختصين في الشأن التربوي من الفرنسيين ،لأنه لا يحقق المساواة التامة بين الأوربيين والأهالي ،كما أنه يهدف إلى خلق يد

[1] - Kadri (Aissa),**Enseignement et enseignants dans l'Algérie coloniale** ,In colloque sur l'histoire du système d'enseignement coloniale en Algérie, tenu a l'université François Rabelais ,Tours, 20- 22juin 2006,p95.

[2]- نفادي (سميرة)،**"وضعية التعليم الجزائري في ثلاثينات القرن الماضي تشريع وواقع"**،مجلة العلوم الإسلامية والحضارة ،مجلة يصدرها المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ،العدد السادس،أكتوبر2017،وهران،ص،ص319، 320.

عاملة ذات مهارة لتلبية حاجة الاستعمار المادية ،ولا يبني في ذهن الأهلي مفهوم المواطنة والانتماء[1].وطال الانتقاد نسبة تعليم الجزائريين ،التي كانت جدّ ضعيفة مقارنة مع تعليم الأوروبيين ،ففي الوقت الذي نسبة المتعلمين الأوروبيين تتجاوز 90%في أغلب الحالات من مجموع البالغين سن الدراسة في المرحلة الابتدائية،وأكثر من 50% في المرحلة الثانوية،كانت النسبة بالنسبة للأهالي تتراوح في معظم الفترات مابين 5 %إلى 10%،من مجموع التلاميذ في كل الأطوار حيث كان عدد تلاميذ الجزائريين المسجلين في التعليم حتى 1914 حوالي 45 ألف من بين 750000 طفل كان في سن التمدرس[2]،وأقل من 15 ٪ في عام 1954 ؛ ولم ترتفع إلا قليلا نهاية حرب التحرير بعد تبني الجنرال ديغول لمشروع قسنطينة، فيما سجل التراجع التام لتدريس اللغة العربية ،التي أصبحت في آخر اهتمامات النظام التعليمي الكولونيالي ،في "المدارس" الرسمية الثلاثة ،وفي**"المدارس الثانوية الفرنسية-الإسلامية"** بعد الحرب العالمية الثانية[3]،وهو ما دفع بأحد الموظفين الفرنسيين الكبار للقول**:" لقد فرطنا في تعليم الأهالي حتى نزل إلى مستوى هو أدنى بكثير مما كان عليه قبل الاحتلال"**[4].

ومع ذلك،فإن المتبع للإحصائيات الخاصة بالطلبة الجزائريين في المدرسة الفرنسية يدرك تطورها البطيئ ويجدها تتزايد بنسب ضئيلة من سنة الأخرى، بالرغم من أن مرسوم إجبارية التعليم الصادر سنة 83 18 ،والذي تطرقنا إليه سابقا يفرض بفتح أسوار المدرسة أمام جميع التلاميذ بلا إقصاء ،ومع ذلك فقد ارتفع عدد المتمدرسين حسب الإحصائيات الرسمية عام 1890 إلى 101آلاف تلميذ أي بنسبة 1,90%من مجموع أطفال الجزائر الذين هم في سن التمدرس،ثم ارتفع سنة 1910 إلى 334 ألف تلميذ أي بمعدل 4,30% ليصل سنة 1930 إلى 680 ألف،أي بمعدل 6%.أما في المرحلة الثانوية انتقل العدد من 81 تلميذ سنوات1889-1893،ليصل سنة إلى 125تلميذ 1905،و180تلميذ 1910،وإلى 386تلميذسنة 1914.5.

[1] - Kateb (Kamel),op-cit,p59.

[2]- حلوش (عبد القادر) ،المرجع السابق،ص275.

[3] - Meynier(Gilbert), **L'Algérie et les Algériens sous le système colonial. Approche historico historio-graphique**, Insaniyat,N° 65-66, juillet - décembre 2014,p14.

[4]- الأشرف(مصطفى)،المصدر السابق،ص414.

[5]- مريوش(أحمد)،**الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية والثورة التحريرية**،أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،جامعة الجزائر،2005-2006،ص04.

والجدول التالي يوضح مقارنة بين أعداد التلاميذ الأوروبيين والأهالي في المدارس الرسمية سنتي 1920-1928.[1]

السنة	الجنسية	البنات	البنون	المجموع
1920	أهالي جزائريين	3.454	37.786	41.240
1920	أوروبيين	31.472	32.696	64.168
1928	أهالي جزائريين	3.603	51.873	55.476
1928	أوروبيين	33.655	32.820	66.475

أما بالنسبة للوسائل المادية والمالية كان الأمر تقريبا مشابها لحالة نسبة المتمدرسين،والتي كانت تفتقر لأدنى شروط المقارنة ،ففي 1908 مثلا تضاعفت القروض الخاصة بتعليم الأوروبيين في سبع سنوات من خمس ملايين ف إلى 9.923.368 ف ، في حين كانت القروض المخصصة للجزائريين في 1902 حوالي 1.389.274 ف لتصبح في 1908 حوالي 1.657.629 ف[2].أما قيمة الأموال المخصصة لتسير قطاع التعليم العام سنة 1954فقد بلغت 466م ف،منها 140مخصص لدعم التعليم الابتدائي،معظمها موجه لصالح المدارس الأوروبية

وإذا كان عدد المعلمين والأساتذة يغطي احتياجات المؤسسات التعليمية في المدن ذات الأغلبية الأوروبية ،فإنه سجل نقصا فادحا لدى المدارس التي يرتادها أغلبية الطلبة من المسلمين ،فقد سجّل في منطقة القبائل-والتي أولت إدارة الاحتلال لها نوعا من الأهمية –غلق 30 مدرسة بلدية بسبب نقص كلي للمؤطرين[3].وهذا ما يؤكد فشل المشروع التعليمي ،والذي لم يهتم لا بتكوين عدد كاف من المعلمين المسلمين ،ولا بتوفير معلمين أوروبيين يتنقلون للمناطق النائية والمعزولة لتعليم أبنا الأهالي. ذا من جانب ،أما من حيث المؤسسات والهياكل التربوية فقد سجلت نقصا كبيرا لا سيما في القرى وضواحي المدن ،التي تكثر فيها نسبة الأهالي ،فقد

[1]- محمد العربي ولد خليفة، **الاحتلال الاستيطاني للجزائر (مقارنة للتاريخ الاجتماعي والثقافي)**،منشورات تالة ،الجزائر -2010، ص 80.
[2]- حلوش (عبد القادر)،المرجع السابق،ص275.
[3] - Jeanson francis,op-cit,p177.

كان عدد المدراس لا يتجاوز المئات في أغلب القطر الجزائري،أما الثانويات فلم يتجاوز العشرات ،فقد تطور عددها بشكل بطيئ،حيث بلغ عدد الثانويات عشية الثورة 49ثانوية وكوليجا فقط،يدرس فيها 34.468تلميذ منهم 5308تلميذ أهلي من الذكور ،952من البنات[1] .

فمن بين الثانويات التي افتتحت سنوات (1870-1945)،في مقاطعة الجزائر كمثال،نذكر:

- **ثانوية الذكور" بيجو"**،والتي ظهرت في 1836/10/10م باسم إعدادية الذكور، كانت تقدم دروسا في العربية من طرف" **لويس بريزني**" ، « **Bresnier** »وتحولت هذه الإعدادية إلى ثانوية في أكتوبر 1848م، باسم ثانوية بيجو سنة 1857م ، إذ كانت تابعة لوزارة الحرب إلى غاية سنة 1871م ،حيث تحولت إلى ثانوية الجزائر، وأشرف على تسييرها في البداية" **نيقولا بيرون**"« **Nicolas perron** »من 1857 إلى 1863م ، وطاقمها كان يتكون من ثلاثة أساتذة من الأوروبيين ،وهم:(**أوغست فرانسوا ماكويل، جاك ليرون، وأوجين فايسات**)، وأنشئ بها قسم العربية سنة 1863م كان يشرف عليه إلى غاية 1867م ، "**أوكتاف هوداس**".

-**ثانوية البنات لمدينة الجزائر**،دشنت سنة 1903م وأخذت سنة 1941م اسم ثانوية "**ديكارت** " وبعد الاستقلال سميت باسم" **ثانوية عمر راسم**"، أشرفت على إدارتها كل **Jeanne** « **Desrayaux**»سنة 1911،و"**حليمة عابد**" 1929،السيدة" **ديران**"1941وغيرهن .

-**الثانوية الفرنسية الإسلامية للبنات بمدينة الجزائر**،تأسست سنة في وقت متأخر ،وذلك سنة 1956في مكان "**مدرسة الجزائر**" « **Medersa d'Alger** »ثم تحولت إلى القبة، وهي " **حسبية بن بوعلي**"، أشرفت على إدارتها عام 1960م ، حليمة بن عابد زوجة عاشور.

- مدرسة تكوين المعلمين بمقاطعة الجزائر (Ecole normale d'instituteurs du département d'Alger)، تم افتتاحها سنة 1856م ، مع ملحقة تطبيقية لا تضم سوى أقسام فرنسية ، ضمت الدفعة الأولى في السنة الأولى،10 طلبة منهم7أوروبيون و ثلاثة مسلمين، ومنذ سنة 1882م ،تم تخصيص حصص لتكوين معلمين من الأهالي، بعد خضوعهم

[1] - Jeanson francis,op-cit,p177.

المسابقة خاصة إلى غاية سنة1928م ، وبعد حدوث إنزلاق أرضي، حولت المدرسة في سنة 1888م إلى بوزريعة ، والدراسة كانت تم فيها في ثلاث سنوات ، وفي سنة 1891م ، أضيفت السنة الرابعة التكوين معلمين في الفرنسية لتدريس الأهالي[1].

والجدول التالي يوضح تطور أعداد الثانويين من أوروبيين وأهالي مابين1924-1938[2]

السنة	1924	1924	1928	1928	1934	1934	1938	1938	
الجنسية	الأوروبيين	الأهالي	الأوروبيين	الأهالي	أوروبيون	أهالي	أوروبيون	أهالي	
الأولاد	4860	0535	4587	0642	7316	0778	8952	0923	
البنات	1814	0060	1833	0048	3533	0085	4277	0068	
المجموع	6674	0595	6420	690	10849	0863	13229	00991	

وفي الأخير، فمنذ ما سمي بعهد إصلاح المدارس العربية الفرنسية (1895)ثم إصلاحات الوالي العام جونار(1903 – 1912) في التعليم عموما، أصبح على الجزائريين أن يدرسوا هم اللغة الفرنسية لغة السادة، ولم يعد الأوربيون مطالبين بدراسة العربية لا باسم تسهيل الاختلاط بالأهالي ولا باسم المعرفة الثقافية للتراث العربي لأن المستوطنين الأوروبيين كانوا في الجملة يحتقرون هذا التراث ولا يعترفون به،ولا باسم الحاجة إلى الترجمة لأن قسم الاستشراق في كلية الآداب وخريجي المدارس الحكومية الثلاث المشار إليها أصبحوا يمدون الإدارة بما تحتاجه من ذلك.أما المستوطنون في الجزائر فقد كان لسان حالهم ما قاله ماشويل:**"ليس علينا نحن المنتصرين تعلم العربية،بل الواجب على الأهالي تعلم لغتنا"**3.

وإلى غاية 1930 ،وبعد مائة سنة من الوجود الاستعماري ،لم يعد تعلم اللغة العربية ذا أهمية ايديولوجية أو ثقافية بالنسبة للسياسة التعليمية الفرنسية بالجزائر ،ولا حتى بالنسبة لأوروبي الجزائر ،فالواقع اللغوي أثبت بلا شك عن قوة انتشار لغة المحتل ،وتراجع الرهيب للغات واللهجات المحلية[4]، كما أن ظهور المدرسة المستنيرة (1880-1914) ،أدت إلى بروز نوع

[1]- لعرج (الشيخ)،**"المؤسسات التعليمية الاستعمارية في الجزائر ومسألة تعليم الجزائريين(1830-1962)"**،مجلة العلوم الانسانية ، المجلد الثامن،العدد الأول، جامعة أحمد بن بلة ،وهران1،ص-ص96-98

[2]-تركي(رابح)، **التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931-1956**، الشركة الوطنية للشر والتوزيع، الجزائر- 1975 ، ص148.

[3]-أبوالقاسم سعد الله ،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،المرجع السابق،ص42.

[4] - Henriette (Walter), **Les français dans tous les sens :grandes et petites histoires de notre langage** ,ed Robert Laffont,Paris-2008,p,p229,230.

جديد من الطلبة الجزائريين الذين استفادوا من مرحلة التهدئة التي عرفتها الولاية العامة في الجزائر على يد بعض الحكام العامين أمثال **"لويس تيرمان"** (1881-1891) و**"جول كامبون"**(1891–1897) و**"شارل جونار"** (1903 1913).

ومهما يكن فقد انعكس التعليم الجيد بالإيجاب على أبناء المعمرين ،فقد جاءت نتائج البكالوريا في سنوات عدة مقبولة ومشجعة إلى حد كبير على المستوطنين عكس أبناء الأهالي الذين كثيرا ماخذلتهم الظروف ولم يكمل أغلبيتهم الدراسة الثانوية ، فإذا أخذنا كمثال نتائج دورة جوان للسنة الدراسية 1907-1908فإننا نجد بأن نسبة الناجحين في شهادة البكالوريا لأقسام علوم -اللغات الحية ب37% ،وهي نتيجة جد مرضية مقارنة بالتي سجلت في السنة الدراسية التي سبقتها ،حيث لم يتجاوز عدد الناجحين في هذا الفرع 22% .غير أن أكبر نسبة حققت كانت لشعبة الرياضيات فقد بلغ عدد الناجحين في دورة أكتوبر 1907ب68%[1].

نجح المستوطنون بتأثيرهم القوي على إدارة الاحتلال بعرقلة تعليم الأهالي بانتشار الأمية في وسط الأهالي وفي تجهيل السواد الأعظم من الجزائريين ،ولكن رغما عن كل محاولاتهم لمنع تعلّم الأهالي إلاان المدرسة الفرنسية أنجبت نخبة من أبناء الأهالي بوجه جديد ،له فلسفة جديدة وناقدة في التاريخ والمجتمع والدين ،ويحسن أداء اللغة الفرنسية ،ويفكر في أوضاع الجزائر ، على الرغم ماقيل فيه ،وعلى رغم حجم الاتهامات التي كيلت له من كونه مفرنس وموالي لفرنسا ،ومن بين هؤلاء نذكر **(حميدة بن باديس ومحمد بن رحال ومحمد بن العربي، محمد بن أبي شنب، عبد القادر المجاوي، حمدان لونيسي، صالح بن مهنا، المولود بن الموهوب والطيب بن وادفل، عبد الكريم باشتارزي...)**، ورغم ثقافتهم المزدوجة ،إلا أن الكثير منهم أبدى تشبثه بالعقيدة الإسلامية ،مماجعلهم يتصدرون أصحاب العرائض وتقديم المطالب ما مثّل شوكة في حلق فرنسا، ولعل ذلك ما صرح به الحاكم العام لويس تيرمان بقوله:**"إن أعداء فرنسا ليس هم العرب ساكني الخيام ،بل الذين علمناهم لغتنا،ورفعناهم إلى درجتنا"**[2].

2-التعليم الجامعي

[1]- خلوفي (بغداد) المرجع السابق،ص170.
[2]-مريوش (أحمد)،المرجع السابق،ص16، 17.

لقد حظي التعليم العالي بالجزائر باهتمام سلطات الاحتلال ،خاصة مع بداية القرن العشرين ،إلا أن هذا النوع من التعليم كان لصالح الفرنسيين والأوروبيين ،ولم ينل منه الجزائريون الأهالي إلا حظا يسيرا.

في بدايات الاحتلال كان المستوطنون يرسلون أبنائهم إلى فرنسا لاستكمال دراستهم الجامعية ،لأن الجزائر لم تشهد بعد ظهور النواة الأولى للتعليم العالي إلا في سنة 1857،ثم تطوّر الاهتمام بهذا التعليم ،حتى إنشاء جامعة الجزائر سنة 1909 ،والتي ظلت الوحيدة في شمال إفريقيا حتى نهاية الاستقلال[1].لكن ،**متى بدأ اهتمام السلطات الاستعمارية بالتعليم العالي في الجزائر؟وما مدى استفادة الأهالي الجزائريين منه؟وهل هو فعلا جاء لتطوير المجتمع الأهلي ،أم الغاية الفعلية منه خلق انتلجانسيا مفرنسة تساند الطرح الفرنسي في الإدماج ؟.**

أ- نشأة جامعة الجزائر وتطور التعليم العالي 1870-1945

-البدايات الأولى للتعليم الجامعي في الجزائر

ترجع البوادر الأولى للحركة التعليمية في الطور الجامعي إلى سنة 1857،حينما أصدرت وزارة التعليم العالي الفرنسية مرسوما 04أوت 1857والقاضي بتأسيس مدرسة تحضيرية في الطب والصيدلة ،وذلك يعود كما ذكرنا سلفا للحاجة الملحة للكادر الطبي لتغطية العجز في مجال الأطبّاء والممرضات ،بل يذهب العديد من المؤرخين في الاعتقاد بأن الإرهاصات الأولى للتعليم العالي تعود لفجر الاحتلال الفرنسي عندما بدأ الطبيب الرئيسي للجيش الفرنسي **"ستيفانو بولي"** بإلقاء أولى محاضراته حول الفيزيولوجيا في حديقة الداي ببوزريعة أمام حوالي 30 طالبا من ممارسي مهنة الطب،وتبعه الجراح بودان (الجراح الرئيسي للجيش الفرنسي)بإلقاء محاضراته في علم التشريح الوصفي،وقد مثلت هذه الإشارات الأولية عن الحاجة الماسة للجيش لتأهيل ممارسي الطب لصالحه[2].

ومهما يكن ،فإن مختلف التجارب الأولى للتعليم العالي وخاصة الترجمة والطب قد بدأت على مستوى الجيش ، الذي زاد اهتمامه بالمعرفة والعلوم والطب واستكشاف المناطق الواسعة

[1]-خلوفي(بغداد)،**"التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية"** ، مجلة المواقف للبحوث والدارسات في المجتمع والتاريخ،العدد ،جامعة معسكر ،10ديسمبر ، 2015،ص167.

[2]-العكروت(خميلي)،**جامعة الجزائر بين الأهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين (الجزائريين)1909-1956**،مذكرة ماجيستير في التاريخ المعاصر،قسم التاريخ ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ،جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة،2008-2009،ص30.

للبلاد،ولأجل ذلك استعان بجيش من العلماء والأكاديميين المتخصصين ،وفي هذا المجال صرّح البارون **"بندرون"**« **Bendron** » يوم 23جانفي 1833:"**إن إنشاء مدرسة للطب ليس فقط حدث هام لضباط الصحة ،لكنه أيضا بداية علمية تعد بمثابة الشعلة للأجيال العلمية القادمة"**.غير أن الأمر لم يبدو بتلك السهولة المنتظرة ،بسبب التزام الطلبة العسكريين بالأمورالحربية،وكادت أن تذهب الجهود التي بذلها أصحابها أدراج الرياح، ولحسن الحظ صدر "**قانون04أوت 1857**"،الذي اعتبر أرضية حقيقة لإنشاء مؤسسة للتعليم العالي في شكل مدرسة تحضيرية للطب ،جعلتها المادة الخامسة منه تحت وصاية كلية الطب والمدرسة العليا للصيدلة في مونبولي[1].

غير أن ذلك لم يكن كافيا لتلبية حاجة ومتطلبات المستوطنين لجامعة لمواصلة أبنائهم للتعليم العالي في الجزائر ، وعدم إرسال أبنائهم للجامعات الفرنسية ،لاعتبارات عدة كالبعد الجغرافي ،وتكاليف الدراسة المرتفعة ..وغيرها،ولذا لما أصبح عدد الناجحين في شهادة البكالوريا في ازدياد ،وأمام الانفتاح الذي عرفته المستعمرة على الآداب والعلوم والأبحاث المختلفة ،صدر قانون**" 20 ديسمبر 1879**"،الذي نص على إنشاء ثلاث مدارس عليا للتعليم الجامعي (مدرسة الآداب،مدرسة الحقوق،مدرسة العلوم)[2].

-قانون 20ديسمبر 1897ودوره في تنظيم التعليم الجامعي: إن الحماس العلمي المرتبط بالأهداف الاستعمارية ،ونجاح مدرسة الطب ،وكذا تعاظم الاستيطان الأوروبي في عهد الجمهورية الثالثة ،وازدياد الحاجة لمعرفة الجزائر جعلت مسألة التعليم العالي مسألة تتجدد للنقاش مرة أخرى ،والذي انتهى بمشروع **"باردو"** في 08فيفري 1878،والمؤيد بتقرير السيد" **دوروس"** 05جويلية 1879وبتقريري **"بول بار"**،الأول في 12ديسمبر 1877،والثاني 05جويلية 1878،والذي كان له دورا في ظهور التعليم العالي[3].

والحق فقد لعب" **بول بار"** دورا كبيرا في إقناع الحكومة الفرنسية والغرفة البرلمانية بأهمية وضرورة خلق التعليم العالي في الجزائر تستجيب لمتطلبات الاستيطان وتراعي الحاجات العلمية للمستوطنين ،حيث تحجج بعدة أطروحات كلها كانت تمحور حول ضعف

[1]-المرجع نفسه،ص،ص31، 32.
[2]-خلوفي (بغداد)،المرجع السابق،ص167.
[3]- العكروت(خميلي)،المرجع السابق،ص34.

نوعية التعليم في المدارس التي تختلف عن نوعية التعليم العالي بفرنسا في النوعية والهياكل والتجهيزات،كما طالب بشدة بإنشاء مدارس مكملة لمدرسة الطب ،ومدارس أخرى في مجالات عدة .وقد جاء في أحد التقارير تصريحه بما يلي:"**يحتاج هذا البلد إلى صناعة والأشغال الكبرى وبالإنجازات لصالح المعمرين ،الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بشعب غريبة عنه ،ومختلفة عنه في العادات والتقاليد والتنظيمات السياسية ،والمشهورة بعصبيتها الدينية ،وبعدائها لنا**".وأضاف قائلا:"**نفهم جيدا مدى أهمية خلق مؤسسة جامعية لتطبيق تلك المعارف في مجالات الزراعة ،والتعدين،الطوبوغرافيا ،التاريخ المحلي، لغات الأهالي .. **"،مضيفا:"**يجب على كلية الآداب أن تقدم الدروس في التاريخ و الآثار الجزائرية،واللغات واللهجات المحلية في كلية العلوم يجب أن يضاف مقعد لتاريخ العلوم يطبق الإحصائيات الجزائري.كما يجب تكيف كلية الحقوق لتستجيب للحاجيات المحلية بخلق مقعد للتشريع)** [1].

وفي 20ديسمبر 1879ظهر قانون التعليم العالي مكونا من 09مواد، أهمها:

-المادة الأولى :إنشاء المدارس التحضيرية العليا في العلوم،والآداب ،والحقوق.

-المادة الثانية:تحديد المواد وبرامج التدريس ،ففي مجال الحقوق اشترط نيل البكالوريا ،أما المواد المقررة فهي القانون التجاري، القانون الإداري،النظم الأهلية،وفي العلوم قررت الرياضيات ،الفيزياء ،العلوم ،والتطبيقات على الزراعة والصناعة والإحصاء،أما في الآداب فقد تضمنت الآداب الفرنسية ،وآداب البلدان المتوسطية والآداب الكلاسيكية،اللغة العربية ، اللهجات الجزائرية ،التاريخ والجغرافيا والآثار.

-المادة الثالثة:إبراز الصفة القانونية للمدرسة التحضيرية للطب والصيدلة.

-المادة الرابعة:تمنح مدرسة الحقوق البكالوريا في الحقوق ،وشهادة الأهلية في الحقوق وشهادة خاصة في الحقوق الإدارية والنظم الأهلية،كما تمنح بمدرسة الآداب والعلوم أهليات خاصة .

-المادة الخامسة:اشتراط شهادة الدكتوراه للتعليم في كلية الآداب و الحقوق[2].

-المدارس المتخصصة خطوة نحو قيام جامعة حديثة بالجزائر

[1]- المرجع نفسه،ص،ص34،35 .

[2]- العكروت (خميلي)،المرجع السابق،ص،ص38، 39.

انبثق عن قانون" **20 ديسمبر 1879**" ثلاث مدراس يمكن من خلالها أن يستكمل الطالب تعليمه ،مدرسة الآداب،ومدرسة للحقوق ،ومدرسة للعلوم ،إضافة لمدرسة الطب السالفة الذكر ،والتي ظهرت في عام 1857.ومهما كان الإنجاز يبدو في الظاهر عملا ذا قيمة،إلا أنه يوضح من جهة معاكسة تردد الجهات الوصية في الإسراع في الإرساء لتعليم كامل وحقيقي ، ومع ذلك فقد عملت على تخريج من العشرات من الطلبة سنويا.

-مدرسة الحقوق: بلغ عدد الطلبة المسجلين في مدرسة الحقوق في السنة الجامعية 1887-1888ب669 طالب ،تحصل منهم 25طالب الامتحان الأول في الحقوق الإدارية وأعراف الأهالي ، و51منهم تحصل على المستوى الثاني من الاختبار في نفس التخصص ،لكن مايحسب لهذه المدرسة،فضلا عنى كونها تخرج العشرات من حاملي الليسانس وإجازات المحاماة ، والقضاة، أنها كانت تنتج أحسن الرسائل والأطروحات الجامعية ،والتي تخصصت معظمها في دراسة الأعراف الأهلية والشريعة الاسلامية ،وتكييف القانون الفرنسي من الحالة الجزائرية ،من بين الأعمال الأكاديمية التي أنجزها الطلبة المستوطنون ،نذكر « Etude sur le décret 10 septembre1886,relatif a l'organisation de la justice musulmane» للطالب M.Leclerc أخرى بعنوان« la naturalisation des indigènes musulmans» للأستاذ[1] M.Hamel.

-المدرسة التحضيرية للطب والصيدلة: ضمت 12اختصاصا من بينها التشريح ،الفيزيولوجيا،الطب الداخلي،الطب الشرعي ، وخلال السنة الجامعية 1886-1887بلغ عدد المسجلين في هذه الكلية 279طالبا تم قبول 76طالب موزعون على الشكل الآتي:

-الطلبة المسجلون في الدكتوراه عددهم 94،تم قبول 25طالب.

-الطلبة المسجلون في التمريض 60طالبا تم قبول 17

-الطلبة المسجلون في الصيدلة الدرجة الأولى عددهم 18نقبل منهم 6

-المسجلون في الصيدلة الدرجة الثانية بلغ عددهم 106قبل منهم 28.[2]

[1] - Université de France, Académie d'Alger , **Situation de l'enseignement publique en Algérie pendant de l'année scolaire1886-1887**,Adolphe Jourdan ,Librairie de l'Académie ,Alger,1887,p,p06,07.

[2] -Ibid,p08.

-مدرسة العلوم ضمت عدة تخصصات ،وهي: العلوم الرياضية،والتي كان يدرس فيها التحليل الرياضي،الميكانيك،الفلك،وتخصص العلوم الفيزيائية،وكان يدرس فيها الفيزياء ،الكيمياء، ، وتخصص الطبيعة،ويدرس فيه علم الحيوانات والنباتات ،الجيولوجيا ،علم المعادن [1].

والجدول التالي يبين تطور أعدد الطلبة الأوروبيين في مدرسة العلوم بين 1879-1930[2]

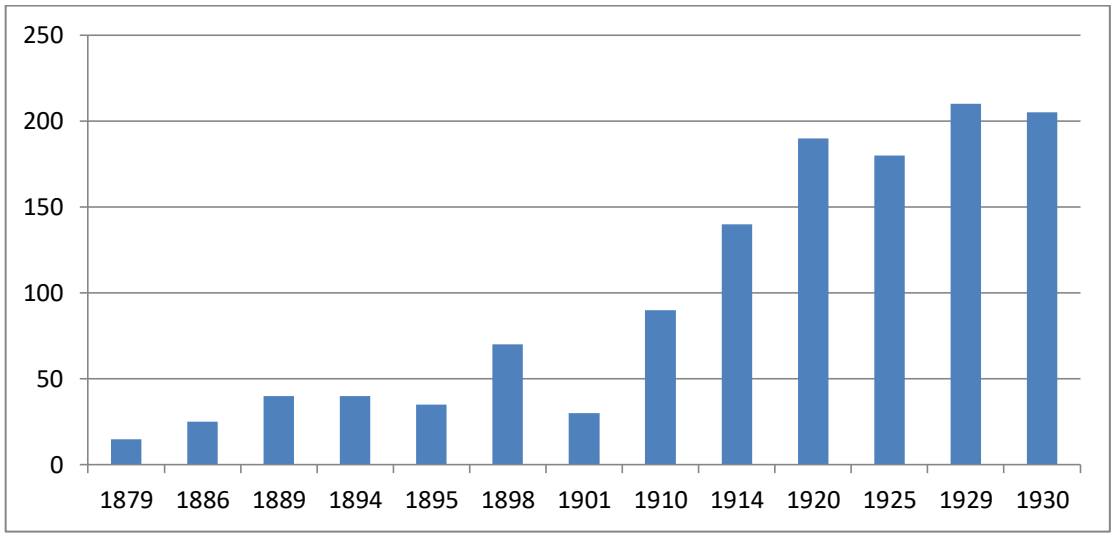

-مدرسة الآداب : كان يتواجد في مدرسة الآداب في الواقع جزءان من التخصصات،قسم يطابق لكليات الآداب الموجودة بفرنسا،وجزء مشابه لمدراس اللغات الشرقية ،فقد كان يدرس فيها الفلسفة والتاريخ وتاريخ شعوب الشرق ،والحضارة الإسلامية، والآداب الفرنسية واللغات القديمة[3] وفي الموسم الجامعي 1886-1887أضيف تخصص وهو الأدب المصري إلى التخصصات الأخرى التي كانت موجودة[4].وتمنح المدرسة دبلوم الليسانس في الآداب بعد إجراء الامتحانات النهائية بفرنسا،كما تمنح دبلومات كفاءة في العربية والقبائلية [5].

ب-تأسيس جامعة الجزائر وتطورها 1909 - 1962 كانت المدارس الأربع هي نواة جامعة الجزائر التي أعلن عنها رسميا سنة 1909 بعد تحويل المدارس العليا المذكورة إلى كليات6،و بعد مرور ثلاثين سنة على إنشاء المدارس العليا للتعليم العالي بالجزائر، قررت السلطات الفرنسية تحويل هذه المدارس إلى كليات تحت اسم جامعة الجزائر، وذلك بموجب قانون

[1] -Ibid ,p12.
[2] -Soulu (fréderic), **dévelopement de l'astronomie française en Algérie entre 1830-1938,** Thèse de Doctorat en Astronomie Soutenue au Centre François Viète de l'Université de Nantes le mercredi 14 décembre 2016,p413.
[3]- خلوفي (بغداد)،المرجع السابق،ص169.
[4]- Université de France, Académie d'Alger ,op-cit, p14.
[5]- خلوفي (بغداد)،المرجع السابق،ص169.
[6]- سعد الله (أبو القاسم) ،**أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**،ج4،ص40.

صادر في" **30 ديسمبر1909**"وقد أصبحت الكليات بموجب هذا التغيير تمنح دبلومات جامعية في مختلف التخصصات دون حاجة الطلبة إلى التنقل إلى فرنسا لإجراء الامتحانات النهائية كما رأينا سابقا، بل أصبحت جامعة الجزائر مثل نظيراتها الجامعات الفرنسية من حيث البرامج والتخصصات والشهادات الممنوحة مع بعض الخصوصية بالنسبة لبعض التخصصات ذات الصلة بالبلاد الجزائرية والمجتمع الجزائري ،مثل تخصصات التشريعات الجزائرية والحقوق الإسلامية بالنسبة لكلية الحقوق، وأمراض شمال إفريقيا وخاصة الحمى وأمراض البلدان الحارة بالنسبة لكلية الطب وغيرها من التخصصات في الكليات المتبقية 1.

وفي الواقع ،لم يكن تأسيس جامعة الجزائر سنة 1909، سوى قناة لتسليط أنوار الثقافة الفرنسية على سكان الجزائر ،وبالتالي فقد كانت جامعة الجزائر ،بمقتضى وظيفتها أداة من أدوات الاستعمار ،وظلت لأمد طويلا قلعة من قلاع العنصرية في نظر الطلبة المسلمين [2]

ج- تطور أعداد الطلبة والعلاقة بين الطلبة المستوطنين والأهالي الجزائريين

لم يكن الالتحاق بالتعليم العالي وبجامعة الجزائر وكلياتها متاحا للجميع ،سواء أكانوا من المستوطنين أو من الأهالي ،وسواء أكانوا من الذكور أو البنات ،وكان كذلك حتى الحرب العالمية الأولى على الأقل،وذلك لاعتبارات عدة لحداثة التعليم عموما والتعليم العالي بالخصوص على الجزائريين الأهالي والمستوطنين ،وسياسة الإقصاء التي حرمت الكثير من أبناء الأهالي من الالتحاق بالجامعة.

كان تطور أعداد الطلبة قليلا ،الذي لم يتجاوز المئات في جميع التخصصات ،ففي كلية الطب والصيدلة بلغ عدد الطلبة عام 1860ثمانة وعشرون طالبا ،ليرتفع إلى 113 سنة1904 . والجدول التالي يوضح لنا ذلك[3]:

السنة الجامعية	عدد الطلبة	السنة الجامعية	عدد الطلبة
1860	28	1892	105
1886	33	1893	118
1887	72	1894	137

[1]- خلوفي(بغداد)،المرجع السابق،171.
[2]- برفيلي (غي) ،**النخبة الجزائرية الفرانكوفونية 1880-1962**،ترجمة م.حاج مسعود وآخرون،دار القصبة للنشر ،الجزائر-2007،ص93.
[3]- خلوفي (بغداد)، المرجع السابق،ص170.

1888	76	1895	179
1889	63	1896	176
1890	92	1904	113

أما بالنسبة لطلبة الحقوق فقد شهدت هي المدرسة تطورا ملحوظا أكثر من مدرسة الطب بالرغم من أن الأخير أسبق منها بعشرين سنة ،وإذا كان عدد طلبتها سنة افتتاحها بحوالي 20طالبا ،فقد بلغ تعدادهم سنة 1904ب328.والجدول يوضح لنا تطورهم خلال 35 سنة [1]:

السنة الجامعية	عدد الطلبة	السنة الجامعية	عدد الطلبة
1879	80	1889	156
1882	101	1892	129
1883	186	1893	233
1884	186	1894	242

بلغ عدد الطلبة المعمرين المسجلين في قسم الحقوق للموسم الجامعي 1907-1908،293 طالبا بزيادة 35 طالبا عن الموسم الجامعي السابق .أما في مجال الطب فقد بلغ عدد الطلبة المسجلون 157بينهم 107طالبا في اختصاص الطب و23في اختصاص الصيدلة و27طالبة في اختصاص التوليد(قابلة).وارتفع عدد طلبة الطب ب20 مسجل جديد ،أما في ميدان الصيدلة فقد لوحظ زيادة قليلة ب ثلاثة طلبة جدد مقارنة بالعام الجامعي الماضي .أما في اختصاص العلوم فقد قدرت أعداد الطلبة ب28 طالبا[2].

في حين ارتفع تعداد طلبة الآداب من 141طالبا سنة 1895إلى 334طالبا سنة 1904. وعلى العموم فإن مجموع الطلبة الإجمالي في المدارس،فقد ارتفع عددهم من 616سنة 1895إلى 910طالبا سنة1904. وبعد الحرب الكونية الثانية وحتى سنة 1954يمكن أن نقدر نسبة الطلبة الأوروبيين في جامعة الجزائر ،وبكل فروعها نسبة 89.6،بينما قدرت نسبة عدد الأهالي

[1]-المرجع نفسه،ص170.

[2] - Rapport de .M le recteur de L'Académie d'Alger ,**Situation de L'enseignement pendant l'année scolaire 1907-1908**, Gouvernement Général de L'Algérie Instruction publique , Imprimerie Administrative Victor Heinz-Alger,1909,p07.

المسلمين سوى 11.4من مجموع الطلبة [1]،وهو ما يمثل استمرار لعملية الإقصاء والتهميش المقصود لتعليم الأهالي ،وفشلا ذريعا لكل النداءات التي تعالت بتحقيق المساواة .

والجدول التالي يبين لنا حجم الإقصاء الذي تعرض له الطالب المسلم من خلال توزيع أعداد الطلبة الأوروبيين والأهالي المسلمين حسب كل تخصص جامعي (نوفمبر1954)[2]

الكلية	مجموع الطلبة	أوروبيين	أهالي	أجانب	من الاتحاد الفرنسي
الحقوق	1.713	1.528	179	5	1
الطب	824	714	110	-	-
الصيدلة	427	369	34	1	23
الآداب	1.347	1.175	172	-	-
العلوم	835	762	62	11	-
المجموع العام	5.146	4.548	557	17	24

كان ذلك النزوع إلى التمييز بين الطلبة ذوي الأصول الأوروبية والفرنسية والطلبة المسلمين واقعا معاشا ،فقد نددت صحيفة« **Alger estudiantin** » بانعدام الروح الجماعية التي يمكن أن توحد جميع الطلبة في الجامعة ،وكتبت:"**أن التشتت واللامبالاة والمواقف السلبية والأفكار الطائفية ،والتقسيمات المتعددة الأشكال،سواء منها العرقية أو الاجتماعية ،حالت دون استتباب حياة اجتماعية حقيقة بين الطلاب** "

من مفارقات الأمور أن يكون المشروع الذي وضعته جامعة الجزائر لتحقيق الإدماج هو المتسبب في فشل عملية اندماج الطلبة المسلمين في الوسط الأوروبي ،وذلك لأن جامعة الجزائر ظلت شبيهة بجامعات المدن الداخلية الفرنسية توهم فيها طلبتها ذوي الأصول الأوروبية أن الأغلبية الساحقة التي ينبغي للطالب المسلم أن يتماهى ويتأقلم في أفكارها،ولم يكن هؤلاء يرضون إلا بالطالب الذي يسلك سلوك الفرنسيين ويتصرف تصرفاتهم[3].

بالرغم من الإجحاف الكبير في تعليم الأهالي في مختلف الأطوار الدراسية ،فإنه لم يمنع من ظهور فئة أهلية متعلمة ،ومثقفة بالثقافة الفرنسية،ومتشبعة بالحضارة الغربية إلى النخاع ،

[1]- برفيلي(غي)،المرجع السابق،ص33.

[2] -Jeanson francis,op-cit,p178.

[3]- برفيلي(غي)،المرجع السابق ،ص98.

والحق أن ظهور هذه الفئة قد أثلج صدر المتفائلين الذين اعتقدوا بقدرة العبقرية الفرنسية بتحقيق الإدماج ،ووضعوا ثقتهم في تلك النخبة لتكون واسطة بين الشعبين "**الأوروبي الفرنسي-الأهلي**".وقد تابع "**جول فيري**"بارتياح ظاهر بروز الطلائع الأولى من "حزب شباني"ممن تلقوا تعليما فرنسيا كتيار معارض "**للعمائم القديمة** "،وهو ما عبرت عنه صحيفة "**الوقت**"،سنة 1904،بقولها:"**إن وجود طبقة من الأهالي ميسورة الحال ماديا ومتعلمة ومثقفة لهي ضرورة ملحة بالنسبة إلينا لكي يسود بين الطائفتين تقارب جماعي..**"،وفي نسف السياق عبر الحاكم جونار :"**من مصلحتنا الملحة تشكيل نخبة مثقفة تكون قادرة على نشر مبادئنا وقيمنا في العدالة والرقي ..**"،ومن جهته اعتبر موريس فيوليت أن فئة الطلبة هي أفضل عامل لإرساء النفوذ الفرنسي في المجتمع الأهلي[1].

كما أن حصيلة الشهادات المسلمة للطلبة الأهالي في المدارس العليا في الفترة الممتدة من 1880م إلى 1909م ثم في الكليات من 1910م إلى 1915م تكشف عن سيطرة مطلقة للدراسات الأدبية، بمجموع الثلثين من الحصيلة العامة، ثم تليها الدراسات القانونية ثم العلمية، وأخيرا الدراسات الطبية .ومرد ذلك إلى طبيعة الشهادات الأهلية الممنوحة لخريجي المدارس الفرنسية العربية أو للموظفين من الأهالي كالمعلمين والقضاة والمترجمين الأهليين الراغبين في مواصلة مسارهم الدراسي والذين كانوا غالبا ما يواصلون دراستهم الأدبية لانعدام أي صلة تربطهم بالتكوين العلمي القاعدي، وكذلك بالنسبة للمعارف التقنية، رغم إلزامهم بتعلم بعض الحرف كما هو الحال في مدرسة المعلمين

ظلت كلية الآداب الأكثر استقطابا للطلبة المسلمين في سنوات 1915-1939 واحتل اختصاص الحقوق المرتبة الثانية، قبل أن ينافس اختصاص الآداب على المرتبة الأولى بدءا من سنة 1950م .أما دراسات (الطب - الصيدلة- طب الأسنان) فقد حلت في المرتبة الثالثة بدل العلوم فى الفترة 1937-1938م، ثم قفزت إلى المرتبة الثانية بدل الحقوق سنة 1938–1939م ثم اعتلت المرتبة الأولي بدل الآداب في الموسم 1940–1941م، وذلك أن ظروف

[1]-نفسه ،ص119.

الحرب أملت هذا التدفق من قبل الطلبة المسلمين على كلية الطب بعد أن ترك الكثير من الطلبة الفرنسيين والأطباء الكلية بسبب تجنيدهم 1.

انفرد المستوطنون الأوروبيون المتخرجون من الجامعة بأفضل الوظائف وأرقاها ، ومكنتهم جنسيتهم وتمتعهم بكامل الحقوق من الولوج إلى أحسن التخصصات والهيمنة عليها كالطب ،والعلوم ،وفي العمل في المسئوليات الكبيرة .في حين كان الطلبة المسلمون يجدون أنفسهم مجبرون على الالتحاق بالمهن الحرة ،ما دام أفق هذه المهن الحكومية العليا مسدودا عليهم، وبذلك يختارون من المهن تلك المستقلة عن الإدارة أو عن أرباب العمل الفرنسيين ، وهذا ما تفسره الإحصائيات التي قدمها أجيرون ،فمن بين 1000 من الذين حصلوا على الشهادات حتى سنة 1954 نجد أن اغلبهم يمارسون المهن الحرة. يتوزعون كما يلي: 354 يشتغلون في سلك القضاة ،و165 طبيبا، و350 في الوظائف العمومية منهم 185 أستاذ ثانوي وحوالي مئة ضابط و30 موظفا في الفروع التقنية.

إن انعدام المساواة فيما يتعلق بتقلد الوظائف، وأشكال القمع القانوني، منها قانون الأهالي، والممارسات المعزولة لأفراد من المعمرين المسيطرين على مقدرات البلاد وكذلك انحرافات الإدارة، كلها لم تترك مجالا للارتقاء الوظيفي بالنسبة للنخبة من أصحاب الشهادات من المسلمين، ما عدا تلك التي كانت الإدارة لا تمانع في تولي الأهالي لبعضها أو لا يمكنها الاستغناء عنهم فيها، أو تراهن على جدواها في تحقيق سياستها مثل التعليم والطب والصيدلة والقضاء الإسلامي2. وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية،لم يكن كل الطلبة في نفس التقسيم الثنائي"وطنيين أو إدماجيين" توجه إيديولوجي واحد ومتشابه ،فقد عبّر محمد حربي عن ذلك بقوله:" **كان الطلبة قد انقسموا إلى اتجاهين، اتجاه العروبيين الإسلاميين بقيادة عبد السلام بلعيد الرافض للهيمنة الشيوعية ،وأتباع الاتحاد الوطني المعارض للصيغة الإسلامية للتنظيم ،وهؤلاء بدورهم ينقسمون إيديولوجيا إلى اتجاهات منهم ذوي الميول التعددية الفكرية أمثال**

[1]- العكروت(خميلي)،المرجع السابق،ص101.
[2]- المرجع نفسه،ص،ص103،104 .

محمد أركون ، عبد الكريم شيتور و حسن عزيز والوطنيين التقدميين أمثال صالح خلاف ، محمد حربي ، الشيوعيين المعارضين لإدخال الرموز الدينية في الحياة الطلابية"[1].

3-الأبحاث الجامعية والدراسات الأكاديمية الاستعمارية حول الجزائريين المسلمين

أ- الدراسات التاريخية

-المدرسة التاريخية الكولونيالية

لقد وضع التاريخ ،مثل الإثنولوجيا،علم الاجتماع ،الأنثروبولوجيا ...وغيرها من العلوم الأخرى في خدمة الأجندة الاستعمارية ،التي تجنّد للدفاع عنها طيف واسع من الأساتذة الباحثين والأكاديميين وحتى العسكريين ،وقد وظفت تلك العلوم أيما توظيف،وبشكل ملائم ومتجانس مع ما يخدم استراتيجية المحتل ورغبة المستعمر في الدفاع عن الأطروحة القائلة بشرعية المحتل في الأرض ،وبوصايته على الأهلي.

إن الشهادات والوثائق التاريخية والمخطوطات التاريخية تدل على أهمية المعرفة التاريخية لدى المستعمر ،التي بحث عنها العسكريون وأساتذة الجامعة من الفرنسيين والمستوطنين لتعزيز وجودهم في الجزائر،ومن خلال هذه المعرفة تمكنت الدراسات الكولونيالية ذات الطابع التاريخي والإثنوغرافي للجزائر في التطور.إذ مهما كانت تلك الدراسات تتميز بالوصف الإثنوغرافي ذي البعد الأنثروبولوجي الاستعماري ،فهي قبل كل شيء تتميز بالطابع التاريخي ، وقد أخذت تلك الأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية على الجزائر ثلاثة أصناف ، تميز كل صنف على الآخر حسب التطور المرحلي والاستراتيجي الذي اعتمد عليه المستعمر[2].

-الدرسات الاستكشافية :وهي التي شهدتها الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشروالتي مست الجانب الطبيعي والتاريخي للجزائر،والتي قادها عدد من المؤرخين والأنثروبولوجيين الفرنسيين من أمثال **"بايسونال"**(1725) و**"شاو"** (1720-1752).

[1]- harbi (Mohamed) , **Une vie debout mémoires politiques** ,Tome1 (1945-1962) , Edition de la découverte, Paris-2001 ,p161.

[2]- بوحسون(العربي)،**"بين التاريخ والأنثروبولوجيا :دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية "**،المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية ،المجلد الأول ،العدد الثاني ،جامعة الجيلالي اليابس ،سيدي بلعباس ،ص165.

-**الدراسات العسكرية**: انطلقت مع الاحتلال وتميزت بالطابع العسكري ،كتلك التي قام بها **"نواكس"** و**"قينار"** و**"بواتل "**في إقليم ترارة بتلمسان الذين ركزوا على الدراسة المعمقة للمنطقة من كل الجوانب ،ولعل أهم تلك الدراسات تلك التي قادها هانوتو وليتورنو على منطقة القبائل تحت عنوان **"منطقة القبائل وأعرافها"**سنة 1893

-**الدراسات الكولونيالية الأكاديمية** :وهي التي أخذتها على عاتقها جامعة الجزائر وأساتذتها من الفرنسيين والمستوطنين الذين اهتموا بالإشكالية الاستعمارية من الزاوية العلمية.

ويمكن تقسيم الكتابات التاريخية الكولونيالية إلى مرحلتين أساسيتين ،وهما:

- **مرحلة 1830-1880:**خلال الخمسين سنة الأولى من الاحتلال صدرت العديد من الكتابات التاريخية من مذكرات وتقارير ورسمية وروايات شفوية كتبها عسكريون وبعض من الرجال المدنيين من المترجمين خاصة .ومما يلاحظ على تلك الكتابات إلى جانب كونها ذات بعد كولونيالي ،وأنها كانت كتابات وصفية تقريرية لواقع ما شاهده وعايشه هؤلاء في مصاحبتهم للحملات العسكرية ولحال البلاد والسكان آنذاك ،ومن أهم المؤرخون في تلك الفترة ،نذكر أدريان بربريغر،لويس رين ،بيليسي ديرونو.

-**المرحلة الثانية مابعد 1880:**تميزت هذه الفترة بغزارة الكتابات الأكاديمية والعلمية التي كان لجامعة الجزائر والجمعيات التاريخية والأثرية ،والدوريات المتخصصة دور بارز فيها والتي ارتكزت على دعم الاستيطان ،والتأسيس لتاريخ جديد للجزائر،مع اعتمادها على المنهج التفسيري والتحليلي بعيدا عن الوصف المجرد والسرد التسلسلي للأحداث[1].

عموما فقد تميزت المدرسة التاريخية الكولونيالية بعدة خصائص ،أهمها:

-اعتمادها على المصادر الغربية والوثائق الأوروبية والتقارير الفرنسية .

-ابتعادها عن المصادر العربية ،وإهمالها الوثائق العثمانية

[1]- جيلالي بلوفة (عبد القادر)،المرجع السابق ،ص112.

-ارتباطها الوثيق بالمشروع الكولونيالي،وفي خدمة منظور الاستعمار-التركيز على الفترتين الرومانية والفرنسية دون غيرهما[1].

وبعد عام 1880،انتقلت الدراسات التاريخية للحقل الجامعي –بالرغم من عدم ظهور جامعة الجزائر-واهتم الأساتذة الجامعيون والباحثين المتخصصين

كان إلى جانب المجلة الإفريقية كانت هناك ،عدة مراكز علمية مهتمة بالتاريخ نذكر منها: **"جمعية وهران الأثرية"** 1878،والتي اهتمت هذه الجمعية بتوثيق وجمع كل الأعمال المتخصصة بالآثار والتاريخ المحلي للجزائر ،ومعهد الدراسات الشرقية1933،و الذي اهتم بالحضارة العربية الإسلامية ومظاهرها في الجزائر- ،ومعهد الأبحاث الصحراوية ،والذي تأسس عام 1840،والذي اهتم بالأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية عن المنطقة وسكانها ، وكذا اتحاد الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا (1935)من أجل تبادل الأبحاث والخبرات يعد استكمال استعمار بلدان المغرب العربي[2]..وغيرها من المعاهد والمجلات الأكاديمية العديدة التي اهتمت بالجانب التاريخي للجزائر وسكانها. وقد زاد اهتمام المؤرخون الكولونياليون أكثر بتزييف تاريخ الجزائر وتشويهه وتمجيد مآثر الاستعمار حينما حلت الاحتفالات المئوية ،حيث وضع المؤرخون الكولونياليون دراسة تاريخية وكرونولوجيا تخلد الأحداث العظمى للوجود الفرنسي في الجزائر[3]،إذ أعطت الاحتفالية بمئوية الاحتلال سنة 1930دافعا قويا لإنجاز عدة أبحاث ودراسات حول الفترة القديمة ،وخاصة الفترة الرومانية وعصور ماقبل التاريخ ،في مسعى منها لإضفاء المزيد من الشرعية للتواجد الفرنسي في الجزائر ، ولعل أبرز الدراسات التي قام بها العديد من الباحثين الكولونياليون،ولكن هذه المرة من خريجي المدرسة التاريخية الاستعمارية في الجزائر أي أنهم بالمجمل من مواليد الجزائر ،نجد مساهمة الدكتور" **غوبار** "في التأسيس لمخبر للدراسات الأنثروبولوجية والأثرية وما قبل التاريخ ،الذي رأى النور سنة 1949،والعمل الموسوم ب"**إفريقيا ما قبل التاريخ**"[4]للباحث **"هنري بروي"**« **Henri »**

---

[1]- المرجع نفسه،ص112، 113.

[2]- سعدالله (أبو القاسم)،**أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** ،الجزء الأول ،ط 1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت-1976 ،ص24.

[3]- نفسه،**أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**،الجزء الثاني،ص17-18.

[4] -Cahiers d'art,5eme Année ,N°8-9,1930,P,P449 ,450.

Breuil ،و"**العصور الحجرية لإفريقيا الشمالية** "للباحث "**م.رايغاس**"« **M.Raygass** » ، وأعمال الباحث "**فوفري**" « **vaufrey** »،ومنها "**إفريقيا في ماقبل التاريخ** "، و"**المغرب**"،و"**ماقبل التاريخ لإفريقيا الشمالية**"للباحث "**بالو**" « **Balout** » [1].

وعموما فقد كانت جل الكتابات التاريخية ،سواء التي تناولت أحداث التاريخ القديم كالحروب البونية والحروب النوميدية والوضع العام لإفريقيا الشمالية تحت الحكم الروماني ،واستظهار الفترة الرومانية على أنها فترة تنويرية جالبة للحضارة لشعوب بدائية تحتاج دوما للوصاية للأعراق الأوروبية المتوسطية ،أو تلك التي تناولت التاريخ الوسيط والحديث ،والذي ركز فيه المؤرخون الاستعماريون على انتشار الإسلام ومقاومته من قبل البزنطين والبربر كأمثال الكاهنة وكسيلة [2]، بإظهار- وبشكل خبيث وغير بريئ-غزوات بني هلال ،والتواجد التركي ككيانات زرعت الفوضى و الظلامية ،ومن ثم فقد اختزلت الفترة الإسلامية في سياق كرونولوجي مؤلم ليس للمنطقة المغاربية فحسب وإنما للحوض المتوسطي برمته.

ولذا كانت معظم الدراسات التاريخية التي تخصصت في العصر القديم في الجزائر قد انصبت على دراسة الأصول البربرية وعلاقتها بالكيانات السياسية التي حكمت شمال إفريقيا من القرطاجيين حتى بداية الوجود الإسلامي مرورا بالحكمين الوندالي والروماني ،وطبيعة علاقتها بتلك القوى الدخيلة ،في محاولة فهم عادات وتقاليد البربر وشخصيتهم وطباعهم ، وباختصار كان غاية تلك الأبحاث هو إيجاد روابط مشتركة بين العرقين الأوروبي والعرق البربري النوميدي،والتبرير بقابلية البربر قديما وحديثا بالاندماج ،ما دام هذا العرق البربري قد تقبل سلفا حضارة الرومان واختار التخلي عن مقوماته الدينية الوثنية والترحيب بالدين

[1] - Balout(Lionel), « **La préhistoire** », Revue africaine, Centenaire de la société algérienne, Numéro spéciale ,Tome c, Année, Faculté des lettres ,Alger, 1956,P ,P45 ,46.

[2]- بومزو (عزالدين)،"**نقد الأشرف لتاريخ الاستعمار الفرنسي لإعادة كتابة التاريخ الوطني**" ،مجلة دراسات ،المجلد الرابع،العدد السادس ،كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية ،قسنطينة 2،ص135.

المسيحي [1]،وعلى خلاف ما أبداه من مقاومة عنيفة لانتشار الإسلام في فترة الحكم الإسلامي لشمال إفريقيا في فترة لاحقة[2]،وتوظيف القواسم المشتركة لما يخدم النظرة الاستعمارية [3]

-دور الجمعية التاريخية والمجلة الإفريقية الاستعماري: عرفت المرحلة الأولى من الاحتلال ظهور العديد من الجمعيات والمجلات التاريخية والأثرية منها **"لوحة وضعية المؤسسات الفرنسية بإفريقيا الشمالية "**،و**"لوحة استكشاف الجزائر"**،و**"النشرية الأثرية لمقاطعة قسنطينة" ، "المجموعة الأثرية لمقاطعة وهران" ، وأخيرا "المجلة الإفريقية"** ،التي انبثقت من الجمعية التاريخية الجزائرية[4].

من جهتها، اهتمت المجلة الإفريقية بالمخطوطات الجزائرية في محاولة من كتابها لفهم تاريخ الجزائر ،سواء منها العربية أو البربرية ،وحتى المخطوطات الاسبانية المكتوبة بالعربية ،والتي تحتوي على جزء من تاريخنا المحلي لارتباطها بالأندلس وحركة المورسكيين[5].وقد تداول عدد كبير من المؤرخين واللغوين والمستشرقين على المجلة الإفريقية سواء في رئاستها أو تحرير عمودها الافتتاحي أو الكتابة والنشر فيها ،ولا يسع المقام هنا لذكرهم كلهم ،وإنما سنكتفي بأبرز الشخصيات التي ساهمت بأقلامها في هذه المجلة لأزيد من قرن من الزمن ،ولعل أبرزهم **"ستيفان كزال"Gsell « Stéphane »** ،**" ألبرتيني" Albertini**،**"ليستشي"Leschi** ،**"كاركوبينو" » «Carcopino**،والذين مثلوا رواد وزعماء لمدرسة الآثار في الجزائر،إلى جانبهم **"محمد بن رحال"**،**"رينيه باسيي" René " « Passet**، **» "جورج مارسي « Georges Marçais » "**،**" فاغنان"« Fagnan »**،والذين اهتموا بالدراسات الاستشراقية في المجلة .أما في مجال الأبحاث اللغوية وعلم اللسانيات ، فقد انفرد كل **من "ليفي بروفنسال" « Lévi-provençal »** ،**"أندري**

---

[1] -Albertini(Eugène),**L'Afrique romaine**, Impremerie officielle ,Alger-1956,P,P160-107.

[2]-لعل أكثر المؤرخين والأنثروبولوجيين الكولونياليين في الجزائر إيمانا بلاتنية العرق البربري نجد المؤرخ فيليكس غوتيي ، والذي قدّم أطروحات غريبة حول انتماءات العرق البربري ،والذي نفى أية صلة له بالعروبة ،وأن أصوله لاتنية متوسطية ، ازدادت وثاقة حينما انتشرت المسيحية أواخر العهد الروماني وخلال الحكم البيزنطي في شمال إفريقيا .للإطلاع أكثر ،ينظر :

Gautier (Emile Félix), **l'islamisation de l'Afrique du nord .les siècles obscurs du Maghreb**,Paris,1927.

[3] - Lassus (Jean), « **L'antiquité »** ,In Revue africaine, Centenaire de la société algérienne, Numéro spéciale ,Tome c, Année, Faculté des lettres ,Alger, 1956,p,p83,84.

[4]- جيجيك(زروق)،**" اهتمام الكتابات الفرنسية بالمخطوطات المحلية – المجلة الإفريقية أنموذجا"**، مجلة رفوف ،مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا، العدد الخامس ،جامعة أدرار ، الجزائر– مارس 2015 ، ص153.

[5]- المرجع نفسه،ص152.

باسي " « André basset » ،**"جان ديني"« Jean deny »** ،بنشر الأبحاث المنجزة حول العربية والبربرية في الجزائر الأنثروبولوجيين أمثال **"ديبارمي" « Desparmet »** ،**"ألفريد بيل" « Alfred bel»** و **« Doutté.** » .وغيرهم من الأساتذة والباحثين الذين أثروا المجلة لأزيد من قرن من الزمن[1].

كان **"ستيفان كزال"** أحد أهم أعمدة المدرسة الكولونيالية الفرنسية في الجزائر ،وأكثرها تعصبا لفكرة رومنة الجزائر وأكثرهم اندفاعا في النبش في التاريخ القديم والبحث كل ما يربط شمال إفريقيا بفرنسا اللاتينية . من مواليد سانت غال بسويسرا سنة 1864،درس بروما التاريخ القديم ،نال الدكتوراه سنة 1891بعد أن أنجز أطروحتين في وقت واحد ، وهما: **« Tipasa essai sue le règne de l'empereur Domitien »** **« mauretaniae Caesariensis urbe »**[2].

زاد شغف كزال وهوسه بتاريخ الجزائر القديم لما تولى التدريس بالمدرسة العليا للأساتذة بالجزائر العاصمة،وبدأت أعماله وأبحاثه الأثرية في المواقع الأثرية الرومانية بتيبازة ،ثم توسعت أبحاثه مطلع القرن العشرين لتشمل معظم المواقع التاريخية في الشمال الجزائري، حيث تسنى له جمع وتوثيق كل أعماله البحثية في مؤلف ضخم موسوم ب : « **Monuments antiques en Algérie** » سنة 1901[3] ،كما نشر العديد من أعماله الأثرية في المجلة الإفريقية خلال الفترة التي أقام بها في الجزائر ،والتي تضمنت العديد من المواقع المكتشفة ،وأعمال التنقيب في العديد من المناطق الأثرية (تيبازة-سطيف-..)،أي باختصار كل ما يتعلق بالتاريخ القديم للجزائر ،ولا سيما في الفترة الرومانية منها[4].

---

[1] - Revue africaine**, « Centenaire de la société algérienne »**, Numéro spéciale ,Tome c, Année, Faculté des lettres ,Alger- 1956,p34.

[2]- Etienne (Michon), **Eloge funèbre de M Stéphane Gzell, membre de l'académie** , comptes rendus de l'académie des inscription et des belles lettres Bulletin de Janvier -Mars ,séance de l'année 1932,Auguste picard Auditeurs, Paris,p09.

[3] -Ibid,p10.

[4] -gsell (Stephane) , **« chronique archéologique africaine »** ,Revue africaine ,Bulletin des travaux de la société historique algérienne ,38eme Année ,N°212-213,1ere et 2eme trimestre, Adolphe Jordanie ,Libraire-éditeur, Alger,1894,P-P109-120.

من جهته ،عمل **"غابريال إيسكر" « Gabriel Esquer »** هو الآخر في مجال التاريخ ونشر أعماله في المجلة الإفريقية ،إذ يعد أحد أبرز المؤرخين المستوطنين ،والذي تولى مهمة السكريتير العام للمجلة الإفريقية ونشر فيها عدة أعمال تاريخية حول الجزائر،بالرغم من أن مهامه كانت الإشراف على تنظيم أرشيف الحكومة العامة ومزاولة التدريس كأستاذ للتاريخ في كلية الآداب مابين 1927-1943، وخلال هذه الفترة نشر سلسلة من الأعمال التاريخية حول قادة الجيش الفرنسي وتوسعاتهم في الجزائر ،والتي منها **"مراسلات دوروفيغو"** (3أجزاء) ، وحول الشخصيات العسكرية مثل مؤلف حول الماريشال كلوزيل (جزأين) والجنرالين **"فوارال" « voirel»** و**"دروي ديرلون"« Drouet d'Orléans »**،إلى جانب المؤلف الموسوم ب"**إعادة استكشاف للمدن المحصنة وتحصينات مدينة الجزائر من قبل قائد الكتيبة بوتان" « la reconnaissance des villes fortes et batteries d'Alger par le chef de bataillon Boutin »**،غير أن أهم كتاب له هو**" بداية إمبراطورية ،احتلال الجزائر"**،(1923)،والذي تحصل به الجائزة الكبرى عام 1930بمناسبة مئوية الجزائر[1].

-الجدل حول الهوية والتاريخ بين المدرستين الكولونيالية والجزائرية

منذ نشأة المدرسة التاريخية الجزائرية في الثلاثينات من القرن الماضي انشغل المؤرخون الجزائريون ببناء تاريخ وطني عبر السجال مع المؤرخين الاستعماريين ،لكن دونما الأسس التاريخية والمنهجية العلمية ،التي كان يجب أن يستلهموها من فكر ابن خلدون حول المنطقة المغاربية ،وتركوا تلك الأسس العلمية للمؤرخين الاستعماريين ،والتي اعتمدوها لمغالطة النخبة المثقفة بالتأويلات الخاطئة والاستقراءات المغلوطة لتاريخ الجزائر وانتماءاتها الحضارية ،وفي هذا الصدد يعبر **"مصطفى الأشرف":"حاول الباحثون ذوو النزعة الاستعمارية –عبثا-تشويه الإرث الخلدوني عبر قراءة سريعة لكتاب المقدمة ،فبدا لهم تاريخ المغرب ،وكأنه قبائل عربية تعيش على السلب والنهب وقبائل بربرية غارقة في الحروب والنزاعات ...ظواهر تاريخية دأبوا على شرحها وتكرارها في سياق إيديولوجيا استعمارية**

[1] - Lebel (Germaine), « **Gabriel Esquer (1876-1961)** », Revue d'érudition, Bibliothèque de l'école des chartes, publie par la société de l'école des chartes ,Tome 119,Librairie Marcel Didier ,Paris,1962,p,p368,369.

تقوم على الاحتقار "،وكان غرض هؤلاء المؤرخون الكولونياليون من ماسكوراي وغوتييه وبرتراند مرورا بجان مير وفارني وديبارمي ، هو حمل القارئ على الاعتقاد بفكرة التفوق الأوروبي على الأهلي [1].

كثرت المقابلات الفكرية واستمر الجدل حول ثلاثية الهوية والتراث والأمة بين المدرستين الكولونيالية والوطنية خلال الثلاثينات وحتى عقد الخمسينات ،ففي الوقت الذي كان جوهر المهمة التاريخية بالنسبة للمؤرخين الجزائريين ينصب حول تقديم إثباتات للهوية الوطنية ، وإعادة صياغة لفكرة الأمة ،كان المؤرخون الكولونياليون عبر المنهج التغريبي ينفون تلك المقومات ويصرون على أن انطلاقة التاريخ في الجزائر مرتبط بالوجود اللاتينو فرنسي [2].

داخل هذه المواجهة الإيديولوجية الصريحة،كانت تصاغ الأسس النظرية والمناهج التي تحدد الإشكاليات وتؤطر لعمليات البحث التاريخي وتوجه موضوعاتهم ،فقد امتاز التأليف الاستعماري بتوسيع مفهوم الوثيقة ،إذ شرع الباحثون الاستعماريون في الحفريات وسجلوا الروايات الشفوية وجمعوا الوثائق المكتوبة الأجنبية ،رسمية أكانت أم أدبية .وعلى هذا الأساس أصبح علم التاريخ يحمل اتجاها ومنطقا ،وأقحم التحقيب الثلاثي المتداول في التأريخ الأوروبي واستبدلت فكرة الدورة الخلدونية بفكرة التقدم .وانطلاقا من من هذه المقدمات كان المؤرخ الاستعماري يحكم على التاريخ الجزائري ،فقال أنه تاريخ ناقص ومتعثر ودوراني وغامض، ووضع الفترة الإسلامية في إطار تقهقر بين فترتين" الرومانية والفرنسية" [3].

نشأت المدرسة التاريخية الجزائرية وماصاحبها من إعادة لكتابة التاريخ الجزائري بعيدا عن النظرة الانطباعية الفرنسية من الإستوغرافيا الاستعمارية ،لكنها عارضتها في الأحكام والأهداف ،ووافقتها في مناهجها العلمية.ولكنها في ظل صراعها الفكري مع المدرسة الاستعمارية ، انقسمت على نفسها إلى تيارين شهد هما الآخران صراعا داخل النخب وحول المفاهيم الأساسية للأمة والهوية ،بين تيارين أساسيين مثلتهما النخبتين، المعربة المحسوبة

[1]- غالم (محمد) ،"**المؤرخون الجزائريون والمرجعية الخلدونية**" ،مجلة إنسانيات،المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الإجتماعية ،العددين 66/65،الجزائر ،2014،ص-ص،19-21.
[2]- غالم (محمد) ،المرجع السابق،ص-ص21-23.
[3]-المرجع نفسه،ص،ص23، 24.

على التيار المحافظ والإصلاحي، والمفرنسة والتي اختلفت مشاربها الفكرية وأصولها الإديويولويجة (تقدمية ،ليبيرالية ،شيوعية....) ،والمتصلة بالتيارات السياسية الأخرى[1].

لاشك أن مئوية الاحتلال كانت عاملا حاسما في بعث التاريخ الجزائري،غير أنه يجب الاعتداد بعامل آخر،ويتعلق الأمر بالأمثلة التي قدمتها في هذا المجال تونس والمغرب والتي حركت الجزائريين وحثتهم على أن يبلورا هم أيضا كتابات تاريخية باللغة العربية وفقا منظور وطني ،وفي هذا الحراك التاريخي المغاربي صعد المدني وانبرى متصديا للكتابة التاريخية الكولونيالية في ظرف صعب، ألهمه بكتابة وإخراج الكثير من البواكير التاريخية المختلفة [2].

مثّل أحمد توفيق المدني في كتاباته ذلك المؤلف طويل النفس ،فقد سعى للبحث في الكثير من المواضيع التاريخية المتفرقة،وأولى عناية خاصة للدراسات التي تتصل بالجزائر ،وهو أمر منطقي ،إذ أنه كان من العسير على أولئك المؤرخين الجزائريين أن يركزوا اهتمامهم بالتاريخ العام نظرا لتشعبه،في وقت كان تاريخهم نفسه بحاجة إلى بحث وإعادة بعث ،لا سيما وأن التاريخ الجزائري كتب في أغلب الأحوال من وجهة نظر واحدة،وهي رؤية استعمارية بلاريب،حيث تكفل المستشرقون وغير المستشرقين بكتابة التاريخ الجزائري، وقد وصفه الباحث عبد الكريم بوصفصاف بالقول:**"لعل المؤرخ الوحيد الذي جمع بين الذاتية الجزائرية والإقليمية المغاربية في كتاباته ،وهو كاتب القطرين،ومن القلائل والأوائل الذين بحثوا في تاريخ الجزائر قديما وحديثا في العشرينات من القرن الماضي"**[3]

وفي هذا السياق الجدلي بين المدرستين الكولونيالية والأهلية، نذكر أيضا **"عمار بلخوجة "** نموذجا لمؤرخ من نوع آخر فهو جمع في مخياله المعرفي بين الدفاع عن الجزائر و قضايا الأهالي ،والبحث عن التأصيل للهوية الجزائرية،فبالرغم من الكتابة الاستعمارية المتعمدة لتشويه التاريخ الجزائري ،فهو لم يكتب التاريخ بروح من الكراهية للمستعمر ،بل سعى إلى

---

[1]-نفسه ،ص-ص24-27.

[2]- خليفي(عبد القادر)،**"الكتابات التاريخية وبعث الوطنية الجزائرية في ظل الحقبة الكولونيالية ،دراسة نماذج من إسهامات أحمد توفيق المدني خلال الفترة 1931-1950 "**،مجلة دراسات وأبحاث ،المجد 6 ،العدد 16،جامعة زيان عاشور ، الجلفة ،ص198.

[3]- عبد الكريم بوصفصاف،**"المؤرخون الجزائريون ومنهجية كتابة التاريخية في الحركة الوطنية في عهدي الاحتلال والاستقلال"**،أعمال المؤتمر الأول لمنتدى التاريخ المعاصر حول:منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي ،منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ،تونس،سبتمبر ،1998،ص46.

تعرية ونقد الإيديولوجيا الكولونيالية (مؤسساتها وآلياتها)،كما لم يسعى إلى اجترار التاريخ والبقاء فيه ،بل كان بحثه محاولة للكشف ع الحقيقة التاريخية كما هي ، وعلى مستوى الهوية سعى لإظهار ما حاول الاستعمار الفرنسي طمره وإسكاته ،وفي داخل هذه الازدواجية كانت رمزية الكتابة التاريخية تتجلى مستظهرة شخصية متنورة وثائرة ،"فلا تكفي تحرير الأرض من المستعمر ،بل لا بد تحرير الفكر من الاستلاب"،كما تكشف كتاباته عن نزعة موضوعية في محاورة الآخر –نقصد هنا المثقف والمؤرخ الفرنسي الأمين"،حيث ناد في نصه **"رؤيا صيف" « Le songe d'un été »** سنة 1951إلى الالتزام بروح" العقلانية الديكارتية "وفلسفة عصر الأنوار ،ودعا المثقف الكولونيالي إلى ممارسة نفس الوحشية الفاشية **(محرقة Auschwitz)**التي مارسها النازيون في الفرنسيين على الشعب الجزائري الأعزل[1].

نستشهد هنا أيضا بمثال آخر،فقد دافع الأشرف عن منهجيته في كتابة التاريخ ومنح لنفسه واجب مقاومة الأطروحات الفرنسية وإفشالها بالحجج العلمية حيث كتب يقول :**"إننا لم نكذب على التاريخ ،ولم نشوّه الظواهر الاجتماعية ،...كل ما في الأمر أننا عملنا على دحض الحجج الباطلة ،وكشف الحقائق الناصعة ،وإعادة الحق إلى نصابه بعد أن رأينا المؤرخين الفرنسيين يشوهونه من الخارج.."** [2] ، هذا من جهة ومن جهة أخرى حاول الأشرف في معرض كتاباته الرد على الأطروحات التاريخية بالحقائق التاريخية الثابتة ،حيث أعطى موقفين حاسمين للبربر في مرحلتين ووضعين مختلفين،الأول لما اسقبل البربر "النوميديون "الفينيقين، الذين اعتبروهم روادا للحضارة ودعاة للتعايش،أما الموقف الثاني ،فهو الوجود الروماني،الذي اتسم بطابع السيطرة والقهر ،وفي سياق معالجته للعصر الوسيط والحديث، دافع الأشرف عن انتساب أهل المغرب للإسلام واعتبره نتيجة لإيمان صادق لأنه ليس فيه رئيس ومرؤوس ، ولاكهنوتية ولا بابوية،وفي رده على المؤرخين الاستعماريين فيما يتعلق بتعريب سكان الجزائر بشكل خاص والمغاربة بشكل عام،كان عن طريق تبنيهم للحضارة

[1]- بن عطار(أحمد)،**"التاريخ والهوية في كتابات عمار بلخوجة"**،مجلة الخلدونية للدراسات والبحوث في التاريخ والمجتمع ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية العدد الحادي عشر،،جامعة ابن خلدون ،تيارت ،2017،ص،ص82، 83.

[2]- بومزو (عزالدين)،المرجع السابق،ص141.

العربية الإسلامية [1]،وليس بالقوة ،فالثقافة تكتسب ولا تفرض.فضلا عما قدمه من انتقادات علمية لاذعة ومحاكمة تاريخية لجرائم الاحتلال الفرنسي في حق الشعب الجزائري [2].

وهكذا ،فقد وقف هؤلاء المؤرخون الوطنيون من إرادة المؤرخ الاستعماري في تشويه الحقائق التارخية وطمسها،ونواياه في إعادة كتابة تاريخ الجزائر بما بوافق مصالحه الذاتية.

ب-الدراسات الاستشراقية والأنثروبولوجية-الإثنوغرافية

-الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالظاهرة الاستعمارية:

تعد الأنثروبولوجيا حقولا دراسية اجتماعية تاريخية وثقافية ،تمثل كل التماثلات المعاشية الفعلية منها ،والمرجوة لدى الجماعات ،والتي يعبر عنها بطريقة شفوية أو سلوكية ، والدراسات الأنثروبولوجية لأي شعب من الشعوب تهتم بالأساس بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية كلون البشرة والعادات والتقاليد،والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة ،وفي إطار هذا المعرفة تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة[3].

لا يترك البحث الأنثروبولوجي زاوية من زوايا حياة الإنسان إلا واهتم بها ،سواء ببيولوجيته أو اجتماعيته أو سلوكه،فمجال نمط العيش ومخططاته وطرائقه،هي بؤرة اهتمام للتفسير والتأويل والفهم لديه،وعليه فإن الأنثروبولوجيا ليست كل العلوم وإنما تشتغل بالجمع والربط بين العلوم والإفادة من نتائجها جميعا،وذلك لما تعنيه الثقافة التي هي موضوعها ،في اعتبارها نقطة عليا للتجميع المعرفي،إذ هي الخاصية الشاملة لإنسانية الإنسان وميزته المفردة له

[1]-نفسه ص،ص143،142.

[2]-للإطلاع أكثر على كتابات مصطفى الأشرف التاريخية في هذا المجال يمكن العودة إلى مايلي:

- **أعلام ومعالم،مآخذ جزائر منسية** ،ترجمة أحمد بن محمد بلكي،دارالقصبة للنشر،الجزائر-2007.

-**الجزائري تاريخ وحضارة**،ترجمة بن عيتي،مجلة الأصالة ،السنة الأولى ،العدد الثاني،ماي 1971.

-Les Actes du colloque sur Lachref, Alger,2004.

[3]- فهيم (حسين)،**قصةالأنثروبولوجيا** ،فصول في تاريخ علم الإنسان،عالم المعرفة ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت- 1978، ص13.

وحده[1]، وهي في رأي الباحث **"كلود ليفي ستراوس"** تهدف للمعرفة الكلية والشمولية للإنسان في علاقاته بامتداداتها التاريخية وأبعاده الجغرافية [2]،أما الباحث" **محمد عباس إبراهيم"** فإنه يوجز موضوع هذا العلم في دراسة الشاملة لحياة الإنسان ،من حيث أصوله وعاداته وتقاليده وقيمه ،وخبراته ،ومهاراته وتراثه الحضاري والمادي والمعنوي ،منذ أقدم العصور إلى يومنا الحالي، وباختصار هو علم الانسان بأفعاله وسلوكه ،أوعلم الجماعات البشرية في انتاجها[3].

ومن هنا يتضح أن الانثروبولوجيا تدرس الإنسان ،وتركز على دراسة ذلك التغيير المترسب من خلال امتزاج الحضارات المتعاقبة ،وأثره على مراحل حياته كلما حدث تطور في المجتمع ،على اعتبار أن المجتمعات في تطور مستمر ،ولكل عصر ثقافته وميزاته الخاصة به ،وبالتالي يكون هذا المجتمع شخوصه المميزة بتفكيرها الذي لم ينحصر في الماضي ،وبالتالي يتطلع إلى ما يواكب عصره[4].

إن الموضوع الرئيسي للأنثروبولوجيا يتمثل في تحديد القواعد والقوانين العامة للإنسان سواء في المجتمعات البدائية، أو المجتمعات الحديثة والمعاصرة ،وتختلف موضوعات الأنثروبولوجيا باختلاف المدراس والاتجاهات[5] .

ترتبط نشأة الأنثروبولوجيا بالظاهرة الاستعمارية ارتباطا وثيقا ،حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات غير المتحضرة بهدف معرفة بنيتها التركيبية وطبيعتها الثقافية ليسهل استعمارها ،وبذلك أصبحت الأنثروبولوجيا أداة استعمارية بامتياز هدفها تسهيل مهمة

---

[1]- الخطيب (محمود)،**الأنثروبولوجيا الثقافية** ،ط2،دار علاء الدين للنشر والتوزيع ،سوريا -2008،ص-ص11-13.

[2]- تيلوين (مصطفى)،**مدخل عام للأنثوبولوجيا**،ط1،منشورات الاختلاف،الجزائر-2011،ص22.

[3]- أمزيان(سمية)،**الحكاية الشعبية في الجزائر مقاربة أنثروبولوجية** ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير ،كلية اللغات والآداب والفنون،جامعة وهران السانية ،السنة الجامعية2011-2012،ص4.

[4]- أمزيان(سمية)،المرجع السابق،ص04.

[5]– اختلفت تقسيمات لأنثروبولوجيا الفيزيقية حيث تهتم بدراسة السمات الفيزيقية للإنسان من حيث التغيرات العنصرية والأعراق وخصائص الأجناس واختلاط السلالات البشرية وانتقال تلك السمات عن طريق الوراثة ب- الأنثروبولوجيا الثقافية التي تتفرع إلى الإثنولوجيا، ثم اللغويات وعلم الآثار وما قبل التاريخ.والإثنولوجيا هي الأخرى تقسم إلى فروع : الإثنولوجياوالإثنوغرافيا،و الإثنولوجيا الاجتماعية . هذا عن رؤية بعض العلماء، في حين توجه علماء آخرون إلى تقسيم مغايروهو:الأنثروبولوجيا الطبيعية، الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية .أما العالم رالف Piddington Ralph الأأنثروبولوجيا إلى قسمين رئيسيين:الأنثروبولوجيا الفيزيقية: حيث تهتم بدراسة السمات الفيزيقية للإنسان من حيث التغيرات العنصرية والأعراق وخصائص الأجناس واختلاط السلالات البشرية وانتقال تلك السمات عن طريق الوراثة.الأنثروبوجياالثقافية:وهي التي تهتم الثقافة البشرية بشكل عام وبالقيم الثقافية للإنسان كالعادات والتقاليد والطقوس الدينية ونظام الطبقات وأساس تقسيم العائلات ...إلخ. أنظر:- بن نعمان (أحمد) ،**سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر- 1988،ص ،ص 32،33.

الاستعمار في السيطرة واستعباد الشعوب ،فلا يمكن إنكار دور المدرسة الأنثروبولوجية ، التي نشأت في ظل الاستعمار ،والذي خدمته وقدمت له المعلومات اللازمة .

ومن ثم ألصقت بالأنثروبولوجيا تهمة العلم الذي يخدم الاستعمار ،لا لشيء سوى أن البعض رأى أن الدراسات المونوغرافيا والأنثروبولوجية التي أنجزها الغرب على الشعوب المستعمرة عملت على شق خصوصيات المجتمعات المستعمرة ،ويرجع البعض قيام الأنثروبولوجيا بهذه المهمة إلى غياب الدراسات التاريخية بهذه المجتمعات،وفي الوقت الذي استعان فيه الاستعمار بخدمات الأنثروبولوجيين ،استطاع أن يجد مبررات لتوظيف علماء الأنثروبولوجيا لدراسة المستعمرات في ظل نقص المعطيات التاريخية للشعوب [1].

لقد أسست الدول الاستعمارية مراكز للبحوث والدراسات ،وأوكلت مهامها للأنثرو-بولوجيين المنضوين تحت سلطتها لدراسة ثقافات الشعوب ،وكل ما يتعلق بذلك وفق رؤيا ايديولوجية بامتياز ،فلا يمكن إنكار الخدمات المتبادلة بين الاستعمار والأنثروبولوجيا،فكما قدمت الأنثروبولوجيا خدمات جليلة للحركة الاستعمارية،فقد استفادت الأنثروبولوجيا من الحركة الاستعمارية،والتي كان لها الأثر الكبير في تقدم الدراسات والمناهج المتعلقة بهذا العلم الاستعماري.وكما كان القرن التاسع عشر قرن التوسعات الاستعمارية ،كان كذلك فترة لنشاط الدراسات الأنثروبولوجية بأهدافها النظرية والتطبيقية متخذة من الشعوب المستعمرة مجالا لدراستها[2]. ويمكن القول إذن، بأن الامبريالية الاستعمارية المعاصرة تتوافق زمنيا مع الأنثربولوجيا الاستعمارية –إن صح التعبير –فكلتاهما تعودان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد جاء كتفسير خاضع للشروط تاريخية محددة ، فالمجتمعات "البدائية "أو "التقليدية " كانت خاضعة في نفس فترة التمدد الاستعماري في إفريقيا وآسيا [3]

-أهم الدراسات الاستشراقية و الأنثروبولوجية الاستعمارية الأكاديمية في الجزائر

[1]- بوحسون (العربي)،"**الاستشراق والأنثروبولوجيا والاستعمار ،دراسة تحليلية لطبيعة العلاقة** "،مجلة الانسان والمجتمع ، العدد 2،الجزء الثاني،جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان-ديسمبر ،2011،ص،ص48، 49.

[2]- العثمان(وسام)،**المدخل إلى الأنثروبولوجيا**،الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ،سوريا -2002،ص72.

[3]- لوكليرك(جيرارد)،**الأنثروبولوجيا والاستعمار** ،تر جورج كتورة،ط2،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لبنان-1990،ص12.

-الدراسات العامة حول الجزائر: لقد شكلت السنوات التالية للاحتلال بداية توجه معرفي مهم للأنثروبولوجيا العسكرية خصوصا بعد إعلان وزير الحربية الفرنسية القيام بحملات استكشافية ،كان من أبرز القائمين بها" **الضابط كارات "**،و"**الضابط رينو**"،و"**الضابط دوسلان"** ،وبتوجيه من العقيد **"سان فانسان "**،وانكب أعضاء اللجنة العلمية على إعداد جرد منهجي للمستعمرة في مختلف المجالات الطبيعية ،والتاريخ ،والآثار ،والإثنوغرافيا[1].

وقبل الاحتلال الفرنسي للجزائر ،عملت الإدارة الفرنسية على توفير جميع الشروط اللازمة لانجاح العملية الكبرى والمتمثلة في مشروع استعمار الجزائر،فالاهتمام بالجزائر مجتمعا وتنظيما كان من بين التساؤلات المطروحة ضمن المواضيع الموجودة حول تاريخ شمال إفريقيا بشكل عام وحول الجزائر بالتحديد ،ومن هنا ندرك بأن الحملة الاستعمارية لم تبدأ في عام 1830،وإنما قبل هذا التاريخ بسنوات عديدة ، بحيث أن الحملة الاستكشافية بدأت منذ السنوات الأولى للقرن السابع عشر واستمرت إلى نهاية القرن الثامن عشر . والدليل على ذلك وجود الكثير من المخطوطات والوثائق التي تصنف **"منطقة البربر ببلاد القبائل و الأوراس"** ،والتي تتحدث عن الممالك البربرية ،وكل هذه الوثائق والمخطوطات والمعطيات التاريخية كانت من اجتهاد من المعاصرين والمسافرين والقنصلين ،المتوجهين إلى الضفة الجنوبية و تحديدا شمال إفريقيا ، وقد اهتمت تلك الدراسات ذات الطابع السوسيو-الأنثروبولوجي والاستشراقي بشكل كبير بالعادات والتقاليد وأخلاقيات وقيم الجماعات والممالك والقبائل البربرية ،كما توسع اهتمامها بالتاريخ الاجتماعي ،والأبعاد الجغرافية المميزة للمنطقة [2]،وبالتالي،فقد ارتبطت الأنثروبولوجيا والاستشراق في الفترة الكولونيالية بالمساعي التوسعية للحركات الاستعمارية التي شهدها العالم بصفة عامة والمغرب العربي والجزائر بصفة خاصة،حيث مرت تلك الأبحاث وخلال الفترة الاستعمارية بمرحلتين متباينتين ،المرحلة الأولى ،امتدت من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين ،وتميزت الدراسات خلالها بالطابع العسكري، فقد حتمت الظروف الحربية والتوسعية إلى أن تكون الأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية ذات الطابع العسكري والبعد الاستشراقي يقوم بها عسكريون أو

[1]- بن رنين(بلقاسم)**الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي**،رسالة ماجيستير في الأنثروبولوجيا ،جامعة أبوبكر بلقايد ،تلمسان 2000-2001،ص21

[2]- ثقاية (صديق)،**"الأنثروبولوجيا في العالم العربي – حالتا مصر والجزائر"**،مجلة التغير الاجتماعي ،جامعة محمد خيضر ، العدد الثالث،جويلية ، 2017،بسكرة ،ص44

موظفين تابعين للمؤسسة العسكرية،حيث كانوا من الأوائل الذين أنجزوا دراسات إثنوغرفية ،هيمنت عليها ذهنية العسكريّ،وليس المثقف أو الأكاديمي وتميزت دراستهم بالعمل الإثنوغرافي الوصفي التجميعي للمعطيات الاجتماعية والثقافية ،من خلال الاحتكاك المباشر بالمجتمعات المدروسة،حيث ركزوا على دراسة البنى الاجتماعية والتنظيمات الدينية ،بهدف معرفة خصوصيات المجتمع الجزائري والتعرف على نقاط الضعف وثم السيطرة عليه،ولذلك كانت معظم الأنظار متوجهة نحو القبائل والأوراس وميزاب ،والتوغل فيما بعد إلى الصحراء[1].

وللتقرب أكثر من هذه العينة من الأبحاث العسكرية ركزنا تحليلنا ومقاربتنا على كل من أعمال **"هانوتو"**« **Hanotau** » وأعمال**"ليتورنو"**« **Letourneux** »في دراستهما الشهيرة **"منطقة القبائل وأعرافها"** ، الصادرة سنة 1893،وهي من الدراسات الأولى التي قامت بها فئة الضباط والعسكريين ،والذين يرتبطون بمراكز القرار في الدولة الاستعمارية، مما يفسر ويترجم اهتماماتهم وانشغالاتهم الايديولوجية والمعرفية،إلى جانب الدراسة الشهيرة ، التي قام بها **"جول ليورال"**« **Jules Liorel** »حول الأعراق البربرية 1892 [2]،إضافة إلى دراسات كثيرة قام بها الضباط الفرنسيون ،في أقاليم خارج القبائل والأوراس ،أهمها الدراسات التي أشرف عليها العقيد **"نوا**« **Noix** » ،و**"قينار"**« **Guinard** »، و**"بواتل"** « **Boitel** »،والتي خصت بالتحديد الغرب الجزائري ، وأهما ترارة بتلمسان[3].

إلى جانب الدراسات الاستكشافية والأبحاث العسكرية ،التي شكلت الحيز المعرفي لحقل الدراسات الكولونيالية ، نجد انتشار صنف أخر من الدراسات حول الإنتاج المعرفي الأكاديمي ، والتي تطورت كثيرا بعد عام 1870،وهو التاريخ الذي تميز بظهور الأبحاث الجامعية حول الجماعات السكانية المستقرة بالجزائر ،وكذلك حول المواضيع التي لها علاقة مباشرة بعملية التنظيم الإداري والسياسي لمختلف الجماعات الاجتماعية والريفية على وجه الخصوص، ويرجع تصنيف هذه الدراسات إلى حقل الدراسات الأكاديمية،إلى طبيعة البحوث في حد ذاتها

[1]- بن قيلة (سلمان)،**"واقع الأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية بعد أكثر من ربع قرن من الاعتراف الأكاديمي"**، مجلة التغير الاجتماعي ،جامعة محمد خيضر ،العدد الثالث،جويلية ،2017،بسكرة،ص147.

[2]- ثقاية (صديق)،المرجع السابق،ص،ص44، 45.

[3]- للإطلاع أكثر على أعمال بواتل ،أنظر :

M.Boitel,A Canaval ,**Nedroma et pays des trara** ,S.G/A.P.O .Tome 9,1891.

،التي قام بها جامعيون ،الذين تمكنوا من إعداد دراسات وأطروحات جامعية تمحورت أساسا حول الأيديولوجية والمعرفة تخدم في الأساس الإدارة الاستعمارية[1] .

ومن بين الدراسات الهامة والكثيرة ، نسوق مثالين ،الأول يتعلق بالدراسات التي أعدها **"أرنست مرسي" Ernest Mercier »**(1870-1890)حول الأهالي ،والتي تلخصت في كتاب عنوانه **"مسألة الأهالي في الجزائر في بداية القرن العشرين" La question des » « indigènes au commencement de 20eme siècle**الذي بدا له أن وضع المعارف حول السكان غير كاف ،واعتبرها لا تبعث عن الرضا ، وأوصى بتكثيف الدراسات لفهم الشعب ،الذي نعته بالبدائي ،مما يؤكد على العنصرية المقيتة التي ميزت معاملة الكولونياليين للأهلي ،فهو غير مؤهل ولا متحضر ومن حق المستوطن الكولونيالي إدارة شؤونه والوصاية عليه[2].

أما المثال الثاني ،فهو**" بيربروجر"**(1801-1869)،مستشرق فرنسي شغل منصب كاتب للحاكم العام كلوزيل ، واهتم بدراسة المجتمع الجزائري من حيث طباعه وعاداته وتقاليده إلى جانب اللغة والدين فألف كتاب(**L'Algérie histoire pittoresque monumentale**)وقام بدراسة أيضا حول المجتمع الجزائري في الجنوب**"رحلة العياشي إلى الجنوب الجزائري"voyage de l'Aiachi dans le sud de l'Algérie**،والذي دعم الحركة الاستعمارية بكل ما أوتي من قوة بفضل انجازاته الفكرية والفنية ،والذي صرح ذات مرة قائلا:" **إننا نريد أن نعمل في نطاق المستعمرات ،وفي نطاق الوطن الأم ،وهنا نريد أن نطور عواطف القومية ،التي تجعلنا ننظر إلى إفريقيا كوطن ثان"**[3].

-الدراسات الاستشراقية والأنثروبولوجية الكولونيالية في القبائل والأوراس

مبكرا اهتم الباحثون الفرنسيون بالكتابة عن الأوراس ،وعالجوا في كتاباتهم كل النواحي التي تخدم مصالحهم الخاصة ذات الطابع الاستعماري البحت ،حيث كتبوا عن الجغرافية الطبيعية ،الجغرافية العسكرية ، والعلوم الانسانية خاصة علم الأنثروبولوجيا ،فقد استعانت ببعض الأنثروبولوجيين والمستشرقين لدراسة وفهم المجتمعات المستهدفة من الغزو ،

[1]- ثقاية(صديق) ،المرجع السابق،ص46.
[2]- بوحسون(العربي)،المرجع السابق،ص49.
[3]- خالدي(محمد)،**"المسترقون وأثرهم الفكري والفني في الجزائر"** ،مجلة الأثر ،كلية الآداب واللغات ،جامعة قاصدي مرباح ، العدد13،ورقلة-مارس 2012،ص277.

واستشفاف أحوال سكان المنطقة من عادات وتقاليد وطقوس وقيم ،فهم مزاجها وطبائعها[1]وتساءلوا منذ غزوهم الأول لمنطقة الأوراس عن الأصول الأثنية لسكان المنطقة ، فالعادات القديمة جدا لسكان شمال إفريقيا التي ترتبط بأصولها الأولى حفظها لنا "**سالوست** "المؤرخ اللاتيني ، الذي يعلمنا أن السكان الأوائل لشمال إفريقيا هم الليبيون و الجيتول ، فالليبيون احتلوا جزءها الشمالي ، والجيتول أتوا من الجنوب.

قام عدد من الباحثين الأنثوبولوجيين الفرنسيين بالإجابة عن هذا السؤال الذي طالما كان غامضا بالنسبة لهم باستناد للآثار المكتشفة بمحض الصدفة في منطقة الأوراس ،فالمعلوم أن الليبيين عند الجغرافيين والمؤرخين الأغريق واللاتين كانوا جنسا من الرجال ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء،أسسوا دولة قوية في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط سماهم المصريون القدامى باسم **"الليبو** "أو" **تماهو"« Tamahou »**أي رجال الشمال ،أو **"تاهينو" « Tahennou »**التي تعني ذوي البشرة الفاتحة. ومن المنطلق التاريخي أسس الأنثرو - بولوجيون الاستعماريون نظريتهم العرقية القائلة بأن أقدم شعب أقام في الشمال الغربي لافريقيا ينتمي للجنس الآري من العائلة الكبرى للشعوب الأوروبية .والواقع فقد ورد هذا التوصيف في كتابات عدد من الباحثين الفرنسيين قبل عقود عديدة قبل الغزو فقد حدد **"بايسونال"« peyssonnel »**الذي كان قد زار الأوراس سنة 1725 خصائص سكان الأوراس ،وبعد الحملة التي قام بها الجيش الفرنسي تحت إمرة الجنرال" **بيدو"** على الأوراس اغتنم السيد **"غيون"« Guyon »** الحملة لجمع معلومات جديدة تستكمل الأبحاث الإثنية التي قام بها أسلافه ،**"بايسونال"،"دورو دولامال"« Dureau de la malle »** **"بروس "« Bruce »** ،والباحث البريطاني **"شاو"« Saw »**حول سكان المنطقة،حيث صرح" **أنه من الأكيد أن نجد في الأوراس رجالا ذوي بشرة فاتحة ،وأعين زرقاء،وشعر أشقر"**،وبنى اعتقاده من ملاحظاته من ابن شيخ وادي عبدي ، وهو الشاب الذي له علاقات وطيدة مع مخيم

[1]- مطمر(محمد العيد)،**"الغزو والاحتلال الفرنسي للأوراس وأثره على الحالة الاجتماعية لسكان المنطقة 1844-1884"** ، مجلة العلوم الانسانية ، العدد العاشر ،جامعة محمد خيضر ،بسكرة،نوفمبر 2006،ص80.

باتنة،وظن أنه برهان لافت للأنظار لما يدعيه هن الأصول العرقية للشاوية سكان المنطقة،ليختتم دراسته في تقرير علمي تلاه بأكاديمية العلوم بباريس يوم 22ديسمبر 1845[1].

اهتم العديد من الباحثين الكولونياليين بالإضافة للأصول العرقية للأوراسيين ،باللغة البربرية "الشاوية"،وعن أهمية دراسة اللهجة المتكلم بها خاصة عند تلك التي تعيش في الجبال أو التي تعيش كبدو أو نصف بدو في السهول الممتد من السهل الممتد من غرب الأوراس غلى الحدود التونسية ،فاعتم العديد من الباحثين بهذا الجانب لمعرفة أصول هذه اللغة بواسطة علم اللسانيات،وأول الفرنسيين المهتمين بلهجات المنطقة كان بايسونال ،الذي حفظ لغتهم عن ظهر قلب ،ليستطيع ما قال بمقارنتها باللغة الفينيقية القديمة ،غير أن تلك الدراسات وإلى غاية 1870 لقيت الإهمال،ليعيد الباحث **"مايسكراي"** الاهتمام بهذه اللغة وفروعها ،وميز بين الفروق بين لهجات تمازيغ الشرق وتمازيغ الغرب ،ورأى بين الفرق بين اللهجتين في المنطقة الأوراسية يكمن في النطق ومفردات اللغة ،على أن مسالة النطق هي الأكثر أهمية لأنها تمثل جزءا كبيرا من التشابه بين المنطقتين كما تمس موضوعا اثنوغرافيا ،وبالتالي فقد لخص **"ماسكراي"** إلى أن اختلاف اللهجتين يعود أساسا اختلاف المجموعات الإثنية في الأوراس ،والشيء الملاحظ في الأوراس هو أننا نجد إضافة للأمازيغية ،اللغة العربية التي يتقن السكان التكلم بها[2].

إلى جانب تلك الدراسة ،هناك الدارسة التي قام بها**" ران باسي"« Rinn» Basset**(1855-1925)،حيث اهتم بدراسة اللهجات البربرية ووضع فهرسا للغة القبائلية ، واهتم بجمع حكايات بربرية عامة ،وبحث في عادات البربر والألفاظ العربية في لغتهم ،وكان قدنشر العديد من الأعمال في المجلة الإفريقية التي كان لفترة من محرريها ،وفي مؤتمر المستشرقين الرابع عشر ،والذي انعقد في الجزائر سنة 1905[3]،وكان له شرف ترؤسه.

وإذا كان **" بيليسي دي رينو "** « **Pellissier de Reynaud** »في العدد الثالث من كتابه حوليات جزائرية في (طبعته الثانية1854) قد ركز على الجانب التاريخي لمنطقة الأوراس ،خاصة بعد سقوط قسنطينة وزحف القوات الفرنسية على المنطقة،فإن الضابط أ **كاريت«**

---

[1]- غرينة (عبد النور)،**الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية (1840-1939)**،مذكرة ماجيستير ،جامعة الحاج لخضر ،باتنة، 2009-2010،ص،ص27، 28 .

[2]- نفسه،ص،ص30،31 .

[3]- بوروبة (حميد)،**جهود المستشرقين الفرنسيين في الدراسات اللهجية في الجزائر المجلة الإفريقية نموذجا** ،رسالة ماجيستير ،كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والانسانية،جامعة أبي بكر بلقايد،2007-2008،ص40.

A Carette »قد تخصص في دراسة الجوانب الإثنية و التقيسيمات الاجتماعية للمجتمع الأوراسي،وقد جاء في كتابه **"الجزائر "**الذي ألفه مع النقيب **روزي« Rozet** »وصفا لمنطقة الأوراس ولشكل الحياة الاجتماعية التي تربط سكانه[1].

ومن بين الكتابات التي يمكن أن تصنف ذات طابع أنثروبولوجي،نجد كتاب **الطبيب" دوروتي شيلي" « Dorothée chellier** »،والموسوم ب **"رحلة في الأوراس ،ملاحظات طبيب " « voyage dans l'Aurès »** ،والتي تحدث فيها عن منطقة المعذر،ومدينة باتنة ولقاءاته مع الأهالي الأوراسيين ،وتناول فيها نمط الحياة لسكان المنطقة ، وطرق التداوي والعلاج ،ومعاناة الأهالي من الأمراض المنتشرة هناك،ولا سيما معاناة المرأة الأوراسية بشكل خاص [2]

أما في دراسة **"ليون فايدهارب" Faidherbe léon** ،والموسومة بعنوان **"تعليمة حول الأنثروبولوجيا في الجزائر " « Instruction sur l'anthropologie de l'Algérie »** ، فنجد توصيفا قريبا لطبيعة الحكم والإدارة في الأوراس،فإلى جانب كونه مجتمعا محافظا إلا أنه ديمقراطيا،رغم أبويته ،فهو مجتمع عكس المجتمعات الأخرى ،فليس للبربر شيوخ أو زعماء ،هناك فقط مندبون بسطاء ،مكلفون بإدارة الأمور أو بتنفيذ القوانين التي كرستها الأعراف والزمن ،والمنتخب عليها داخل المجلس العام ،والذي يطلق عليه الجماعة "تاجماعث"[3].

وفي هذا السياق الأنثروبولوجي والاستشراقي الوصفي للحياة الاجتماعية والسياسية لمنطقة الأوراس،نجد كتابات ألفها ضباط فرنسيون،أهمها،كتاب **"الجزائر سنة 1882 " « L'Algérie en 1882 »** للعقيد **"نوالا "« le colonel Noëllat »** ،الذي تطرق إلى نظام القبلي والحياة السياسية في الأعراش الأوراسية ،وطبيعة العلاقة التي تحكمها ومن أهم الأعمال والأبحاث التاريخية ،التي قام بها **"ماسكوراي** "عام 1876في الأوراس ، حيث قدم لمحة عن تاريخ "تاموقادي"،واصفا فيها معالمها والكتابات الرومانية التي تزخرفّ أحجارها[4].

---

[1]- غرينة (عبد النور)،المرجع السابق ،ص 59.

[2] - Dorothée) chellier), **voyage dans l'Aurès, notes d' un médecin envoyé en mission chez les femmes arabes**, Imp Nouvelle j.chellier, Tizi –ouzou-1898,p,p,11,12.

[3] - Faidherbe (léon) , **Instruction sur l'anthropologie de l'Algérie** , Typographie A Henneyur Ed ,Paris-1974,p20.

[4]- للمزيد حول أبحاث الكولونيل نويلا حول منطقة الاوراس ،انظر :

Le colonel Noëllat, **L'Algérie en 1882**,Imp Baudoin et Ce Successeurs, Paris- 1882, p,p90,91.

باستتباب الأمن اتجه المثقفون الكولونياليون نهاية القرن التاسع عشر ،وبداية القرن 20إلى تجميع أبحاثهم المستقاة عن الجزائر عموما وعن منطقة الأوراس بشكل خاص،ونشرها في دوريات علمية ،وأهمها" **المجلة الإفريقية" La revue africaine**،والتي ظهرت عام 1856 بعد تأسيس الجمعية التاريخية على يد **"بيربروجر" « Berbrugger** »وستصبح هذه المجلة على مدى نصف قرن منبرا تنشر من خلالها كل الأبحاث والأعمال التاريخية و الأنثروبولوجية ..وغيرها التي ينجزها المختصون الكولونياليون في الشأن الجزائري،وقد أولت هذه المجلة اهتماما كبيرا لدراسة منطقة الأوراس،متطرقة بذلك إلى مواضيع شتى ،ولا يكاد يخلو عدد من هذه المجلة إلا وذكر شأن يتعلق بالمنطقة .

ومن الكتاب والباحثين الذين تناولوا منطقة الأوراس ونشروا أبحاثهم في المجلة الإفريقية ، نجد كل **من بيربروجر،رين ،"فايسات"« E.Vayssettes »،"مايسكراي" ،"آريب"،" شارل فيرو"« Chareles Féraud[1] »**، فقد قدم فيرو أبحاثا مستفيضة عن سكان المنطقة ،غير أنها غالبا ما كانت تجانب الصواب، ولا تخلو من التحقير للأهالي وتمتلئ بعبارات تشوه شخصيتهم المسلمة والمحافظة ،فقد وصف المجتمع الأمازيغي بالمفكك اجتماعيا وأسريا ،يعاني من الخيانة الزوجية ،واللاهث وراء المتعة والملذات ،ففي كتب كتابه **"عادات وملابس قبائلية «Mœurs et Costumes kabyles** »فعلى سبيل المثال يسرد الكيفية البدائية التي تتنصل بها المرأة الأوراسية من علاقتها الزوجية[2]

ج- توظيف الفيلولوجيا لمحاربة اللغة العربية

أشرنا فيما سبق إلى أن المحتل سعى من وراء التمكن من اللغة العربية في أربعينيات وخمسينيات القرن 19م، إلى الغوص في كنه ثقافة المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالدين الذي يحول دون التقارب بين "الشعبين" الفرنسي والجزائري، كما رأى أن التخلص من هذا الحاجزوالعائق يمر حتما عبر القضاء أو تهميش أداته وهي اللغة، وإذا كانت الغاية هنا واضحة ومفهومة، فإن ما

[1]-شارل فيرو(1829-1888)، بدأ مساره المهني في الجزائر كمترجم وعمره لا يتجاوز 19 سنة، وكانت كفاءته محلّ اعتبار، ضابط سنة 1873، تولّى منصب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية العام 1876، ثمّ قنصلا عامّا لفرنسا في طرابلس العام 1877، وفي العام 1882 عيّن قائدا لجوقة الشرف فوزيرا مفوَّضا لفرنسا في المغرب العام 1884، هذا الضابط "المكتشف" كرّس حياته للتنقيب في تاريخ أفريقيا الشمالية وتدوينه بروح تملأها الإرادة ومعرفة عميقة بالوسط الأهلي، أهمّ آثاره: تاريخ بجاية.- تاريخ القالة والحوليات الطرابلسية .للمزيد ،أنظر :
-عقون (محمّد العربي)،" **الإثنوغرافيا الاستعمارية : شارل فيرو نموذجاً** "مجلة انسانيات،المجلة الجزائرية للأنثرو -بولوجيا والعلوم الاجتماعية ،2005ص-ص55-77.

[2]- Gsell(Stephane), **Les Monuments Antiques De L'Algérie**, T.L, A. Fontemoinged, Paris-1901, p,p,112,113.

يستوقف الدارس، هو ذلك الاهتمام الذي أولاه المحتل - والقوى الاستعمارية الأخرى- لموضوع اللهجات (العاميات) العربية والبربرية، وهو ما يدفعنا إلى طرح تساؤلات من قبيل: **هل كان ذلك فضولا علميا ؟ هل كان بالفعل حماية لها من الاندثار، أم توظيفها لخدمة قضية الاستعمار ؟.**

من منطلق أن اللغة هي التي تصوغ الأمة و تحدد ملامحها الحضارية، ثم العلاقة بين اللغة والعرق الذي صار محل دراسات وأبحاث من قبل عدد من الأنتربولوجيين واللغويين الذين طرحوا مسألة ثنائية اللغة والعرق منذ عام 1870م[1].

لقد بدأت أولى إرهاصات المشروع "التمييزي" بين ساكنة الجزائر والساكنين الجد "المستوطنين" منذ بداية الغزو، وكان العسكريون أول المبادرين في هذا المجال، كونهم أكثر احتكاكا بالسكان. ولعل ما شجعهم على السير في هذا المشروع التمييزي، ليس اكتشافهم لفئة من السكان الناطقة بالبربرية بل قد يكونوا رأوا رفض البعض من هذه الفئة الالتحاق بانتفاضة الأمير عبد القادر سنتي 1839م و 1845م دليل اختلاف. كذلك رأوا في أولئك الذين تحالفوا مع "الزواف" منذ 1830م دليلا آخر.

وأهم المستشرقين وعلماء اللغة من المستوطنين الذين اهتموا بدراسة اللهجات البربرية وبالحياة الاجتماعية والثقافية لسكان الجنوب ،نجد الدكتور **"هنري دوفيرييه"** ،والدكتور **"وارنييه "** اللذان تربط بينهما علاقة صداقة، فبينما اهتم **"هنري دوفيرييه"** بنشر أبحاثه عن أحوال التوارق و لهجاتهم (**التماشق أو التماهق**) وحروفها وأحوالهم الاجتماعية ،بما احتوت تلك الكتابات من طعن في المسلمين والعرب الفاتحين للجزائر ،نجد الثاني قد ركزت أعماله على دراسة الأعراق والطبائع والملامح الأنثروبولوجية للبربر عموما[2]. وبما أن الحديث يطول هنا عن الحديث عن جهود البحثية ،والأعمال الأكاديمية،نقتصر بإعطاء أمثلة عن ذلك ،وهنا نستشهد بعملي ، الباحث **"موتيلانسكي"** ،الذي ولد بمعسكر وتربى في وسط الجزائريين ،ودرس في ثانوية الجزائر ، واشتغل بعدها في الترجمة العسكرية ،فقد كان أحد أبرز اللغويين الكولونياليين،الذين اهتموا بفهم اللغات المحلية كان قد أرسلته الحكومة العامة إلى ميزاب لدراسة لهجاتها ومذهبها وعاداتها

[1]-حاجي (فريد)،المرجع السابق،ص300.
[2]- سعد الله (أبو القاسم)،**تاريخ الجزائر الثقافي** ،الجزء الثامن ،1830-1954،الطبعة الأولى،دار الغرب الإسلامي ، بيروت-1998 ، ص39.

ومخطوطاتها ،تولى كرسي اللغة العربية وتخصص بالإشراف على الدراسات العربية و الإسلامية ،كما تولى إدارة مدرسة قسنطينة ، غير أن اهتمامه الرئيسي ظل منصبا على الدراسة البربرية،وخلال رحلاته في الصحراء من غدامس حتى الهقار نهاية القرن التاسع عشر ،ومطلع القرن العشرين التقى بشيوخ الطريقة التيجانية ودرس لهجة سكان الجنوب ولهجة التفيناغ،وأكثر من ذلك عقد علاقات جيدة من شيوخ القبائل وسكانها ،ولعل أبرزهم الشيخ **"محمد بن يوسف أطفيش"** في ميزاب، والشيخ **"محمد العروسي"** شيخ الزاوية التيجانية في قمار(وادي سوف)سنة 1903،وكذا الشيخ" **الهاشمي** "زعيم الزاوية القادرية في عميش (الوادي).وهكذا كان **"موتيلانسكي"** مخلصا للمهمة العلمية لبلاده،وللحركة الاستشراقية[1] .

وفي الوقت الذي كان **"ديستان"** ،-وهو أحد المهتمين بالدراسات الاستشراقية والأنثروبولوجية بالجزائر –قد تولى في الغرب الجزائري إدارة مدرسة تلمسان ،وتركزت اهتماماته باللهجات البربرية المنطقة ،ولاسيما في معسكر وتلمسان وندرومة وسعيدة مثل لهجة بني سنوس[2]. والباحث"كاستون" ،الذي دعا بمناسبة انعقاد مؤتمر باريس في العام 1888م بضرورة حماية هذه اللهجات،إذ يقول:« **إذا كنا لا نستطيع حماية نبات حقولنا من الفناء، فانه يجب علينا وقبل أن يتعرض للزوال الفعلي أن نقطفه ونضع عينة منه بعناية داخل متحف وطني...».و** قد استند هؤلاء الباحثون في دراساتهم للهجات كما هو معروف على الفيلولوجيا أو فقه اللغة–وربما- كانوا عن حسن نية،وقناعة بعقلانية تحاليلهم،لكن ،**ألم يكونوا متأثرين بالقناعات الأيديولوجية لعصرهم ؟ألم يستغل المحتل نتائج أبحاثه لتعزيز الفعل السياسي/ الثقافي في الجزائر ؟**[3].

لقد بادر المحتل إلى إعداد معجم فرنسي/بربري في العام1844م حيث وردفي صفحة التنبيه ما يلي: « **تبعا لقرار السيد الماريشال وزير الحرب"سولت" المؤرخ في 22/ أفريل/1842م، تم تشكيل لجنة كلفت بتحرير معجم بربري/فرنسي مع قواعد...»وفي هذا التنبيه تم ذكر**

[1]- بعلي (حفناوي) ،**صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات وظلال اللوحة ،وفي الكتابات الغربية** ،دار اليازوري العلمية للنشر التوزيع، ص،ص 123،124.

[2]- سعد الله (أبو القاسم)،**تاريخ الجزائر الثقافي** ،الجزء الثامن ،المرجع السابق،ص،ص34، 35.

[3]- حاجي (فريد)،المرجع السابق،ص،ص300،301.

الأعضاء المكلفين بإنجاز هذا العمل وهم: «أربعة فرنسيين وآخر جزائري هو "سيدي أحمد بن الحاج علي" إمام بجاية...»[1].

من جهته قام **"دوفوكو"** [2]بإعداد مجموعة من المنشورات في فقه اللغة البربرية وهي من تخصص **"موتيلانسكي"** حيث ظهر كتاب حول قواعد البربرية ومنجد فرنسي/ترقي. وقد توالت بعد ذلك عمليه الاهتمام باللهجات البربرية حيث أخذ كل مستشرق يدرس لهجة أو أكثر في المدن والأرياف،فكان يذهب لزيارة المكان ويتصل بأهله وربما يستعين بتلاميذه الجزائريين في الناحية، ويأخذ في جمع المادة والمقارنة ،ثم يكتب دراسة لينشرها مسلسلة في المجلات، ثم كتابا في المطبعة ومنذ ذلك الوقت توالت القراءات الإثنية،الأنتروبولوجية والسوسيو/لسانية للمجتمع الجزائري[3]. إضافة إلى ذلك ففي مستهل العام 1882م أحدثت الإدارة علاوات خاصة ومرغبة للموظفين الفرنسيين لتعلم "القبائلية" كما أنشأت في العام 1885م في مدرسة الآداب قسما للهجات البربرية أسند كرسيها لأحد الأعيان الموالين لفرنسا وهو **"سي الهاشمي بن سي لونيس"**،وسرعان ما أضحى هذا التعليم يتوجب تسليم شهادة أهلية اللغة القبائلية التي تستوجب الحصول على علاوة سنوية بمبلغ 300فرنك وذلك بموجب قرار صادر في 1882/04/27، وبعدها تم إحداث شهادة اتقانا للهجات البربرية ومن يتحصل على هذه الشهادة يتلقى علاوة بمبلغ500فرنك،وذلك بموجب قرار صادر في 1885/07/28م.

لقد وجد المحتل في التشكيك في هوية المجتمع الجزائري من خلال فكرة **"الأثننة"** التي استخلصها من المشهد اللغوي في الجزائر دعامة **"علمية"** لسياسته الثقافية التي أراد من خلالها التأسيس لهوية جديدة للمجتمع **"المتعدد الأعراق"**. وقد أكد على ذلك **"هنري فورنيل"** حين كتب

---

[1]- المرجع نفسه،ص307.

[2]- راهب وقسيس كاثوليكي فرنسي، عاش فترة من عمره بين الطوراق في الصحراء الكبرى جنوب الجزائر .اغتيل عام 1916 م خارج أبواب الحصن الذي بني له بحماية الطوارق في تمنراست ، وقد اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية شهيدا لأفكاره وكتاباته كان لها دور في تأسيس " أخوة يسوع الصغار" من بين كل الأبرشيات الدينية الأخرى. تم تأبينه في 13 نوفمبر عام2005 م من قبل البابا بنيديكت 16.عمل ضابطا تابعا للجيش الفرنسي في شمال إفريقيا، حيث كان المكان الأول الذي نمى فيه مشاعره عن الصحراء والعزلة. في عودته التالية إلى فرنسا، وبحلول نهاية شهر أكتوبر من عام 1886 م، في عمر الثامنة والعشرين، كانت التجربة الانتقالية في حياته في كنيسة القديس أوغسطين في الجزائر.أنظر:

Frementle(Anne), **Desert calling: The life of Charles de Foucauld**, Hollis & Carter ED, London -1950 p-p324-328.

[3]- حاجي (فريد)،المرجع السابق،ص308.

قائلا:**«منذ 1845مإلى 1846م كانت لنا اتصالات يومية مع أهالي الجزائر، واندهشنا الفوارق العديدة التي يتسم بها العرقان،البربري والعربي»**[1].

ساهمت النخبة الجزائرية المتعلمة تعليما فرنسيا في الجهود الفرنسية،وقاسموا الفرنسيين في تدوين الأبحاث والمعارف المستقاة عن الجزائر ،فقد شاركوا في وضع القواميس والمعاجم للغات العربية والفرنسية والعربية الدراجة واللهجات البربرية ،ومن أبرز هؤلاء "أحمد بن بريهمات" الذي تعاون مع "لويس رين" في تأليف قاموس في القراءة الفرنسية والعربية عنوانه "اللسان يكمل الإنسان"عام 1882،والقاضي" أبو بكر بن شعيب"،الذي ألف رفقة "بول بوري" كتاب للمحادثة العربية –الفرنسية عام 1913مكون من 132صفحة ،موجه لمن يرغب تعلم العربية من الفرنسيين والأوروبيين بالجزائر،إلى جانب كتاب "دروس في العربية الدارجة المراكشية والجزائرية " للدكتور "علي فخار"،الذي عُد أول جزائري يتحصل على الدكتوراه في الشريعة الاسلامية من الجامعة الفرنسية،و قد ألفه بالتعاون مع المستشرق" ليون" ،الصادر سنة 1913،وقد وصفه "ج .بوفا "حينه بأنه كتاب الساعة لما يقدمه من خدمات للفرنسيين في مجال تعلم العربية2. وهكذا نرى بأن بعض متعلمي الجزائر قد أصبحوا في خدمة المستشرقين و الأكاديميين الفرنسيين.ولم يكن علي الفخار وحده في ذلك ،فقد ركب هذه الموجة ابن سديرة وبوليفة وابن شنب وأبوبكر بن عبد السلام واسماعيل حامد وعدد من النخبة الإدماجية 3

خلاصة

1 /دخل علم الأنثروبولوجيا، والفيولوجيا ... وغيرها من العلوم المرتبطة بالظاهرة الاستعمارية لمزاحمة التاريخ في الأبحاث الفرنسية في الجزائر قبل وأثناء الاحتلال الاستعماري الفرنسي في الجزائر ، ولاسيما خلال القرن التاسع عشر ،وسخر الاستعمار لتحقيق أهدافه المتعددة ،مجموعة من الباحثين لتبرير وجوده وإضفاءه الصبغة الشرعية لسياسته ،وإبراز الجانب الحضاري لحملته على الجزائر ،وأن أهم من ميز الفترة الأولى من الكتابات الفرنسية أنها تطرقت لشكل كبير إلى التاريخ القديم والآثار والجغرافيا وتضمنت أيضا الجانب الأنثروبولوجي والإثنولوجي من منطلق

[1]-المرجع نفسه،ص-ص309-311.
[2]- سعد الله (أبو القاسم)،**تاريخ الجزائر الثقافي**،الجزء الثامن ،المرجع السابق،ص-ص48-50
[3]-المرجع نفسه،ص50.

اكتشاف الجزائر ومعرفة طبيعة مجتمعاته ،وحاولت إيجاد صلة تربط سكان المنطقة بالأجناس الأوروبية(الآثار الرومانية)،وأن الضباط العسكريين هم الذين تولوا مهمة التأريخ للبلاد، والبحث عن الخصائص الاجتماعية والثقافية المميزة لسكانها،غير أن أهم ما ميز تلك الأبحاث بالذاتية والتعصب ،فضلا عن كونها أداة ثقافية وجدت لتكريس الهيمنة على الآخر .

2/رغم ارتباط هذه العلوم كدراسات أكاديمية جامعية بالطابع الكولونيالي التوسعي وببعد الهيمنة على المجتمع المحلي ،إلا أنها بالمقابل قدمت معطيات ومادة علمية هامة حول الخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال حقبة هامة من التاريخ،حتى لو كانت لغايات غير بريئة استغلها الأكاديميون المستوطنون لخلخلة مفهوم المواطنة والهوية والتشكيك في الماضي لدى الأهلي ومع كل ذلك ،فقد لاقت بعض العلوم التي تركها المستعمر بعد في فترة من فترات الاستقلال كالأنثروبولوجيا التضييق والقطيعة باعتبارها علم المستعمر 1.

ثالثا:المستوطنون وتعسف المنظومة العدلية على الأهالي المسلمين

إذا كانت المنظومة القضائية وجهاز العدالة في أي بلد حر ويحترم قيمه الوطنية والانسانية قد وُجد لتحقيق العدالة وحماية حرية الأفراد وممتلكاتهم ومعتقداتهم ،والدفاع عنها ،وإذا كانت ترسانة القوانين قد صيغت لتؤطر المجتمعات وتضبط الحقوق والواجبات والسلوكيات،فإن المنظومة القضائية الفرنسية في الجزائر،فقد جاءت لهدف وغاية أساسية وهي إخضاع الأهلي المسلم،وجعله تحت رقابة القانون الفرنسي وسيف العدالة الذي تمكّنمنه المستوطن.وما يدفعنا للتساؤل ،هو **كيف تعامل المشرع والقانوني الكولونيالي اتجاه المنظومة القضائية الاسلامية الموجودة؟وماواقع المجتمعين الاستيطاني الأهلي في ظل العدالة الاستعمارية ؟.**

1-النظام القضائي مابين 1830-1870

صدرت خلال هذه عدة قرارات ومراسيم لتنظيم القضاء الفرنسي في الجزائر ،ولعل أبرزها :

[1]- بن قيلة (سليمان)،المرجع السابق،ص148.

- **قرار 9سبتمبر1830** ،سمح هذا القرار بتأسيس أول محكمة فرنسية في الجزائر خلال الأسابيع الأولى للاحتلال ، وقد تشكلت هذه المحكمة الخاصة من قاضيين،ووكيل معين قبل الملك الفرنسي تهتم بالفصل في نزاعات سكان المستعمرة سواء أكانوا من المستوطنين الجدد أو من الأهالي المسلمين واليهود ،بحيث تخصص القاضيان الفرنسيان في النزاعات التي كانت تنشب بين المدنيين من المستوطنين ،في حين ترك فصل النزاعات القضائية المتعلقة بالعسكريين للمجلس العسكري التابع للجيش الفرنسي.غير أن الغريب في الأمر أن هذه المحكمة قد تكلفت أيضا بالشؤون العدلية للأهالي واليهود في محاولة لها لتوحيد النظام القضائي واستبدال القضاء الإسلامي واليهودي بمنظومة تشريعية وقانونية جديدة تطبق على جميع السكان دون مراعاة للوضعية الشخصية والمدنية للأهالي ،فضلا عن الجهل التام للقضاة الفرنسيين بالتشريع الإسلامي ،وبالعادات والأعراف الخاصة بسكان الجزائر[1].

وهكذا وإلى غاية صدور مرسوم 22جويلية 1834الذي ألحق الجزائر ضمن الممتلكات الفرنسية يمكن تمييز أربعة منظومات قانونية ،القانون الفرنسي ،القانون الإسلامي،الأعراف البربرية ،وقوانين الجالية اليهودية والمعروف ب « La loi mosaïque »دون احتساب القوانين الخاصة التي تمتع بها الأشخاص من ذوي الجنسيات المختلفة[2].

-**القرار الوزاري الصادر بتاريخ 16فيفري 1832** ،والمتعلق بمنح مجلس الإدارة سلطة الاستئناف في أحكام المحاكم العادية

-**القراران الوزاريان الصادران تواليا بتاريخ 21جوان 1832و01أوت 1832**المتعلقان بتوضيح وتفصيل شكليات إجراءات الاستئناف أمام مجلس الإدارة[3]،وبالتالي فقد أخضع المشرع الفرنسي كل قومية إلى الاحتكام إلى قانونها الخاص ،القوميات الأوروبية لقناصلها الموجودة في الجزائر والمستوطنين الأوروبيين للقانون الفرنسي بالنسبة للمسلمين ولليهود

[1] - Larcher (Emile)et Rectenwald(Georges), **Traité élémentaire de législation algérienne ,** Troisième édition , Tome 2, Librairie Arthur Rousseau, Paris-1923p,p02,03.

[2] -Besson (Emmanuel) **, La législation civile en Algérie ,Etude sur les conditions des personnes et sur le régime des biens en Algérie**, Librairie Marescq et Cie Editeurs ,Paris-1894,p15.

[3]- خلوفي(رشيد)،**"القضاء الإداري خلال الفترة الاستعمارية 1830-1862"**مجلة المدرسة الوطنية للإدارة ،مجلد 9،العدد الثاني، الجزائر،1999 ، ص-ص16-18.

لمحاكمهم الخاصة التي كانت قبل الاحتلال[1]،وترك لليهود في حل نزاعاتهم فيما بينهم لقضاة من جنسهم وتحت إشراف رجال دينهم ؛ أما فيما يخص الخلافات بين المسلمين والإسرائيليين ، فقد أوكلت للقضاة الموريسكيين بشكل مؤقت ريثما يؤسس لقضاء موحد ،و في هذا المجتمع اليهودي المنظم بشكل ثيوقراطي ،تم دمج القوانين المدنية والدينية ،كانت قد أوكلت خلال الأيام الأولى للاحتلال وظائف القضائية بطبيعة الحال لرجال الكهنوت اليهودي؛غير أن اختصاص الحاخامات كان تحكميًا بحتًا ،وليس مؤسسة ثابتة تحمل تسمية السلطة القضائية والسياسية إلا بعد أن حولها المرسوم العام للحاكم العام في أكتوبر 1830 إلى محكمة عادية مكلفة بالحكم في قضايا الإسرائيليين[2]،والتي أقرت الظروف على وجوب الاحتفاظ بها،وقد علق **"بيسون** "في معرض وصفه لهذا التعدد في المنظومات القضائية بقوله **:"يكاد يصل الأمر إلى أن يخضع كل نفر من الأفراد إلى قانونهم الخاص بهم "**[3].

-المرسومان الملكيان الصادران في 28 فبراير 1841(4) **و 26 سبتمبر 1842**(5) ، استمر المشرع الفرنسي في سياسة دمج القضاء المحلي"إسلامي، واليهودي" في القضاء الفرنسي ،ولعل أخطر المراسيم ،مرسوم28فيفري1841، ومرسوم 26سبتمر 1842،واللذان تقرر فيها توقيف العمل بالقضاء الإسلامي نهائيا ،وأصبح القضاة المسلمون يعينون من قبل الحاكم العام،كما منح محكمة الاستئناف حق النظر المشكلة ضد القضاة المسلمين[6]،هذا من جهة ،ومن جهة ثانية نزع من القضاة اليهود جميع السلطات القضائية من الحاخامات وألزم الإسرائيليين على الاحتكام لدى القضاة الفرنسيين وفرض في نفس الوقت تفويض هذه الصلاحيات الجديدة للقضاة الفرنسيين ،وأجبره على مهمة تطبيق القانون العبري على

---

[1] - Besson (Emmanuel) ,op-cit,p03.

[2] - Roussel (Charles), « **la justice française en Algérie et les tribunaux indigènes** » , Revue des deux mondes ,tome 1 6, Edition françois Buloz,Paris-1876,p678.

[3] - Besson (Emmanuel),op-cit,p03.

[4] -Bulletin des lois N°802, 1841,1er trimestre, partie principal, p-p303-319.

[5]-بموجب هذه القرارات ظهرت محاكم القانون العام ذات الاختصاص مثل التي في فرنسا، وهي: المحكمة العليا كمحكمة استئناف وفقا لمرسوم 28 فبراير 1841 ،والمحاكم الابتدائية وفقا للقرار 26الصادر بتاريخ 26 سبتمبر 1842 ، وقرار 10 أبريل 1843 ،الذي نص على استحداث قانونا الإجراءات المدنية الواجب تطبيقه في الجزائر ،وتحديد مهام ودور الموثقين والمحضرين، أنظر :

-Collot (Claude), **Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale: 1830 -1962**, Office des publications universitaires d'Alger- 1987,p300.

[6]- بورغدة(رمضان) ،**جوانب من تطور السياسة القضائية في الجزائر خلال الفترة 1830-1892**،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ،العدد الرابع ،جامعة محمد خيضر ، بسكرة،جانفي 2009،ص.295.

المتخاصمين اليهود بالرغم من قلة خبرة هؤلاء القضاة الفرنسيين وجهلهم بأحكام الدين اليهودي، ولمساعدة القضاة الفرنسيين في هذه المهمة الحساسة،صدر قرار يدعو مجلس الحاخامات اليهودي بتقديم مشورة مكتوبة بشأن جميع مسائل العقيدة الدينية ، مثل الزواج والطلاق والعقارات ، إلخ. واستمر تقليص مهام القضاة اليهود في القانون الصادر بتاريخ 16 يونيو 1851، والذي حصر مهام اليهود في النظر في القضايا الأسرية 1، ليكون مصيرهم فيما بعد مصير القضاة المسلمين .

مرسوم 20أوت 1848 ،مثّل هذا المرسوم ضربة للمستوطنين ،بحيث جاء لفصل القضاء الإسلامي عن جهاز العدالة الفرنسي ،والحق فإن الجمهورية الفرنسية الثانية قامت بعمل ليبيرالي كبير يتنافى مع التوجه الإدماجي المعتمد سابقا،وأعادت للمحاكم الإسلامية واليهودية نوعا من الاستقلالية،فقد فصل المرسوم بين جهاز العدالة الفرنسي وجهاز العدالة الإسلامي، وربط القضاء الفرنسي بوزارة العدل الفرنسية ،وبالمقابل أبقى ألحاق جهاز العدالة الإسلامي بوزارة الحربية ،لكن بعد ماذا ؟.جاء القرار متأخرا ،بعد أن جرد القاضي المسلم الاختصاص في النظر في القضايا الجنائية ،وفقد كثيرا من هيبته[2].وفي سنة 1852تكونت محكمة الاستئناف الكائن مقرها بالجزائر العاصمة من رئيس أول و8رؤوساء للغرف و28مستشارا ونائب عام ،و8محامين عامين 8ملحقون بالنائب العام ، وفي قانون 7أوت 1855تم إنشاء محكمتين للاستئناف في كل من قسنطينة ووهران مستقلة عن محكمة الجزائر العاصمة[3]

-مرسوم 01أكتوبر1854:صدر هذا المرسوم في عهد الحاكم العام **"راندون"**الذي منح استقلالية تامة للعدالة الإسلامية في المجال المدني،وألغى الطعن في أحكام القضاة المسلمين أمام محكمة الاستئناف الفرنسية،وجرّد المدعي العام الفرنسي من سلطة إدارة ومراقبة جهاز العدالة الإسلامي ،وأصبح من اختصاص الولاة في مناطق الحكم المدني ،وجنرالات الجيش في المناطق ذات الحكم العسكري داخل العمالات الثلاث ،وتم بموجبه تقسيم البلاد ل(326)

[1] - Roussel (Charles) ,op-cit,p681.

[2]- بورغدة (رمضان)،المرجع السابق،ص296.

3 -A NOM, Tribunaux et parquets d'Algérie.- Alger, parquet général près la cour d'appel (1944/ 1962 , C de reference 10T 1à158.

دائرة قضائية تمثل كل واحدة مجال اختصاص محكمة مشكلة على الأقل من قاض أو عدليين اثنين ،وتعتبر أحكامها نهائية فيما يتعلق بالقضايا المدنية ،التي لا تزيد قيمتها عن 200فرنك فرنسي،كما استحدث منصب الوكيل المسلم"محامي"يحق له وحده تمثيل أطراف الدعوى أمام المحاكم الإسلامية ،وترك لها الحق في البث في القضايا المدنية والتجارية[1]. وهو ما أكده مشروع مجلس الشيوخ المتعلق بإصلاح القضاء الإسلامي بتاريخ 05ماي 1869،والذي أكّد على عدم التضييق على عمل القضاة المسلمين وتمكينهم من أداء مهمتهم على أحسن وجه[2].

وفي الحقيقة ،يعد هذا المرسوم بادرة أمل لعودة الروح للقضاء الإسلامي ،وترجمة لأفكار **"نابيلون الثالث"** الليبيرالية ،لكن ضغط المستوطنين المتزايد،والذين اعتبروا الإمبراطور الصديق الأول للأهالي المسلمين ،وتهديدا لسلطتهم القوية التي تعدى مجالها حدود الهيمنة الاقتصادية إلى الهيمنة على الحياة الاجتماعية،وشاطرهم رجال السلك القضائي الموالون لفكرة الاستيطان،وأبدوا استيائهم المشبوب بالحسد للقضاء الإسلامي الذي وصفوه بالرجعية ،والسمعة السيئة ،وبسوء الائتمان.

لقد كافح المستوطنون لجعل جهاز العدالة الإسلامي هيكلا بلا روح، وتم لهم ذلك بفضل مساعدة وزارة الجزائر والمستعمرات ،التي أنشأها الإمبراطور عام 1858تحت ضغط المستوطنين،ليعود عهد إخضاع العدالة الإسلامية تحت رحمة القاضي الأوروبي .

-مرسوم 31ديسمبر 1859 ،لقد كان هذا المرسوم ،والذي لعب المستوطنون دورا كبيرا في صدوره ،نتيجة لضغطهم المتواصل لتحطيم القضاء الإسلامي ،وتعميم القضاء الفرنسي، بحيث جاء المرسوم برزمة كبيرة من الإجراءات والتعليمات التي استهدفت تقليص سلطة القاضي المسلم،وأهم ما ورد فيه:

-منح الحاكم العام سلطة النظر في الطعون المشكلة ضد الأحكام التي يصدرها القاضي المسلم

-إخضاع القضاة المسلمين لرقابة القضاة الفرنسيين .

[1]- بورغدة (رمضان) ،المرجع السابق،ص298.

[2] -Sénatus-Consulte réglant la constitution de l'Algérie ,Rendu en exécution de l'article 27 de la constitution de l'empire ,projet de la commission instituée par décision impériale du 05Mai 1869,SHAT ,N°de cote GR1H238.

-إعادة النظر بمبدأ"**اختيارية المسلم في التقاضي**"،عند القاضي المسلم أو الفرنسي.

-إجبار المتقاضين المسلمين في اختيار محامي فرنسي للدفاع عنه في المحاكم الفرنسية [1].

2-النصوص والتشريعات المنظمة للقضاء في الجزائر خلال 1870-1945

بعد أن تم للمشرع عزل أحكام القضاء عن التشريع الإسلامي وإخضاعه للتشريع الفرنسي، وإرغام الجزائري للاحتكام للقوانين الفرنسية،عمد إلى تنظيم القضاء في الجزائر بما يوافق مصلحة المستعمر ،ويرجح الكفة لصالح المستوطن،وينتزع من الأهلي أبسط حقوقه ،لذا سارع المشرع الفرنسي خلال الحكم المدني إلى إصدار قوانين جديدة تنظم القضاء وتزيد من خضوع الأهلي لسلطة القضاة الأوروبيين .

-**مرسوم 24 أكتوبر 1870**،والذي يلغي الباب الثالث من مرسوم 19 أغسطس 1854 وينظم الدورات -اجتماع على نموذج العاصمة عن طريق إدخال هيئة المحلفين الجنائية حصرياً للمواطنين الفرنسيين. كما تم إنشاء أربعة محاكم جزائية في كل من الجزائر ووهران وقسنطينة،وعنابة.بحيث كانت محكمة الجزائر تنظر في القضايا الموجودة في الجزائر العاصمة والبليدة،أما محكمة وهران فقد ألحقت بها مستغانم وتلمسان ،ومحكمة قسنطينة التي أشرفت على مدينتي سطيف وسكيكدة،والتي نشطت أكثر ضد الأهالي بعد ثورة المقراني[2].

-**المرسوم الصادر في 10 أغسطس 1875** ،أعادهذا المرسوم تنظيم دوائر قضاة الأمن ونظم للأول مرة جلسات الاسئناف.

-**قانون 23 فبراير 1881**،والذي نص على إنشاء محاكم العمل،مع بعض الاختلافات في التشريعات الموجودة بالميتروبول،

[1]- بورغدة (رمضان) ،المرجع السابق ،ص299.

[2] -Ayoun (Richard), « **Le décret Crémieux et l'insurrection de 1871 en Algérie** »,Revue d'histoire moderne et contemporaine ,Tome 35,N°1, Janvier-Mars1988,Paris,p-p76-78.

- **قانون 30 ديسمبر 1902**،والذي أعاد تنظيم عمل محاكم الاستئناف القائمة ،بحيث تم أعادة النظر في محاكمة الأهالي الذي يرتكبون جرائم ضد المستوطنين .وقد أزيلت هذه المحاكم الاستئناف المستحدثة في عام 1942 ويفسح المجال لعودة محاكم الاستئناف التقليدية [1].

ويمكن حصر أنواع المحاكم التي وجدت في الجزائر بهذا الشكل

-دائرة استئناف واحدة (Cour d'appel)

-17 محاكمة جنائية(Cour d'assise)

-17 محكمة ابتدائية أو محكمة الدرجة الأولى أو محكمة التأديب،وهي موزعة على الشكل التالي:*مقاطعة الجزائر:محكمة الجزائر (وفق المرسوم الصادر بتاريخ 10أوت1834)البليدة (30مرسوم نوفمبر1844)،أورليان فيل "الشلف"(وفق قرار 12جوان 1880)،تيزي وزو (مابين 1842-1875).

*مقاطعة قسنطينة:محاكم قسنطينة ما بين (1842-1875)،عنابة (مرسوم 30 نوفمبر 1844)،عنابة(قرار10أوت1834)،باتنة مابين (1875-1905)،بجاية (1842-1875) سكيكدة (مرسوم 26سبتمبر1842).

*مقاطعة وهران:(وفق المرسوم الصادر بتاريخ 10أوت1834)،مستغانم (قرار06 فيفري1856)،معسكر (قرار12جوان 1880)،تلمسان (1842-1875)سيدي بلعباس (1875-1904)،تيارت(بعد1905).

-أربعة محاكم تجارية في كل من الجزائر العاصمة ،وهران،عنابة ،قسنطينة.

-119 قضاء صلح (Juges de Paix) مدنية وعسكرية عبر أنحاء الوطن

-9مجالس عرفية للحرف والصنائع[2](conseils de prudhommes)

- 7محاكم المجالس الحربية المتميزة والخاصة بسكان الجنوب الجزائري.

- مكاتب الشؤون العربية

[1] - Thenault (Sylvie), **« la justice au secours de l'état :le cas particulier du tribunal de l'ordre public »**, dans la Revue de la justice en Algérie1830-1962,Paris-2005,p,p250,251.

[2] -Thenault (Sylvie),op-cit,p,p252,253.

وإلى جانب هذه المحاكم كان أعوان الشرع من محضرين (26 نوفمبر 1842) وموثقين (20 أوت 1848و 27 جوان 1901) ومترجمين شرعيين (25 أفريل 1851) والمترجمين المحلفين وأعوان الضبط من شرطة جندرمة/درك.

- المحاكم الزجرية

ومع كل ذلك لم يكن توحيد النظم القضائية وإجبار الأهالي على الاحتكام عن طريق القانون الفرنسي المعضلة الوحيدة التي واجهها المشرع الفرنسي فحسب،بل حتى الأعراق الأوروبية عدا الفرنسية كانت تجد صعوبة في تقبل الخضوع للقانون الفرنسي،وظل العديد من المستوطنين يرفض اللجوء للقضاء الفرنسي حتى وإن كان ذلك يفقده حقوقه المادية والمعنوية .[1] فمن حيث المبدأ ، يعتبر جميع المستوطنون الأوروبيون خاضعين للقانون الفرنسي سواء الذين من أصول فرنسية أو غيرها ،ومنه فلهم كامل الحق بالتمتع بجميع حقوقهم المدنية والسياسية ،غير أن لذلك استثناءات أملتها ظروف وجنسية كل مقيم جديد من المستوطنين . فبالنسبة للمستوطنين ذوي الأصول الفرنسية كانوا في نظر المشرع الفرنسي هم كأقرانهم من فرنسيي الميتروبول لا يتميزون عنهم في الحقوق والواجبات[2].وإذا كان الأمر لا يطرح إشكالا بالنسبة لذوي الأصول الفرنسية فما بال الأمر بالنسبة للمستوطنين غير الفرنسيين .؟

لا يتيح القانون الفرنسي لا أي أجنبي التمتع بنفس الحقوق والواجبات التي يحتفظ بها المواطن الفرنسي إلا بعد الحصول على الجنسية الفرنسية ،لكن الأمر في الجزائر كان مختلفا تماما،فقد عدلت مرارا القوانين الفرنسية لتتلائم مع رغبة إدارة الاحتلال في الاستفادة من هذا الكم البشري في عمليات الاستيطان وفي تغيير المعادلة الديمغرافية لصالح العرق الفرنسي على حساب المواطن الأهلي ،ومنه فقد كيّف المشرع القانون وعدّله لصالح المستوطن[3] .

3-الممارسة القضائية وأثرها على المستوطنين والأهالي

[1] - Besson(Emmanuel),op-cit ,p15.
[2] -Ibid,p,p29,30.
[3] - Besson (Emmanuel),op-cit ,p30.

كغيرها من أدوات السيطرة الأخرى كان مجال القانون وقطاع العدالة أحد أدوات الهيمنة الاستعمارية ،ووسائل التحكم والسيطرة التي انفرد بها المستوطن الأوروبي لممارسة سطوته على الأهلي،ولذا نجد أن غلاة المستوطنين وأنصارهم من الإدارة الفرنسية لم يتوانوا كلما سنحت لهم الفرصة للضغط على الحكومة الفرنسية ومجلس النواب الفرنسي بإصدار المزيد من القوانين التي تقيد تحركات الأهلي وتزيد في خضوعه، وتضمن من جهة الأمن والراحة للمستوطن الأوروبي ،وفي هذا السياق صرح بيسون ذات مرة معبرا على لسان الأوروبيين **بقوله :"هناك أمران رئيسيان يجب علينا الانتباه لهما إذا أردنا فرض سيطرتنا على سكان المستعمرة ،وهما اللغة والقانون ،وبهاتين الوسيلتين فرضت روما القديمة سلطتها على الشعوب لمدة طويلة أكثر مما فرضته بقوة الجيش،..وهؤلاء الأنديجان الذين ظلوا متمردين عن نظمنا بفعل معاداة شرائعهم لأفكارنا لا يمكن أبدا إخضاعهم إذا لم نفكك عرى منظومتهم التشريعية ،ومن دون ذلك ستظل فرنسا عاجزة من تحقيق أدنى نصر في الجزائر"**[1].

لقد كان مرسوم 19أوت1854 سيفا مسلطا على رقاب الأهالي ،فقد نص على إنشاء محاكم الأمن ذات الصلاحيات موسعة ، وهي محاكم مستحدثة وفريدة من نوعها تمامًا عن نظيراتها الموجودة بفرنسا أو في الجزائر،والتي أصبحت عنصرًا أساسيًا في العدالة الاستعمارية في الجزائر.إذ أصبح قاضي الأمن منذ هذا التاريخ يتمتع بسلطات واسعة في جميع المسائل ، المدنية والجنائية وبموجب**" أمرية 14 أغسطس 1944"**أضحى بإمكان كل منتسبي العدالة ورجال الأمن وغيرهم ممارسة مهام قاضي الأمن، من قاضي التحقيق ورئيس المحكمة و القاضي المدني ، والقاضي المختص ، وقاضي شرطة ، ووالمدعي العام ، مندوب قاضي التحقيق وضابط الشرطة القضائية. وأن يصدر من تلقاء نفسه كل الأحكام القضائية المناسبة ضد الأهالي في الأرياف، خارج المدن التي لا توجد بها محاكم ابتدائية2.

وجاء في تقرير للسيد فيرولا Vérola ،وهو أحد رجال القضاء الأوروبيين ما يلي:**" ليس المشكل فقط في اختلاف الأنظمة القضائية بين الجزائر والميتروبول ما يعيق نشاط القاضي**

[1] -Ibid,p07.
[2] - Bulletin des lois N°208, 1854,2er trimestre, partie principal ,p-p191-195.

في الجزائر ،على اعتبار وجود نظامين قضائيين في الجزائر،وإنما أيضا الاختلاف في ظروف العمل بين البلدين،وخاصة لدى فئة قضاة الأمن ذوي السلطات الواسعة les « juges de paix à compétence étendue»،والذين كما اقترحتم –الكلام موجه لنقابة القضاة-بضرورة إعطاء نفس السلطات للتي لقضاة الأمن ذوي الاختصاصات الواسعة وحتى ذوي الاختصاصات المقيدة« les juges de paix à compétence restreinte» بفرنسا لنظرائهم في الجزائر"[1].

ويضيف منتقدا النظام القضائي في الجزائر بقوله:"**في فرنسا يوجد نظام قضائي واحد لا يفرق ولا يميز بين أبناء الشعب الواحد ،أما في الجزائر يوجد نظامين قضائيين أحدهما عقابي زجري ،والآخر محابي ومنحاز ،كما أن مهام القضاة وقوة السلطة العقابية في أيديهم تختلف من منطقة لأخرى ،ففي الدوائر الكبيرة ذات الأغلبية الأوروبية يتواجد فيها قضاة الأمن ذوي الاختصاصات المحدودة والمقيدة ،أما في الدوائر الأخرى،أي ذات الأغلبية الأهلية-فيعين فيها قضاة الأمن ذوي الاختصاصات الواسعة ،والذين يملكون صلاحيات كبيرة في ردع الأهالي ..**"[2].

أ-محاربة القضاء الإسلامي

لقد كانت أحد أهداف الوجود الفرنسي في الجزائر توحيد السياسة القضائية ،وإرغام الأهالي المسلمين على التحاكم والإقتضاء عند المحاكم الفرنسية والتخلي تدريجيا عن القضاء الإسلامي ،وهذا الذي حدث ،وأوصى معظم رجال العدالة والقانون بإالغاء الأحكام الاسلامية ،وتوحيد الأحكام القضائية،بذريعة عدم تضارب القوانين وتداخلها[3]،وبالفعل كانت القوانين التي ذكرناها آنفا تندرج ضمن هذا الإطار،ولما تولى" **دوغيدون"** حكم الجزائر أجهز نهائيا على القضاء الإسلامي الذي رأى بأن الحل الأمثل هو توحيد النظام القضائي لصالح الأحكام المدنية ، وإخضاع العدالة الإسلامية كليا وإدماجها واحتواؤها ضمن دواليب المؤسسة القضائية

[1]- Rapport de M Vérola., In Bulletin Officiel de L'Association amicale et de prévoyance des magistrats des tribunaux civils de ressort de la cour d'appel d'Alger ,1ere Année , N°3,4eme trimestre , Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire -Editeur ,1911-Alger,p,p80 ,81.

[2] -Ibid,p78.

[3] -Anonyme,**L'Algérie ,Immigrants et indigènes**,Challamel Editeur et Imprimerie Balme et Cie, Paris,1863,p68.

الاستعمارية ،وفي هذا السياق طالبت المجالس العامة للعمالات الثلاث ، والتي كان يسطر عليها المستوطنون بإلغاء القضاء الإسلامي وإتمام الاحتلال بواسطة سيف القانون والعدالة الفرنسية ،وقد تم لهم ذلك صدرت سلسة من الإجراءات حول تقليص سلطات القضاة المسلمين وتخفيض عدد المحاكم الإسلامية ،وكان لهم ذلك خلال سنوات 1886،1873، 1889[1].

ولأن محاربة القضاء الإسلامي يتطلب قراءة معمقة له ،ومن ثمة فهمه وتأويل نصوصه التشريعية المستمدة من القرآن والسنة ومن الآراء الفقهية للمذهب المالكي ،فقد اهتدى رجال القانون الفرنسي والقضاة الأوروبيون إلى ترجمة النصوص الفقهية المالكية ،لكن، **كيف يمكن ترجمة كل النصوص وفهمها ومن ثم إدارة القضاة الإسلامي؟**.كان الحل في ترجمة كتاب **"المختصر في الفقه المالكي "**ل"**الخليل ابن اسحاق"**،والذي تكفل بترجمته الدكتور **"بيرون"** في الفترة الممتدة مابين 1848-1858[2] ،كما ترجمت مؤلفات أخرى في الفقه المالكي من قبل عدد من القانونيين الكولونياليين،نذكر منهم على سبيل المثال **"صاباتريي"** و**"مايسونيس"** [3].وهذه الطريقة تسنى لرجال القانون الفرنسي من تكييف القضاء الإسلامي مع روح القضاء الفرنسي ،في الحالات التي يجد فيها المشرع الفرنسي نفسه عاجزا على حل مسألة قضائية ما . والجدير بالذكر فإن الأمر لم يشمل معرفة الفقه المالكي ولا أصول الشريعة الإسلامية فحسب نبل تعدى الأمر لفهم ومعرفة كنه المذهب الإباضي[4] ،وعادات وتقاليد القبائل والأعراف والمحاكم العرفية المنعقدة خصوصا في منطقة القبائل والأوراس **"تاجماعت"** ، باختصار درس هؤلاء القانونيين كل تفاصيل الحياة الاجتماعية والنظم القانونية والعرفية والقبلية للقبائل الجزائرية .ولما تم لهم ذلك استطاعوا دمج القضاء الجزائري

[1]- بورغدة (رمضان) ،المرجع السابق،ص304.

[2] - Renucci (Florence), « **le juge et la connaissance du droit indigène, élément de comparaison entre l'Algérie et la Libye aux premier temps de la colonisation** »,le juge et l'outre-mer ,Tome 3,CHJ éditeur, HALS ,France-2007,p,p225,226.

[3]-للإطلاع أكثر على أعمال صاباتي ومايسوناس في مجال القضاء الاسلامي ،ينظر:

Voir, Sabatery(A), **Elément du droit musulman concernant l'exposé de l'organisation de la justice dans le pachalik d'Alger avant 1830,le principe de droit contenu dans le coran classé dans l'ordre du code Napoléon ,la jurisprudence du tribunal supérieur et dans la cour impérial d'Alger , depuis leur création** ,Edition paysant, Alger-1866.

-Voir, Meysonnasse,**Code civil musulman suivant le cadre du code civil, Rite malékite**, Edition Chevalier marescq,Paris-1898.

[4] - Zeys(Ernest) **, législation mozabite, son origine, ses sources , son présent, son avenir**, Paris- 1886,p95.

الإسلامي والتلاعب بالقانون وتسييره لما يخدم مصلحة المستعمر[1]، لاسيما في القضايا التي يتنازع فيها الطرفان المستوطن الأوروبي والأهلي المسلم ،كقضايا العقار والزواج..وغيرها.

ب-التمييز في الأحكام القضائية بين المستوطنين والأهالي

مارس أغلب القضاة وظيفة القضاء بتمييز فاضح وانحياز كبير لصالح الأوربيين على حساب الأهالي، والحق فإن السخط من ازدواجية القضاء ،أوبالأحرى ازدواجية الممارسة القضائية والتمييز في المحاكمات بين أوروبي الجزائر والأهالي ،والانتقادات الموجهة للنظام القضائي لم يقتصر فقط كما رأينا على مستوى رجال السياسة ،بل وجدت صداها أيضا صادرا من رجال القضاء أنفسهم ،فقد ندد العديد من القضاة من المستوطنين على ظروف العمل وعلى عدم وحدة الأحكام القضائية الصادرة ضد بين جميع أبناء المستعمرة .

لا يخفى على أحد بأن القضاة الفرنسيين أو من المستوطنين الذي تكوّنوا في مدراس الحقوق الفرنسية وخضعوا للقوانين الاستعمارية،قد بينوا انحيازهم الكامل للكولون ،وما كانت أحكامهم لتزداد قسوة على الأهالي لولا تمكن الكولون من السيطرة والضغط المتزايد على الجهاز القضائي وعلى رجالاته.ونجد في رسالة لأحد النواب القضائيين عقب انتفاضة عام 1871ما يدعو لتسليط أقسى العقوبات الممكنة ضد الأهالي ،وذلك بعد مقتل عدد من المستوطنين خلال تلك الانتفاضة ،وجاء فيها **:"يرفض المستوطنون رفضا قاطعا استمرار سفك دمائهم ، يجب أن يزال دم المستوطن بدم القاتل الأهلي ،إن العقاب هو الوحيد الضامن لأمن المستعمرة"**[2]،ويبقى في رأي الكثير من رجال الجيش إبقاء الحكم العسكري والأحكام الاستثنائية ضد الأهالي ضرورة حتمتها الظروف الأمنية الظرفية ،تنجلي حتما بانقضاء حالة اللأمن ،وتنتهي مخاوف المستوطنين بانتهاء عنف الأهالي[3].

[1] - Renucci(Florence),op-cit,p226.
[2] - Jalla(Bertrand), « **L'autorité judiciaire dans la répression de 1871 en Algérie** » ,Revue Outre – mer ,Tome 88 ,N°332-333,2eme semestre,Société française Outre – mer,Paris -Novembre 2001,p402.
[3] -Anonyme, **L'Algérie ce qu' elle fut ,ce qu'elle est ,ce qu'elle doit être**, Orlando Librairie-Editeurs, Alger-1878,p44.

ومثلما كان الحال في "**فرنسا فيشي**"كان الحال نفسه في فرنسا الكولونيالية ،طبقت الأحكام الاستثنائية على الأهالي المسلمين بقسوة شديدة وموورست الأحكام العسكرية عليهم بشكل خاص ،الأمر الذي اعتبره الكثير من رجال القانون الفرنسيون وصمة عار في جبين الديمقراطية الفرنسية وخرقا سافرا لمبادئ الجمهورية الفرنسية،فهو على حد تعبيرعالم الاجتماع " **دومينيك شنابر**" « **Dominique Shnapper** » فإن قانون الأنديجينا هو ترسانة من الإجراءات التعسفية والتي تنسف كل ما أنتجه العقل الفرنسي من قيم وقوانين ..إنه قانون يحط من قيمة الإنسان الذي يعيش تحت حكم الجمهورية الفرنسية.."[1].

إن الكثير من اليهود ،وبالأحرى اليهود الأصليين أو لم يسلموا من سلاح العدالة الذي استله المستوطنون ضدهم،الذين أحكموا أيديهم على جهاز العدالة ضد كل من يرفض الانصياع لسياسة فرنسا المحتلة ،وجرّد الكثير من اليهود من حقوقهم القانونية والسياسية ، وزاد الأمر شدّة وتضييّقا خلال الأزمات الكبرى التي مرت بها فرنسا المحتلة ،فحينما سقطت فرنسا بيد النازية الألمانية ،وتولت حكومة فيشي العميلة ،غيرّت الكثير من القوانين ، واجتهد رجال القانون الفرنسيين في إصدار سلسلة من القوانين والإجراءات التشريعية للحد من صلاحيات اليهود في الجزائر ،كما كان الحال بفرنسا –على اعتبار أن العرق اليهودي من الأجناس الهابطة و المتدنية في السلم الحضاري حسب النظرية النازية،ولا تستحق المعاملة كبشر- ففي النشرية التي أصدرتها وزارة العدالة الفرنسية جاء في "**المادتين 4و5** "من القانون الصادر بتاريخ 02جوان 1941،والملغي للقانون الصادر بتاريخ 03أكتوبر 1940 مايلي:**"لايسمح لليهود من ممارسة أي نشاط حر ،وتجاري وإداري ،إلا بموافقة وترخيص من أحد ممثلي هيئة العدالة الفرنسية ،..ومن بين الأنشطة الممنوعة عن اليهود نجد،العمل في البنوك،والبورصات والأسواق المالية والتجارية ،والسمسرة ،والإشهار. "[2].**مما يفسر في

[1] - Meri(Isabelle) ,« **de la l'égalisation» de la violence en contexte colonial, le régime de l'indigénat en question »** ,Revue politix, Revue des sciences sociales du politique, Vol17, N°66, Deuxième trimestre ,2004-Paris,p139.

[2] -Yerri (Urban), « **L'indigène et le juif comme étrangers dans le droit de lanationalité en Algérie vichyste. À propos de l'article 1erde la loi du 17 février 1942 et de l'article 6 de la loi du18 février 1942 Ultramarines** », Revue de l'association des amis des archives d'outre-mer, N° 23,Marseille- 2003, pp. 26-30

الأخير بأن الموقف العام من اليهود كانت تحكمه الظروف السياسية والمتغيرات المحلية والدولية ،وأكدّ على دوما على عدم كفاءة وصرامة جهاز العدالة الفرنسي .

وعلى الرغم من أن "**لجنة راندون بيهيك** "قد خرجت بقرار تؤكد فيه بعدم ملائمة تزويد محكمة الجنايات بهيئة المحلفين خلال محاكمتها لمتهمين مسلمين وبعدالة أفضل ،وأن تتم محاكمة المستوطنين من قبل محلفين مسلمين، ومحاكمة المسلمين من قبل مجلس محلفين يتكون كله من الأوروبيين ،وإبقاء الأمور على حالها ،أي الحفاظ على التشريع الإسلامي بالنسبة للأهالي[1] ،وعلى اعتبار أنه لا يمكن محاكمة مواطنين فرنسيين من قبل هيئة محلفين يشترك فيها مسلمون ليست لهم صفة **"مواطنين فرنسيين"**،إلا أن العديد من القضاة وخاصة قضاة الأمن ضربوا هذا القرار بعرض الحائط ،بالرغم من القانون لم يقر بمحاكمة أهالي مسلمين من قبل هيئة محلفين تتشكل كليا من مستوطنين كانوا يعتبرون الأهالي الأعداء الطبيعيين لهم ، بمعنى أن حياد هيئة المحكمة غير موجود ،وهو ما يطعن في شرعية أحكامها على الأقل من الناحية الأخلاقية فإن وزير العدل السيد كريميو أمضى بدافع -روح الإدماج – مرسوما عرض عليه يوم 20أكتوبر 1870على تأسيس هيئة محلفين لدى مستوى محاكم الجنايات في الجزائر ، وعلى الرغم من معارضة الحاكم العام دوغيدون ،الذي سعى إلى إلغاء هذا المرسوم والعودة إلى العمل بنظام محاكم الجنايات المشكلة فقط من قضاة متصرفين ،التي كان يراها الأنسب لضمان المحاكمة العادلة ،وتنهي بطش المستوطنين على الأهالي بسيف القانون ومطرقة العدالة ،حيث علق قائلا :"**يحق لنا الرعب من كثرة أحكام الإعدام المسلطة على العرب في كل دورة جنائية**"[2].وفي تصريح آخر للحاكم شانزي الذي شغل منصب الحاكم العام للجزائر فيما بين 25 جوان1873-18فيفري 1878،فقد أبدى سخطه على **"عدالة غريبة** " وضعت من قبل راديكاليي قسنطينة ،حيث كرر التماسه لإلغاء هيئة المحلفين يوم 14أفريل 1874 صرح:"**يجب أن تلغى هيئة المحلفين أو تنوع منها على الأقل سلطة البت في جنح الاستعجال والتهم المنسوبة للأهالي ، و تعتبرهم مذنبين مهما كانت براءتهم** ".و فعلا جاءت الاستجابة لهذه النداءات بأن كلفت الحكومة الفرنسية لجنة في شهر أفريل 1874خلص

[1]-أجيرون (شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا**،ج2،المرجع السابق،ص،ص386، 387.
[2]- بورغدة (رمضان)،المرجع السابق،ص،ص304، 305.

تقريرها إلى أن هيئة المحلفين بدت عاجزة عن التخلص من الأحكام العنصرية المسبقة ،وعدم تمكن الأهالي العيش تحت عدالة فرنسية محايدة ومنصفة ،ومع ذلك فإن اللجنة المكلفة بمراجعة هذا القانون برئاسة كريميو رفضت بشكل قاطع إلغاء هيئة المحلفين ، وهو ما بين تعاظم نفوذ وتأثير المستوطنين في الجزائر على صناع القرار بباريس ،الذين شنوا حملات دعائية قوية على الحاكم العام شانزي الذي اتهم بأنه يسعى لتجريدهم من أقوى سلاح ضد الأهالي وهو العدالة ،وأصروا على استمرار العمل بها رغم الأعباء المالية الكبيرة وتحمل مشاق السفر التي كابدها المستوطنون نتيجة اضطلاعهم بوظيفة هيئة المحلفين ،لأنها تشعرهم بقدرتهم الهائلة على قمع الأهالي ،وتشعر الأهالي بسلطة عليا يملكها فقط أسيادهم المستوطنون ،وهو ما ذهب إليه الدكتور" **تروﻻر** "أحد ممثلي المستوطنين في المجلس العام لعمالة قسنطينة لما قال:"**إنه لأمر حيوي أن يدرك الأهالي بأن المستوطن يمكن أن يصبح قاضيا يحاكمه في اللحظة المناسبة** "[1].

لقد كان لتغيير النظام العدلي وتجريد القضاء الّإسلامي من صلاحياته وإلحاقه تحت رقابة رجال والقانون في الجزائر ،أثره البالغ على حياة الأهالي الاجتماعية والاقتصادية ،حتى أصبحت حياة الإنسان الأهلي رهينة رجال الإدارة والقانون والسلطات المحلية وأعوانها ، الذين أضحت تلك القوانين الزجرية والتعسفية مجرد أدوات للقمع والنهب والإذلال.فقد أصبح حراس الغابات ورجال الدرك في الأرياف سادة وجلادون يصادرون ما شاءوا من ممتلكات الأهالي ،وتفننوا في إصدار شتى العقوبات في حقهم ،أحيانا تحت سيف العدالة الفرنسية ، وحينا بدون العودة إلى النظام القضائي الفرنسي ،وزيادة على ذلك فقد سلبت باسم تلك العدالة وتحت عنوان سيادة القانون أغلب العقارات والأملاك وتحولت بيد المستوطنين[2]،وحتى الإصلاحات التي أدخلها قانونا 1902،و1903على النظام القضائي الاستعماري لم تصل إلى غاياتها في توحيد الأحكام القضائية وبلوغ تصور معين لعدالة يحتكم إليها الجميع في المستعمرة .مادام هناك أحكام تصدر من قضاة مشكوك في نزاهتهم تسيرهم الأفكار االمسبقة

[1]- المرجع نفسه،ص،ص306،307.

[2]- بكار(محمد)،"**النظام الإداري الاستعماري والمجتمع الجزائري 1830-1962**"، journal international of Innovative research in humain sciences,. Vol1,Issue35-43,17Octobre 2017 ، ص41.

ضد الأهالي بالرغم من أن القرار الذي خلص إليه تحقيق مجلس الشيوخ ، والصادر سنة 1892كان قد أوصى بضرورة تطبيق النص القانوني على الأهالي بكل مسئولية وبلا انحياز[1].

أعاد قانون 1892-والذي بقي ساري المفعول حتى الاستقلال-بعض الحياة للقضاء الإسلامي ، إذ منح للقضاة المسلمين الحرية الانتقال للمناطق الأهلية للبث في المسائل المدنية كأمور الزواج والطلاق والمواريث،حيث اعتبر المرسوم أن حكم القاضي المسلم نهائي وغير قابل للاستئناف في المنازعات التي لا تزيد قيمتها عن 200 فرنك فرنسي [2]، وبذلك استرجع القاضي المسلم نوعا من سلطاته القضائية ومركزه الاجتماعي .

4-قانون الأهالي مثالا لتحيّز العدالة الاستعمارية ورمزا آخر لعنصرية مستوطني الجزائر

عكس قانون الأنديجانا روح المستعمر وطباعه ،وكان وجها آخر لسلوكه العنصري ضد الإنسان الأهلي ،وقد تطوّر بتطوّر النظام الاستعماري قبل أن يكون مرتبطا بالتشريع الاستعماري ،وإذا ما تتبعنا هذا التشريع ،فإننا نسجل أحكام هذا القانون قد بدأت فعليا مع أوامر الجنرال بيجو إلى ضباطه العسكريين ،والتي منحت لهم صلاحيات مطلقة لمعاقبة الجزائريين بقسوة وبسرعة .ومنذ الاحتلال منحت القيادات العسكرية صلاحيات واسعة جدا خارجة عن القضاء ومناقضة له ،ولذا فلم يكن قانون الأنديجانا وليد انتفاضة 1871،بل هو تراكمات لحقبة طويلة من الاضطهاد ،وليس ما يهمنا هنا الغوص في تفاصيل القانون بقدر ما يهمنا هو حيثيات استعماله وأثاره السلبية على حياة ونفسية الأهلي المسلم

لقد جرت العادة أن اعتبر رجال القانون والإدارة بأن القانون هو جملة من الإجراءات المؤقتة ترتبط انتفاء صلاحيتها بمدى استتباب الأمن ،وتقبل الأهالي الخضوع لمنظومة القضاء الفرنسي ،ولكن رغم ذلك ،فقد تم تجديده تسع مرات ،بل وزيد عدد العقوبات والقوانين الزجرية فيه تبعا للتطورات الأمنية،وكلما زاد ضغط المستوطنين من الإدارة الاستعمارية وتعاظمت اتهاماتهم لها بالتخاذل والتقاعس ،فقد أعطي في قانون" **28جوان 1881**"للحكام الإداريين في البلديات المختلطة صلاحيات جديدة لاستعمالهم القمع والتعسف لمدة سبع سنوات

[1] - Larcher(Emile) et Rectenwald (Georges),op-cit,p03.

[2]-بورغدة (رمضان)،المرجع السابق،ص310.

،ثم مددت لسنتين عام 1888[1]،ثم مرة أخرى لمدة سبع سنوات عام 1890،وإلى ست سنوات عام 1897، ثم مدد مرة أخرى عام 1914 واستمر العمل به لمدة أطول ،رغم معارضة بعض النواب الأحرار في البرلمان الفرنسي ،الذين اعتبروه تشويها لصورة فرنسا .فقد صرح النائب **"ماريوس موتي":"بأن سلطة الإدارة في الجزائر لها صلاحيات واسعة فيما يتعلق بالحجز والاعتقال والمحاكمة ،وهذا أمر غير معقول "**[2].

فلا غرو، أن تلك الأحكام التي أصدرتها العدالة إنما كانت تخفي أغراضا سياسية تعبر عما في نفوس فرنسيي الجزائر من ضغينة وحقد ضد الجيش وتعطي لمحة عن تصوراتهم المستقبل الجزائر؛ ولئن بدت هذه العدالة الثورية، بشكل ما، في صالح زعماء المتمردين إلا أنها كانت سببا فيما أصاب القبائل من ويلات،ولم يبق هنا حسب التقاليد العسكرية خصوم ولا أعداء إقطاعيون. وأصبحت القبائل المتمردة تعتبر مجرد جماعات شقت عصا الطاعة و تطاولت على السلطة الفرنسية وأصبحت**" الشرعية الجمهورية "** التي تذرع بها المستوطنون ،سلاحا فتاكا لقمع التمرد.إذ تشير الاحصائيات التي تقدمها وزارة العدل ارتفاع عدد المتهمين من الأهالي عكس الفرنسيين وبقيةالمستوطنين ليس لأن عددالاهالي أكبر،وإنما يعود ذلك لطبيعة قانون الأهالي الذي احتوى على مواد عقابية أكثر منها تّأديبية أونصوص تشريعية لحفظ الأمن . الجدول يوضح عدد المقدمين لمحاكم الجنح سنوات1881-1887[3]

	الفرنسيون	الأجانب(يقصد بقية المستوطنين)	المسلمون الأهالي
1881	1793	2419	9673
1883	1623	1991	8893
1885	1031	2052	7308
1887	2287	1998	8002

[1]-تم تمديد العمل بقانون الأنديجانا سنتين وذلك في القانون الذي صدر في 27 جوان 1888،والذي جاء فيه الفترة المحددة للقانون تسع سنوات بدل سبع سنوات ،التي أقرها قانون 28جوان 1881.ينظر :

-Journal officiel de la république française du 28juin 1888.
-Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie,1888,p1018.

[2]- بكار(محمد)،المرجع السابق،ص43

[3]- أجيرون (شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا**،ج2،المرجع السابق،ص442.

نستنتج من الجدول ارتفاعا في عدد المتهمين المسلمين ولكنه ليس أكثر من مستوطني الجزائر من الفرنسيين وبقية الأوروبيين ،فإذا جمعنا عدد المتهمين من الأوروبيين عموما سنجده حوال نصف المتهمين الأوروبيين ،بالرغم من أن عدد السكان من الأهالي يفوق حوالي 9مرات ضعف الأوروبيين ،وما يوحيه لنا الجدول سوى لظاهرة واحدة ومميزة ، وهي طبيعة الفرد الأوروبي العنيفة ،والتي تتجاوز أحيانا طبيهعة الأهلي،والذي ترجع أسباب تمرده ومحاكمته في الأخير ،هي ثورته الدائمة على قانون أقل مايقال عنه أنه ضد العدالة.

تذكر المصادر الرسمية للحكومة العامة بالجزائر بأن عدد الأحكام الصادرة من قبل الحكام الإداريين للبلديات المختلطة في نهاية السداسي الثاني من عام 1906 وبداية السداسي الأول من سنة 1907وفقا لقانون24 ديسمبر 1904قد بلغت 28201محاكمة أي بزيادة قدرها 5.852محاكمة مقارنة مع المحاكمات التي صدرت قبلها .ومن الواضح بأن هذه الأرقام نشرت باستمرار لتبرير استمرار العمل بقانون الأهالي .وهي موزعة على الشكل الآتي[1]:

العمالات الجزائرية	الفترة 1905-1906	الفترة 1906-1907	الفرق
عمالة الجزائر	5456	6972	+1516
عمالة وهران	6128	6170	+42
عمالة قسنطينة	11765	15059	+3294

وفي تقرير لموريس فيوليت سنة 1927يظهر لنا العدد الكبير من المخالفات والعقوبات المسجلة ضد الأهالي في البلديات المختلطة ما بين 1914-1925،في الجدول التالي [2]:

قانون الأهالي في مجموع البلديات المختلطة	1914-1925
-مجموع المخالفات	39184
-مجموع الغرامات	215884
-مجموع أيام السجن	141323

خلاصـــة

[1] – بكار (محمد)،المرجع السابق،ص44.
[2]- نفسه،ص45.

1/لقد استعانت السلطة المحتلة ومعها عدد كبير من القانونيين من المستوطنين في ةضع منظومة قانونية كولونيالية تخدم بالدرجة الأولى مصلحة المستعمرين ، بحيث عملت على إضعاف مركز القضاة المسليمن وتحجيم دور القضاء الإسلامي ،وإرساء القوانين الفرنسية .

2/لقد حارب القانونيين من الفرنسيين وممن تقلّد مناصب القضاء والتشريع في الجزائر المستعمرة القضاء الإسلامي ليس فقط بدافع الإلحاق والإدماج الكلي للمجتمع الاهلي ومؤسساته التشريعية والقضائية ،ولكن أيضا بهدف محاربة روح المقاومة و التمسك بالثوابت الوطنية والدينية

3/سيطر المستوطن على القضاء وتقلّد مختلف المناصب ومارس من خلال تلك المنظومة القضائية الاستعمارية سطوته على الأهلي ،وجاعلا من المحكمة أداة لفرض سيطرته على مختلف جوانب الحياة ،وأكثر من ذلك أخرج الأهلي في فترات عديدة من تلك المنظومة وجعله أسيرا لمجموعة من الإجراءات الزجرية والعقابية تحت مسمى قانون الأهالي .

رابعا:المستوطنون والممارسة الإعلامية في الصحافة المكتوبة والإذاعة بين العمل الأخلاقي والميول الاستعمارية

مثلت الصحافة أحد الأدوات المؤثرة في الجماهير والتي اعتمدت عليها الدولة الاستعمارية لتمرير خطابها الاستعماري،والتي جنت لها كوكبة من الموظفين الصحفين ورجال الإعلام من المستوطنين للدفاع عن المصلحة الاستعمارية أولا،ومصلحة المستوطنين بالدرجة الثانية ، ولأجل ذلك كانت الجرائد من أول الأشياء التي جلبتها الحملة الفرنسية إلى الجزائر،وأحدى أهم الوسائل الثقافية التي أولى لها المستعمر الاهتمام الكبير. وبقدر ما تنوعت في عناوينها ، ومواضيعها واهتماماتها فقد تنوعت أيضا في خطابها وموقفها من القضايا التي تهم المستعمرة وتمس سكانها وخصوصا الأهالي.**فإلى أي مدى يمكن اعتبار الصحافة وسيلة دعائية**

للمشروع الاستعماري ؟وكيف مثلت أداة استخدمها المستوطنون في توصيل خطابهم ؟ وما وضع الأهالي في الكتابة الصحفية ؟.

1-الصحافة المكتوبة

لم يكن نتاج الصحافة الاستعمارية يصب في الفراغ، بل كان يقوم على أرضية أنتجتها **"المؤسسات الإيديولوجية "** المختلفة التي اشتركت كل واحدة من جهتها، في إنتاج المواقف والقناعات نفسها،لكن بأساليب مختلفة، باختلاف خصوصية المؤسسة.فحول المواقف والقناعاتنفسها تلتقي الأغنيةالاستعمارية،والأدب ،والصحافة والسينما الاستعمارية[1] .

أ- الصحافة الكولونيالية ومهمة الدعاية للمشروع الاستعماري

كان الاستعمار الفرنسي يرى الصحيفة من بين الوسائل الهامة والأساسية التي تمكنه من السيطرة على الشعب الجزائري ،بدليل أن المطبعة كانت ضمن العتاد الحربي الذي حمله الجيش الفرنسي في غزو الجزائر سنة 1830.وقد باشرت هذه المطبعة عملها بطبع أول صحيفة استعمارية تحت اسم **"ليستفات دو سيدي فرج "** [2]التي كان يسهر على إنجازاتها الجيش الفرنسي وتوزع على الجنود والضباط لتوعيتهم بمهماتهم وبالهدف من احتلال الجزائر[3]،ولكن سرعان ما انقطعت هذه الصحيفة ، وظهرت بعدها صحيفة **"المرشد المونيتور ألجيريان"** في سنة1848 في عهد الحاكم الفرنسي **"دي روفيقو"** ،وهي بمثابة الجريدة الرسمية للحكم الفرنسي في الجزائر،وهي أول جريدة تنشيء لها ملحقا عربيا، رغم أن عربيتها كانت ركيكة صعبة الفهم إلا أنها كانت تعتبر أول صحيفة تصدر في الجزائر وتخاطب الجزائريين بلغتهم ، حجبت سنة سنة ...ثم عادت للظهور بعد 1862تحت اسم**"مونيتور الجزائر"**، ثم توقفت نهائياسنة 1871[4] .

---

[1]-العياض(نصر الدين)،" **الخطاب الصحفي الاستعماري في ظروف الأزمة"**،مجلة المصادر،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954،العدد1،الأول،1999،ص17.

[2]- أوهابية (فتيحة) ،" **الصحافة المكتوبة في الجزائر"**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 16، جامعة باجي مختار عنابة، 2014م، ص 253.

[3]- العياض(نصر الدين)،المرجع السابق،ص16

[4]-سعد الله (أبو القاسم)،**تاريخ الجزائر الثقافي** ،ج5 ،ط1،دار الغرب الاسلامي للطبع،بيروت ،لبنان- 1998، ص214.

واصلت هذه المهمة عدة صحف أخرى لعل أهمها هي "**صحيفةَ المبشر**"َالتي واكبت توسع الاستعمار الفرنسي ليغطي كامل التراب الجزائري،وسعت إلى إطلاع الجزائريين على مختلف القوانين والتشريعات الاستعمارية (قوانين الأملاك العقارية،التنظيم الإداري ....)[1].

يقصد إذن بالصحافة الحكومية، هي تلك الصحافة التي كانت تشرف عليها الحكومة الفرنسية بواسطة ممثلها الدائم الوالي العام،ومعه الإدارة الاستعمارية ،ويكون هذا الإشراف مباشرا مثلما كان في جريدة" **المبشر**"،وقد يكون غير مباشرا ،يتمثل في إقامة توجيه سياسي مستمر،وفي تغطية النفقات المالية بواسطة إعانة معتبرة مثلما كان في جريدة" **النجاح**" وجريدة" **كوكب إفريقيا** "بعدها.

والملاحظ فإن الصحافة الحكومية لم تعرف تعددا كبيرا نظرا للوضع القانوني الفرنسي، الذي لا يسمح للحكومة بامتلاك الصحف ولكن بتقديم إعانة مالية للبعض فقط.

كانت جريدة" **المبشر**" أوّل جريدة فرنسية حكومية باللغة العربية أرادت منها السلطة المحتلة توصيل تعليمات الإدارة الفرنسية للأهالي ،وواسطة للتفاهم مع الأهالي المسلمين ، والتأثيرعليهم،وترجع أول محاولة في هذا الصدد إلى عام 1847،وبالضبط لما صدر العدد الأول منها ،وذلك بتاريخ15سبمتبر 1847،وجاء في صفحتها الافتتاحية بأنها تصدر مرتين في الشهر ،وأنها ستنشر الأوامر والتعليمات التي يصدرها رؤساء العمالات والدوائر إلى الموظفين ،كما أنها ستنقل التعليمات الحكومية للأهالي المسلمين[2] .

لم يكن حجم وصفحات جريدة "**المبشر**" بالكبير ،إذ لم تتجاوز عدد صفحاتها الأربع ، وكانت الترجمة العربية تقريبية وركيكة،وليس لها قيمة صحفية كبيرة ،كما أن المحررين من الأهالي لم يكونوا ذا قدر من الثقافة الأدبية ،ولكن هذه التجربة بالرغم ما كانت تحمله من عيوب وثغرات يمكن أن نلمح فيها بعض الجوانب الأيجابية .

[1]- العياض(نصر الدين)،المرجع السابق،ص،ص16،17 .
[2]- عبد الرحمان (عواطف)،**الصحافة العربية في الجزائر (دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية)1945-1962**، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر -1985،ص 27.

والحقيقة فإن " **المبشر**" كانت بمثابة المخبر والمدرسة الصحفية التي تخرج منها العديد من الصحافيين الجزائريين والكولونياليين الأوائل ،فمن بين الصحفيين الجزائريين الأوائل نجد الصحفيان "**محمود كحوال ومامي اسماعيل**" الذان ّأسندت لهما سلطة الاحتلال إدارة جريدة "**كوكب أفريقيا**"(مابين 1907-1914)و "**النجاح** "(مابين 1919-1956)، اللذان عوضتا "**المبشر**".ومع ذلك فلم تكن الصحافة الحكومية إلا ركيزة لتثبيت الوجود الكولونيالي، أما كونها كانت تكتب بالعربية فليس إلا للتقرب من الأهالي المسلمين وتقريبهم للإدارة الفرنسية[1] .

ولقد مرت جريدة" **المبشر**" بثلاث مراحل ،فالمرحلة الأولى كانت تتولى نشر مراسيم وقوانين الإدارة الفرنسية ،وتغطي نشاطاتها ،ولحوالي عشرسنوات لم تعرف هذه الجريدة الحكومي النجاح الباهر ،إلا في المرحلة الثانية ،وهي المرحلة المهمة التي لعبت فيها دورا ثقافيا معتبرا فأسندت رئاسة تحرير الجريدة إلى بعض الشخصيات المثقفة الجزائرية ،التي كانت لا ترى مانعا في التعامل مع المستوطنين ومع رجال إدارة الاحتلال ،مامدام هذا النشاط يقتصر على النشاط الثقافي العربي الاسلامي.ومن هذه الشخصيات نذكر" **الشيخ البدوي** "،"**الشيخ الحفناوي**" والشيخ "**ابن خوجة الكمال**" و**الشيخ** "**ابن زكري**" .وبفضل هؤلاء أصبحت جريدة المبشر زيادة على ما كانت تقوم به في المرحلة الأولى تقوم بنشاط ثقافي ملحوظ كنشر المقالات الهامة في الأدل والفلسفة والدين والتاريخ والعلوم الدقيقة[2] ،أما في المرحلة الأخير وهي بين الحربين تراجع نشاط هذه الجريدة لصالح جرائد كولونيالية وأهلية كثيرة ولم يصبح لها وجود كبير أو متابعون كثر.

ولأهميتها ،فقد بلغ حجم الاهتمام الفرنسي بالصحافة درجة التأطير شبه الكامل للوجود الاستعماري في الجزائر،على الصعيدين الافقي (توجد صحيفة واحدة على الأقل في كل مركز عمراني فيه معمرون فرنسيون)،وعلى الصعيد العمودي (صدور صحف ناطقة باسم التكتلات

[1]-احدادن (زهير)،المرجع السابق،ص27،28.
[2]-إحدادن (زهير)،المرجع السابق،ص28.

المهنية،لعل أبرزها "**صحيفة التل**" الناطقة باسم الفرنسيين مالكي الأراضي الزراعية التي تأسست في سنة 1864في البليدة[1].

لم تخرج جريدة المبشر ولا الجرائد الحكومية عن الطابع الدعائي والترويجي للسياسة الاستعمارية فقد كان محرروها وصحفيوها جنودا في الصفوف الأولى للدفاع عن سياسة التوسع والتوغل الاستعماري في الجزائر وفي دعم أركان الاستيطان وعن مصالح المعمر ، والمبالغة في مدح الشخصيات الاستعمارية ،والتي بحسبها قدمت حياتها وجهدها لضمان وحدة الجزائر بفرنسا ،وفي وقف مقاومة الأهالي وأعمالهم العدائية ضد فرنسا على حد تعبيرها . ومع أن الصحافة كانت إحدى المؤسسات الثقافية و الأدوات السياسية والإعلامية التي استخدمها المستعمِر لتوجيه الرأي العام داخل المستعمَرة ،كانت ولادة التجربة الصحفية الكولونيالية في الجزائر صعبة ،ليس لقة الخبرة لدى الصحفيين الأوائل ،أو بسبب قلة الإمكانات ،وضعف الإقبال من المستوطن والأهلي معا،ولكن أيضا لسياسة حكومة الاحتلال التي كانت تضايق العمل الصحفي الحر ،وتخنق أي رأي معارض حتى ولو كان ذلك الصوت يأتي من جهة موالية للتوجهات العامة السائدة خلال تلك الفترة .فقد كتب الباحث في الشأن الصحفي خلال فترة الاحتلال الكاتب كيف كان الحاكم العام بيليسي يضايق الأصوات الديمقراطية المنتقدة لأداء الحكومة العامة للحياة العامة في الجزائر ،وكيف حاول بيليسي كبت صوت بعض الجرائد الكولونيالية ،كجريدة" **سيبيوس دي بون" Seybousse de bone**»،**وجريدة "الأفريكان "L'africain**»،وسعيه لوقف صدور جريدة **"لوكوريي "** «**Le courrier** »بمجرد إصدار مقال يوم 25 فيفري 1852انتقدت كاتبها ،واسمه المستعار "**رونار**"سياسة بيليسي [2].

لجعل الصحافة أداة طيعة وخادمة للسياسة الاستعمارية ،أصدرت حكومة الاحتلال قرار يجعل من الصحافة تحت رقابة السلطة السياسية والجهاز التنفيذي للحاكم العام ،ولم تنتزع الصحافة الكولونيالية حريتها إلا في نهاية القرن التاسع عشر،حينما أصدرت الحكومة

[1]- العياض(نصر الدين)،المرجع السابق،ص17.

[2] - Bonnardot (J), « **La presse algérienne sous le Second empire** ». Revue des révolutions contemporaines, Tome 41,Numéro 184, novembre 1949,p,p16,17.

الفرنسية عدة مراسيم تتيح الصحفي المساحة الكبيرة في حرية التفكير والممارسة الصحفية، وقد جاء في القرار المنظم للصحافة المعلن عنه في 28مارس 1852في الجزائر ما يلي:

المادة الأولى : تشرف حكومة العامة للجزائر على مراقبة ممارسة الصحافة ،بحيث يحق لها الترخيص لإصدار الجرائد ،كما يحق لها وقف كل جريدة تتعدى حدود العمل الصحفي.

المادة الثانية:لا يمكن لأي عدد في الصدور إلا بموافقة قبلية من الهيئة الوصية وعلى رأسها الحاكم العام .

المادة الثالثة :لايمكن طبع أي ورقة مكتوبة عدا النشريات والقرارات ..التي تصدرها الهيئات الرسمية كالمحاكم أو الهيئة العسكرية ..إلا بترخيص من الحاكم العام أو حكام المقاطعات [1].

والواقع فإن هذا القرار والقرارات والمراسيم الأخرى التي تلته سنوات الستينات –بفضل سياسة الأمير جيروم نابوليون المشجعة على انبعاث صحافة حكومية في الجزائر،وعلى الرغم من عدم استقلاليتها الكاملة فقد كانت تجربة مهدت لميلاد صحافة حرة ،وكان بدأت تبصر النور بعد صدورالقانون المنظم للصحافة في فرنسا والجزائر لعام 1887،الذي وضع أرضية مناسبة لصدور جرائد متنوعة المواضيع ومختلفة الاتجاهات الإيديولوجية ففي الفترة التي سبقت عام 1870،صدرت عشرات الجرائد مابين ماهو يومي وأسبوعي ،وما بين ماهو وطني و محلي،نذكر منها: (l’indepandant de canstantine,le courrier d’oran,le Moniteur,l’obsarvateur,l’echoc de setif ,l’echoc d’Alger,le courrier de telemcen,….)،وإذا كانت بعض الصحف الكبرى .

أما عمّا يقال عن حرية التعبير ،فقد كانت متوفرة إلى حد بعيد ،ففي الوقت الذي كان نصيب الصحافة الأهلية التضيق والملاحقة القانونية وفي حالات كثيرالمصادرة .فإن الكثير من الصحفيين الكولونياليين كانوا في حماية القانون ما دام القلم في خدمة السياسية الاستعمارية العامة ،إلا إذا كان الانتقاد حادا ويعرض أمن المستعمرة ويمس بهيبة الدولة،مثلما حدث

[1] -Ibid,p19.

لصحيفة l'indepandant de canstantine التي تعرضت للغلق المؤقت وحبس عدد من صحفيها لمدة 15يوم بسبب انتقادها لقانون تعيين قضاة الصلح وقضاة المحاكم الابتدائية [1].

لم تزدهر الصحافة الكولونيالية بكل اتجاهاتها وألوانها السياسية –سواء حكومية أو خاصة- إلا بعد عام 1870لما تحسنت الأوضاع السياسية وتراجع حدة المقاومة الوطنية ،حيث ازدهرت الصحف وكثرت عناوينها ّ،ومست ميادين عدة ،وقد وجدت دعما من الحكومات المتعاقبة خلال فترة الحكم الجمهوري 1870-1919سواء من حيث توفير المطابع والمادة الأولية ،وحتى التسهيل لها في الدعاية والإشهار،وغضت النظر على انتقاداتها اللاذعة .

لكن الحال تغير خلال الفترة التي تلت الحرب الكونية الأولى ، إذ تأثرت جرائد ما بين الحربين أيضا بالظروف الاقتصادية الصعبة، وكانت سببا مباشرا في عودة البعض منها إلى الصدور أحيانا، وتخصصها في انتقاد ذلك الوضع الصعب من خلال أعمدة صحفية منتظمة. للإشارة أن هذا الوضع الاقتصادي السلبي حتّم على الجرائد التأقلم مع هذا الواقع والبحث عن مصادر تمويل متعددة، ولكي تستمر تلك الصحف في الصدور بانتظام، فإن أصحابها أخذوا يتأقلمون مع الوضع الذي فرضته تلك الأزمة، وذلك بالبحث عن شتى المصادر لتمويلها .ومن جهة أخرى، أوجد الواقع السياسي، الذي أفرزته الحرب العالمية الأولى، حاجة لدى الأوربيين إلى متابعة ما يجري من أحداث في العالم من خلال مطالعة الصحف .ذلك ما سيؤدي إلى ميلاد الصحافة الإخبارية بالتزامن مع التطور الذي عرفته الطباعة ووسائل الاتصال كالتلغراف والهاتف[2].

أما من ناحية التمويل، فإن الميزة المشتركة للجرائد خلال هذه الفترة فكان بحثها المتواصل عن الإشهار بغض النظر عن خطها السياسي، وبذلك لم يمنع حرص تلك العناوين على الإشارة إلى استعدادها لنشر كافة القرارات والإعلانات الشرعية والقانونية باللغتين الفرنسية والعربية، من اللجوء في تلك الفترة إلى تخصيص مساحات واسعة من صفحاتها للإشهار، تتجاوز كثيرا تلك المساحات المخصصة للمادة الإعلامية ذاتها (فكانت المساحة المخصصة

[1] -Bonnardot (J),op-cit,p.28

[2] -ديلمي (عزوز)،**"وزن المستوطنين في السياسة الاستعمارية :موقف صحافة مستوطني عمالة قسنطينة ما بين الحربين** ،مجلة العلوم الانسانية ، عدد37،جامعة منتوري قسنطينة،جوان 2012،ص59.

للإشهار تصل أحيانا إلى 70% من إجمالي مساحة الجريدة) ، وقد تلجأ أحيانا أخرى إلى ترك مساحات فارغة معروضة للكراء(أي للإشهار)، وكثيرا ما تعالت أصوات الأسبوعيات لمطالبة الإدارة بحقها في نشر القرارات الإدارية على غرار اليوميات. أما في مجال الطباعة، ففي الوقت الذي استفادت فيه الجرائد - وخاصة الكبرى منها خلال فترة ما بين الحربين - من الوسائل التقنية الحديثة المعمول بها، بما في ذلك أهم الصحف الكبرى في فرنسا آنذاك، فإن الجرائد الصغيرة والمحلية استمرت في استعمال وسائل تقنية متواضعة، مع محاولتها استغلال الإمكانيات الحديثة بصفة تدريجية[1].

ب--اتجاهات صحافة المستوطنين وقراءة تحليلية لأهم صحفها

ظلت صحافة المستوطنين الأوروبيين ذات طابع متواضع حتى سنة 1848،وقد أثرت عليها أحداث وصبغتها باللون السياسي نظرا للأحداث المتلاحقة خلال تلك الفترة ،ومن أهمها حرب عبد القادر،وإعلان الجمهورية الثانية (23فيفري 1848)،إذ تركت هذه الأحداث آثارها على الحياة السياسية للأقلية الأوروبية في الجزائر ،وبالتالي على الصحافة الناطقة باسم هذه الأقلية ،والتي لم تلبث أن أخذت في النمو والاتساع حتى الحرب العالمية الثانية[2].

لايمكن إحصاء عدد الصحف الناطقة باسم أوروبي الجزائر ،فهي على كثرتها هي كذلك متنوعة،ومختلفة الاهتمامات والتوجهات ،واختلفت ما بين ماهو محلي خاص بكل مدينة تقريبا وماهو جهوي وماهو وطني ،كما اختلفت في مجال اهتمامها بين ما هو مختص في السياسة والأحداث الكبرى المتعلقة بالمستعمرة وبفرنسا ،وماهو مختص في الاقتصاد وماهو مختص وبالمجتمع ،كما كانت في إصداراتها بين اليومي والأسبوعي والشهري . ففي مدينة الجزائر لوحدها تجاوز عدد الصحف الناطقة باسم الأقلية الأوروبية مطلع القرن العشرين 12 صحيفة ما بين اليومي والأسبوعي والمجلة الشهرية ،ونفس الحال يكاد ينطبق في كل المدن وخاصة الكبرى منها ، كوهران،والتي ظهرت فيها عدد من الصحف تمثل الجالية الاسبانية ،مثل جريدة "صدى وهران "و"لاميكيرا"La Mekerra» .

[1]- المرجع نفسه،ص60.
[2]- عبد الرحمان (عواطف)،المرجع السابق ،ص29.

*-صحافة الكولون المتشددة أو اليمين المتطرف -جريدة صدى الجزائر « L' cho d'Alger » كنموذج

تعددت الصحف اليمينة المتشددة والتي عادة ماتمثل صوت الأقلية الأوروبية المتشددة ،والتي كانت تنتفض كل أقدمت فرنسا على عمل يحسن حالة المسلمين ولوقليلا،ويعطيهم الأمل في واقع أفضل ،فقد كان همها الدفاع عن مصالح الكولون ،وإبراز إنجازاتهم ،والضغط بكل ماأوتيت من قوة على حكومة الاحتلال لتقديم المزيد من التنازلات لصالحهم ،ولعل من بين تلك الصحف اليمينية نجد "لاغازيت دولالجيري" la Gazette de L'Algérie »وجريدة « L'Antijuif »[1]لتي ذاع صيتها أواخر القرن19،ومطلع القرن 20،التي تبنت الخط الذي يطالب بالإدماج الكلي للمستوطنين ،وهي في الأغلب من فرنسي الجزائر ،إلى جانب ذلك نجد جريدة "لابراس ألجيريان"« La presse Algérienne » ،وجرائد كُثُر لا يسع المجال لذكرها ،ونكتفي بمثال واحد واهو جريدة "صدى الجزائر"ذات الصيت الواسع ،وطويلة الصدور.

تعتبرجريدة " **صدى الجزائر"** من أقدم و أعرق الصحف الاستعمارية في الجزائر، والتي ظهرت في مطلع القرن العشرين ،في فترة عرفت بتطور "الصحافة الشعبية ذات السحب الكبير"(1871-1914)حيث أصبحت الجريدة في هذه الفترة أكثر وطلبا وأوسع انتشارا ، وهو العصر الذهبي الذي واكب الصحافة عموما بفضل تطور تقنيات و وسائل الطباعة وتوفر حرية الصحافة ،إذ تضاعف عناوين الصحف في الجزائر بشكل خاص والعالم بشكل عام ،وأصبح لهذه الصحف نفوذ سياسي كبير ،كما أصبحت تعطي للكثير من الأزمات بعدا وطنيا قوميا[2]، وفي هذا السياق ظهرت جريدة « **L' cho d'Alger** »[3] في الجزائر حتى تواكب تطور فئة المستوطنين ونفوذهم المتعاظم ،فبالإضافة إلى وزنهم الاقتصادي تمكن هؤلاء من إحراز نفوذ موازي في المجال السياسي -لاسيما خلال انتصاراتهم المخلدة كاحتفالات مئوية

[1]-أنظر الجريدة في الملحق رقم 10،ص492

[2]-بوضربة(أحمد)، **"صدى هجومات 20أوت 1955بالشمال القسنطيني من خلال جريدة صدى الجزائر الكولونيالية "** ،مجلة الحوار المتوسطي ،العدد الأول ،15مارس 2009،مجلة علمية دولية محكمة يصدرها مخبر البحوث و الدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس،ص130

[3] -L'echo d'Alger,N°301,Deuxièm Année ,Jeudi 16janvier1913,p01.

احتلال الجزائر-[1]،وذلك بعد وصولهم إلى مناصب قيادية في الإدارة الفرنسية بالجزائر ومن ثم كان لزاما على هؤلاء أن يجدوا لأنفسهم منابر إعلامية تدافع عن طروحاتهم ونشر أفكارهم ووجهات نظرهم ومن ثمة التأثير على صنّاع القرار في المستعمرة[2].

كانت جريدة« **L'echo d'Alger** » من ملكية المستوطن الملياردير "**جاك ديرو** "و توزع بفرنسا ذاتها ،إلا "**جاك ديرو**"ليس هو مؤسسها الحقيقي لها ،بل يعود الفضل لتأسيسها للضابط "**ايتيان بايلاك**" الصديق الوفي للمستوطن المتعصب لفكرة معاداة السامية "**ماكس ريجيس**"،حيث أشرف "**ايتيان بايلاك**" رفقة عدد من الصحفيين سنة 1912على تحرير جريدة ناطقة باسم كولون الجزائر العاصمة ،وجعل منها الناقل الرئيسي لأهم الأحداث السياسية ليس في العاصمة فحسب،بل لكل المستعمرة [3]،و قد عرفت الجريدة تطورا كبيرا بعد الحرب العالمية الثانية بعد تولي السياسي"**ألان دو دوسيريني**"الذي جعل منها أكبر جريدة للأقدام السوداء في الجزائر،بحسب تعبير شارل ديغول .فقد أعطى "**ألان دو دوسيريني**"للجريدة صبغة جديدة ،فجعلها منبرا سياسيا ذا تأثير في توجيه السياسة الاستعمارية في الجزائر، فبالإضافة إلى كونه رجل صحافة والتي مارسها لعشرين سنة كاملة ،فهو رجل سياسة كما انتخب مرتين نائبا بالجمعية الجزائرية ،و من ثم فلا نستغرب إذا وجدنا الجريدة من المدافعين الأقوياءعن فكرة "**الجزائر الفرنسية**" [4].

والمتمعن في أهم القضايا والمواضيع التي تناولتها جريدة "**صدى الجزائر**" فيما يخص الشأن الداخلي للمستعمرة الجزائرية وعلاقة المستوطن بالكيان الفرنسي من جهة وعلاقته بالأهلي" الساكن الأصلي للأرض"سيجد نظرتها لتلك القضايا غير متوازنة وغير موضوعية ، وفي أغلب الحالات منحازة بالرغم من أنها تحاول كجريدة يومية الاكتفاء بسرد الاحداث دون الخوض التحليل المعمق لها،فخطها السياسي مطابق عموما للسياسة الاستعمارية ، إلا إذا كان الأمر يخالف مصلحة المستوطن ،ونظرتها لمطالب الأهالي كانت نظرة انتقاصية، إذ لا تورد في صلب اهتماماتها معاناة الأهالي ولامطالبهم الشرعية في العيش الكريم و تقرير المصير .

[1] - « **Les manifestations du centenaire** », L'echo d'Alger,N°7549,19eme Année,Mardi 10Juin1930,p02.

[2]- بوضربة(أحمد)،المرجع السابق،ص130.

[3]-Jeannine Verdès –Leroux,op-cit,p711.

[4]- بوضربة(أحمد)،المرجع السابق ،ص130.

وهذا مايلمسه القارئ لها،ففي أحداث الثامن من ماي 1945الأليمة كمثال ، حيث لم تورد الجريدة في عددها الصادر يوم8 ماي ولا في الأعداد اللاحقة أي التفاتة للمجزرة ولا لطبيعة الحدث ولا صورة تبرز فيها وحشية المستعمر ، واكتفت باظهار احتفال فرنسيي الجزائر بالنصرعلى ألمانيا النازية [1]والفرحة العارمة التي مست فرنسا ومستعمراتها لانتصار فرنسا الديغولية وانتهاء جحيم الحرب في العالم [2].

لم تهاجم الصحافة اليمينية الأهالي المسلمين فقط ،بل تعدت هجماتها وتحريضاتها لليهود سواء المتمتعين بالجنسية الفرنسية أو الذين ظلوا محافظين على هويتهم الجزائرية الأصلية ، فقد ظهرت عدة صحف عنصرية وراديكالية في طرحها تناهض حقوق لليهودوتطالب بانتزاع حق المواطنة الذي أقره قرار كريميو ،ومن أهم هذه الجرائد ،جريدة « **L'Antijuif**» ، وهي لسان حال المستوطنين القوميين والمتشددين،والتي رأت النور يثوم 14 جويلية 1897 من قبل الطالب المتشدد ماكس رجيس [3] والذي شن حملة عشواء على اليهود خلال السنوات الأخير للقرن 19 والأولى للقرن 20 ،وخاصة خلال الصدامات الدامية بين المستوطنين المتطرفين واليهود والتي ساهمت هذعه الجريدة في تأجيج لهيبها[4].

***- الصحافة اليسارية و المتعاطفة مع الأهالي**

تشكّل تيار واسع من أبناء المعمرين آمن بفكرة التعايش العرقي والدفاع عن أطروحة **"التقارب الفرنسي الاسلامي"**وممن هالهم الوضع المزري الذي آل إليه حال المسلمين الأهالي ،وقرروا الدفاع عن قضية الأهالي والعمل على تحسين وضعهم العام ،لكن دون الانتفاضة القوية ضد النظام الكولوينالي السائد بطبيعة الحال.

بالرغم من أن الصحافة الكولونيالية لم تخرج عن الخط الإيديولوجي السائد في المستعمرة ،فإن ذلك لا يعني عدم وجود بعض الأقلام المتعاطفة والمتفهمة لقضايا الأهالي ، ويمكن أن نلمس ذلك التعاطف النسبي في جريدة **"الأخبار"** الحكومية ،والتي أضافت لنسختها الأصلية

[1] -« **L e reich capitule sans conditions »,** L'cho d'alger,N°12626 ,Mardi 08 Mai 1945.
[2] **-« Le cessez le feu a retenti ,le3eme reich afini son règne** », L'cho d'alger,N°12627 , Mercredi 09 Mai 1945.
[3] **-« Le juif tabiana commis –greffier** » L'Antijuif ,N°19-20 ,Smedi 18 Septembre 1897,
[4] -« **Les réservistes juffs-à bas la calotte »,** L'Antijuif,Septieme Anné ,2Serie ,N°39 ,Jeudi 04 Septembre 1902.

الصادرة عام 1839 نسخة أخرى بالعربية سنة 1902 ،بأمر من الحاكم شارل جونار، فقد كان رئيس تحريرها **"فيكتور باروكان "** يظهر أحيانا نوعا من التضامن مع الأهلي منتقدا في نفس الوقت - من خلال كتاباته في النشرة الفرنسية للجريدة - السياسة الفرنسية في الجزائر ويقاوم الأحقاد العنصرية التي يكنها المستوطنون للأهالي ،رغم أنه كان يكتم على قراء النسخة العربية ما كان يبديه لقراء النسخة الفرنسية من آراء[1].

والواقع ،فقد كان هذا النوع من الصحافة ملكا لعدد من المستوطنين ،وهم في الأغلب من الفرنسيين المستائين من السياسة الاستعمارية في الجزائر حاولوا تقديم خدمات لنخبة جزائرية محددة لتحبيبيها في الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر،وذلك بدءا بإصدار **"جريدة المنتخب"** بقسنطينة عام 1882مباشرة بعد تأسيس جمعية بباريس تحمل اسم" **الجمعية الفرنسية لحماية الأهالي"** سنة1881،وقد تبنت جريدة **"المنتخب "**سياسة التقريب بين المسلمين الجزائريين والحكام الفرنسيين.كما شهدت صحف **"أحباب الأهالي"** صدورأكثر من 10صحف في الفترة الممتدة ما بين 1900 و1962 أهمها **"جريدة ألاخبار"** و" **منبر ألاهالي"** و" **الجزائر الجمهورية** "،إلا أن أغلبها تعرضت إلى مضايقات من قبل إلادارة الاستعمارية [2].

وفي الحقيقة،فقد ظهر هذا التيار ونشط أكثر بعد تبني نابوليون الثالث لفكرة **"الممكلة العربية** " وللعمل الدؤوب الذي قام به" **توماس اوربان"**،وتبلورت الفكرة سنة 1881بباريس حينما قرر عدد من الفرنسيين الأحرار تأسيس **"الجمعية الفرنسية لحماية الأهالي** " وقرروا في بداية نشاطها إنشاء جريدة بمدينة قسنطينة عرفت باسم **"المنتخب".**

بدأت جريدة **"المنتخب"** نشاطها عام 1882،وطيلة مسيرتها كان صحفيوها من المستوطنين والأهالي يشرحون لفرنسا سياسة المشاركة ،والذين يرون فيها أنها سياسة فرنسية محضة ترمي إلى خدمة فرنسا وتعزيز وجودها بالجزائر بمشاركة الجزائريين المسلمين أنفسهم.

---

[1]- ناصر(محمد) ،**المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها تطورها أعلامها من 1903إلى 1931**،الجزء الأول ،منشورات وزارة الثقافة ،الجزائر،2007،ص44.

[2]- تيطاوني (الحاج)،**"وسائل الإعلام في الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي(بدايات الصحافة المكتوبة، الاذاعة والتلفزيون) "** ،مجلة الصحافة والاتصال ،العدد العاشر ،منشورات المؤسسة الوطنية لعلم الصحافة ،الجزائر-2019، ص161.

كانت صحيفة "**المنتخب** "تنتهج خطا سياسيا اندماجيا وتعتبر نفسها "من دعاة الارتباط بالبلد الأم "،ومن أنصار إلى درجة أنها قادت حملة ضد البلديات المختلطة ولصالح البلديات الكاملة الصلاحية ،وكان صحفيوها الفرنسيون،الذين كانت مقالاتهم تترجم إلى العربية ، يناهضون سياسة مصادرة الأراضي ومبدأ المسؤلية الجماعية وهيئة المحلفين المكونة من المستوطنين . بل كان أولئك من دعاة الإدماج عن طريق المدرسة والجيش-الفرانكو-أهلي-وحرية التمثيل النيابي للمسلمين وتوزيع الضرائب بالعدل والإنصاف بين المسلمين والأوروبيين[1]. كما أنهم دعوا النخبة من المسلمين الجزائريين أن يلتفوا حول هذه السياسة وأن يساندوا جريدة "**المنتخب**" لأنها الجريدة التي تنطق باسمهم.هذا من جهة،ومن جهة ثانية أخذ صحفيو هذه الجريدة في انتقاد تصرفات الحكام الفرنسيين في الجزائر والتنديد بأعمالهم التعسفية، ونصح الأهالي المسلمين بالابتعاد عن الأعمال الثورية ضد فرنسا .ومع أن الجريدة لم تكن تطالب باستقلال الجزائر بما يضر بمصالح المستوطنين .إلا أن شريحة واسعة من غلاة المستوطنين ناصبوها العداء ،وأثارت غضبهم وسخطهم[2].

والواقع ،فإن لم جريدة "**المنتخب**" لم تعمر طويلا ،و لم تنجح في مهمتها فإختفت تحت ضغط الضجة الفرنسية، ولكنها استطاعت أن تبلغ رسالة سوف يكون لها شأن بعد ذلك، ومفادها استخدام الكلمة للدفاع عن حقوق الجزائر والجزائريين ،وأن الصحافة إحدى الوسائط الأدوات الأكثر نفوذا، وتأثيرا في تغيير الحالة العامة للمجتمع الأهالي[3].

ولاينبغي الاعتقاد بأن جميع الصحف ،ذات التوجه الجمهوري ،-والذي عادة ما يوحي بأنه يميني ومتشدد-كانت تلتزم الموقف ذاته من قضية الأهالي والاسلام ،بل بالعكس ،لقد نشرتفي الفترة مابين 1881-1882،ثم بالأخص بعد 1888-1889عدة مقالات مؤيدة لانتهاج سياسة أكثر مرونة تجاه الأهالي ،ونذكر من تلك الصحف على سبيل المثال،(l'evenement,la France,le petit parisien ,l'union républicaine) ، ومن أشهر الصحفيين الموالين لقضية الأهالي والمدافعين بأقلامهم عن العدالة بين العرقين "الأهالي –

[1]- أجيرون (شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا**،ج2،المرجع السابق،ص776.
[2]-احدادن (زهير)،المرجع السابق ،ص 30.
[3]-أوهايبية(فتيحة)،"المرجع السابق،ص253.

المستوطنين"،والذين كثيرا ما تعرضوا للمضايقة والتشهير ،نجد **charles longuet**،و**Camille Pelletan**،و**Rochfort**،وقد كان كاميل بيليتان من أشهر أقلام الراديكاليين ،وكان ينكر على الشعوب المتحضرة سعي لفرض هيمنتها على بقية الشعوب ،وقد ساهم كثيرا في الدفاع عن الأهالي المسلمين باعتباره عضوا في **"الجمعية الفرنسية لحماية الأهالي"**وكذلك باعتباره صحفيا ورئيس تحرير صحيفة « la justice »أما Rochfortفقد كان من أشد المدافعين عن المضطهدين بعد انتفاضة المقراني عام 1871[1].

اتفق صحافيو التيار الليبيرالي مع اليسارين في الوقوف بجانب القضايا الأساسية للأهالي المسلمين ،وكانوا أكثر من غيرهم انفتاحا واعتدالا في كتاباتهم ومواقفهم ،وأكثر استعدادا لتقبّل فكرة التعايش ،وهنا نستشهد بصحيفة **"لوتون"**« **Le Temps** » ،والتي انتشرت نهايةالقرن19ومطلع القرن العشرين كصحيفة متزنة في خطابها ،عقلانية في طرحها ،وكانت آنذاك تملك أكبر الصحفيين جرأة في الطرح ،وأكثر انتقادا للمشهد الاجتماعي والسياسية والثقافي الذي ميز الأهالي في تلك الفترة،وهو الصحفي **"بول بورد"** ،والذي حملت من مقالاته المعنونة ب **"رسائل جزائرية"** أفكارا مناهضة للعنصرية ومنادية لتطبيق القانون الفرنسي على الأهالي ،وداعيا إلى احترام خصوصية المجتمع المسلم وحريته الدينية والثقافية [2].

وعموما، فقد هيمن المشهد السياسي على المواضيع الرئيسية للصحف اليومية الكولونيالية باختلاف توجهاتها السياسية ، حيث شكلت الأحداث الكبرى في الجزائر أو في فرنسا مجالا للجدل والسجال بين الصحافة والسلطة المحتلة .وجعلت العلاقة بينها تتأرجح بين التحالف و التعايش حينا و التأزم و الصدام أحيانا كثيرة.و تبقى الأحداث الهامة التي تشغل المستوطن هي ما يحرر بالبنط العريض في الصفحة الأولى ،أما الأحداث الأخرى على اختلاف طبيعتها ودرجة أهميتها فتحرر وتكتب في الصفحات التالية .

والواقع ،فإن الأوروبي في الجزائر لم يكن فردا مقبلا ولا متابعا كثيرا للشأن الصحفي ، إلا إذا ما تعلق بالأمور التي تعنيه بشكل مباشر ،فبحسب الباحث" **بيار نورا** "فإن القارئ لا يطلع

[1]- أجيرون (شارل روبير)،**المسلمون الجزائريون وفرنسا**،ج1،المرجع السابق،ص،ص759،758.
[2]-المرجع نفسه ،ص،ص 764، 765.

كثيرا على الصحف الوطنية إلا قليلا ،فهو يهتم بالإطلاع فقط بجرائده المحلية لأنها هي تهم محيطه الصغير وواقعه اليومي المباشر،فمواطن مدينة وهران يقبل كثيرا على قراءة جريدته المحلية والكثيرة الانتشار،وهي "**صدى وهران**"« **l'echo d'oran** »،والتي أهم مايقرأ فيها جداول انطلاق سفريات السفن نحو مارسيليا وأو أليكانت ،حيث كتب:"ظلت وسائل الإعلام الكبرى كجريدة صدى الجزائر ،والراديو مجرد قنوات لبث السموم السياسية والكلام الفارغ في نظر المستوطن ،ولاتبث سوى إنجازات الساسة ،افتتحوا الصفحة الأولى من الجريدة الوطنية ستجدون الجنرال الفلاني يقوم بتقديم المساعدات لليتامى الفرنسيين ، والصفحة التي تليها تكريم فريق كمال الأجسام ...في حين أن معظم فرنسي الجزائر لايقرأون سوى صحفهم المحلية ،فجريدة صدى وهران تقوم بسحب 75ألف نسخة يوميا ،وذلك طيلة 80سنة من تأسيسها من قبل عائلة "**بيري**"« **Perrier** » ،غير أن الأمر معاكس بفر نسا بحيث نجد المواطن الفرنسي في روان أو غرونوبل يقبل باهتمام على قراءة جراده الوطنية مثل "**لوموند**"« **le Monde** » أو جريدة "**لوفيغارو**"[1]« **le figaro** »

2- الإذاعـة

منذ اكتشاف موجات اللاسلكية عن طريق الألماني هرتز ،واختراع الراديو من قبل العالم برانلي سنة 1890،وبداية استخدام الراديو تأخر نوعا ما استخدام الراديو في فرنسا عما كان في بريطانيا والولايات المتحدة،وكان ذلك نهاية العشرينات[2] .ولكن بمجرد أن نجحت التجربة في البلد الأم ،انتقلت التجربة إلى الجزائر ،وظهرت بوادرها عشية الذكرى المئوية للاحتلال.

أصبح البث الإذاعي أحد أدوات العمل الدعائي ،والفضاء الإخباري المفضل لدى السكانة الأوروبية في الجزائر ،إلى جانب العمل الصحفي .فقد كان إنشاء محطة البث الإذاعي بالكاليتوس بأعلي الجزائر العاصمة عشية الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر بداية تجريبية مميزة وذات هدف إيديولوجي ومدلول سياسي ،حيث كانت المسرح المبثوث عبر أثيرها- كمثال- أداة لتبليغ الفكرة التي تريدها السلطة ،والموسيقى كوسيلة فنية للتحبيب بالمجد الفرنسي

[1] -Nora (piérre),**Les français d'Algérie** ,Christian Bourgois éditeurs,2012-Paris,p,p79,80.
[2] -Miquel (Pierre),**Histoire de la radio et la télévision** ,Edition Académique Perrin,Paris-1984,25.

قدمت الإذاعة حصصا تثقيفية و سياسية كثيرة ،والتي غالبا ما تتناول الشأن الداخلي للمستعمرة وكل مايهم المواطن الأوروبي والفرنسي في الجزائر،والحوادث السياسية الكبرى بفرنسا وأوروبا والعالم نذكر على سبيل المثال لا الحصر حصة"**تذكرة مساء**"وحصة "**تعليق سياسي**"،ومن أهم ماقدمته الإذاعة من حصص سياسية التي تركت لها متابعين ومهتمين نجد حصة عنوانها الديكتاتورية الثقافية لجمال عبد الناصر ،وحصة عنوانها "الجزائر مكمل للجمهورية الفرنسية" ،وما إلى ذلك من حصص وأنشطة ترفيهية أخرى.

إلى جانب الحصص الموجهة للمتلقي الأوروبي خصصت الإذاعة بعد الحرب العالمية الثانية فضاءا أثيريا باللغتين العربية والقبائلية وذلك لتقريب الأهالي لهذه الوسيلة الإعلامية،بحيث خصص للمشروع مبلغ ضخم قاربت ميزانيته سنة 1950مايقارب 6.1مليون فرنك ،حيث احتوى برنامجا يوميا تضمن قراءات للقرآن مرتين في اليوم ،وثلاث قراءات إخبارية بالعربية العامية وقرأتان بالقبائلية ،وعرض لمجلة الصحافة الفرنسية كان يقدم على الساعة 19و40د ومجلة الصحافة العربية والشمال إفريقية يقدم كل ثلاثاء وخميس وسبت[1].

وقد تم منذ 1948 إنشاء استوديوهات لإنتاج برامج إذاعية في كل من قسنطينة ووهران و بجاية ، مع انجاز عدة محطات للربط بعدد من المدن الجزائرية الأخرى . وقد كان عدد المستمعين للإذاعة بالجزائر قد وصل عام 1956 إلى ما يقارب الـ358 ألف مستمع منهم 157 ألف جزائري، في حين أن العدد الإجمالي للمستمعين عام 1948 لم يكن يتجاوز الـ 155059 مستمع أغلبهم من المعمرين والفرنسيين. وقد كانت البرامج متمثلة خاصة في نشرات ألاخبار، الريبورتاجات والموسيقى والمسرح وبعض الحصص الثقافية والدينية. غير أن الإذاعة بقيت إلى غاية الاستقلال تحت تصرف ادارة الاحتلال إلى غاية 03 أكتوبر 1962 حيث تم استعادة الإشراف عليها مع التلفزيون بعد أكثر من 03 أشهر من حصول الجزائر على استقلالها[2].

والواقع ،فإن تأثير الراديو على الجزائريين كبيرا ،وسلاحا ذو حدين ،فهو بقدر ماكان أداة تثقيفية كان أداة لنشر الفجور والرذيلة ووسيلة لإفساد الأخلاق .فقد شنت الصحافة الأهلية

[1]-ريسلر (كميل)،المرجع السابق،ص،ص396، 397.
[2]- تيطاوني (الحاج)،المرجع السابق،ص163.

،وفي مقدمتها جريدة البصائر الإصلاحية حربا ضروسا على الإذاعة الفرنسية في الجزائر .التي اعتبرتها آفة خطيرة تهدد الشعب بالتهور الأخلاقي ،لما تذيعه من أغاني يهودية ماجنة ،وحفلات صاخبة،وقد فتحت جريدة البصائر هذه القضية للمناقشة[1]، وقد كتبت في عددها السادس سنة 1936مقالا عنوانه الراديو ومخاطره على الأخلاق جاء فيه:**"بالرغم من أنه من المخترعات المفيدة والمضرة في نفس الوقت ،إلا أنه تسمع مرغما إلى أغاني التي تدعو إلى الإباحية ...والتسفل الأخلاقي.."** ،ووجهت نداءا للسلطات الفرنسية جاء فيه:"ليكون الراديو قد أدى مهمته من نشر الثقافة بين الشعب والمحافظة على الآداب العامة ،فإننا نقترح :إسقاط جميع الإسطوانات اليهودية من قائمة الإذاعات العامة ،ومنع الإسطوانات المبتذلة ، وإبدالها بإسطوانات للطرب الأندلسي والملحون،إنجاز الوعد الذي قطعته الحكومة العامة بالإكثار من المحاضرات العلمية ،وإعطاء اللغة العربية الوقت الكافي حتى يتسنى تنفيذ برامج مفيدة ....[2]

3-الصحافة الوطنية والدفاع عن قضايا الاجتماعية والثقافية للأهالي

أ-تطور الصحافة الجزائرية مابين 1893-1945: ترجع جل المصادر أن نشأة الصحافة الجزائرية قد تأخر إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر 19وبدايات القرن العشرين 20،ولعل عوامل عدة قد سأهمت في ذلك التأخر ،ومنها سياسة التضييق الفرنسية عن التعليم والنشاط الثقافي ،وقلة الإمكانيات والتجربة في هذا المجال ،ولكن إرادة الأهالي الجزائريين في التعبير عن معاناتهم ونقل قضاياهم للعالم ،والتجربة القصيرة التي اكتسبوها في العمل الصحفي في الجرائد الفرنسية قد عوضت ذلك النقص وساهمت في إخراج الصحافة الجزائرية إلى الوجود. لقد أبصرت أول صحيفتين النور ،وهما على التوالي صوت الحق للصادق دندن وصحيفة المغرب ما بين 1900-1910،حيث صدرت لجريدة المغرب عدة نسخ ما بين 1903-1913مرتين كل أسبوع ،وهي على الرغم من سلبياتها وعيوبها فهي بالنسبة للجزائريين شعاع مضيئا باعتبار أنهم محرومون من لغتهم القومية على حد قول الإمام محمد عبده[3].

---

[1]-بلحاج (الصادق)،**الصحافة العربية في الجزائر بين التيارين الإصلاحي والتقليدي 1919-1939دراسة مقارنة**،رسالة ماجيستير في تاريخ الجزائر الثقافي والتربوي ،قسم التاريخ،جامعة وهران،2012،2011،ص100.

[2]-أنظر للمقال الكامل،جريدة البصائر ،العدد السادس ،السنة الأولى ،7فيفري1936،ص06.

[3]- سعد الله(أبو القاسم)، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامي،بيروت- 1992م، ص 156.

وبهذا تمثل الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى 1900-1914البداية الحقيقية للصحافة الجزائرية الأهلية ،حيث كانت الفترة ما بين 1900-1914صدور أول صحفتين جزائرتين ، وهما جريدة "**المغرب**" التي صدرت مابين 1903-1913، ،أما الجريدة الثانية فهي جريدة "**الصباح** "والتي أصدرها العربي فخار باللغتين العربية والفرنسية بمدينة وهران مابين 1905-1906،كما صدرت جريدة أخرى ،وهي جريدة "الإحياء"نصف الشهرية ،وهي أول جريدة تصدرها أمرأة جزائرية فرنسية الأصل ،وهي "جان ديرايو" **Jeanne** « **Duraieux**»المعروفة باسم فاطمة الزهراء أو جمانة رياض ،وقد صدر أول عدد لها يوم 14 فيفري 1907تعرض أهم الأحداث خلال تلك الفترة في الجزائر والعالم الإسلامي[1].

شهدت الصحافة الأهلية تحررا جزئيا من الرقابة الاستعمارية في عهد الحاكم العربي "موريس فيوليت" ،بعد فترة من الملاحقات والمضايقات الشديدة سبقت 1920[2] ،وصدرت في فترة حكمه الكثير من الصحف العربية "الأهلية":"صدى الصحراء"1925، "الحق"1926، "الشهاب"1925" وادي ميزاب"1926،"البرق"1927، "البلاغ الجزائري"1926 ،"الإصلاح"1927، وراحت هذه الصحف تؤدي رسالتها في سير حثيث متشجعة بسياسته الديمقراطية وروحه المتفهمة لقضايا الأهالي،ولكن هذه الروح ،وتلك السياسة اللينة، ما لبثتا أن جنت عليه فأبعد عن الولاية العامة تحت تأثير الدعاية المسمومة التي روجتها صحافة المعمرين طوال فترة حكمه ،ليخلفه في الحكم مستوطن متعصب يدعى (بيار بورد)ما لبث أن سل سيفه المسلول على رقاب الصحف الأهلية والوطنية.وتساقطت في عهده المشؤوم كل الصحف المتقدمة ،ولم يبق منها سوى اثنتين هما "الشهاب" و"البلاغ الجزائري"يحمي الأولى نزعتها المعتدلة ونفوذ شقيق ابن باديس لدى الدوائر الحكومية .كما يشفع للثانية نزعتها الطرقية الخادمة للاستعمار[3]. أما الصحف الناطقة باللغة الفرنسية فقد تم إصدار أربعة صحف كانت خلال الفترة ما بين الحربين 1919-1939،وهي صحيفة "الإقدام" للأمير خالد ورفقاؤه والتي توالى صدورها ما بين 1919-1923،و" الدفاع" وهي أسبوعية كانت يشرف عليها

[1]-طلحة (إلياس)،"**تاريخ الصحافة المكتوبة في بلدان شمال إفريقيا(ليبيا،تونس الجزائر ،المغرب)**"،مجلة المعارف لدراسات والبحوث التاريخية، العدد 14 ،جامعةالوادي ،2017،ص184.

[2] -ANOM 9H/27 : serviellance politique des indigènes ,1926.

[3]- ناصر(محمد)،المرجع السابق،ص،ص45 ،46.

الأمين العمودي 1933-1936،و"صوت الشعب" التي كان يشرف عليها "محمد الشريف جوجلار" و"صوت الأهالي "ما بين 1929-1933،والتي كانت تصدر في قسنطينة[1].

وإلى جانب سياسية التضييق والملاحقة والرقابة الاستعمارية ،فقد واجهت الصحافة الأهلية الناشئة عراقيل أخرى في مسيرة تطورها وفي نشر رسالتها الإصلاحية والوطنية ،ولعل أبرزها قلة اهتمام الأهالي بقراءة الصحف العربية بسبب الأمية المنتشرة ،وتأثير الطرقية ورجال الدين المتزمتين الذين كانوا يحرمون الناس قراءتها والإطلاع عليها ،ويعتبرون "علم الجرنال"على حد تعبير الطيب العقبي علما محرما ،مما أدى تراجع أعداد إصداراتها ، وتقلص مواردها المالية ،فضلا عن العقبات الفنية الأخرى كعدم وجود الطباعة العربية أو ندرتها ،فإنه حتى سنة 1930كان لا يوجد بالجزائر كلها إلا خمس مطابع عربية فقط ،مما دفع ببعض أصحاب هذه الصحف إلى تحمل المشاق لطبعها ،فقد كان عمر راسم مثلا يقوم بأعباء جريدته "ذو الفقار" يحررها وينسخها ،ويرسم صورها ،ويقوم بطبعها طبعا حجريا،وكذلك كان عمر بن قدور يقوم بعبء التحرير ،والتصنيف والطبع لوحده[2].

تطورت الصحافة الأهلية بشكل لافت ،وأصبحت تفرض نفسها كمادة إعلامية منافسة للصحافة الكولونيالية ،لتكسب مع الوقت شريحة عريضة من القراء والمثقفين الأهالي،وزاد من انتشارها الجو السياسي العام الذي ميز الجزائر نهاية الحرب العالمية الأولى ،حيث أعطت إصلاحات 1919الأمل والحرية للأهالي في العمل الصحفي ،كما كان لانتشار التعليم العربي والأجواء الصاخبة التي سبقت الاحتفالات المئوية دورا محركا لنشاط الصحافة الأهلية . والملاحظ فإن الصحافة الأهلية في الشكل والعدد فحسب بل تطورت في المضمون وبرهنت عن قدرتها في الطرح المنطقي لقضايا الأهالي اليومية ،وتحليل الأحداث تحليلا موضوعيا وشفافا ،مما جعلها تكون في طليعة الصحف الأكثر قراءة لدى الأهالي ،وإذا تحدتنا بلغة

[1]- طلحة (إلياس)،المرجع السابق،ص186.
[2]-المرجع نفسه،ص،ص51، 52.

الأرقام فقد ارتفعت الأعداد المقروءة من حوالي 8000عددا من الفاروق وذو الفقار شهريا قبل سنة 1914إلى 184000عدد من الصحف والمجلات شهريا سنة1831،وهذا تفصيلها[1].

الصحيفة	العدد الأسبوعي	العدد الشهري
النجاح	5000(يوميا)	150000
البلاغ	2500	10000
المغرب	2500	10000
الشهاب	/	2000
الإصلاح	3000	12000

ب-دور الصحافة الأهلية الجزائرية في مواجهة الصحافة الكولوينالية

اتفقت كل الصحف الأهلية على اختلاف اتجاهاتها وتعدد مشاربها الإيديولوجية على مقاومة عنف المستوطن وعنصريته ،وتحقيق المساواة بين الأهالي والمستوطنين في الحقوق والواجبات ،ولم يقتصر اهتمامها على القضايا السياسية فحسب بل احتلت صحفها الأولى القضايا الاقتصادية والاجتماعية ،وحتى الثقافية .وفي مقدمة هذه القضايا قضية العنصرية واللامساواة بين أفراد المجتمع ،حيث جاء في صحيفة الحق[2]، مايلي:

« Il est de l'intérêt de la France de traiter les « indigènes » musulmans algériens avec justice, avec bonté, non pas seulement pour que ce grand pays conserve intact sa réputation de propagateur de civilisation, d'idées généreuses, car aucun peuple ne peut se vanter d'avoir le monopole de civilisation, ni de l'intelligence,ni de la générosité, mais encore et surtout parce que son intérêt matériel le lui commande, parce que la coopération de l'indigène àl'effort commun hâtera la solution de tous les problèmes »

لقد طالبت الجريدة من الدولة الفرنسية معاملة الأهالي المسلمين بالعدل والطيبة مثلما تعامل مواطنيها من المستوطنين ،ليس فقط وفاء لمبادئ والقيم الانسانية التي تنادي بها فرنسا ،وإنما لكون الحضارة والانسانية لا تتوقف عند أحد ولا تكون ملك لأحد ،وباختصار فقد مثّل هذا

[1]- ناصر(محمد)،المرجع السابق،ص51.

[2] - Journal elhak,Numéro publié du 13 au 20 Avril 1912,Cité par Rouina (Karim M). et Souiah(Mehdi) , « **Journaux algériens d'Oran 1830-1962 Portrait d'une presse indigène « tolérée »**,p27.

المقتطف حالة من بين الآلاف حالات التظلم والتشكي من الوضع الذي آل إليه الملاييين من الأهالي ،التي أوردتها و أشارت إليها الصحف الأهلية .

وبقدر ما تكيل الصحف الأهلية التهم لفرنسا كبلد مسؤل على الحالة التي بلغها المسلمون فإنها أيضا وجهت نقدها اللاذع وسخطها الشديد للمستوطنين ،الذي ساهموا في تدني حالة الأهالي ،وذلك بسبب احتكارهم لكل مقدرات الحياة في الجزائر وتهميشهم لهم ، وهنا نشير لموقف جريدة البصائر[1] من المعمرين ومن موقف الحزب الكولونيالي بزعامة "هنري بورجو"،وهنا نكتفي بذكر الموقف الساخط والغاضب للمعمرين حينما أفرجت فرنسا عن دستور الخاص بالجزائر ،وأعطت بصيصا من الأمل لدى بعض الجزائريين في إمكانية تنازل فرنسا عن الحقوق الكاملة للشعب الجزائري ،فقد استغربت البصائر من موقف المستوطنين وعلى رأسهم **"هنري بورجو"** الرافض لهذا القانون ،ومن عاصفة التنديد التي أثارها المستوطنون من إقدام فرنسا لمثل هكذا قرار،فقد كتبت تقول بأن هذا الحزب تحت زعامة صحاب الجلالة **"بورجو الأول ملك البلاد الجزائرية غير المتوّج"**[2]هذا الحزب الجاهل المغرور الذي أعمى الطمع بصره، قد أخذ بواسطة صحفه الكثيرة والواسعة الانتشار، وبواسطة أعوانه المنتفعين يثرون حفيظة الفرنسيين ،ويكادون أن ينشروا الفوضى في البلاد[3].

خلاصة

1/ظهرت الصحافة مع الحملة الفرنسية ،وقد كانت أحد أدوات السيطرة التي استخدمتها السلطة والمستوطنين لتمرير الخطاب الاستعماري،والدعاية الممنهجة للإديولوجيا الكولونيالية

2/ تنوعت الصحف الاستعمارية بتنوع المذاهب التي ينتمي إليها الصحفي في الجزائر من راديكالية وقومية واشتراكية ،كما أن نظرتها وتحليلها للوقائع في المستعمرة ، ولوضع الأهالي حسب توجه كل جريدة و طريقة معالجة قضايا الأهالي تختلف حسب الجريدة وتوجهاتها .

[1]-تعتبر الصحيفة الرابعة التابعة لجمعية علماء المسلمين بعد تعطيل جرائد السنة والشريعة والصراط السوي تواليا،وهي أكبر الصحف العربية وأكثرها انتشارا،وقد صدرت على سلسلتين ،وهما السلسلة الأولى مابين 195-1939،والسلسلة الثانية ما بين 1947-1956،وقد ظهر العددالأول لها في 27ديسمبر 1935،تولى الطيب العقبي رئأسة تحريرها ،وشعارها الآية الكريمة التالية:"قد جائكم بصائر من ربكم".

[2]-لونيسي(ابراهيم)،**"جريدة البصائر والثورة الجزائرية 1954-1956"**،مجلة الواحات للبحوث والدراسات،العدد الثاني ، المجلد 7،جامعة غرداية،2014،ص371.

[3]-يمكن العودة للمقال الكامل في:العنوان التالي:**"عاصفة في كأس"**،جريدة البصائر ،14جانفي 1955.

3/ساهمت الصحافة التي أدخلها المستعمر في ظهور الصحافة الوطنية ،ولتي تنوعت هي الأخرى حسب الخلفية السياسيةمن دينية إصلاحية واستقلالية واندماجية ،إلا أنها اتفقت كلها في الدفاع عن مصالح الأهالي والرد على المستوطنين المتعصبين .

خلاصــة الفصــل

- أدخل الاحتلال الفرنسي الطب الحديث إلى الجزائر ليخدم الحالة الصحية لأبنائه من المستوطنين الأوروبيين ،وقد ساهم هذا الطب الذي كان في بدايته بيد الجمعيات الدينية الكاثوليكية ،والأطباء العسكريين ،ليتحول إلى طب مدني حديث نهاية القرن التاسع عشر ، مواكبا ماكان يحدث في أوروبا من تطور طبي .لكن هاه الخدمة لم يكن يستفاد منها الجميع ، فغالبا ما حرم منها الأهلي خصوصا في المناطق الريفية،والتي تلم كن هدفا بحد ذاته.

- شكل التعليم بجميع أطواره أحد المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي وظفتها الأقلية الأوروبية ،حيث فرنس التعليم منهاجا وتعليما ،خادما بالدرجة الأولى أبناء المعمرين ،وحتى توزيع المقاعد المدرسية كان فيها إقصاءا وتهميشا لأبناء الأهالي ،وهي سياسة مقصودة أراد منها غلاة المستوطنين تحويل الأهالي إلى طبقة جاهلة خادمة ،والتسهيل لأبنائها للوصول للمناصب العليا ،كما كانت معظم الأبحاث الجامعية في المجال الاجتماعي تنصب لمعرفة الأهلي ليس لهدف سوى للسيطرة عليه وإخضاعه.

- من جهته كان القضاء مسيّسا وموجها لصالح فئة دون أخرى ،فقد مكّن الاحتلال القاضي من فرض القانون الفرنسي على الأهلي المسلم ،فقد استعان المحتل بترسانة من القوانين والقررات التي حجمّت القضاء الجزائري الذي يعتمد في نصوصه التشريعية على الأحكام الإسلامية ،وأعطى سلطة القانون والقضاء للمستوطن ومكنّه من إدارة القضاء لصالحه ، وأحاط الأهالي بقانون غير إنساني قمعي واستثنائي الهدف منه كبت الأهلي وتخويفه .

- كانت الصحافة الكولونيالية أحد أهم الوسائل الثقافية التي وظفها المستعمر في الدعاية للمشؤوع الاستعماري ،ومن أجل ذلك أنتج المئات من الصحف المحلية والوطنية والتي تخصصت في مجالات عديدة كالزراعة والصناعة الفن والسياسة وغيرها ،وعلى قدر هذا التنوع في التعداد كان التنوع أيضا في الأفكار والتوجهات السياسية ،والتي على ضوء تعددها الإديولوجي كان موقفها غير موحدا اتجاه قضايا المستعمرة وعلى نوعية النظرة والعلاقة مع الأهالي.

خاتـــــمة

اعتمدت ساسية الاحتلال الفرنسي في الجزائرعلى الاستيطان واستقدام مجموعات بشرية من مختلف الأصقاع الأوروبية(فرنسا،مالطا، اسبانيا،إيطاليا...) ومن مختلف الجنسيات و الطبقات الاجتماعية-وإن كانت أغلبها من الطبقات الدنيا من البناء الهرمي الاجتماعي- للعيش والعمل في الأراضي المنتزعة من الأهالي ومساعدتها بمختلف الوسائل والإمكانيات للسيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية والسياسية للمستعمرة ،وأخيرا تنظيم حركة الاستيطان ومصادرة الأراضي والممتلكات العقارية بمنظومة تشريعية وقانونية عجلّت الانتقال السلس لأجود الأراضي وأوسعها لصالح الاستيطان لصالح الأوروبيين ،وذلك بغية بناء اقتصاد كولونيالي يخدم الاقتصاد الفرنسي ويدعمه.

ولضمان التوطين الآمن والمريح للمستوطنين تجندت كل قوى الاحتلال الفرنسي من الجيش بجنرالاته وجنوده وأعوان الإدارة الفرنسيين في خدمة الاستيطان والمستوطنين بكل الوسائل المادية والمعنوية من شق الطرق وتجفيف الترع والمستنقعات والتخطيط للمدن وإنشائها وتقديم الإعانات المالية للمستوطنين وبناء المراكز الاستيطانية،وغيرها من المساعدات الأخرى، والتي كانت تختلف تزيد وتنقص حسب نوع الاستيطان،رسمي كان أو حر ،ولاستمرارالاستيطان وديمومته أصدرت السلطات المحتلة ترسانة من القوانين الهادفة لتجريد الأهالي من أراضيهم تمهيدا لمنحها للمستوطنين القادمين من كامل أضقاع أوروبا ، فقد كانت قوانين ومراسيم (16جوان 1851،القرار المشيخي 1863،والحجز العام 1871،ووراني 1873....) أسلحة فعالة لتكريس للاستيطان، وعاملا مهما في تغييرالمعادلة الاقتصادية في الجزائر.

ومثلما ساهمت تلك الآليات القانونية في توفير الحياة الكريمة للمستوطن الأوروبي ،فإنها في الوقت ذاته أضعفت تلك القوانين العقارية الكولونيالة بل هدمت الروابط الجماعية،وخلقت وحدة غير معروفة حتى ذلك الوقت،وهي التقسيم الجزئي للأرض ،الذي ساهم في نمو الروح الفردية وانهى بالتدريج على الوحدة الجماعية للقبيلة الجزائرية،وبالتالي أحدث تحولا في النمط الاقتصادي الأهلي القائم على الأرض الجماعية ،التي طالما ضمنت لقرون طويلة الأمن الغذائي للأهالي إلى الأرض المجزأة،والتي أنتجت اقتصادا لا يضمن حتى الكفاف ويكرس

الجوع ،زيادة على ذلك ،فقد ساهمت القوانين العقارية في تغّول المستوطنين الأوروبيين ، وتحوّلهم من بروليتاريا مهاجرة وبائسة بلا أمل ،إلى طبقة مالكة ورأسمالية، وهذا ما جعلهم يتحولون إلى قوة ضاغطة على إدارة الاحتلال عن طريق ممثليهم في البرلمان الفرنسي ، وفي كل المراكز الإدارية عبر كامل البلاد، .

وبالمقابل فقد أدى تفتيت الأرض الجماعية وتجريد الأهالي من أراضيهم إلى انعكاسات خطيرة امتدت لنواحي حياتية عدة،فقد حررت الملكية الفردية الفلاحين الأهالي من العلاقات التي تنسجها القبيلة ومن إطارهم الاجتماعي ،دون إنشاء روابط أخرى من تلك العلاقات لتملأ ذلك الفراغ ،وشهدت بذلك ارتدادا تاريخيا ،وانحصرت العلاقات الاجتماعية في حدود العلاقات القرابية،ولم يعد المجتمع ذلك الكل المنبني والهرمي ،بل مجموع من الأفراد في أنوية أسرية صغيرة توثق أواصرهم الحاجة ،وكلما زاد تفريد وتجزئة الأرض ،وما يرافقه من نشوء الطبقية الجديدة في المجتمع "إقطاع ،مرابطون ،أعوان الإدارة ..."تزداد الفوارق الاجتماعية والتفاوتات الطبقية "بروليتاريا فلاحية " ذات ملكية قليلة ،تقابلها فئة منتفعة قليلة تقاسم المحتل والمستوطن منافع الاغتصاب الممنهج والمقنن لملكية الفلاح البائس.

لقد كان لعمليات تجميع مجموعات بشرية مختلفة الأصول العرقية ،ومن مختلف الأصقاع الأوروبية و محاولة صهرها في مجتمع واحد كانت مهمة مستحيلة ،فقد فشلت كل نظريات الصهر والدمج الاجتماعي التي ناد بها علماء الاجتماع الفرنسيون في تكوين أمة واحدة ،إذ كان التمسك بالروح الوطنية والأصول العرقية وبالعادات والتقاليد واللغة الأصلية عامل مهما في بطء عملية الإدماج وسياسة التجنيس الاختياري للأقلية الأوروبية في الأمة الفرنسية ،ولم يكن ذلك ممكنا إلا في نهاية القرن التاسع عشر حينما تم سن قانون التجنيس الأوتوماتيكي .

مارس المستوطن عنصريته المقيتة ضد الأهلي المسلوب من أرضه وحريته وحرمه من كل مقومات الحياة الكريمة .كما مارس نفس تلك العقلية المتعالية والنظرة الفوقية على بني جلدته ، وهو ما مثّل عائقا دون خلق مجتمع منسجم في علاقاته الداخلية ،وساهم في تكوين مجتمعات وأنوية صغيرة ومتنافرة عن بعضها البعض ،يعتريها حالة التمزق والاغتراب والشعور بعدم الانتماء والتضحية لأمة جديدة لا يؤمن بوجودها.

بالرغم ما تميّز به المستوطن من عنصرية مقيتة وأنانية مفرطة ونزعة استقلالية وانفصالية وممارسة سادية ضد الساكنة الأصلية ،إلا أن الأمر لا ينطبق على كل المستوطنين فقد كان هناك قسم من أوروبي الجزائر ،تعايش مع الأهالي وقاسمهم متاعب الحياة ومسراتها.

وبالمقابل تميزت العلاقات الأسرية بالتفكك وانعدام الوحدة والترابطية بين مكونات الجماعة الأوروبية ،فلم يكن الزواج باعتباره الرابطة الأساسية لتماسك المجتمع يلعب ذلك الدور المهم في وحدة المجتمع ،فقد كان الزواج يخضع لمنطق الجماعة والولاء للعرق والدين أكثر من كونه وسيلة للاندماج والانصهار الجماعي ،ولطالما عوّلت السطات المحتلة على ظاهرة الزواج المختلط بين الأعراق داخل المجموعة الأوروبية أو بين الأوروبيين والأهالي لكسر الحواجز الإثنية بين تلك المجموعات الصغيرة ،ولم يفلح الأمر إلا في بدايات القرن العشرين حينما تغيرت الأجيال وذابت التقاليد والتعصب العرقي بعد إقرار قانون التجنيس الآلي ،الذي أجبر الكثير من المستوطنين على الذوبان الاجتماعي في الثقافة الفرنسية .ومع ذلك فقد كان أثرت العلاقات غير الشرعية وتزايد حدة الطلاق في المجتمع الأوروبي ظاهرة سيئة لم تستطع إدارة الاحتلال تجاوزها أو التقليل منها .

لم يكن المجتمع الأوروبي في الجزائر روحيا بما يكفي فقد شهدت علاقة المستوطن بالدين المسيحي تقلبات عدة ،بدأت من الالتزام التام بالقيم الروحية إلى درجة التزمت والتعصب خلال العقود الأولى للاحتلال وانتهت إلى التميّع والتخلي عن التعاليم الدينية وعن روح المسيحية مع مضي الوقت ،وذلك لدور التأثيرات العصرية وهبوب رياح العصرنة والحداثة التي عرفها العالم ككل مطلع القرن العشرين .كما كان لدور الكنيسة ورجالاتها خلال العقود الأولى دورا في تجذر العلاقة بين المستوطن ودينه،لكن هذا الدور الكبير للكنيسة في المجتمع الأوروبي عرف هو الآخر انحصارا وتراجعا بفعل قوة الرسائل التنويرية للمدرسة الفرنسية الحديثة في وجدان وعقل الفرد الأوروبي .

غيّر المستوطن معالم المدينة الجزائرية ،وأضفى عليها طابع العمارة الأوروبية التي جلبها معه لتذكره بمدينته الأصلية وتشعره بالحنين لوطنه الأصلي .وقد لقي كل المساعدات الفنية والمادية من حكومات الاحتلال المتعاقبة ،والتي حرصت خصوصا في عهد الحاكم العام

جونار بالتأسيس لمدينة جزائرية جديدة بروح عصرية وبطابع متوسطي .غير أن هذا الطابع العمراني بقدر ما جلب الجمال الهندسي فقد أفقد المدينة عبقها وتاريخها وأصالتها.

وفي داخل تلك المدينة ، شهد المجتمع الكولونيالي في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حركية ثقافية كبيرة ،تعدت حدود الأدب والفن والمسرح لميادين ثقافية أخرى.وتنوعت تنوع التشكيلات العرقية المكونة للمجتمع الأوروبي في الجزائر.وانعكست نفسية تلك الأقليات الأوروبية وسلوكياتها الاجتماعية وطموحاتها السياسية على نوع الانتاج الثقافي داخل المستعمرة وعنوانه الثقافي.

كان الأدب والمسرح والسينما والفن أهم مجالات الإبداع الثقافي للأقلية الأوروبية ،ومع أن هذه المجالات الثقافية ازدهرت مطلع القرن العشرين لأسباب داخلية كاستقرار الأوضاع ، وسياسة جونار المؤيدة للفن والأدب وخارجية كتأثيرات التيارات الفكرية والفلسفية والفنية العالمية التي ألقت بظلالها على المستعمرة .إلا أن ذلك الانتاج الثقافي لم يتميز بالغزارة والتنوع الكافي ،ماعدا في مجالي الأدب والفن التشكيلي .

تنوعت الإنتاجات الثقافية بتنوع التيارات والمذاهب الأدبية والفنية التي عاشتها الجزائر الكولونيالية في عصرها الذهبي (1871-1945)، حيث تعددت المذاهب الأدبية ،التي عكست توجهات الأقليات الأوروبية ،فالإنفصاليون كتبوا في الأدب البيكاريسكي،والإدماجيون في الأدب الوطني الضيق (الاستعماري)، والقلة المتعاطفة مع الأهلي (الإنديجونوفيل) في الأدب المحب للأهالي.ونفس الظاهرة كانت في الفن التشكيلي والمسرح والسينما وميادين أخرى.

كان الأهلي محور اهتمام الأدب والفن الكولونيالي وصلب موضوعه ،فقد كان عجيبا غرائيبيا ،في البداية ،ثم نراه عدوا ومريبا في كتابات وفن المعادين للأهلي تارة،وصديقا يثير الشفقة والعطف في أدبياتهم تارة أخرى .فكان الأدب والفن بذلك انعكاسا لنفسية الأوروبي ونظرته السياسية ،وتقلباته النفسية .فقد ترك الفن والأدب الكولونيالي تأثيراته الخاصة على الإنسان الأهلي وحرّك في كينونته ووجدانه روح المقاومة وإثبات الذات وإظهار الأنا ،فقد استخدم نفس الوسائل ،واستعملها لإخراج أورع انتاجاته الأدبية والفنية .

وفي أوّج ذلك الالوهج الثقافي الذي شهدته الجزائر أوائل القرن العشرين جاءت الاحتفالات المصاحبة للذكرى المئوية لاحتلال الجزائر سنة 1930لتشكل ذورة التفاعل الثقافي داخل المستعمرة الجزائرية ،وأوّج الصخب الفكري الذي جند له المستوطنون شعبا وحكومة محتلة كل الوسائل المادية والثقافية للتعبير عن 100 سنة من الوجود ،فبقدر ما كان يعني للفرد الأوروبي في الجزائر تذكيرا ببدايات تشكّل الأمة ،وحوصلة لتاريخ حافل من الصراعات الإثنية والصدامات الفكرية بين الأوروبيين والأهالي ،كان يعني للأهالي حصيلة قرن من التجهيل والاجتثاث لكل مقومات الحياة للفرد الأهلي،ومع ذلك فقد كانت الاحتفالات عامل استفاقة للمجتمع الأهلي ومحرك لانتفاضة سياسية واجتماعية وثقافية .

شكّل القطاع الصحي والتعليم بمختلف مستوياته ،والقضاء والصحافة وغيرها من القطاعات الأخرى أدوات الهيمنة الثقافية والاجتماعية التي استخدمها المستوطن لإخضاع الأهلي والسيطرة على عقله وجسده وروحه ،فقد ناقض واقع هذه المؤسسات الاجتماعية والثقافية الغاية من وجودها والهدف من إنشائها ،وإذا كانت الغاية نبيلة فقد أساء المستعمر استعمالها وتوظيفها ،حيث جعلها لخدمة أبناء جلدته وكرسها للحفاظ على استمرارية وجوده وتطوره ، ولم تكن البتة كوسائل للتنمية الجماعية وبشكل عادل للجميع ،إذ حُرِم الأهلي منها ، أوبالأحرى استخدمت ضده.

كانت المنظومة الصحية المجانية العلاج والاجبارية وغير الاختيارية في غالب الأحيان تخفي وراءها أهدافا إيديولوجية وسياسية ،فهي في نظر الإنسان الأهلي وسيلة تحمل في بطائنها رسائل التبشير والفرنسة أكثر من كونها أداة ومجالا للتداوي والعلاج وهو ما جعله ينفر منها ،بالرغم من أن العديد من رجال هذا القطاع كان عملهم إنسانيا يدخل في إطار المهمة الطبية ،لكن ما أزعج الأهلي وجعله يتوجس خيفة من نشاط الأطقم الطبية هو تكفل الجمعيات التبشيرية بهذه المهمة ،وذلك حتى نهايات القرن التاسع عشر .فلم يقبل عليها إلا حينما انتهى عمل هذا الطب التبشيري وحل محله الطب المدني الحديث.

استمر حرمان الأهالي من حقهم في التعليم في معظم فترات الحقبة الاستعمارية ،ولم تفلح جهود المنظرين الاستعماريين من أمثال جول فيري أو غيره في توفير تعليم مناسب لثقافة

الأهلي أو دينه و لغته ،بل كان التعليم مجرد وعاء وقناة من قنوات الفرنسة والإدماج والتغريب،فلم تكن وظيفته الأساسية القضاء على الجهل ،بل كان هدفه خلق مواطن أهلي مفرنس مؤمن بالأهداف العليا التي سطرتها المدرسة والجامعة الكولونيالية هذا من جهة، ومن جهة ثانية اهتم المؤطرون والمسؤلون بتعليم أبناء المستوطنين وتكونيهم لاعتلاء المناصب العليا في المستعمرة.

وبالمقابل فقد كانت الأبحاث الأكاديمية والعلمية ،ولاسيما في المجال الانساني التي تكفلت بها جامعة الجزائر وأشرف عليها أساتذة وأكاديميون جل اهتمامها معرفة الأهلي وفهم كنهه وماضيه وحاضره ،ولغته وعاداته وتقاليده ،ومن ثم توظيف كل تلك المعارف المستقاة لضرب هويته وتغيير واقعه وجعله أكثر اندفاعا لثقافة المحتل وقبولا لحضارته. فقد كانت الأنثروبولوجيا والفيلولوجيا و التاريخ والاستشراق العلوم الاكثر توظيفا واهتماما من قبل المحتل، بالرغم من وجود فروع علمية اخرى،غير هذه العلوم علوم سيطرة واحتلال أكثر منها علوم أكاديمية وذات بعد معرفي.

ومن جهته،مثل القضاء سلاحا ذا فعالية في منظومة الاحتلال ،ووسيلة قانونية لسلب كل مقومات الحياة للأهالي ،بدءا من أرضه وشريعته الإسلامية والانتزاع من القاضي المسلم لكل صلاحيته وتجريده من سلطاته .وبالمقابل عمم القضاء الفرنسي واستعانت إدارة الاحتلال بترسانة من القوانين وبعدد كبير من القانونيين الكولونياليين لتنظيم القضاء بما يخدم المستوطن ويجعل الجزائري المسلم مجبرا على التقاضي عند القاضي الأوروبي .

ومثلما كان القضاء أداة للسيطرة وظفها المستوطن ضد الأهلي ،كانت أيضا السلطة الخامسة ،وظلت أحدى قنوات الدعاية للمشروع الكولونيالي ، وشكّل الصحفيون الأوروبيون في الجزائر جنودا بالقلم والصحيفة في طليعة المساندين لذلك المشروع ،وخدما لقضية غير عادلة ،غير أن الجميع لم يكن على قلب رجل واحد ،فقد انقسم الصحفيون واتجاهات الصحافة في الجزائر إلى قسمين قسم كبير من اليمين ساندوا الأهداف العليا للمشروع الاستعماري في حين شكل القسم الثاني ولو أنهم أقلية إلى جانب قضية الأهالي ودافعوا عن حقهم في الحياة والمساواة والحرية .

الملاحق

ملـحق رقم 01أمرية بتنفيذ مرسوم سيناتوس كونسيلت 22أفريل 1863بمقاطعة قسنطينة سنة 1866[1]

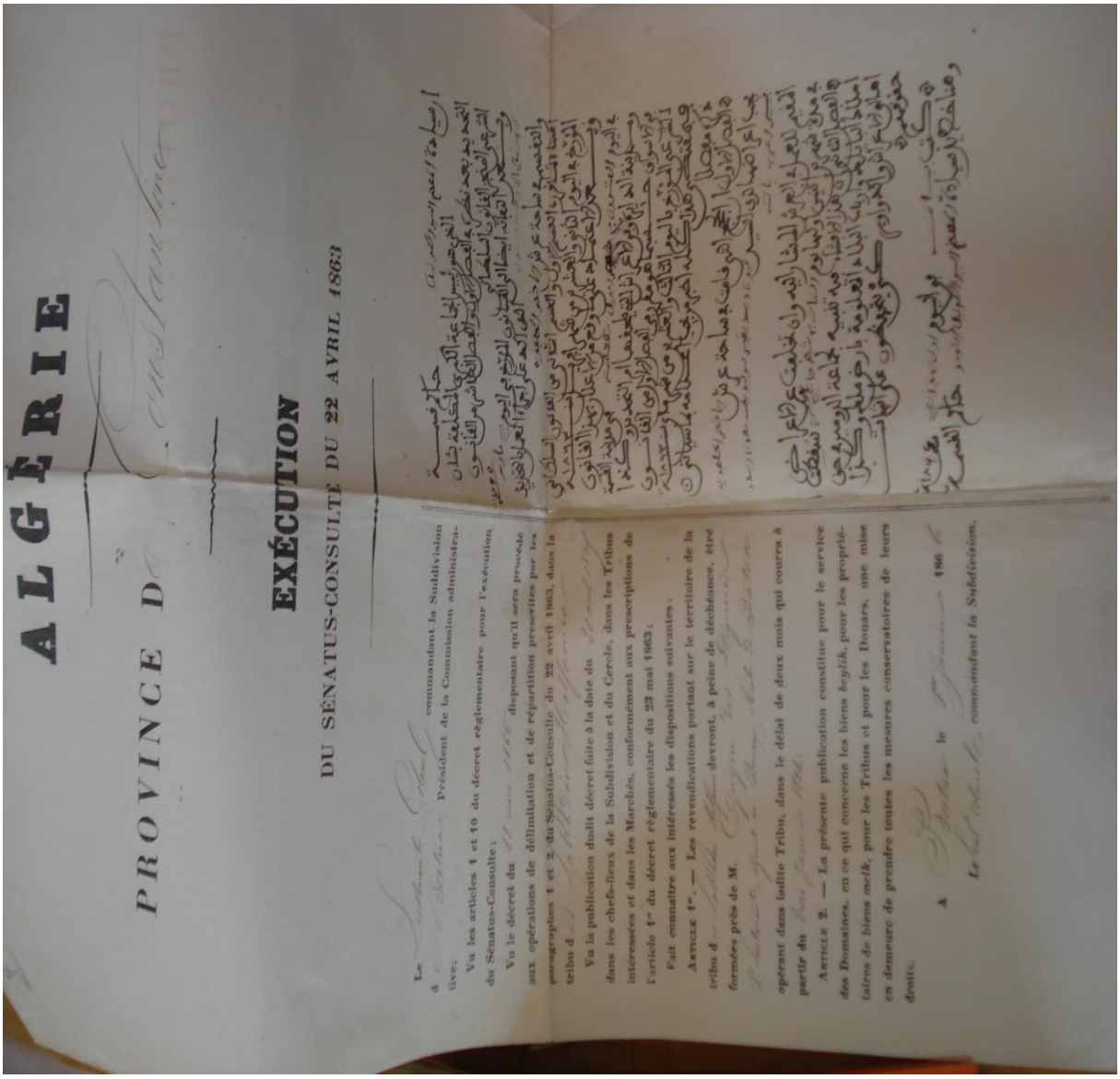

ALGÉRIE

PROVINCE D

EXÉCUTION

DU SÉNATUS-CONSULTE DU 22 AVRIL 1863

Le commandant la Subdivision d' Président de la Commission administrative;

Vu les articles 1 et 10 du décret réglementaire pour l'exécution du Sénatus-Consulte;

Vu le décret du disposant qu'il sera procédé aux opérations de délimitation et de répartition prescrites par les paragraphes 1 et 2 du Sénatus-Consulte du 22 avril 1863, dans la tribu d

Vu la publication dudit décret faite à la date du dans les chefs-lieux de la Subdivision et du Cercle, dans les Tribus intéressées et dans les Marchés, conformément aux prescriptions de l'article 1er du décret réglementaire du 23 mai 1863;

Fait connaître aux intéressés les dispositions suivantes:

ARTICLE 1er. — Les revendications portant sur le territoire de la tribu d devront, à peine de déchéance, être formées près de M.

opérant dans ladite Tribu, dans le délai de deux mois qui courra à partir du

ARTICLE 2. — La présente publication constitue pour le service des Domaines, en ce qui concerne les biens *beylik*, pour les propriétaires de biens *melk*, pour les Tribus et pour les Douars, une mise en demeure de prendre toutes les mesures conservatoires de leurs droits.

A le 186

Le commandant la Subdivision,

[1] - A.O.M 11 KK 36-42

ملــحق رقم 02صورة لعائلة من الأقلية الأوروبية تعود لبداية القرن العشرين.

ملحق رقم 03:صور للعمارة الكولوينالية الحديثة

ملحق رقم 04:لوحة"نساء الجزائر" للفنان دولاكروا[1]

ملـحق رقم 05:لوحــة للفنان فرومنتان "مشهد صحراوي""لصوص الليل"[2]

[1]-(بتقة)سليم ،سراب الاستشراق، مقاربة سيميائية للوحة" أوجين دولاكروا" (نساء الجزائر في مخدعهن)،المرجع السابق،ص357.
[2]-(بيطار) زينات ،المرجع السابق،ص357.

ملـحق رقم06:لوحــة "إمراة وطائر في قفص "للفنانة باية محي الدين[1]

ملحق رقم7 0:لوحة إبداع من قلب المعاناة[2]

[1]- بلعز نور الدين،المرجع السابق ،ص 30

[2]-شوار (الخير)،**"محمد إسياخم صاحب الذراع المبتورة في أول عرض له في متحف الجزائر "**،جريدة الشرق الأوسط ،العدد 11737،16يناير 2011،لندن.

ملحق رقم08:قائمة المسؤلين على احتفالية مئوية احتلال الجزائر [1]

La Commission du Centenaire de l'Algérie instituée par les Délégations Financières.

Au cours de la même session, l'Assemblée désignait pour faire partie de la Commission :

-MM. LUCIANI, FROGER, BARRIS DU PENHER, SERDA, ENJAL-

-BERT, HAVARD, délégués colons ; BONIFACE, GALLE, MERCIER,

--LISBONNE, GUASTAVINO, MUSELLI, délégués non colons; SISBANE,

-BENCHENANE, MOULEY MUSTAPHA, délégués arabes

- SI SALAH,SMAIL, délégués kabyles.

La Commission tenait sa première séance le 12 mai, sous la présidence de M. LUCIANI, doyen d'âge, qui déclinait la présidence définitive. Elle nommait son bureau ainsi composé ;

Président : M. Gustave MERCIER.

Vice-Présidents : MM. GUASTAVINO et SISBANE.

Rapporteur : M. FROGER.

[1] - GUSTAVE MERCIER,op-cit,p34.

ملحق رقم 09:صورة لزيارة الرئيس دومرغ وتجواله في العاصمة أثناء الاحتفالية المئوية لاحتلال الجزائر 30ماي 1930[1]

ملحق رقم 10:صورة للواجهة الأمامية ليومية « L'Antijuif »، للتيار الأوروبي المتطرف المعادي ليهود الجزائر تحمل عنوان "لويس ريجيس في بربروسا-يسقط اليهود"[2]

L'ANTIJUIF

ALGERIEN

Louis Régis à Barberousse -- A bas les Juifs !

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

[1] -**« la ville d'Alger a fait hier au président de la republique un acueil triomphal »**, Le Journal L'echo d'Alger, N°7513 ,19eme Année,Lundi05Mai1930,p01.

[2] -Bibliothèque national de France,Gallica ,bnf.fr

قائمة المصادر والمراجع

أولا-المصـــادر

أ-باللغة العربية

1 - الأشرف مصطفى ،**الجزائر الأمة والمجتمع** ،ترجمة حنفي بن عيسى ،دار القصبة للنشر ،الجزائر ،2007.
2-الحاج مصالي ،**مذكرات مصالي الحاج** ،منشورات Anep،الجزائر ،2007.
3- بن نبي مالك ،**مذكرات شاهد القرن** ، الطبعة الثانية ،دار الفكر للطباعة ،دمشق،1948.
4--سلالي علي،**شروق المسرح الجزائري** ،ترجمة أحمد المنور،منشورات التبيين ، الجاحظية ،الجزائر-2000.
5-محساس أحمد، **الحركة الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الاولى الى الثورة المسلحة**،ترجمة الحاج مسعود محمد عباس ،دار المعرفة ،الجزائر -2003
6-فرحات عباس ، **الشاب الجزائري**،ترأحمد منّور،وزارة الثقافة الجزائرية،الجزائر-2007.

ب-باللغةالفرنسية

*-الوثـــائق الأرشيفية

1-Commission de L'Algérie , Séance du 13 Décembre 1869, SHAT, N° de cote GR1H, 238.

2-Lettre du l'empereur napoléon aux membres du gouvernement, Signé à St-Cloud, le 08Aout 1869, SHAT, N°92303,17/18,GR1H 238.

3-Sénatus-Consulte réglant la constitution de l'Algérie ,Rendu en exécution de l'article 27 de la constitution de l'empire ,projet de la commission instituée par décision impériale du 05Mai 1869,SHAT ,N°de cote GR1H238.

4-A NOM, Tribunaux et parquets d'Algérie.- Alger, parquet général près la cour d'appel (1944/1962, C de référence 10T 1à158.

5-ANOM, GGA, Lettre de l'architecte bournichon au maire d'Alger ,29juin1852,N° de C1N4.

6-ANOM, Enseignement primaire. Rapports trimestriels, 1860-1870 série S 2 S 1.

7-ANOM, Tribunaux et parquets d'Algérie.- Alger, parquet général près la cour d'appel (1944/1962, C de référence 10T 1à158

8-ANOM , surveillance politique des indigènes ,1926 ,Série9H/27 .

*-الوثـــائق الحكومية

1-Rapport de .M le recteur de L'Académie d'Alger ,**Situation de L'enseignement pendant l'année scolaire 1907-1908**, gouverne - ment Général de L'Algérie Instruction publique , Imprimerie Administrative Victor Heinz -Alger,1909.
2-Rapport de M Vérola., In Bulletin Officiel de L'Association amicale et de prévoyance des magistrats des tribunaux civils de ressort de la cour d'appel d'Alger ,1ere Année , N°3,4eme trimestre , Typographie Adolphe Jourdan Imprimeur-Libraire -Editeur ,1911,Alger.
3-Bulletin des lois N°208, 1854,2er trimestre, partie principal.
4-**Lettre de L'empereur Napoléon à Le Maréchal Duc de Malakoff gouverneur général de l'Algérie**, 6 Février 186 ,In statistique et documents relatif sur la propriété arabe , Imprimerie impériale-Paris, 1863.
5-GGA ,**La Colonisation En Algérie 1830-1921** ,Direction de l'Agriculture ,du Commerce et de la Colonisation -Imprimerie Administrative Emile Pfistre , Alger -1922 .
7- Rapport du commissariat général du centenaire **« Le Centenaire d'Algérie »,**exposé d'ensemble par Gustave Mercier, Tome 1,Edition P et G Souribon ,Alger-1931.
8- Journal de la Société de la statistique de paris ,Tome 2,Paris,1880.
9-GGA,**Statistique générale de l'Algérie** ,Années 1882à 1884,
10-GGA,**Projet de budget pour l'exercise de 1929**,Imprimerie administrative Emile Pfistre, Alger,1928.

*-الكتـــب

1-Auguste Rivière ,**Jardin Hamma et la société générale algérienne** ,Imprimerie Horticole de E.Donnaud,Paris-1872.
2-Albertini Eugène, **L'Afrique romaine**, Imprimerie officielle ,Alger-1956.
3-Assézat .A ,**Sur la colonisation en Algérie** ,Bulletin de la société d'anthropologie de paris , 2eme série ,tome 2 ,Paris-1873.
4-Anonyme, Colonisation **d'Alger ,causes qui arrêtent les progrès** ,Imprimerie de J-A Boudon,Paris, SD.

5-Anonyme, La **colonisation de l'Algérie par l'armée** ,Imprimerie et lithographie de j . jacquin- Besançon,France-1881
6-Anonyme, **pétition des colons d'Alger à la chambre des députés**, Imprimerie selligue,Paris- 1833.
7-Bertherand Emile ,**Hygiène de Colon En Algérie** ,2ème Edition ,Impr de L'association ouvrière v .Aillaurd Et Cie,Alger-1875.
8-Bertillon Jacques, **La statistique humaine de la France (naissance, mariage, mort)**,Librairie Germer Baillière et Cie, Paris,SD.
9-Bertrand Louis,**Le sang des races** ,Arthème Fayard Ed ,Paris –SD.
10- Besson Emmanuel **, La législation civile en Algérie ,Etude sur les conditions des personnes et sur le régime des biens en Algérie**, Librairie Marescq et Cie Editeurs ,Paris-1894.
11-Bisson.J ,**Organisation administrative et modifications territo - riales du Sahara**, travaux de l'institut des recherches sahariennes ,1959-Paris.
12-Blanc. Paul ,**La vie de colon en Algérie**, imprimerie de la vigne Algérienne, Algérie-1874.
13-Boudicour de louis ,**la colonisation de Algérie**, imp .j-le coffre-paris -1856.
14-Boudin Jean-Christian-Marc, **Histoire statistique de la colonisation et la population en Algérie, librairie de l'académie impériale de médecine** ,Paris, 1853.
15-Busson Henri ,**Notre empire colonial** ,Félix Alcan Editeur, Paris-1910.
16-Cahn .G ,**De la constitution de la propriété en Algérie** ,Challamel-Ainé Editeur ,Paris - 1880.
17-Calvelli .M ,**Etat de la propriété rurale en Algérie**, Edition Heintz-Alger ,1935.
18-Clauzel Bertrand, **Nouvelles observations sur la colonisation d'Alger** ,Imprimerie selligue, Paris-1833.
19-Dagan Henri, **Enquête sur l'antisémitisme**, P.V Stocke Editeur, Paris – 1899.
20-Dareste Radolphe**, La propriété en Algérie , Loi du 16 juin 1851 sénatus-consulte du 22 Avril 1863**,Deuxième Edition ,Challamel Ainé et A Durand, Librairie Editeur,Paris -1864 .

21-De Girardin Emile, **la civilisation de L'Algérie** ,Imprimerie Serrières - paris ,1860.
22-Démontés Victor, **Le peuple algérien, de démographie algérienne** , Impressions algériennes du Gouvernement général, 1906_Alger.
23-E. de reynaud Pellissier,**quelque mots sur la colonisation militaire en Algérie** ,Garnier Frères ,Librairie-Paris- 1847.
24- Desjobert .A, **Lettre d'un vieux soldat à M. le maréchal Bugeaud** 7mars1845,Edition typographie de Firmin Didot, Paris -1845.
25-Desnos Odolant ,**possibilité de coloniser Alger** ,G A ,Dentu Impri -meur- Libraire, Paris - 1831.
26-Dorothée chellier, **voyage dans l'Aurès, notes d' un médecin envoyé en mission chez les femmes arabes**, Imp Nouvelle j.chellier, Tizi –ouzou-1898
27-Dubois Marcel et Terrier Auguste,**Les colonies françaises ,Un siècle d'expansion coloniale**, Augustin Challamel Editeur, Paris - 1902.
28-Ducung François, **les villages départementaux en Algérie,** Shiller-Ainé Imprimeur libraire, Paris-1853
29-Duval jules ,**Histoire de l'émigration européennes, asiatiques, africaines ,au 19eme siècle , ses causes ,ses caractères ,ses effets**, Librairie de Guillaumin et Cie- Paris- 1862.
30-Dr(Puzin) , **Considérations pratiques sur le climat en Algérie**, Gazette médicale de l'Algérie ,N°3,25Mars ,Paris-1864.
31-Enfantin prospère, **Colonisation de L'Algérie**, P. Bertrand, Libraire, paris-1843
-Eisenbeth Maurice, **les juifs de l'Afrique du nord démographie et onomastique** ,imprimerie de Lycée ,Alger-1936.
32-Espe De Metz Gabriel ,**Par Les ColonsL'Algérie aux Les Algériens et par les Algériens**,Emile La rose,Libraire Ed ,Paris -1914.
33-Fallot Emil, **Le peuplement français de L'Afrique du nord,** Bibliothèque de revue des questions diplomatiques et coloniales -Paris -1906.
34-Feydeau Ernest, **Alger ,**Michel Lévy Frères Librairs-Editeurs, Paris-1862.

35-Fillias Achille,**Dictionnaire des communes , villes et villages de L'Algérie** ,Imprimerie de typographique et lithographique j. Lavagne ,Alger-1878.
37-Flandin Jean –batiste, **Régence d'Alger ,peut on la coloniser ? comment ?**, Féret libraire Au palais royal, paris-1833.
38-Jean –pierre Bonnafont, **Douze ans en Algérie,1830-1842**,Edition Dentu ,Paris-1880.
39-jeanson Francis, **L'Algérie hors la loi**, Enag édition -Alger ,1993
40-Jourdeuil,**Un mot sur la politique française en Algérie**, Edition Typographie et lithographie .F .Robert-Toulon,France-1870.
41-Hugonnet Fred, **Français et Arabes En Algérie ,Lamoricière ,Bugeaud , Dumas ,Abed-elkader ,** Ed Challamel ainé, Paris-1860.
42-Garrot Henri ,**Les Juifs Algériens Leurs origines** ,Librairie Louis Relin ,Alger-1898.
43-Gautier .M .E.F, **L'évolution de l'Algérie de 1830-1930**, publications du comite métropolitaine du centenaire de l'Algérie- Paris ,1930.
44- général de division le pays de bourjolly ,**colonies agricoles d'Algérie** , librairie militaire j. Dumaine -Paris,1849.
45-Girault Arthur,**Principes de colonisation et de ligislation coloniale , L'Afrique du nord et Algérie** ,3eme partie ,Cinquième édition, Société anonyme de recueil sirey 1927.
46-Gourgeot.f, **La domination juive en Algérie**, Imprimerie pierre fontanna,Alger,1894.
47- Guynemer.M **,situation des alsaciens-lorrains en Algérie** , Imprimerie centrale des chemins de fer- paris,1873.
48-Le marquis de Cosentino ,**L'Algérie en 1865 un coup d'œil d'un colonisateur** , Les édition des Paul Dupont et Challamel –Ainé ,Paris, 1865.
49-Larcher Emile et Rectenwald George ,**Traité élémentaire de la législation algérienne**, tome 3, 0141les biens les actes ,Edition rousseau -Paris,1923.
50-Lazare Bernard,**Le nationalisme juif,** Publication kadima, N°1, Imprimerie A Reiff, Paris-1898.
51- , **L'Antisémitisme, son histoire et ses causes** ,Tome1,Edition de Jean Crès ,Paris-1934.

52-Laynaud. M, **Notice sur la propriété foncière en Algérie**, Girault imprimeur- Alger ,1900 .
53-Lucet Marcel**, Colonisation européenne De L'Algérie, Légitime Défense** ,Challamel Ainé, libraire –Editeur,Paris,1863.
54-Mathieu Auguste,**Les races et Les religions en Algérie :Etudes Algériennes** ,imprimerie x. jevain, Lyon -1894.
55-Mathis Léon ,**Les cinquante millions pour la colonisation officielle en Algérie** , Impri -merie typographique , jules breucq ,bel-Abbès - Algérie,1883.
56-Martin Claude, **Les israélites algériens de 1830à1902**,Edition Herakles,Paris-8-1936.
57-Meynie Georges ,**Les juifs en Algérie**,3éme édition, Nouvelle Librairie Parisienne Albert Savine, Editeur, Paris-1888.
58-Mercier Ernest, **Histoire de Constantine** ,J. Marie et F .Biron, Imprimerie –Editeurs, Constantine ,1903.
59- ,**La Propriété foncière chez les musulmans d'Algérie**, Ernest Leroux, Editeur -Paris,1891.
60-Mirante Jean,**La France et les œuvres indigènes en Algérie** ,Cahiers du Centenaire de L'Algérie ,Alger -1930.
61- Peyerimhoff Henri ,**de la colonisation Officielle de 1871-1895**, 1er Edition ,Edition Société anonyme de l'imprimerie rapide ,1906.
62-Picot Jean- Bonaventure Charles ,**Colonisation de l'Algérie ,** Moquet Librairie –Editeur ,Paris ,1848.
63- Pitois Christian ,**Souvenirs de Maréchal Bugeaud ,de Algérie et du Maroc** ,Tome 1,Alexandre Cadot éditeur-Paris,1845.
64-Ricoux René ,**Démographie Figurée de l'Algérie ,Etude statistique des populations européennes qui habitent l'Algérie** ,G Masson éditeur , Libraire de l'académie de médecine- paris ,1880.
65-Robinet Auguste,**Cagayous au miracle** ,Imprimerie Victor Rollet, Alger -1905.
66-Réveillaurd Eugène,**L'établissement d'une Colonie de vaudois français en Algérie**, Edition la société Coligny « société protestante de colonisation» -Paris,1893.
67-Taupiac.c,**Les Israélites indigènes**, Challamel Librairie ,Paris-1871.

68-Teissier Octave ,**Napoléon 3 en Algérie** ,Challamel-Ainé Libraire- Paris,1865.
69- , **Algérie, Géographie, Histoire, Statistique, descreption des villes ,villages et hameaux ,organisation des tribus ,nomen - clature des khalifaliks ,aghaliks,et kaidats**, Librairie de l. hachette et Ce -Paris,1865.
70. Tudury Guy,**La prodigieuse histoire des mahonnais en Algérie ,de Minorque en Algérie à partir de 1830**,Edition Lacour- Nîmes, 2003.
71-tsourikoff Zénaide, **L'enseignement Des Filles En Afrique Du Nord** , Editions A.Penode Paris 1935.
72-Violier Georges ,**Les Deux Algérie** ,Imprimerie et Librairie Paul Dupont, Paris-1898.

***الجرائــد والدراسات**

1-L'echo d'Alger,N°301,Deuxièm Année ,Jeudi 16janvier1913,p01.
2- **« Les manifestations du centenaire »,** L'echo 'Alger,N°7549,19eme Année, Mardi 10Juin1930.
3-« **L e reich capitule sans conditions »,** L'cho d'alger,N°12626 ,Mardi 08 Mai 1945.
4-« Le cessez le feu a retenti ,le3eme reich afini son règne », L'cho d'alger ,N°12627 , Mercredi 09 Mai 1945.
5-« **Depuis cent ans l'Algérie est devenue française** »,Le petit journal,N°2054,04Mai 1930,
6-« M Doumergue en route pour Alger » Le Journal L'écho d'Alger, N°7512 ,19eme Année, Dimanche 04Mai1930.
7- **« la ville d'Alger a fait hier au président de la republique un acueil triomphal »**, Le Journal L'echo d'Alger, N°7513 ,19eme Année,Lundi05Mai1930.
8-« Le séjour du président fe la république en Algérie », L'echo d'Alger-journal, , N°7513 , 19eme Année, Lundi 05Mai1930.
9-Augustin Bernard « **Le recensement de 1936 dans l'Afrique du nord »** ,Annales de Géographie, tome. 46, N°259, Armand Colin ,France-1937.
10-Balout.Lionel, « **La préhistoire »**, In Revue africaine, Centenaire de la société algérienne, Numéro spéciale ,Tome c, Année, Faculté des lettres ,Alger, 1956.
11-Bonnardot .J, « **La presse algérienne sous le Second empire** »

In: 1848. Revue des révolutions contemporaines, Tome 41,Numéro 184, novembre 1949.

12-Despois Jean, « **La répartition de la population en Algérie »** Annales .économies sociétés ,civilisations , revue trimestrielle, N°5,15eme Année , Éd. de l'École des hautes études en sciences sociales ,Paris-1960.

13-Hoffherr René et Paye Lucien, « **Évolution du peuplement en Afrique du Nord » ,**In Congrès international de la population, Démographie de la France D'outre-mer ,Actualités scientifiques et industrielles ,N°715,Volume 6,Hermann et Cie Editeurs, Paris ,1937.

14-Godin Pierre, « **Proposition tendant à faire participer la ville de paris aux fêtes du centenaire algérien 1930 » ,**Rapport Municipale ,N°136 **,**conseil municipale de Paris,1927.

15-Mesnard. G, **La régression relative des Européens en Algérie, In Congrès international de la population** , In Congrès international de la population, Démographie de la France D'outre-mer ,Actualités scientifiques et industrielles ,N°715,Vol 6,Hermann et Cie, Paris ,1937.

16-Louis Henry, « **Recensement de L'Algérie en 1948 »**, Revue population, N°4 ,7eme Année, Institut national d'études démographiques , Paris ,1952.

17-Huetz de lemps Alain , « **La Colonisation des plaines des chélif** »,Les cahiers d'outre-mer , revue de géographie, Bordeaux ,N°38,10eme Année ,Avril-Juin 1957.

18-kalb Paul Jacques ,Rapport fait au nom de LA Commission spéciale sur le projet de la loi instituant dans les départements algériens, **Revue Sénat**, N°48 ,1ere session ordinaire de 1959-1960.

19-Roussel Charles, « **la justice française en Algérie et les tribunaux indigènes »** , Revue des deux mondes ,tome 1 6, Edition françois Buloz , Paris-1876.

20- Shefer Christian, « **La conquête totale de l'Algérie 1839-1843, Valée , Bugeaud, Soult** » , Revue de l'histoire des colonies française, Paris, 1916.

21-Zimmermann Maurice ,**Colonies françaises ,Le recensement de l'Algérie et Tunisie** , Annales de géographie ,T 6,N°27- Paris, 1897.

22- **Le recensement de 1911 en Algérie** ,Annales de géographie ,Tome 21, N°116-Paris,1912

ثانيا–المراجـــع

أ-باللغــة العربيــة

1- إبراهيم دسوقي ناهد، **دراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر** ،دار المعارف ، الاسكندرية -2001.
2-أجيرون شارل روبير ،**الجزائريون المسلمون وفرنسا1871-1919**،الجزء الأول، ترجمة م.حاج مسعود، أ.بكلي، دار الرائد للكتاب-الجزائر ،2007.
3- ،**المسلمون الجزائريون وفرنسا 1871-1919**،الجزء الثاني ،ترجمة م.حاج مسعود وع. بلعريبي، طبعة خاصة وزارة المجاهدين،دار الرائد للكتاب -الجزائر ،2007.
4--البهنسي عفيف ،**رواد الفن الحديث في البلاد العربية**،دار الرائد العربي ،الطبعة الأولى ، بيروت -1985.
5-الشال ا نشراح،**السينما التسجيلية والفنان التسجيلي**،د ت ط،دار اليمان ،القاهرة- 2006.
6-السيد محمود و الصاوي كامل،**تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر الاستعمار الأوروبى في إفريقيا** ،الجزء الثالث، موسوعة إفريقيا التاريخية-الإسكندرية ،2018.
7-المنوّر أحمد،**الأدب الجزائري باللسان الفرنسي :نشأته وتطوره وقضاياه**،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر-2007.
8- الكسان جان ،**السينما في الوطن العربي**،عالم المعرفة سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت -1990.
9-الهواري عدي،**الاستعمار الفرنسى فى الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960**،ترجمة جوزيف عبد الله ،الطبعة الأولى ،دار الحداثة للنشر والتوزيع -بيروت ، لبنان ، 1983.
10- برفيلي غي ،**النخبة الجزائرية الفرانكوفونية 1880-1962**،ترجمة م.حاج مسعود وآخرون،دار القصبة للنشر ،الجزائر-2007.
11-بقطاش خديجة،**الحركة التبشيرية الفرنسية فى الجزائر (1830-1871)**،دار دحلب للنشر والتوزيع ،الجزائر-1992.
12 -بوضرساية بوعزة، **سياسة فرنسا البربرية في الجزائر (1830-1930) وانعكاساتها على المغرب العربي**، ج 2، د ط، دار الحكمة-الجزائر، 2010
13- بيطار زينات ،**الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي**،عالم المعرفة للنشر،الكويت-1992.
14-تيران ايفون،**المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة ،المدارس والممارسات الطبية والدين1830-1880**،ترمحمد عبد الكريم أوزغلة،دار القصبة للنشر،الجزائر -2007.

15-دوني سيباستيان ،**السينما وحرب الجزائر دعاية على الشاشة من أصول النزاع المسلح إلى إعلان الاستقلال(1945-1962)**،ترجمة يوسف بعلوج – هاجر قويدري، سيديا للنشر، الجزائر-2013.
16-ريسلر كميل ،**السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر (أهدافها وحدودها1830-1962)** ، ترجمة نذير طيار،ط1،دار كتابات جديدة للنشر الالكتروني ،الجزائر ،2016.
17- زروق نادية،**سياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة في الجزائر 1870-1900**،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع -الجزائر، 2014.
18 -سعد الله أبو القاسم،**الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930**،الجزء الثاني،الطبعة الرابعة،دار الغرب الاسلامي-بيروت، لبنان،1992 .
19- ،**تاريخ الجزائر الثقافي** ،الجزء الخامس،ط1،دار الغرب الاسلامي للطبع،بيروت ،لبنان، 1998.
20-سعدالله فوزي،**يهود الجزائر هؤلاء المجهولون** ،ط2،شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر-2004.
21-صاري أحمد،**شخصيات وقضايا من التاريخ المعاصر** ،ط1،المطبعة العربية ،غرداية ،الجزائر-2004.
22-طوبال نجوى،**طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر 1700-1830م من خلال سجلات المحاكم الشرعية** ،دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر-2008.
23-عباد صالح،**المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870-1900**،الطبعة الأولى ،ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر،1984.
24- عبد الرحمان عواطف ،**الصحافة العربية في الجزائر (دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية)1945-1962**، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر -1985.
25-عقاب محمد الطيب)،**قصور مدينة الجزائر في أواخر العه د العثماني** ،دارالحكمة للنشر والطباعة،الجزائر – 2009 .
26-عميراوي احميدة،**آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)**،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 - الجزائر،2007.
27- غربي الغالي،**العدوان الفرنسي على الجزائر،الخلفيات والأبعاد**، منشورات المركز الوطني لدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م،دار هومة للنشر- الجزائر.
28- قرقوة إدريس ،**الظاهرة المسرحية في الجزائر دراسة في السياق والآفاق** ،دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر-2005.
29-لوكا فيليب ، فاتان جون كلود ،**جزائر الأنثروبولوجيين نقد السوسيولوجيا الكولونيالية** ، تر محمد يحياتن ،منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال ،وزارة المجاهدين،الجزائر-2002.

30- مردوخ إبراهيم ،**الحركة التشكيلية المعاصرة بالجزائر**،ب ط،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر-1988.
31- ،**مسيرة الفن التشكيلي في الجزائر** ،الطبعة الأولى ،الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها ،منشورات وزارة الثقافة الوطنية ،الجزائر-2005.
32-معوشي آمال ،**يهود الجزائر والاحتلال الفرنسي (1830-1870)**،منشورات وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر-2013.

33-مناصرية يوسف،**النشاط الصهيوني في الجزائر 1897-1962**،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر-2013.
34- مياسي ابراهيم ،**مقاربات في تاريخ الجزائر 830-1962**،دار هومة للتوزيع والنشر - الجزائر،2007.

35-وعلي محمد الطاهر،**التعليم التبشيري في الجزائر من 1830إلى 1904دراسة تحليلية تاريخية**، دار دحلب للنشر والتوزيع ، الجزائر -2009.
36- يحياوي فضيلة ،**الرواية والمجتمع الكولونيالي في جزائر مابين الحربين** ،ترجمة عبد الحميد سرحان ،منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ،الجزائر -2017.
37-يحياوي مرابط مسعودة،**المجتمع المسلم والجماعات الأوروبية في جزائر القرن العشرين حقائق وإيديولوجيات وأساطير ونمطيات** ،المجلد الأول،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،طبعة خاصة لوزارة المجاهدين ،الجزائر، 2010.

ب-باللغــة الفرنسـية

1-Aziza Mohamed ,**Le théâtre et l'Islam**, SNED, Alger-1970.
2-Bonze (Raymond), **L'Algérie du centenaire vue par l'université de France**,publication du comité national métropolitaine du centenaire de l'Algérie ,SD.
3-Bouche Denise,**Histoire de la colonisation française**,Tome 2 ,Fayard, Paris- 1991.
4-Bouveresse Jacques,**Un Parlement coloniale les délégations finan - cières 1898-1945,le déséquilibre des réalisations** ,publications de Rouen et du havre -France,2010.
5-Cantier Jacques , **L'Algérie sous le régime de vichy,** Edition Odile Jacob ,Paris-2002.
6-Favrod Charles –Henri, **la révolution algérienne**, Edition Dahleb - Alger,2007.
7- Fleury Georges ,**Comment l'Algérie devint française 1830-1848**, Edition talantikit-Bejaïa, 2012.

8-Henriette (Walter), **Les français dans tous les sens :grandes et petites histoires de notre langage** ,Ed Robert Laffont, Paris-2008.

9-Guicheteau Gérard et Combier Marc, **L'Algérie oubliée, Images d'Algérie** ,Edition Acropole ,France-2004.

10-Guignard Didier **,L'Abus de pouvoir dans l'Algérie coloniale** , presses universitaires de paris ouest - paris ,2010.

11- : **Propriété et société en Algérie contemporaine. Quelles approches**,Nouvelle Édition, Institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman, Aix-en-Provence,2017.

12-Henni (Ahmed) ,**La colonisation agraire et le sous-développement en Algérie,** Enag Edition -Alger, 2009.

13-Mannoni Pierre,**Les français d'Algérie ,Vie, Mœurs, Mentalités,** Edition Le Harmattan, Paris-1993.

14-Miquel Pierre, **Histoire de la radio et la télévision** ,Edition Académique Perrin,Paris-1984.

15-Nora pierre, **Les français d'Algérie** ,Christian Bourgois éditeurs , 2012-Paris.

16-Piaton Claudine et Lochard Thierry, **L'architectures et propriétaires algérois ,1830-1870** ,Imprimerie de l'institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman ,Aix- en- Provence ,2017.

17-Robert-Guiard Claudine, **Des Européennes en situation coloniale . Algérie 1830-1939**, Publications de l'Université de Provence, coll. « Le temps de l'histoire », Aix-en-Provence, Marseille- 2009.

18 samrakandi Mohammed Habib,**le théâtre arabe au miroir de lui-même et son contact avec les créations de deux rives de la méditerranée** ,presses universitaires du Mirail , France,2008.

19-Sessions (Jennifer) ,Les colons avant la IIIe République : peupler et mettre en valeur l'Algérie , In :**Histoire de L'Algérie à la période colonial 1830-1962**,sous la direction de Abderrahmane Bouchène ,Jean-Pierre Peyroulou, Edition de la découverte ,Paris-2014.

20-Stoa (Benjamin),**La guerre d'Algérie :la mémoire par le cinéma ,in Pascal blanchard et Isabelle veyrat-masson, Les guerre des mémoires** ,Edition de la découverte ,Paris -2008

21- ,**Les trois exils juifs d'Algérie**, Edition Stock, Paris- 2006.

22-Stora (Benjamin)et Jenni (Alexis) , **les mémoires dangereuses de L'Algérie coloniale à la France d'Aujourd'hui** , Edition Albain Michel, Paris- 2016 .
23-Verdès –Leroux (Jeannine), **L'Algérie et la France** ,Editions Robert Laffont -Paris, 2009.
24- Tudury Guy,**La prodigieuse histoire des mahonnais en Algérie ,de Minorque en Algérie à partir de 1830**,Ed- Lacour- Nîmes, 2003.
25-Yrssou Henry,**Augustin de vialar en Algérie de 1832à1868**,in Millénaire de Gaillac, Tome1 -Paris, SD .

ثالثا-المجـــلات والدوريـــات

أ-باللغة العربية

- أجيرون شارل روبير، تنمية الاستطان في الجزائر 1870-1930، ت محمد الطاهر العمودي ،**مجلة المصادر**، مجلة فصلية يصدرها المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954،العدد الثاني،الجزائر ، 1999.
2- ، **"تنمية الاستطان في الجزائر 1870_1930"**، ت محمد الطاهري العمودي "،مجلة المصادر، مجلة فصلية يصدرها المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954،العدد الثاني،الجزائر ،1999.
3-العياض نصر الدين،**" الخطاب الصحفي الاستعماري في ظروف الأزمة"**،مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954،العدد1،الأول،1999.
4-الهنسي أحمد ،**يهود الجزائر في الفكرين الاستشراقي والسياسي الإسرائيلية**،مجلة دراسات شرقية ،مجلة فصلية محكمة تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية،العدد الرابع عشر،السنة الخامسة،ربيع 2018.
5- الواعر (صبرينة)،**"الإدارة الفرنسية للقبائل الجزائرية 1830-1870:الغرب الجزائري أنموذجا"**،مجلة عصور الجديدة، مجلة فصلية محكمة،العدد 24-25،جامعة وهران.
6- ،"يهود مدينة قسنطينة من خلال رحلات الفرنسيين إبان القرن 19" ، **مجلة عصور الجديدة** ، مجلة علمية فصلية محكمة يصدرها مخبر تاريخ الجزائر ، العدد 18عدد خاص عن قسنطينة ،جامعة وهران 1، صيف 2015.

7-العيساوي صونيا ،**"الواقع السكاني خلال فترة الاحتلال :مشروع الاستيطان في مواجهة الحيوية الديمغرافية للمجتمع الجزائري"** ،مجلة آفاق للعلوم،مجلة فصلية محكمة،المجلد الخامس ،العدد الثاني عشر ،جامعة زيان عاشور ،جوان 2018.
8-أوهايبية فتيحة،**الصحافة المكتوبة في الجزائر –قراءة تاريخية-**،مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ،العدد 16،سبتمبر 2014.

9- بتقة سليم ، **"حوارية النص والصورة،آسيا جبار قارئة لدولاكروا (نساء الجزائر في مخدعهن)"**،مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري،العدد العاشر،جامعة بسكرة ، الجزائر،2014.

10- **"المتخيل الكولونيالي من وهم المكتوب إلى زيف المرئي"**،مجلة المخبر،العدد الثامن،جامعة محمد خيضر ، بسكرة-2012

11- بلعز نورالدين ،**"قراءة في التجربة الفنية التشكيلية باية محي الدين إيستيتيقا البساطة،ايستيتقا الإبداع "**،مجلة جماليات ،العدد1،،مجلة دورية محكمة ،مخبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية ،جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم -2014

12-بلعزوز العربي ،**"السياسة الاستعمارية في الجزائر وأثرها على تطور الهجرة الأوروبية بها (1830-1962)"**،مجلة عصور الجديدة ، مجلة علمية فصلية محكمة يصدرها مخبر تاريخ الجزائر ،جامعة وهران 1،العددان 8/7خريف شتاء ،2013 ،2012.

13- بن الشيخ حكيم ،**"سياسة الاستيطان الأوروبي في الجزائر ما بين 1830-1962"**،مجلة عصور الجديدة،مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي،جامعة وهران ،العدد 14-15،أكتوبر 2014.

14-بن عطار أحمد،**"التاريخ والهوية في كتابات عمار بلخوجة".**،مجلة الخلدونية للدراسات والبحوث في التاريخ والمجتمع ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية العدد الحادي عشر ، جامعة ابن خلدون ،تيارت ،2017

--بن قيلة سلمان،**واقع الأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية بعد أكثر من ربع قرن من الاعتراف الأكاديمي**، مجلة التغير الاجتماعي ،جامعة محمد خيضر ،العدد الثالث،جويلية ،2017،بسكرة.

15- بودربالة الطيب ،**"صورة الجزائر في الرواية الفرنسية"**،مجلة علوم اللغة وآدابها ،العددان الثاني والثالث،دورية أكاديمية محكمة ،كلية الآداب واللغات ،جامعة الوادي ،مارس 2010.

16-بودقة فوزي ،**"وجه مدينة الجزائر وجوانب من مسارها العمراني"**،مجلة انسانيات،المجلة الجزائرية للأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية ،العدد45/44،جامعة وهران،الجزائر -2009.

17-بوحسون العربي ،**"بين التاريخ والأنثروبولوجيا :دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية "**، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية ،المجلد الأول ،العدد الثاني ،جامعة الجيلالي اليابس ،سيدي بلعباس .

18-بوخموشة إلياس،**"جمهور السينما بالجزائر بين الوفاء والقطيعة "**،مجلة ذوات ،مجلة ثقافية شهرية،العدد 24، الرباط-2016.

19-بورغدة رمضان ،**جوانب من تطور السياسة القضائية في الجزائر خلال الفترة 1830-1892**،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ،العدد الرابع ،جامعة محمد خيضر ، بسكرة،جانفي 2009.

20- بوضربة أحمد، **"صدى هجومات 20أوت 1955بالشمال القسنطيني من خلال جريدة صدى الجزائر الكولونيالية "** ،مجلة الحوار المتوسطي ،العدد الأول.
21-بوعتو خيرة،**"جمالية العنوان بسينما الجزائر بالمهجر فيلم Le thé au harem d'archimède لمهدي شارف أنموذجا"**، مجلة جماليات، العدد الثاني، جامعة عبد الحميد ابن باديس ،شتاء 2015،مستغانم
22-بوقصاص(عبد الحميد)،**تطور السكان في المجتمع الجزائري وثنائية (الريفي – الحضري)**،مجلة البحوث والدراسات الانسانية المجلد الثاني ،العدد الرابع ،جامعة 20أوت،سكيكدة،2009ماي.
23-بومزو عزالدين ،**"نقد الأشرف لتاريخ الاستعمار الفرنسي لإعادة كتابة التاريخ الوطني"** ،مجلة دراسات ،المجلد الرابع،العدد السادس ،كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية ، قسنطينة 2.
24- تيطاوني الحاج،**"وسائل الإعلام في الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي(بدايات الصحافة المكتوبة، الاذاعة والتلفزيون) "** ،مجلة الصحافة والاتصال ،العدد العاشر ،منشورات المؤسسة الوطنية لعلم الصحافة ،الجزائر-2019.
25- ثقاية صديق،**"الأنثروبولوجيا في العالم العربي – حالتا مصر والجزائر"**،مجلة التغير الاجتماعي ،جامعة محمد خيضر ، العدد الثالث،جويلية ، 2017،بسكرة .
26-خالدي محمد،**"المسترقون وأثرهم الفكري والفني في الجزائر"** ،مجلة الأثر ،كلية الآداب واللغات ،جامعة قاصدي مرباح ،العدد13،ورقلة-مارس 2012
27- ،**"المستشرقون وأثرهم الفكري والفني في الجزائر"**، مجلة الأثر، دورية علمية محكمة تصدر فصليا كلية الآداب واللغات *جامعة قاصدي مرباح ع*13،مارس، *ورقلة* 2012.
28-خالدي محمد وبن عمرعزوز،**"الاستشراق الفرنسي وأثره في نشأة الفن التشكيلي الجزائري"**،مجلة جماليات ،المجلد الأول،العدد الخامس ،2018.
29-خلوفي بغداد،**"التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية"** ، مجلة المواقف للبحوث والدارسات في المجتمع والتاريخ،العدد ،جامعة معسكر ،10ديسمبر ، 2015.
30-خلوفي رشيد ،**"القضاء الإداري خلال الفترة الاستعمارية 1830-1862"**مجلة المدرسة الوطنية للإدارة ،مجلد 9،العدد الثاني، الجزائر،1999 .
31-دردور عبد الباسط،**"الهيمنة الثقافية وتداعياتها على العمران-الجزائر أنموذجا"**-مجلة الإحياء ،مجلة فصلية محكمة العدد 13كلية العلوم الإسلامية ،جامعة باتنة 1،باتنة-2013.
32-رأس الماء عيسى،**"الخطاب السينمائي الكولونيالي في الجزائر بين الواقع والإيديولوجيا"** ، مجلة دراسات وأبحاث،المجلة العربية في العلوم الإنسانية ،العدد24 ، السنة الثامنة، الجزائر- سبتمبر 2016.
33-رحوي بلحوسين آسيا ،**"وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي "**،مجلة دراسات نفسية وتربوية ،العدد السابع، مخبر تطور الممارسات النفسية والتربوية ،جامعة مولود معمري ،تيزي وزو.
34-زيتوني عبد الرزاق،بلبشيرعبد الرزاق،**"الفكر في الفن التشكيلي الجزائري الحديث،محمد راسم أنموذجا"**، دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية

والاجتماعية ،مخبرالفنون والدراسات الثقافية ، ،مجلد 11،العدد الأول ، السنة الحادية عشر، جامعة أبو بكر بلقايد ،تلمسان،مارس2011.
35- طرشون نادية،**"سياسة نابليون الثالث العربية"** ،مجلة أبحاث ودراسات ،المجلة العربية للأبحاث في العلوم الانسانية والاجتماعية ، مجلة دولية محكمة ،العدد26،الجزء الثاني، جامعة عاشور بوزيان،الجلفة ،مارس2017.

36-طلحة إلياس،**"تاريخ الصحافة المكتوبة في بلدان شمال إفريقيا(ليبيا،تونس الجزائر ،المغرب)"** ،مجلة المعارف لدراسات والبحوث التاريخية، العدد 14 ،جامعةالوادي .
37- سعادة ياسين، **"التحليل السوسيولوجي لتاريخ الجزائر ،إلى أين وصلت النقاشات حول التشكيلة الاجتماعية لجزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي"** ،مجلة الخلدونية للعلوم الانسانية والاجتماعية،العدد السادس ،تيارت، 2013.
38–سعد الله أبو القاسم،**"الاستعمار والثقافة بالشعبية في الجزائر"**،أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ،ج4،ط1،دارالغرب الاسملايم للنشر ،بيروت،1996
39 -سوسي مهدي،**"الثورة في أعمال امحمد إسياخم"**،مجلة جماليات ،المجلد الأول ،العدد الرابع مجلة دورية محكمة ، مخبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية ،جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم ،ديسمبر 2017.
40-علامة صليحة،**"الطب الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية (أداة للهيمنة وحقل للتنصير)"**،مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ،مجلة دورية ودولية محكمة ، تصدرها جامعة حمة لخضر ،الوادي ، العدد18،ديسمبر 2017
41- فكار عثمان ،**الاستيطان العمراني الفرنسي في الريف الجزائري مقاربة سوسيو - تاريخية** ،مجلة جامعة دمشق ،المجلد 29،العدد ،3و4، 2013.
42-قايد عادل وصبطي عبيدة ،**"الصورة الفنية ودورها في بناء الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري**(قراءة سيميولوجية لصورة الفنان دينيه)"،مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ،العدد29،جوان 2017.
43- قحلوص صالح علي مسعود،**"علاقة الزمن الجدلية في الفكر السينمائي"**،مجلة الأكاديمية للعلوم الانسانية والاجتماعية ، عدد مزدوج10-11،يوليو-ديسمبر،ليبيا-2016.
44-قجّال نادية،**"الوظائف الأساسية للفن الاستشراقي قبيل وإبان الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي"** ،مجلة إنسانيات، العدد46، ديسمبر 2009.
45- قنون حياة،**"الاستيطان الفرنسي ومصادرة ممتلكات الجزائريين خلال القرن التاسع عشر"**،مجلة الحوار المتوسطي ،مجلة علمية دولية محكمة ، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي ،جامعة الجيلالي ليابس ،سيدي بلعباس ، المجلد الثالث ،العدد الأول.
46-كلثوم ميدان،**"التطور العمراني في مدينة الجزائر 1830إلى 1939 "**، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا،المجلد الثالث ،العدد الخامس،مخبر التاريخ والجغرافيا ،المدرسة العليا للاساتذة.

47- كمال بيرم،"**احتلال منطقة سطيف وتطور حركة الاستيطان الأوروبي بها بين 1838-1900**"،المجلة التاريخية الجزائرية ، مجلة عملية فصلية محكمة ، العدد الأول ، أفريل،2017،جامعة محمد بوضياف ،المسيلة .

48-لونيسي ابراهيم،"**جريدة البصائر والثورة الجزائرية 1954-1956**"،مجلة الواحات للبحوث والدراسات،العدد الثاني ،المجلد 7،جامعة غرداية،2014.

49-مطمر محمد العيد،**الغزو والاحتلال الفرنسي للأوراس وأثره على الحالة الاجتماعية لسكان المنطقة 1844-1884**، مجلة العلوم الانسانية ، العدد العاشر ،جامعة محمد خيضر ،بسكرة،نوفمبر 2006.

50-مفرج جمال ،"**جميلات الجزائر في اللوحة البصرية الاستشراقية**"،مجلة جماليات ،مجلة دورية محكمة،العدد الأول ، جامعة عبد الحميد ابن باديس،مستغانم-شتاء 2014.

51- ميسوم بلقاسم ،"**سياسة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال الفترة1830-1954**"،مجلة علوم الإنسان و المجتمع، مجلة علمية محكمة ،جامعة محمد خيضر بسكرة ،العدد 06،جوان 2016.

52-ناصرمحمد ،**المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها تطورها أعلامها من 1903إلى 1931** ، الجزء الأول ،منشورات وزارة الثقافة ،الجزائر،2007.

53- وزناجي مراد،"**الثورة التحريرية في السينما الجزائرية ،الدلالة والتأثير**" ،مجلة آفاق سينمائية ،مختبر فهرس الأفلام الثورية في السينما الجزائرية ،العدد الثالث،جامعة وهران ، جوان 2010.

ب-باللغــة الفرنســية

1-Ayoun Richard, « **Le décret Crémieux et l'insurrection de 1871 en Algérie** »,Revue d'histoire moderne et contemporaine ,Tome 35,N°1, Janvier-Mars1988,Paris.

2-Bachoud Andrée, « **Les espagnoles en Algérie question sur l'identité et sur l'intégra -tion »** ,Revue (Exils et émigrations ibériques au XXème siècle) » , N°7, Centre de recherches ibériques et ibéro-américaines de l'Université de Paris X Nanterre ,Paris-1999.

3-Carmel Sammut , **« les communautés migrantes maltaises de Tunisie installées en France : un cas d'acculturation coloniale (problématique et hypothèse de recherche**) », Revue d' histoire maghrébine , N°21-22,8eme Année , Avril 1981 ,Tunis.

4-déjeux Jean, « **Élissa Rhaïs, conteuse algérienne (1876 -1940) »,** Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984.

5-Denis Sébastien, **« La diffusion des documentaires sur L'Algérie coloniale en France métropolitaine (1945-1962) »,** Revue questions de communication, N7940 ,30Juin 2006- France.

6- Dermenjian Geneviève, **« Juifs d'Algérie (1830-1962): Une histoire entre mémoire et liens intimes »,** Quaderns de la Mediterrània**,** N°23 , Pensar el magreb contemporaneo **,**Institut catala Mediterrània d'estudis, Barcelona , 2016.

7- Jalla Bertrand, « **L'autorité judiciaire dans la répression de 1871 en Algérie »** ,Revue Outre – mer ,Tome 88 ,N°332-333,2eme semestre, Société française Outre – mer,Paris -Novembre 2001.

8-Jean Jacques jordi, « **Les pieds noirs : constructions identitaires et réinvention des origines »** ,Revue Homme et Migrations, N°1236 Mars-Avril, Musée de l'histoire de l'immigration ,Paris-2002.

9-Jansen Jan, « **Fête et ordre coloniale Centenaires et résistance anticolonialiste en Algérie pendant les années 1930 »,** Vingtième Siècle. Revue d'histoire , Presses de Sciences Po, Paris,2014.

10-Hadjilah, Asma, « L'architecture des premières maisons européennes d'Alger, 1830-1865**. »** Revue Artla**s** ,Bulletin 5, N° 1, Spring 2016, purdue university ,India.

11-Hamani .M , **« L'impact de la colonisation sur le foncier Algérien ,le cas de l'est algérien** »,Revue Options Méditerranéennes , Etudes et Recherches ,Séries B ,N°72, Montpelier , 2015

12-Faouzia Chafia, « **Etat civil et analyse démographique - historique en Algérie : Historique diagnostique et évaluation** », Revue des sciences humaines et sociales ,université kasdi Merbah, ouargla, N°11,Juin 2013.

13- Fisher Fabienne , **« Les Alsaciens et les lorraines en Algérie avant 1871** »,Revue française d'histoire d'outre mer ,N° 317 ,4e trimestre ,France ,1997.

14-Guignard Didier **, « Les archives vivantes des conservations foncières en Algérie** », Revue L'Année du Maghreb , N°13 ,CNRS Edition,2015.

15-kamel Kateb, « **La population et l'organisation de l'espace en Algérie »** ,Revue l'espace géographique , Tome 32,Belin, 2003.

16-Gueydan Jean, « **Les évêques d'Alger »**, Revue 'Algérianiste, N°84, Décembre1998,Narbonne , France.

17-Klein Henri , « **les premiers colons** » ,Revue les feuillets d'eldjazair ,Volume 06,Alger, 1991.
18-Marchat Henri **,« Fromentin en Afrique »,** Revue de l'occident musulman et de la méditerrané,1er trimestre, Année 1974, Aix-en-Provence.
19-Meri Isabelle,« **de l'égalisation de la violence en contexte colonial, le régime de l'indigénat en question »** ,Revue politix, Revue des sciences sociales du politique, Vol17, N°66, Deuxième trimestre ,2004-Paris.
20-Lamboley Claude, « **Les Colons en Algérie Histoire d'une famille ordinaire »,** Bulletin de l'Académie des Sciences et Lettres de Montpellier- 2011.
21-Pradel de Lamaze François et bouisri Abdelaziz« **la population d'Algérie d'après le recensement de 1966 »** , Revue population, N°1, 26 année ,Année 1971.
22- Rainero Romain, « **Les italiens en Afrique du nord »,** Revue des publications de l'école française de Rome ,N° 94 ,Rome ,Italie-1986.
23-Redouane Joëlle, « **La présence anglaise en Algérie de 1830 A 1930** »,Revue de l'occident musulman et de la méditerranée ,N°38 ,centre national des recherches scientifiques ,Aix –en provence,1984.
24- Reynés-Linares Aina, « **Voix/Voies du cinéma algérien »,** Réflexions et perspectives, n°2,Université Alger 2-Juin 2012.[1]-chauvin (Stéphanie), **« Le cinéma colonial et L'Afrique 1895-1962 »,**In vingtième siècle , revue d'histoire, n°43,juillet –septembre, France.
[25]-Renucci Florence, « **le juge et la connaissance du droit indigène, élément de compa- raison entre l'Algérie et la Libye aux premier temps de la colonisation »**,le juge et l'outre-mer ,Tome 3,CHJ éditeur , HALS ,France-2007.
26-Roth -Arlette, **« Le théâtre algérien de langue dialectale 1926-1954 » , [compte-rendu]** Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N°03 , Année, 1967, France.
27- Spitéri Richard , « **Le Maltais de L'Afrique du nord** » ,Revue de l'Algerianiste, Trimestre N°97, mars 2002.
28-Tamba Saïd , **« Propos sur le cinéma colonial en tant que genre populaire »**, Revue L'homme et la société ,Vol154,N.04,L'Harmattan ,Paris-2004.

29- Temime (Emil), « **la migration européenne en Algérie au 19eme siècle :migration organisé ou migration tolérée** »,Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, N°43 ,Paris ,1987.
30-Trodi Fares et Autres, « **L'architecte paysagiste à Alger pendant la période coloniale (1830-1962), une figure émergente »**,Revue scientifique sur la conception et l'aménagement de l'espace, N°18, CNRS - université de Tours, France.
31- Thenault Sylvie, **« la justice au secours de l'état :le cas particulier du tribunal de l'ordre public »**, dans la Revue de la justice en Algérie 1830-1962,Paris-2005.
32-vilar juan bautista, **« quelques conséquences en Espagne du soulèvement algérien de1881 (dans le courant migratoires hispano-algériens et dans relations hispano-rançaises)** »,Revue de la casa de Velázquez ,Tome 19,Espagne ,1983.
33- Wahel Alfred, « **L'insertion des émigrants Alsaciens-lorrains , la genèse de la colonisation** » , **Revue l'Algérianiste** N°100 , Grenoble, décembre 2002.
34-Yerri Urban, « **L'indigène et le juif comme étrangers dans le droit de la nationalité en Algérie vichyste. À propos de l'article 1erde la loi du 17 février 1942 et de l'article 6 de la loi du18 février 1942 Ultramarines** »,Revue de l'association des amis des archives d'outre-mer, N° 23,Marseille- 2003.

رابعا-الدراسات الأكاديمية

أ-باللغة العربيـة

1-القشاعي فلة،**النظام الضريبي بالريف الجزائري أواخر العهد العثماني1771-1837**، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث،،معهد التاريخ ، جامعة الجزائر-1989.
2-العكروت خميلي،**جامعة الجزائر بين الأهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين (الجزائريين)1909-1956**،مذكرة ماجيستير في التاريخ المعاصر،قسم التاريخ ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ،جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة،2008-2009
3-بلحاج الصادق،**الصحافة العربية في الجزائر بين التيارين الإصلاحي والتقليدي 1919-1939دراسة مقارنة**،رسالة ماجيستير في تاريخ الجزائر الثقافي والتربوي ،قسم التاريخ،جامعة وهران،2012،2011.
4-بن خروف عمار،**الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر وأثرها على الحركة الوطنية** ، مذكرة ماجيستير،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ،جامعة الجزائر 2-2004.

5-بن سالم أحمد،**الأوضاع الصحية للجزائريين في منطقة وادي سوف من خلال أرشيف معهد باستور الجزائر1919-1939**،رسالة ماجيستير في التاريخ المعاصر،قسم التاريخ،كلية العلوم الإنسانية ،جامعة الجزائر،2008-2009
6- بن سليمان عبد النور،**أملاك الأراضي الفلاحية والرعوية في العرف الجزائري منطقة ترارا أنموذجا** ،دراسة أنثروبولوجية ريفية،أطروحة دكتوراه ،قسم الثقافة الشعبية ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،السنة الجامعية 2011-2012،جامعة أبو بكر بلقايد،تلمسان.
7-بن رنين بلقاسم،**الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي**،رسالة ماجيستير في الأنثروبولوجيا ،جامعة أبوبكر بلقايد ،تلمسان 2000-2001.
8-بن نكاع أحمد مولاي،**ملامح الهوية في السينما الجزائرية** ،أطروحة الدكتوراه ،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة وهران -2012-2013.
9- براهيمي نادية،**الوقف وعلاقته بنظام الأموال في القانون الجزائري** ، رسالة الماجستير في العقود والمسؤولية، معهد الحقوق والعلوم الإدارية، بن عكنون، جامعة الجزائر،1996.
10-بوروبة حميد،**جهود المستشرقين الفرنسيين في الدراسات اللهجية في الجزائر المجلة الإفريقية نموذجا** ،رسالة ماجيستير ،كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والانسانية،جامعة أبي بكر بلقايد،2007-2008.
11- بوزار حبيبة ،**مكانة الفن التشكيلي في المجتمع الجزائري دراسة ثقافية فنية** ،أطروحة دكتوراه قسم الفنون، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان ،2014/2013.
12-بوزيتون عبد الغني،**المسح العقاري في تثبيت الملكية العقارية في التشريع الجزائري**، مذكرة ماجسيتير في القانون ،كلية الحقوق ،جامعة الإخوة منتوري،2009-2010.

13-بوالنوارمصطفى،**صورة المرأة في الخطاب المسرحي الجزائري "مولات اللثام"أنموذجا** ،مذكرة ماجستير،كلية الآداب اللغات والفنون،جامعة وهران،2010-2011
14-جبّور أم الخير، **الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيونقدية** ، أطروحة دكتوراه في النقد الأدبي ، كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة وهران،2010-2011.
15- ختالة عبد الحميد ،**المسرح الجزائري النص والعرض والتلقي –تأصيل نظري ومقاربة في الأنساق المعرفية-**، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي،كلية الآداب واللغات ،جامعة باتنة1 ،2015-2016.
16- صالحي توفيق،**المجتمع والعمران في مدينة سكيكدة خلال الحقبة الكولونيالية (1838-1962)**،مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث ،جامعة منتوري،قسنطينة،2008-2009.
17- غرينة عبد النور،**الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية (1840-1939)**،مذكرة ماجيستير ،جامعة الحاج لخضر ،باتنة، 2009-2010.
18- فركوس صالح وآخرون، **التشريعات المنظمة للاستيطان الاستعماري في الجزائر وآثارها على المجتمع الجزائري**، مشروع بحث وزاري في إطار :البرنامج الوطني للبحث (pnr)، ،مخبر التاريخ للأبحاث للدراسات المغاربية قسم التاريخ ، جامعة 08ماي1945،2010.

19-قراوي نادية،**دور الريف في الغرب الجزائري في مسار الثورة التحريرية 1954-1962**،مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،قسم التاريخ وعلم الآثار ،كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ،جامعة وهران،2010-2011.
20-قطاف سارة، **كتابة سيناريو الأفلام التاريخية من خلال عينة من الأفلام التاريخية الثورية "العصا والأفيون"،"نوة"،"الخارجون عن القانون"،"زبانة"-دراسة تحليلية وصفية**- مذكرة الماجيستير ،كلية الإعلام ،جامعة الجزائر-2013-2014
21- قماس زينب،**المجمعات السكنية الحضرية بمدينة قسنطينة ،واقعها ،متطلبات تخطيطها** ، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الحضري ،قسم علم الاجتماع والديموغرافيا ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ،جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة ،2005-2006.

22-لمباركية صالح ،**النص المسرحي العربي في الجزائر 1922-1972**،أطروحة دكتوراه في الأدب العربي الحديث، قسم التاريخ وآدابها ،جامعة العقيد الحاج لخضر ،2002-2003.
23- مريوش أحمد،**الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية والثورة التحريرية**،أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،جامعة الجزائر،2005-2006.
24-مجاهد يمينة،**تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830-1962**،أطروحة دكتواه في التاريخ الحديث والمعاصر،قسم التاريخ وعلم الآثار ،كلية العلوم الانسانية والعلوم الإسلامية،جامعة وهران 1،الجزائر-2017-2018.
25- منصور كريمة ،**اتجاهات السينما الجزائرية في الألفية الثالثة** ،أطروحة الدكتوراه في الفنون الدرامية،كلية الآداب واللغات والفنون،جامعة وهران،السنة الجامعية 2010-2011.
26- منخرفيس يمينة ،**صورة المرأة في الفن الاستشراقي "دراسة تحليلية سيميولوجية لعينة من اللوحات الفنية للفنانين "أوجين دولاكرواو"ايتيان دينى"**،مذكرة لنيل شهادة الماجيستير ،قسم علوم الإعلام والاتصال ،جامعة الجزائر- 2010
27-كركار عبد القادر،**الطائفة اليهودية في الجزائر1830 - 1900 التجنيس و ردود الفعل** ، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر ، جامعة الجزائر2، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، 2008.
28-يزيز عيسى،**السياسة الفرنسية اتجاه الملكية العقارية في الجزائر1830-1914**،مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،جامعة الجزائر،2008-2009.

ب-باللغــة الفرنســية

1-Bencheikh-El-Fegoun Abbassi Fatiha, **L'impact des lois foncières coloniales sur la situation socio-économique des paysans Algériens, de 1873 à 1911**, Thèse de doctorat, Département de sociologie et de

démographie , Faculté des sciences humaines et sociales , l'Université Mentouri de Constantine,2007.

2- Bendjaballah (souad) , **Droit foncier étatique et stratégies locales les réponses plurielles à la violences des politiques domaniales en Algérie entre 1962 et1995**,Thèse de doctorat, Option Anthropologie juridique, Institut de droit et sciences juridique ,Université de constantine , Juin 2009.

3-Gomez Bellomia Catherine,**Construction/reconstruction identitaire dans le discours des pieds-noirs :Etude de cas** ,thèse de doctorat, Faculté des lettres, Académie d'Aix-Marseille , Université d'Avignon et des pays de Vaucluse, Décembre 2009.

4- Hicham Mohamed(Bahlouli)**, l'enquête poste censitaire une mesure de l'exhaustivité et de la qualité de collection des données recensement réalisé en Algérie** ,mémoire de magistère en démog - raphie ,faculté de sciences sociales ,université d'Oran ,2009-2010.

Lucile Girard ,**Des femmes en blanc La " fabrication " des infirmières ,** Thèse de Doctorat en Sociologie Université Bourgogne Franche-Comté, 2018.

5-Muyl(Marie),**Les français D'Algérie :socio- histoire d'une identité**, Tome1,Thèse doctorat ,soutenu le12 décembre 2007,UFR de science politique Université de paris-panthéon –Sorbonne , France.

6-Nedjai Fatiha,**les instruments d'urbanisme entre propriétaire foncier et application cas d'étudela ville de Batna,** Mémoire présenté en vue de l'obtention Du diplôme de Magister, Département d'architecture, Faculté des sciences et de la technologie, Université Mohamed Khider - Biskra, 2013.

7-Renucci Florence**, Le statut personnel des indigènes : comparaison entre les politiques juridiques française et italienne en Algérie et en Libye (1919-1943)**, Thèse pour le doctorat en droit, Aix-en-Provence, 2005.

خامسا-الملتقيــات بالفرنســية

1-Guy pervillé , « **pour en finir avec ''les pieds-noirs''** »exposé tenu au colloque « les mots de la colonisation », université de bordeaux 3,22-24janvier 2004.

-فـهرس الأعلام

-فـهرس الأماكن

- فهرس الجداول والخرائط

فهـرس الخـرائط و الأشكال البيانية

-فهرس المـوضوعات

-أ- فهـــرس الأعلام

-أ-
أحمد باي 15
الأمير عبد القادر 39 ،54، 299،66-
أنييلي 375
ايبوليت دوباسي 48
أوغيستين دوفيالار 53
اسماعيل اوربان 69
أوربان جوردان 60
أستيهازي 71
المقراني 72
الحداد 72
أوبو 161
أندري جيد 280،168
أروون فيرباخ 190
إيميلي سليمان 200.
ألفريد بيل 420
ألبرتيني 420.
بربريغر 434
الكونت غيو390
ألبير كامو 251، 255، 276
اوبرتين أوكلار 272،270،250
إيزابيل إبرهارد 250، 271، 272
أوغيس روبي(موزيت)253
أليسا رهيس 260، 273، 274
أوجين دولاكروا 284، 285، 286، 289، 300-
إيتيان ديني 295، 296، 300،297
-إمانويل روبلاس 311-

- ت-

تيوفيل فوارول 51-
توماس أوربان 469-
توكفيل 159.

-ج-

جول ديفال 28-
جيروم نابليون 462-
جون ديرايو 477

-غ-

غي نيمار ص30-
غيو ص60-
غينار ص 416

-ف-

فيلار ص33 –
فرديناند دوشان 254،251،، 268، 269،
فرومنتان 288، 290، 300
فيليكس مسغيش 322، 323
فروجر 351
فولي 137
فالي 55
فاني باربريغر 60
فالان 129
فريديريك باردوبيت 120
فولي 137
فيكتور لوفران 188 فوفري 418
فيكتور باروكان 468.

-ك-

كليمو دي فارنوا 18
كاتب ياسين 275، 281
كلوزيل 32، 45،44، 46، 48 ، 49،
52،304، 305، 421
كسافي دو سادو 48
كلود ليوزو 278
كسافي يوكونو 152
كريميو 467.

-ل-

لافيجري 29 ،218، 374
لويس برتراند 248، 253، 276،261
لوسي 29
لخضر حامينة 338
لاموريسيير 40، 60
لويس لوكوك 255، 256، 257، 269-
لويس بلان 47
لاباسي 69،

جيرارد 45-
جوني فرعون387-
جان بومي 255، 256، 257، 258
جول فيري 72،395، 399،411
جورج مارسي 298، 420،300.
جان جاك جوردي 158
جورج أبيض 313
جورج هاردي 399.
-جوليان دوفيفي 325، 326-
جون لوك غودار 333-
جول كامبون 404.
جان ديني 240
جان عمروش 280.
-خ-
خوان أوليفار 32.
-د-
دو كاترفاج –28
دوسيريني 466
دونيون 376
دوبوني 49
دامريمون 50
دوروفيغو 51
دورليان 51
دوروفيغو 459
دوغيدون 71،111، 396، 449
ديمونتاس ، 203، 205،
150،154-دي شاسلو ص 183-
دي بروغلي 212-
روشفوكو 48
ريني جيل برولت 365
روبرت راندون68،275 ، 69
راندون بيهيك 452
ريكو 148
ران باسي 433
روبير راندون 264، 267، 275
رشيد قسنطيني 310،314،316
روني فوتي 337، 340-
لوبيشو 388، 390
لويس بارتراند ص168
لويس فيليب 182
لويس أنطوان بافي 218
ليون روش 391
لويس تيرمان 404.
لوكوربيزيي 237
لويس بريزني 402
ليفي بروفنسال 420.
ليتورنو 429
لوميير ميليا 321، 322
-م-
ماركيز مونتيسكيو42
ميتيولاسكي 437
ماريوس موتي 455
مالاكوف 42
موريس فيوليت161، 372، 457
محمد إيسياخم 302
مارتان 137
محمد كحوال 460
مايو 367
ماريوس ديبوزو287.
ماري آلب 159
مادلين براس 378
محمد ديب 281، 282-
مارينغو 227
ماكماهون 392، 393
مولود فرعون 281
مارسيل لوتويلار 237.
مغالي بواسنار 251، 261، 263
مصطفى الأشرف 423
محمد بن يوسف أطفيش 436
مايسكراي 432، 434
ماري بوجيجا 270
ماكسيميليان هيلار 273
محي الدين بشطارزي 310
مصطفى كاتب 319

-ز-
زيقلر ص30.
-س-
سكوت 39
ستيفان جزال 159
ستيفانو بولي 367، 406
ستسفان غزال420.
-ش-
شارل فورييه 15
شاسيريو 285، 288
شارل جونار ص 226، 234،240،291،
293، 310، 404
شاو 416
شارل تيليار 309
-ع-
عمر راسم ص403.-
علي الشريف طاهر 315،
علي سلالي 317
عماربلخوجة ص424.
.

محمد راشدي 338
-ن-
نابوليون الثالث 67، 68، 69 ، 70-183،
نوا 416،431.
-ه-
هنري غارو 179
هنري بورجو 478
هنري ماتيس 285، 294، 295، 301-
هنري بروي 418
هنري كرية 311، 320
هانوتو 429
-و-
وليام سانت جون 38
وارنييه 436

-ب- فهـــرس الأماكن والبلدان

-أ-
الألزاس واللورين 19، 25، 28، 30، 31،
41 ،81
ألمانيا 23، 30 ، 31
السان 31
ألميريا 33
الحروش 95
أدرار 97
اسبانيا 309
الأغواط 97
الأرجنتين 37
أيطاليا 38،177
أورليان فيل 83
العطاف 374
أفينيون 53
القليعة 55

سيدي فرج 80
سطيف 90، 94، 96-
سانت جول 53
سطاوالي 70
سوق أهراس96.
-ش-
شرشال 55، 82
شراقة 70، 80
-ع-
عين طاية 33
عين البيضاء 33
عين تادلس 89
عزابة 96
عنابة 99، 102 عين طلبة 214.
-غ-
غيليزان 191

البليدة 55، 68.
-ب-
بولندا 23
بوردو 23
بازينكور سير صوكس 27
بريطانيا 30
برج الكيفان 33، 81
برج بوعريريج 94
باريس 7
بومرداس97
البليدة 79
بير خادم80
باتنة 90،97
باب الزوار81
بوفاريك 81
-ت-
تريكور 27
تلمسان 35،79
تونس 38،310
تادلس 79
تبسة 97
-ج-
جنيف 23 .
-د-
دانكارك 40
دالي براهيم 80
دويرة 80
دلس 83.
-س-
سويسرا 23، 42
سيدي بلعباس 35، 86
سان كلود86
سان لوي86
سانت ليوني86
سكيكدة 41، 195،77، 219، 307
سور الغزلان 79
-غرداية 374.
-ف-
فرانكومنتوا 24، 25، 31
فويكور 27
فرنسا 37، 40، 64 ، 145
-ق-
قسنطينة 41،62، 99، 93، 103، 104، 111، 138، 175، 213، 215، 219، 235، 232، 307- القالة 96- القليعة 82- القبة 81.
-ك-
كورسيكا 23، 25
كندا 35.
-ل-
لاهوت صاون 25، 28
لاهوت راين 26، 28
لابوش دي رون 31.
-م-
متيجة 20، 27
معسكر 35
مصر 35
مالطا 40
مليانة 65،84
معسكر 81، 90
موزاية 83
المدية 84-306
مارينغو 82
مستغانم 89،90
مارسيليا 17
-و-
وهران ،85،77،34،24، 90، 103، 104، 111، 175
ورقلة 97، 213، 219
و م أ 37.

ج- فهرس الجداول

أهم المناطق العشر الأكثر تصديرا للمهاجرين الفرنسيين وأعداد المهاجرين في سنتي 1857-1858	ص15
عدد المهاجرين من المناطق العشر الأكثر تصديرا للمهاجرين من فرنسا نحو الجزائر وبقية العالم في سنة 1858	ص16
العائلات المهاجر من الألزاس إلى قسنطينة والجزائر العاصمة	ص18
تطور الهجرة الإيطالية نحو الجزائر وتونس نهاية القرن التاسع عشر، مابين (1881-1899)	ص26
تطور في أعداد المهاجرين الألمان من سنة 1833إلى غاية 1876	ص29
جنسيات المهاجرين الأوروبيين غير الفرنسيين إلى غاية1838	ص31
أشكال الاستيطان وأهدافه ووسائله من بداية الاحتلال إلى غاية مطلع القرن العشرين	ص،ص66،65
توزيع المستوطنين الأوروبيين في المدن الكبرى 1838	ص68
أعداد المستوطنات الريفية المنشأة ،والتعداد العام للمستوطنين في الجزائر مابين 1841-1920	ص،ص70،69
تعداد سكان المدن والمستوطنات خلال سنتي 1948-1954	ص83
مساحة الأراضي المصادرة من الأهالي بموجب قانون الحجز العام والموجهة للاستيطان في العمالات الثلاث سنوات(1872-1875)	ص105
حصيلة القوانين العقارية ونوعية الملكية ،ومساحة الأراضي الممنوحة للمستوطنين إلى غاية 1934/12/31	ص116
نمو السكان الأوروبيين مابين 1833-1851	ص124
تطور السكان الأوروبيين (الهجرة والزيادةالطبيعية)	ص128
وفيات الأطفال في الجزائر للأهالي والأوروبيين	ص130
اختلاف نسب الوفيات لدى الجنسين لدى الأوروبيين 1876-1891	ص132
توزيع السكان حسب العرق لسنة 1858	ص134
تطور الكثافة العامة للمستوطنين في الريف ما بين 1863-1877	ص،ص136،135
عدد المستوطنين في المستوطنات الريفية والمدينة 1886 -1954	ص136
توزيع الجنسين حسب العمالات لسنة 1931	ص138
توزيع العمال الأوروبيين حسب النشاط الاقتصادي	ص139
تطور أعداد اليهود في الجزائر ما بين 1851-1931	ص173

تطور الزواج بين الأوروبيين ما بين 1830-	ص193
مقارنة لمعدلات أعمار الزواج للأعراق الأوروبية في الجزائر مقارنة مع بلدانها الأصلية في الفترة الممتدة ما بين (1874-1878)	ص194
عدد الزيجات بين الأوروبيين ومع الأهالي سنتي 1882-1884	ص196
عدد الزيجات بين اليهود والمستوطنين الأوروبيين	ص198
حالات الزواج بين المستوطنين واليهود مابين 1830-1900	ص197
عدد حالات الزواج بين الأوروبيين والمسلمين مابين 1830-1938	ص201
عدد الأطفال المولودين بطريقة شرعية والذين ولدوا بطريقة غير شرعية في الجزائر ما بين1840 -1938	ص203
مقارنة بين أعداد المواليد غير الشرعيين في كل من الجزائر وفرنسا1841-1910	ص204
نسبة الأطفال غير الشرعيين المعترف بهم من قبل آبائهم الأوروبيين1897-1899	ص206
مقارنة بين نسب وفيات المواليد الجدد بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين سنة 1891	ص207
عدد الأطفال غير الشرعيين المعترف بهم من قبل إدارة الاحتلال ما بين 1873-1938	ص208
تطور حالات الترمل مابين 1856-1936.	ص208
جدول لأهم الأعمال المسرحية لأوروبي الجزائر (1830-1920)	ص،ص315،314
المعالجين من المستوطنون الأوروبيون والأهالي في المستشفيات العسكرية	ص389
المعالجين الأوروبيين يوميا في المستشفيات الجزائرية في العمالات الثلاث وأهم الأمراض المنتشرة والمعالجة لسنة 1882	ص390
الأسرة المتوفرة للمستشفيات في محيط عمالة الجزائر 1884 ،وتكاليف	ص،ص392،391

الإقامة اليومية للمرضى المدنيين والعسكريين وأعداد الحالات المعالجة	
مقارنة في الاستفادة من الخدمات الطبية والاستشفائية بين المعمرين والأهالي ما بين 1939-1947	ص392
مقارنة بين أعداد التلاميذ الأوروبيين والأهالي في المدارس الرسمية سنتي 1920-1928	ص409
تطور أعداد الثانويين من أوروبيين وأهالي مابين1924-1938	ص411
تطور أعدادالطلبة لمدرسة الطب والصيدلة(1860-1890)	ص419
تطور أعدادالطلبة لمدرسة الحقوق (1879-1884)	ص419
توزيع أعداد الطلبة الأوروبيين والأهالي لكل تخصص (نوفمبر1954)	ص420
جدول للمقارنة بين المتهمين بمحكمة الجنح مابين 1881-1887	ص466
جدول قانون الأهالي في العمالات الثلاث1905-1906	ص466
المسجلة ضد الأهالي في البلديات المختلطة ما بين 1914-1925	467
عدد من الصحف والمجلات الأهلية الصادرة شهريا سنة1831	487

د- فهـــرس الخـرائط و الأشكال البيانية

منحنى بياني يمثل تطور عدد المستوطنين والماهجرين في الجزائر (1837-1866)	ص07
أعمدة بيانية لتطور عدد المستوطنين ما بين 1856-1945بفعل ظاهرة الهجرة(يهود،فرنسيين ،غير فرنسيين)	ص10
منحنى الزيادة السكانية للأهالي والمستوطنين ،وحجم التغيرات الديمغرافية الحاصلة جراء عمليات الاستيطان في مدينة قسنطينة(1843-1896)	ص84
خريطة لأهم المستوطنات والمقاطعات في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي	ص90
والأعمدة البيانية التالية تمثل الأراضي التي مسها التحقيق حول الملكية ،في كل من الجزائر ووهران ، و عنابة ،حتى 31ديسمبر 1849	ص95
دائرة نسبية لتوزيع الأراضي في عنابة وفق مرسوم جويلية 1846	ص96
دائرة نسبية لمساحة الملكية الأوروبية حتى سنة 1954	ص117
منحنى بياني يمثل نسب الوفيات لدى الأهالي والمستوطنين(1885-1955)	ص130
أعمدة بيانية تمثل تعداد الإناث لكل 1000من الذكور (1852-1954)	ص140

دائرة نسبية تمثل نسب الزيجات بين مختلف الأعراق بالجزائر	ص202
نسب المعالجين في المستشفيات الجزائرية من المستوطنين الاوروبيين سنة 1882	ص390
تطور أعدد الطلبة الأوروبيين في مدرسة العلوم بين 1879-1930	ص417

ه- فهرس المحتويات

عنوان البحث:الواقع الاجتماعي والثقافي للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر وأثره على الأهالي المسلمين (1871-1945)	الصفحة
إهـــداء **شكـر وتقديـر** **قائـمة المختصرات** **مقـدمة**	أ-ل
الفصل الأول :السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر مابين 1830-1945	124-15
أولا:الهجرة الأوروبية نحو الجزائر مابين 1830-1945	43-15
1- مسار الهجرة الأوروبية نحو الجزائر وتحدياتها	23-15
2-المناطق الكبرى للهجرة الأوروبية نحو الجزائر	34-23
ثانيا: تطور السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر وأهدافها مابين 1830- 1945	75-44
-الجهود الأولى لتعمير الجزائر " الاستيطان الضيق والعشوائي " 1830-1840)	56-44
2-الاستيطان الرسمي في عهد الجنرال بيجو والتعمير بالسيف والمحراث ، "أو عصر الجندي المزارع"(1841-1848)	62-56
3-الاستيطان في عهد الجمهورية الثانية ،طموحات كبيرة ونتائج هزيلة (1848-1851)	66-63
4-نابليون الثالث وازدهار الاستيطان الحر(1851-1870)	71-66
5-الجمهورية الثالثة وعودة الاستيطان الرسمي الكبير (1871-1940)	75-71

ثالثا:المراكز والقرى الاستيطانية الأوروبية ما بين 1870-1945	97-75
1-المراكز الاستيطانية في إقليم الجزائر	84-78
أ-المنطقة المدنية	84-78
ب-المنطقة العسكرية	84
2-المراكز الاستيطانية في وهران	91-84
3-المراكز في قسنطينة	97-91
أ-المنطقة المدنية	96-91
ب- المنطقة العسكرية	97-96
رابعا: آليات نقل الملكية للمستوطنين الأوروبيين	124-98
1-التشريعات والنصوص القانونية قبل عام1870	110-98
2--التشريعات المتعلقة بالاستيطان ومصادرة الأراضي مابين 1871-1945	124-110
-خلاصـــة الفصل الأول	125
الفصل الثاني:الواقع الاجتماعي للمستوطنين الأوروبيين (1870-1945)	224-127
أولا:الدراسةالديموغرافية للمستوطنين الأوروبيين (النمو،التوزيع ،التركيب)	145-127
1-عوامل النمو الديموغرافي للمستوطنين الأوروبيين ما بين (1870-1945)	138-127
أ-الهجرة والنمو السكاني	134-127
ب-وفيات الأطفال كعامل مؤثر في تناقص النمو السكاني خلال القرن 19	138-135
2- الكثافة العامة والتوزيع السكاني للمستوطنين الأوروبيين1870-1945	142-138
3- التركيبة السكانية العامة للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر	145-142
4 - دور الإحصاء السكاني في تنظيم الوتيرة السكانية في الجزائر	151-146
ثانيا :العلاقات بين مكونات المجتمع الأوروبي وفشل نظرية الانصهار العرقي	179-152
1-خصائص المجتمع الأوروبي في الجزائر	165-152
أ- الانفصام الاجتماعي داخل المجموعة الأوروبية	158-152
ب-العنصرية ضد الآخر،واستحالة التعايش الاجتماعي	165-158

2-التجنيس الأتوماتيكي عام 1889ونمو النزعة الانفصالية لدى أوروبي الجزائر	169-165
ثالثا:يهود الجزائر المفرنسين بين الإدماج عن طريق التجنيس ومشكلة معاداة السامية	192-170
1-البنية العرقية –الثقافية (Ethnoculturelle)و تطورالحياة الاجتماعية ليهود الجزائر داخل المجتمع الأوروبي(1871-1945)	182-170
أ -الأصول العرقية ليهود الجزائر	173-170
ب-الحالة الاجتماعية لليهود المتجنيسين داخل المجتمع الأوروبي	176-173
ج-الثقافة اليهودية والتغريب أو أزمة الهوية المستمرة	182-176
2-مسألة تجنيس يهود الجزائر وموقف المستوطنين الأوروبيين منها	192-182
أ-صدور قرار كريميو 24أكتوبر 1871 وتداعياته المختلفة	188-182
ب- مستوطنون ضد اليهود ونشأة حركة الهيباي المعادية للسامية نهاية ق 19	192-188
رابعا: الظواهر الاجتماعية والروابط الأسرية داخل المجتمع الأوروبي	210-193
1- الزواج بين الأعراق الأوروبية وانعكاساته على المجتمعين الكولونيالي والأهلي	203-193
2-تزايد مشكلة إنجاب الأطفال غير الشرعيين (الأسباب وغياب الحلول)	208-203
3-ظاهرة الطلاق و الترمل في المجتمع الأوروبي	210-208
خامسا: الدين و النشاط الكنسي داخل المجتمع الأوروبي	224-211
1- الجمعيات والكنائس ودورهما الديني والاجتماعي في المجتمع الأوروبي	214-211
2 - الكنيسة و رجال الدين ودروهما في المجتمع الأوروبي	219-217
أ-دور أسقفية الجزائر الديني	219-217
ب-العبادات والأعياد الدينية للمستوطنين المسيحين	224-219
سادسا :العمارة الأوروبية وتغير نمط العمارة الجزائرية	244-225
1 -إدخال نمط العمران الأوروبي وأثره على العمارة المحلية (الجزائر العاصمة كأنموذج)	233-225

2- التحديث في العمارة الكولونيالية والتوجه نحو المعمار الموريسكي المتوسطي مطلع القرن العشرين	240-234
3-الإنشاءات العمرانية الكبرى "حديقة الحامة وبريد الجزائر كمثال للهندسة الكولونيالية "	242-240
4-أثر العمران الأوروبي على العمارة المحلية والمجتمع الأهلي	244-242
خلاصـة الفصـل الثـاني	245
الفصل الثالث : الواقع الثقافي للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر وأثره على الأهالي المسلمين ما بين (1870-1945)	356-246
أولا:الأدب الكولونيالي في الجزائر	283-247
1- ماهية الأدب الكولونيالي والتيارات الأدبية في الجزائر ما بين 1870-1945	259-247
2-مضمون الرواية الكولونيالية ،وثلاثية "الوطن والاغتراب والأهلي" في كتابات الأدباء المستوطنين	270-259
3-الأدب النسوي الكولونيالي والنضال لتحرير المرأة الأهلية	275-270
4- الأدب الجزأري المتوسطي ، نحو أدب جديد يكرس لثقافة التعدد والتعايش	278-275
5-تأثيرات الأدب الكولونيالي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية	283-278
ثانيا:الفنون الجميلة	303-284
1- سحر الشرق وصورة الأهلي المهزوم في لوحات الفنانين الكولونياليين خلال القرن التاسع عشر	291-284
2-عهد جونار وانبعاث الفنون التشكيلية الكولونيالية	294-291
3-أعمال خالدة ورسائل فنية متناقضة ،دراسة لأعمال"إيتيان ديني،وهونري ماتيس "	297-294
4-تأثيرات المدرسة الفنية الكولونيالية في نشأة المدرسة التشكيلية الجزائرية "الإخوة راسم ،إسياخم ،باية محي الدين، كنماذج"	303-297
ثالثا: المستوطنون والأهالي في فن المسرح "الرسائل والمضامين"	320-304

1-المسرح الكولونيالي في الجزائر (النشأة والمحتوى)	313-304
2-نشأة المسرح الوطني وقضاا الشعب الجزائري	320-313
رابعا:المستوطنون والأهالي في فن السينما الكولونيالية	342-321
1- تطور السينما الكولونيالية في الجزائر(من الفيلم الغرائبي إلى الفيلم الوثائقي)	330-322
2-الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر وانطلاقة السينما الكولونيالية	331-330
3-صورة الأهلي والأوروبي في المشهد السينمائي الكولونيالي	336-331
4-أثر السينما الكولونيالية في ميلاد السينما الجزائرية	342-336
خامسا:احتفالات مستوطني الجزائر بمئوية احتلال الجزائر سنة 1930 وأثرها على الواقع الثقافي للأهالي المسلمين	355-343
1-التحضير لاحتفالات مئوية احتلال الجزائر سنة 1930	347-343
2-النشاطات والمظاهر الاحتفالية	350-347
3-إقامة النصب التذكارية المخلدة لرموز الاحتلال	352-351
4-موقف الأهالي الجزائريين من الاحتفالات المئوية	355-352
خـلاصــة الفصــل الثالــث	356
الفصل الرابع:واقع المؤسسات السوسيوثقافية الكولونيالية وأثرها على الحياة العامة المستوطنين والاهالي	479-358
أولا: واقع المؤسسة الصحية في الجزائر ونتائج العمل الطبي على المستوطنين والأهالي	386-358
1-الوضع الصحي العام للمستوطنين والأهالي مابين 1870-1945	363-358
2-جهود الأطباء الاستعماريين في مواجهة الأمراض والأوبئة	373-363
أ-الأطباء العسكريون	
ب-الطب المدني الحديث	
3-الجمعيات المسيحية الطبية في الوسط الأهلي بين الواجب الانساني و الهدف الديني	375-373

4-التلقيح كأسلوب حديث للوقاية من الأمراض بين القبول والرفض	377-375
5-الطبيبة والممرضة الأوروبية لاختراق المجتمع الأهلي	380-377
6-المستشفيات والوسائل الطبية	386-380
ثانيا:المستوطنــون والأهالــي في المنظومة التعليمية الفرنسية	439-387
1-التعليــم العــام	405-387
أ-الوضعية العامة للتعليم العام قبل 1870	395-387
ب-التعليم الفرنسي وانعكاساته على المستوطنين الأوروبيين والأهالي المسلمين مابين 1870-1945	405-396
2-التعليم الجامعي	439-405
أ- نشأة جامعة الجزائر وتطور التعليم العالي 1870-1945	410-406
ب-تأسيس جامعة الجزائر وتطورها 1909 - 1945	411-410
ج- تطور أعداد الطلبة والعلاقة بين الطلبة المستوطنين والأهالي الجزائريين	415-411
3-الأبحاث الجامعية والدراسات الأكاديمية الاستعمارية حول الجزائريين	439-416
أ- الدراسات التاريخية	425-416
ب-الدراسات الاستشراقية والأنثروبولوجية-الإثنوغرافية	435-426
ج- توظيف الفيلولوجيا لمحاربة اللغة العربية	439-435
ثالثا:المستوطنون وتعسف المنظومة العدلية على الأهالي المسلمين	457-440
1-النظام القضائي مابين 1830-1870	444-440
2-النصوص والتشريعات المنظمة للقضاء في الجزائر خلال 1870-1945	447-444
3-الممارسة القضائية وأثرها على المستوطنين والأهالي	454-447
أ-محاربة القضاء الإسلامي	450-449
ب-التمييز في الأحكام القضائية بين المستوطنين والأهالي	454-450
4-قانون الأهالي مثالا لتحيّز العدالة الاستعمارية ورمزا لعنصرية المستوطنين	457-454
رابعا:المستوطنون والممارسة الإعلامية في الصحافة المكتوبة والإذاعة بين العمل الأخلاقي والميول الاستعمارية	478-458

1-الصحافة المكتوبة	472-458
أ- الصحافة الكولونيالية ومهمة الدعاية للمشروع الاستعماري	464-458
ب-اتجاهات صحافة المستوطنين وقراءة تحليلية لأهم صحفها	472-464
2- الإذاعـة	
3-الصحافة الوطنية والدفاع عن قضايا الاجتماعية والثقافية للأهالي	474-472
أ-تطور الصحافة الجزائرية مابين 1893-1945	476-474
ب-دور الصحافة الأهلية الجزائرية في مواجهة الصحافة الكولوينالية	478-477
خلاصة الفصل	479
خاتــمة	486-480
ملاحـق البحـث	495-487
قائــمة المصادر والمــراجع	519-496
الفهــارس	531-520
أولا :فهرس الأعلام	523-521
ثانيا:فهرس الأماكن	524-523
ثالثا :فهرس الجـداول	527-525
رابعا:فهرس الخرائط والأشكال البيانية	527
خامسا:فهرس الموضوعات	534-528

ملـــخص الأطروحـة

يتناول هذا البحث مسألة وجود المستوطنين الأوروبيين في الجزائر في الفترة الممتدة بين سنوات (1870-1945)وهي أوّج مرحلة من مراحل الاستيطان الأوروبي في الجزائر، وأكثرها حيوية ونشاطا ،وقد قدمت الحكومات المدنية المتعاقبة خلال الحكم الجمهورية الثالثة لدعم الاستيطان وتحسين حياة المستوطنين كل الوسائل المادية والمعنوية الممكنة ،ويحلل الواقع الاجتماعي والثقافي للأقلية الأوروبية في الجزائر ،من حيث وتنوعها العرقي والديني ، وخصائصها الديمغرافية ،ومميزات حياتها الاجتماعية وحقيقة روابطها الأسرية وعلاقاتها الداخلية،ويسعى لتقديم جوانب من إنتاجاتها الثقافية والمعرفية والفنية ،ومدى تأثيرات كل ذلك الحراك الاجتماعي والزخم الثقافي على المجموعة الأهلية لاسيما في حياتها الاجتماعية ، ومكونات هويتها،ومقوماتها الثقافية .

الملخص باللغة الإنجلزية

ملـــخص الأطروحة

***باللغة العربية**

يتناول هذا البحث مسألة وجود المستوطنين الأوروبيين في الجزائر في الفترة الممتدة بين سنوات (1870-1945)وهي أوّج مرحلة من مراحل الاستيطان الأروبي في الجزائر ،والذي قدمت له الحكومات المدنية المتعاقبة خلال الحكم الجمهورية الثالثة كل وسائل الدعم الممكنة،ويحلل واقع حياة الأقلية الأوروبية من حيث تنوعها العرقي والديني وخصائصها الديمغرافية والاجتماعية والثقافية ،وروابطها الأسرية وعلاقاتها الداخلية ،ومدى تأثيرات ذلك الواقع الاجتماعي والثقافي على المجموعة الأهلية لاسيما في حياتها الاجتماعية ،ومكونات هويتها،ومقوماتها الثقافية .

***باللغة الإنجلزية**

This research is about the presence of european Settlers in Algeria during (1870-1945) wich is a decisive stage of european settlement in Algeria , the most active ,and successive during the third republican rule ,the civil govenment had provided the settler with all the support they needed to improve their living conditions . depending on the social, cultural analysis of the european minority in Algeria, also its identity, religion and its demographic characteristics, the social features and its internal relationships it seeks to present different aspects of its cultural , cognitive and artistic outcomes; Moreover the extent of the social movement and cultural momentum that affect the community Especially in the social life, its identity and its cultural components.